

مجموعت قاسم

الإنسان والفيلسوف



١٩٧٢ - ١٩١٣

إشراف

د. حامد طاهر

أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

كتاب تذكاري

اهداءات ٢٠٠٢

أد/ السيد محمد بدوي

الاسكندرية

محمّد قاسم

الإنسان والفيلسوف

١٩١٣ ~ ١٩٧٣

كتاب تذكاري

إشراف
د. حماد طاهر
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

طبع هذا الكتاب على نفقة :

الطاهر مكي	حامد طاهر
عبد الحميد مذكور	حسن الشافعي
فاروق شوشة	حمدي السكوت
محمد السيد الجليند	السعيد بدوي

محمود الربيعي

جميع الآراء الواردة في الكلمات والأبحاث
على مسئولية أصحابها

ترتيب الأسماء الفبائي

القسم الأول

الرجل وأعماله

* تصدير

* كلمة زوجته

* حياته في سطور

* إنتاجه العلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

محمود قاسم .. هو واحد من كبار الرواد في دراسة الفلسفة الإسلامية بمصر ، والعالم العربى . وقد استطاع من خلال بحوثه ومؤلفاته أن ينقل البحث فى الفلسفة الإسلامية من مجرد التعريف العام بها ، أو الحديث الخطائى عنها - إلى مستوى دراستها دراسة موضوعية ، تحليلية - مقارنة . وقد كان فى هذا صارماً إلى أبعد حد : فالتص الفلسفى لديه هو مادة التحليل الأولى ، ومضمونه هو أساس التقييم ، والهدف منه هو الذى يحدد اتجاه صاحبه .

وشخصية محمود قاسم هى الأخرى متميزة بطابع الجدية . وقد كان الحوار معه من أصعب الأمور ، وخاصة على أولئك الذين لا يحسنون استخدام عقولهم . فهو لا يقبل هذراً ولا فوضى . والألفاظ لديه ينبغى أن تكون على قدر معانيها . فالتزيد مرفوض ، والفيهقة مستحيلة . لذلك كانت دائرة أصدقائه ضيقة جداً ، ومعارفه قليلين . وصارت الفكرة التى شاعت عنه : أن الصغار يخشون منه ، والكبار يهابونه .

وهب محمود قاسم حياته كلها للجامعة : تعليمياً وبحثاً . وظلت اهتماماته الرئيسية هى اهتمامات أستاذ جامعى يسعى إلى أن يرتفع بعمله إلى أعلى مستوى ممكن . وكان يعتقد أن قدراته الخاصة لا تنقل بحال من الأحوال

عن قدرات أى باحث مماثل له فى أوربا . لذلك فإن حوارهم مع المستشرقين كان يتسم بالندية . وكان يصحح الكثير من آرائهم بالاعتماد على المنهج العلمى الحديث فى البحث .

إن مثل هذه الشخصية العلمية المتميزة كانت تحتاج إلى البيئة الملائمة لكى تقدم أطيب الثمار . وقد عمل محمود قاسم فى ظل ظروف غاية فى الصعوبة . ومع ذلك ، استطاع أن يؤكد ذاته ، وأن يحفر بأظافره مجرى خاصاً به ، بين دارسى الفلسفة المحدثين . وعلى الرغم من ذلك الجهد الجبار الذى بذله فى البحث والعطاء ، فقد خلت حياته تقريباً من لحظات التقدير التى يتلقاها العامل المجد ، بل على العكس : كان نجاحه هو سرّ مأساته !

الغيرة والجسد ، ومحاولات الوقعة ، ونشر الشائعات المغرضة : هى كل ما كان محمود قاسم يراه من حوله ، فى داخل كليته . أما فى خارجها ، وعلى مستوى دارسى الفلسفة فى مصر ، فلم يكن هناك سوى الصمت المطبق عن جهوده واكتشافاته ، وكان هذا الصمت بمثابة عملية قتل بطيء .. والوحيد الذى مزق هذا الصمت كان هو د. على النشار ، حين كتب لقاسم إهداءً مطبوعاً فى أحد مؤلفاته الكبرى ، وتحدث عن منهجه ، وأسرع محمود قاسم بالرد عليه بإهداء مماثل .. ثم ما لبث أن عاد الصمت ، واستمر النكران !

وقد كان مرور عشرين سنة على وفاة محمود قاسم كافياً لتحمل رائحة الغبار المتراكم على اسم الرجل وأعماله ، وما أن لوّحتُ بالفكرة : حتى اتفقت كلمة تلاميذه المقربين ، وأصدقائه الحميمين ، وبعض زملائه المنصفين على

الاشتراك فى إحياء ذكراه : بإلقاء بعض الضوء على عمله ، ووضع باقة زهور على قبره .

ويتخذ تكريم محمود قاسم صوراً مختلفة . فهناك مَنْ كتب عنه ، وهناك مَنْ كتب له .. كما أن هناك من سجّل اسمه فى «قائمة التكريم» Tabula Gratulatoria . وفى البداية ، اقتضى الأمر بناء أهم المعالم البارزة فى حياة د. محمود قاسم ، وقد أصبحت الآن جزءاً من التاريخ ، ثم القيام بعرض إنتاجه الفكرى ، وهو ضخّم ومتنوع يتوزع بين التأليف ، والترجمة ، والتحقيق ، والإشراف على الرسائل العلمية ، كما تم عرض بعض نماذج من كتاباته . وبهذه الصورة اكتمل «كتاب تذكارى» نأمل أن يكون مناسباً فى إحياء ذكرى هذا العالم الجليل ، بعد مرور عشرين عاماً على وفاته .

ومع ذلك ، فإننا لانحاول أن ننفخ الحياة فى رفات . فمؤلفات محمود قاسم مازالت مقروءة ، وطبعاتها مستمرة : بصورة مشروعة ، أو بالسطو أحياناً من قبل بعض الناشرين . أما تلاميذه فقد أصبحوا الآن أساتذة للفلسفة الإسلامية فى مصر والبلاد العربية . ومن الملاحظ أنهم يتابعون منهجه فى البحث ، ويسيطرون بنفس روحه العلمية . وفى هذا كله دليل واضح على الأثر الطيب الذى يمكن أن يتركه عالم أصيل فى حياتنا .

والواقع أننى لأجد ما أشكر به تلك النخبة من كبار الأساتذة الذين سارعوا بالاستجابة للمشاركة بكلماتهم وبحوثهم فى هذا العمل العلمى الكبير ، وفى مقدمتهم : أ. د. إبراهيم مدكور ، أ. د. فتح الله خليف ،

أ. د. أبو الوفا التفتازانى ، أ. د. عمار الطالبي ، أ. د. أميره مطر ، أ. د. أحمد محمد صبحي، أ. سعيد زايد ، الأب الدكتور جوزيف سكاتولين - وقد أرفق كل منهم بيحثه كلمة صادقة ، تدل على ما يكنه لمحمود قاسم من وفاء وتقدير.

أما الكلمات الخاصة من زملائه ، وتلاميذه المقربين ، فقد جاءت معبرة عن روح العلاقة الحميمة بينهم وبين محمود قاسم ، وهم : أ. د. السيد محمد بدوى ، أ. د. الطاهر أحمد مكى ، أ. د. حمدى السكوت ، أ. د. السعيد بدوى ، أ. د. محمود الربيعى ، والشاعر الكبير أ. فاروق شوشة ، وكاتب هذه السطور .

وأما الدراسات التى تمت حول أعمال محمود قاسم نفسها ، فقد بذل فيها جهد بالغ ومشكور من السادة : أ. د. حسن حنفى ، أ. د. حسن عبد اللطيف الشافعى ، أ. د. مصطفى حلمى ، أ. د. محمد السيد الجليند ، أ. د. عبد الحميد مدكور .

ولايفوتنى فى هذا الصدد أن أنهى بما قام به المدرسون المساعدون بقسم الفلسفة الإسلامية بدار العلوم من مساعدة قيمة فى جمع مادة البيلينوجرافيا التحليلية لأعمال محمود قاسم ، وهم السادة : أحمد جاد ، مختار عطا الله ، محمد أبو خليفة .

وفى الختام ، لاهد من تقديم واجب الشكر والتقدير لأسرة المرحوم د. قاسم ، وخاصة زوجته التى تفضلت بكتابة كلمة رقيقة بالفرنسية ، وأكبر

أبنائه الأستاذ أحمد ، الذى ترجمها إلى العربية ، كما كان لهما فضل تزويدنا ببعض الصور التذكارية للفقيه الراحل . وقد سبق للأسرة الكريمة فضل إهداء مكتبة محمود قاسم الخاصة إلى كلية دار العلوم . وهى الآن متاحة لجميع الباحثين فى الفلسفة الإسلامية.

وأخيراً - أيها القارئ العزيز - يسعى إليك هذا الكتاب التذكارى عن محمود قاسم ، وهو يحمل الكثير من الحقيقة ، والكثير من الإنصاف : الحقيقة التى وهب حياته لها ، والإنصاف الذى لم يجده من معاصريه .

حامد طاهر

رئيس قسم الفلسفة الإسلامية بدار العلوم
ومدير مركز الدراسات والبحوث الإسلامية
بجامعة القاهرة

من زوجة محمود قاسم

واقفت بمزيد من الفرحة والعرفان على أن أتعاون ، على نحو متواضع جدا ،
فى تكريم محمود قاسم ، زوجى طيلة ٣٣ عاما .

التقينا فى الجامعة حيث كنا ندرس الفلسفة ، تلك الفلسفة التى جمعتنا ،
والتي شكلت محور حياة محمود قاسم الخاصة والعامة ، وإن اختلف الأمر بالنسبة
لى حيث تفرغت لمهامى كزوجة وأم ، ولم أتمكن من المضى فى الدراسة .

وأشهد أن الطالب الذى تعرفت عليه فى ١٩٤٠ ، قد توفى فى ١٩٧٣ دون أن
يكف لحظة واحدة عن البحث فى حقل الفلسفة الإسلامية ولم ينضب فضوله بشأن
تيارات الثقافة العربية المختلفة وتأثيرها على الحضارة الغربية .

وإنى أشعر بالندم - وأحيانا بالذنب - لعدم تمكنى من العمل بشكل فعال على
إحياء فكر وأعمال محمود قاسم . ولهذا ؛ فأنا مدينة للمجموعة التى تشكلت
تلقائيا لإعادة تسليط الأضواء على فكر زوجى ، ولإحياء ذكره أمام الأجيال
القادمة .

وأعضاء تلك المجموعة وجوه ليست بغريبة عنى ؛ عرفتهم طلبة ، زملاء ، ثم
بدورهم مرشدين للعقول الشابة . وأعتقد أن هذا الاحتفال بمرور ٢٠ عاما على وفاة
أحد أساتذتهم يأخذ مغزاه الخاص فى ظروف التخبط الفكرى التى تسود العالم
اليوم . وأتمنى أن يعمل هذا الكتاب على إحياء الأمل فى قلوب قرائه ، وأن يعاونهم
فى المضى قدما وسط عصر أصم لا يكثر كثيرا بالقضايا الفكرية .

القاهرة فى ١٢/١٢/١٩٩٢ .

تريز

زوجة محمود قاسم

Écrit par : THÉRÈSE épouse du Dr. Mahmoud Kassem

J'ai accepté avec joie et gratitude de coopérer , dans une très modeste mesure , à l'hommage rendu au Dr. Mahmoud Mohamed Kassem dont je fus l'épouse pendant 33 ans .

Nous nous sommes connus à l'université où nous étions étudiants en philosophie . Cette philosophie qui nous avait réunis , à marqué de son sceau toute la carrière et la vie de Mahmoud Kassem ; il n'en a pas été de même pour moi , qui accaparée par mes charges d'épouse et de mère de famille ai renoncé à poursuivre mes études .

Je peux me porter garant que l'étudiant que j'ai connu en 1940 est mort en 1973 sans jamais avoir interrompu ses recherches dans le domaine de la philosophie islamique ,ni satisfait sa curiosité concernant les différents courants de la pensée arabe et son influence sur la culture occidentale

Mon grand regret , presque un remords , a été de ne pouvoir coopérer efficacement à maintenir vivante la pensée et l'œuvre de Mahmoud Kassem . Je suis donc infiniment reconnaissante au groupe qui s'est spontanément formé pour remettre en lumière la pensée de mon mari et le rappeler au souvenir de la nouvelle génération.

Les membres de ce groupe sont des visages familiers pour moi qui les ai connus étudiants , puis collègues , devenus à leur tour guides des jeunes esprits .

Je pense que cette pieuse célébration du 20^{ème} anniversaire de la mort de l'un de leurs maîtres à penser prend une dimension toute particulière dans le chaos culturel où vit le monde actuel .

Je souhaite qu'il apporte à nombre de lecteurs un réconfort et leur donne le courage de poursuivre leurs recherches dans un monde peu préoccupé de spéculation intellectuelle.

Au Caire le 12 Décembre 1992

حياته في سطور

* ولد في ٣ يولية ١٩١٣ م .

بكفر دنوهيا - مركز الزقازيق - محافظة الشرقية . مصر .

* هو الابن الرابع من بين ثمانية «خمس أبناء ، وثلاث بنات» .

* كان والده يعمل مدرسا بمدرسة المعلمين في الزقازيق . وهو من خريجي دار العلوم ، سنة ١٩٠٩ ، وتوفي سنة ١٩٢٢ ، وعمر محمود قاسم تسع سنوات .

* دخل محمود قاسم المدرسة الأولية في الزقازيق ، واستمر بها حتى السنة الرابعة ، ثم تركها وعاد إلى بلدته ليحفظ القرآن الكريم تمهيدا للالتحاق فيما بعد بدار العلوم ، كما أراد له والده .

* بعد عام ، التحق بالمدرسة التحضيرية في الزقازيق ، ومكث بها عامين .

* عقب وفاة والده ، دخل محمود قاسم مدرسة المعلمين ، ليتخرج منها مدرسا ابتدائيا ، ولكن ناظر المدرسة ، وكان صديقا لوالده ، أوصى بخروجه منها ، لما لمسه فيه من التفوق والطموح ، لكي يلتحق بتجهيزية دار العلوم ، تحقيقاً لرغبة والده الراحل .

* بذلت الأم جهدا كبيرا في تربية أبنائها ، فأرسلت محمود قاسم ليكمل تعليمه في تجهيزية دار العلوم بالقاهرة ، وقد التحق بعدها بكلية دار العلوم ، حيث حصل منها على الدبلوم «الليسانس» بتفوق في عام ١٩٣٧ (١) .

* قام د. حامد طاهر بجمع هذه السيرة من أسرته ، ومن ملف خدمته بأرشيف الكلية ، ومن بعض زملائه ، ومن تقويم دار العلوم للأستاذ محمد عبد الجواد .
(١) كان من زملائه في دفعة التخرج الكاتب الروائي : محمد عبد الحليم عبد الله .

* عين في سنة تخرجه مدرسا بمدرسة الخارجة الابتدائية ، في واحة باريس ،
بالواحات الخارجة ، ولم يستمر بها سوى شهرين ، اختير بعدها في بعثة وزارة
المعارف إلى فرنسا .

* كان من أكبر المعجبين به في لجنة الاختيار للبعثة العالم والشاعر الكبير على
الجارم .

* سافر محمود قاسم إلى فرنسا في ٧ يناير ١٩٣٨ .

وقد بدأ بتعلم اللغة الفرنسية في معهد «الأليانس فرانسيز» وأضاف لها اللغة
اللاتينية التي كان يتطلبها موضوع دراسته .

* من بين زملائه في تلك الفترة : السيد محمد بدوي ، محمد مندور ، محمد
عبد الهادي أبو ريده ، حسين مؤنس ، يحيى الخشاب ، ثابت الفندي ، ومحمد
عبد الله دراز ، والشيخ محمد الفحام ، والشيخ عبد الرحمن تاج ، والشيخ عبد
الحليم محمود والثلاثة الآخرين تولوا فيما بعد مشيخة الأزهر الشريف .

* عندما نشبت الحرب العالمية الثانية ، تفرق هؤلاء المبعوثون المصريون في
جامعات فرنسية مختلفة ، وذهب محمود قاسم إلى جامعة بواتييه ، حيث ظل بها
عاما كاملا ، عاد بعده مرة أخرى إلى جامعة السوربون بباريس ، ليوصل دراسته .

* تزوج من زميلته في الدراسة سنة ١٩٤٠ ، وقد أنجب منها أربعة أبناء
«أحمد ، وليد ، فريدة ، ماجدة» .

* حصل على ليسانس الآداب من جامعة السوربون في عام ١٩٤٢ ، وكان
قوامها المواد التالية :

- دبلوم في علم الاجتماع والأخلاق ١٩٣٩ .

- دبلوم فى علم النفس ١٩٤٠ .

- دبلوم فى الفلسفة العامة والمنطق ١٩٤١ .

- دبلوم فى تاريخ الفلسفة العام ، مع اللغة اللاتينية ١٩٤٢ .

وقد زاد على ماطلب منه الحصول على دبلوم فى فقه اللغة ١٩٤١ .

* حصل على دكتوراه الدولة بمرتبة الشرف الأولى من جامعة السوربون تحت إشراف إميل برييه بتاريخ ١٩٤٥/٧/٥ عن رسالتيه :

- آراء ابن رشد الدينية «مع ترجمة كتابه مناهج الأدلة» .

- نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكويني .

* عاد من بعثته إلى مصر فى ١٩٤٥/١١/٣٠ .

* عين مدرسا بدار العلوم سنة ١٩٤٥ .

* رقى إلى درجة أستاذ مساعد سنة ١٩٥٠ (وكانت لجنة الترقية مكونة من حضرات الأساتذة : شفيق بك غربال ، د . أحمد أمين بك ، د . إبراهيم مذكور ، سعد اللبان بك ، الأستاذ حامد عبد القادر ، د . إبراهيم سلامة - واجتمعت اللجنة يوم ١٩٥٠/١/٤ ، وأنهت تقريرها العلمى بعبارة «أن الدكتور محمود قاسم نافع جدا فى اتجاهاته الجامعية ، وتخصصه الفلسفى» - وكان عيد دار العلوم فى ذلك الوقت هو د . إبراهيم سلامة) .

* أصدر فى سنة ١٩٥٢ «سلسلة فى الدراسات الفلسفية والأخلاقية» ضمت علاوة على مؤلفاته : مؤلفات صديقه أ . د . عبد الحليم محمود ، وصدر منها حتى عام ١٩٥٥ سنة كتب .

* رقى محمود قاسم إلى درجة أستاذ كرسى الفلسفة الإسلامية بكلية دار

العلوم سنة ١٩٥٦ «وكانت لجنة الترقية مكونة هذه المرة من السادة : أ.د. أبو العلا عفيفي ، أ.د. إبراهيم مذكور ، أ.د. عثمان أمين» .

* أعير للعمل أستاذا للفلسفة بالجامعة الليبية لمدة ثلاث سنوات في الفترة من ١٩٥٧-١٩٦٠ .

* بعد عودته بعامين ، عين عميدا لكلية دار العلوم في ١٩٦٢/٦/٣٠ ، وظلت العمادة تجدد له ، لمدة عشر سنوات متتالية ، انتهت في ١٩٧٢/٦/٢٩ .

* في عام ١٩٦٣ ، حضر مؤتمر أساتذة الجامعات بفرنسا ، كما شارك في أعمال المؤتمر الدولي الثالث عشر للفلسفة بفرنسا الذي انعقد في ١٩٦٣/٩/١٧ .

* انتدب للتدريس في أقسام الفلسفة بكليات الآداب في جامعتي الإسكندرية ، وعين شمس ، كما ألقى سلسلة من المحاضرات في معهد الدراسات العربية بالقاهرة .

* دعى لإلقاء محاضرات ثقافية في كل من السودان ، والكويت ، والجزائر .

* ظل رئيسا للجنة الترقيات في الفلسفة ما يقرب من عشر سنوات .

* عين خبيرا بمجمع اللغة العربية ، وشارك بفعالية في إعداد «المعجم الفلسفي» الذي أصدره المجمع .

* أحيل إلى المعاش في ١٩٧٣/٧/٣ ، وعين في نفس التاريخ «أستاذا متفرغا» بكلية دار العلوم .

* سافر إلى أسبانيا لحضور مؤتمر الفلسفة في العصور الوسطى بمدير في ١٩٧٣/٩/٣ ، حيث تم تكليفه بالإشراف على نشر إنتاج ابن رشد بالعربية .

* توفي في ٢٩ سبتمبر ١٩٧٣ .

إنتاجه العلمى

(بيلوجرافيا تحليلية)

إعداد : أ. د. حامد طاهر*

* ملاحظات أولية

* الكتب المؤلفة

* الكتب المترجمة

* مراجعات الترجمة

* تحقيق التراث

* الإشراف على الرسائل العلمية

* أشكر السادة المدرسين المساعدين بقسم الفلسفة الإسلامية بدار العلوم معاوتى فى إعداد هذا العمل البيلوجرافى ، وهم : أحمد جاد ، مختار عطا الله ، محمد أبو خليفة .

أ- ملاحظات أولية :

* يتوزع الإنتاج العلمى للمرحوم الدكتور محمود قاسم بين عدة مجالات هى: التأليف ، والترجمة ، ومراجعات الترجمة ، وتحقيق التراث ، والإشراف على الرسائل الجامعية .

* فى مجال التأليف :

توجد الكتب ذات الموضوع الواحد مثل «المنطق الحديث ومناهج البحث» ، «نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى كوماس الأكوينى» والكتب ذات الموضوعات المتعددة مثل «دراسات فى الفلسفة الإسلامية» وبالإضافة إلى الكتب توجد المقالات المنشورة بالمجلات أو الدوريات العلمية والبحوث التى ألقاها فى المؤتمرات والمواسم الثقافية مثل «الغزالي وموقفه من العقل والتقليد» .

* هناك الكتب التى قُصد بتأليفها طلاب الجامعات ، والمشتغلون بالفلسفة الإسلامية مثل «فى النفس والعقل لفلاسفة الإسلام والإغريق» و «ابن عربى وليبنتر» بالإضافة إلى الكتب التى تتجه إلى جمهور المثقفين فى العالم العربى والإسلامى مثل «جمال الدين الأفغانى : حياته وفلسفته» و«الإسلام بين أمسه وغده» .

* يلاحظ بوضوح فى مؤلفات د. قاسم نزعة المقارنة بين مفكرى الإسلام وفلاسفة الغرب ، كما هو الحال بين ابن رشد وتوماس الأكوينى، وبين الغزالي وچان چاك روسو، وبين ابن عربى وليبنتر .

* يتميز أسلوب د. قاسم بجودة تقسيم الموضوع المدروس إلى عناصره الرئيسية ، ووضع الجزئيات فى أماكنها المناسبة . أما اللغة فهى مقتصدة إلى أبعد حد ، وقد لاتخلو - عند الضرورة - من نبرة تهكم ، وخاصة عندما تأتى فى سياق مناقشة بعض الآراء التى تدفع لذلك .

* تكثر فى مؤلفات د . قاسم ، وخاصة فى المرحلة الأخيرة ، الإحالات فى الهامش إلى أعماله الأخرى ، سواء كانت كتباً أو بحوثاً ، ويتضح من ذلك أن لديه مشروعا متكاملا كان يعبر عن بعض جوانبه فى مناسبات مختلفة ، وتبعاً لموضوعات مختارة بعناية للدراسة والتحليل .

* تحتاج المقالات والبحوث المفردة - التى خلفها المرحوم د. قاسم - إلى من يقوم بجمعها ، وتصنيفها ، ونشرها . وترجع أهمية هذه المقالات والبحوث إلى تميزها بالتركيز الشديد ، واحتوائها على خلاصة تجارب صاحبها وطول نظره العقلى الذى كان قد نضج بفعل الزمن ، والقراءات المستمرة .

* يمكن لطلاب الدراسات العليا أن يعثروا بسهولة - فى مؤلفات الدكتور قاسم - على الكثير من «موضوعات» تصلح للدراسة فى مرحلتى الماجستير ، والدكتوراه . وبعض هذه الموضوعات كان يشير إليها على نية دراسته لها فى المستقبل ، وبعضها الآخر كان يهديه مباشرة لمثل هؤلاء الطلاب (انظر على سبيل المثال : خاتمة كتاب : ابن عربى وليبتز) .

* فى مجال الترجمة :

انصب الجزء الأكبر من جهوده الأولى فى هذا المجال عل ترجمة أمهات المراجع الفرنسية فى علم الاجتماع . (انظر كلمة أ . د. السيد محمد بدوى عنه) فترجم العديد من مؤلفاته الرئيسية لأعلام هذا العلم من أمثال دور كايم ، وشارل بلوندل ، وروجيه باستيد ، وأوجست كونت .

* وفى مجال الفلسفة الغربية المعاصرة ، كان له فضل ترجمة «برجسون» إلى اللغة العربية فى واحد من أهم كتبه وهو «التطور الخالق» ، كما ترجم د . قاسم لأستاذه فى السوربون إميل برييه - وهو من أكبر مؤرخى الفلسفة الحديثة فى أوروبا- كتابه المختصر «اتجاهات الفلسفة المعاصرة» .

* امتد عمله فى الترجمة ، فتجاوز علم الاجتماع والفلسفة إلى الأدب ، حيث ترجم الجزء الثانى من «تاريخ الأدب الفرنسى» للانسون ، كما ترجم من الأعمال الإبداعية مسرحية «لعبة الحب والمصادقة» لماريفو - وهى من كلاسيكيات القرن الثامن عشر .

* تعتبر ترجمات محمود قاسم إضافة حقيقية للمكتبة العربية فى مجالات علم الاجتماع ، والفلسفة الحديثة ، والمعاصرة ، وعلم الأخلاق ، والأدب الفرنسى . وقد أسهمت إلى حد كبير فى تطور هذه العلوم كلها فى مصر والعالم العربى ، وامتد منها جهد متواصل مازالت آثاره ماثلة فى ثمتى الجامعات العربية حتى يومنا هذا (انظر : كلمة أ . د السيد محمد بدوى عنه) .

* لبيان القيمة الداخلية لهذه الترجمات ، ينبغى قيام دراسة حولها لبيان مدى قدرة محمود قاسم على نقل النص الأجنبى إلى اللغة العربية ، وطريقة إيجاد المصطلح العلمى المناسب فى كل ماتناوله من مجالات كانت جديدة فى وقتها وتحديد الدور الذى قامت به هذه الترجمات فى دفع حركة التأليف العربى الخالص الذى جاء على إثرها .

* فى مجال تحقيق التراث :

يعد كتاب مناهج الأدلة لابن رشد هو الكتاب الوحيد الذى قصد محمود قاسم إلى تحقيقه لتلبية حاجة الدراسات التى قام بها فى جامعة السوربون ، أو فى مصر بعد ذلك .

* أما بقية التحقيقات الأخرى مثل شفاء ابن سينا ، وتلخيصات ابن رشد العربية لأرسطو ، ومغنى القاضى عبد الجبار - فقد تمت بتكليف من جهات محددة ، وكان اشتراكه فى حلقاتها اعترافا من هذه الجهات بكفاءة عمله ، والإخلاص فى أدائه ، والدقة التى تميز بها .

* كان العمل الكبير الذى توفى - وهو بصدد إكماله - هو إشرافه على تحقيق الطبعة الدولية الكاملة لتلخيصات ابن رشد على أرسطو بتكليف من لجنة الفلسفة فى العصور الوسطى بمديره .

وقد أتم هذا العمل بناء على أصول «المنهج الدولى الحدث» فى تحقيق المخطوطات القديمة «وهذا المنهج يعتمد على تسجيل كل فروق النسخ بين المخطوطات المختلفة ، ثم قيام المحقق باختيار نص مناسب منها جميعا ، مع بقاء الإشارة إلى كل فروق النسخ الأخرى فى الهامش . ويلاحظ أن عمل المحقق هنا إيجابى ويكاد يكون مسئولاً عن كل عبارة أو لفظة يضعها فى المتن ، وبالتالى عن كل عبارة أو كلمة ينزلها إلى الهامش - وهذا المنهج يقابل المنهج التقليدى فى التحقيق ، والذى مازال لسهولة سائدا عندنا حتى اليوم ، ودور المحقق فيه شبه سلبى ، لأنه يختار مخطوطة واحدة من المخطوطات ويضعها فى المتن ، مشيراً إلى ما يوافقها أو يخالفها من بقية المخطوطات فى الهامش (١) .

وقد بذل محمود قاسم فى أخريات أيامه جهداً بالغاً فى هذا العمل وعاونه فيه المعيدون بقسم الفلسفة الإسلامية بدار العلوم ، ولكن مستشرقاً أمريكياً شاباً جاء إلى مصر ، واستطاع أن يحصل على مسودات هذا الجهد الضخم من منزل المرحوم قاسم ، ونسب معظمه إلى نفسه ، وإلى شريك مصرى آخر ، غير متخصص فى الفلسفة الإسلامية !

(١) كنت قد انتهيت بالفعل من تحقيق كتاب ابن عربى «روح القدس فى مناصحة النفس» ، اعتماداً على خمس مخطوطات ، تبعاً لمنهج التحقيق القديم والسائد ، ولكن د. قاسم أصر على أن أعيد تحقيقه تبعاً لمنهج التحقيق الدولى الحديث المشار إليه ، وبالفعل أعدت التحقيق كما أريد ، وقرأه معي جملة جملة ، ولم أقدم على نشر كتاب ابن عربى حتى الآن ، لقصور المطابع العربية فى مصر عن تنقيذه ، وهو ما زال مكتوباً على الآلة الكاتبة بمكتبة دار العلوم .

• فى مجال الإشراف على الرسائل الجامعية :

لم يكن المرحوم د . قاسم من هواة الإكثار فى الإشراف على الرسائل . ولعل هذا يرجع إلى ماعرف عنه من الجدية والصرامة فى تكوين تلاميذه على هذا المستوى الأكاديمى العالى ، ومن ناحية أخرى فإن الطلاب الذين كانوا يحسون فى أنفسهم عدم الكفاءة كانوا يعتمدون تلقائياً عنه .

• أما الذين أشرف عليهم - وكلهم حصل منه عل الماجستير فقط - فقد كان يعمل معهم بأكبر قدر من الاهتمام ، والمتابعة الراضية لكل صغيرة وكبيرة فى بحثه . ويكفى أن يقارن باحث بين الرسائل العلمية التى تمت تحت إشرافه ليرى مدى الجهد المبذول فيها .

• أجاز محمود قاسم إحدى عشرة رسالة فى عشر سنوات أى بمعدل رسالة واحدة فى كل عام (قارن هذا بما يمنحه الآن بعض الأساتذة - سامحهم الله - فى شهر واحد) .

ب - الكتب المؤلفة

١- نظرية المعرفة عند ابن رشد ،

وتأويلها لدى توماس الأكويني:

هذا الكتاب هو الترجمة العربية التي قام بها د. قاسم بنفسه لرسائله الكبرى التي نال عنها دكتوراه الدولة بمرتبة الشرف الأولى من جامعة السوربون بفرنسا ، وعنوانها بالفرنسية :

La theorie de la connaissance d' ibn Rushd et son interpretation chez thomas d' Aquin .

ولاشك أن هذا العمل يعتبر مشروعاً علمياً ضخماً ، تم فيه بالأدلة التاريخية ، والدراسة التحليلية للنصوص تأثر أحد كبار أعلام الفلسفة المسيحية ، وهو توماس الإكويني بالفيلسوف العربي المسلم ابن رشد . والذي درس في الغرب يدرك جيداً مدى الجهد والمثقة التي يتعرض لها الباحث العربي المسلم الذي يتصدى لمثل هذا الموضوع !

الكتاب مقسم إلى قسمين في يحتوى القسم الأول على بيان نظرية المعرفة عند ابن رشد ، ونظرية الاتصال عند توماس الإكويني ، كما يشير إلى تحريف المذهب الفلسفي الطبيعي لابن رشد ، وأسباب هذا التحريف ، ويثبت أن توماس الإكويني يعتبر تلميذا لابن رشد . ويتبع ذلك ببيان المسالك التي انتقلت بها فلسفة ابن رشد إلى توماس الإكويني ، ثم يعرض في فصل مستقل لنظرية الفيض عند كل من الفارابي وابن سينا ، ورفض ابن رشد القاطع لهذه النظرية ، وخطأ كل من المستشرقين : مونك ، ورينان في تحريف فكرة ابن رشد .

أما القسم الثاني من الكتاب والذي يضم سبعة فصول ، فإنه يدور كله حول

مسألة العلم الإلهي : هل العلم والذات الإلهية شيء واحد ، وموضوعات العلم الإلهي : علم الله لذاته ولغيره ، كما أن علم الله سبب في وجود الأشياء ، وهل العلم الإلهي كلي أم جزئي ؟ وهل هو واحد أم متعدد؟ ثم ماهي علاقة العلم الإلهي بفكرة الزمن ، وعلم الله للممكنات المستقبلية ، وهل يعلم الله الشر ، والعدم؟ ثم ينتهي هذا القسم بفصل عن علم الرؤية وعلم مجرد الإدراك .

وفي أثناء ذلك كله تجرى المقارنة الموضوعية عن طريق تحليل النصوص بين ابن رشد وتوماس الإكويني ، ومنها يتبين تماسك مذهب ابن رشد ويتضح بسهولة تأثير توماس الإكويني به .

٢- في النفس والعقل لفلاسفة الإسلام والإغريق :

يلقى هذا الكتاب الضوء على بعض المسائل الغامضة في الفلسفة الإسلامية ، ويبين مالحقتها من تشوية ، كما يكشف عن أثرها في التفكير المسيحي بعد ذلك . والكتاب - كما يبدو من عنوانه - يقع في مجال الدراسات الفلسفية المقارنة ، وهو يتبع بالتفصيل طبيعة النفس والعقل في كل من الفلسفة الإسلامية والفلسفة الإغريقية من خلال تسعة فصول تتوالى على النحو التالي :

سقراط وآراؤه في النفس ، وإثبات وجودها لديه ، وموقفه من خلودها ، وأسطورة العربة ، وأسطورة الكهف ، وبراهين أفلاطون على خلود النفس ، مثل برهان الحياة والحركة ، وبرهان الضدين ، وبرهان التذكر ، والبرهان الخلقى ، وبرهان البساطة والتركيب .

ثم يتعرض الكتاب بالتفصيل لتعريف النفس لدى أرسطو ، وفلاسفة المسلمين ، مبينا نقاط الاتفاق والاختلاف بينهما ، وهنا يتناول براهين ابن سينا على وجود النفس ومن أهمها البرهان الطبيعي ، وبرهان الإدراك والأفعال

الوجدانية ، وبرهان وحدة النفس ، وبرهان الاستمرار ، ويعرض لمسألة روحانية النفس عند ابن سينا والغزالي كما يقدم آراء ابن رشد ، وتأثيرها في الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى .

وفي الفصل الرابع ، يعرض محمود قاسم لوحدة النفس الإنسانية عند أرسطو ، وفلاسفة الإسلام من أمثال الفارابي ، وابن سينا ، والغزالي ، وابن رشد ، وأثر هذا الأخير في توماس الإكويني ، وبخمس الترتيب السابق ، يدرس الفصل الخامس الصلة بين النفس والبدن . أما خلود النفس فتتم البرهنة عليه لدى فلاسفة المسلمين ابتداء من الفارابي حتى ابن رشد وتأثير هذا الأخير في الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى عن طريق توماس الإكويني .

وتتناول الفصول الثلاثة الباقية (٧ ، ٨ ، ٩) موضوع العقل ، وآراء أرسطو فيه ، وكذلك الإسكندر الأفروديسي ، وكذلك أتباع الأفلاطونية المحدثة ، ويفصل القول في آراء الفارابي ، وابن سينا ، والغزالي ، وابن باجه ، وابن طفيل ، وابن رشد ، وتأثير هذا الأخير في توماس الإكويني .

ويحتوي الفصل التاسع والأخير على بيان نظرية ابن رشد في الاتصال مع مناقشة لآراء المستشرق مونك ، والرد عليه بتحديد رأى ابن رشد في الاتصال وتدرج الوظائف النفسية والعقلية .

٣- المنطق الحديث ومناهج البحث :

يعد هذا الكتاب من أهم المؤلفات التي كتبها المرحوم محمود قاسم إن لم يكن أهمها على الإطلاق . وهو كتاب أنضجته تجربة صاحبه ، وتتابع تدريسه لطلاب كلية دار العلوم ، بحيث تعددت طبعاته ، حتى وصل في آخرها إلى ثلاثة أضعاف حجم الطبعة الأولى .

والكتاب يتناول تاريخ كل من المنطق القديم «منطق أرسطو» والمنطق الحديث أو مناهج البحث . وهو يعرض في أسلوب عربي ، محدد ، وواضح ، لموضوع الاستقراء وعلاقته بالقياس ، وأساس الاستقراء ، ومبدأ الحتمية ، والصدفة ، والغاية ، والملاحظة والتجربة وشروطها ، كما يتناول بالتفصيل موضوع القروض مبرزاً أهميتها القصوى في إطار المنهج التجريبي ، ومبيناً وظيفتها وأنواعها وشروطها وطرق التحقق منها ، ثم يتبع ذلك بالحديث عن القانون العلمي ، وطريقة صياغتها ، وأخيراً يتناول موضوع التحليل والتركيب في عملية البحث العلمي .

ويختص القسم الثاني من الكتاب بدراسة منهج البحث في الرياضيات ثم في العلوم الطبيعية ، ثم في علم الاجتماع ، وأخيراً في التاريخ .

ويعتبر الفصل الخاص بمنهج البحث في التاريخ من أفضل ماكتب باللغة العربية عن هذا الموضوع ، وهو مفيد جداً للمهتمين بتحقيق النصوص القديمة ومزود بأمثلة من تجارب المؤلف الشخصية ، ونصائحه القيمة للباحثين .

ويمكن القول بأن هذا الكتاب لاغنى عنه لطلاب الدراسات العليا في شتى التخصصات بالجامعات المصرية والعربية . فهو يبين لهم مناهج البحث ، التي تعتمد على الخيال العلمي ، وقيمة التجربة التي تعتبر هي المحك الأخير للصواب والخطأ .

٤- ابن رشد وفلسفته الدينية :

وهو نفسه كتاب «ابن رشد ، الفيلسوف المفترى عليه» عندما أعاد طبعته الثانية سنة ١٩٦٣ . وهذا يشير إلى خفوت لهجة الدفاع الحماسى عن ابن رشد والأخذ فى بيان حقيقة مذهبه وآرائه الدينية والفلسفية بصورة موضوعية .

يقع الكتاب فى ثمانية فصول : تحدث فى الفصل الأول من خلال تمهيد تاريخى عن الحياة الثقافية والسياسية لبلاد الأندلس فى الفترة التى عاش فيها ابن رشد ، وتناول الفصل الثانى حياة ابن رشد : أسرته وأساتذته وصلته بابن طفيل ومكانته فى دولة الموحدين ، ومحنته وأسبابها ، وكشف عن الجانب السياسى فى هذه المحنة .

أما الفصل الثالث ، فقد تناول فيه د. قاسم قضية التوفيق بين الدين والفلسفة التى أجاد ابن رشد تصورها وعرضها ، ثم عرض لمدى التشويه الذى لحق بفكرته عندما انتقلت إلى أوروبا المسيحية ، والأثر الذى أحدثه - على الرغم من ذلك - فى الفكر الأوروبى الوسيط .

وقد خصص الفصل الرابع لقواعد البرهنة على العقائد بصورة عقلية ، وعرض للخلاف الذى وقع بين الفرق الإسلامية ، ودلّل على أن ابن رشد فيلسوف عقلى مؤمن .

وفى الفصول الأربعة الأخيرة «٨٠٧،٦،٥» درس بالتفصيل قضايا البرهنة على وجود الله - بين شتى الفرق الدينية معقبا دائما برأى ابن رشد - والوحدانية والصفات الإلهية ، ومخالفته ، تعالى ، للحوادث . وفى هذا المجال يدرس مسألة الجهة ، والجسمية ، والرؤية . أما الفصل الثامن والأخير فيتناول قضية العالم والإنسان ، وفيه يبحث خلق العالم ، وبعث الرسل ، والقضاء والقدر ، والعدل والجور ، والبعث .

وهكذا يقدم هذا الكتاب صورة متنوعة لأهم القضايا العقائدية التي شغلت الفرق الدينية لدى المسلمين ، وموقف ابن رشد منها ، مع الإشارة إلى أثره الواضح في الفكر المسيحي الأوربي .

٥- مقدمة في نقد مدارس علم الكلام :

بعد أن حقق محمود قاسم كتاب ابن رشد «مناهج الأدلة في عقائد الملة» كتب له مقدمة ، لم تصبح مقدمة عادية لكتاب محقق ، وإنما أصبحت عملاً متميزاً قائماً بذاته . وذلك أنه ضمنها جملة آرائه في علم الكلام ، وثنى الآراء الدينية التي فرقت بين طوائف المسلمين ، وقد تم ذلك بلغة متدققة ، واتباع منهج علمي محكم بالإضافة إلى حسم واضح في عرض المشكلات ، وتقديم الحلول .

أما المنهج ، فهو يلتزم فيه بالحديث عن كل مشكلة كلامية لدى مختلف الطوائف التي تناولتها : المعتزلة ، الأشاعرة ، الماتريدية ، الفلاسفة ، الصوفية ، السلف إن وجد ، ثم ابن رشد .

وينطبق ذلك على المشكلات التالية : وجود الله ، الوجدانية ، مشكلة الصفات والذات ، صفات الأفعال ، العلم والإرادة ، مشكلة خلق القرآن ، مشكلة الجهة ، مشكلة الرؤية ، العدل والجور ، القضاء والقدر .

ومن خلال تناول المنهج الجيد ، تبرز حقيقة هامة هي أن أكبر الفرق الدينية لم تنبه إلى معيار أساسي ، كان يمكنها به أن تتجنب الوقوع في المزالق الفكرية التي أوقعت نفسها فيها ، وهذا المعيار هو الذي نبه إليه ابن رشد ، مستمداً إياه من فهم السلف للقرآن الكريم ، وهو التفرقة الجاسمة بين عالمي الغيب والشهادة .

إن «مقدمة في نقد مدارس علم الكلام» جديرة بأن تكون كتاباً مستقلاً ، فتتشر وحدها لأنها تحمل من آراء محمود قاسم بقدر ما تحمل من آراء ابن رشد نفسه .

٦- نصوص مختارة من الفلسفة الإسلامية :

يعتبر هذا الكتاب نموذجاً ممتازاً للكتاب التعليمي الذي يضع الطلاب وجهاً لوجه أمام نصوص الفلسفة الإسلامية في ثرائها وتنوعها مع التمهيد لها ، وشرح معضلاتها ، ثم التعليق عليها بلغة معاصرة .

وفي المقدمة الممتازة التي قدم بها للنصوص ، تناول الدكتور قاسم نشأة التفكير النظري عند المسلمين ، وتاريخ الفرق الإسلامية ، وظروف تكونها ، مركزاً بصفة خاصة على أكبر فرقتين وهما المعتزلة والأشاعرة ، كما عرض للتيار الفلسفي الخالص المتمثل في الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن طفيل وابن رشد . كما عرض للتصوف الإسلامي ، والاتجاه العلمي ، ثم أشار للحركة الفكرية في العصر الراهن مكملًا بذلك حلقات تاريخ الفلسفة الإسلامية في عصرها : القديم والحديث .

ولكى يقرب النصوص القديمة من الفهم المعاصر ، أعطى لكل نص عنواناً . وفيما يلي قائمة بهذه النصوص «وعدها ٢٥» مشفوعة بأسماء أصحابها :

المنزلة بين المنزلتين للخياط

حيل الحلاج للقاضي عبد الجبار

جملة قول أصحاب الحديث والسنة للأشعري

البرهنة على وجود الله ، وعلى البعث للأشعري

آراء المعتزلة للشهرستاني

النوم والرؤيا للكندي

النفس ، والنفس الكلية للفارابي

العارفون لابن سينا

الحكم على الفلاسفة ، وطريق التصوف ، وحدود والتصوف للغزالي

طريق معرفة الله ، ورأى حى بن يقظان فى أهل التصوف لابن طفيل

(الاتفاق بين الدين والعقل ،

فوضى التأويل سبب فى الاضطراب العقلى) لابن رشد

(الوحى الذاتى والوحى العرضى ،

وقصة موسى وسحرة فرعون) لابن عربى

(نقد نصوص ابن عربى ،

وحقيقة أمر المتصوفة الملاحدة) لابن تيمية

فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ،

وفصل فى أن البدو أقدم من الحضار لابن خلدون

الأمر التى تتم بها سعادة الأمم لجمال الدين الأفغانى

الصلة بين العلم والدين لمحمد عبده

الطريقة (الصوفية) لابن باديس

٧- الإسلام بين أمسه وغده :

يتناول محمود قاسم في هذا الكتاب مشكلة التخلف الحضارى عند المسلمين، وقد بلغت ذروتها فى القرن الثامن عشر الميلادى ، كما يعرض لحركات الإصلاح الإسلامى فى العصر الحديث ، ويوضح وجهة نظره فى البعث الحضارى للأمة الإسلامية ، ووسائل الإصلاح ، وعوامل النهضة .

وجاء تقسيم الكتاب غاية فى الوضوح والمنطقية . فهو يحتوى على ثلاثة فصول ، الأول : فى تدهور حالة المسلمين ، والثانى : فى أسباب التدهور ، والثالث : فى طرق الإصلاح .

فى الفصل الأول ، تناول قاسم حالة المسلمين فى العصر الأخير ، فدرس الاستعمار وعلاقته بالمسلمين ، وصرح بما يعانيونه من فقر وجهل ، وما يظهر عليهم من ابتعاد عن روح الدين الإسلامى ، وشيوع اليأس والجنون فى نفوسهم بالإضافة إلى ضعف أخلاقهم . والخلاصة أنهم المسئولون الأول عن هذا الانحطاط الذى وصلوا إليه.

وفى الفصل الثانى يبحث محمود قاسم أسباب التدهور ، ويكاد يحددها فى سببين رئيسيين هما : فساد الملوك واستبدادهم ، وضعف علماء الدين وتحالفهم مع هؤلاء الملوك المستبدين .

أما الفصل الثالث ، فيعرض فيه لطرق الإصلاح ، وخاصة الإصلاح السياسى، والنهضة عن طريق العلم ، والنهضة عن طريق الدين .

والكتاب بأسلوبه المتدفق ، وروح صاحبه الثائرة ، يترك لدى القارئ انطباعات شتى ، ويدفعه إلى التأمل فى حاضره ، ويدعوه إلى محاولة الخروج من المأزق الحضارى الذى يوجد فيه .

وقد قيل عن هذا الكتاب إنه يتجه إلى الجمهور ، ولكنه مازال يصلح للمثقفين، ويعتبر وثيقة هامة جدا فى التعبير عن آراء محمود قاسم فى مجال النهضة والإصلاح (انظر بحث د. عبد الحميد مذكور فى هذا الموضوع) .

٨- جمال الدين الأفغانى : حياته وفلسفته :

ترتبط النهضة التى شهدتها العالم العربى والإسلامى فى العصر الحديث بشخصية جمال الدين الأفغانى ، الذى كان أصدق معبر عن آمال الشرق والأمة .

وقد قسم محمود قاسم كتابه عنه إلى سبعة فصول ، تناول فيها حياة الأفغانى، وجهاده ، أسرته ونسبه ، إقامته الأولى فى مصر والآستانة ، وإقامته الثانية فى مصر ، ثم يتابع فى فصل خاص إقامته فى كل من باريس ، وإيران ، وروسيا ، وانجلترا .

أما الفصل الثالث فيعرض لشخصيته وأخلاقه ، ويركز بصفة خاصة على صراحته ، وجرأته ، وحدته ، وكراهيته للإنجليز .

وفى الفصل الرابع يتحدث عن حركة الإلحاد فى الهند ، ومدرسة أحمد خان ، ويتناول فى الفصل الخامس : المذهب المادى فى العصر القديم ، ونقد الأفغانى له ، ويصل فى الفصل السادس إلى الإلحاد لدى الفرس والعرب ، فيدرس المزدكية ، والمانيوية، والباطنية لدى المسلمين .

ويتناول الفصل السابع المذهب المادى فى العصر الحديث ، ويعرض لنظريات التطور ، والنتائج الفلسفية لها عند سبنس ، وهيجل ، ورينان ، وأوجست كونت، كما يتحدث عن نقد الأفغانى النظرية التطورية ، ويحدد نظرية الأفغانى إلى الإنسان ، ويشير إلى فكره المادة الحية لدى بعض المحدثين .

والكتاب يعبر عن إعجاب محمود قاسم بشخصية الأفغانى واهتمامه بأفكاره .. ومن الممكن أن تنهض دراسة مثمرة حول أوجه الشبه القوية بين الرجلين .

٩- الإمام عبد الحميد بن باديس

الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية :

تم تأليف هذا الكتاب بعد نكسة ١٩٦٧ . ويبدو أن الدكتور قاسم أراد أن يبعث به في نفوس القراء ، وخاصة الشباب ، روح الأمل في النصر حتى في أحلك اللحظات ، ويعتبر ابن باديس نموذجاً لهذا الأمل الذي أنقذ الأمة الجزائرية في أحلك فترات تاريخها ، وخرج بها من الاستعمار إلى الحرية .

يقع الكتاب في ستة فصول . تحدث الفصل الأول عن حياة ابن باديس ، ودراسه ، واشتغاله بالصحافة ، وتأسيسه لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ومسلكه العلمي في بناء الأمة .

أما الفصل الثاني فيعرض للسمات الأساسية لشخصية ابن باديس ، ومنهجه في الإصلاح الديني ، ودعوته إلى العمل .

وفي الفصل الثالث تحديد ملامح الفكر السياسي لابن باديس ، وأصول الحكم لديه ، والوطن الجزائري والعمل السياسي ، ومظاهر النهضة في رأى ابن باديس وتلاميذه .

أما الفصل الرابع فيتناول فلسفة ابن باديس ، ويتحدث عن نظريته في الأخلاق، وموقفه من الصوفية ، وربطه بين العلم والدين .

ويوازن الفصل الخامس بين آراء ابن باديس ، وآراء كل من الماتريدي وابن رشد في موضوعات : القضاء والقدر ، والخير والشر ، والحسن والقبح .

ونتيجة عدم انتشار أعمال ابن باديس في مصر ، والمشرق العربي ، فقد تخير محمود قاسم ، مجموعة من نصوص ابن باديس التي تمثل كتاباته وخطبه ، ووضعها في الفصل السادس والأخير من الكتاب .

ويعتبر هذا الكتاب أول كتاب منهجى متكامل عن ابن باديس ، يكتبه عالم مصرى ، ومنذئذ ، بدأ اسم ابن باديس ينتشر ويقبل الدارسون على منهجه فى مجال الإصلاح ، والنهضة الإسلامية فى العصر الحديث .

١٠- دراسات فى الفلسفة الإسلامية :

يضم هذا الكتاب عشرة بحوث أجراها محمود قاسم على فترات مختلفة مركزا فيها دراسات سابقة ، أو مرتادا موضوعات جديدة .

وقد صدره بمقدمة هامة جدا تحدث فيها عن منهجه فى دراسة الفلسفة الإسلامية، والموضوعات التى اختارها للدراسة ، والتى تمثل فى رأيه علامات بارزة فى هذه الفلسفة (انظر : نموذج من كتاباته ، فى هذا الكتاب التذكارى) .

وعنوان الفصل الأول : النفس فى الفلسفة الإسلامية ، وفيه يتحدث عن الاتجاه المادى فى الفلسفة اليونانية ، والاتجاه الروحى عن سقراط مع ذكر آرائه فى النفس ، وأساطير أفلاطون فى النفس ، ومسألة خلودها ثم يتبع ذلك بالحديث عن النفس لدى الفارابى وابن سينا .

وعنوان الفصل الثانى : الغزالى ومذهبه فى العقل والتقليد ، وفيه يبرز تمجيد الغزالى للعقل ، وثقته فيه ، وحدود العقل عنده ، ثم عرض لموقفه من التصوف ، وكذلك موقفه من إيمان التقليد .

أما عنوان الفصل الثالث فهو : تربية الطفل بين الإمام الغزالى وجان جاك روسو ، تناول فيه فائدة الطفولة ، وأهميتها ، وتهيئة البيئة الملائمة لنمو الطفل بدنيا وذهنيا . وهى نموذج للدراسة المقارنة التى تبين قيمة الفكر الإسلامى فى مواجهة الفكر الأوروبى الحديث .

وعنوان الفصل الرابع : ابن رشد ومنهجه فى التوفيق بين العقل والدين . وهو خلاصة مركزه لكتاب محمود قاسم : ابن رشد وفلسفته الدينية .

وعنوان الفصل الخامس : مفهوم العدل فى الفلسفة الإسلامية . وفيه نجرى الموازنة بين آراء الأشاعرة ، والمعتزلة والماتريدية ، والفيلسوف العقلى ابن رشد ، والفيلسوف الصوفى ابن عربى ، وأخيرا المفكر الأوربى الكبير ليبنتز .

أما عنوان الفصل السادس فهو : الاتجاه الإشراقى فى فلسفة ابن سينا ، وبيان مدى القرب بينه وبين الشهم الصحيح للإسلام .

والفصل السابع عنوانه : لمحة عن نشأة التصوف الإسلامى ، وفيه بيان علاقة التصوف بالتشيع . ونقد لرأى طه حين الذى يرى أن التشيع ظهر نتيجة الشعور بالندم لدى أتباع الإمام على . حيث يرى د. قاسم أن الظواهر الفكرية فى التاريخ ، كظاهرة التشيع ، لا يكفى فى تفسيرها أن نرجعها إلى عوامل نفسية وإنما هناك عوامل سياسية واجتماعية ودينية هي التى لعبت دورا هاما فى هذا الصدد .

وعنوان الفصل الثامن : المحاسبى ، حياته ، وموقف الفقهاء وأهل الظاهر منه وفيه يميز محمود قاسم التصوف السنى من التصوف الفلسفى ، ويمثل له بنموذج الحارث المحاسبى .

وعنوان الفصل التاسع موقف ابن عربى من أهل الظاهر والفلاسفة . وفيه بيان لثقافة ابن عربى ، وتنوع مصادرها ، بالإضافة إلى الكشف عن جزء من حقيقة اتجاهه الفلسفى فى مجال التصوف الإسلامى .

أما الفصل العاشر فعنوانه : موقف ابن عربى من العقل والمعرفة الصوفية . وهو عبارة عن بحث فى نظرية المعرفة عند ابن عربى ، كشف فيه د. قاسم عن علاقة العقل بالشرع ، ونقد العقل ، وحقيقة المعرفة الصوفية .

والكتاب – بهذه الصورة – يقدم بانورااما متنوعة المشاهد للفلسفة الإسلامية من خلال موضوعات متتقة بعناية ، ومدرسة على مهل ، فى لغة واضحة .

١١- الخيال فى مذهب محبى الدين بن عربى :

سبق أن كتب المستشرق الفرنسى هنرى كوربان كتابا بالفرنسية ، وترجمة عنوانه : الخيال الخالق عند محبى الدين بن عربى ، ولكنه معقد ، وغامض حتى على قراء الفرنسية ، ولذلك لم يقدم أى مترجم عربى على نقله إلى العربية ، وقد دفعت أوجه القصور فى هذا الكتاب الدكتور قاسم ليعيد الكتابة عن الموضوع بالاعتماد هذه المرة ، على نصوص ابن عربى ذاتها ، فجاء كتابا فريدا فى اللغة العربية ، وأصبح مرجعا يعتمد عليه دارسو الفلسفة والأدب معا .

يحتوى الكتاب على خمسة فصول ، تحدث فى الفصل الأول عن طبيعة الخيال وصلته بالحس والصور ، كما تعرض بالتفصيل لفكرة النفس والروح ، والخيال والحس ، والخيال والصور .

أما الفصل الثانى ، بعنوان الخيال والحلم ، فقد تناول فيه أداء الخيال لوظيفته أثناء النوم ، وأنواع الرؤيا ، ومقام الرؤيا والمبشرات ، موضحا أن التعبير عن الرؤيا إنما يكون بالخيال .

وفى الفصل الثالث يتحدث عن : الخيال والحب ، ومدى الدور الذى يقوم به الخيال فى تكون الحب ، كما يتحدث عن الحب والجمال ، والحب الإنسانى والحب الإلهى .

ويختص الفصل الرابع بموضوع يتعلق مباشرة بمنهج البحث الحديث ، وهو : الخيال والعلم ، فتحدث عن الخيال بين الإجمال والتفصيل ، وعلم النظرة أو الضربة - ويرجع الفضل فى اكتشافها والتركيز عليها لدى ابن عربى إلى محمود قاسم بالفعل - كما تناول فكرة السبب والقانون ، والسببية وخوارق العادات .

أما الفصل الخامس والأخير ، فيحمل عنوان : الخيال والكشف ، وتحدث فيه

عن عين الحس وعين الخيال ، والخيال وتصور المحال عقلا ، وطبيعة الكشف ، وكشف الأنبياء والأولياء ، وموقف الفقهاء والفلاسفة من أهل الكشف ، وانتهى بتقديم بعض نماذج من كشف الصوفية ، وتجربة ابن عربي الخاصة في مجال الكشف.

ويعتبر الكتاب نموذجا للكتابة العلمية المركزة والواضحة معا ، كما يتميز بحسن التقسيم ، وجودة استخدام النصوص القديمة ، وفهمها في ضوء العصر الحاضر .

١٢- ابن عربي وليبتز :

يعد موضوع هذا الكتاب أحد اكتشافات محمود قاسم العلمية . وهو عبارة عن مقارنة موضوعية تحليلية بين المفكر الألماني ليبتز ، والفيلسوف الصوفي المسلم ابن عربي ، وبعد مقدمة تفصيلية «آثرا أن نضعها في هذا الكتاب التذكاري لأهميتها العلمية» تتوالى الفصول الإثنا عشر على النحو التالي :

- ١- حياة محيي الدين بن عربي .
- ٢- حياة ليبتز .
- ٣- فكرة «الحياة تسرى في كل شئ» .
- ٤- نزعة التفاؤل عند كلا المفكرين .
- ٥- الخير والشر عند ابن عربي .
- ٦- الخير والشر عند ليبتز .
- ٧- القضاء والقدر عند كلا المفكرين .
- ٨- فكرة الذرات الروحية عند كلا المفكرين .

٩- فكرة اللامتناهيات عند كلا المفكرين .

١٠- ميثافيزيقا الجواهر عند كلا المفكرين .

١١- مراتب الجواهر الروحية والموناد عند كلا المفكرين .

١٢- طبيعة النفس عند كلا المفكرين .

وفي الخاتمة ، يصرح بعدم تمكنه من دراسة قنوات التأثير والتأثر التي تقوم بين ابن عربي وليبنتر ، من الناحية التاريخية ، كما فعل ذلك من قبل بالنسبة لابن رشد، ويقول : «فلعلنا أثّرنا هنا مشكلة تصلح لدراسة جديدة ، وقد تستهوى بعض الباحثين ، وهي : كيف اهتدى لبيتز إلى أصول كثير من نظرياته الفلسفية في تراثنا الإسلامي والعربي ، وقد يجوز لي أن أهدي مثل هذه المشكلة إلى من يشاء من أبنائنا في الشرق ، أو في الشمال الإفريقي بصفة خاصة ، ممن يرون التخصص في الدراسات الفلسفية المقارنة» (ص٢٩٦ من الخاتمة) .

وهكذا يفعل الأستاذ العظيم : لا يقتصر على اكتشاف حقائق في العلم ، وإنما يستحث الباحثين باستمرار على تناول المشكلات التي أثار انتباهه .

.. وكان هذا الكتاب المتميز آخر العطاء لجهد دؤوب ومتواصل ، وكان واعدًا بشمار أخرى كثيرة ، ولكن المنية عاجلته ، فرحمة الله عليه .

ج - الكتب المترجمة :

١- التطور الخالق :

تأليف هنرى برجسون وترجمة د. محمود قاسم ومراجعة د. نجيب بلدى .

ويتناول الكتاب نشأة العقل الإنسانى ، وتطوره ، وإسهاماته فس سبيل الوصول إلى الحقيقة المطلقة .

ويحتوى على مقدمة وأربعة فصول ، عنوان الفصل الأول : تطور الحياة - المذهب الميكانيكى والغائية ، وفيه يعرض للديمومة فى حياة الإنسان ، والأجسام غير العضوية ، ومذهب التحول ، وعلم الحياة والفلسفة ووراثة الخواص المكتسبة .

أما الفصل الثانى فهو بعنوان : الاتجاهات المتباعدة لتطور الحياة : وفيه يتناول برجسون بعض الأفكار الهامة مثل : التكيف والتقدم ، والعقل والغريزة ، والوظيفة الطبيعية للعقل ، وطبيعة الغريزة ، والحياة والشعور .

ويتناول الفصل الثالث : معنى الحياة و نظام الطبيعة وشكل العقل ، وأخيرا يعرض الفصل الرابع لماسماه المؤلف بالعملية السينماتوغرافية للتفكير ، الروم الميكانيكى ، والصيرورة الحقيقية ، والمذهب التطورى الخاطئ .

والواقع أن هذا الكتاب يعتبر هو العمل الرئيسى للفيلسوف الفرنسى برجسون (ت ١٩٤١) والذى شغل بيريق فلسفته الجو الثقافى فى أوروبا فى النصف الأول من القرن العشرين .

٢- برجسون : حياته وإنتاجه مع عرض لفلسفته :

تأليف أندريه كرسون ، وترجمة د. محمود قاسم ، ومراجعة د. محمد محمد القصاص .

والكتاب ينقسم إلى قسمين ، يتناول القسم الأول حياة برجسون : مولده ونشأته العلمية ، وحياته العامة ، ووفاته سنة ١٩٤١ .

أما القسم الثاني ، وهو يمثل الجزء الأكبر من الكتاب ، فقد تناول فيه المؤلف فلسفة برجسون ، وموقعها من الفلسفة المعاصرة له ، كما عرض لإنتاج برجسون الفكرى ، الذى يحتوى على الكتب التى نشرها وعددها عشرة ، والمقالات التى ظهرت فى المجلات والدوريات ، والخطب التى ألقاها فى الاحتفالات الرسمية ، ومساهمته فى نشر كتب غيره ، ومحاضراته ، وأخيرا الرسائل التى بعث بها لمختلف العلماء والفلاسفة .

ثم قدم المؤلف مجموعة نصوص مختارة من كتابات برجسون ليشمل الجزء الباقي من الكتاب .

وقد قام الدكتور محمود قاسم - بمساعد السيد أنطون غزال المحرر بمجمع اللغة العربية - بعمل فهرس للمصطلحات الموجودة بالكتاب - وترجمتها إلى اللغة العربية .

٣- فلسفة أوجست كونت :

تأليف : ليفى بريل ، وترجمة د. محمود قاسم ، ود. السيد محمد بدوى .
وقد قدم المترجمان - اللذان ترجع زمالتهما إلى أيام الدراسة فى باريس سنة ١٩٣٨ -
للكتاب بمقدمة تناولت الجوانب الشخصية والفكرية لأوجست كونت ،
ومشيرين إلى سبب اختيارهما ترجمة هذا الكتاب باعتباره المصدر الأساسى الأول
الذى يلقي ضوءا مفعما على أصول كثير من نظريات المدرسة الفرنسية فى علم
الاجتماع ، وعلى الاتجاهات العامة فى هذا النوع من البحوث .

أما الكتاب نفسه ، فيتكون من مقدمة تتناول أثر الثورة الفرنسية فى فلسفة
أوجست كونت الوضعية أو العلمية ، وأصاليته فى بحث الظواهر الاجتماع-ية ،
ووحدة المذهب لديه ، وأخيرا منهج الكتاب الذى يرمى إلى دراسة الفلسفة
الحقيقية لكونت .

ثم تتوالى فصول الكتاب ، فيتناول الفصل الأول : المشكلة الفلسفية ودور
الفلسفة فى تنظيم الحياة العقلية . وقانون الحالات الثلاث : اللاهوتية ،
والتيافيزيقية ، والوضعية أو العلمية ، ويعرض للعلم ومنابعه ، وظواهره وقوانينه ،
وعلاقة العلم بالمنطق الوضعى . ثم يتحدث الفصل الثانى عن فلسفة العلوم ، ويبين
وظيفة العلوم الرياضية وصلتها بالعلوم الأخرى ، وعلم الفلك : موضوعه ومنهجه ،
وعلوم العالم غير العضوى ، وكيف تهيمن الفلسفة الوضعية على العلوم : علم الحياة
وعلم النفس .

أما الفصل الثالث فيعرض للانتقال من الحيوانية إلى الإنسانية ، مركزا على
ظهور الفن واللغة ، ويقدم ملاحظات عامة على العلم الاجتماعى ، وعلم الاجتماع
الخاص بالتطور ، أو الدينامية الاجتماعية ، ثم فلسفة التاريخ .

وفى الفصل الرابع يعرض لمبادئ الأخلاق . ويتحدث عن الأخلاق الاجتماعية، وموقف الفلسفة الوضعية من مشكلة إعادة تنظيم المجتمع ، وفكرة الإنسانية ، والديانة الجديدة التى ترى أن الإنسانية تعتبر موضع تقديس وعبادة .

ثم تأتى الخاتمة محتوية على الأفكار الآتية : علم الاجتماع محور رئيسى لفلسفة كونت ، وتحول العلم عند كونت إلى فلسفة ، وموقف الفلسفة الوضعية من الفلسفة السابقة عليها ، وأخيرا مستقبل العلوم الأخلاقية والاجتماعية .

٤- اتجاهات الفلسفة المعاصرة :

تأليف : إميل بيرييه، وترجمة د. محمود قاسم، ومراجعة د. محمد القصاص .
فى مقدمة محمود قاسم لترجمة هذا الكتاب ، يذكر أنه من خيرة الكتب التى تكشف لنا عن الاتجاه العلمى لدى إميل بيرييه ، الذى خصص حياته لدراسة الفلسفة الغربية فى مختلف عصورها ، كما يصرح بأنه كان أستاذه فى جامعة السوربون ، ويشيد بحسن معاملته ، وجميل أخلاقه .

ويقع الكتاب فى ١٤ فصلا ، يذكر فى الفصل الأول أن التناج الفلسفى مظهر ضرورى للحضارة الغربية ، أما الفصل الثانى فيبين أن الفلسفة الحديثة منذ بداية القرن العشرين تبحث عن إقامة التوازن بين تصورين مختلفين : الأول يقول بأن المعرفة الحقة هى أن تدرك النفس حقيقة جوهرها ومصيرها ، وهذا التصور وثيق الصلة بأفلاطون ، والثانى يذهب إلى أن المعرفة ليست غاية فى ذاتها ، وإنما هى وسيلة إلى السيطرة على العالم الخارجى ، بالكشف عن قوانينه ، وهذا الطابع هو الغالب على الفلسفة التى نادى بها ليكون ، وقد قامت الفلسفة المعاصرة لتقاوم النزعة المادية المفرطة التى شاعت فى القرن التاسع عشر ، عندما تصور المفكرون أن العلم سوف يحل لهم جميع المشكلات الإنسانية ، وقد تمثل هذا الاتجاه الجديد لدى

أمثال برجسون ، موريس بلوندل ، ليون برنشفيك .

ويؤكد برييه فى الفصل الثالث على أن طريقة تحليل الظواهر إلى عناصرها الأولية ، وهى طريقة العلم فى دراسة الظواهر المادية ، لاتصلح لدراسة الناحية الروحية أو العقلية ، فالشعور ليس ظاهرة بسيطة ، وإنما هو بالأحرى ظاهرة معقدة إلى أبعد حد .

وفى الفصل الرابع ، تزداد هذه الفكرة وضوحا ، حيث يعرض برييه لعلم نفس الصورة «الجشالت» الذى ظهر ليناهض علم النفس التقليدى .

ويعرض المؤلف فى الفصل الخامس لنظرية جديد فى علم نفس ، وهو نظرية التحليل النفس لدى فرويد .

وتتناول الفصول «٦، ٧، ٨» للدراسات الفلسفية الحديثة عن الإنسان من الوجهة التاريخية ، ثم الإنسان فى المجتمع ، ثم الإنسان والحقيقة العليا .

أما الفصل التاسع فيؤكد على أن علماء الأخلاق المعاصرين من علماء المدرسة الاجتماعية قد غلوا فى القول بنسبية الأخلاق ، وبأن الفرد يجب أن يكون خاضعا للمجتمع . وقد غفل هؤلاء عن التفرقة بين المبادئ الأخلاقية التى لاتتغير وبين التفاصيل أو التطبيقات الفرعية التى تتطور تبعا لاختلاف الأقطار والأزمان ، وأن حرية الفرد الأخلاقية هى أساس أى تقدم اجتماعى . ويحذر برييه فى الفصل العاشر من تعرض القيم الأخلاقية فى العالم الغربى للخطر .

أما الفصل الحادى عشر فيذكر أن الفلسفة المعاصرة فلسفة نقد ، تسعى لإدراك حقيقة كل شىء ، حتى المبادئ الأولى فى العلوم التى كان السابقون يعدونها بديهيات .

ويعرض المؤلف فى الفصلين «١٢، ١٣» لنظريتين فلسفتين ، قدر لهما الذبوع

لارتباطهما بالحياة العملية ، وهى : المذهب المادى الجدلى عند ماركس ، ومذهب الوجوديه لدى هيدجر وسارتر .

ويعتبر الفصل ١٤ خاتمه للكتاب ، يلخص أهم النتائج والأفكار التى احتواها هذا الكتاب المختصر ، التى يرى د. محمود قاسم أنها تصلح أن تكون بدءا لحديث جديد فى علم الفكر والفلسفة .

٥- التربية الوظيفية :

تأليف ادوارد كلاهارد ، ترجمة د. محمود قاسم ، مراجعة د. محمود ثابت الفندى . ويتكون الكتاب من عشرة فصول وخاتمه ، ويمثل الفصل الأول مقدمة الكتاب التى تتناول بالتعريف معنى التربية الوظيفية ، والمقصود الحقيقى من هذا المصطلح ، والمعانى المرتبطة به من مثل التربية القائمة على أساس علم النفس عند جون لوك ، وهربرت ، وأصول علم النفس الوظيفى ، والقوانين الكبرى للسلوك كقانون الحاجة ، وقانون امتداد الحياة العقلية ، وقانون الإدراك الشعورى .

ويتناول الفصل الثانى : چان چاك روسو والفكرة الوظيفية للطفولة . أما الفصل الثالث فيختص بدراسة سيكلوجية الذكاء ، والرابع : وظيفة الإرادة ، والخامس : كيف يتعلم الأستاذ من الطفل ، والسادس : سيكلوجية مدرسة النشاط ، والسابع : طريقة وظيفية لتدريس اللغة ، والثامن : التربية والديمقراطية ، والتاسع : لماذا يتشاءب الإنسان؟ والعاشر : وجهة النظر الوظيفية فى التربية .

ثم تأتى الخاتمة ، لتجيب على السؤال الثانى : هل التربية حياة أم إعداد للحياة ؟ .

ويلاحظ أن محمود قاسم قد كتب بحثا عن تربية الطفل بين الغزالي وچان چاك روسو . ومن الواضح أن الأفكار المتعلقة ببحثه عن هذا الأخير قد استمدت من هذا الكتاب .

٦ ميلاد الذكاء عند الطفل :

تأليف چان يياچيه ، ترجمة د. محمود قاسم ، مراجعة د. محمد محمد القصاص .

يعد هذا الكتاب واحدا من مجموعة الكتب التي خصصها المؤلف لدراسة بدايات الذكاء ، ولتختلف مظاهر الذكاء الحس الحركي ، ولأشد أشكال التصور بدائية .

ومدخل الكتاب يتناول المشكلة البيولوجية للذكاء . أما القسم الأول فيحتوي على فصلين ، يتناول الأول منهما دراسة العقل المنعكس عند الطفل ، والمسائل النفسية التي يثيرها ، بينما يختص الثاني بضروب الترابط المكتسبة والعادات الأولية .

ويضم القسم الثاني من الكتاب - وهو بعنوان التكييفات الحسية الحركية القصدية - الأربعة الفصول الأخرى (٣،٤،٥،٦) .

يتناول الفصل الثالث ردود الأفعال الدائرية الثانوية والأساليب التي تهدف إلى العمل على استمرار المناظر الممتعة .

ويعرض الفصل الرابع لتنسيق الصور الإجمالية الثانوية ، وتطبيقها على المواقف الجديدة . وتظهر هذه المرحلة في حوالى الشهر الثامن أو التاسع من عمر الطفل .

أما الفصل الخامس فيعرض لرد الفعل الدائري الثلاثي ، والسادس لاختراع الوسائل الجديدة بطريق التركيب العقلي .

وتأتى النتائج تحت عنوان : الذكاء الحسى الحركي ، أو العمل ، ونظريات الذكاء .

وفى الختام ، ينبغي التنويه بقدرة المترجم على إيجاد المصطلح العربى المناسب للمصطلح الفرنسى فى مجال علم النفس ، وهو بدون شك علم جديد تماما على اللغة العربية فى الوقت الذى تمت فيه ترجمة الكتاب .

٧- قواعد المنهج فى علم الاجتماع :

تأليف : إميل دوركايم ، ترجمة : د. محمود قاسم . مراجعة : د. السيد محمد بدوى .

يذكر الدكتور محمود قاسم فى مقدمته لترجمة هذا الكتاب الهام ، أن الفضل فى النهوض بعلم الاجتماع وتحديد مجال بحثه ، وبيان طرقه يرجع إلى دوركايم ، وهو الذى يعد مؤسس المدرسة الفرنسية فى علم الاجتماع ، وهى ذات تأثير بالغ فى توجيه البحوث الاجتماعية .

وقد كتب د. قاسم نبذة عن حياة دوركايم ، ثم أشار إلى أهم الأسباب التى دفعت لترجمة كتابه ، ومنها أنه يمتاز بشدة التركيز وعظيم الفائدة ، وهو مازال دستوراً لعلماء الاجتماع ، ومرجعاً هاماً للباحثين فيه .

وقد بين د. قاسم أن الفكرة الرئيسية التى كانت أساساً لجميع بحوث دوركايم هى أن علم الاجتماع ليس تكملة لعلم النفس ، بل هو علم قائم بذاته ، وذلك لأنه يدرس طائفة من الظواهر التى لا يشاركه فى دراستها علم آخر ، ولأنه يدرسها بطريقة مبتكرة تختلف عن تلك التى ألفها الناس فى معالجة الأمور الاجتماعية .

والكتاب يتألف من مقدمتين ، إحداهما للطبعة الأولى ، والأخرى للطبعة الثانية ، ومن ستة فصول ، وخاتمة .

وتلقى المقدمة الثانية ضوئاً كبيراً على فكرة دوركايم ، وذلك لأنه خصصها للرد على أوجه النقد التى أثارها ظهور الكتاب فى طبعته الأولى .

أما الفصل الأول فيحتوى على تعريف الظاهرة الاجتماعية ، وبيان طبيعتها ، ويتناول الفصل الثانى القواعد التى يجب اتباعها فى ملاحظة الظواهر الاجتماعية ، ويفرق المؤلف ، فى الفصل الثالث بين نوعين من الظواهر الاجتماعية ، هما :
الظواهر السليمة والظواهر المعتلة .

ثم يبين المؤلف - فى الفصل الرابع - ضرورة تصنيف الأنواع أو النماذج الاجتماعية حتى يمكن وصف الظواهر بالسلامة أو الاعتلال .

ويختص الفصل الخامس بتفسير الظواهر الاجتماعية ، وهو خير تعبير عن وجهة نظر المؤلف .

أما الفصل السادس والأخير فيعرض للقواعد التى ينبغى اتباعها فى إقامة البراهين ، ثم تأتى الخاتمة لتعرض للصفات العامة لطريقة المؤلف فى هذا الكتاب .

٨- مقدمة فى علم النفس الاجتماعى :

تأليف شارل بلوندل . ترجمة محمود قاسم بالاشتراك مع د. ابراهيم سلامة .

كان هذا الكتاب من أوائل المترجمات التى قام د. محمود قاسم (سنة ١٩٥١) وقد وضع المترجمان فى بداية الترجمة الإجازة التى حصلوا عليها من دار النشر الفرنسية ، مما يعطيها الحق فى ترجمة الكتاب ، ونشره ، وإعادة نشره فيما بعد . وهذا هو التقليد العلمى الصحيح . ومن الملاحظ أن المترجمين العرب قد أهملوه تماماً فيما بعد ..

يرى المؤلف فى المقدمة أهمية التعريف بهذا الفرع الجديد من فروع علم النفس وهو علم النفس الاجتماعى ، وذلك من خلال وسيلتين ، الأولى : دراسة الآراء السيكولوجية لدى كل من أوجست كونت ، ودوركايم ، وتارد . والثانية : تحليل الحياة العقلية الراقية بحسب ما تؤدى إليه الملاحظة .

وقد ذكر المؤلف أنه صدر في عمله هذا من فرضية ترى أن علم النفس الاجتماعي يمكن أن يكون مركزاً أو محورياً لعلم النفس العام ، وقد أكد أن هذه الفرضية تتمشى مع مجموعة الحقائق التي يعرفها .

وقد خصص المؤلف القسم الأول من الكتاب لدراسة الآراء السيكلوجية عند كل من أوجست كونت في الفصل الأول ، ودوركاييم في الفصل الثاني ، وتارد في الفصل الثالث . أما الفصل الرابع فقد ناقش فيه النتائج العملية لهذه الآراء والنظريات .

أما القسم الثاني فقد جاء تحت عنوان «نصيب الجماعة من الحياة العقلية» ويشتمل على ثلاثة فصول : الأول للإدراك ، والثاني للذاكرة ، والثالث للحياة الوجدانية .

وتأتي الخاتمة أخيراً ليلخص فيها المؤلف أهم النتائج التي توصل إليها من خلال هذه الدراسة التي تعتبر جديدة في هذا المجال .

٩- مبادئ علم الاجتماع الديني :

تأليف روجيه باستيد . ترجمة د. محمود قاسم .

صدر د. محمود قاسم ترجمته بالإجازة التي حصل عليها من دار النشر الفرنسية وهي التي تتيح له حق ترجمة الكتاب ونشره . ثم كتب مقدمة علمية ، وعرض فيها لعدة أفكار من بينها : أن العاطفة الدينية أشد العواطف الإنسانية لصوقاً بالنفس ، وهي أعظم العواطف تأثيراً في حياة الشعوب والأفراد . كما أشار إلى أن الاتصال بين الشعوب من مختلفي الملل سبب في نشأة علم مقارنة الأديان ، وأن نشأة علم الاجتماع الديني ترجع إلى تبادل العون بين علماء مقارنة الأديان وعلماء الأجناس ، وعلماء الاجتماع . كذلك فإن هناك عدداً من النظريات قد

ظهرت من أجل تفسير نشأة الدين ، وأن هناك تعارضاً شديداً بينها .

وقد نقد د. محمود قاسم نظرية دوركايم فى نشأة الدين ، وبين أن من بين الأسباب التى دعت له لترجمة هذا الكتاب هو مخالفته فى نظريته ، حتى لا تكون المخالفة مجردة من إيراد رأى المنكر الذى نختلف معه . وقد نبه د. قاسم إلى أنه لا يتفق مع رأى مؤلف الكتاب أيضاً ، الذى يظن أن العقائد الإسلامية قد تطورت بنفس الصورة التى تطورت بها العقائد المسيحية .

أما كتاب باستيد ، فينقسم إلى تصدير ، ومقدمة ، وأربعة أقسام ، وخاتمة . وتحتوى المقدمة على بيان موضوع علم الاجتماع الدينى ، وحدوده ، ومنهجه . بالإضافة إلى نقد مبدئى لنظرية دوركايم ، ثم عرض لنشأة علم الاجتماع الدينى ، ورسم لخطة الكتاب ومنهجه .

ويحتوى القسم الأول على : تعريف الدين ، والثانى : تعريف السحر . أما القسم الثانى بعنوان «العناصر الاجتماعية فى الحياة الدينية» فيقع فى أربعة فصول : العناصر الفكرية ، الأمور المحرمة ، العلاقات بين الدين والأخلاق ، العناصر الحركية أو الطقوس ، والنظام الدينى .

وعنوان القسم الثالث : المذاهب الدينية ، وفيه أربعة فصول : الشروط الجغرافية للحياة الدينية ، والاجتماعية ، والعلاقات بين المذاهب الدينية ، والعلاقات بين النظم الدينية والاجتماعية .

ويأتى القسم الرابع تحت عنوان « مشكلة أصل الديانات وتطورها » وفيه ثلاثة فصول عن النظريات ، ونتائج التاريخ وعلم الأجناس ، ثم قوانين التطور الدينى . وتجدر الإشارة إلى أن د. قاسم قد ترجم هذا الكتاب سنة ١٩٥١ ، حيث كان الموضوع جديداً تماماً فى مجال اللغة العربية .

١٠- الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية :

تأليف : ليفي بريل ، ترجمة د. محمود قاسم ، مراجعة د. السيد محمد بدوى . يهدف المؤلف إلى أن المذاهب الخلقية التى يقدمها الفلاسفة يجب أن يستعاض عنها بعلم العادات الأخلاقية بعيدا عن وجهة النظر المعيارية ، وأن يصبح هذا العلم الجديد بفن خلقى عقلى يستمد منه قواعده .

ويتمثل دور علم العادات الأخلاقية فى أنه يبين ماهية المذاهب الأخلاقية من الناحية التاريخية ، وكيف أنها تعبر عن مجهود كان لا بد من بذله ، لتنظيم السلوك الخلقى السائد ، وأن يعترف أخيرا لهذه المذاهب بالدور العظيم الذى لعبته أحيانا فى التطور الخلقى للمجتمعات المستحضرة . وهكذا يحل علم العادات الأخلاقية محل المذاهب الأخلاقية . جاء الكتاب فى تسعة فصول تتابعت على النحو التالى :

ف١: ليس هناك علم أخلاق نظرى ، ومن غير الممكن أن يوجد هذا العلم .

ف٢: ما المذاهب الخلقية النظرية فى الوقت الحاضر ؟ .

ف٣: مبادئ الأخلاق النظرية .

ف٤: ما العلوم النظرية التى تتوقف عليها الأخلاق العملية ؟ .

ف٥: ردود على بعض الاعتراضات .

ف٦: السوابق التاريخية لعلم العادات الخلقية .

ف٧: الأخلاق الطبيعية .

ف٨: العاطفة الخلقية .

ف٩: نتائج عملية .

ومرة أخرى ، تجدر الإشارة إلى جودة اختيار محمود قاسم : المترجم لأحدث ماكان بمصدر فى أوربا من علوم ونظريات ، لم تكن معروفة على الإطلاق لدى الباحثين والقراء فى اللغة العربية .

١١- تاريخ الأدب الفرنسى (ج ٢) :

تأليف جوستاف لانسون . ترجمة د. محمود قاسم . مراجعة د. سهير القلماوى .

سبق إلى ترجمة الجزء الأول من هذا الكتاب أ. د. محمد محمد القصاص ، ويحتوى على الأجزاء (١، ٢، ٣، ٤) ، وبعض الجزء الخامس .

أما الجزء الثانى الذى ترجمة قاسم فيحتوى على «بقية الجزء الخامس ، والجزئين السادس والسابع» .

ويبدأ الكتاب بعرض الأدب الفرنسى : الدرامى ، والقصصى فى القرن الثامن عشر . أما الجزء السادس فيتناول الأدب الفرنسى فى القرن التاسع عشر متعرضا للنتائج الأدبية للثورة الفرنسية ، والتمهيد للمذهب الرومانتيكى ، والحركة الفلسفية والسياسية والدينية عقب الثورة الفرنسية ، والعصر الرومانتيكى ، والمذهب الطبيعى واتساع مجال النقد بظهور سانت ييف وتطبيقاته فى مجال الشعر لدى بودلير ، والمسرحية الهزلية لدى إميل أوجييه ، والقصة لدى فلوبير ، وإميل زولا . ثم المذهب الانطباعى والإخوة جوناكور ، وموباسان كأديب طبيعى محض .

أما الجزء السابع من الكتاب فموضوعه القرن العشرون واحتوى على خمسة فصول تتضمن العصر الرمزى وماقبل الحرب ، ثم الرمزية فى الشعر ، والرمزية فى القصة ، والمسرح ، والنقد .

ثم جاءت خاتمة الكتاب لتؤكد أنه لم يكن للحرب العالمية الأولى من أثر فى

الأدب سوى أنها زادت مؤقتاً من حدة بعض الاتجاهات التي كانت موجودة قبل قيامها مثل : الذاتية ، والرومانتيكية ، والرمزية . وهناك ثلاثة كتاب يسيطرون على عشر السنوات الأولى بعد الحرب وهم : مارسيل بروس ، وأندريه جيد ، وبول فاليري .

وقد ذيل الكتاب بقوائم تحتوى على :

- أسماء كبار الكتاب في العصر الحديث ، وأمثلة من إنتاجهم .
- فهرس بمصطلحات النص المتصلة بلغة النقد الأدبي والفلسفة .
- جداول تاريخية للكتاب ، والآثار الأدبية .
- فهرس للأعلام .

١٢- مسرحية لعبة الحب والمصادفة* :

تأليف ماريغو (ت ١٧٦٣) ترجمة د. محمود قاسم . مراجعة د. محمد القصاص .

وقد صدرت ترجمة هذه المسرحية ضمن مجموعة روائع المسرح العالمى (رقم ١٣) التي كانت تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومى .

ولم يقدم د. محمود قاسم لهذه المسرحية مكتفياً بالتقديم الذى قام به د. محمد مندور (زميله فى الدراسة فى باريس سنة ١٩٣٨) .

* كثيراً ما سألت أستاذى المرحوم د. محمود قاسم عن سبب ترجمته لهذه المسرحية ، ولكنه لم يصارحنى قط بالسبب . وكان يكتفى بالابتسام . وذات مرة ، وبعد إلحاحى ، قال : أنت نفسك تدرس الفلسفة ، وأنا لم أمنعك من كتابة الشعر . فلماذا تندesh من تناولى أحياناً للأدب !

يقول د. مندور فى مقدمته - إن الأدب المسرحى يعد من ألق الفنون بالحياة وتطورها عبر القرون . وأن مسرحية لعبة الحب والمصادفة لماريفو - وهو أحد كبار كتاب الملهاة فى القرن الثامن عشر - يوضح هذه الحقيقة بهجاء .

وقد برع ماريفو فى لون كوميدى الدراسة والتحليل ، وإن كان قد كتب بعض المسرحيات الكوميدية فى نقد بعض الأوضاع الاجتماعية الفاسدة . ويقول مندور : إن ماريفو تخصص فى تحليل عاطفة واحدة من عواطف النفس الإنسانية الكبرى ، بل لعلها أكبرها على الإطلاق ، وهى عاطفة الحب . وتعد مسرحيته - التى بين أيدينا - من خير المسرحيات التى كتبها فى دراسة وتحليل هذه العاطفة بفننه وأسلوبه الخاص المتميز ، الذى كون بفضلته فى حياته نفسها ، مدرسة مسرحية خاصة أطلق عليها معاصروه مدرسة ماريفو «وسموها» الماريفووية التى تمتاز بعلاج عواطف النفس البشرية بروح الدعابة الخفيفة المجنحة .

١٣- إعداد واختيار مدرسى التعليم الثانوى :

يبدو أنه تقرير تربوى قام د. قاسم بترجمته ، بتكليف من وزارة التربية والتعليم . ولم تتمكن ، مع الأسف ، من الاطلاع عليه . ولكنه يلبي حاجة أساسية فى مجال التربية .

د. مراجعة ترجمات :

* المنطق الحديث وفلسفة العلوم

تأليف : بول موي

ترجمة : د. فؤاد زكريا

* نشأة النظام الاجتماعي وتطوره من العشائر إلى الإمبراطوريات

تأليف أ. موريه ، ج. دفي

ترجمة : عبد العزيز برهام

* تأملات في سلوك الإنسان

تأليف : كارل الكسيس

ترجمة : د. محمد محمد القصاص

هـ . تحقيق التراث :

١- الشفاء لابن سينا

الفن الثاني ، والثالث ، والرابع من الطبيعيات

(السماء والعالم - الكون والفساد - الأفعال والانفعالات) .

٢- مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد

وقد صدره بمقدمة في نقد مدارس

علم الكلام (انظر : التأليف)

٣- تلخيص كتاب العبارة لابن رشد

٤- تلخيص كتاب الشعر لابن رشد

٥- تلخيص كتاب الجدل لابن رشد

٦- تلخيص كتاب البرهان لابن رشد

٧- تلخيص كتاب المقولات لابن رشد

٨- المغنى للقاضى عبد الجبار

(الجزء الخامس عشر : الكلام فى النبوات) .

و. الإشراف على الرسائل (وكلها ماجستير) :

١- فخر الدين الرازى وآرؤه الكلامية والفلسفية : محمد صالح الزركان
١٩٦٣.

٢- الله والإنسان فى مذهب حميد الدين الكرمانى : أحمد الداودى ١٩٦٥ .

٣- عقائد الإمامية الإثنا عشرية وأصولها : محمد الأنور السنهوتى ١٩٦٧ .

٤- غاية المرام فى علم الكلام للآمدى «تحقيق ودراسة» : حسن محمد
عبد اللطيف الشافعى ١٩٦٨ .

٥- قطر الولى على حديث الولى للشوكانى «تحقيق ودراسة» : ابراهيم ابراهيم
هلال ١٩٦٨ .

٦- مشكلة الحرية الإنسانية عند المعتزلة : فى ضوء سبع رسائل فى العدل
والتوحيد محمد عمارة ١٩٧٠ .

٧- قضية التأويل عند ابن تيمية : محمد السيد الجليلند ١٩٧٠ .

٨- الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام : مقداد يلجن ١٩٧١ .

٩- الإنسان عند إخوان الصفا : عبد اللطيف محمد العبد ١٩٧١ .

١٠- أبو طالب المكى ومنهجه الصوفى : عبد الحميد مذكور ١٩٧٢ .

١١- روح القدس فى مناصحة النفس لابن عربى (تحقيق ودراسة) :
حامد طاهر ١٩٧٣ .

وقد اشترك ، بالإضافة إلى ذلك ، فى مناقشة العديد من رسائل الماجستير
والدكتوراه التى كانت تحت إشراف زملائه من أمثال على سامى النشار ، عثمان

أمين ، أبو ريان ، كما حدث أنه شارك في مناقشة رسالة عن المحاسبة في كلية
التجارة بجامعة عين شمس ، كانت تدور حول تطبيق مناهج البحث الحديثة على
علم المحاسبة .



القسم الثانى

نماذج من كتاباته

* الفلسفة الإسلامية : منهجها واتجاهاتها

* الأفكار المتشابهة عند ابن عربى وليبنز

* المنطق الحديث ومناهج البحث

الفلسفة الإسلامية : منهجها واتجاهاتها *

أ.د. محمود قاسم

ينبغي أن نشير إلى أن هناك منهجين في دراسة الفكر الإسلامى ، تغلب على أحدهما المسحة التاريخية ، وتبرز في الآخر الناحية الموضوعية ، إذ من العسير في هذا المجال أن نفصل بين هاتين الناحيتين ، وإن أمكن أن نجعل الصدارة لإحدهما دون الأخرى . وربما كان المنهج الأول أيسر مورداً ، وذلك لكثرة الوثائق والنصوص التى يجدها الباحث فى كتب التراجم والفرق والطبقات والمراجع التاريخية للمجتمع الإسلامى ، منذ ظهور الفكر الإسلامى حتى الآن ، ويمتاز هذا المنهج بأنه يضع فى متناول الباحث مادة ضخمة قد تغريه بأن يقترب منها ، وأن يعرض على المعاصرين كثيراً من التفاصيل وملامح المفكرين التى قد يجهلون فيها ،

* هذا الموضوع منقول بتصريف يسير جداً من مقدمة كتاب «دراسات فى الفلسفة الإسلامية» ، ط. دار المعارف ١٩٧٣ م .

والتي قد لا تدخل تحت حصر . غير أن هذه الميزة قد تنقلب ، فتصبح أحد عيوب هذا المنهج ، لأن التفاصيل التاريخية وما يحيط بها من قصص وأساطير ، أحيانا ، قد تستهوى قلم الباحث ، فتخرجه عن موضوعه الأساسي ، وهو عرض نماذج واضحة محددة للفكر الإسلامي تكشف لنا عن اتجاهاته الأصيلة وخصائصه الذاتية ، وعن عوامل نشأتها وتطورها وتفسيرها على نحو يلتقي ضوءا مفعما عليها في عصر معين ، وعلى الأصول التي انحدرت منها ، وعلى النتائج الثقافية والاجتماعية التي أسفرت عنها .

أما المنهج الآخر فيحاول أن يتجه رأسا إلى موضوعات محددة من التفكير الفلسفي ليتخذها مادة لنوع من الدراسات المركزة التي تعنى بالأفكار أكثر مما تعنى بالتفاصيل التاريخية ، ودون أن تغض من شأنها ، إذ لا تخلو من فائدة ، وهي ترشد بعض الباحثين إلى توجيه بحوثهم اتجاهات جديدة .

وأيا ما كان الأمر ، فإن المنهج الموضوعي يثير مشكلات محددة ، ويدرسها دراسة مقارنة ، وقد يجد لها حولا جديدة ، إذا اهتدى إلى وثائق جديدة تدعو إلى وجهات نظر مخالفة لتلك التي ارتضاها باحثون سابقون . ويقوم هذا المنهج أساسا على عمليتي التحليل والتركيب ، كما هي الحال في دراسة الوثائق التاريخية أي أنه يتطلب دراسة تحليلية كافية ، ثم يحتاج إلى نظرة تركيبية ترم على اختيار الآراء الرئيسية ، وما يدور حولها من تفاصيل فرعية . وهو منهج أكثر عسرا من المنهج السابق ، وربما كان أقل إغراء لهواة القصص والنوادر ، أو لهؤلاء الذين يسعدهم أن يثقل عليهم المؤلفون بجهاز معقد من المراجع وتراجم الرجال في استفاضة وكرم . وهو أقل طلاوة ؛ لأنه يضع المرء وجهها لوجه مع النظريات الفلسفية مجردة عن الحوادث التاريخية والاجتماعية العابرة التي أحاطت بشأنها .

وقد بدأت دراسة الفلسفة الإسلامية في مصر تبعا للمنهج الأول ، أي المنهج

التاريخي ، وعلى رأس هذه المدرسة المغفور له الأستاذ مصطفى عبد الرزاق . وقد سار تلاميذه على نهجه . ومن هؤلاء نذكر المرحوم الأستاذ محمود الخضيرى والأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة الذى بذل جهودا مشكورة فى دراسة تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ونشر رسائل الكندى ، وترجم كتاب «ديور» وعلق عليه تعليقات تشهد بأصالته وسعة علمه . ومنهم زميلنا الأستاذ الدكتور على النشار ، وهو الآن بصدد بذل مجهود ضخم فى مجلداته الكبيرة المتابعة عن نشأة التفكير الفلسفى فى الإسلام . ويعد الدكتور النشار باعترافه ، وباعترافنا أيضا، امتدادا لمدرسة الأستاذ مصطفى عبد الرزاق . ويبدو ذلك واضحا فى كتبه العديدة . ويمتاز عمله بإبراز كثير من النصوص التى تربطنا بالمصادر العربية الأصيلة ، التى عالجت موضوع الفرق الإسلامية ، وبالمراجع التاريخية الكبرى ، كما يمتاز بلمحاته التركيبية المثمرة . وللأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى مجهود كبير فى نشر كثير من النصوص الفلسفية وفى ترجمة بحوث كبار المستشرقين ، كذلك عنى الأستاذ الدكتور أبو ريان بالكتابة فى أصول الفلسفة الإشراقية ، على نحو يضمه إلى أصحاب المنهج الثانى ، وهو ينشر نصوصا للسهروردي المقتول مما يجعله يلحق بأصحاب المنهج الأول ، كذلك اشترك مع الأستاذ الدكتور على النشار فى تزويد المكتبة العربية المعاصرة بكثير من النصوص الفلسفية فى كتابهما المسمى «قراءات فى الفلسفة الإسلامية» .

أما الاتجاه الآخر ، الذى يهتم بالناحية الموضوعية ويعتمد فى الوقت نفسه على البحوث التحليلية التفصيلية لكى يختار مذاهب معينة ، ويصنف الآراء ويعيد تركيب العناصر الأولية لموضوعات الفلسفة الإسلامية ، ويدخلها فى إطار تركيبى ، ويعرضها عرضا مركزا تسيطر عليه فكرة موجهة - فنجد له أيضا نماذجه ، وإن كانت قليلة ، وهذا مانراه بوضوح فى كتابات الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور ، فى كتابه عن «الفارابى» وفى كتابه «فى الفلسفة الإسلامية - منهج وتطبيقه» .

ولانريد أن نضرب أمثلة أخرى حتى لا يقال إننا نريد الحديث عن أنفسنا ، وعن إنتاجنا فى مجال التفكير الفلسفى الإسلامى . لكن ينبغى أن نشير إلى جهود زميل كريم خصص حياته لدراسة التصرف الإسلامى ، وهو المرحوم الأستاذ الدكتور مصطفى حلمى ، ودراساته لابن الفارض أشهر من أن يشار إليها ، وهناك مثال جيد آخر جمع بين المنهجين ونعنى به الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود فى كتبه العديدة عن الغزالى ، وابن طفيل ، ونشأة الفكر الإسلامى .

وقد ينبغى لنا أن نبين أن طبيعة المنهج الذى ارتضيناه فى عرض نماذج مختلفة من الفكر الإسلامى هى التى أجازت لنا أن نكون فكرة عامة عنه ، وحقيقة لا يدور بخاطرنا أن نخضع من شأن المنهج التاريخى الذى يغلب لدى الدارسين للفكر الإسلامى ، لكننا نفضل أن نفحص موضوعات محددة ومتفرقة عند مفكرى الإسلام ، وأحيانا قد نعرض الموضوع لدى شخصيات فلسفية مختلفة لكى نصل إلى فكرة موحدة لديهم ، برغم اختلاف مشاربهم أو نزعاتهم . وهذا ما نراه عند الغزالى وابن رشد وابن عربى مثلا فى موقفهم من علم الكلام .

وهذه الفكرة العامة التى نريد تقديمها الآن ليست فكرة سابقة للدراسة أو مستعارة من آخرين ، ولكنها نتيجة منهج استقرائى بدأ بدراسة الموضوعات وانتهى إلى تحديد بعض الصيغ العامة .

فمن نافلة القول أن نؤكد أن لكل حضارة خصائصها المميزة لها ، وأنه إذا كانت هناك عبقرية خاصة باليونان أو الفرس أو الهنود أو الأنجلوساكسون فإن هناك أيضا عبقرية عربية وإسلامية ، أما فى مجال الفكر فإننا نستطيع القول بأن المسلمين كانت لهم مذاهبهم الفلسفية ، وأنهم ساهموا فى الثقافة الإنسانية وفى وضع أسس العلوم الطبيعية والإنسانية وفى تحديد مناهجها . وتلك حقائق تاريخية يمكن الكشف عنها وعرضها عرضا موضوعيا بعيدا عن أسلوب الإدعاء أو الدعاية .

وقد ارتضينا أن نقصر جهودنا على بيان نصيب المسلمين في المجال الفلسفي بمعنى الكلمة . فإذا سلمنا بأن العرب لم تكن لديهم مذاهب فلسفية قبل الإسلام فذلك أمر لا ينكره علينا أحد. وإذا زعم بعضهم أن الفكر الإسلامي يرجع إلى الحضارة اليونانية ، فلذا أن تدفع هذا الغلو بأن نرجع إلى تاريخ الفكر الإنساني الذي يكشف بوضوح عن هذه الحقيقة ، وهي أن المسلمين اليوم لا يدعون أنهم ورثة الحضارة اليونانية الرومانية ، ولئن جاء أحدهم ليخبرهم بأن مستقبل ثقافتهم الفلسفية رهن بالأخذ عن فلسفة اليونان لعجبوا من أمره معهم ، أو مع نفسه عندما يتنبأ بأمور أثبت التاريخ أنها عسيرة التحقيق إن لم تكن مستحيلة ، لكن المسلمين يعترفون طوعا بأن لهم ثقافتهم الفلسفية الخاصة التي لا تستمد من أصول أجنبية بل تتبع من واقعهم الحضاري والديني ، ونريد القول بأن فلسفة الفارابي أو فلسفة ابن سينا لا تحيا في نفوسهم كما تحيا آراء الغزالي أو آراء ابن رشد وإن لم يحظ هذا الفيلسوف عندهم بمكانته الجديرة به .

ومن المؤكد أن أجيالا من المسلمين في الزمن البعيد عرفت الآراء الفلسفية لدى اليونان والفرس والهنود ، وأنها نقلت هذا التراث كله إلى أوروبا في العصور الوسطى ، وأنها أثرت العقلية الأوروبية من جانب آخر بما حققت من تقدم في العلوم الرياضية والطبيعية والإنسانية .

ولقد ذهب بعض الكتاب في القرن التاسع عشر إلى اتهام فلاسفة الإسلام من العرب وغيرهم بأنهم شوهوا الفلسفة اليونانية ، وكان ابن رشد كبش الفداء طيلة عدة قرون في الغرب ، على الرغم من أنهم يصفونه هناك بأنه هو الشارح الأكبر لأرسطو .

واليوم نشهد أن نظرة الأوربيين إليه بدأت تصبح أكثر ميلا إلى الإنصاف واتجاها إلى محاولة فهم وجهات نظر الآخرين . وذلك شيء مثمر وإنساني ،

وبخاصة فى مجال الفكر . وأمام هذه الظاهرة الجديدة ، وأعنى بها روح العدالة فى دراسة نقط اللقاء بين الحضارات المختلفة ، أردنا أن نعرض فكرتنا العامة عن الفلسفة الإسلامية . ولانزعم أننا سنعطى هنا كل التفاصيل الكفيلة بالفهم الكامل للفكر الفلسفى عند المسلمين ، ولذا سنكتفى بأن نحدد التيارات الكبرى لهذا الفكر.

إن الحركة العقلية الأولى عند العرب ترجع إلى نحو من أربعة عشر قرناً ، أى إلى ظهور الإسلام نفسه . وقد اعتمدت هذه الحركة العقلية على أسس دينية ، وارتبطت بواقع اجتماعى متطور . فكثير من الفرق الإسلامية إنما نشأت فى ظروف تاريخية محددة . فمثلاً كان الصراع بين أتباع على بن أبى طالب وأتباع معاوية سبباً فى نشأة كثير من الفرق الدينية . ويكفى أن نتحدث هنا عن الاتجاهات الثلاثة الكبرى فى الفكر الدينى الفلسفى عند المسلمين ، أى عند أهل السنة الذين ، وإن لم يشعروا بكثير من المودة لخلفاء الأمويين ، فإنهم اضطروا إلى قبول حكمهم بل إلى التعاون معهم ؛ وعن طائفة الشيعة التى أعلنت ولاءها للخليفة الرابع الذى قتل ظلماً وغدراً ، وفيما بعد ظهرت طائفة المعتزلة التى آثرت ألا تشارك فى التمزق الداخلى للمجتمع الإسلامى ، وفضلت أن تدافع عن الدين ضد خصومه من كل جانب .

ذلك أن اتصال المسلمين بورثة الحضارات اليهودية المسيحية ، والفارسية والهندية أثار كثيراً من المشكلات الفكرية ، أو الأيديولوجية إن شئت . وكان من الراجب أن يحارب مفكرو الإسلام على عدة جبهات فى آن واحد . وهكذا تميز المعتزلة ، بأنهم من أوائل من دافع عن الأفكار الإسلامية ، باتجاههم العقلى معالجة فى العقائد والقضايا الفلسفية التى تدور حولها .

لقد كان المعتزلة أنصاراً للحرية الإنسانية والمسئولية الفردية . وهما أمران قررهما الإسلام بوضوح كامل . كذلك آمن المعتزلة بالعدل الإلهى وبعناية الله

ولطفه بعباده . كما أظهروا كراهيتهم لمذهب هؤلاء السذج الذين يصفون الله وصفهم للإنسان أى لهؤلاء الذين يشبهون الخالق بالخلق . وكانت حجج المعتزلة مستمدة من الآيات القرآنية ومن بدايات الحس والعقل معا .

ففرقوا بين عالم الأمر وعالم الخلق أى بين عالم الغيب وعالم الشهادة . وفيما بعد وجدت هذه التفرقة عند الكندى أول فيلسوف للعرب ، ثم عند الغزالي ، ومن بعد عند ابن رشد ، ثم انتقلت إلى الفكر المسيحي ، وبخاصة إلى مذهب توماس الأكويني فى القرن الثالث عشر . ذلك أن الأكويني قد ارتضى ماذهب إليه المسلمون من التفرقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة واستخدم مصطلحاتهم مميزا بين ماأطلق عليه هو أيضا اسم طريق التنزيه وطريق التشبيه .

ويلاحظ أن نظرية المعتزلة القائلة بخلق العالم من العدم تركت آثارها الواضحة فى فلسفة الكندى الذى نقد مذهب أرسطو فيما يتعلق بفكرة قدم العالم ، ثم ارتضى الغزالي نظرية الخلق من العدم ، وتوجد تلك النظرية أيضا عند ابن رشد . بل عند محبى الدين بن عربى ، وإن فهمها فهما جديدا وخاصا ، فهو يرى أن الله يخلق العالم مما يطلق عليه اسم العدم النسبى أو الإضافى ، ويعنى به المعانى الإلهية التى تشمل جميع الكائنات منذ الأزل ، وهى التى يسميها أيضا «خزائن الجود الإلهى» . ومن الطريف أن نجد هذه الفكرة بعينها لدى فيلسوف ألماني مشهور مات فى أوائل القرن الثامن عشر ، وهو «ليبنتز» الذى يتحدث هو الآخر عن خزائن الجود الإلهى فيسميها «منطقة الحقائق الأزلية» . وأكثر من ذلك فقد اتخذ ابن رشد فكرة الخلق من العدم أساسا لنظرية خاصة بالمعانى الإلهية ، وهى النظرية التى يمكن أن نطلق عليها اسم نظرية المشاركة Participation بمعنى أن أسمى مراتب الوجود للكائنات توجد فى العلم الإلهى . ومن المعلوم أن هذه النظرية نفسها تحتل مكانا هاما فى مذهب توماس الإكويني .

وقد اعتمد ابن رشد على هذه النظرية لكي يدحض بها نظرية الفيض لدى الفارابي وابن سينا ، وهذه النظرية الأخيرة مستمدة من الفلسفة الأفلاطونية المحدثة ، وهي أقرب إلى القول بقديم العالم ، أو هي فى الأقل محاولة لإنكار ما يعتقده المسلمون من أن الله يخلق العالم دون وسائط أو شركاء فى الخلق ، ولو كانوا ملائكة يشرفون على الأفلاك السماوية ويفيض بعضهم عن بعض كما خيل إلى الفارابي ثم من بعده إلى ابن سينا .

أما فكرة المعتزلة عن العدالة الإلهية فقد انتقلت إلى فلسفة ابن رشد . برغم أنه كان يقول إن آراء المعتزلة لم تعرف فى بلاد الأندلس . كذلك نراها ماثلة بوضوح وتفصيل فى تصوف محيي الدين بن عربى ، ومن بعد فى فلسفة ليبنتز . لكنها لم تظهر فى كتابات الفارابي وابن سينا ظهورها عند المعتزلة وعند من أخذ عنهم ، وهي لاتتسق مع نظريتهما فى الخلق غير المباشر ولا مع فكريتهما التى تقرر أن الله يعلم الأشياء الكلية لا الجزئية .

ومن جانب آخر ، كان المعتزلة أعداء لكل نوع من أنواع الجبر أو الحتمية التى تهبط بالإنسان إلى مستوى النبات أو الجماد ، سواء كان هذا الجبر صارخا أم مقنعا كما هى الحال عند خصومهم . وهم يؤكدون أن من ينكر على الإنسان حرية وقدرته على تحديد مصيره فى نطاق قدرته التى خلقها الله له وميزه بها من غيره من الكائنات ، لا يفعل سوى أن يبرر الاستبداد السياسى والاجتماعى فى مختلف صوره ، وتوجد هذه الفكرة بعينها عند ليبنتز فى كتابه المسمى «العدالة الإلهية» وهو الكتاب الذى يقال إنه اتخذ أساسا لتدريس الفكر الفلسفى فى مدارس فرنسا من ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٩٠ م . أما عن المعتزلة فنقول إنهم كانوا يقررون أن الله قد خلق أفضل عالم ممكن ، وفيما بعد سيقول محيي الدين ابن عربى وليبنتز إن الله يخلق باستمرار أفضل عالم ممكن ، وإن حرية الإرادة الإلهية لاتتنافى مطلقا مع

رحمة الله وحكمته ولطفه بعباده عندما خلق لهم عالماً هو أفضل العوالم الممكنة ،
وعندما خلق على هذا العالم ، الذى يجدد خلقه دون انقطاع ، أكبر قدر ممكن من
الكمال الذى يطيقه هذا العالم .

وفى الجانب الأخلاقى يعترف المعتزلة بكرامة الإنسان دون أن يخذشوا فى
ذلك روح القرآن أو يعارضوا آياته ، بل ذهب هؤلاء المؤمنون العقلاء إلى حد القول
بأن قبول الظلم فى عالم البشر هو نوع من المشاركة فى تثبيت هذا الاستبداد
وتدعيمه ؛ بل يعدّ نوعاً من المعصية للخالق الذى لا يرضى الظلم لعباده .

هذا إلى أن هؤلاء المسلمين العقلاء نصبوا أنفسهم لمواجهة خطر مذاهب العرفان
La gnose التى بدأت تتسلل إلى الضمير الإسلامى . أى أن المعتزلة حرصوا على
محاربة هذا التصوف الإشراقى الذى نجمه عند الحلاج بل عند ابن سينا أيضاً ، وقد
قال الجبائى الذى كان معاصراً للحلاج إن هذا الأخير كان من دعاة القرامطة ،
كذلك كشف القاضى عبد الجبار فى كتاب «التنبؤات والمعجزات» عن حيل
الحلاج فى استدراج السذج من الناس إلى مذهبه . ومما يثير التأمل حقيقة أن لويس
ماسينيون كلف نفسه مشقة بالغة عندما حرص فى كتابه الضخم عن الحلاج على
أن يدحض جميع الشواهد التاريخية ، وأن يشكك فى جميع النصوص القديمة التى
كانت تنسب الحلاج إلى طائفة القرامطة ، وفى رأينا أن هذا الحرص الشديد من
جانب «ماسينيون» على خلق أسطورة الحلاج فى العصر الحديث له مغزاه ، وهو
يدعو إلى التساؤل !

وأخيراً مال المعتزلة إلى أن الكتب المقدسة من توراة وإنجيل وقرآن هى خلق
إلهى ، فإن هذه الكتب السماوية التى أوحى به إلى ثلاثة من الرسل نزلت فى
أوقات محددة تماماً من الناحية التاريخية ، إذن القول بأن هذه المظاهر الثلاثة لكلام
الله قديمة معناه فى التحليل الأخير عندهم ، أن الله ليس وحده هو القديم ، بل يوجد
معه قدماء آخرون .

لكن المعتزلة الذين وصفوا أنفسهم بأنه أهل العدل والتوحيد رغبوا في فرض آرائهم على جمهور المسلمين ، وعلى أئمة المذاهب الإسلامية الأخرى فيما يتعلق بمسألة خلق القرآن فلم يفلحوا ، وإن وجب أن نقرر أن هذه المشكلة التي كانت فتنة ومحنة لكثير من الأئمة حُلت فيما بعد على أساس أن معانى القرآن قديمة وألفاظه محدثة .

ثم إن أحد كبار رجال المعتزلة وهو أبو الحسن الأشعري ، انفصل عنهم . وربما وجد أنهم غلوا في اتجاههم العقل أكثر مما ينبغي . مع أننا نعترف بأننا لم نعلم بعد ، هل حدد الإمام الأشعري وجهة نظره مثلاً في تصوف الحلاج الذى كان معاصراً له أم لم يحددها ؟ .

ومهما يكن من أمر ، فإننا نلاحظ أن هذا الانقلاب في تفكير الأشعري تم في الوقت الذى بدأت فيه آراء المعتزلة تتسرب إلى كبار رجال الشيعة في بغداد ، غير أن الأشعري ارتضى أن يهجر رفاقه بالأمس ، وأن يصفهم بالكفر ، وأن يهاجم الآراء الفلسفية الدينية التى ارتضاها ودرسها خلال عشرات من السنين . وكان هجوم الأشعري على المعتزلة عنيفاً ، وهذا سلوك إنسانى يمكن فهمه والتسامح فيه ، لأن الانتقال من مذهب إلى مذهب مناقض يحتاج إلى كثير من العنف ، حتى يبرر المرء لنفسه لماذا ترك مذهباً ليختار مذهباً آخر . ثم ما لبث هذا العنف أن خفت حدته فى كتب الأشعري الأخيرة ، ثم تقاربت آراء المعتزلة والأشاعرة ابتداء من عصر الغزالي ، وأصبح المؤلفون يشيرون إلى هذا التقارب فيتحدثون عن رأى جمهور الأئمة .

وقد فقد المعتزلة مكانهم بعد هجوم الأشعري عليهم لعوامل عديدة ، وأظهرها من الناحية الاجتماعية تقلص الدولة العباسية وتفكك العالم الإسلامى إلى دويلات صغيرة ، لكن هذا الفكر حظى مرة أخرى بشيء من التقدير أو المودة ، فأخذ يظفر

بين حين وحين من أعماق النفس الإسلامية ، مثال ذلك أننا نجد بعض الآراء الاعتزالية تظهر بدرجات متفاوتة من الجرأة عند جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده ، والشيخ عبد الحميد بن باديس الذى مهد لحرب التحرير الجزائرية ، وفى القرن الحادى عشر للميلاد نشهد عودة هيبة للاعتزال تسرى على استحياء فى كتابات الجوينى والغزالى ، وربما كان هذا التقارب الخفى بين الأشعرية المتأخرين وبين الفكر الاعتزالى القائم على تمجيد العقل أحد العوامل العديدة فى غلبة المذهب الأشعرى فى معظم مناطق العالم الإسلامى . ولانعدم أن نقرأ ، فى بعض كتب الغزالى ، نقدا لمناهج الأشعرية ولبعض آرائهم ، دون أن يصرح باسمهم ، وإن كان يصرح باسم المعتزلة عندما يرى أن يتقد بعض آرائهم ، أما إذا اقتبس من المعتزلة شيئا فإنه لا ينسبه إليهم ، وربما كان ذلك بسبب ما يثيره لقب المعتزلة من كراهية فى القرن الخامس الهجرى .

ومن المقرر أن الإمام الغزالى كان واسع الأفق ، وقد ساعدته هذه النظرة الشاملة على أن يكشف كثيرا من الحقائق فى المجالات المتنوعة ومنها مجال التربية العقلية والأخلاقية ، وهكذا استطاع أن يؤكد بعض الآراء العبقريّة التى سيهتدى إليها جان جاك روسو فى القرن الثامن عشر .

وإذا أردنا تحديد الموضوعات الأساسية التى عبر عنها المذهب الأشعرى قلنا إنهم يؤمنون بأن الإرادة الإلهية مطلقة ، وأن الإنسان ليس خالقا لأفعاله ؛ لأن الله هو الخالق . غير أنهم يسلمون فى الوقت نفسه بأن الإنسان مسعول عن أفعاله ، مما دعا خصومهم من المعتزلة إلى تقديمهم فى هذه المسألة الخاصة فقالوا : كيف يحاسب الإنسان على أفعال ليست من صنعه ؟ أليس هذا ، فى التحليل النهائى ، اعترافا بنوع من الجبرية الصارمة التى تؤشك أن تهدم المعايير الأخلاقية التى حددها الشرع والتى يرتضيها العقل ؟

ومن جانب آخر، أنكر الأشعرية فكرة الضرورة فى العلاقات السببية. فالقوانين الطبيعية عندهم ليست مؤثرة بذاتها - وهذا شئء يسلم به المعتزلة أيضا - بل إنما يؤثر وفقا للإرادة الإلهية ، لكنهم أضافوا إلى ذلك أن الله يستطيع تغيير هذه القوانين فى أى لحظة ، ومن النقيض إلى النقيض ، وذلك لأنهم أرادوا تفسير كيف لاتخضع معجزات الرسل للقوانين الطبيعية ، مع أن المعتزلة يسلمون بأن الله يخرق هذه القوانين فى حالة المعجزات فقط. .

أما فى الناحية السياسية فقد كان الأشعرية من المعتدلين . فهم يستنكرون الثورات السياسية التى قد تفضى إلى كوازث أكثر جسامة وخطرا من تلك المظالم السياسية والاجتماعية التى يريد الثوار الإطاحة بها. وبالحملة ربما كانت أفكارهم السياسية المعتدلة أكثر مناسبة للمجتمعات المستقرة ، أو لتلك التى أخذت طريقها إلى التدهور ، منها للمجتمعات المتحركة والمتطورة .

وفى مراحل محددة من التاريخ الإسلامى يلاحظ أحيانا نوع من المزج بين الآراء المعتزلية والأشعرية على نحو تتجدد معه الحضارة الإسلامية بسبب هذا المزيج الفريد الذى يبرز خصائص الروح الإسلامية الأولى ، ويمكن الاستشهاد هنا بمثال ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وهى تلك الدولة التى مدت فى عمر المسلمين فى بلاد الأندلس لعدة قرون ، ويقال إن ابن رشد تأثر فى «الكشف عن مناهج الأدلة» بكتابات ابن تومرت .

أما الطائفة الدينية الثالثة فى الإسلام فهى طائفة الشيعة التى قلنا إنها كانت تدافع عن وجهة نظر الإمام على بن أبى طالب فى السياسة وعن أحقية المنحدرين من صلبه فى الخلافة . غير أن ضروب الفشل السياسى التى منيت بها هذه الطائفة طيلة ثلاثة قرون ، دقعت بالأغلبية الكبرى منها إلى الاكتفاء بنوع من التعايش السلمى مع طائفة أهل السنة ، أما الغلاة من الشيعة فإنهم لم ينقطعوا عن إعداد

أنفسهم ، منذ استولى العباسيون على الحكم ، للظفر بالسلطة الزمنية بحجة القضاء على الحكم العربى الذى كانوا يتوقعون نهايته بسقوط الدولة الأموية .

وقد أدت جهودهم فى هذه الفترة طيلة القرنين الثانى والثالث من الهجرة إلى وضع أسس الدولة الإسماعيلية الفاطمية التى نشأت فى آخر القرن الثالث الهجرى فى شمال أفريقيا ، ثم انتقلت إلى مصر فازدهرت فيها لفترة طويلة من الزمن . كذلك أدت هذه الجهود إلى ظهور حركة القرامطة فى الجزء الأسوى من الدولة العباسية وانتهت إلى تفتيتها ، وإلى إفساح الطريق عنوة أمام المذهب الغنوصى أو مذهب العرفان فى الحضارة الإسلامية ، وهو المذهب الإسماعيلى الذى عرضه إخوان الصفا فى رسائلهم عرضا مبسطا ، وسجله الحلاج تسجيلا مركزا فى كتابه المسمى بالطواسين ، وهو الكتاب الذى يقال إن الحلاج كان يريد به معارضة القرآن.

وهنا نقدم فرضا يصلح للدراسة ، وهو : أليس من الممكن أن يكون الفارابى أحد دعاة الإسماعيلية ؟ أما فيما يخص ابن سينا فنظن أننا كشفنا ، فى أحد بحوثنا فى فكره ، عن اتجاهه الباطنى برغم أنه حاول إخفاءه .

وفى رأينا أن المذهب الفلسفى للفارابى يعد محاولة فلسفية عرفانية أو غنوصية للتوفيق بين فلسفة أرسطو وفلسفة أفلاطون ، وذلك عن طريق الخلط بين هاتين الفلسفتين المتعارضتين وبين بعض عناصر الفكر القديم مع طلاء من الأفكار الإسلامية . وقد اقترح الفارابى على المسلمين أن يستعوضوا عن مجتمعهم التقليدى بمجتمع مثالى يشبه إلى حد كبير نظام الجمهورية الفلسفية الذى اقترحه أفلاطون على أهل أثينا وغيرهم من اليونان .

كذلك أقحم الفارابى على الفكر الإسلامى نظرية الفيض ، وهى من مصدر أفلاطونى محدث ، ويلاحظ أن فكرته عن النفس الإنسانية تحمل طابع تفكيره

التلفيقى ، وهى تعد مزاجا عجيبا من عدة مذاهب فلسفية متنافرة ، هذا إلى أن الفارابى مال إلى نوع من التصوف غير الدينى الذى سيتخذه ابن باجة الأندلسى مصدر وحي لمذهبه الفلسفى ، وفيما عدا هذه الفلسفة الخاصة التى ارتضاها الفارابى لنفسه وأراد من المسلمين أن يرتضوها لأنفسهم أيضا ، شرح هذا الفيلسوف فلسفة أفلاطون وأرسطو وعنى بشرح منطق هذا الفيلسوف الأخير . وإن كان الشارح الأكبر ، وأعنى به ابن رشد ، يناقش وجهة نظر الفارابى فى المنطق فى مواطن كثيرة . كذلك قدم الفارابى نظرية خاصة فى النبوة والسعادة وسيجد المهتمون بدراسة هذا الفيلسوف مادة طيبة فيما نشره الدكتور محسن مهدى وألفه بخصوص فلسفة الفارابى . كذلك عرض الدكتور إبراهيم مذكور لجوانب هامة من هذه الفلسفة .

أما عن ابن سينا ، فيمكننا القول بإيجاز شديد ، إنه توسع فى عرض الموضوعات الفلسفية الكبرى التى عالجها الفارابى من قبل ، بمعنى أنه أخذ عنه نظرية الفيض وتعمق فى نظريته عن النبوة . وعدل نظريته فى النفس ، وارتضى فكرته عن العلم الإلهى ، وسلك مسلكه فى شرح فلسفة أرسطو ، ثم حرص إلى جانب ذلك كله على تأويل النصوص الدينية تأويلا باطنيا حتى يجعلها على وفاق مع فلسفة الخاصة ، وهى فلسفة إشراقية فى المقام الأول .

ويدو تأثير فلسفة كل من الفارابى وابن سينا واضحا جدا فى الفلسفة الوسيطة عند الأوربيين ، وبخاصة فى فلسفة هؤلاء الذين نسبوا أنفسهم إلى ابن رشد دون مبرر من اللاتينين ، فى حين كان ينبغى أن يعترف لهم الدارسون المحدثون بأنهم أتباع الفارابى وابن سينا فى حقيقة الأمر . وهذا شئء أشرنا إليه فى كتابنا عن «نظرية المعرفة عن ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكوينى» .

وكان من الواجب أن نتوقع رد فعل من مفكرى الإسلام تجاه هذا المذهب

الإشراقى الذى يستمد عناصره من مذاهب فلسفية دارسة لم تعد تتصل بحياة الشعوب ولا بواقعها الاجتماعى . وكان الغزالى هو الذى تصدى للرد على هذه الفلسفة الدخيلة . وقد بدأ بأن عرض فلسفة الفارابى وابن سينا التى تعارض العقائد الإسلامية ، وكان عرضه لها عرضاً أميناً ودقيقاً وبلغته سهلة واضحة مما دعا ابن رشد إلى نقده قائلاً : وكيف كان يمكن أن ندفع شر هذه الفلسفة التى عرضت عرضاً جيداً لولا أن الغزالى أتيح له أن يعيش حتى يرد عليها . وذهب آخرون إلى اتهام الغزالى بأن كتابه «مقاصد الفلاسفة» ساعد على ترويج الإلحاد عند نفر من المسلمين ، غير أن الغزالى رد على مذاهب المتفلسفة من المسلمين ووصفهم بالتقليد لليونان ، وفند فى الوقت نفسه العرفان الإسماعيلى الذى كان مرتبطاً بتلك الفلسفة التى استقاها الفارابى وابن سينا من مصادر شتى .

وقد ظن بعضهم أن نقد الغزالى للفلسفة الإشراقية قضى على الفكر الفلسفى لدى المسلمين ، لكن نلاحظ أن الغزالى نفسه قد احتفظ فى تفكيره ببعض آثار من فلسفة الفارابى وابن سينا .

ومع ذلك ، فإن الصراع بين ورثة الفكر الإسلامى الأصيل وبين ورثة الفكر اليونانى لم ينقطع . ذلك أن ابن رشد حرص على أن يدافع عن الفلسفة الحقّة لكى يبين لنا أن العقائد الدينية تتسق تماماً مع ما يقرره العقل . لكنه اضطر فى رده على الغزالى فى كتابه المسمى «تهافت التهافت» إلى الاعتراف بخطأ الفارابى وابن سينا فى الموضوعات الأساسية التى كفرهم بها الغزالى . وذلك فى كتابه المعروف باسم «تهافت الفلاسفة» ، وأكثر من ذلك ، صرح ابن رشد بأن هذين الفيلسوفين قد شوها فلسفة أرسطو . وعلى الرغم من ذلك فإن ابن رشد نسب كثيراً من آرائه الخاصة إلى أرسطو كنظريته فى الخلق من العدم ، ونظريته فى الأسباب الثانوية ، ونظريته فى خلود الأرواح . ويجب الاعتراف بأن الشارح الأكبر ، أو الفيلسوف

القرطبي ، كانت له فلسفته الخاصة به والتي تشبه ، في مواضيع كثيرة ، فلسفة الكندي وفلسفة الغزالي .

ومع ذلك ، فإن الأفلاطونية المحدثة التي عرضها كل من الفارابي وابن سينا عرضا خاصا لم يقض عليها ، على الرغم من النقد العنيف الذي وجهه الغزالي إليها ومن النقد الهادئ الموضوعي الذي اصطنعه ابن رشد معها ، بل استمر «العرفان» في طريقه أولا لدى ابن باجة ثم عند ابن طفيل والسهروزي المقتول .

أما ابن باجة الفيلسوف الأندلسي فله مذهب فلسفي يقول إنه اهتدى فيه إلى حقائق لم يصل إليها أحد قبله ، وإن كان قد اعتمد في تكوين ثقافته الفلسفية على دراسات من سبقه ، وهو يحدثنا عن مجتمع العبيد بكثير من التفاصيل ، كما يرسم لنا صورة مبتكرة عن مجتمع الأحرار الذي يمكن أن يحيا سعيدا وسط الأرقاء ؛ أي أنه كان يهدف إلى وضع القواعد الأخلاقية التي تهيم نشأة مجتمع الأحرار وسط مجتمع العبيد ، ولذلك نراه يهاجم الأوهام والخرافات التي تؤمن بها العامة ، ويسخر من تصوف الغزالي ، ويقول عن صاحب هذا التصوف إنه كان «يسبر حقيقة معتقده» أي كان يريد أن يبرر لنفسه الآراء التي يعتنقها. أما ابن باجة فإنه يرتضى لنفسه تصوفا من نوع آخر ، وهو التصوف العقلي الذي يعتمد أساسا على فلسفة مادية تنم عنها كتاباته ، وبالجملة نرى أن مذهبه الفلسفي الجديد يذكرنا مباشرة بمذهب اسپينوزا في العالم الغربي خلال القرن السابع عشر . فكلاهما يحدثنا عن البهجة العقلية الكبرى عندما يصل الفيلسوف إلى إدراك حقائق الأشياء كلها من «منظور الأزل» .

وأما السهروري الذي كان يزعم أنه ينقد فلسفة ابن سينا ، ويتهمه بالتقصير في عرض فلسفة الإشراق ، فإنه يستقي آراءه من هذا الأخير ، وفي كتبه التي نشرها كل من هنري كوربان والدكتور محمد أبو ريان يجد المرء كثيرا من

النصوص والأمثلة التي نقلها السهروردي من كتب ابن سينا .

أما عن ابن طفيل وهو فيلسوف أندلسي آخر ، فإنه كان يشكو من غموض كتابات ابن باجة . غير أن هذا الغموض لم يمنعه من أن يقتبس شيئا كثيرا من آرائه . وابن طفيل هو صاحب القصة الفلسفية المسماة «حى بن يقطين» . وقد قيل إنه كان يريد البرهنة في قصته هذه على الوفاق بين الدين والعقل ، مع الميل إلى نوع من التصوف الذى يجمع بين الشريعة والحقيقة . لكن نقده العنيف للفلسفة الصوفية عند الغزالي يوحى إلينا بأننا نوجد وجهها لوجه مع تصوف استلهمه صاحبه من فلسفة ابن سينا وفلسفة ابن باجة أيضا ، هذا إلى أن زراية ابن طفيل بأهل الظاهر من عامة المسلمين أمر له دلالاته . فهو يصف لنا كيف يصل الإنسان الذى ينشأ وحيدا وبعبدا عن كل مجتمع إنسانى إلى معرفة الحقائق الكبرى التى تدور حول الله والإنسان والعالم ، وذون حاجة إلى عون من الوحي الإلهي . وهذا الإنسان المنعزل فى قصة حى بن يقطين يشبه «المتوحد» الذى يعيش سعيدا وسط مجتمع العبيد الذى وصفه لنا ابن باجة من قبل ، فى كتابه «تدبير المتوحد» . لكن هناك بعض الفروق بين هذين الإنسانين المنعزلين أو المتوحدين .

فالمتوحد عند ابن طفيل ينتهى بعد تطور نفسى محدد المراحل إلى مرحلة الفناء الصوفى ، فيرى حقيقة كل شئ أى يرى الوحدة الأولى التى ينهار فيها كل شئ لأنها بحر الوجود اللانهائى ، وعندما يرجع إلى نفسه يرى كيف تنشأ الأشياء من هذه الوحدة على غرار ما وصفه لنا كل من الفارابى وابن سينا فى نظرية الفيض . أما المتوحد عند ابن باجة فإنه ينتهى عن طريق الفضيلة التى يلزم بها نفسه إلى أن يدرك الأشياء على حقيقتها ، وهكذا ينخرط فى سلك الأزل . وفارق آخر ، وهو أن «متوحد» ابن باجة أقدر على الصراع ، فهو لا يخشى العامة بل يحيا وسطهم ، فى حين أن «متوحد» ابن طفيل رجل رقيق الشعور يريد أن ينقذ الآخرين

من الكهف الذى يعيشون فيه ، لكنه يفضل فى إنقاذهم ، فيتركهم ليحيا فى جزيرته المستقرة التى شهدت ميلاده وهناك يلحقه عابد جمع بين الشريعة والحقيقة ليصاحبه ويتلمذ عليه ، ويبدو واضحا أن ابن باجة كان أكثر تحررا من ابن طفيل فيما يتعلق بالجمع بين الحقيقة والشريعة من جانب ، وفى الأخذ بنظرية الفيض من جانب آخر .

أما ابن رشد الذى كانت له صلة مودة بابن طفيل فإنه لم يشارك صاحبه فى آرائه الصوفية ولا فى نظرياته الأفلاطونية المحدثة ، وذلك لأن هذا الفيلسوف القرطبي كان مؤمنا وعقليا فى آن واحد . وهذا أمر تسمح به تقاليد الإسلام وروحه ، وهو شئ ارتضاه المعتزلة لأنفسهم من قبل . وهنا يجوز لنا أن نقرر أن ابن رشد يقف إلى جانب كل من الكندي والغزالي نظراً لأن التفكير الاعتزالي يبدو أكثر أو أقل وضوحاً فى مذاهب هؤلاء الفلاسفة الثلاثة . هذا إلى أن كثيراً من الآراء التى حددها الغزالي هنا وهناك توجد معروضة عرضاً منهجياً وواضحاً فى كتب ابن رشد ، مما يشعرونا بأن هذا الفيلسوف كان يؤلف كتبه معتمداً على نظرات فاحصة يلقبها على إنتاج الغزالي .

كذلك نلاحظ أن موقف الغزالي وابن رشد ، بل ابن عربى أيضاً ، من عامة المسلمين يختلف كثيراً عن مسلك أتباع الأفلاطونية الحديثة فى العالم الإسلامى ، من أمثال الفارابى وابن سينا وابن باجة وابن طفيل .

وأخيراً ، فلكن نسب ابن رشد بعض نظرياته الخاصة إلى أرسطو فلربما أمكن تفسير ذلك بأنه كان يريد البرهنة على أن الفلسفة الحققة – كما تصورها هو – تتفق تماماً مع الدين الموحى به ، وذلك لأن الحقيقة واحدة ولا يمكن أن تتعدد ، فالله يهبها إما عن طريق الوحي ، وإما عن طريق العقل الذى ينتهى إلى الإيمان بما جاء به الوحي . ومسلك ابن رشد هنا مسلك نجد مايمثله تماماً عند توماس الإكوينى

بالنسبة إلى الفكر المسيحي ، وعند موسى بن ميمون فيما يتصل بالفكر اليهودي .
ولكن يلاحظ أن هذه المحاولات الثلاث للتوفيق بين الوحي وبين فلسفة أرسطو تقع
في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وأولها هي محاولة ابن رشد .

وكان في استطاعتنا أن نتحدث عن الآراء الفلسفية لمثصف إسلامي كبير ،
وهو محيي الدين بن عربي الذي استطاع هضم جميع تفاصيل الثقافة الإسلامية ،
على اختلاف تياراتها الكبرى ، ثم أخرج مذهباً فلسفياً متجانساً يحل كثيراً من
المتناقضات التي فرقت بين أصحاب هذه التيارات المختلفة ، لكننا آثرنا أن نفرّد
لدراسة فلسفته كتباً أخرى لأننا وجدنا أنه يمثل تياراً جديداً كان له ما يشبهه في
فلسفة أوروبا ابتداء من القرن السابع عشر (١) .



(١) انظر جهود محمود قاسم عن ابن عربي في كتابه : الخيال في مذهب محيي الدين بن
عربي ، وابن عربي وليتتر .

الأفكار المتشابهة عند ابن عربي وليستز*

أ.د. محمود قاسم

لقد اختلف الناس أشد الاختلاف في أمر محيي الدين بن عربي . فهو قمة في التصوف عند بعضهم ، وهو أكثر الناس إغراقاً في الإلحاد عند آخرين . لكن هناك اتفاق تام على غزارة إنتاجه وتنوعه مع صبغة فلسفية بارزة فيه . ويعنينا في المقام الأول أن نشير إلى أصالة فكره وعمقه ، وأن نقارن بينه وبين غيره من كبار الفلاسفة العالميين في العصر الحديث ، ويكفي هنا أن نبين التماثل بين جانب من فلسفته وبين فلسفة «ليستز» ، على أن نعرض لمقارنة بينه وبين بعض أعلام الفكر المعاصر في كتاب أو كتب أخرى إذا أتيج لنا الوقت .

* هذا العنوان أعطيناه لمقدمة أ.د. محمود قاسم لكتاب «ابن عربي وليستز» ، وقد كتبها بتاريخ

١٩٧٢/١٠/١٠ .

وقد فجأنا اتحاد الآراء الفلسفية عند كل من ابن عربي و«ليبنتز» على اختلاف شخصيتهما اختلافا كبيرا . لقد قال كل منهما أن كل شيء ينبع من ذات الإنسان، فكيف تختلف الشخصيتان وتتحد الآراء؟ وقد عرضنا في الفصلين الأول والثاني لتاريخ حياة كل منهما فوجدنا أن شخصية ابن عربي تتسق إلى أكبر حد مع مذهبه، في حين أن هناك تعارضا بين آراء ليبنتز ومسلكه في الحياة وموقفه من أصحاب الديانات الأخرى وبخاصة من المسلمين . ويمكن تفسير هذا التفاوت بين الآراء والمسلك الشخصي عند ليبنتز بأنه اقتبس كثيرا من آرائه فلم تتبع كلها من ذاته .

وقد اعترف «ليبنتز» بأنه وجد كنزا في فلسفة العصور الوسطى ، وأشار إلى توماس الأكويني وموسى بن ميمون . أما ابن عربي فكان ملما بالثقافة الإسلامية واليونانية ، لكنه جاء بنظريات مبتكرة لا تتسق مع الفلسفة الأرسطوطاليسية التي سيطرت على تفكير مفكرى الإسلام في العصور الوسطى ، ولا مع تفكير معاصرة، ومن هنا عمد إلى الإلغاز والتعمية ضنا بآرائه على من ليس أهلا لفهمها ، ولجأ إلى استخدام النوادر والقصص لطعم بها تفكيره وليطبعن بها أصحاب الثقافة التقليدية الذين يطيب لهم ألا يعلمونا شيئا جديدا ، وهم كثيرون .

وإذا كان «ليبنتز» حريصا على إحياء فلسفة أرسطو وتطعيمها بالنظريات العلمية الجديدة ، فإن ابن عربي كان لا يكتم كراهيته لأرسطو وفلسفته . وإذا كان «ليبنتز» يريد الجمع بين الرياضة ومنطق أرسطو لاختراع منهج عالمي جديد ، فإن مسحة الفن تغلب على كتابات ابن عربي . مع نزعة رومانتيكية صارخة . ونريد أن نقرر في كلمات قليلة أن العنصر الفردى والذاتى أكبر ظهورا فى إنتاج ابن عربي منه فى إنتاج «ليبنتز» دون أن نتقص بحال ما من أصالة هذا الأخير وخروجه على التفكير التقليدى عند أقرانه من فلاسفة العصر الحديث .

وقد لاحظنا انتقالا مفاجئا عند «ليبنتز» من فلسفة أرسطو ومنطقه إلى تفكير ميتافيزيقى مشبع بالتصوف . وكان هذا الانتقال المفاجئ بعد انضمام هذا الفيلسوف إلى جمعية الصليب الوردى ، وهى من الجمعيات ذات التعاليم السرية أو الخفية ، وساعد على هذا الانتقال عند «ليبنتز» أنه اهتدى إلى فكرة اللامتناهيات فى الصغر وهى فكرة ميتافيزيقية كان لها أثرها الكبير فى تفكيره الرياضى . لكن ظل «ليبنتز» حريصا على أن يوفق بين هذه النظرة الفلسفية الديناميكية وبين الفلسفة الأرسطوطاليسية ، أى أنه أراد أن يجانس بين هذه الفلسفة القديمة وبين علم الطبيعة الحديث . لكنها كانت محاولة غير مجدية . والحق أن ابن عربى كان أكثر نجاحا فى بناء نظريته من عناصر متنافرة ، أما فكرة اللامتناهيات التى أشرنا إليها فهى ليست أرسطوطاليسية ، بل ترجع إلى فكرة الأعيان الثابتة عند ابن عربى وفكرة الموناد عند «ليبنتز» ، وهى عندهما تعنى فكرة الذرات الروحية اللامتناهية التى يتألف منها العالم ، وهى وحدات أولية وديناميكية أو هى عناصر الطاقة التى تؤدى إلى وجود المادة .

فالتفسير الديناميكي للكون نظرة جديدة تتضمن فكرة تحول الجواهر بعضها إلى بعض ، وتتسق مع بعض الآراء الدينية كفكرة الخلق الجديد ، وقد استعان ابن عربى فى تفسير تحول بعض الجواهر إلى بعض أى الانتقال من الطاقة إلى المادة ومن المادة إلى الطاقة بفكرة البرزخ ، وفيه تتجسد الأرواح وتتروحن الأجسام ، وهى فكرة مماثلة لما نجد عند «ليبنتز» من فكرة «معبّر الجواهر» Substantiali Vinculum.

فهذه الجدة فى تفكير «ليبنتز» هى التى توضح لنا النجاح الكبير الذى لقيه كتابه «العدل الإلهي» الذى نشره فى أثناء حياته . فقد حوى هذا الكتاب آراء جديدة فى الخير والشر والقضاء والقدر والتفاؤل ، وهى آراء إسلامية وصوفية فى المقام الأول . وكان هذا النجاح السريع إشارة إلى بدء حركة متاهضة لفلسفة

التنوير التي حمل فولتير لواءها . وقد فطن فولتير إلى خطر هذا الاتجاه الفلسفى الجديد مما دعاه إلى السخرية من «ليبنتز» ومن تفاؤله فى قصة مشهورة هى «كانديد» أو الساذج .

وقد أراد «إميل بریه» فى كتابه «تاريخ الفلسفة» أن يشرح فلسفة ليبنتز على ضوء التصوف الألمانى فى القرن السادس عشر ، لكننا نميل إلى رأى معالف ، وهو أن فلسفة «ليبنتز» أقرب إلى تصوف محبى الدين ابن عربى منها إلى أى مذهب آخر .

وطبيعى أننا لن نلجأ فى البرهنة على وجهة نظرنا الخاصة إلى بعض المقارنات العامة التى نجد أمثالها فى الحديث عن الغزالى وديكارت ، أو عن الغزالى وهيوم وفى رأينا أن مثل هذه المقارنات السريعة أقرب إلى نوع من الدعاية التى تسمى أكثر مما تفيد على المستويين الفكرى أو الحضارى .

ولذلك اخترنا موضوعات محددة ، وكان فى استطاعتنا أن نضيف إليها موضوعات أخرى عديدة ، لكن آثرنا أن نكتفى بهذه النماذج القليلة لأننا نتجه أساسا إلى الكشف عن حقيقة مذهب ابن عربى الذى اختلفت الآراء فيه ، مع توضيح هذا المذهب بوضعه جنبا إلى جنب مع مذهب أوروبى حديث ، تساءل مؤرخو الفلسفة فى الغرب عن أصوله التى لايمكن إرجاعها إلى ديكارت ومدرسته، عى الرغم من أن هناك اتجاها قويا إلى الربط بين فلسفة كل من «ليبنتز» وديكارت .

أما الموضوعات التى ستأخذ أساسا للمقارنة فهى التى خصصنا لها عشرة فصول تبدأ من الفصل الثالث حتى الفصل الثانى عشر . ففى الفصل الثالث عرضنا لكل من فكرة الحياة التى تسرى فى كل شىء ، واللامتناهيات فى الصغر ، وكيف يحتوى كل جوهر روحى على مالانهاية من التغيرات ، وهذه التغيرات أساس

لما يسميه كل منهما بالخلق الجديد ، وللقول بأن الموت ليس انخراطاً في العدم ، بل هو انتقال من صورة إلى أخرى ، دون وقوع في مذهب «التناسخ» .

ومن إضافات ابن عربي إشارته إلى تأثير الأسماء الإلهية وتوحيد الحياة ، وتأكيده أن معرفة سرّيات الحياة في كل شيء أمر لا يصل إليه أصحاب التفكير النظري ، بل هو وقف على أهل المعرفة الصوفية . ويلاحظ أن فكرة سرّيات الحياة في جميع الكائنات ترتبط عند كل من «ليبنتز» وابن عربي بنظرية خاصة جداً ، وهي نظرية وحدة الوجود التي تقرر أن العالم ليس مستقلاً بنفسه وإنما هو ظل لله ، أو هو على حد قول ابن عربي ، تعبير عن الاسم الإلهي الظاهر .

وفي الفصل الرابع بعنوان نزعة التفاؤل ، يؤكد لنا ابن عربي و«ليبنتز» أن كل ما يحدث في العالم إنما هو تحقيق لبعض المعاني الإلهية التي لانهاية لها ، وأن القانون الأسمى الذي تخضع له الكائنات التي تتحقق في هذا العالم هو قانون التجانس الأزلي Harmonie Preetablie ، فالله يختار أفضل عالم ممكن ، وهو حر في اختيار هذا العالم الأفضل ، فالعلم والحكمة والقدرة تتعاون في خلق هذا العالم . والله يخلق كل ما هو جميل . فجمال العالم يرجع إلى ظهور طابع الصنعة الإلهية فيه .

وليس هناك تعارض ما بين الحكمة وحرية الإرادة الإلهية ، ذلك أن أكمل ضروب الحرية هو أن تكون أفعال الله غاية في الكمال ، وأن يخلق على العالم من الكمال بقدر ما يطيقه هذا العالم ، ومن ثم فإن مانصفه بأنه نقص هو من كمال العالم ، إذ لو خلا العالم من النقص لكان ناقصاً ، على حد تعبير لابن عربي ، فمظاهر النقص ضرورية حتى يتحقق الجمال والاتساق .

وليس هناك جبر أو حتمية مطلقة في خلق العالم ، بل هناك حكمة وعدل وخير ، مما يوجب علينا أن نرضى بالواقع وأن نريد ما أراده الله . لكن هل معنى التفاؤل أن نستسلم للواقع وألا نحاول تغييره؟ هذا الموقف السلبي ليس إلا خروجاً

على الإرادة الإلهية التي تقضى بأن يتجدد العالم ؛ إذ لو كان العالم يسير على وتيرة واحدة لكان مدعاة إلى الملل .

ويضيف هنا ابن عربي فكرة تأثير الأسماء الإلهية فى العالم ، فهي ليست راکدة . وهى كل يوم فى شأن جديد . كذلك يربط بين آرائه الخاصة بالتفاوت بين كثير من الحقائق الدينية ، فجمال العالم ليس إلا انعكاسا للجمال الإلهى ، والعالم لم يكن جميلا إلا لأنه تعبير عن الجمال الإلهى ؛ وهو الذى يتيح لنا أن نتقل من جمال الرمز إلى جمال الرموز إليه . وهنا نجد عنده نبرة رومانتيكية عالية ، لأن صاحبها يشبه العالم بمرآة تعكس المعانى الإلهية .

وفى الفصل الخامس ، تدور فكرة ابن عربي عن الخير والشر حول فكرة دينية واضحة ، وهى أن أفعال الله كلها خير ، وأن الشر لا ينسب إلى الخالق ، بل إلى المخلوقات بسبب تركيبها وتفاوت استعدادها فى قبول الخير الإلهى . فالشر أمر عارض ، ورحمة الله ستعم الجميع فى نهاية الأمر . وقد عالج ابن عربي موضوع الخير والشر من زوايا متعددة ، وتبعاً لفكرة موجهة ، فمن الممكن أن نميز لديه بين كل من النظرة الميتافيزيقية والنظرة الدينية وإن كانتا تمتازان فى تألف عجيب ، نظراً لبراعة هذا المتصوف فى الجمع بين النصوص الدينية والآراء الميتافيزيقية ، وفى تفسير تفاوت المخلوقات فى قبول الخير الإلهى بسبب اختلاف تأثير الأسماء الإلهية التى تتخذ العالم مسرحاً لأفعالها المتضادة .

ولما كانت نظرة الإنسان إلى الخير والشر تتصف بالنسبة لأنه يتخذ هواه وأغراضه معياراً لحكمه على الأشياء ، ولما كان العقل عاجزاً عن أن يستقل بمعرفة وجه الحسن أو القبح فى كل شئ ، فقد جاء الشرع يفرق له بين الحسن والقبح وبين الخير والشر ، ويبين له أن الخير هو ما يوافق الطبيعة الإنسانية وأن الشر هو ما لا يوافقها .

ولذا يحرص هذا المتصوف على ضرورة احترام أوامر الشرع ، لأن من لا يهتدى بنور الشرع يشبه رجلا يسير فى ظلام وفى أرض مليئة بالأخطار دون سراج أو ضوء ، أما البصيرة التى يفضلها الصوفية على العقل فإنها لا تكفى ؛ بل لابد من أن تكون على وفاق مع ما جاء به الدين . فالجمع بين الحقيقة والشرعية هو الوسيلة المثلى لتحقيق الخير ، وهو الذى يكشف للصوفى عن سر القدر ، ذلك السر الذى يتلخص فى أن كل ما يصيب الناس من الخير وشر إنما يراد به صلاح العالم وانتظام أمره . هذا إلى أن كل كائن له استعداداته الخاص ، وليس علم الله بهذا الاستعداد هو الذى يجبر ذلك الكائن أو ذاك على الاتجاه نحو الخير أو الشر ، فليس السبب فى السعادة والشقاء هو العلم الإلهى ، بل يرجع ذلك إلى الاستعداد الخاص لكل كائن . وهناك معيار حاسم يجمده المرء فى نفسه وهو الضمير . غير أن هذا الضمير ، الذى يفرق بين الخير والشر ، قد يموت تدريجيا إذا اعتاد صاحبه أن يتجاهل نداءه اتباعا لهواه . ويميل ابن عربى إلى اعتقاد أن رحمة الله ستعم الجميع حتى العصاة بعد أن يوفوا فترة العذاب ، وإلى أن أهل النار سينتهون إلى أن يستعذبوا عذابهم .

وفى الفصل السادس ، نجد أن آراء «ليبتز» فى مسألة الخير والشر لا تكاد تخرج عما سبق أن قرره المتصوف المسلم ، بل يمكن القول بأن ردوده على اعتراضات بيل (Bayle) هى ردود ابن عربى ، ومن قبله ابن رشد ، على أنصار المذهب الأشعرى الذين يصورون الله بصورة الملك المستبد استنادا إلى ما ينسبونه إلى الله من إرادة مطلقة .

أما عن تفاصيل نظريته فى الخير والشر فهى تلك التى قررها ابن عربى من قبل . فجميع الكائنات التى كانت ممكنة ثم تحققت بالفعل تحتوى منذ وجودها فى خزائن الجود الإلهى أو فى منطقة الحقائق الأزلية ، أى التعبيرين شئت ، على جميع

خصائصها الذاتية التى تظهر شيئا فشيئا ، وليس علم الله بما سيقع لإنسان ما فى أثناء حياته سببا فى اتجاهه نحو الخير أو الشر .. أما ضروب الشر التى توجد فى هذا العالم فهى تساعد على تحقيق الخير . ونحن لانحكم على الأشياء بأنها خير أو شر إلا لأنها توافق أهواءنا وأغراضنا أولا توافقها ، فى حين أن العالم غابة فى الحسن، وإن كان لا يقبل من كمال الخالق إلا بقدر ما يطيقه . ويذهب «ليبتز» إلى أن الرحمة الإلهية ستشمل الجميع ، وأن الكوارث التى يقاسيها الناس فى حياتهم ستخفف عنهم من عذاب الآخرة ، فهى نوع من الجزاء المعجل ، كذلك يؤكد من جانبه ، أن أصحاب النار سينتهون بأن يستعذبوا عذابهم .

غير أن «ليبتز» لم يستطع التخلص تماما من تأثير عقيدة الخطيئة الأولى ، وإن كان يثور أحيانا ضد اللاهوتيين من المسيحيين الذين يطبقون هذه العقيدة تطبيقا حرفيا ، فيرسلون الأطفال ، الذين لم يعمدوا ، إلى جهنم رأسا .

وقد خصصنا الفصل السابع لمشكلة القضاء والقدر التى تربط بموضوع الخير والشر . وهى ، كما نعلم ، من المشكلات التقليدية ، بل من المشكلات المعاصرة أيضا ؛ وذلك لاتصالها الوثيق بمشكلة الحرية الإنسانية وبالسلوك العملى فى الحياة بالنسبة إلى الأفراد والأمم . وقد عالج ابن عربى و«ليبتز» هذه المشكلة فى مستوى أعلى بكثير مما وصل إليه المفكرون التقليديون فى الحضارتين الإسلامية والمسيحية . وعلى الرغم ، من وجود فروق غير جوهرية بين تفكير هذين الرجلين نظرا لاختلاف المناخ الدينى الذى عاش فيه كل منهما ، فإن آراءهما تتطابق فما يتصل بالعناصر الأساسية التى تتضمنها مشكلة القضاء والقدر ، فكلاهما يعتمد على أساس فلسفى يعينه للتوفيق بين حرية الإنسان وإرادة الله . ويتلخص هذا الأساس فى أن علم الله تابع للمعلوم ، بمعنى أن ماسيحدث للإنسان أو يقع له فى أثناء حياته العابرة لا يؤثر فى سلوكه ، بل تنبع جميع أفعاله من استعدادة الخاص ، ولذا فهو مسئول دائما ، لكن فى حدود طاقته الذاتية ، فعلم الله نابع إذن لطبيعة الكائنات ، ولا يحكم على

الأشياء إلا نفسها ، ويمكن القول بأن كل إنسان مجبور فى اختياره ، أى أنه لابد له أن يكون حرا بحسب طبيعته ذاتها ، فالجبر ليس خارجيا وإنما ينبع من طبيعة الإنسان ككائن حر .

كذلك تحتل فكرة التجانس الأزلى مكانا هاما فى تفكير كل من «ليبتز» وابن عربى . ومن الممكن أن تقارن بين مايسميه أولهما بالإرادات العامة أو السابقة والإرادات الخاصة أو اللاحقة ، وبين مايطلق عليه ابن عربى اسم القضاء والقدر . فالقضاء هو الحكم الأول ، والقدر هو تفصيل ذلك الحكم فى مجرى الزمن ، وهذه الإرادات السابقة واللاحقة أو القضاء والقدر تهدف إلى تحقيق أفضل عالم ممكن ، ومتى أختار الله أفضل عالم ممكن فلن يغير منه شيئا ، إذ لايتبدل لكلمات الله ، والله ليس مجبرا على اختيار هذا العالم الأفضل فقد كان له أن يوجده أو لايجده لكنه اختار أن يوجده «فما يكون منه إلا ماسبق به العلم ، فانتفى الإمكان بالنسبة إلى الله ، كما يقول ابن عربى ، فما ثم إلا أن يكون «العالم» أو ألا يكون فليس فى الأصل إلا أمر واحد عند الله ... علمه من علمه وجهله من جهله .

وفى الجملة تكاد تتطابق هنا آراء كل من ابن عربى و«ليبتز» . وإذا كان ثمة فارق فإنه ينحصر فى أن الأول يؤكد أنه اعتدى إلى حقيقة الأمر فى مسألة القضاء والقدر عن طريق الكشف الصوفى لا عن طريق الفكر النظرى . وثمة فارق يرتبط بالفارق السابق ، وهو أنه تفكير المتصوف المسلم يمتاز بأنه مشبع بالحقائق الدينية التى يطوعها لآرائه على نحو فريد لا نجد عند غيره من عرض لهذه المسألة من مفكرى الإسلام .

هذا ويلاحظ عند ابن عربى قدرة فائقة على عرض آرائه بأسلوب شاعرى تغلب عليه مسحة من الرومانتيكية التى تبعد به عن جفاف التفكير النظرى ، وإن لم تنأ به عن الدقة الصارمة فى بيان وجهة نظره . وربما كانت فكرة ابن عربى عن

القضاء والقدر أكثر جدة وأصاله وتفصيلا من فكرة «ليبتز» ، وذلك لأنها ترتبط لديه ارتباطا واضحا بنظريته فى وحدة الوجود التى توجد آثارها فى إنتاج ليبتز ، وإن لم تبلغ عنده من الوضوح مابلغته عند ابن عربى .

وفى الفصل الثامن ، بينا نموذجا آخر من التطابق بين آراء هذين الرجلين فى موضوع «الذرات الروحية وخلق العالم» . فالعالم ، عندهما يتكون ، فى التحليل الأخير ، من ذرات روحية تسرى فيها الحياة وتسبح بحمد الله . ويطلق «ليبتز» على هذه الذرات أسم المونادات (Monades) ويسمىها ابن عربى الأعيان الثابتة فى العدم ، إذا كانت فى خزائن الجود الإلهى ، وأعيانا وجودية إذا تحققت بالفعل ، أى عندما تخرج من عالم الغيب إلى عالم الشهادة .

ويعتد مذهب الذرات الروحية تمويرا أساسيا لكل من نظرية الذرة عند ديمقريطس ، ونظرية الجوهر الفرد عند علماء الكلام من المسلمين . وأيا ما كان الأمر فإن هذه الذرات الروحية تتميز بأنها تحتوى بحسب جوهرها على عنصر الطاقة أو القوة الذى يؤدى إلى نشأة الأجسام المادية ، وهذه الذرات غير متناهية فى الصغر ، وهى لاتخلق من العدم بل تفيض من الذات الإلهية ، أو من الطاقة الروحية الكبرى إن صح هذا التعبير ، ولما كانت غير مخلوقة من العدم فإنها تستمر من الأزل إلى الأبد ، وهى تدخل فى مركبات جديدة إلى ما لانهاية له ، وذلك تحقيقا للخلق الإلهى المستمر ، فإله يحفظها فى الوجود ويوجدتها باستمرار على نحو من الفيض الذى لاينقطع . فإن الله «لم يزل موجدا للعالم ، ولم يزل العالم محدثا» . فالذرات الروحية تتجمع لتؤدى إلى نشأة جسم من الأجسام يستمر إلى أجل مسمى ، ثم تتركه لتدخل فى تركيب جسم آخر وفقا لمبدأ الحكمة الذى يكفل دائما وجود أفضل عالم ممكن .

وقد فسر كل من «ليبتز» وابن عربى عملية الخلق المستمر عن طريق ماسمياه

«النظرة الإلهية» . فهناك صراع بين الممكنات التي توجد في العلم الإلهي أو في منطقة الحقائق الأزلية ، وينزع كل ممكن منها إلى أن يتحقق في الوجود الفعلي ، لكن الله لا يخرج من خزائن جوده سوى تلك الممكنات التي تتجانس فيما بينها على أكمل وجه ، فمتى أراد للممكن ما أن يوجد فعلا نظر إليه فخرج إلى هذا العالم . وربما كانت فكرة الخلق بالنظرة الإلهية أولى بأن تنسب إلى ابن عربي منها إلى «ليبنتز» نظرا للسبق أولا ، ولأننا نجد ، فيما عدا ذلك سبق ، نصوصا لاتدخل عند حصر عند ابن عربي ، وهي تلك النصوص التي تربط فكرة النظرة الإلهية بكل من فكرة الخلق المستمر ومبدأ التجانس بين الكائنات . فالله هو الذي يضع الميزان ويجانس بين الممكنات ويرتب ظهورها إلى عالم الوجود تحقيقا لحكمته ولصلاح العالم نفسه ، هذا إلى أن ابن عربي يتميز بأنه يستشهد لفكرته عن خلق العالم بكثير من النصوص الدينية التي لم نعر عى مايمثلها عند «ليبنتز» . غير أن هذين المفكرين يتفقان على الأمر الجوهرى ويؤكدان أن الذرات الروحية متى خرجت من خزائن الجود أو من منطقة الحقائق الأزلية فإنها تخرج بجميع خواصها الذاتية ، وذلك يعضد فكرة أساسية لديهما وهي أن «الحاضر ملء بالماضى ، وهو يحمل المستقبل بين ثناياه» .

وفي الفصل التاسع ، الخاص باللامتناهيات ، عرضنا بالتفصيل لفكرة «الموناد» وخواصها ، ولقانون تمايز الجواهر الذى يؤكد «ليبنتز» وابن عربي على حد سواء ، ولكيفية تكوين الأجسام من المونادات أو من الأعيان الثابتة ، وللخلق المستمر الذى يرتبط عندهما بنظرية وحدة الوجود وبفكرة الصيرورة دون الوقوع فى القول بالتناسخ ، كذلك بينا كيف يعتقدان أن العالم يخرج من بين سلسلة غير متناهية لعدد لانهاية له من العوالم الممكنة ، وأن العالم المادى يرتبط بعالم الروح ويفتقر إليه دائما ، وذلك لأن القوانين الطبيعية التى تسيطر على العالم الأول تخضع هى الأخرى لقوانين ميتافيزيقية ، أى للسنن الإلهية التى لاتتبدل .

وفى اعتقادنا أن ابن عربى كان أكثر وضوحا واهتماما بالتفاصيل فيما يتصل بهذه المسائل جميعها ، كما كان أكثر حرصا على المجانسة بين آرائه وبين النصوص الدينية التى رأينا أنها تتسق ، إلى حد كبير ، مع هذه الآراء دون تعسف أو تصنع ، وبخاصة فيما يتصل بفكرة الخلق الجديد التى لم يهتد الأشاعرة ، فى ظن ابن عربى، إلى فهم مغزاها البعيد . هذا إلى أن نظرية وحدة الوجود أشد ظهورا فى تفكير ابن عربى منها فى تفكير «ليبنتز» . وقد بررها أولهما على أساس إيمانه الجازم بوجود صلة وثيقة بين الأسماء الإلهية وبين كائنات هذا العالم .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذين الرجلين يفسران نشأة العالم وما يحتوى عليه من كائنات على أساس موحد ، وهو مذهب وحدة الوجود لأن العالم ليس مستمدا من الخارج أو من عناصر سابقة ، بل هو تحقيق لبعض المعانى الإلهية التى يسميها ابن عربى «خزائن الجود» أو «عندية الحق» ويطلق عليها ليبنتز ، كما رأينا من قبل ، اسم منطقة للحقائق الأزلية التى تتفجر منها الوحدات الأزلية لكل الموجودات بصفة مستمرة .

وفى الفصل العاشر تحدثنا عن «ميتافيزيقا الجوهر» فبينما كيف ألح كل من ابن عربى و «ليبنتز» فى تأكيد أن الجواهر الروحية التى تتألف منها جميع الأجسام تحتوى على خواصها منذ الأزل فلا يطرأ عليها شىء من الخارج ، وقد اضطررنا إلى مناقشة «برتراند رسل» فى فهمه لمذهب «ليبنتز» .

ذلك أن «ليبنتز» استشهد بفكرة منطقية لكى يبين كيف تحتوى الذرة الروحية على خواصها منذ الأزل ، فقال إن «الموضوع يتضمن جميع محمولاته» أى ينطوى على جميع الصفات التى تنسب إليه . فمثلا إذا قلنا إن سقراط إنسان فإن سقراط يتضمن مالا نهاية له من الصفات أو المحمولات التى ترتبط به ، فى أثناء حياته وفى خلال الزمن من حيث تأثيره فى الآخرين ، فى حين أنه لايمكن أن نقتصر على

وصفه مثلاً بأنه حيوان عاقل ، والحق أننا لو نظرنا إلى فرد واحد لوجدنا أن خواطره أو حالاته الشعورية وغير الشعورية لاتقف عند حد . وهكذا يمكن القول بأن كل جوهر روحى يحتوى على مالا نهاية له من الصفات ، وأن الله وحده هو الذى يعلم كل مايتضمنه المعنى التام لكل كائن من الكائنات إنسانا كان أم غير إنسان .

وقد رأى «برتراند رسل» أن يحكم على فلسفة «ليبنتز» بأسرها بناء على هذا المثال المنطقى الذى استشهد به والذى أخذه عن أصحاب التفكير المدرسى ، أعنى عن اتباع الفلسفة الأرسطوطاليسية فى العصور الوسطى ، فقال إن المنطق هو مفتاح الميتافيزيقا عند «ليبنتز» ونسى أن هذا الفيلسوف لم يفعل سوى أن استشهد بمثال القضية التى تتكون من موصوف وصفة أى من موضوع ومحمول ، كما استشهد بأمثلة أخرى خاصة بحياته هو أو بحياة الإسكندر وقيصر . وبسبب هذا الظن ذهب برتراند رسل إلى القول بأن فلسفة «ليبنتز» ينقصها التجانس ، بل تحتوى على مذهبين متناقضين أحدهما للعامة ، وهو الذى عرضه فى كتاب العدل الإلهى الذى نشره فى حياته ، وثانيهما للخاصة ، وهو بقية إنتاجه الذى لم ينشر إلا بعد وفاته.

ونميل نحن إلى رأى مخالف ، وهو أن «ليبنتز» له مذهب واحد وهو مذهب متجانس عرضه فى كل كتبه وفى كتاب العدل الإلهى ، وقد انتهينا إلى هذا الرأى عن طريقين أحدهما قراءة ماكتبه «ليبنتز» ، وثانيهما الاطلاع على تصوف محبى الدين بن عربى ، مما كشف لنا عن اتحاد عميق فيما كتبه «ليبنتز» . إننا نعلم أن نتائج مذهبه ومذهب ابن عربى واحدة ، مع علمنا أن هذا الأخير كان شديد الكراهية لفلسفة أرسطو ومنطقه .

إذن ليس من التعسف فى شىء أن نقرر أن «ليبنتز» لم يتوقف مطلقاً عند حد تحليل القضية المنطقية إلى موضوع ومحمول ، بل رأى أن كل ذرة روحية تعد عالماً مستقلاً ، وأنها تحتوى على مال نهاية له من الصفات ، لأنها تنبع من الموناد

الكبرى . ففكرة الذرة الروحية أشد اتصالا بمذهب وحدة الوجود منها بمنطق أرسطو ، هذا إلى أنها تتسق تماما مع مبدأ التجانس الأزلى والحكمة الإلهية ، والتدخل الإلهي ، والخلق المستمر ، وثبات السنن الإلهية . وهذه كلها بعيدة تماما عن روح مذهب أرسطو ومنطقه أيضا . ثم كيف نفسر فكرة الوجه الخاص الذى يربط كل مخلوق بخالقه ، وهى الفكرة التى تتردد دون انقطاع فى كل ما كتبه ابن عربى ؟ هذا إلى أن هناك إشارة نجدها عند «ليبتز» ولها مغزاها فإنه يخبرنا قائلا: «ولذا فإن شخصا يمتاز بذهنه الثاقب وقداسته المبجلة كان من عادته أن يقول : يجب على النفس ، فى أكثر الأحيان، أن تفكر كما لو لم يكن هناك سوى الله وسواها فى العالم ، أى أن كل نفس أو جوهر روحى له وجه خاص يربطه رأسا بالله ، ولاريب فى أن صاحب هذه القداسة المبجلة ليس أرسطو !

ومع أن كل جوهر روحى يعد عالما مستقلا ومغلقا بالنسبة إلى الجواهر الأخرى ، فإن هناك اتساقا بين جميع هذه الجواهر المستقلة . ويعلل ابن عربى كيف يحتوى كل جوهر على جميع خصائصه الذاتية منذ الأزل تعليلا دينيا وفلسفيا فى آن واحد ، ويرى أن كل تغير يطرأ على كل جوهر إنما ينبع من الاستعداد الخاص به . وهذا الاستعداد هو الذى يحدد الوجه الخاص الذى يربط هذا الجوهر بخالقه . وقد استشهد ابن عربى بأمثلة قريبة من تلك التى استشهد بها «ليبتز» ، وأكد أن مانراه من خواص أى جوهر يوجد فى عالم الشهادة هو نفس ماكان ينطوى عليه هذا الجوهر فى عالم الغيب ، إذ لا تبديل لكلمات الله .

والنصوص التى يحدد فيها ابن عربى فكرة الجواهر الروحية وخواصها الأزلية لا تدخل ، حقيقة ، تحت الحصر إلا بمشقة بالغة . وشئ له دلالة وهو أنه ، بعد أن حدد طبيعة الذرة الروحية التى سيسميها «ليبتز» فيما بعد «الموناد» ، أوصى من يعثر على فكرته هذه عند شخص آخر أن يسجل ذلك فى الموضع الذى تحدث فيه

عن تمايز الجواهر الروحية واستقلال كل جوهر منها بنفسه ، فقال : «فرحم الله عبدا بلغه أن أحدا قال بهذه المسألة عن نفسه ، كما فعلت أنا ، أو عن غيره ، فليُحَقِّقها بكتابه في هذا الموضع استشهادا لي فيما ادعيت . فإنني أحب الموافقة وألا أتفرد بشيء دون أصحابي» فلكل شيء أحديثه الذاتية التي تميزه عن غيره وهي أيضا وجهه الخاص .

وينفرد ابن عربي بعقد الصلة بين الوجه الخاص والأسماء الإلهية . فكل نظرة إلهية إلى أحد الممكنات في خزائن الجود تخرج إلى العالم كائنا مختلفا عن بقية الكائنات التي يحتوي عليها هذا العالم . وهنا نجد لديه تفسيراً واضحاً لما لم يصل «ليبتز» إلى توضيحه ، وهو أن كل جوهر روحي إذا كان يعكس الكون بأسره فذلك لأن كل اسم من الأسماء الإلهية التي ترتبط بها الجواهر الروحية يتضمن سائر الأسماء الأخرى .

«ومعلوم اختلاف صور العالم واختلاف الأسماء الإلهية ، ولا معنى للاختلاف الواضح إلا العلم بأنه لولا الحدود لما كان التمييز ، وإن كان الوجود عينا واحدا ، وهو الوجود الحق » إذن فليس من الممكن أن نجد في الطبيعة جسمين متطابقين أو متماثلين تماما . «فإن الأمر أوسع من ذلك ، فالطبيعة لا تلد توأمين ... فتفهم هذه المسألة فإنني ماسمعت ولا علمت أن أحداً نبه عليها ، وإن كان يعلمها ، فإنها صعبة التصور..» .

ولذا فلنا أن نتوقع أن تتفق وجهة نظر كل من محيي الدين بن عربي و«ليبتز» في تحديد مراتب الجواهر الروحية ، ابتداء من الذرة الروحية البسيطة حتى النفس الإنسانية التي تعد ذرة روحية مسيطرة ومديرة لعدد لا حصر له من الذرات الروحية التي تدخل في تركيب جسم الإنسان . وهذا ما نجمه تفصلاً الحادى عشر ، حيث يقارن كل من ابن عربي و«ليبتز» بين النفس والذرة الروحية ، ويؤكد أن النفس

تحتوى ، رغم وحدتها الذاتية ، على كثرة من الإدراكات والرغبات والخواطر وضروب النزوع ، فى حين أن «الموناد» أو العين الثابتة تحتوى على كثرة من الإدراكات والرغبات وضروب النزوع اللاشعورية التى لاتنتقص من وحدتها الذاتية . ولابن عربى نظرة فاحصة يميز بها بين مانسميه بلغتنا الحديثة : الشعور واللاشعور . وهو يدرك كيف تنتقل الحالات الشعورية إلى ماتحت الشعور ، وكيف تطفو الحالات اللاشعورية من بين طيات النفس لكى تحتل بؤرة الشعور . وليست هذه التفرقة عنده رمية من غير رام ، بل هى وليدة تجارب شخصية يقص علينا طرفا منها فى كتابه «الفتوحات المكية» وغيره . ومهما يكن من شئ فهو يصف النفس ، على غرار ماسيفعل «ليبتز» فيما بعد ، بأنها بحر لاساحل له سواء شعرت بخواطرها أم لم تشعر بها ، فمعلوماتها غير متناهية ، وهى تعكس العالم الذى يسيطر عليه قانون الخلق الجديد ، وهناك حركة دائبة تنتقل بها الخواطر من منطقة اللاشعور إلى الشعور وبالعكس .

فالنفس لاتكاد ترتوى أبدا . وهى تنزع دائما إلى إدراكات جديدة ومن ثم فهى تختلف عن الذرات الروحية البسيطة التى لاتشعر بما يعتمل فيها من إدراكات ورغبات ، بل تشبه أن تكون فى حالة إغماء أو دوار . فليس لها ذاكرة ولاخيال ، وإنما تمر بها حالات إدراكية ونزوعية كتلك التى تمر فى النفس فى أثناء الإغماء أو الاستغراق فى نوم عميق خال من الأحلام . وقد سمي «ليبتز» مثل هذه الذرات بالأرواح البسيطة ، وأطلق عليها ابن عربى اسم الأرواح المهيمة ، أى التى استحوذ عليها الجمال الإلهى فأنساها نفسها ، وجعلت تسبح بحمده دون أن تدرك . وأيا ماكان الأمر ، فإن هذه الذرات البسيطة أو الأرواح المهيمة تنبض بالحياة ، وإن لم تشعر بنفسها ، ولابهذه الحياة التى تسرى فيها ، وهى الحياة التى يعد نبضها تمجيذا وتسبيحا للمخالق .

وإذا كانت النفس الإنسانية تحتل قمة الذرات الروحية فإن هناك كائنات تتوسط بينها وبين الذرات البسيطة ، وهى أنواع الحيوان التى تتفاوت فيما بينها تفاوتاً كبيراً ، ويوجد لدى قليل منها نوع من الخيال والذاكرة ، وإن كانت تحتوى جميعها على الإدراكات والرغبات الشعورية وغير الشعورية . لكن مامن حيوان آخر يسمو إلى مرتبة الإنسان الذى خلقت روحه على الصورة الإلهية ، فأرواح البشر هى رعايا المملكة الإلهية ، وهى وحدها التى منحت العقل ، والتى تستطيع التفرقة بين الخير والشر ، تتجه إليها أوامر الشرع ونواهيه ، ولذا فهى مسئولة عن أفعالها ، وهى جديرة بأن تثاب أو تعاقب .

ويتميز ابن عربى هنا كعاداته بالجمع بين الإلهام الصوفى والنصوص الدينية التى يحسن اختيارها دائماً .

وفى الفصل الثانى عشر ، أردنا أن نبين كيف يتفق مسحى الدين ابن عربى و«ليبنتز» فى تحديد طبيعة النفس الإنسانية وصلتها بالله والعالم . فهذه النفس هى التى ترقى وحدها من بين نفوس أنواع الحيوان إلى أن تعكس الذات الإلهية كما لو كانت صورة مصغرة منها. وهى لانتشأ نشأة مادية . وهى تحتوى ، بحسب أصلها الروحى على جميع ماسيحدث لها ، ويعتد الجسم واسطة بينها وبين الأشياء الخارجية ، بل إن كلا من النفس والجسم يعكس حالة الآخر بصفة تلقائية ، وتبعا للتجانس الأزلى الذى وضعه الله بينهما ، كما وضعه بين جميع كائنات العالم . وليست الإحساسات سوى مناسبات تتفجر عندها خواطر النفس أو حالتها الشعورية وغير الشعورية .

وتمتاز أرواح البشر بأنها تشبه المرايا التى تعكس الكون والذات الإلهية . وتتوقف الدقة فى عكس الكون أو الذات الإلهية على صفات كل مرآة من هذه المرايا . كذلك تعد نفوس البشر «أكثر النفوس فضيلة لأنها هى وحدها التى تستطيع

أن تكون أكثر تألفاً . وقد خصها الله بأكبر قدر من عنايته ، واصطفها لتكون من رعايا المدينة الإلهية ، لأنها هي التي خلقت على الصورة الإلهية ، وهى التى تستطيع وحدها أن تعبد الله مختارة ، ودون أى قهر خارجى : «وأن روحاً إنسانية واحدة تعدل العالم بأسره ، لأنها لاتعكس هذا الكون فحسب ، بل تعرفه أيضاً ، وهى تحكم فيه على نحو مايفعل الإله» . وهى قادرة عل التخلق بالأخلاق الإلهية . وليست المملكة الإلهية قاصرة على نفوس البشر ، بل هى لجميع الأرواح التى منحت العقل ومعرفة الحقائق الأزلية . فهذه المملكة تتسع للملائكة وللأرواح الإنسانية ، كما تتسع لأكبر قدر من الفضيلة والسعادة . فالله قد خلق كل شيء بعناية كاملة من أجل بنى الإنسان ، بل إن رعاية الله لأدنى النفوس الإنسانية منزلة تكاد تعادل عنايته بالكون بأسره .

وإذا كانت جميع هذه الأفكار توجد فى إنتاج «ليبنتر» فإنها أكثر وضوحاً عند ابن عربى الذى يؤكد أن الأجساد ظلال للأرواح ، وإن النفس من أصل طاهر ، فليست شريرة بطبيعتها على نحو ماتقرره التقاليد المسيحية التى عانى «ليبنتر» منها كثيراً عند حديثه عن الخطيئة الأولى . وقد أفاض ابن عربى فى وصف العالم الأخلاقى الذى أتيح للأرواح البشرية . وهو أكثر صراحة من «ليبنتر» فى الجمع بين الأخلاق والدين . وأكثر منه تفصيلاً فى وصف النفس بأنها بحر لاساحل له ، وذلك لأنها تعكس كل ما يحدث فى العالم الذى يخضع لعملية الخلق المتجدد ، ولتأثير الأسماء الإلهية . فالعالم يشبه أن يكون مرآة تنعكس فيها آثار تلك الأسماء . والنفس تشبه أن تكون مرآة ينعكس فيها العالم ، والصلة بين انعكاس آثار الأسماء الإلهية فى النفس وبين نظرية وحدة الوجود واضحة ، فالتجلى الإلهى الدائم عن طريق الأسماء فى نفس الإنسان هو السبب الأخير فى تنوع خواطره ، وليس الإنسان وحده هو الذى ترتبط نفسه بأسماء الله ؛ بل كل شيء فى العالم متصل على نحو مايقية الجواهر الأخرى ، وبأن أى تأثير يحدث فى جوهر مايردد

صداه فى سائر الجواهر ؛ إذ أن هناك ، على حد تعبير ابن عربى رقائق تمتد من كل شىء إلى أحد الأسماء الإلهية ، وكل اسم من هذه الأسماء يتضمن الأسماء الأخرى.

وثمة فكرة أخرى نجدها أكثر وضوحا فى مذهب ابن عربى ، وهى أن النفس الإنسانية لاكتفى بعكس الكون كما لو كانت مرآة مستوية تماما ، بل تمتاز بالقدرة على إعادة تركيب ماتدركه بوساطة الخيال ، وهو أساس كل اختراع . والخيال نفسه يستند إلى أحد الأسماء الإلهية وهو اسمه البارى . والإنسان الكامل هو الذى فاز من بين الكائنات جميعها بتأثير الأسماء كلها . وهذا الإنسان الكامل هو الذى تحقق فى آدم الذى علمه الله الأسماء كلها ، وفى محمد عليه السلام الذى أوتى جوامع الكلم ، والذى اكتملت به صورة اعالم . وهذا الإنسان الكامل هو تاج الملك ، بل إن العالم لم يكمل إلا بوجوده ، وهو أكمل من عين مجموع العالم وفى ذلك يقول ابن عربى : «وما كان العالم على الكمال فى صورة الحق حتى وجد الإنسان ، فبه كمل العالم» .

لكن ينبغى أن نفرق دائما بين الله والإنسان والعالم ، إذ ليس معنى الخلق على الصورة أن نسوى بين الله والإنسان . ويفسر لنا ابن عربى كيف يمتاز الإنسان الكامل على العالم بأسره فيقول : إن الإنسان هو الذى يدرك أنه خلق على الصورة الإلهية حقيقة . فظااهره خلق وباطنه حق ، بمعنى أن روحه من أمر الله . وليست مرتبة الكمال أمرا يمكن أن يدركها كل إنسان ؛ بل هى خاصة بالأنبياء ، وبمن سار على نهجهم أو أقدامهم . وهناك مرتبة دنيا وهى مرتبة الإنسان الحيوان . ونسبة هذه المرتبة الأخيرة إلى مرتبة الإنسان الكامل شبيهة بمرتبة النسناس من الإنسان الحيوان .

ومهما يكن من شىء ، فلما كان الإنسان مخلوقا على الصورة الإلهية ، ولما

كانت روحه تعكس العالم بأسره ، فقد شرفه الله بأن جاءه أهلا لخطابه عندما ميزه بالعقل : «إذا خاطبه فقد خاطب العالم كله ، وخاطب أسماؤه كلها» . وهذا هو معنى أن الأرواح الإنسانية تعد من رعايا المملكة الإلهية . والإنسان مواطن حر فى هذه المملكة لأنه يعبد ربه مختارا ، وفى استطاعته أن يتنكر لخالقه وأن يجحده . أما الإنسان الكامل فهو الذى يعرف حقيقة عبوديته . فلا يدور بخلده أن يدعى لنفسه أى رائحة من روائح الربوبية . فمهما يكن من كمال الإنسان وقدرته على محاكاة الصفات الإلهية فسيظل الرب ربا والعبد عبدا ، وسيبقى هناك دائما إله وعالم وإنسان ، والإنسان كائن ضعيف وهو يعلم ذلك من نفسه تجربة وذوقا . ومع ذلك فإن تأثير بعض الأسماء الإلهية فيه ، كاسم العزيز والقهار ، قد يخلق عليه من القوة ما لا يستطيع أن يزعمه لنفسه ، وأفضل الناس هو من يستطيع قهر نفسه حتى لا يقهر الآخرين .

فأرواح البشر هى من جنود الله ، والله يحفظ «هذه المدينة الإنسانية لكونها حضرته وهى عين مملكته» ، غير أن بعض مواطنى هذه المدينة قد يحلو له أن يتمرد على قوانينها الأخلاقية ، فيرتضى لنفسه أن ينخرط فى حزب الشيطان ، فيكون من أعوان الشر . وهكذا نجد أن الشر الذى تفضى إليه بعض هذه النفوس المارقة قد يفوق أشد الرلازل هولا ، وما ذلك إلا لأن صاحب هذا الشر استخدم تأثير بعض الأسماء الإلهية فى نفسه . وبديهي أن أثر الثقافة الدينية هنا أكثر ظهورا فى روح ابن عربى منه فى روح ليينتر .

ويبقى أخيرا أن نقرر أن مسحة التصوف التى نلمحها فى فلسفة «ليينتر» أقرب إلى تصوف ابن عربى منها إلى التصوف الألماني فى القرن السادس عشر ، على حد ماذهب إلى ذلك إميل برييه .

المنطق الحديث ومناهج البحث *

أ.د. محمود قاسم

أقدم هذه الطبعة الخامسة من كتاب المنطق الحديث ومناهج البحث وقد زدت
يقينا بأن الكتب العلمية لا تؤلف لطبقة خاصة أو لمستوى فكري معين معين ؛ بل
من الخير أن يتجه بها أصحابها نحو آفاق أكثر اتساعا ، بحيث تكون أكثر ملاءمة
للمستقبل منها للحاضر . ذلك أنه بدا لي منذ سنوات أن هذا الكتاب قد يكون
سابقا لزمه ، لكن تطور الحركة الفكرية في مصر والشرق في هذه السنوات القليلة
أكد لي أننا في طريقنا إلى ازدهار الثقافة العلمية ، وهي الأساس الحقيقي لكل
حضارة حديثة .

* مقدمة الطبعة الخامسة من كتاب « المنطق الحديث ومناهج البحث » .

ولست بعيدا عن الحق عندما أرى أن أساليب التفكير ومناهج البحث العلمى هى أفضل الوسائل فى بناء الصرح العلمى لدينا ؛ فإن المناهج التقليدية كانت جديدة وجيدة فى عصرها . غير أن من طبيعة الزمن أن يظل فى صيرورة دائمة ، ومن شأن الأمم أن تكون فى حركة مستمرة . ولذا فلا بد لكل عصر من مناهجه وأساليبه . وليس من عزمنا أن نحقر من شأن التراث العلمى القديم ، لكننا نرى أن المناهج القديمة أصبحت لا تتلاءم مع طبيعة الدراسات العلمية.

لقد بدا منطق أرسطو فى نظر السابقين أكمل العلوم وأدقها ، وأنه أساس ضرورى فى تحصيل العلوم الأخرى . غير أننا رأينا أن كثيراً من العلوم تتقدم تقدماً كبيراً ، دون أن يكون كبار الباحثين فيها ممن تخرجوا على منطق أرسطو ، مما يدل دلالة واضحة على أن هذا المنطق أصبح تاريخياً ، أو يدل ، فى الأقل ، على أنه ليس كافياً فى توجية العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية . إن لكل علم منهجه الخاص به . وليس من صالح المنطق ، بمعناه العام ، أن يظل معتزلاً بالفكرة القديمة القائلة بأنه معيار العلوم ومرشدها ؛ بل الأولى به أن يستمد مادته من العلوم التى تتقدم دون انقطاع .

وهذا هو ما حاولنا البرهنة عليه فى هذا الكتاب عندما وضعنا المنهج الاستقرائى ودرسنا مناهج البحث فى العلوم الرياضية والطبيعية وبعض العلوم الإنسانية كعلمى الاجتماع والتاريخ ، وقد انتهت بنا محاولتنا هذه إلى فكرة محددة وهى أن المنهج العلمى الصحيح هو المنهج الفرضى الاستنباطى الذى يتحقق فى أكمل صوره فى العلوم الرياضية ، والذى بدأ يتطرق ، إلى حد كبير أو قليل ، إلى بقية العلوم الأخرى ، مع ظهور بعض الفروق الدقيقة بين مناهج البحث فى هذا العلوم بسبب طبيعة الظواهر التى يدرسها كل علم منها .

ويجب أن نشير إلى مسألة قد تبدو لها أهميتها فى نظر بعض الدارسين . فقد جرى العرف أخيراً على إطلاق اسم المنطق الحديث على المنطق الرياضى . غير أننا

نرى أنه من الأجدر أن يطلق عليه اسم المنطقي الشكلى الجديد ، وأن يحتفظ باسم المنطق الحديث للعلم الذى بدأ يكون بأن حددَ معالنه الأولى تحت عنوان الأرجانون الجديد ، والذى ما زال يتطور حتى أيامنا هذه ، وذلك بسبب تقدم النتائج التى وصل إليها العلم ، والانتقال الواضح من فكرة السببية إلى فكرة القانون العلمى .

ولانى أرجو أن يكون هذا الكتاب قد حقق الغرض الذى يهدف إليه كل باحث، وهو المساهمة فى خدمة الحركة الفكرية المعاصرة ، والقضاء على رواسب تفكير القرون الوسطى ، فى شرقنا العربى ، حتى تكتسب عقليتنا الطابع العلمى الذى لا غنى عنه ، إذا أردنا اللحاق بالأمم المتقدمة واستخدام ضروب تفكيرنا ونشاطنا استخداما علميا مثمراً .

محمود قاسم



القسم الثالث

محمود قاسم كما عرفته

* إبراهيم مسدكور

* حامد طاهر

* حمدي السكوت

* السعيد بدوي

* السيد محمد بدوي

* الطاهر مكي

* فاروق شوشة

* محمود الريعي

محمود قاسم

أ.د. إبراهيم مدكور *

رحمه الله تلميذا وزميلا وصديقا . أقبل على الدرس الفلسفى فى شوق
ورغبة، وتأمل وعناية ، وانتهى به ذلك إلى انتاج له وزنه بحثا وتأليفا أو تعليقا
وترجمة . وكان من حظى أن تابعت نشاطه فى مراحل حياته المختلفة، ورجوت
منه أن يكون واحدا من الباحثين المعاصرين فى الفكر الإسلامى عن طريق التأليف أو
الترجمة .

* رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

ولكنه مع الأسف الشديد عجل بالرحيل عنا ، وخلف إنتاجا علميا وفلسفيا
كنا نرجو له المزيد والتابع ، وفيما خلفه شهادة قيمة على تمكنه من مادته ، وعمقه
فى تأليفه وترجمته ، ويكفى أن أشير إلى نماذج من إنتاجه القيم :

تحقيقا يبدو واضحا فى الكتب التالية :

١- طبيعيات الشفاء التى وقف فيها عند «السماء والعالم» «والكون والفساد»
«والأفعال والانفعالات» .

٢- تلخيص كتاب المقولات لابن رشد .

٣- تلخيص كتاب القياس لابن رشد .

وترجمة تظهر فيما يلى :

١- قواعد المنهج فى علم الاجتماع لإميل دوركايم .

٢- مقدمة فى علم النفس الاجتماعى للدكتور شارل بلوندل .

وتأليفها يتجلى فيما يلى :

١- الخيال فى مذهب محيي الدين بن عربى .

٢- نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الإكوينى .

٣- ابن رشد وفلسفته الدينية .

تغمده الله برحمته ، وجزاه الله خير الجزاء عما قدم للغته وأمته .

محمود قاسم : الصورة من قريب

أ.د. حامد طاهر *

علمتنا قراءة تاريخ «الأعلام» أن الشخصية العظيمة هي التي تختلف آراء الناس حولها اختلافا كبيرا ، وكلما كانت الشخصية أشد لمعانا كان الاختلاف بشأنها أكثر حدة . والواقع أنني لم أكن أتصور في يوم من الأيام أن ألتقى ، في حركة الحياة الجارية ، بمثل هذه الشخصية ، حتى وضعتني الظروف على طريق الدكتور محمود قاسم .

كان محمود قاسم رجلا وهدب الله خلقه حسنة ، فهو معتدل الطول ، ليس

* رئيس قسم الفلسفة بكلية دار العلوم ، ومدير مركز الدراسات والبحوث الإسلامية بجامعة القاهرة.

بالبدن المفرطح ، ولا القصير المنكدر ، له عينان يشع منهما بريق حاد يدل على ذكاء متقد ، ويوحى بشخصية قوية . ملبسه أميل إلى الأناقة ، ولكنها الأناقة التي لا يبدو منها تكلف ، أو يظهر عليها استعمال .

متحفظ في حركاته ، وقور في مشيته . أما مجلسه فغاية في الاحترام ، الذي لا يخلو أحيانا من تبسط ، ولكنه لا يشجع الثرثارين والمتفيهقين ، ويستبعد تماماً النمامين والوشاة .

منظم في عمله . يضع على مكتبه فكرة بالأولويات المطلوبة منه في يومه ، ثم يقوم بتنفيذها على فترات محسوبة . ولأننى لم أعرفه جيدا إلا وهو عميد لكلية دار العلوم ، فقد شاهدته بنفسى يبدأ بتسيير شئون الكلية ، ثم يواصل الاشتغال بأبحاثه العلمية ، وما يتعلق بها من الاتصال بالناشرين ، ثم يتبع ذلك بمجالسة بعض الأساتذة وطلاب الدراسات العليا ، وفى أثناء ذلك ، يتصل تليفونيا بأهل منزله لمعرفة ما يحتاجون إليه ، وينتهى يومه الإدارى فيما بين الثالثة والرابعة عصرا .

ولم يكن المنزل بالنسبة إليه إلا امتدادا لأبحاثه الفلسفية . فقد كان يدهشنى وأنا فى مطلع حياتى العلمية مدى الجهد الجبار الذى كان يبذله لكتابة بطاقات المادة العلمية الخاصة بالموضوع الذى يشغله ، وتزيد دهشتى أكثر عندما يفاجئنى فى صباح يوم السبت بمقال ضاف ، كتبه لمجلة متخصصة فى أثناء إجازة يوم الجمعة .

كان محمود قاسم يحظى باحترام مديرى جامعة القاهرة الذين عمل فى عهودهم ، وأبرزهم محمد نجيب حشاد ، ومحمد مرسى أحمد . وعلى الرغم من أن كلية دار العلوم كان ينظر إليها من سائر عمداء كليات الجامعة نظرة استخفاف نتيجة قبولها حيثئذ أدنى مستويات الطلاب الناجحين فى الثانوية العامة، فإن محمود قاسم قد استطاع بفضل شخصيته المتميزة أن يفرض احترامها ، وييسر لها الكثير من المصاعب ، ويتنزع لها بعض الحقوق .

عاشت محمود قاسم ، ما يقرب من عشر سنوات ، لم أره فيها ينحنى أمام أحد من رؤسائه ، أو يتملقه ، أو يداهنه .. بل إننى شاهدته ذات مرة وهو يقابل أحد الوزراء ، فأشهد أن الوزير كان هو الذى يحاول التودد إليه ، والاقتراب منه ، ويرجع ذلك إلى أنه كان شديد الاعتزاز بنفسه ، معتمدا على قدراته الخاصة ، وكفاحه الشخصى ، ولم يكن يفخر بجاه ولا مال ، وإنما كان موضع فخره الدائم : إنجازاته العلمى الذى حققه بالعمل الدؤوب ، والجهد المتواصل .

كان محمود قاسم يجيد اللغة الفرنسية تماما ، نتيجة دراسة فى جامعة السوربون . ومنها ترجم العديد من المؤلفات ، فى الفلسفة والاجتماع والأدب ، كما كان متزوجاً من سيدة فرنسية فاضلة (أنجبت له أحمد ، ووليد ، وفريدة ، وماجدة) ومع ذلك ، فلم يكن يتعلم على محدثه بنطق بعض الكلمات الأجنبية التى يتشدد بها الكثير من الأساتذة ، المتظاهرين بالفرنجة ، فيحشرونها فى حديثهم حشرا (أعرف واحدا من هؤلاء ، كان يفعل ذلك أمامى ، فأرثى له : كان ينطق الكلمة الأجنبية ، ثم يحاول بجهد بالغ أن يجد لها المقابل العربى مع أن دراسته فى أوروبا كانت متعشرة ا) .

عرف محمود قاسم الحضارة الغربية معرفة جيدة . والمهم أن هذه المعرفة لم تفقده الثقة فى الحضارة الإسلامية القديمة ، بل إنه كان مؤمنا بفكرة أساسية ، وهى أن حضارة الغرب إنما قامت على أكتاف حضارة المسلمين ، ولعل كتابه «نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكوينى» يوضح هذه الفكرة ، فقد أثبت فى هذا الكتاب أن توماس الاكوينى ، وهو أحد أعلام الفلسفة المسيحية ، لم يأخذ فقط أفكار ابن رشد ، وإنما تجاوز ذلك إلى مصطلحاته وعباراته .

كان محمود قاسم يريد للعالم العربى ، وهو طليعة العالم الإسلامى ، أن ينهض من كبوته ، وأن ينفذ عن عقله غبار الجهل والتخلف . ومن هنا كان من

أشد المعجبين بجمال الدين الأفغانى ، فى حياته وأفكاره ، وكتب عنه كتابا مستقلا . أما الطريق إلى النهضة فهو التزود بالعلم الحديث الذى هو أساس قيام الحضارة الغربية ، وأهم عامل فى استمرارها . وإذا كان روح العلم هو المنهج ، فقد حمل محمود قاسم على منطق أرسطو - وهو منهج البحث القديم لدى الإغريق ، وكذلك لدى المسلمين لفترة طويلة جداً- حملة شعواء ، وكان همه أن يثبت للأجيال الجديدة أن المنهج التجريسي القائم على الملاحظات ، والفروض ، والتجارب هو منهج المستقبل .

يعتبر كتاب «المنطق الحديث ومناهج البحث» - الذى أعاد محمود قاسم طبعه مراراً - من أهم العلامات التى تؤصّل حاضرنا العلمى والثقافى فى العصر الحديث . وإذا أضفنا إليه كتاب «مقال فى المنهج» لديكارت ، الذى ترجمه وعلق عليه الأستاذ محمود الخضيرى ، وكتاب «مقدمة لدراسة الطب التجريسي» لكلود برنار ، الذى ترجمه د. يوسف مراد وحمد الله سلطان لوقفنا على ثلاث ركائز رئيسة اعتمد عليها بناء البحث العلمى فى الوطن العربى كله .

عاش محمود قاسم مؤمناً بقيمة العقل الإنسانى ، وقدرته على مواجهة مشكلات الواقع رغم صعوبتها وشراستها . والعقل منحة من الله تعالى لكل البشر ، تماماً مثل الوحي الذى ينزل على بعض المصطفين منهم ، لذلك فإن التعارض الذى يفتعله البعض بين العقل والوحي ، أو الفلسفة الحقّة والشرعية : تعارض مصطنع ، وغير حقيقى ، ويكاد يكون «لفظياً» فى معظم الأحيان . ومادام المصدر واحداً ، وهو الله تعالى ، فمن المستبعد تماماً أن يتعارض العقل مع الشرع .

لكن المسلمين مروا بفترات عصيبة ، وشغلتهم مصائب مختلفة عن الالتفات إلى جوهر دينهم ، وكانوا فى كثير من الأحيان يفقدون الطريق الصحيح ، فينزلقون إلى الاشتغال بقضايا فكرية لايجلب عليهم بحثها سوى الفرقة والانقسام . وقد

أثبت محمود قاسم في تقديمه لكتاب «مناهج الأدلة» ، في عقائد الملة لابن رشد - أن معظم مشكلات علم الكلام لا تقوم على أساس حقيقي ، بل إنها تكاد تكون «مشكلات لفظية» .

لقد كان ابن رشد يمثل لمحمود قاسم الفيلسوف المسلم الحقيقي ، الذي اغتاله ظلام العصر الذي عاش فيه (أواخر القرن السادس الهجري) . وقد تعاون في القضاء على أفكاره المتجددة عاملان رئيسيان : تعصب الفقهاء ، وبطش الحكام .. وسوف يظل هذان العاملان هما دائما مصدر التدهور في تاريخ المسلمين . لذلك فإن جمال الدين الأفغانى قد حظى بإعجاب محمود قاسم لأنه هو الذى تنبه إليهما، وجاهر ببيان خطورتهما .

أما الغزالي فقد قرأه محمود قاسم قراءة مختلفة عما هو شائع عنه . فالمشهور أن الغزالي هو الذى هيا للتصوف مكانا مكيئا فى دائرة العلوم الإسلامية . كما عُرف عن الغزالي مهاجمته للعقل ، ومقولاته التى لاتصل بالإنسان إلى حد اليقين . ولكن محمود قاسم تتبع هذه القضية الأخيرة ، واستقرأ بالتفصيل كل ما كتبه الغزالي عن العقل - قبل وبعد انخراطه فى التصوف - فتبين له أن قيمة العقل لدى الغزالي محفوظة ، وأنه ، على حد قوله ، يشبه العين السليمة من العيوب ، فى حين أن الشرع يشبه الشمس التى يغمر نورها الأشياء ، فتصبح رؤيتها ممكنة . فلا العين وحدها تكفى ، ولا وجود للألوان إلا إذا رأتها الأبصار .

وبحيلة الباحث المتعمق ، تمكن محمود قاسم من أن يزيع النقاب عن الاتجاهات الباطنية ، والغنوصية فى الفكر الإسلامى . وبفضل بحوثه فى هذا المجال ، أصبح لدى دارسى الفلسفة الإسلامية الآن الوعى الكافى بما طرأ على التيار الإسلامى الأصيل (النابع من القرآن الكريم والسنة النبوية ، والمتمثل فى فهم السلف) من مصادر أجنبية ، سربها وروج لها أفراد وطوائف مغرضة ، كان يهمها فى المقام

الأول الإساءة إلى الدين الإسلامى الذى أزاح هذه الطوائف عما كانت تتمتع به من مكاسب ومغانم فى ظل معتقداتها القديمة .

وقد استطاع محمود قاسم - عن طريق انتقائه لعدد محدد من القضايا الفكرية- أن يكشف عن العديد من جوانب القوة والضعف فى الفلسفة الإسلامية . ومن ناحية أخرى ، فقد اهتم بتتبع نقاط الاتفاق والاختلاف بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة الإغريقية السابقة عليها . وفى كتابه «النفس والعقل لدى فلاسفة الإغريق والإسلام» صورة محددة وواضحة لهذه المقارنة ، وبيان المدى تأثير كبار فلاسفة المسلمين (ذوى النزعة المشائية) من أمثال الكندى والفارابى وابن سينا وإخوان الصفا برواد الفلسفة الإغريقية من أمثال أفلاطون وأرسطو .

ومن أهم مزايا محمود قاسم العلمية رجوعه عن رأيه إذا ما ظهر له صواب الرأى المخالف له . ومن ذلك موقفه السابق من التصوف باعتباره أحد عوامل تغيب العقل ، وتكاسل المسلمين عن الحركة العلمية ، والانزواء عن المشاركة فى الحياة العلمية . أقول : عندما ظهر له صواب رأى زملائه من دارسى الفلسفة الإسلامية ، أمثال أبو العلا عفيفى ، وعلى سامى النشار ، وعبدالحليم محمود ، من أن التصوف ليس كله بهذه السلبية ، وإنما هناك نوع إيجابى يتمثل فى التصوف السنى الذى يتمسك بأصول الإسلام ، ويستطيع به المؤمن أن يعمق تجربته الدينية - عاد محمود قاسم فكتب استثناء خاصاً لرأيه السابق ، كما رآه متمثلاً فى تصوف الحارث المحاسبى وأمثاله من أعلام التصوف السنى .

لكن الحلاج ظل بالنسبة لمحمود قاسم أحد ممثلى الاتجاه الباطنى - كما هو الحال بالنسبة لابن سينا فيما بعد - وأفكاره المتطرفة مستوردة من خارج الإسلام ، ومقحمة عليه ، فى محاولة مقصودة لتجريد الدين من مضمونه العملى ، المتمثل فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحياة الصحابة والتابعين الذين فتحوا به

العالم القديم ، وأقاموا بفضلهم حضارة جديدة . لم يكن الحلاج ، لدى قاسم ، إلا واحداً من كبار المشعوذين الذين استخدموا ذكاءهم العبقري في خداع الناس ، إلى أن طلع عليهم ذات يوم بادعاء حلول الله في جسده ! وفي فرنسا ، بينما راح ماسينيون ، أكبر المستشرقين الفرنسيين على الإطلاق ، يضع كتابه الضخم عن الحلاج باعتباره شهيد الإسلام ، أخذ محمود قاسم يثبت بالأدلة التاريخية والموضوعية أنه «صاحب مخاريق وشعوذات» .

وكان من أعجب الاتفاقات في حياتي أن أتسلمذ على محمود قاسم ، وعلى مستشرق فرنسي كبير ، كان زميلاً له ، هو البرفيسور روجر أرنالديز . وقد حدث أن ألف أرنالديز كتاباً عن الحلاج ، وضع على صفحة عنوانه بيتاً منسوباً إلى الحلاج ، يقول فيه :

على دين الصليب يكون موتى ولا البطيحا أريد ، ولا المدينة

فغضب محمود قاسم ، وصرح بأن أرنالديز يريد أن يجعل من الحلاج مسيحياً ! وبلغت العبارة أرنالديز ، فاستاء منها كثيراً ، لأنه كان يرى نفسه من أكثر المستشرقين الفرنسيين إنصافاً للإسلام والمسلمين ، وظل يحملها في نفسه ، حتى حدثني بها ، في أثناء إشرافه على رسالتي للدكتوراه في جامعة السوربون ، ويومها .. لم يكن لدى ما أجيب به !

كان محمود قاسم ، مع اتجاهه العقلي الصارم ، سلفياً في مجال العقيدة وكتاباتاته كلها تؤكد أن انحراف المسلمين عن فهم السلف للعقيدة هو الذي أدى بهم إلى المزيد من الأخطاء ، والوقوع بالتالي في حمأة التنازع والصراع . ويحتل كل من أحمد بن حنبل ، وابن تيمية ، ومحمد بن عبد الوهاب مكاناً خاصاً من احترامه وتقديره . ويكفي أن أشير هنا إلى أن اهتمام محمود قاسم بدعوة محمد بن عبد الوهاب كان سابقاً بسنوات عديدة على «هجمة» الكثير من الدارسين

المصريين والسوريين بصفة خاصة لادعاء السلفية: رغبة في نوال ، أو تطلعاً لجائزة

في إحدى المرات وثى به بعضهم إلى شيخ ققهاء مصر في العصر الحديث «محمد أبو زهرة» وقالوا في حقه كلاماً جعل الشيخ يتصل بمحمود قاسم ، ويطلب منه بعض مؤلفاته ليطلع عليها . وقد انزعج محمود قاسم جداً من هذا الأمر ، وكلفنى على الفور بتوفير نسخة كاملة من جميع مؤلفاته ، ثم أرسلها للشيخ ، وظل منتظراً .. وذات صباح فوجئت بقدم الشيخ «أبو زهرة» بنفسه إلى دار العلوم ، حيث جلس طويلاً مع د.قاسم ، ثم انصرف بعد أن ترك لديه عدداً كبيراً من مؤلفاته ، وعلى كل منها إهداء مجامل جداً . وبعد المقابلة استدعاني محمود قاسم ليحكى لى ما جرى ، وفي صوته مرارة واضحة . قال : «تصور أن بعضهم قال للشيخ إننى أدرس للطلاب الكفر فى دار العلوم ١٢» ثم عقب ضاحكاً بانفعال : «ولكنها كانت فرصة جيدة . فقد تأكد تعارفى أنا والشيخ . فضلاً عن أنه أهدانى مؤلفاته ، وكنت أحب أن أقرأها . وعموماً فقد قدم لى أعدائى .. صديقاً جديداً» .

وعلى الرغم من تشابه بعض الظروف الخارجية بين طه حسين ومحمود قاسم، نتيجة ثقافتهما الفرنسية ، وحصولهما على الدكتوراه من فرنسا ، بل وزواج كل منهما من سيدة فرنسية - فقد كنت ألاحظ نوعاً من الجفاء يسود العلاقة بينهما - وكثيراً ما كنت لأقاسم بذلك ، وفى كل مرة ، كان يتجاهل التلميح ، حتى لا يضطر إلى الإجابة . وذات يوم أفضى إلى بالسر: فقد كانت شهادة الدكتوراه التى حصل عليها طه حسين هى دكتوراه الجامعة ، فى حين أن التى حصل عليها قاسم هى دكتوراه الدولة . ولم أدرك الفرق بينهما جيداً إلا بعد أن سافرت إلى فرنسا : فعلمت أن دكتوراه الجامعة تمنح غالباً للأجانب ، تسهلاً لهم ، أما دكتوراه الدولة، فهى التى يعامل فيها الفرنسيون والأجانب على قدم المساواة .

وقد كانت الشجاعة فى قول الحق ، والجرأة فى اتخاذ القرار من أهم سمات

محمود قاسم . ويظهر ذلك بوضوح من خلال موقف عصيب تعرض له في الستينات . فقد كان عليه أن يحكم بترقية واحد من اثنين : د. محمد رشاد سالم وكان معتقلاً ضمن جماعة الإخوان المسلمين بالسجن ، ود. فوقية حسين محمود ، وكانت حينئذ عضواً بمكتب الاتحاد الاشتراكي في كليتها . وتدخلت لديه عناصر كثيرة لتغلب إحدى الكفتين . وكان مهموماً جداً بهذا الأمر . ثم قابلته ذات صباح فوجدته منشراح الوجه ، وعندما سأله عن السبب ، أجابني بأنه اتخذ قراراً هاماً أزاح عن نفسه هموم الليالي السابقة . قال لي : لقد سافرت إلى الإسكندرية ، وهناك خلوت لنفسى ، ودعوت الله تعالى أن يلهمنى وجه الصواب فى المسألة ، فهو وحده القادر على مساءلتى يوم القيامة ، فكان هذا القرار . وبالطبع كان مفاجأة مذهلة للجميع ، حين وقف فى صف الأستاذ «السجين» مفضلاً إياه على الأستاذ «السياسية» ! .

كانت عمادة دار العلوم محنة يومية لمحمود قاسم . وعلى الرغم من أن جميع زملائه كانوا ينفسون عليه استمراره فيهما لمدة عشر سنوات متتالية ، فإنه فى أعماقه لم يكن سعيداً بها . وهنا نقطة ضعف بشرى لا بد من الإشارة إليها : فأحياناً يكون الشيء المتنازع عليه بين شخصين أنه بكثير من مقدار العداوة التى تسببها هذه المنافسة . وأحياناً أخرى يكون الاستمرار فى المنافسة وإثبات الغلبة هو الهدف الأساسى من تلك اللعبة البغيضة التى تقتل الحب بين البشر . ومن المؤكد أن زملاء محمود قاسم لا يعرفون ما أفضى به إلينا - د. محمد حماسة وأنا ، وكنا معيدين جديدين - أنه كان يتناول فى كل يوم ، بعد ذهابه إلى المنزل ، قرصين من «الأوتاليدون» حتى يتغلب على الصداع ، ويستطيع النوم !

ومع ذلك ، فقد كانت فترة عمادته لدار العلوم - من الناحية العلمية له - فترة مزدهرة ، بلور فيها الكثير من أفكاره ، وألف العديد من الكتب ، وراجع طبعات

الكتب السابقة ، وأضاف إليها ، كما نشر الكثير من المقالات فى المجلات العلمية ، وشارك بفعالية فى إعداد معجم الفلسفة بالمجمع اللغوى ، وحاضر فى بعض الدول الشقيقة ، كالسودان ، والجزائر ، والكويت... والمهم أنه فى هذا كله لم يخرج بحال من الأحوال عن إطار وظيفته كعالم وباحث وأستاذ . فلم يعرف عنه أنه سعى فى استثمار ماله فى تجارة ، أو الاستفادة منه فى بنك ، أو التغرب طويلاً فى إغارة من أجل الحصول على مسكن أكثر فخامة ، أو سيارة أشد أبهة !

وعلى مدى السنوات ، تكونت لمحمود قاسم مدرسة فكرية فى دراسة الفلسفة الإسلامية ، أصبحت تتكامل - ولا أقول تتنافس - مع المدارس التى كونها مصطفى عبدالرازق فى جامعة القاهرة ، أو على سامى النشار فى جامعة الإسكندرية ، أو عبدالحليم محمود فى جامعة الأزهر . ويكفى أن أشير هنا إلى أن آلاف الطلاب الذين استمعوا إلى محاضراته فى دار العلوم عن ابن رشد ، أو المنطق الحديث ، مازالوا يكونون له أعمق مشاعر التقدير والإعزاز ، ولا يحفظون له فى أذهانهم إلا صورة الأستاذ الجاد الملتزم . فقد كان يؤدى واجبه فى المحاضرة على أكمل وجه . أما طلاب الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراه) ، والذين انتشروا الآن فى شتى الجامعات المصرية والعربية ، فهم الامتداد الحقيقى له : يتابعون منهجه، ويطورون أفكاره .

ولمحمود قاسم حتى اليوم تأثير واضح فى الأوساط الجامعية والثقافية بالجزائر ، وذلك نتيجة وجود عدد كبير - من الأصدقاء والتلاميذ - ومنهم الآن وزراء ثقافة وتعليم - يكونون له كل احترام وتقدير . أما هو فقد ردّ على هذا الشعور بطريقته الخاصة ، فألف كتاباً مستقلاً عن «عبدالحميد بن باديس : الأب الروحى لثورة التحرير الجزائرية» أبرز فيه كفاح هذا الداعية الكبير ، وربط أفكاره بتيارات الفكر الإسلامى القديمة ، كما نبّه إلى منهجه الإصلاحى الذى استطاع أن يعث به

الشعب الجزائري من الموت ، ويفجر في أعماقه إرادة المقاومة الإسلامية للاستعمار الفرنسي .. حتى كتب له النصر ، وحصل على الحرية .

في آخريات حياته ، كان محمود قاسم قد وصل بأستاذيته إلى حد النضج ، فكان أكثر إقناعاً ، وأكثر وضوحاً ، وأكثر تسامحاً . وعندما أتيحت له فرصة السفر إلى أسبانيا في أحد المؤتمرات العلمية ، والتقى به الأب نوجالس ، وهو رئيس اللجنة الدولية للفلسفة في العصور الوسطى ، أعجب بشخصية قاسم ، وتمسّس له وكلفه بالإشراف على إصدار الطبعة العربية لترجمات ابن رشد . وحين عاد ، كلفني ومجموعة من الزملاء في قسم الفلسفة الإسلامية بمساعدته في إنجاز هذا العمل الكبير ، وسار فيه شوطاً بعيداً .. ولكن النية عاجلته قبل صدوره . فتسلل بعد ذلك مستشرق أمريكي شاب ، وتمكن من التحايل على أسرته ، فأخذ منها العمل كله ، وادعى معظمه لنفسه !

وعندما علمت بهذه الحادثة ، وكنت حينئذ في باريس ، قفز إلى ذهني على الفور ذلك الوصف الذي أطلقه قاسم على ابن رشد وهو «الفيلسوف المفترى عليه» وهذا يعني أنه الفيلسوف الذي ظلمه قومه وهو حي ، وسطاً الأوربيون على تراثه وهو ميت . وقد كان هذا من أعجب الاتفاقات بين ابن رشد ومحمود قاسم !

بقي أن أشير إلى نقطة من نقاط التحول الكبرى في حياة محمود قاسم: قبل وفاته بسنوات قليلة ، وكنت قد أصبحت من أقرب تلاميذه إليه، فاجأني ذات يوم بقوله : «هل تعلم أنني قد وقعت على كنز» وبعد الدهشة والممازحة ، ظهر أنه اكتشف في كتابات محيي الدين بن عربي مذهباً فلسفياً متكاملأ ، لا يكاد يوجد مثله لدى واحد من الفلاسفة المسلمين الكبار ، الذين سبق له دراستهم ، ومنهم : الفارابي ، وابن سينا ، والغزالي، وابن رشد .

وبجد عجيب ومثابرة مذهلة ، انكب محمود قاسم على قراءة «الفتوحات

المكية» ، واستخراج النصوص المناسبة منها . وكان قد سبق لى تسجيل رسالتى للماجستير تحت اشرافه عن ابن عربى ، فأصبحنا نشترك فى نفس الدراسة ، وصيرنا نتبادل - مع الاحتفاظ بالمقامات - البطاقات والمعلومات ، وندهش معاً ببعض الأفكار . وبمرور الوقت ، تحول محمود قاسم من «الإعجاب» بابن رشد .. إلى «عشق» ابن عربى ، وبلغ به الحال أنه كان يستشهد ببعض عباراته فى المواقف اليومية التى يمر بها . وأقسم لى ذات يوم أنه - وهو الذى ترجم برجسون إلى اللغة العربية - وجد عند ابن عربى مذهباً فى «الحدس» ، أشد تماسكاً مما هو لدى برجسون !

لم يبلغ بى حب ابن عربى نفس الدرجة التى وصل إليها محمود قاسم . وكنت أنظر إليه على أنه فقط : أحد وجوه ثقافتنا الإسلامية البارزين ، لا يقل فى مجاله عن كل من الغزالى أو ابن تيمية أو ابن خلدون فى مجالاتهم ، ولكن ابن عربى وسط الفلاسفة كان بالنسبة لمحمود قاسم كالبدر وسط النجوم . فقد أخذ لديه بأفكاره العبقريّة عن «علم الضربة» و«الخيال» و«خزائن الجود الإلهي» و«ذرات الخلق» إلى جانب نظرياته فى التفاؤل والعدل والمعرفة .. أقول : إنه أخذ كل آراء الفلاسفة السابقين .

كان محمود قاسم إذا تحدث عن ابن عربى لمعت عيناه ببريق جديد ، ودبت فيه حيوية شابة ، وسيطر عليه أملٌ باحثٍ فى خطواته الأولى . ثم راحت دراساته المتميزة عن ابن عربى تتوالى بغزارة ، وتمضى بهمةٍ لا تعرف الكلل . ثم طاب له أن يعقد بينه وبين الفيلسوف الألماني لينتز مقارنة ، أدهشت الأوساط العلمية حينئذ بجديتها وطرافتها ، فقد كان المعروف أو المشهور أن أقرب فيلسوف غربي إلى ابن عربى هو اسبينوزا . لكن القاريء العربى أصبح يجد بين يديه كتاباً عن ابن عربى ولينتز يضع أفكار كل منهما فى مواجهة مباشرة عن طريق النصوص بالإضافة إلى

التحليلات العميقة لمحمود قاسم . ولا شك فى أن هذه الدراسة تعتبر إضافة حقيقية للبحث العلمى ، فقد قدمت بمهارة واقتدار نموذجاً مشرفاً لمفكر إسلامى ، تماثل نظرياته - إن لم تفق أحياناً - نظريات واحد من أهم رواد الفكر الأوروبى الحديث .

ويبدو أن ابن عربى كان هو مرحلة الدفع الأخيرة فى الصاروخ ! فقد انطلق به محمود قاسم إلى أقصى درجة يمكن أن يصل إليها باحث مصرى ، وعربى ، ومسلم ، يعيش فى بيئة ما زالت تنظر إلى البحث العلمى نظرة إهمال وتجاهل ، وتعامل صاحبه بحذر وتحفظ ، بل إنها تسهم أحياناً فى القضاء عليه ، حين تتيح الفرصة لخصومه وحاسديه بالتمكن منه ، والإجهاز عليه !

فى أول جلسة يعقدها مجلس كلية دار العلوم - بعد أن تخلى محمود قاسم عن العمامة - قرر المجلس بالإجماع حذف ساعتين من ساعات قسم الفلسفة الإسلامية ، الذى كان محمود قاسم يرأسه . وكانت طعنة سريعة وانتقاماً مليئاً بالتشفى . وعندما أخبرته بذلك ، ابتلع الرجل ريقه ، وقال لى : « لا بأس ! يبدو أنهم قد قرروا أن ينتقموا منى فى أشخاصكم . وما دمتم تلاميذى ، فعليكم أن تتحملوا .. » .

كان الرجل يحس أن مزيداً من الضربات قادمة . وأن منافسيه القدامى لن يتورعوا عن التمدد فى انتقامهم . ورغم أن فقدان المنصب يدعو إلى الرفض بمن كان فيه إلا أن ذلك لم يحدث . وعلى الرغم من أن الموت يحو الحقد من قلوب الأحياء ، فإن بعض الكارهين لمحمود قاسم - بعد مرور عشرين سنة على وفاته - مازالوا يحملون منه الكثير ! ولا أجد تفسيراً لذلك سوى ما قلته فى البداية ، وهو أن الشخصية العظيمة هى التى يكون خلاف الناس حولها أشد ، وتناقضهم أقوى .

لكن فى الجانب المقابل ، يظل محمود قاسم بالنسبة إلى الذين اقتربوا منه بدرجة كافية ، ولزملائه الذين خلعت نفوسهم من الحقد عليه ، ولتلاميذه الذين

تعلموا منه المنهج المنظم فى البحث ، والتقييم المتزن للأمور ، والتعبير الدقيق
والواضح عن الفكر - يظل محمود قاسم لهؤلاء جميعا : صورة ناصعة للعالم
والأستاذ والإنسان ، الذى يكون قدومه إلى الدنيا إضافة حقيقية لها ، ورحيله عنها
من أفدح الخسائر .



محمود قاسم كما عرفته

أ. د. حمدي السكوت *

لا أزال أذكر ذلك اليوم الكريه العصيب من أيام صيف عام ١٩٧٣ . كنت يومها في كامبردج بالانجلترا وذهبت إلى مكتبة مركز دراسات الشرق الأوسط بالجامعة لكي أتصفح الجرائد العربية . وذهلت لرؤية اسم أستاذي الجليل الدكتور محمود قاسم في صفحة الوفيات بجريدة الأهرام . كان رحمه الله قد زارني في بيتي بالقاهرة قبل ذلك بأسبوع وأنا أتأهب للسفر في مهمة علمية تستغرق عاما خارج الوطن ، وكان الرجل في كامل صحته . وقبل سفرى بفترة وجيزة كنا معه في بيته في العجمي حين حضر الدكتور عاطف العراقي مظهرا ابتهاجه ، لأن دار

* أستاذ الأدب العربي الحديث ، ومدير مركز الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة .

العلوم وافقت أخيرا على أن يواصل محمود قاسم التدريس بها ، وكان رحمه الله فيما يبدو قد بلغ الستين ، ومع أن جامعة الإسكندرية كانت قد بادرت بطلب استضافته أستاذا زائرا بقسم الفلسفة بها ، فقد بدت على وجهه معالم الارتياح ، ربما لأن المسعولين في دار العلوم قد تابوا إلى رشدهم ولم يرتكبوا ذلك الخطأ الفادح في حق معهدهم العريق بتجاهله .

لأسابيع كثيرة وبعد قراءة النبأ المفجع كان يتأبى حزن عميق ، وكان الإحساس بفداحة الخسارة في ميادين متعددة يتعاضم كلما انثالت الذكريات . كان الدكتور قاسم أستاذا محترما وإداريا محترما وعالما محترما وصديقا وفيا . وفي السنة الأولى في دار العلوم كنت وزملائي من طلابه نتحدث فيما بيننا عن هذا الأستاذ الارستقراطي المظهر والحديث والسلوك ، الذى هدم لنا منطق أرسطو بجرة قلم ، وفتح أعيننا على مناهج البحث الحديثة في العلوم المختلفة وفي الإنسانيات . وكنا نتحدث أيضا عن نبوءته بأن تغييرا جذريا لابد أن يحدث في مصر في ذلك العام لأن منطق الأحداث يحتم هذا . وبالفعل تقوم ثورة يوليو في صيف ذلك العام. وتنفرد بنا السبل بعد التخرج وأعود من البعثة لأجد الدكتور قاسم عميدا للكلية ويخبرني - رحمه الله - بأنه مفوض من مجلس الكلية باتخاذ إجراءات تعييني وتعيين من يعودون من زملائي في الخارج ، فأطلب إليه أن يؤجل إجراءات تعييني حتى يعود الجميع ونعين سويا فيضحك - رحمه الله - بملء فيه ويشرح لي سر ضحكته ، ويكون هذا بداية تعارف قدر له أن يتطور حتى وفاته . وحين يعود زملائي وكانوا خمسة غيرى يحتضننا جميعا ويطلب إلينا أن نقدم تصوراتنا لما ينبغي أن تكون عليه الكلية وينفذ منه ما يراه مجديا وقابلا للتنفيذ في ظل الظروف السائدة آنذاك بالكلية .. وتستغرقني أعمال التدريس بدار العلوم وبالجامعة الأمريكية ولكنني سرعان ما أتبين أن للدكتور قاسم معارضين من زملائه وأساتذتي ، وفي بادئ الأمر لم يشغلني الخلاف كثيرا ، فالخلاف يحدث في كل

المعاهد العلمية ، والكل - على كل حال - أساتذتى ، ولكل منهم دين فى عنقى ، لكننى - بالتدرج - آخذ فى الانحياز لصف قاسم تماما . لالشيء إلا لمقارنة مواقفه وسلوكه بمواقف معارضيه وسلوكهم .

لأزال أذكر (و كنت أرى الدكتور قاسم لفترات قصيرة بحكم مشاغله ، على حين كنت أجلس معظم الوقت مع معارضيه إذ كان يضمنا مكتب واحد) أن معارضيه كانوا يغتابونه طوال الوقت ، بل ويرفعون العرائض إلى مدير الجامعة والمسئولين بها ضده . أما هو رحمه الله فكانت الأوقات التى أقضيها معه أنا وصديقى الدكتور الطاهر مكى تمر دون أن يسىء إلى معارضيه بكلمة واحدة . فقد كان رحمه الله عف اللسان ، قليل الكلام ، متحضر السلوك .

وبمرور الوقت توطلدت صداقتنا ، بالرغم من أننى لم أمكث بدار العلوم سوى عامين اثنين كان وقتى فيهما مقسما بينها وبين الجامعة الأمريكية ، لكن الصلة استمرت وازدادت توثقا وعمقا بعد ذلك ، وتزايد إعجابى بالأستاذ الجليل فى السنوات الأخيرة من حياته ، حين كان خصومه بالكلية يملأون الدنيا ضجيجا ، ويهرولون إلى مكاتب المسئولين فى الاتحاد الاشتراكى ويقسم البعض بالطلاق (١) إن جددت العمادة لقاسم ليهجرن دار العلوم إلى غير رجعة ، وكانت تصله هذه الأخبار فلا يعلق بكلمة ، وينكسب على قراءة «ابن عربى» الذى كان يشغل كل تفكيره فى تلك السنوات ، حتى يبعث بكتاب «الخيال عند محبى الدين بن عربى» ويبيع المقالات عنه إلى المطبعة ، ثم ينطلق إلى أوروبا فيما تبقى من الإجازة الصيفية ، ويترك الآخرين يتصايحون ، ثم يعود ليجد كرسى العمادة فى انتظاره ، ويستمر «الأزواج» - رغم هذا - فى التدريس بدار العلوم ، ولا تطلق النساء ! .

وقد آلمنى مؤخرا أن لواعج الحق قد ضد هذا الأستاذ الجليل لاتزال تورق ليالى خصومه بعد هذا الفراق الطويل ، فلقد كرمت دار العلوم فى عيدها المئوى كل من هب ودب ، إلا هذا الأستاذ العظيم ! .

صورة البطل : أستاذاً في الجامعة

أ. د. السعيد محمد بدوى *

لاستطيع أن ندرس سيرة أحد من العظماء حتى ولو لم نتعمق في
دراستها كما ينبغي - دون أن نتعلم شيئا من هذه السيرة .

توماس كارليل

سمعت أول ماسمعت اسم محمود قاسم مقترنا باسم عبد الواحد وافى،
ولم يكن الاقتران لصالح أى منهما :

في صيف عام ١٩٥٠ . وقد حصلت على الثانوية الأزهرية من معهد الزقازيق
الدينى ، وتقدمت للالتحاق بكلية دار العلوم ، وحضرت لأداء امتحان مسابقة
القبول - استضافنى بغرفته المرحوم السيد التليانى .

كان قد حصل لنوه على ليسانس دار العلوم والتحق بما كان يسمى وقتها

* أستاذ اللغويات ، ومدير معهد اللغة العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة .

معهد التربية العالى ، وعلى غير عادة أبناء القرى من طلاب الجامعة كان السيد التلبانى يقضى معظم الصيف بالقاهرة يشبع نهمه إلى دراسة ما لم تتحه له النشأة من علوم العصر : اللغة الإنجليزية مرة ، واللغة الإيطالية مرة ، والتصوير الفوتوغرافى مرة ، وحتى علوم التربية وعلم النفس ولكن فى الجامعة الأمريكية وباللغة الإنجليزية مرة أخرى .

ولست أدري مالذى يتحدث فيه طلاب السنوات النهائية فى كلية دار العلوم هذه الأيام عندما يخلو بعضهم إلى بعض ، ولكننى فوجئت فى ذلك الوقت بأن الحديث بين التلبانى وزائريه أو بينه وبين من استصحبني لزيارتهم كثيرا ما كان يتركز حول أسماء معينة من أساتذة الكلية وأنه لم تكد تخلو حلقة من حديث عن محمود قاسم وعلى عبد الواحد وافى ومادار ويدور بينهما من معارك يمتد ميدانها الواسع من قاعات المحاضرات ليصل إلى أوراق الامتحانات ، لكى يسقط «ضحية» لها الطلاب «المساكين» الذين لانصيب لهم لا فى «الجمل» ولا فى «الجمال» كما سمعت فى كل مكان .

كان الدكتور على عبد الواحد وافى يعتبر نفسه سبطا من أسباط مدرسة إميل دوركايم الفرنسى فى علم الاجتماع . وكان الطلاب لايشبعون من ترداد العبارة التى ادعوا أن الدكتور على عبد الواحد وافى كان دائما ما يختتم بها مقدمته عن عظمة دور كايم وآرائه الرائدة فى علم الاجتماع ونظريته التى قلبت العلم رأساً على عقب ، كان يقول - والعهدة عليهم طبعاً «ولدور كايم تلامذة مشهورون من أهمهم» «موس» و«هبير» و«على عبد الواحد وافى» .

كان المستمعون ينتظرون فى شغف وشوق كبيرين تمام هذه العبارة التى كانوا يحفظونها عن ظهر قلب ، والتى كان «مشخصاتى» الجلسة يرددها دائما بأنفية ثقيلة وصوت رقيق حاد الطبقة كان المفروض - كما كنا أفهم من الموقف - أنه

يقلد بهما أنفسي الدكتور على عبد الواحد وصوته الحاد . وما أن ينتهي من هذا التشخيص حتى ينفجر الطلاب في قهقهة عالية طويلة وكأنها نكتة لاذعة لم يسمعوها من قبل .

كان دور كايم يقول بأن الفرد لاحيلة له في تشكيل نفسه أو تشكيل معتقداته، وأنه في قبضة مجتمعه يشكله كيف يشاء . وكان يصور العلاقة بين الأفراد ومجتمعهم بـ: ١ (صغير) + ١ (صغير) + ١ (صغير) + ... إلى آخره = ١ (كبير ، وهو المجتمع كله) .

وكان على عبد الواحد وافى يؤيد هذا الرأي ويعضده ولم يكن يقبل فيه جدالا ولا نقاشا (كما كان الطلاب يرددون في تلك الأحاديث) .

محمود قاسم من جانبه كان يرى أن دور كايم كان أحادي النظرة ، فقد أغفل العباقرة ودورهم في تشكيل مجتمعاتهم وتغيير مسارها ، وكان يقول - والعهد على الطلبة أيضا - إن اعتناق رأى دور كايم هو تكذيب للنسوة والرسالات السماوية ولدور الأنبياء في رفضهم معتقدات مجتمعاتهم وهدم لظاهرة البطولة من أساسها .

كان هذا النقاش يدور حاميا - كما قال الطلاب - بين كل من الأستاذين وطلبتة ، وكل منهم يعرض آراءه وحججه ، ويجيب في الوقت ذاته على الحجج التي علمهم إياها الأستاذ الآخر . وكان هذا بلا شك إثراء للحركة العلمية وحثا على التفكير والتأمل لدى الطلاب . ولكن المشكلة كانت تأتي مع امتحان آخر العام .

كان الأستاذان يتقاسمان ورقة واحدة في امتحان اللسانس ، وكانت الأسئلة في كل قسم - حسب رواية الطلاب التي سمعتها في كل مكان ويقدر كبير من

التفكه أو الضيق أو السخرية (كل حسب الدرجة التى حصل عليها) - تتطلب
إجابة تناقض الإجابة فى القسم الآخر : الطلاب الذين أجابوا لكل شيخ حسب
طريقته - كما ادعى الطلاب - سقطوا سقوطا ذريعا .

لم يكن حدوث الخلاف بين الأساتذة شيئا جديدا على . فقد عاصرت
الانشقاق الكبير الذى قسم أساتذة الأزهر بين أشيع للمراعى وخصوم له والذى
انتهى بتفريق التجمعات التحزبية وتشتيتها خارج مراكزها الكبرى فى القاهرة
ومعاهد الأقاليم ، ولم يسلم معهد الزقازيق الدينى حيث كنت أدرس من التموجات
فقد نفى عبد اللطيف دراز وعدد من أنصاره من القاهرة إلى الزقازيق ، كما نفى
إلى الزقازيق أيضا ولكن من طنطا عدد آخر من الشيوخ على رأسهم حسين
البيدوى، الذى نعمت بصحبته حتى بعد تخرجى من دار العلوم ، وذهايبى للدراسة
فى إنجلترا ، على نفقتى الخاصة فى بادئ الأمر .

ولكن الجديد الذى فاجأنى وأدهشنى وشوقنى حقا إلى رؤية هذا الأستاذ
الشاب الجرىء على رئيسه على عبد الواحد وافى نفسه (وهو من هو فى أستاذه
وعناده) بالرغم من حداثة عهده بالكلية - أن الخلاف الحاد كان حول فكرة ورأى
علمى . كان ذلك عام ١٩٥٠ .

فى عام ١٩٧٣م مات محمود قاسم وهو فى خضم معركة طاحنة مع جامعته
ومع مجتمعه وكانت أيضا حول فكرة : هل نتنازل عن مبادئنا وأخلاقنا ونهجر
مسئولياتنا تجاه الشباب من أجل إرضائهم وقتيا لكى نتلافى المواجهة مع المنحرفين
منهم ، أم نثبت على أقدامنا ونحارب حتى لو كنا نقف فى آخر خندق ونطلق آخر
رصاصة؟

ما بين هاتين المعركتين خاض محمود قاسم معارك كثيرة مع طلابه ، ومع
زملائه . ومع رؤسائه ، ومع مرعوسيه ، ومع رموز العهد ، وأشهد الله أنه لم يغير

منهجه أو يتنازل عن أولوياته . ولم يكن ذلك من مقتضيات (الحكمة) أو حسن السياسة كما يعرفها مجتمعنا ، ليس فقط مجتمع الحاضر بل مجتمع الماضي ، وأسأل الله أن لا يكون مجتمع المستقبل أيضا .

فى دار العلوم اقتربت من محمود قاسم - تحت تأثير ماسمعه عنه من قصص - على وجل ، ولكن بخطى ثابتة ، راعنى منه - وروعنى أيضا - فى البداية هذا الكم الهائل و المتجدد من ألوان الانفعالات التى تنداح على طول صفحة وجهه: من جبهته إلى شفتيه ومن شفتيه إلى جبهته . وعندما انحسرت شفتاه لأول مرة أمامى وكشفت عن أسنانه بصرنى المتنبى بما فى هذه الابتسامة من غموض يدعو إلى كثير من الحذر .

لأدرى بالضبط متى بدأت الصحبة معه ، ولكنى أذكر أن محمود قاسم جمعنا ونحن فى الفرقة الثانية مع طلاب الفرقة الرابعة فى مقرر واحد فى الفلسفة الإسلامية كان قد انتهى لتوه من إعداده ، كما قال لنا ، وفى إحدى المحاضرات كنت الوحيد الذى أجاب عن سؤال وجهه عن نوع الصلة بين رأى للفارابى كان يشرحه وبعض تفاصيل الفلسفة اليونانية .

كان من الممكن أن يمر الموضوع بدون عواقب لولا الدهشة البالغة التى عبر عنها محمود قاسم لصدور الإجابة من مجرد طالب فى الفرقة الثانية ، من المفروض أنه حديث العهد بالدراسات الفلسفية . ولولا رفض الأخ المرحوم على السكوت لهذا التعريض بطلاب الفرقة الرابعة . وفى غمرة مشاعر الحرج التى وجدتنى أغرق فيها لكونى السبب فى هذا النزاع ، ولو بطريقة غير مباشرة سمعت صوت محمود قاسم وكأنه يأتى من بعيد : «إن مدح طالب فى الفرقة الثانية لايعنى بالضرورة ذم طلاب الفرقة الرابعة ، ومع ذلك فأنا آسف ياسيدى» وساد صمت . ثم تخلقت الإبتسامة الشهيرة على ركن فمه وقال «مبسوط؟ ممكن. نستمر فى المحاضرة؟» .

كان محمود قاسم - على العكس من كثير من زملائه - يخرج من محاضراته فلا يجروا أحد على أن يتبعه . ويجلس إلى مكتبه في حجرة الأساتذة دون أن يتحلق الطلاب حوله . ويأتى موسم كتابة الأبحاث - وكانت مادة أصيلة في المنهج في ذلك الوقت - فلا يفكر أحد من الطلاب في الكتابة له .

في الفرقة الثالثة فوجئت بمحمود قاسم يطلب منى «أنا؟» أن أكتب له بحثا عن «الفصل فى الملل والنحل» لابن حزم . وغرقت فى دار الكتب ثلاثة أشهر قضيتها كلها تقريبا فى دراسة الموضوع وخرجت فى نهايتها بأكثر من ١٢٠ صفحة من القطع الكبير كانت أسوأ بحث كتبه فى كليه دار العلوم . فبدلا من أن أقيم الكتاب ككل فى منهجه وأسلوبه وطريقة تناوله للموضوع وكيفية الاحتجاج للرأى فيه - اكتفيت تقريبا بتلخيص آراء ابن حزم وخاصة فى التوراة والإنجيل وغرقت فى أقيسته الأرسطية ، أرددها وأقلبها معه دون حصيلة تذكر .

لم ينقلنى عند محمود قاسم - فيما يبدو - إلا ما انتهيت إليه فى خاتمة البحث من أننى لا أتفق إطلاقا مع ما يراه ابن حزم مع اتهامه للكهان والأخبار والقساوسة بأنهم حرقوا كتبهم عمدا «ومع سبق الإصرار والترصد» لخداع الأتباع والمتدينين . وحاولت الاسترشاد لظاهرة التغيير التى حدثت بقضية الأخذ فى تشريعات المجتمعات المختلفة بمقتضى «المصالح المرسلة» ثم إمكانية تأثير هذا العمل بعد ذلك فى كيفية تفسير النصوص ثم ارتقاء التفسير ذاته بتأثير احترام الخلف للسلف إلى مرتبة النص الأساسى .

أعاد لى محمود قاسم البحث وقد دون فى هامش خاتمته ملاحظة وحيدة كانت بعيدة عن الصواب بقدر بعد البحث ذاته عن التوفيق : «أنت متأثر بأسلوب العقاد» .

فى أجازة الصيف عام ١٩٥٣ كنت أسير مع ابراهيم الترسى فى الزقازيق ، فإذا

بنا نفاجاً بمحمود قاسم ومعه واحد من أبنائه فسلمنا وجلسنا فى «قهوة المثلث» .
 وكعادة الأطفال عندما يطول بهم الجلوس فى صحبة كبار لا يملونهم التفاتا طلب
 الطفل أن يذهب إلى المكان المعهود فاصطحبه ابراهيم الترزى إلى دورة المياه القريبة
 وعندما رجعا لاحظت فى يد الطفل قالبا كبيرا جدا من الشيكولاته خيل إلى أنه
 صنع خصيصا لهذه المناسبة . نظرت إلى وجه محمود قاسم وقد تسارعت على
 صفحته موجات متلاحقة من العواطف المتداخلة : كانت لفته رقيقة جدا من
 ابراهيم الترزى أدخلت السرور على الطفل وبدا واضحا أنها أدهشت محمود قاسم
 ومست قلبه ، بقدر ما أوقعته فى حرج شديد . وفى غمار الريبة الهائلة التى
 انتابته ، وبين عبارات الشكر والعتاب وحتى اللوم التى راح يطلقها متتابعة على
 رأس ابراهيم الترزى فوجئت به يتخلص من الموقف كله ويلتفت إلى فجأة ويطلب
 منى أن يكون البحث الذى أقدمه له فى الفرقة الرابعة تحقيقا ودراسة لكتاب
 «مشكاة الأنوار» للإمام الغزالى .

بدأت رحلة طويلة مع هذا الكتاب وصاحبه حملتى - بين ما حملتنى إليه -
 إلى كلية اللاهوت القبطية بالمعادى وإلى دير الآباء الدومينيكان بالعباسية . فى كلية
 اللاهوت القبطية جلست عدة مرات أتخاور مع قس لبنانى من المهتمين بالغزالى ، لم
 يعخل على بوقته ولم ينكر على جلوسى معه وفى غرفته الخاصة مجلس الأكفاء
 حول قضية مشتركة ، أما فى دير الآباء الدومينيكان حيث أرسلنى محمود قاسم
 للاطلاع على التحقيق الفرنسى الأول لكتاب الغزالى «الرد الجميل على ألوهية
 عيسى بصحيح الإنجيل» فقد تلقيت معاملة مختلفة .

فى بداية شارع مصنع الطرايش لم أجد أحدا أسأله عن الدير إلا مجموعة من
 الفتيات يرتدين زيا مدرسيا ويتباغمن بفرنسية عذبة . ما أن سمعنى أنطق كلمة
 الدومينيكان بثبوت النون «وأكاد أقول . والألف قاعل» حتى انفجرون فى قهقهة

عالية وأخذن يقلدننى صوتا وطريقة نطق : «الدومينيكا ا ا ا ن ن ن..... ها ها
ها..... الدومينيكا ا ا ا ن ن... ها ها ها» ، وضاع جزء كبير من اعتداد «الباحث»
الذى كان بداخلى .

فى الفتحة الضيقة التى انزاح عنها باب الدير فى حذر وتوجس وقف الراهب
أخذنا على السبيل وفى وجهه ما لم تستطع المجاملة أن تخفيه من الآثار التى أحدثتها
فى نفسه لهجتى التى كانت أكثر تقعرا فى ذلك الوقت ، وانتسابى الذى أعلنته إلى
كلية دار العلوم ، ولكن اسم محمود قاسم فعل فيه مافعلته «إفتح ياسمسم» فى
جانب الصخرة الرعر .

وجثم على صدرى إحساس بأننى غريب الوجه واليد واللسان ، وأين؟ فى
آخر مكان يتوقع فيه مثلى أن يحس بالغربة : شارع مصنع الطرايش .

كانت الحركة الوطنية فى مصر قد اتخذت من صناعة الطربوش رمزا لرفض
الهيمنة الأجنبية . فليس من المعقول - كما قالوا لنا فى المدرسة الابتدائية فى
الثلاثينيات - أن نحمل - وفوق رءوسنا بالذات - آثار ماعملته يد الأجنبى . فقام
مصنع الطرايش بتبرعات من الشعب شارك فيها تلاميذ المدارس .

«أنت شريك مؤسس فى مصنع الطرايش هذا . وبقرش صاغ كامل . وأنت
لازلت تذكر اللحظة والمكان الذين استخرجت فيهما هذا القرش من «جيب
الساعة» فى جيبابك ، ولازلت تذكر أنك استودعت القرش بكل اعتزاز فى يد
الشيخ صادق عثمان ، مدرسك فى المدرسة الإلزامية بالقرية» كما رحت أذكر
نفسى تقوية لها على اجتياز المحنة التى وقعت أتخبط فيها.

فى داخل المكتبة أجلسنى الراهب فى صمت . ووضع أمامى الكتاب ،
مفتوحا على القسم الذى قلت إننى مهتم به . ثم لم يترجح من مكانه . كالطود

وقف خلفى ، أكاد أحس بأنفاسه تلمح قفاى . عاقد ذراعيه على صدره وعينه على الكتاب لاتفارقانه . وأيقنت أنه سيقى هكذا حتى أنتهى . فأغلقت الكتاب فى الترواحلة وقلت لى إننى قد اكتفيت ، وشكرته وخرجت إلى الشارع حيث وجدتنى أسارع بملء رثى بالهواء ، بكل مافيه من غبار وشوائب وروائح .

كنت سعيدا جدا بالدراسة التى قدمتها لمحمود قاسم قرب نهاية العام . أربعون صفحة أو أكثر قليلا كتبها لى صديقى وابن بلدتى الأستاذ ابراهيم السيد غيث على الآلة الكاتبة فى وزارة الحرية حيث كان يعمل . كانت هذه هديته لى بمناسبة الانتهاء من هذا البحث الذى قطع مايبنى وبينى الأصدقاء من المؤانسة المعتادة شهورا طويلة .

فى النسخة الوحيدة المطبوعة فى ذلك الوقت من «مشكاة الأنوار» التى كانت أيضا فى يد القس اللبنانى اكتشفت - بمقارنتها بالأصل المخطوط فى دار الكتب - سقوط مطرين ونصف فى غاية الأهمية فى تصحيح بعض الآراء التى كان علماء المسيحية يرونها فى أفكار الغزالى ومعتقداته . اعتبرت تقديم نسخة من العبارة المصححة للقس اللبنانى شكرا عمليا على سماحته وكرمه .

لم يعد لى محمود قاسم البحث (فى الواقع عشر عليه الأخ العزيز حامد طاهر فى مكتبة محمود قاسم عندما أهدتها زوجته بعد وفاته إلى كلية دار العلوم وأعادها لى) ولكنه أرسل لى وقال : يجب أن نتناقص فى البحث وخاصة فيما يتعلق بنظرية الفيض عند علماء المسلمين .

كان رأى السائد لدى العلماء فى ذلك الوقت - ولأدري هل تغير هذا رأى الآن ، فلم أعد أقرأ فى الفلسفة الإسلامية - أن نظرية الفيض مستقاة جملة وتفصيلا من الفلسفة اليونانية وأنها لاتتصل من قريب أو بعيد بتعاليم الإسلام . ولكننى قلت فى البحث إنه على الرغم من وضوح تأثر الفارابى - وبالتالى غيره من فلاسفة

المسلمين - بالفلسفة اليونانية ، فى إدخال نظرية الفيض بعقولها العشرة فى دائرة ما أصبح يسمى بالفلسفة الإسلامية - فإننى أرى فى التراث الإسلامى جوانب من الممكن أن تكون قد أخذت فى الاعتبار عند صياغة النظرية على أيدي فلاسفة المسلمين ، على الأقل من ناحية المصطلحات .

فعندما استعادت مريم بالرحمن ممن تمثل لها بشرا سويا . هداً من روعها بقوله ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ﴾ (سورة مريم الآية ١٩) وقد وقع فى ظنى فى ذلك الوقت أن فلاسفة المسلمين فى تسميتهم للعقل العاشر والأخير فى سلسلة الفيض «بواهب الصور» ربما كانوا قد تأثروا بالفعل «أهب» فى هذه الآية التى تتحدث عن حالة من حالات تخليق طفل ، هو السيد المسيح عليه السلام .

كذلك فى حديث الإسراء والمعراج يحدث النبى ، صلى الله عليه وسلم ، عن رقيه إلى سدة المنتهى مرورا بالسموات السبع سماء سماء ، ويخبر عمن قابلهم وتحدث معهم فى كل سماء . وقد قلت فى ذلك البحث إن من الممكن أيضا أن يكون فلاسفة المسلمين قد استأنسوا بهذا الحديث ورأوا فيه ترشيحا لفكرة المراتب التى تحتلها العقول فى درجات الفيض .

بالطبع رفض محمود قاسم هذا الكلام جملة وتفصيلا ، ولكنه - وللمرة الأولى فى علاقتى به - جلس يحاورنى على قدم المساواة . كان ينتظر حتى أفرغ من حديثى . ويتأمل ما أقول بانتباه لم يحاول أن يخفيه عنى . وقد ركز بصفة خاصة على الآية القرآنية لما فيها من شبهة قوية ، لا تقوم فقط على وجود الصلة اللغوية بين الفعل «أهب» ومصطلح «واهب الصور» ، بل أيضا - وهذا هو الأهم كما قلت له - عل وجود المشابهة بين المهمة التى قام بها جبريل فى هبته الطفل الزكى عيسى لأمه مريم ، والمهمة التى ينسبها الفلاسفة «لواهب الصور» فى نظرية الفيض.

كان فيما قلته فى ذلك الوقت كثير من الاجراء ، وكثير من المفاجأة والمعاظلات القولية ، ولكن محمود قاسم لم يسخر أو يسفه . بل انتظر حتى انتهيت تماما من الحديث ثم بدأ فى الإجابة . وقد تركزت إجابته - التى لازلت أذكر كثيرا من تفاصيلها على الرغم من مرور حوالى ثمانية وثلاثين عاما عليها - على أن خلق المسيح والحمل به وميلاده كلها أمور تقع فى إطار المعجزة . والمعجزة أمر خارج عن المألوف ولا يمكن بل ولا يصح القياس عليها ، وإلا انتفى عنها وصف المعجزة . أما نظرية الفيض المستقاة من أصل يوناني غريب عن التراث الإسلامى فتحدث عن الناموس المألوف الذى تخالفه المعجزة وتخرج عليه «هذا على فرض صحة النظرية على الإطلاق» .

كنت معجبا جدا بما كتبت ، ولذلك لم أسلم له بما قال فانهخرطت فى إجابة طويلة بدا منها أننى أفند رأيه وأحاول بكل وضوح تجاوزه . فقلت إن الحمل بالسيد المسيح عليه السلام وميلاده قد اشتمل على أحداث كثيرة ينطبق على بعضها وصف المعجزة بكل وضوح مثل الحمل بدون أب ، وبلوغ الحمل تمامه قبل إنقضاء الفترة المعهودة ، واهتزاز النخلة وتساقط الرطب منها استجابة لتحريك يد السيدة مريم لها على رغم مافيه من ضعف . ولكن بعض الأحداث الأخرى لايلزم أن تكون من نوع المعجزة أى مخالفة للمألوف وقد يكون من ذلك قيام جبريل بدور من يحمل هبة الخلق من الخالق سبحانه وتعالى . فقيام جبريل بهذه المهمة - حتى فى هذه الحالة أيضا - قد يكون هو الأمر «المعتاد» على الرغم من أن الإعجاز فيه ظاهر «الإعجاز وليس المعجزة» . إذا جاز لنا مثل هذا التفريق .

كنا قد قضينا أكثر من ساعتين فى هذا الحوار وكان من الضروري أن نفرق ، فقال محمود قاسم إن القاعدة فى الخلق قد حددها القرآن بما لايدع فيها مجالا للشك : الخلق المباشر وبدون وساطة من أحد «كن فيكون» . وماعدا ذلك فهو

خارج عن المألوف ويتم لأغراض إلهية قد نعرف بعضها «إذا سمح لنا» وقد لانعرف بعضها «إذا لم يؤذن لنا في المعرفة» . وافترقنا على تأكيد من محمود قاسم على ضرورة لقاء آخر لاستئناف الحوار ، ولكن استئناف الحوار لم يتم أبدا ، بل إننى لم آخذ دعوته لإكمال الحوار في فرصة أخرى محمل الجد . فقد بدا لى واضحا في ذلك الوقت أنه يريد أن يقول إننا قد بلغنا من الحوار مداه وإنه لم يعد هناك مايقال في الموضوع ، وإن كان يعترف لى بحقى في الاحتفاظ برأى الخاص فيه .

كانت هذه هي آخر مرة أجلس منه مجلس المحاور في موضوع فلسفى . وإن كنت قد جلست منه كثيرا جدا بعد ذلك في مجلس المستمع المستفيد من أبحاثه الفلسفية . وخاصة في الفترة التي تعلق بها وجدانه بفلسفة ابن عربى . ففي امتحان الليسانس حصلت على تقدير جيد فقط في مادة الفلسفة الإسلامية ، وكانت هذه هي «الجيد» الوحيدة التي حصلت عليها في كلية دار العلوم . وكان «واهب» هذه الدرجة الدكتور عثمان أمين الذي كان يحاضرنا عن الشيخ محمد عبده بدون كتاب ، وبدون مذكرات ، وبدون مراجع يمكن أن نرجع إليها في ذلك الوقت ، فيما عدا «رسائله للدكتوراه المكتوبة بالفرنسية والموجودة بمكتبة جامعة السربون» ، كما قال .

وجدت نفس لأول مرة أعتمد على مايقوله أستاذ فى قاعة المحاضرة دون عون خارجى . ولم يفلح كتيب محمد صبيح - وكان العمل الوحيد المطبوع وقتها عن الشيخ محمد عبده ، وكنت قد اشتريته بقرشين اثنين وقرأته وأنا فى الأزهر ولم يشر إليه الدكتور عثمان أمين - فى تدارك الموقف .

وتحطمت آمالى فى اتخاذ الفلسفة الإسلامية مجالا أخصص فيه . فانتقلت إلى الدراسات اللغوية على غير رغبة فيها فى بداية الأمر ، إلى أن اكتشفت بعد مدة أن بين الاثنين آصرة عبر عنها الأرائل بأن «النحو للسان كالمنطق للجنان» .

ولم يسمع محمود قاسم بما حدث إلا بعد ثلاث سنوات عندما عاد من ليبيا بعد أن قطعت دار العلوم إعارته لها - قبل تمام المدة المتعارف عليها - كيدا ومضايقة . كان عبد الرحمن أيوب قد اختارنى للتدريس ، تحت إشرافه ، فى المدرسة الإنجليزية بمصر الجديدة . وهناك تعرفت بـ زوجة الدكتور محمود قاسم بعد أن انضمت للمدرسة لتدريس اللغة الفرنسية بعد العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ (وخروج هيئة التدريس القديمة) وفاتحنى عبد الرحمن أيوب فى أمر إعطائى دورسا خصوصية فى اللغة العربية لأولاد محمود قاسم فقبلت على الفور .

فى أجازة نصف السنة حضر محمود قاسم من ليبيا وأتى لزيارتي بالمدرسة الإنجليزية وشكرنى على مساعدتى لأبنائه . ثم أخرج مظروفا ليعطيه لى فأحسست بحرج شديد . وقلت فى تلثم كثير : إن هذا غير ممكن . وتجاوزنا ولكن حوارنا هذه المرة كان حول فلسفة العمل والجزاء . قال : إن الأطفال يودون أن أستمع معهم فإذا أردت أن لأخيب رجاءهم فيجب أن أقبل الأجر . وقلت عليه - على ما أذكر - هذا القياس شبه الأرسطى فقلت : إننى أود أن أستمع فى التدريس للأطفال فإذا أراد أن لا يخيب أسمى فينبغى أن يعفنى من قبول الأجر . ودام الحوار وقتا ثم انقطع . كما انقطع حوارنا السابق . وأخبرنى عبد الرحمن أيوب فيما بعد أن محمود قاسم كلف مدرسا آخر بالتدريس للأطفال .

بعد عودته النهائية من ليبيا ، سمع بالتحاقى بقسم الدراسات اللغوية ونحن جلوس مع عبد الرحمن أيوب وآخرين . فاجأنى رد فعله الحاد بما لم يكن ليخطر لى أبدا على بال : «خسارة ! هذه الموهبة والاستعداد للدراسات الفلسفية!» وتبتهت لما لم أدركه أبدا طوال السنوات التى صحبتها فيها . كان محمود قاسم فيما بدالى لى ذلك الوقت - قد قرر - ربما منذ لحظ إجابتي العابرة فى قاعة المحاضرة المشتركة بين الفرقين الثانية والرابعة عام ١٩٥٢ - أننى مادة صالحة للتخصص فى الفلسفة

الإسلامية . فلم يدعنى أغيب عن وعيه العلمى . أدركت أن تكليفه لى ببحث
الفرقة الثالثة وبحث الفرقة الرابعة ، وأبحاث صغيرة أخرى ، كان بعضها للإجابة
على استفسارات صحفية قصيرة - أدركت أن كل ذلك كان لتحقيق هدف محدد
طويل الأمد . وشعرت بألم يعصتر قلبى ومرارة لانزال بعض آثارها على لسانى
إلى اليوم .

ولكن الدرس الذى تعلمته عنه ذلك اليوم لم يضع كله . فأنا الآن - وقد أصبح
لى طلابى وقسم خاس يمنح درجة الماجستير بالجامعة الأمريكية - أبقى عينى
مفتوحتين بحثا عن المواهب الخاصة فى الدراسات اللغوية . كما فعل محمود
قاسم معى فى الدراسات الفلسفية ، مع فارق واحد . فأنا لا أنتظر سنوات قبل أن
أبرح للطلاب المختار بما فى نفسى .

عند عودتى من إنجلترا فى نهاية البعثة كان محمود قاسم عميدا لكلية دار
العلوم ، وقد وجد فى دعوى الطهارة الثورية التى كان يرفعها العهد فى الستينيات
لواء ينضوى تحته . أدهشنى كثيرا أن أكتشف بعد فترة أن محمود قاسم كان حقيقة
مخدوعا فى ذلك العهد ورموزه وإن كان له بعض العذر فى هذا الانخداع فقد كان
محمود قاسم حقيقة يؤمن بالبطولة و«البطل» ، ومعركته مع على عبد الواحد وافى
لم تكن فى حقيقتها إلا مظهرا من هذا الإيمان المتأصل فى ذاته ، على الرغم من أنه
كان لشخصية الاثنين الحادتين والمتنافرتين بطبيعتهما دور كبير فى الوصول بالمعركة
إلى حرارة الجحيم التى وصلت إليها .

لقد حول يريق دكتوراه الدولة التى حصل عليها محمود قاسم من فرنسا
(وكان من أوائل - إن لم يكن أول- المصريين الذين حصلوا على هذه الدرجة)
حول الأنظار عن جانب من التأثير الذى يبدو أنه اكتسبه من فرنسا نفسها ، وخاصة
فى فترة ما قبل العمادة - على عدم الانتباه إلى هذا الشطر الأساسى من شخصيته

ومعتقداته . ولم يكن هو وحده الذى كان يعتقد هذه الثورية الاشتراكية ، بل كان يشركه فى هذا زوجته وأولاده - على الأقل الكبار منهم - وهم الذين خبرتهم وجلست معهم .

لم يكن محمود قاسم يتحدث عن أسرته أبدا على الرغم من معرفتى بهم فردا فردا . وعلى الرغم من تزاورنا . وعلى الرغم من علاقات المودة التى كانت قد نشأت بيننا جميعا . مرة واحدة تخلى عن ذلك تحت ظروف ظننا قاهرة على مايبدو . كنت أجلس معه فى مطبخ بيته فى شارع مصدق وكانت زوجته تحضر لنا الطعام ، وكانت تضع أماننا منه مايتسم نضجه أولا بأول «وكان عبارة عن سمك بلطى مقلّى وأشياء أخرى» كانت جلسة مودة وصفاء لاتنسى . وفجأة دب نقاش مرتفع الصوت قليلا جدا باللغة الفرنسية التى لأعرفها . بعد فترة التفت إلى - وكأنه رأى أن من واجبات الضيافة (وكان متمسكا بها امتسكاك الريف الذى كانه) أن يقدم لى شرحا لما حدث - وقال : «مشكلة أسرتى يادكتور سعيد أنهم فى حقيقتهم برجوازيون وإن كانوا يظنون فى أنفسهم الإيمان بالاشتراكية » ولم يزد ولم أعلق .

كان محمود قاسم محافظا إلى أبعد درجات المحافظة . ولست أدرى هل كان على وعى كامل بهذا أم لا . فعلى الرغم من تزاوره أسريا مع بعض الزملاء والأصدقاء إلا أنك كنت دائما تحس بأن هناك حجبا كثيفا مضروبا على أسرته وخاصة زوجته . ولم يكن ذلك غريبا على أبدا .

فى السنة النهائية لى بكلية دار العلوم كنت أقف فى انتظار الترام بوسط الزمالك ، وإذا بى أفاجأ بعبد الرحمن أيوب ومحمود قاسم ومعهما سيدة «لم أجزؤ على رفع نظرى إليها» ينضمون لى فى وقفتى على المحطة . حيانى عبد الرحمن أيوب بتلقائيته وحيويته المعهودتين بينما حيانى محمود قاسم من بعيد وبتحفظ

شديد ، ثم أهل الترام فإذا بعبد الرحمن أيوب يسارع نحوى ويهمس فى أذنى أن أترك هذا الترام يمر لأن زوجة الدكتور محمود قاسم ستركب وحدها بينما ينصرفان هما لعمل فى الزمالك بمفردهما وأنه - أى محمود قاسم - «والعهدة على عبد الرحمن أيوب . متعه الله بالصحة و العافية» لا يحب أن أركب معها فى عربة واحدة ، ولما قلت لئننى سأركب عربة مختلفة قال : أو حتى ترام واحد .

وإذا كان محمود قاسم قد طعم روحه الريفية المصرية ونشأته الدرعية ، بروح من الثورية الاشتراكية فى فرنسا ، فإن أولاده وضعوا هذه الثورية على حجر أمهم وفى كنفه خالصة لم تشبها شائبة . وقد شقى أولاد محمود قاسم بهذا وأشقوا والديهم معهم .

كنت أسير فى شارع مصدق بعد وفاة محمود قاسم بأكثر من عام فإذا بى أجدنى وجها لوجه مع ابنته الكبرى فريدة . كانت فريدة مثالا للنقاء والطهارة . كانت مثل نسمة الفجر فى يوم من أيام الشتاء المبكرة : ندية ومنعشة ولاذعة .

كانت تمسك فى يدها ورقة تقرأ منها وتغمغم لنفسها ، وعندما تنبعت لما حولها ولاحظت قربى منها ، رفعت لى عينين والهتين وقالت «شاي فادكتور بدوى ا حتى وليد أصبح يتصرف مثلهم جميعا» .

كان أخوها وليد معيدا بكلية الهندسة ، جامعة القاهرة . وقد ذهب إلى كندا فى بعثة على نفقة ، أو بمباركة كلية الهندسة «لست أذكر الآن» ومن هناك قرر عدم العودة ، وكتب يخبر الأسرة بقراره ، ورأت فريدة أن فى هذا نكوصا عن مبادئ الالتزام الذى تدين به الأسرة . ولم تكن القضية فى الواقع بهذه البساطة . فقد كان وليد واحداً من الشباب الذين أعلنوا غضبهم على النظام وخيبة أملهم فيه بعد فضيحة عام ١٩٦٧ ، فلاحقته الشرطة وقبضت عليه عدة مرات وآذوه وآذوا والديه وانتهكوا حرمة بيتهم دون مراعاة لما كان لوالده من سابقة فى خدمة الوطن من

خلال عمله فى الجامعة . وكان وليد يعلم أن البوليس - بعد أن قبض عليه وأدرجه فى قوائمه- لن يتركه «إذا ما عاد إلى الوطن» يؤدى واجبه فى خدمة جامعته وطلابه وبلاده بالطريقة التى يعليها عليه ضميره .

ولكن فريدة لم تغفر لأخيها وقالت : إذن، ما الفرق يادكتور بدوى؟ وفيم كان الاحتجاج والجهد منذ البداية؟

وأحسست بقلبي يكاد ينشق لوعة وحزنا معها وعليها. ووجدتني أقول لها «إن الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ! قالوا أولم تك أرض الله واسعة فتهاجروا فيها» فابتسمت من خلال غلالة الدمع التى كانت تترجرج فوق عينيها بحثا عن مفر ، وقالت : «ما أنت عارف يادكتور بدوى إن أنا طول عمرى ضعيفة فى العربى» فشرحت لها ، وتحادثنا قليلا ثم افترقنا . ولم أرها بعد هذ المرة حية أبدا . فسرعان ماماتت فريدة يائسة من كل من حولها ، فى البيت ، وفى الشارع ، وفى المركز القومى للبحوث حيث كانت تجاهد من أجل الخدمة العامة كما علمها أبواها : «واحدا صغيرا» يطاول بقامته قامة «الواحد الكبير» .

فى دار العلوم ، أدار قاسم حربا لاهوادة فيها من أجل طهارة العمل . لم يرفع شعارا براقا ، ولم يتلفظ بجمل طنانة ، ولكنه وجه اهتمامه إلى المسائل اليومية الصغيرة والكبيرة التى تتصل اتصالا مباشرا بخياة مجتمع دار العلم وبالأخص مايتصل منها بالطلاب ، وقد أحرقت هذ الحرب بناها :

فرض نظاما دقيقا لطباعة المذكرات وتسميتها وتوزيعها - تبنته الجامعة كلها بعد ذلك - يضمن نوعا من العدالة للطلاب والأستاذ . فعاداه قسم كبير من الأساتذة .

أكرم الأساتذة بالدقة فى تصحيح أوراق الامتحان ، وراح بصفته رئيس لجنة الامتحانات يراجع أوراق الإجابة المصححة مراجعة ظاهرية لكى يتأكد من أن القلم الأحمر قد عمل داخل الأوراق . وقد أعاد مرة أوراق مادة كاملة لأحد الأساتذة كان قد أعادها للكنترول ، بعد يومين اثنين من تسلمها ، وعليها الدرجات من الخارج دون أن يكون فى داخل أى من الأوراق «التى بلغ عددها ألفا وخمسمائة» خط أحمر واحد ، ثم خيره - عقاباً له - بين أن يؤخر إعارته للخارج عما كاملاً أو يحول للتحقيق . واكتسب فى هذا الأستاذ عدواً للدودا .

أوقف عدداً من رسائل الماجستير التى بدت الجملة واضحة فيها . وزاد معسكر الأعداء .

تصدى بشجاعة (تبلغ بمقاييس العصر حد التهور) للجنة الترقيات التى كان يرأسها طه حسين عندما حرمت أستاذاً نابغا هو محمد غنيمى هلال من التعيين فى كلية دار العلوم لكرهية طه حسين الشخصية وأنصاره معه لهذا الأستاذ الذى كان يعتز بعمله وكرامته . واحترقت أصابعه فى هذه المعركة .

راقب بنفسه أوجه الصرف فى ميزانية الاتحاد وتصدى للمنحرفين من الطلاب الذى يتخلون من عضوية الاتحاد مصدراً للكسب ، ووجه جانباً كبيراً من أموال الاتحاد لمساعدة الطلبة المحتاجين . وقد نتج عن ذلك دخوله فى معارك كثيرة خاصة مع بعض الطلاب الذين كانوا يتعلقون بأستار إدارة الجامعة . ولم يكن غريباً - على الأقل بالنسبة لى شخصياً أن ينتصر عليه هؤلاء - فى الشهور الأخيرة من عمادته ، عندما رفض أن يوافق على استئجار راقصة لحفل آخر العام مصراً على وجوب صرف المبلغ على الأنشطة الطلابية الحقيقية . وقد خذله الدكتور حسن الشريف . نائب رئيس الجامعة لشئون الطلاب فى ذلك الوقت ، وطالبه بإعطاء الطلاب ما يريدون . ولما رفض أرسل طالباً الأوراق وأشر عليها بالموافقة وصرف

المبلغ لطلاب الاتحاد . وتم كل ذلك بحضورى شخصيا . كانت هذه هى «العلقة» التى نالها فى نهاية خدمته «لغزه» جامعة القاهرة ، ولأنكشارية العهد على السواء أوقف سفر أستاذ فى إعاره إلى أن تخلى هذا الأستاذ عن رسائل الماجستير والدكتوراه التى كان يشرف عليها ، كما تقضى بذلك لوائح الجامعة . وزاد معسكر الأعداء .

أوقف سفر أستاذ ورئيس قسم فى زيارة خارج الوطن ، عندما تعسف هذا الأستاذ واضطهد مدرسا فى قسمه وعطل تعيينه . وانضم هذا الأستاذ إلى معسكر الأعداء .

أكرم أحد الأقسام بتطبيق الشروط التى أعلنوا عنها لتعيين مدرس فى القسم عندما تراجعوا عن تعيين أفضل المتقدمين لعدم كونه الشخص الذى يوافق هواهم ، واكتسب محمود قاسم عدوا للدودا . و إلى آخره .

أما الطلاب فكان لهم شأن آخر فقد أحسوا بأن لهم نصيرا ومعينا فى شخص العميد . ورأيت محمود قاسم - هذا الذى كان «بعبعا» كبيرا لى ولزملائى فى الخمسينيات - يصبح الملاذ الأول والأخير للطلاب . ولم يكن هناك تناقض فى الحقيقة . فمحمود قاسم كان يحدد مهمته بطريقة واضحة له شخصيا ثم ينفذها بدون هوادة دون أن يقيم وزنا لما يلاقيه من عقبات .

وسارع الطلاب لإرضاء محمود قاسم وللبرهنة على أنهم جديرون بأبوته . ولأول مرة تفوز دار العلوم ببطولة الجامعة فى المسرح والشعر والكرة والجولة ولعدة سنوات متتالية . كان الطلاب يكادون يبيتون فى الكلية ، يزاولون النشاط الثقافى والاجتماعى . ومحمود قاسم لا يكاد يفارقهم . يهز رأسه مرة بالموافقة ومرة بالتصحيح ومرة باللوم ومرات بالتشجيع . أما ابتسامته الشهيرة فكانت قد

اكتسبت عمقا غريبا ، كان - بكل أسف - يكاد يخص به الطلاب وحدهم بعد أن تخلى عنه معظم الأساتذة ، وأعلنوا عليه حرها سافرة شاركهم فيها واحد من أصدقائه المقربين .

فى إحدى زيارته للجامعة أم درمان الإسلامية بالسردان - حيث كنت أعمل معارا لمدة ثلاث سنوات - قال محمود قاسم إنه يريد أن يستشيرنى فى أمر . وكانت عادته دائما أن لا يصدر قرارا إلا بعد استشارة أكثر من واحد ممن يطعن لهم . ولم يكن يسره أبدا أن تحاول إرضاءه عن طريق موافقته فى رأيه . وأنا أدين له شخصيا بهذه الخصلة التى أطبقها فى عملى الإدارى بالجامعة . فقد حمتى مخالفة زملائى لرأى فى مرحلة اتخاذ القرار من الوقوع فى أخطاء كثيرة .

خرجنا من فندق «الجراند أوتيل» حيث كان يقيم . وجلسا على السور الحجرى الممتد على شاطئ النيل تحت أشجار الفيكوس العتيقة . كان الوقت عصرا والشمس دافئة لذيدة ، كما هى شمس الشتاء فى السودان دائما . وجلسنا صامتين ، لانود الكلام ، وأعينا على القوارب تروح وتجيء بين شارع النيل وجزيرة توتى فى وسط المجرى . وتساءل هو عن اسم أحد الطيور التى كانت تجرس بمنقارها الطويل فى الماء . وقلت أنا : لعله نوع من الكراكى .

كنت أتهيب كثيرا ماسوف يأتى به . فقد تعودت منه أن يأخذ الرأى الذى يقدم له باعتباره فرضا علميا ، ثم يروح يقبله معك على جوانبه ويحققه ويناقشه ويعارضه ، وأنت فى كل ذلك توافق مرة وتخالف مرة وتضطر للرجوع عن رأيك مرة ، ثم تفاجأ بحجة فى صالحك قد تدفعك إلى اعتناق رأيك الذى بدأته به مرة أخرى . وبالطبع لأحد يرحب بهذا النوع من الحوار ، وخاصة مع أستاذه الذى علمه المنطق الحديث ومناهج البحث بالذات .

قال إنه فى حاجة إلى وكيل ، وأن من الأشخاص الذين يفكر فيه جديا لهذا

المنصب عبد الرحمن أيوب . كنت أعلم الصلة الوثيقة بين محمود قاسم وعبد الرحمن أيوب ، وبين أسرة عبد الرحمن أيوب وأسرة محمود قاسم : فى المدرسة الإنجليزية تزاملت الزوجتان وتصادقتا ، وفى إنجلترا زارنا عبد الرحمن أيوب ومعه زوجته وفى صحبتهما زوجة محمود قاسم وأحد أبنائه ، وعندما كان عبد الرحمن أيوب وزوجته يعودان من محل إعارتهما فى بغداد فى فصل الصيف كانت زوجة محمود قاسم تتولى تنظيف مسكن عبد الرحمن أيوب وإعداده لاستقبالهما . وعندما اختلف محمود قاسم مع ابنة الأكبر بحجة أن الأخير يعشق موسيقى الجاز كان عبد الرحمن أيوب هو الملاذ الذى لجأ إليه الشاب لحل مشاكله معه والده . كان محمود قاسم يكلفنى فى هذا الأمر شططا .

ورحت أحتال لكى أكسب بعض الوقت : وهل لك خيار فى الأمر؟ وأدرك ما أعنيه فقال : عند الضرورة ، نعم . قلت : ولماذا أنت متوجس منه؟ قال : إن أيوب متهور ومتسرع فى أحكامه . ونحن أصدقاء كما تعرف ولا أخشى فقط أن تفسد صداقتنا نتيجة عملنا فى الإدارة معا ، بل أخشى على إدارة الكلية كلها .

كنت - ولازلت - أحب عبد الرحمن أيوب ، ولعل هذا ماحجب عنى الرؤية، وجعلنى أصدر فى رأى عن هوى كامن لم آخذ حذرا كافيا منه . وقد تخيلت وأنا جالس مع محمود قاسم فى تلك الأمسية مدى الإهانة التى قد يشعر بها عبد الرحمن أيوب إذا ماتخطاه صديقة واختار معاونا له سواء . قلت : إن عبد الرحمن أيوب فى ظنى يرى أنه حقيق بالرياسة ، وهذا فى رأى من أسباب ماتراه من عنفه فى تأتى الأمور ، ولعله إذا ما أعطى وكالة الكلية ، مع ما فى ذلك من الاحتمال القوى بالوصول إلى العمادة فيما بعد ، يجعله يشعر بالمسؤولية فتهدا نفسه ويتعاون بالكياسة المطلوبة .

لم يقتنع محمود قاسم مطلقا بما قلت ، ولكنه اعترف بأنها قضية شائكة .

وقال إن جميع ما هو متاح أمامه من الحلول سيء . ومع ذلك فإن أخفها سوءا هو اختيار عبد الرحمن أيوب للوكالة . وأنهى الحوار بقلب مثقل .

وأصبح عبد الرحمن أيوب وكيلا لدار العلوم . ثم انقلب على محمود قاسم ، و انقلب محمود قاسم عليه . لا أدري بالضبط ؟ فقد كنت غائبا عن مصر طوال فترة وكالة عبد الرحمن أيوب وما تلاها من كوارث للصديقين . وقد انضم عبد الرحمن أيوب إلى أعداء محمود قاسم في معركة استخدم فيها مناوئو محمود قاسم عبارات وتصرفات كانت حديث الجامعات في مصر كلها ، ووصلت أصدائها إلينا قصصا تروى في جامعات السودان .

ولا أستطيع أن أقف هنا من الأستاذين موقفة القاضي فأحكم لأعدهما ضد الآخر ، فما سألت محمود قاسم قط عن حقيقة ما حدث ، ولا هو أخبرني بشيء فقد كان يعلم صلتى بعبد الرحمن أيوب . ولم يكن من عادة محمود قاسم أن يخرج صديقه أبدا .

ولكننى لأول مرة أوجه لعبد الرحمن أيوب عتابا - أرجو أن يتسع له صدره - على الطريقة التي لجأ إليها تعبيرا عن غضبه ، بقطع النظر عن أسباب هذا الغضب . فبعض هؤلاء الذين انضم إليهم في خلافه مع صديقه السابق لم يكونوا من مشربه ، ولا من ثقافته ، ولا حتى ممن يقدرونه حق قدره . فانضمامه إليهم كان تنازلا كبيرا منه عن مبادئ لم يكن ينتظر أن يتنازل عنها . هذه واحدة . أما الأخرى فإننى أعتقد أنه كان عليه أن يتبع واحدا من طرق ثلاث لكي يعبر لصديقه عن غضبه عليه : يعتزل الإدارة ويبقى على صداقته . يعتزل الإدارة والصداقة معا . أو إذا تحتم أن يتنصر لنفسه ، يفعل ذلك منفردا لا يستعين على صاحبه بأحد :

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل ولا فأدركنى ولما أمزق

لقد ظللت مدة طويلة أعانى من الشعور بالذنب للدور الذى قمت به فيه... حدث بين الصديقين . هل أنا حقيقة الذى تسجعت محمود قاسم على المضى فى اختيار عبد الرحمن أيوب وكيلا ؟ ألم يكن من المتوقع أن تظل الصداقة قائمة لو لم يتزامل الصديقان فى الإدارة ؟ ألا يمكن أن يكون صمت محمود قاسم عن الحديث معى فى الموضوع حياء منه أن يشير إلى الدور الذى كان لى فى اختيار عبد الرحمن أيوب ؟ ولم يتقذنى من هذه الخواطر السوداء التى نغصت على حياتى سنوات سوى خاطرة سنحت لى : ألم يكن من المنتظر أن تتداعى هذه الصداقة أيضا لو لم يختار محمود قاسم عبد الرحمن أيوب لو كالة الكلية بجانبه ؟!

كان محمود قاسم يتطلب ممن يعملون معه إنكارا كاملا للذات ، والتزاما مطلقا بالطهارة فى العمل . وقد منح هؤلاء الذين وجد عندهم ما أراد ثقتة المطلقة ، ولكنه - مع ذلك - لم يكن واقعا بمقاييس العصر فى متطلباته ، فتحطمت على صخرة المثالية هذه زمالات كثيرة .

كانت عمادة محمود قاسم أطول عمادة فى تاريخ دار العلوم ، على الرغم من أنه - وخاصة فى الخمس السنوات الأخيرة - كان يتمتع بأقل درجة من تأييد هيئة التدريس حظى بها أى عميد من سبقوه . وقد احتار مناوئوه فى تفسير ما فى هذه الظاهرة من تناقض . وأخيرا وجدوا راحة فى تفسير سر الاحتفاظ به فى وجه هذه المعارضة القوية منهم بمجرد كونه قريبا لمراد غالب ، سفير مصر فى موسكو . بينما كان من الواجب عليهم أن يبحثوا بدلا من ذلك فى أنفسهم هم عن السبب فى اعتقاد أهل الحكم فى ذلك الوقت بعدم صلاحية أى منهم لقيادة الكلية ، على الرغم من رغبة الحكم عادة فى إرضاء الأغلبية أو القاعدة كما كانوا يسمونها .

ومع ذلك فإن محمود قاسم لم يتنصر فى معركته الطويلة مع مناوئيه فى دار العلوم وإن كان قد هزمهم جميعا . فالحرب التى أعلنها لم تكن عليهم شخصيا

على الرغم من المعارك التي خاضها معهم .

كانت حربه الحقيقية مع أسلوب العمل والإدارة المتفشى وقتها ، والذي لا يزال فى جميع مواقع العمل فى مصر ، أسلوب المصالحات والتوافيق والتباديل والتنازلات والحلول الوسط التى تنتهى دائما بالتضحية بالمصلحة العامة لإرضاء لما فى نفوس الخاصة من مطامع العامة .

كان دائما مايردد قولة لم أسمعها من أحد قبله ولابعده «الحلول الوسط حلول عرجاء» وكان فى ذلك خارجا على تقاليد مجتمعه رافضا أن يقوم بدور «الواحد الصغير» منصويا تحت لواء «الواحد الكبير» وفانيا فيه كما أرادته دور كايم أن يفعل.

لم يطلق القائمون على أمر دار العلوم اسم محمود قاسم على أحد مدرجات المبنى الجديد ، ذلك المبنى الذى كان لمحمود قاسم الفضل فى إقناع الجامعة بتخصيصه لها ، كما لم يكن اسمه بين الذين منحوا أوسمه بمناسبه احتفال الدار بعيدها المئوى . ولاموضع للغربة فى شىء من ذلك ، فالمبادئ التى حاول محمود قاسم التمكين لها فى كلية دار العلوم - والتى دفع صحته ثم حياته ثمنا لها - لا تنطبق عليها المقاييس التى تمنح من أجلها الأوسمة أو تخلد لها الأسماء فى بلادنا .

فى عام ١٨٤٠ ألقى توماس كارليل محاضراته الشهيرة عن ظاهرة البطل وتقديس البطولة فى تاريخ البشرية ، ولاحظ أن «تشخيص البطل» قد تطور مع تطور الحضارة الإنسانية بدءا من صورة الإله فى شخص أو دين ، ومرورا بصورة النبي فى شخص محمد ، عليه الصلاة والسلام ، ثم بصورة الشاعر فى شخص دانتي وشكسبير ، ثم صورة الكاهن أو القس فى شخص مارتن لوتر وجون فوكس ، ثم صورة الأديب فى شخص جونسون وروسو وبيرنز ، ووصولاً إلى صورة الملك فى شخص أو لفير كرومويل و نابليون بوناپرت ، ثم لم يذهب

كارليل إلى أهد من ذلك ، وما أظنه كان قادرا في عصره أن يفعل ، فيصل إلى الرجل العادى ، ذلك البطل الحقيقى الذى يبنى الممالك وتقوم الحضارات على أكفاه.

إن نوع البطولة التى تحتاجها بلاد العالم الثالث - وعلى رأسها مصر - هى بطولة الرجل العادى ، بطولة العاملين فى مواقع العمل والإنتاج ، بطولة هذه النوعية من «المستضعفين الأقوياء» الذين يرفضون تسلط «الواحد الكبير» فى فسادهم وخراب ذمته .

لقد لفت محمود الربيعى مرة نظرى إلى عامل بسيط فى كلية دار العلوم «محمد عبد الجواد» ، كانت له قيمه ومثله التى أبى أن يتنازل عنها لكى يحيا ويعيش ويتنعم بما يمكن أن يفيضه عليه «الواحد الكبير» . لقد رفض محمد عبد الجواد - فى واحد من موافقه - أن يدعوه وكيل للكلية «حماما» واقتدى كرامته بأيام تخصم من راتبه الضئيل .

كان محمد عبد الجواد بطلاً فى صورة عامل - كما كان محمود قاسم بطلاً فى صورة أستاذ .

ذكرياتي مع الأستاذ الدكتور محمود قاسم

أ.د. السيد محمد بدوى *

كانت معرفتي بمحمود قاسم ، لأول مرة ، خلال عام ١٩٣٨ ، حين أوفد في بعثته دار العلوم إلى باريس لدراسة الفلسفة . وكانت باريس ، في ذلك الوقت ، تعج بالمبعوثين المصريين في مختلف التخصصات ، العلمية والأدبية ، بعضهم من وزارة المعارف ، وبعضهم من الجامعة «جامعة فؤاد الأول» وكانت الجامعة الوحيدة في مصر من تاريخ إنشائها الأهلى «عام ١٩٠٦» والحكومي «عام ١٩٢٥» حتى إنشاء جامعة الإسكندرية «في عام ١٩٤٢» وأذكر من زملائنا مبعوثي كلية الآداب محمد مندور ، وعبد الهادى أبو ريده ، وحسين مؤنس ، ويحيى الخشاب ، وثابت الفندى ، ومن مبعوثي الحقوق : على راشد ، وعبد المنعم الطناملى ،

* الأستاذ المتفرغ بقسم الاجتماع ، ومدير معهد العلوم الاجتماعية بجامعة الإسكندرية .

وعبد الفتاح عبد الباقي ، وأنور سلطان . كما كان معنا من مبعوثي الأزهر الشريف أربعة هم أصحاب الفضيلة : الشيخ محمد عبد الله دراز ، والشيخ محمد الفحام ، والشيخ عبد الرحمن تاج ، والشيخ عبد الحليم محمود ، وكان معظم هؤلاء الطلبة ، على اختلاف تخصصاتهم ، يمحضون السنة الأولى فى إتقان اللغة الفرنسية ويلتحقون لهذا الغرض بمعهد الأليانس Alliance Française ، وهو معهد متخصص فى تدريب الطلبة الأجانب على اللغة الفرنسية قراءة وكتابة ونطقا ، بحيث يستطيع الطالب بعد ذلك حضور المحاضرات فى الجامعة . وانضم محمود قاسم إلى الدارسين فى هذا المعهد ، وحقق تقدما سريعا لمواظبته ، وجديته فى الدراسة ، وعزمته القوية فى التغلب على الصعوبات . وأذكر فى هذا المجال أنه لم يكتف بإتقان اللغة الفرنسية ، بل انصرف بعدها إلى دراسة اللغة اللاتينية عندما وجد أنه يحتاج إليها فى بحثه للدكتوراه « كما سيأتى بيانه فيما بعد » .

وقد أمضيت مع محمود قاسم سنة دراسية كاملة ، كزملاء دراسة ، فى التحضير لشهادة « الأخلاق وعلم الاجتماع » وهى شهادة يشترك فيها طلبة الفلسفة وعلم الاجتماع . وأسعدنا الحظ أن نتلمذ على أساتذة من أشهر أساتذة السوريين من أمثال « هالفاكس Halbwachs » فى المورفولوجيا الاجتماعية والديموجرافيا - وجورج دافى George Davy « فى علم الاجتماع القانوني » - وليس Lesenne « فى فلسفة الأخلاق » . وكنا بعد محاضرات الصباح ، نتشر فى مطاعم الحى اللاتينى لتناول طعام الغداء ، وكان أكثرنا يفضل مطعم « الأكروبول » فى مدخل شارع مدرسة الطب « ولا يزال قائما حتى الآن » لأنه مطعم يونانى يقدم وجبات شرقية مثل « الشيش كباب » وورق العنب المحشى ، والأرز باللبن ، ثم نجتمع بعد ذلك ، إذا كانت الشمس ساطعة - فى شرفة مقهى « الكابولاد » على مقربة من « البانثيون » الصرح العظيم الذى شيد ليضم رفات عظماء فرنسا . أما إذا كان الجو باردا أو ممطرا فإننا نجتمع فى مقهى « السورس » فى شارع سان ميشيل « قلب الحى اللاتينى »

حيث نقرأ الجرائد المصرية .

وقامت الحرب العالمية الثانية «فى سبتمبر ١٩٣٩» ، وكنا فى ذلك الوقت نمضى العطلة الصيفية خارج باريس ، فعدنا توا إلى باريس لنستطلع رأى إدارة البعثات فيما يجب عمله ، فنصحن الدكتور الديوانى مدير البعثة بالابتعاد عن العاصمة والتفرق فى الجامعات الإقليمية ، حتى تنجلى الأمور ، وكان من نصيبى جامعة «بورجو» «جنوب غرب فرنسا» . أما محمود قاسم فاختار جامعة «پواتيه» «فى وسط غرب فرنسا» وبدأ الهجوم الكاسح على فرنسا فى يونيو ١٩٤٠ بعد التفاف الألمان حول خط «ماجينو» من الحدود البلجيكية ، ودخلوا باريس دون أن يخربوا فيها شيئا ، واستسلمت فرنسا ، ووقع وثيقة الاستسلام المريشال «بيتان Petain» «أحد أبطال الحرب الأولى فى عام ١٩١٤» . وانقسمت فرنسا إلى منطقتين: المنطقة الأولى هى المنطقة المحتلة ويحتلها الجيش الألمانى من الشمال حتى الحدود الأسبانية ، والمنطقة الثانية هى المنطقة «الحرّة» وتقوم فيها حكومة فرنسية برئاسة «بيتان» «عرفت بحكومة فيشى عاصمتها» . وكانت حرة فى تصريف الأمور الداخلية ، وخاضعة للنفوذ الألمانى فيما يتعلق بالسياسة الخارجية وتصريف أمور الحرب .

وبعد أن استقر الوضع على هذا النحو ، عاد الطلبة المصريون التابعون للمنطقة المحتلة إلى باريس بعد أن كانوا متفرقين فى جامعات الأقاليم والتقيت مع صديقى محمود قاسم مرة ثانية ، وفرضت علينا قيود الحرب ألا نغادر باريس إلا بإذن من السلطات الألمانية ؛ وأن نسجل أسماءنا فى أقسام البوليس كل يوم «خففت بعد ذلك إلى كل أسبوع» ذلك لأن الألمان كانوا يعتبرون المصريين من الرعايا البريطانيين بسبب احتلال الجيش البريطانى لمصر .

ولما طال أمد الحرب ، وانقطعت أخبار الأسرة والأهل فى مصر ، ازداد شعور

المصريين بالغربة والعزلة ففكر معظمهم فى الزواج ، وتزوج محمود قاسم من زميلته الفرنسية فى الدراسة ، وكانت تنتمى إلى عائلة بورجوازية من مدينة «تور» «جنوب غرب باريس» ، أما أنا فتزوجت من زميلتى المصرية «كرمة المرحوم الدكتور دراز» وأصبحنا نتزاور عائليا فى فترات متقاربة ، ونأخذ أطفالنا للنزهة فى حديقة «لوكسمبرج» . واستمرت الدراسة فى السوربون بالرغم من ظروف الحرب ، وبالرغم من الغارات الأمريكية والبريطانية التى كانت تدك ضواحي باريس عدة مرات فى الأسبوع .

واستقر محمود قاسم على موضوع الدكتوراه وهو «فلسفة ابن رشد وتفسيراتها عند القديس توما الأكويني» ، ووجد أن من الضرورى لخدمة الرسالة دراسة اللغة اللاتينية ، فكرس جزءا هاما من وقته لدراستها ، واستطاع أن يقرأ بها النصوص التى يحتاج إليها .

ووضعت الحرب أوزارها وعدنا إلى مصر فى خريف عام ١٩٤٥ واحتل الدكتور قاسم مكانه فى هيئة التدريس بكليته «دار العلوم» وكان من نصيبى التعيين فى جامعة الإسكندرية «مسقط رأسى» ، وتواصلت لقاءاتنا عبر انتدابى لتدريس علم الاجتماع فى دار العلوم ، وانتداب الدكتور قاسم لتدريس «المنطق الحديث ومناهج البحث» فى آداب الإسكندرية .

وقد قام بتأليف كتاب فى هذا الموضوع صدرت منه عدة طبعات ، وكان المؤلف حريصا ، فى كل طبعة ، على تعديله وتنقيحه والزيادة عليه ، وهذا الكتاب يجمع بين التعمق فى البحث والسهولة فى العرض ، ومن أهم الأفكار التى تبناها المؤلف توضيح أن منطق «أرسطو» قد لقى من العناية أكثر مما هو أهل له ، وهو فى حقيقة الأمر ليس إلا منطقا تاريخيا يعبر عن إحدى المراحل التى مر بها التفكير البشرى عندما كان مرتبطا بحركة العلوم فى العصر القديم ، وبخاصة العلوم

الرياضية التي شهدت تطورا كبيرا منذ ذلك الحين ، وما زالت تتطور حتى الوقت الحاضر ، كذلك عنى الكتاب بتأكيد فكرة أخرى ، وهى أن المنطق الحديث ، وأعنى به منطق الاستقراء ، أو المنهج التجريبي يسلك مسلك الاستدلال الرياضى ، بمعنى أن كل منهج فى البحث لابد أن يكون منهجا فرضيا استنتاجيا ، وأن هذا المنهج العام فى التفكير يختلف تفاصيله باختلاف طبيعة الموضوعات التى يعالجها فى مختلف العلوم . ولهذا اهتم الكتاب بعرض مناهج البحث فى كل من العلوم الرياضية والطبيعية ، وعلم الاجتماع ، والتاريخ .

ويمكن أن أعتبر أن أنخصب فترات زمانتنا هى تلك الفترة التى اشتركنا فيها فى ترجمة «أهيات المراجع» فى علم الاجتماع ، إذ لما كان هذا العلم علما حديثا فى الجامعات المصرية ، ولم يظهر فيه إلا عدد قليل من المؤلفات «وعلى رأسها مؤلفات أستاذنا المرحوم الدكتور على عبد الواحد وافى» فقد فاقمى الدكتور قاسم فى الاشتراك معه فى ترجمة عدد من المؤلفات لمشاهير الأساتذة الفرنسيين . وبدأنا بالمرجع الأساسى الذى لاغنى لدارس الاجتماع عن قراءته وهو كتاب «قواعد المنهج فى علم الاجتماع» ومؤلفه العلامة «إميل دوركيم Durkheim» مؤسس المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع . ويمكن القول إن دوركيم ، بهذا الكتاب ، قد فتح الطريق أمام مدرسة جديدة هى «المدرسة السوسيولوجية» ، وأكد فكرة استقلال هذا العلم الناشئ عن العلوم الأخرى ، ووضع الأسس التى أصبح بها علم الاجتماع علما مستقلا يبحث فى الظواهر الاجتماعية بطريقته الخاصة .

وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات ، ولا يزال حتى اليوم مرجعا أساسيا لطلاب علم الاجتماع فى الجامعات المصرية .

وجاءت بعد ذلك ترجمة كتاب «فلسفة أوجست كونت» للعلامة ليفى بريل وأوجست كونت - كما نعرف - هو مؤسس علم الاجتماع حوالى عام «١٨٣٠»

بعد أن قام بتأسيسه لأول مرة ، العلامة ابن خلدون بمقدمته الخالدة في القرن الثامن الهجري «الرابع عشر الميلادي» . وأوجست كونت - كما نعرف - هو مؤسس المذهب الوضعي الذي لا يخضع إلا لما تثبته المشاهدة والتجربة . وقد فسر لنا كونت سبب عدم الاستقرار ، في عصره ، بأن الناس لا يتبعون في التفكير منهجا واحدا يقودهم إلى حقائق يسلم بها الجميع ، فمنهم من يتبع منهج التفكير الأسطوري ، ومنهم من يتبع منهج التفكير التفاضلي ، وقليل هم الذين يتبعون منهج التفكير الوضعي «أو العلمي» . ولا يتم الانتقال من المرحلة الأسطورية في التفكير إلى المرحلة العلمية إلا بعد عناء وجهد كبيرين ، وقد اعتقد كونت - عن حق - أن علم الاجتماع يجب أن يخضع لمنهج التفكير الوضعي ، فقام بتحديد النماذج الاجتماعية ونقد طريقة التأمل الباطني ، وحث على استخدام طريقة الملاحظة الخارجية للوصول إلى فكرة القوانين الاجتماعية . ويكشف لنا هذا كله عن الدوافع العلمية الكامنة وراء اختيار هذا الكتاب لنقله إلى اللغة العربية .

ويأتي بعد ذلك كتاب «الأخلاق وعلم العادات» للعلامة ليثي برول . فقد كان ظهور هذا الكتاب حدثا فلما في تاريخ دراسة الأخلاق . إذ هاجم فيه المؤلف الطريقة القديمة التي كانت تدرس الأخلاق بالخلط بين المعرفة النظرية «أي دراسة ما هو كائن» وبين التطبيقات العملية «تحديد ما يجب أن يكون» ووضع المؤلف الأسس العلمية لدراسة «الظواهر الأخلاقية» .

وقد قيل الكتاب ، إبان ظهوره ، بعاصفة من النقد ؛ لأن أصحاب الطريقة القديمة ، وجدوا فيه مساسا بقدسية الأخلاق ، وادعوا أن دراسة الأخلاق بطريقة العلوم الوضعية تقضي على مآكنه من احترام وتقديس لفكرة الأخلاق . ولكن هذا النقد مآلث أن أفسح مكانا لحكم عادل ، وأصبح الكتاب الآن مرجعا أساسيا من المراجع التي تضع الأسس العلمية لدراسة الظواهر الأخلاقية وأصبح من البديهي لدى

علماء الاجتماع فى الوقت الحاضر ، أن الطبيعة الخلقية حقيقة يجب أن ندرسها
لنعرفها قبل أن نحاول تعديلها ، أو إصلاحها .

وهكذا نرى أن الكتب التى أسعدنى الحظ بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور
محمود قاسم فى ترجمتها هى كتب رائدة فى موضوعاتها ، أرست قواعد
ونظريات جديدة فى البحث العلمى المتصل بالنظم والظواهر الاجتماعية . وكان
الواجب العلمى يحتم علينا الاهتمام بتقديمها إلى الطلاب والباحثين ليطلعوا عل
الجدور والأصول البعيدة للعلوم الاجتماعية التى يدرسونها فى أقسام الاجتماع
والخدمة الاجتماعية .

ولأنسى فى هذا المجال أن أشير إلى نشاط علمى آخر ، أسهم فيه الدكتور
قاسم بنصيب وافر ، وأسهمت معه فيه ، وأعنى به الإسهام فى نشر البحوث فى
سلسلة «تراث الإنسانية» التى كان يشرف على إخراجها المرحوم الأستاذ إبراهيم
زكى خورشيد . وهذه السلسلة كانت تقوم على اختيار عدد من أمهات الكتب
فى التراث العلمى والفلسفى ، وتطلب من الباحثين التعريف بالمؤلف وسيرة حياته ،
ومكانته العلمية ، ثم تقدم نماذج من الكتاب الرئيسى لهذا المؤلف .

ولم يكف الأستاذ الدكتور محمود قاسم عن البحث والكتابة والتأليف حتى
آخر يوم فى حياته ، وذلك بالرغم من انشغاله فترة بأعباء عمادة الكلية .

وكنا فى السنوات الأخيرة ، قبل وفاته ، نلتقى فى شهور الصيف «بالعجمى»
حيث نستعيد معا ذكريات سنوات الشباب فى باريس ، وسنوات الكهولة والعمل
الأكاديمى والعلمى فى مصر ، وقد خطفه الموت منا وهو فى أوج نشاطه . ففقدت
مصر بفقدته علما من أعلامها ، وواحدا من كبار مفكرىها .

ذكریات عنه ... إنساناً وأستاذاً وعميداً

أ. د. الطاهر أحمد مكى *

كانت البداية ونحن فى السنة الثانية ، من العام الجامعى ١٩٤٩ - ١٩٥٠ م .
التقينا به ، وسيما أنيقا يعنى بمظهره ، أصغر من نلقى من الأساتذة سنا ،
وربما كان بيننا من هم فى سنة شكلا إن لم يكن واقعا ، وأحسننا للحظات قليلة
أنه قادم من السوربون فعلا ، فعلى محياه سيما الحضارة الحديثة ، ويتحرك فى
نطاق التقاليد الجامعية العتيقة ، يدخل المدرج معتزا بنفسه ، ويجلس على مقعده
واثقا من قدرته ، ويبدأ المحاضرة فور جلوسه ، ويمضى متدفقا بلا توقف ، باسطا

* أستاذ الأدب العربى بكلية دار العلوم ، ووكيل الكلية الأسبق .

القضية التي يتناولها ، مجييا في تشجيع على ما يستأهل من أسئلة ، ويصد ما يستهيفه بابتسامة ساخرة ، أو تعليق موجز عجل ، دون أن يقول شيئا ، لا يتأخر في المجيء ولا في إنهاء الدرس ، فكل شيء بنظام ، ولا يضيع على طلابه دقيقة واحدة يتحدث فيها عن شخصه ، أو يدعى لنفسه أمجاداً لاشاهد عليها إلا ضميره .

كانت المحاضرة دسمة ، شائقة وجذابة ، ولكنها لم تكن سهلة ولا عادية ، فقد كان يحاضرنا في مادة نلتقي بها للمرة الأولى في حياتنا : المنطق الحديث ومناهج البحث ، وكنا في الأزهر قد وقفنا عند بدائيات المنطق الأرسطوطاليسي وصوره المعروفة ، من المقدمات والنتائج ، في موجز سيئ أحسب أن اسمه «إيساغوجي» ، وأما الآن فنحن ندرس الملاحظة والتجربة ، والتحليل والتركيب ، والاستقراء والخيال ، وتصل أسماعنا أسماء غريبة : كلود برنارد ، ودوركايم ، وأوجست كنت وآخرون كثيرون ، ولكننا صمدنا ، ورجبنا إليه أن يسجل هذه المحاضرات في كتاب أو كتيب نعود إليه ، فاستجاب لنا ، ولم يكن طبع الكتب يومها قد تحول إلى تجارة ترهق الطلاب ، فكانت الطبعة الأولى من كتابه «المنطق الحديث ومناهج البحث» ، في صورة متواضعة ، لعلها كانت في مائة وستين صفحة تقريبا ، وسوف يواليها تجديدا وتعميقا وتوسعة ، على امتداد سنواته أستاذا وقارئا ، حتى تجاوز به في طبعته السابعة : السبعمئة صفحة .

كانت المادة تشغل ساعة أسبوعيا ، وكان الشق الثاني منها يضطلع به أستاذنا الجليل الدكتور على عبد الواحد وافي ، وكان سوربونيا أيضا ، ويحاضرنا في علم الاجتماع ، وهي مادة جديدة ، لم يكن العالم العربي كله قد عرفها في جامعاته بعد ، رغم أن ابن خلدون قد وضع لبناته في القرن الرابع عشر الميلادي دون أن يقصد إنشاء علم بعينه ، رغم أن «مقدمته» كانت تدرس في العالم الغربي والعربي

على السواء ، ولكن أن يكون هناك علم فى الاجتماع باسم «علم الاجتماع» كان شيئا جديدا لاعداد للدارسين به، وكان الدكتور وافي قد عكف عليه ، وأحاط بأصوله ومشكلاته حين سبق الدكتور محمود قاسم مبحثا إلى باريس ليدرس الفلسفة ، وكان علم الاجتماع فى نشأته الأولى جزءاً منها ، فتمكن من العلم مادة ومنهجاً ، وكان فى عرضه قديراً وجذاباً .

كانت بين الرجلين فجوة واسعة : الدكتور وافي أستاذ المادة ، نضج بفعل الزمن والأسبقية خبرة وتجربة وعقلا ، وتمكنا من اللغة العربية بلا حدود ، ويمزج محاضراته بشيء من ذكرياته ، وأطراف شائقة من ثقافة عامة ، وأعانه فى ذلك أنه كان يحاضرنا فى تاريخ العلم : نشأته وتطوره ومناهجه ، ونحن نسجل وراءه بقدر ما نستطيع ، أما تطبيقاته فكنا ندرسها فى كتب ثلاثة ، لا يقول عنها فى المحاضرة شيئا إلا ما يجيء عرضاً ، وهى : «اللغة والمجتمع» ، و«المسئولية والجزاء» ، و«الأسرة والمجتمع» ، ويبدو فيها ، وفى كتاب رابع عن «الاقتصاد السياسى» أعفانا منه ، سيّد مادته ، يحسن بسطها بوضوح ، فى لغة علمية أدبية ، راقية ودقيقة ، مما جعلها محببة لنا ، وبخاصة أنها كانت شيئا جديدا لم تعهده العربية من قبل ، لافى مصر ولا خارجها .

ويبدو أن الدكتور وافي أراد أن يختبر الدكتور قاسم فتحيف حقوقه ، فوجده صلبا لا يلين ، وما لبث الصراع الشخصى أن ترك صداه فى المجال العلمى : الدكتور وافي يؤمن دون تحفظ بمناهج المدرسة الاجتماعية الفرنسية ، وعلى رأسها دور كايم ، وترى أن وراء التفكير الفردى والسلوك الذاتى عقلا جماعيا ينبثق عن المجتمع كلا ، وأن إرادة المجتمع ذات صفة جبرية ، وأن المجتمع لا يبقى فى حركته إلا ما كان راضيا عنه ، وأن الزعماء والمصلحين أداة التعبير عن هذه الأفكار ، وليسوا خالقها ولا مبدعيها ، وينجحون فحسب إذا أحسنوا التعبير عن رغبة الجماعة التى

يعيشون بينها ، ويفشلون إذا أداروا ظهورهم لما تحب ، وفكروا فى ذواتهم أو بعقولهم أفرادا .

على حين كان الدكتور قاسم يؤمن بقوة بأن هناك علاقة جدلية بين العبرى ومجتمعه ، كلاهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به . وفى نهاية المطاف فإن العباقرة هم الذين يصنعون التاريخ ، ويوجهون الأحداث ، ويطورون العالم إلى الأفضل . وردا على أفكار الدكتور وافى بدأ يترجم سلسلة من الكتب الفرنسية ، تهون من اتجاه المدرسة الاجتماعية وتؤكد على المنهج النفسى ، وأذكر من بينها : «قواعد المنهج فى علم الاجتماع» لإميل دور كايم (١٩٥٠) ، و«مقدمة علم النفس الاجتماعى» لشارل بلوندل ، بالاشتراك مع أستاذنا الدكتور إبراهيم سلامة (١٩٥١) وغيرها كثير.

كنت مبهورا بما يقول الدكتور وافى ، وكنت فى السنة الأولى قد عكفت على مصادر الأدب الجاهلى الأساسية ، لإعداد بحث طلبه أستاذنا الدكتور أحمد الحوفى ، وتراءت لى بين صفحات ما قرأت فى «الأغاني» و«تاريخ الطبرى» أشياء فهمت منها أن المجتمع العربى عشية البعثة المحمدية كان تائها يبحث عن دليل ، حائرا يتلمس الهادى ، ظمئا يطلب الارتواء ، وأن ثمة عوامل عديدة هيأت للدعوة المحمدية ، رغم كل ألوان المقاومة ، أن تبلغ غايتها وأن تحقق أهدافها . واختتمت الفكرة ، وبدأت مقالى الأول عنها فى مجلة «الرسالة» الأسبوعية بعنوان : «إرهاصات فى الجزيرة العربية عشية البعثة المحمدية» ولم تكد المجلة تظهر حتى تناولها عدد من أساتذتى وزملائى بالنقد والتعليق .

وأرسل لى الدكتور قاسم لألقاه فى مكتبه ، وظللنا قرابة ساعتين نناقش القضية ، وخرجت من عنده ، ولما أزل مجرد طالب فى السنة الثانية ، حائرا بين وجهتى النظر ، فترقت عن الكتابة فى الموضوع ، ومنذ اللحظة كسبت صداقة

أستاذى ، وكانت هذه اللحظة بداية علاقة وثيقة بيننا ، وسوف تتواصل العلاقة على الصعيد الشخصى ، لأن الفلسفة كانت تدرس لطلاب الفرقين الأولى والثانية جميعا ، وبعدها كان على الطلاب أن يختاروا بين مواد : الفلسفة أو التاريخ أو الشريعة ، واخترت التاريخ ، وحين سألتى الدكتور قاسم لماذا أعرضت عن الفلسفة؟ أجبتة : لم أستطع فهم كتابه «النفس والعقل عند فلاسفة الإغريق والإسلام» ، وكان يدرسه لطلاب الفرقة الثالثة ، وذلك يعنى أننى غير مهياً عقليا ومزاجيا لدراسة الفلسفة . والحق أن قضايا الكتاب كانت متداخلة ، وعرضه كان معقدا ، وأحسب أنه عدل عن تدريسه ، وحتى طبعه فيما بعد .

وثقى علاقتى بالدكتور قاسم شئىء لمسته فيه : كلانا ريفى ، والريفية - عندى على الأقل - تعنى أميئاء كثيرة ، أن أهلها يتسمون بالصراحة والاستقامة والتسامى ، فلا خبث ولا التواء ولا شعور بالدونية ، فعماد الحياة عندهم أن تكون لك عصبية تحمى ظهرك ، وتدعم خطاك ، ولا عليك بعد ذلك أن تكون غنيا أو فقيرا أو من أواسط الناس ، وهم يحترمون حرفة الزراعة ، ويحتقرون ما عداها . وإذا كان أبناء الفلاحين يندفعون إلى أهدافهم كالصواريخ ، فالآخرون يتسربون إليها كالميكروب ، ويظل الإحساس بالدونية يضغط عليهم فى طيات الضمير فلا تعرف لهم موقعا يستقرون فيه ، ولا رأيا يأخذون أنفسهم به ، يتلونون كالحرباء ، ويأكلون على كل الموائد ، وهم أتباع من غلب .

وافترقا .

ذهبت إلى إسبانيا مبتعثا ، وذهب إلى ليبيا معارا ، وعلى امتداد أعوام ستة قضيتها فى إسبانيا ، وكل ما كان بيننا رسالة بعثتها إليه من لشبونة عاصمة البرتغال ، فقد عثرت هناك على مخطوطة باللغة العربية ، وترجمتها معها باللغة اللاتينية ، جميلة الخط ، جيدة الحفظ ، رائعة التجليد ، تحمل شعارا ملكيا ، وغير

مسجلة فى فهرس مخطوطات المكتبة، ولكنها لاتحمل عنوانا ، ولا اسم المؤلف ، فنقلت الصفحة الأولى منها ، وأرسلتها إليه مستفسرا ، ولكنه لم يرد ، لأنه لم يكن فى القاهرة بعد ، والرسالة لم تصله .

ثم ذهبت إلى أمريكا اللاتينية ، بعد حصولى على دكتوراه الدولة من جامعة مدريد ، لأحاضر فى جامعاتها عن الحضارة العربية باللغة الإسبانية، وفى كولومبيا قرأت خبر تعيينه عميدا فأرسلت إليه مهنتا ، وجاء رده شاكراً وداعيا أن يعينه الله «على كل ما هو حق وعدل وخير» .

فى تلك الأيام كنت أعمل منتدبا فى إدارة العلاقات الثقافية فى وزارة التعليم العالى ، وأتسلس طريقى إلى دار العلوم ، أو أية كلية أخرى ، وتلقيت رسالة من صديق العمر الأستاذ الدكتور سعد الهجرسى ، وكنا زميلين فى قسم الامتياز ، ونجحنا فيه وثالث معنا فحسب ، وذهب فى بعثة لوزارة التربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وعاد إلى مصر قبلى وينبئنى فيها ، بأن قسم الدراسات الأدبية فى دار العلوم أعلن عن وظيفة مدرس شاغرة ، وأنه سوف يتقدم بطلب لى ، وطلب له ، ولتكن من نصيب أينا ، وتقدم معنا زملاء آخرون عدتهم سبعة ، وتكونت لجنة الفحص من أساتذتنا : محمد خلف الله أحمد ، وعمر الدسوقي ، والدكتور أحمد الحوفى ، وكل المتقدمين فى القاهرة ما عداى ، واختلفت اللجنة ، وحلأ للخلاف ، قررت رفض كل الطلبات ، ووافق على قرارها مجلس القسم بالإجماع ، ومجلس الكلية ، وامتتع العميد ، الدكتور قاسم ، عن التصويت .

وبعد الاجتماع سأل العميد الأستاذين محمد خلف الله وعمر الدسوقي فى حوار شخصى بعيد عن الرسمية عن أفضل المتقدمين فقالا : سعد الهجرسى ، ولكنه انسحب لأنه عين فى قسم الوثائق والمكتبات فى كلية الآداب ، وطاهر مكى، ولكن رسالته ليست نصا فى موضوع الإعلان .

وعرض القرار على مجلس الجامعة ، ومهد الدكتور قاسم لما يريد ، فعجب الأعضاء لكلية ترفض تعيين مدرس من بين تسعة من خريجيهما تقدموا إليها ، بينهما اثنان حاصلان على الليسانس الممتازة بمرتبة الشرف ، ونال أحدهما الدكتوراه من الولايات المتحدة ، وحصل الثانى على دكتوراه الدولة من إسبانيا ، وكان هوى مدير الجامعة مع ثالث غيرهما ، فاقترح إعادة الإعلان عن الدرجة ، واعترض الدكتور عبدالعظيم حفنى عميد كلية الصيدلة ، ورأى أنه ما دامت الكلية فى حاجة إلى مدرس ، فعلى المجلس أن يحطم البيروقراطية ، وأن يتخذ قرار التعيين بنفسه ، وفى هذه الجلسة : تختار الأعلى درجة ، والأصغر سنا ، والعائد من بعثة ، ووافق المجلس ، وكان ذلك يعنى ببساطة تعيين كاتب هذه السطور ، وكان قرارا لامثيل له من قبل ولا من بعد ، فلم يحدث أبدا أن عين مجلس جامعة القاهرة مدرسا رفضت اللجنة الثلاثية ، ومجلس القسم ، ومجلس الكلية تعيينه ، وكان هذا داعيا لكى يسأل وزير التعليم العالى ، وكان الدكتور عبد العزيز السيد ، عن الأسباب التى جعلت مجلس الجامعة يتخذ هذا القرار ، وكتب الدكتور قاسم الأسباب ، وبعدها وقع الوزير قرار التعيين .

لم أكن فى القاهرة يومها ، واسم أشهد شيئا مما حدث ، وعلمت بالقرار بعد شهور ، وعدت بعد خمسة عشر شهرا كاملة من تاريخ التعيين ، وانتظرتنى الوظيفة طوال هذه المدة ، وحين وصلت لتسلم العمل ، قال مسجل الكلية : ليس قبل أن تخلى طرفك من آخر مصلحة كنت فيها ، وبعد أن يصلنى ملف خدمتك ، وكانت دون ذلك أهوال بيروقراطية ، وقال الدكتور قاسم : كان فى بعثة على حساب الدولة ، وعيته الجامعة ، سلمه العمل على مشوليتى ، وأرسل فى طلب ملفه .

وتسلمت عملى فى الحال ا ، وجاء الملف بعد خمسة أعوام كاملة ، ظللت

خلالها أنسلم راتبى ، دون أن تكون لى فى الكلية أو الجامعة ورقة واحدة ، غير طلب التقدم لشغل الوظيفة عند الإعلان !

وتعمقت صلتى بالدكتور قاسم : الإنسان والعميد ، وعرفت كيف تكون الإدارة : أن يكون الرئيس حازما فى غير قسوة ، وأن يعطى المثل من نفسه أولا ، وأن يهتم بأحوال زملائه والعاملين معه ، وأن يكون الطلاب أبنائه إحساسا وتعاملا وليس وعظا !

حين التقيت به للمرة الأولى انفردي بى ، وقص على كيف أنه حينما عاد من بعثته كان فى حاجة إلى شىء من المال يواجه به حياته فى مصر فأقرضه من يعرف ويقدر ويستطيع ، وهو يدرك أنني الآن فى مثل موقفه ذلك ، وأخرج من جيبه مئة جنيه (مرتب شهرين ونصف) دفع بها إلى لكى أواجه بها أيامى الأولى ، وعلى استعداد لمزيد ، وشكرت له وأصر ، ولم يدعنى إلا بعد أن تأكد بأن حسابى فى البنك فيه ما يزيد على مرتبى مدة أربعة أعوام كاملة .

كانت الأعوام ١٩٦٤ - ١٩٦٧ من حياة مصر بالغة القسوة ، فقد اهتزت هبة الحكم إثر حركة الانفصال السورية ، فطاش اتران أجهزة الأمن ، وأخذت تضرب فى كل مكان دون غاية إلا الإرهاب والإخافة وتأخذ البرىء بالمدنب ، وغرست العملاء والجواسيس بين شتى الطبقات ، وكثيرون استسلموا ونسوا مبادئهم وثقافتهم وعملوا مع هذه الأجهزة مرشدين يتجسسون على زملائهم ، وطلابا يكتبون التقارير عن أساتذتهم ، وأساتذة يستخدمونهم ليقوموا بعمليات «غسيل المخ» لسجناء ومعتقلين أبرياء لاحول لهم ولاطول . وفى تلك الأيام شهدت من شجاعة الدكتور قاسم عميدا ألوانا من الصلابة فى الحق نادرة ، وكان على استعداد لأن يترك العمادة فى أية لحظة ، ويرى أن الأستاذية هى الأبقى ، وبحسبى أن أذكر المواقف التالية ، وكنت شاهدا عليها بنفسى ، ولم يروها لى أحد :

* أعلنت كلية البنات فى جامعة عين شمس عن وظيفة أستاذ مساعد فى الفلسفة الإسلامية ، وتقدم للوظيفة الدكتورة فوقية حسين محمود ، مدرس الفلسفة الإسلامية بالقسم وأمين الاتحاد الاشتراكى بالكلية ، كما تقدم لها الدكتور محمد رشاد سالم ، وكان من الإخوان المسلمين ومعتقلا ، وتكونت لجنة الاختيار من الدكتور محمود قاسم والدكتور يحيى هويدى أستاذ الفلسفة فى كلية الآداب فى جامعة القاهرة، وثالث من آداب الإسكندرية لايحضرنى اسمه ، ومنذ البداية وجد الدكتور قاسم البون شاسعا فى التفكير والعمق بين الدكتورة فوقية والدكتور رشاد، ولكن زميله أخبره بأن د. فوقية أمينة الاتحاد الاشتراكى فى الكلية ، وأن الدكتور رشاد معتقل سياسيا ، ولهذا لا يمكن تجاوزها .

ورد الدكتور قاسم أنه يحكم فى قضية علمية مادتها مؤلفاتها ، ولاصلة له بما وراء ذلك ، وعلى اللجنة أن تختار الدكتور رشاد لعلمه وتستطيع الكلية إذا أرادت أن تختار الدكتورة فوقية لاتجاهها السياسى ، ولاسلطان لهم عليها .

وبدا لزميله أن يحرجاه ، فاقترحا عليه أن يعين الدكتور رشاد فى دار العلوم ، حيث توجد أيضا وظيفة أستاذ مساعد شاغرة فى قسم الفلسفة ، ورد : لا بأس ، على أن لاتعين الدكتورة فوقية إلا بعد تعيين الدكتور رشاد ، وفعلا أعلن عن الوظيفة التى فى دار العلوم ، وتقدم لها الدكتور رشاد من المعتقل ، واختارته اللجنة ، ومجلسا القسم والكلية ، ودافع عن تعيينه فى الجامعة ، وخلا الجو للدكتورة فوقية، فعينت لأنها الوحيدة التى تقدمت للوظيفة .

وحين خرج الدكتور رشاد من المعتقل شكر الدكتور قاسم ، ولكنه أثر أن يذهب إلى العربية السعودية ، حيث عمل ، وحصل على الجنسية السعودية ، ولقى الله على أرضها ودفن فى ثراها ! .

* وكان من نصيب الكلية بعثة للدراسة فى جامعة ماجيل فى كندا ، وحصل

عليها الدكتور محمد أبو الأنوار ، ولما نزل معيدا ، ولكنه اعتقل قبل أن يسافر ، فى الموجة التى راح ضحيتها آلاف من الإخوان المسلمين عامى ١٩٦٤ - ١٩٦٥ ، وحاول بعض ضعاف النفوس أن يستغل الموقف وأن يسافر عليها ، وأصر الدكتور قاسم على أن تنتظر صاحبها حتى يخرج من المعتقل ، ويقيد منها ، وانتظرته فعلا وخرج وحاول أن يسافر ، ولكن أجهزة الأمن خارج الكلية هى التى حالت دون سفره .

* وعندما حصل الدكتور عبدالصبور شاهين على الدكتوراه ، كان الدكتور قاسم فى السودان أستاذا زائرا ، ويتولى العمادة بالنيابة الدكتور محمد موسى هنداوى وكيل الكلية ، ورفض أن يعلن عن الدرجة الشاغرة ليعين عليها الدكتور عبدالصبور شاهين ، وأذكر أننى حين حدثته فى الأمر قال : « هو خارج من المعتقل ، دعه ينتظر » يريد بذلك أن يرضى السلطة ، وما أن وصل الدكتور قاسم وعلم بالأمر حتى اتخذ قراره بالإعلان عنها فوراً ، ليعين عليها الدكتور عبد الصبور .

* على أن أخطر هذه المواقف كان حين أنهت لجنة تصفية الإقطاع برياسة المشير عبدالحكيم عامر مهمتها فى القضاء على كل من توهمتهم خطرا على الثورة ، بعد الانفصال السورى ، وسقوط هيئة الحكم واهتزازها ، فصفتهم نفوذا وثروات ، ثم اتجهت إلى الجامعة فى مطلع عام ١٩٦٧ لتبحث أمر كل من حسبته معارضا للنظام ، وتلقى الدكتور قاسم بوصفه عميدا لدار العلوم خطابا سريا من اللجنة تطلب فيه أن يوافيها بملف خدمة أستاذنا الدكتور ضياء الدين الرئيس ، رئيس قسم التاريخ .

كان الدكتور ضياء الدين أستاذا متوهج الذكاء ، جريئا حتى درجة التهور ، يؤمن بالإسلام ديناً ودولة ، وتتسم أبحاثه فى التاريخ الإسلامى بالأصالة والعمق ، ويحكم حركته فى الكلية أمران : ضيقه بالاستبداد السائد ، والدولة البوليسية التى

أحكمت قبضتها على كل شيء ، وينتقد أسلوب الحكم في محاضراته دون تحفظ . ،
ويؤكد على الدستور وأهميته ودوره في بناء الدولة ، وكانت مصر يومها تعيش
بدستور مؤقت صاغه الحاكم على هواه . والأمر الثاني إحساسه بأنه لم يلق ما
يستحق من تقدير في مجال الوظائف الإدارية ، وعمق هذا في وجدانه إحساسا
مريرا بالظلم تحول إلى «عقدة اضطهاد» ، فكان دائم الاصطدام بالدكتور قاسم
بوصفه عميدا .

أطلعني الدكتور قاسم على الرسالة ، ونحن في شرفة فندق سميراميس نتناول
القهوة ، وكنا نتردد عليه سويا من حين لآخر ، فأنهت القراءة في لحظة ، ولفني
هلع مريع ، وتغشت وجهي سحابة قائمة ، فسألني : أتجه إلى هذا الحد ؟ قلت :
نعم ، أعرف أن بينكما خلافات كثيرة ، ولكنه أستاذي ، وأستاذ عظيم .

فرد : ولهذا اخترت قاصداً أن تشاور في الأمر ، على أن يظل سرا بيننا ، فلا
أحد يعرفه غيرنا ، والدكتور هنداوى ، وكيل الكلية ، وأمين الاتحاد الاشتراكي
فيها ، ومن رأيه أن تستجيب الكلية للطلب وترسل الملف ، وقلت : هذا يعني فصل
الدكتور الرئيس لامحالة ، فهو يعادى السلطة علنا ، ويشهر بالفساد في كل مكان ،
ولأشك في أن أجهزة الأمن تملك له أكثر من تسجيل بالصوت والصورة ، وهو
إنسان كثير الأبناء ، طاهر اليد ، لا يملك غير راتبه ، وقرار مثل هذا يعنى تشريد
وتجويعه هو وأسرته ، ورأيت ألا ترد ، إلى أن يجيء الفرج من عند الله ، أو تدع
غيرك يعملها .

وأوما هامسا : وهذا رأيي أيضا ، ونجاهل رسالة ثانية جاءته خاصة بهذا
الأمر ، ثم وقعت هزيمة ١٩٦٧ فذهبت باللجنة وبدورها ، بعد أن خلطت عملا
صالحا بآخر سيء ، ولم تفرق بين متطلبات الوطن ونزوات الرجال وأهواء النساء .

...

* وكان له من شخصيته وثقته بنفسه ما يجعله يشاور في كل شئون الكلية دون أن يحس في ذلك نقصا ، ويعرض أفكاره وآراءه على كل من يلتقى من زملائه أساتذة ومدرسين ومعيدين ، يقلب الأمر على وجوهه المختلفة ، ثم ينتهى فى ضوءها إلى القرار الذى يراه صالحا ، ويرى أن كل امرئ ميسر لما خلق له ، والمشكلات المعاصرة أعقد وأكثر من أن يحيط بها عقل واحد ، وذات مرة (غير السابقة) كان أستاذاً زائرا فى السودان ، وأخطرت إدارة البعثات الكلية بأن لها بعثة لدراسة الأدب الشعبى فى الاتحاد السوفيتى ، وكان أستاذنا أحمد الحوفى فى السودان أيضا ، ولم يكن فى قسم الدارسات الأدبية سوى الدكتور حمدى السكوت وأنا ، ولم يهتم أحد حتى بمجرد إخبارنا بالأمر ، وإنما سمعنا من زملائنا بأن البعثة ردت ، لأن دار العلوم لا تدرس الأدب الشعبى .

أزعجتنا الأمر أنا وزميلى ، وقررنا ألا نسكت ، لأن الأدب الشعبى شىء جد مختلف عن الأدب العامى ، وكنا قد اكتشفنا بالممارسة أن بعض الذين ذهبوا فى بعثات لا يريدون لغيرهم أن ينعم بما نعموا به ، وأن الذين لم يذهبوا يستشعرون الغيرة ، ويلوذون بإنكار أن يكون هناك علم بالعربية خارج مصر ، غافلين عن أن من يبتعث لا يدرس مادة فحسب ، وإنما مناهج وحضارة ، ويكتسب تقاليد اجتماعية رفيعة ، ولذلك قررنا ألا نسكت ، وحين عاد الدكتور قاسم عرضنا عليه الأمر فطلب إعداد مذكرة وافية به ، وسوف يرى ..

اقترح الدكتور حمدى السكوت ، وهو عقلية علمية منظمة وهادئة ، أن نستعين بالمرحوم فوزى العتيل ، وكان قد أرسل إلى أيرلندا لدراسة الأدب الشعبى ، لكى يعيننا فى كتابة المذكرة ، والحق أنه قام بها وحده ، ودل فى أستاذية على أهمية الأدب الشعبى فى نطاق الأدب العربى وجاءت عملا مقنعا ومتميزا ، وحملها الدكتور قاسم إلى اللجنة العليا للبعثات وكان عضوا فيها ، ووجد كليات الآداب

الثلاث تنصارع للحصول عليها بعد أن رفضتها دار العلوم ، فقدم مذكرته ، واقتراح رئيس اللجنة الدكتور أحمد بدوى ، وكان مديرا للجامعة القاهرة ، أن تقرأ مذكرة الدكتور قاسم ، وانضم إليه فى رد البعثة إلى دار العلوم ثانية ، وسافر عليها محمد فتوح ، وكان لمايزل معيدا .

ثم كانت هزيمة ١٩٦٧ وغمر الدكتور قاسم من الإحباط ماغمر المصريين جميعا ، ولم يجد مايلوذ به فى مواجهة الكارثة غير الجدية والقراءة والتأليف ، فامتنع عن المشاركة فى مواكب النفاق التى تحركت بعد الكارثة تباع بالصراخ ، وتساند بالهتاف ، وعينها وقلبها على مايمكن أن تربح ، ووجد فى قراءة «الفتوحات المكية» لابن عربى وتحليلها عزاء وسلوى ، ولكن الصدام مع السلطة وإدارة الجامعة بدأ يأخذ شكلا واضحا ، وبخاصة عند ما جاء إلى الجامعة مدير جديد ووكيل جديد أيضا .

كان السائد فى اتحادات الطلاب أن يسيطر عليها محترفون يعشرون ماتملك فى الشهر الأول ، ثم يقون بقية العام دون أى نشاط ، وحاولنا فى اتحاد دار العلوم ، وقد أصبحت رائده بعد الأستاذين الدكتور يحيى هويدى والدكتور تمام حسان ، أن تنقى الله فى أموال الطلاب ، وهى غاية حقتناها إلى حد بعيد ، وأعان عليها جملة من فضلاء المدرسين ونابههم كانوا عائدين للتو من بعثاتهم : الدكتور حمدى السكوت ، والدكتور محمود الربيعى ، والدكتور السعيد بدوى ، والدكتور كمال جعفر ، وكان من بين أهدافنا أن تكون فى الكلية منشآت ثابتة لخدمة الطلاب ، وهكذا عندما انتهت حرب الأيام الستة كان رصيد الاتحاد يتجاوز الألفين ، وهو مبلغ ليس بالقليل فى ذلك الزمان ، وأحسن اتحاد الجامعة العام - وإذا لم تعن الذاكرة فقد كان يرأسه عبد الحميد حسن من كلية الطب ، الدكتور والمحافظ والمتهم بالاستيلاء على المال العام فيما بعد - بأن اتحاد دار العلوم يملك

رصيدا طيبا ، على حين أن أرصدة بقية الكليات ليس فيها شيء ، فاتخذ قراراً ظاهره الحق ، وباطنه الاحتيال ، بتحويل كل أرصدة اتحادات الكليات إلى الاتحاد العام للإنفاق منها على المعركة ، وكان ذلك يعنى واقعاً اغتصاب أموال اتحاد دار العلوم ، ومعاقبته على نزاهته . واعتمد وكيل الجامعة ، وكان مديرها بالنيابة أيضا الدكتور محمد حلمى مراد ، القرار ووزع على الكليات لتنفيذه ، وتلقيناه فى دار العلوم ، وعندما سألتى الدكتور قاسم رأى ، كان الجواب : ولا ملين واحد ! ، أفهم أن يطلب من كل اتحاد تحديد نسبة مئوية يدفعها ، أما اغتيال أموال الآخرين فدون ذلك أن أدع الريادة الآن ، وقال راضيا : موافق وأنا معك ، اتخذ القرار ، وسوف أدعمه .

وحاولت الجامعة ، وكان الجواب : لا ، وكان الدكتور محمد حلمى مراد متفهما الموقف ، ولكنه ترك الجامعة إلى الوزارة ، وحل مكانه الدكتور حسن الشريف عميد كلية التجارة ، ويبدو أنه لم يكن على معرفة حقة لاهدار العلوم كلا ، ولا بالدكتور قاسم بخاصة ، وزاد من ثقته فى نفسه أن أجهزة الأمن كانت تترتاح إليه ، فقد كان الدكتور محمد مرسى عميد كلية العلوم الذى عين مديرا للجامعة القاهرة عالما فذا فى الرياضيات ، صعيديا شهما فى السلوك والمواقف ، مترفعا عن الصغائر والعمليات غير النظيفة ، وهكذا أصبح الدكتور حسن الشريف رجل الأمن ليس فقط فى الجامعة وبين الطلاب ، وكان مسئولوا عنهم بحكم وظيفته ، وإنما فى مجلس الجامعة نفسه ! .

وقد ضاق بتصرف الدكتور قاسم لرفضه تحويل المبلغ ، وسوف يضيق به أكثر فيما بعد ، وقد تولى الريادة الدكتور إبراهيم العدوى بعد سفرى ، فقد رفض للمرة الثانية أن يوافق على صرف مبالغ كبيرة ، لعدد من طلاب اتحاد دار العلوم ، فى رحلة مشبوهة ، ولمبلغ أكثر مما جرت به العادة ، فاستخدم سلطته وكيلا للجامعة ورائدا للاتحاد العام بصرف المبلغ لهم من ميزانية الاتحاد .

كان وراء الموقفين فلسفتان سياسيتان مختلفتان ، تتصلان بمواجهة مواقف طلاب الجامعة إزاء الهزيمة وبعدها : يرى الأمن أن الطريقة المثلى لشل فاعلية الاتحاد شغل طلابه باقتباس أموال الاتحاد وإنفاقها على مبايحتهم وحياتهم والصراع حولها، واهتزاز ثقة زملائهم فيهم ، مما يشل فاعليتهم في حشد جمهرة الطلاب وراء أى قضية ، وكان الدكتور حسن الشريف الأداة لتنفيذ هذا الاتجاه ! .

بينما يرى الدكتور قاسم أن الفساد لا يثمر خيرا ، سوف نسكت الطلاب ولكننا سوف نخسر الوطن ، وسوف نجعل من قادة الطلاب لصوصا ومرتشين وكتاب تقارير فكيف نجعل منهم فى الغد مواطنين صالحين ؟ لا يصح إلا الصحيح ، ولن يشارك فى عمل فاسد أبدا ، وقد أثبت الأيام صدق نظريته ، والشاهد عليها قضية الدكتور عبد الحميد حسن ، رئيس الاتحاد فى تلك الأيام ، ومحافظ الجزيرة فيما بعد ، والمحكوم عليه بالسجن أخيرا .

لم يغفر الدكتور حسن الشريف للدكتور قاسم هذه المواجهة ، لأن الصغار فى مواقفهم يضيّقون دائما بنظافة الكبار وطهارتهم ، ولأنه كان يقدم القدوة والمثل للآخرين ، ثم واثته الفرصة للانتقام صغير ! .

فقد اعتصم طلاب كلية الهندسة فى جامعة القاهرة احتجاجا على الأحكام التى أصدرتها المحاكم العسكرية على قادة الطيران المسئولين عن الكارثة العسكرية ، وأنها لاتناسب الجرم الذى ارتكبه فى حق وطنهم ورسالتهم وشرفهم العسكرى ، وكان على رأس هؤلاء المعتصمين (وليد محمود قاسم) الطالب بالكلية ! .

يومها أغرى الدكتور حسن الشريف أجهزة الأمن لكى تضغط على الدكتور قاسم عميد دار العلوم حتى يعمل على إقناع ابنه بترك زملائه ، ليفت ذلك فى عضد البقية ، فرفض ، وكان مؤمنا أن ابنه لن يسمع رأيه فى مثل هذا الموقف ، وهو لا يريد فى مواجهته أن يضعف ، أو أن يكون جباناً ، أو أقل منه وطنية ، ويرى أن

الطلاب يعبرون عن موقفهم فيه على حق ، ورفض حتى أن يزوره أو أن يعرف شيئا من أخباره وأذكر أننا ، الدكتور حمدى السكوت وأنا ، قمنا بزيارته للاطمئنان عليه ، وحملنا له ولزملائه شيئا من الطعام ، وكان وليد سعيداً جداً بموقف أبيه ، ورجانا أن نحمل له تقديره ، وأن يصبر على موقفه هذا مهما واجه من صعبات !

ومضى الدكتور حسن الشريف فى موقفه ، ثم اقتحمت أجهزة الأمن مسكن الدكتور قاسم ليلا لتفتيشه والبحث فيه عما يمكن أن يدينه أو يدين ابنه أو حركة الطلاب ، وهو حدث لم يشر إليه أحد ، لأن الرقابة كانت صارمة ولم يكن الدكتور قاسم يرى فيه ما يشرف الجامعة أو الأمن أو أحدا يعتز بوطنيته ، ولقد أثبت الأيام صدق وطنية هؤلاء الطلاب ، فألغيت الأحكام التى احتجوا عليها ، وأعيدت المحاكمات من جديد ! .

فى أول وزارة تألفت بعد هذه الأحداث ، تلقى الدكتور حسن الشريف الثمن ، أنشئت له وزارة خصيصا اسمها وزارة التأمينات ليشغلها ، مع أن التأمينات أموال تدفع ، وأموال تحصل ، تحتاج إلى محاسبين نعم ، ولكنها لا تحتاج إلى وزير ، ولذلك ألغيت الوزارة ، مع أول تعديل وزارى بعدها ، وخرج الدكتور الشريف من الوزارة ، وكانت المرة الأولى فى تاريخ مصر التى تنشأ فيها وزارة مستقلة للتأمينات .

وبعدها لف النسيان الوزارة والوزير .

...

كان قلبه مع الطلاب دائما ، تعنيه أمورهم ومشكلاتهم ، ولقد عدل عن تعيين أستاذ قرر اختياره وكيلا ، لأنه عرف أنه درج فى محاضراته على أن يخرج

الطلاب الفقراء من مقاعدهم ، ويرقفهم صفوفا ليشت فيهم زملاءهم لأنهم لم يشتروا كتابه ، ويتخذ منهم مادة للسخرية والتقريع ، وتحدث إليه في هذا الأمر ورجاه أن يكون بهم رحيمًا ، وهيهات ! ...

ويرى في الطالبات بناته ، وحين عرف أن ضابط الحرس في الكلية يتصرف في الكلية بما لا يليق ، ويستغل عمله ورتبته ، رفع أمامي سماعة الهاتف ، واتصل برئيس الحرس في الجامعة وعاتبه بشدة على أنه خالف ما اتفقا عليه ، وهو أن يكون رئيس الحرس في دار العلوم ، متزوجًا ، وعلى خلق ، ليستقيم وضعه مع تقاليد الكلية ، وطلب منه سحبه في الحال وتعيين آخر بدلا منه ، وعبنا استمهله رئيس الحرس أياما ، لكنه أصر على ألا يكون هذا الضابط في مكتبه من الغد ، وقد كان .

كان يرى أن ضابط الحرس له احترامه كبقية موظفي الكلية ، دون أن يكسبه الزى الذى يرتديه حقا أكثر مما له ، أو وضعًا فوق رتبته ، ولهذا لم يكن يسمح له بأن يكلمه وهو جالس ، أو أن يتردد على مكتبه بدون عمل ، أو أن يحيطه بذيء لا يدخل في اختصاصه ، أقول هذا وأؤكد عليه ، لأن بعضًا من العمداء في كليتنا بقلة ، وفي غيرها بكثرة ، لا يوقعون ورقة إلا إذا استشاروا فيها ضابط الأمن ، وبعض هؤلاء الضباط لا يكادون يفارقون مكاتب العمداء .

...

رغم اختلافه مع بعض زملائه كان يحصر الاختلاف دائما في دائرة العمل والرأى ، فلم يعرف حقدا على أحد ، نعم لم يكن يحترم بعضهم لتصرفاتهم ، ولكنه يقف بمشاعره عند هذا القدر ، ولم يسمعه أحد يخوض في السيرة الشخصية أو العائلية لمن يختلف معهم ، أو يحاول أن ينتقص من قدرهم ، أو يكشف ما يعرف من عيوبهم ، أو يمسه في أرزاقهم ، أو يقف دون طموحاتهم ، وكان

يرى أن الطريق رحب ويتسع للجميع ، وإنما يفوز فى السبق الماثب ، الصادق مع نفسه قبل أن يكون صادقا مع الآخرين !

كان يفضب أحيانا ، إذا رأى مينا ، أو أحس بنفاق ، أو عرف غدرا ، فيعنف ويشتد ، ويتجاوز المعارف عليه من اللوم والعتاب والعقاب ، فإذا هدأت العاصفة ، وخلا لنفسه ، وأحس أنه تجاوز حده ، عاد فاعتذر لمن أساء ، علانية على مرأى من الجميع .

فى صيف ١٩٧٣ كنت فى مدريد ، مررت على باعة الصحف فاشتريت الأهرام ، من مكان يبيع الصحف العربية ، وفى صفحة الوفيات وقعت على نعيه من إحدى الهيئات ، فغشيتنى إغماءة خفيفة ، رحت معها استرجع ذكرياتنا سويا فى هذا الشارع نفسه ، شارع «جران بيا» أو السكة العظمى بلغة الأندلسيين القدامى ، وكانت أياماً ما أطيبها ! ، وفى الطريق لقيت الأب سلفادور نوجالس ، يسوعى متخصص فى تراث ابن رشد ، واتفق مع الدكتور قاسم على خطة لنشر تراث ابن رشد كله محققا فى قرطبة ، وسوف تتولى تمويلها بلدية قرطبة ، والمجلس الأعلى للأبحاث ، فنقلت إليه النبأ ، فراح يضرب كفا بكف وهو يهمهم : ياإلهى ، كيف تغتالون علماءكم بمثل هذه السهولة ؟ !

— لقد مات طبيعيا ، لم يقتله أحد :

— لا من يموت فى الستين من عمره لا يموت طبيعيا ، هناك سبب ما مسئول عن موته ، كان يجب أن يبلغ هذا العالم المئة من عمره لنفيد منه . لقد بدأ يعطى ، وفى هذا اللحظة أنتم قتلتموه . لاحول ولاقوة إلا بالله ! .

بعد ذلك بأعوام قليلة لقى الأب نوجالس الله ، وهو أكمل مايكون صحة ، أودت بحياته حافلة صدمته فى الطريق !

محمود قاسم : المعنى والرمز والموقف

أ. فاروق شرشة *

كان أول ما شددنى إليه احتياج عميق كنت أتوق إلى إشباعه . هذا الاحتياج الذى عانيت ضراوته بعد التحاقى بكلية دار العلوم ، وانتظامى فى الدراسة ، إثر سحب أوراقى من كلية الآداب بجامعة القاهرة على أمل الالتحاق بقسم اللغة العربية فيها . كانت كلية الآداب - ورمزها العظيم طه حسين - حلما صاحبى طويلا طوال المرحلة الثانوية من الدراسة : وعندما أذعنت لرغبة أبى وتقدمت إلى دار العلوم كنت أبكى فى داخلى بعد أن حرمت الاقتراب من طه حسين أستاذا ، ومن عالم كلية الآداب والحرم الجامعى بجامعة القاهرة - الذى طالما داعبتنى خيالاته

* مدير البرنامج العام بالإذاعة المصرية .

من خلال بعض الأفلام السينمائية التي صورت فيه ، وأيضا من صحبة أجمل فتيات الجامعة كما كان يقال لنا نحن القرويين من أبناء ريف مصر ، البعيد عن العاصمة .

وفي دار العلوم عشت تجربة الارتطام مع علوم التراث ، ومع مناخ يسوده القديم والحرص على التقاليد ، والطابع السلفي في كل شيء إلى حد عدم السماح بالاختلاط بين الطلاب والطالبات . كانت الظلمة عاتية ، وكان الماضي يحجب عنا نفاذ الرؤية إلى الحاضر فما بالك باستشراف المستقبل . ووسط هذا الظلام سطع الضوء الباهر لمحمود قاسم ، نموذجاً للعقل اليقظ ، والشخصية الجامعية المسيطرة والقدرة على استيعاب التراث وتمثله ونقده في ضوء الجديد والمعاصر .

وكان أول انطباع لي بعد رؤية محمود قاسم والتعرف عليه من خلال محاضراته الأولى لنا في الفلسفة الإسلامية : «هاهو ذا أخيراً واحد من أعلام دار العلوم ، يستطيع أبناء دار العلوم أن يفاخروا به ندا لنظرائه في أى مجال جامعي آخر ، ورمزا لكبرياء من يثق في عقله وفي إمكانياته ، وفي ترفعه عن الصغائر ، واهتمامه بعظائم الأمور» .

كان قد سبق إلينا الدكتور محمد غنيمي هلال ، ليدرس لنا علما استوقفنا عنوانه هو : المقالة والتحرير . كان قادما لتوه من السوربون حاملا دكتوراه الدولة في الأدب المقارن ، وأحسنا أن رأسه يمتلئ بالكثير الذي نحن في حاجة إليه -نحن حملة الشهادة التوجيهية ممن كانوا يسمون في دار العلوم بأبناء المدارس - لكنه - رحمة الله - على عمق علمه وسعة ثقافته - لم يكن محاضرا ناجحا ، ولم تكن كتبه الرائدة في مجال الأدب المقارن والمذاهب الأدبية ، بدءا بالرومانتيكية ثم كتاباته عن الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية وترجماته عن الفرنسية والفارسية - لم يكن كل ذلك قد نشر بعد ، ولذلك فقد ظلت شخصيته الجامعية

فى عروننا موضع إعجاب وإشفاق ممتزجين : الإعجاب بعلمه والإشفاق من حكم الطلاب عليه حين يحاضرهم ويتحدث إليهم .

فلما التقينا بالدكتور محمود قاسم وجدنا النموذج المكتمل الصورة . ها هو ذا عالم متين فى تخصصه ، قادر على الجدل ومقارنة الحجة بالحجة ، يقظ لكل صغيرة وكبيرة ، لكل شاردة وواردة كما يقولون ، ثم هو قادر على الخوض فى قضايا صعبة وشائكة ، لأن مناطها تلك المنطقة الملتبسة بين الفلسفة والدين ، ثم هو مبین إلى أقصى درجات الإبانة ، يقمع بصوته الجهير ، وأدائه الحاد القاطع ، وابتسامته التى لاندري متى ترسم على صفحة وجهه ولا متى تختفى فجأة كأن لم تكن قط . لكننا فى الحالين : حالتى الابتسام وقطع الابتسام مشدودون إليه متابعون لانطلاقاته ، لاهتو الأنفاس وراء ما يطرحه من معضلات .

كنا على مستوى الفكر ، يسودنا تصور مبدئى ، صغناه من قراءات سريعة وغير منظمة بأن كل ما يقال عن الفلسفة الإسلامية ليس إلا محض محاكاة وتقليد للفلسفة اليونانية ، وأن أقصى ما فعله فلاسفة الإسلام هو محاولاتهم الدائبة للتوفيق بين ما تقول به الفلسفة وما يقول بين الدين الذى يؤمنون به ، وأنهم جميعا يسيطرون عليهم إعجاب شديد ، وربما انبهار بفلسفة الإغريق ، مما جعل ثمار التفكير الفلسفى لديهم مشوبة دائما بالتوقف عند الحدود التى يأبأها الدين ولا يسمح التصور الدينى باحتمالاتها ، وكنا نستاءل - بيننا وبين أنفسنا - لماذا توقف فلاسفة الإسلام عند هذه المحاولات التوفيقية ؟ وكان الرد الدائم ممن نقرأ لهم ونحاورهم ونستمع إليهم أن الفلسفة الإغريقية فى جوهرها فلسفة وثنية أو هى فلسفة مجتمع وثنى ، ومن هنا فإن عناصر الفراق بينها وبين التصورات الإسلامية أكبر من أن تحصى وأرحب من أن تُخطى أو تتجاوز ، كذلك كنا نستاءل - وما أظننا عثرنا على إجابة لهذا التساؤل - لماذا لم يشغل هؤلاء الفلاسفة المسلمون

- ومعظمهم من العلماء - بدارسة العلاقة بين الفلسفة والعلم ؟ ألم يكن ابن سينا وابن رشد والفارابي وغيرهم في مقدمة علماء عصرهم ، فلماذا لم يخطر لهم على بال طرح هذا السؤال الذى طرحه فلاسفة الغرب وشكلت إجاباته المتعددة روافد ثمتى للفكر الأوربي الحديث!

وظهر على المسرح محمود قاسم . وبدأنا نقرأ له فى النفس والعقل عند فلاسفة الإغريق والإسلام ، والمنطق الحديث ومناهج البحث ، ونظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكويني ، وابن رشد وفلسفته الدينية ، ودراسات فى الفلسفة الإسلامية ، فأدركنا على الفور أننا أمام شخصية علمية مختلفة ، قادرة على الاستظهار والتمثل ، والحوار العقلى والجدلى الرفيع المستوى مع فكر الآخرين حتى لو كانوا فلاسفة كبارا . كنا نقرأ له بحوثه ودراساته عن ابن رشد أو توماس الأكويني - موضوع تخصصه الدقيق - فنحس أن عقله الجبار يتعامل معهما من منطلق الندية . وعندما كان الأمر يتعلق بمناقشة فلاسفة من طراز ابن سينا أو الفارابي والتوقف أمام برهان الكهف أو غيره ، كنا ندرك قدرة محمود قاسم على استشراف الأفق الأكبر لتجليات هذا الصرح الإسلامى الفلسفى ، وقدرته على نقده من داخله ، بوعى المسلم ، ورؤية المفكر ، دون أن يقع فى منطقة الحماس لكل ما هو إسلامى ، أو منزلق الهلم والنقد لمجرد التظاهر بالجدة والتقدمية والتجاوز .

كان الدكتور محمود قاسم على صلة وثيقة بالفكر الإسلامى ، وأكاد أقول - بجوهر الدين الإسلامى - تفوق الصلة المائلة بين علماء الدين المتخصصين فى الإسلام . وكان يفيض - فى حرارة وحيوية وقدرة على الإقناع والاقتناع - فى بيان ما للفلسفة الإسلامية من شخصية قوية ، قوامها هذا الأساس الدينى القوى ، الذى تجلّى فى الحض الدائم على قراءة الكون ، وعلى البحث والتأمل والتجريب ، وعلى التحرر من ظلام الأوهام والمعتقدات الخاطئة ، والدعوة إلى الفكر الحر

ومحاولة التعرف على أسرار الكون من أجل التوصل إلى إدراك عظمة خالقه .

وكان محمود قاسم ، وهو يعرض علينا فكرة المدينة الفاضلة عند فلاسفة الإغريق في صورة «اليوتويا المثالية» وعند الفلاسفة المسلمين ، لايفتأ ينبهنا إلى الفروق الأساسية في النظرة والتوجه والروح الملهمه للتصور عند هؤلاء وهؤلاء ، ودور التصور الدينى الإسلامى فى وضع تصور إسلامى للمدينة الفاضلة يغاير كثيراً تصورات فلاسفة الإغريق .

وعندما عرض محمود قاسم لآراء جمال الدين الأفغانى فى الرد على الدهريين - وكان هذا فى مقدمة دروسه لنا - أحسنا على الفور توهج العقيدة لديه . ولم يخالطنا الشك - مرة واحدة - فى صدق هذا النزوع لديه ، بالرغم من أنه لم يكن يحرص على الظهور - كما كان كثيرون من زملائه وأقرانه يحرصون - بمظهر المتدين الموغل فى حرص على دينه ، والزائد عن حياضه ، والمتمثل له فى سلوكه ، مظهراً وأسلوب عرض !

وأذكر أنى ظللت طيلة سنوات الدراسة الأربع فى الكلية ، يربطنى به إعجاب ممزوج بالخوف . الخوف من الاقتراب الشديد ، أو العلاقة الوثيقة . ولذا ، كنا - نحن تلامذته - نتعامل معه عن بعد ، ونرى أن هذا أسلم الأشياء فى المحافظة على احترامنا لأنفسنا فى مواجهة صرامته وحدته العقلية والسلوكية . ولم يكن هو بدوره حريصاً على أن يقترب منه الآخرون . ولم تكن دروسه تسمح لأحد بالخروج على إطار العلم المتعارف عليه ، أو التخفف من جهامة البحث العلمى بالدعابة أو الفكاهة أو المزح . كانت الجدية سمة دائمة له ، لصيقة به فى كل حال . وكانت هذه الجدية تستهويننا وتخيفنا فى آن .

وتخرجت من الكلية ، واشتغلت بالعمل الإذاعى ، ثم بدأت أتردد على الكلية فى مواسم ومناسبات مختلفة ، أكثرها للقاءات حميمة مع مجموعة من أصدقاء

العمر وزملاء الدراسة ، وأقلها لممارسة بعض مهام العمل الإذاعي ، الاتفاق مع بعض الأساتذة على موضوعات لأحاديث إذاعية وعلى مشاركات فى ندوات أقدمها من إذاعة البرنامج الثانى .

وقتها كان الدكتور محمود قاسم قد أصبح عميداً للكلية . وبدأت شخصية العميد وهيبة الإدارة الصارمة والخلافات بين الأساتذة على شخصية العميد وعلى أسلوب تعامله معهم ، ثم على المكانة التى تحققت لدار العلوم - فى الحرم الجامعى - بفضل عميدها العالم المثقف ، صاحب الشخصية القوية ، وهو يمثلها فى مجلس جامعة القاهرة ويعطى لجوهرها صورة كانت تفتقدها فىمن قبله ، وستفتقدها أكثر فىمن بعده .

فى هذه المرحلة ، توثقت علاقتى به وبدأت تأخذ طابع الصداقة الحذرة - من جانبى - فالصداقة الحميمة ، فالإعجاب الشديد به . كنت قد بدأت أكتشف فيه جانباً لم يتح لى اكتشافه أثناء سنوات الدراسة وهو ما فى شخصيته من حنان بالغ كان يخفيه دائماً بجهاشته وجديته . وأدركت أبوة محمود قاسم الحقيقة وهو يأخذ يبدى فى رفق إلى آفاق من المعرفة لا بد من تحصيلها لأكون كما يريد لى أن أكون . وأدركت تواضعه الجم وهو يحرص على أن يوصلنى بنفسه فى سيارته إلى حيث أقصد فى أعقاب لقاءاتنا المتصلة والمتعددة . ثم اكتشفت وأنا إلى جواره - على منصة الشرف - فى احتفالات الكلية الرياضية والاجتماعية - فى مهرجانها السنوى - نفاذ نظرته إلى الأساتذة الذين يتعامل معهم ومدى فهمه لشخصياتهم وأقدارهم واحداً واحداً ومعاملتهم بما يستحقونه طبقاً لهذا الفهم ، فى صراحة ووضوح شديدين ، وفى منطق صارم قاطع لا يعرف أنصاف الحلول ولا لغة الظلال . وأعتمد أن هذه اللغة أو هذا الأسلوب الذى كان يحلو له شخصياً أن يسميه فى بعض الأحيان من باب التفكه «بالعنجهية القاسمية» قد جلبت عليه

عداوة كثيرين ، ممن كانوا يتحنون الفرص للإيقاع به أو الوشاية عند المسئولين ، لكنه كان يعرفهم ويدرس على وشايتهم ، ويمضى ..

ستظل مشاركات الدكتور محمود قاسم فى الأحاديث الثقافية والندوات المتخصصة لإذاعة البرنامج الثانى طيلة ثلاث سنوات (من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٣) إضافة حقيقية إلى ما كانت تقدمه تلك الإذاعة وقتها من زادٍ حقيقى للمثقفين ، وعلى مستوى ناضج من الخبرة والتناول . وقد كان محمود قاسم فارسا من طراز فريد فى صولاته وجولاته داخل هذه الندوات عن الفلسفة الإسلامية والفلسفة الحديثة وعن الفكر العربى المعاصر ومشكلات العقل العربى والدعوات إلى التجديد والمعاصرة والحرية والالتزام . كان بعض هذه الندوات فلسفيا محضا . وكان بعضها الآخر فكريا أدبيا ، وقليل منها يتضمن مناقشة لكتابات فلسفية أو أعمال أدبية ذات رؤية فلسفية ، وكان المنهج دائما هو المرتكز الأساسى فى مناقشات محمود قاسم وحواراته . افتقاد المنهج يؤرقه ، وغيبة المنهج تماما تسخطه ، وعدم الوعى بالمنهج يستثير شهيته للشرح والتوعية وتقديم البراهين .

كان محمود قاسم - فى كل هذه الندوات - ضد كل ما يسمى الآن بالسلفية ، كان عدوه الأول يتمثل فى التكرار والاجترار - وكان يلح على الكلمة الثانية إلحاحا يكشف عن ضيقه بالمجتزين فى مجال البحث الفلسفى - وما أكثرهم ، كما كان عدوا لما يسمى الآن بالتغريب ، والارتقاء المطلق فى أسر الفكر الغربى : أوروبا كان أو أمريكا - مع ارتباطه الحميم بالفكر الفرنسى - موضع دراسته - على وجه الخصوص .

لكن فكره فى هذه الناحية بالذات كان شديد التلاؤم مع شخصيته وفكرته عن نفسه . كانت كبرياؤه عاصما له من اجتراح السلف ومن الوقوع فى أسر الاغتراب . إن الموقف الفكرى عند محمود قاسم لم يكن ينفصل أبدا عن موقفه

الشخصى أو موقفه السلوكى ، من هنا اتحد فيه نزوع العقل مع حركة الحياة ، وأصبحت عنوانا واحدا على نمط فريد من الناس هو محمود قاسم . وبينما كانت الساحة ملأى بمن يقفون مواقف مختلفة من التراث ومن الفكر الإسلامى ومن الدعوة إلى الانفتاح على الحضارة الغربية والفكر الغربى ، كان موقف محمود قاسم تعبيرا عن اعتداله وعدم تطرفه ، وتأكيده لانتمائه لتراث أمته - فى وعى نقدى - من ناحية ، وصلته العميقة والحية بالإيجابى من تراث الحضارة الغربية - من ناحية أخرى .

لا يمكن أن تخلو شهادتى عن محمود قاسم من إشارة إلى بروز العنصر العقلى لديه ، والموقف العقلانى فى كل ما يصدر عن فكره ، والتوجه العقلى فى خطابه الفكرى لأنداده وتلاميذه على السواء . إن العقل يمثل بالنسبة لفكر محمود قاسم واجتهاداته ودراساته ركنا ركينا وأساسا بارزا فيها ، كذلك فإن اتصاله الوثيق بالمصادر الإسلامية والأصول الكبرى فيها جعله على وعى عميق بتجليات هذا العقل ، وهو ما جعله بصيرا بعدم الوقوع فى المزلق الذى وقع فيه غيره ، عندما جعلوا من «الحكمة» والبحث عنها بديلا للتناول الفلسفى ، وقادتهم «الحكمة» إلى مزالق دينية بعيدة عن روح الفكر الفلسفى ، فأغرقوا فى أمور تتصل بالتفقه والتدين وابتعدوا عن المسار الصحيح للأمر .

لقد كان من حسن حظ الدكتور محمود قاسم أنه رحل عنا قبل أن تنفجر فى المجتمعات العربية والإسلامية قضية الأصالة والمعاصرة على الصورة التى نراها . وظنى أنه نجا - برحيله - من الخوض فى قضية مغلوطة وخاطئة . فالأصالة لا تكون أصالة بدون وعى معاصر يعيد النظر النقدى فى التراث ، والمعاصرة لا تكون حقيقية بدون استيعابها لموروث الأمة الحى ، وهكذا تصبح الأصالة والمعاصرة فى حقيقتها وجهها واحدا لوجهين يتطلبان المصالحة بينهما ، بالجمع الميكانيكى كما

يتصور البعض ، وبالتفاعل (الخلاق) كما يريد آخرون ، وبالمواءمة والتوفيق كما يتطلب طرف ثالث فى الموضوع . والغريب أن كتابات محمود قاسم جميعها لا تطرح علينا قضية الأصالة والمعاصرة وإنما هى تحياها فعلا بالمفهوم الذى عرضنا له الآن : مفهوم التوحد وانعدام المزاوجة . وانطلقت كتاباته جميعا من أول كتبه حتى آخرها من منظور الوعى المكتمل بهذا الموقف ، فى عقلانية ومنطق واضح صريح .

ولسوف تبقى طويلا فى القرار البعيد من وجدان تلامذته وأصدقائه تلك الصورة المليئة بالحياة والرجولة والتوهج ، النابضة بالثقة والطموح والاعتزاز والكبرياء ، المتوهجة بشرف الموقف والكلمة ، عنوانا على نموذج من الرجال نفتقده - أحوج ما نكون إليه - وطراز من العلماء نتلمسه فلا نكاد نعثر عليه ، ورمز لرجال دار العلوم فى عصر يمتلئ بأشباه الرجال .



نعيش ، ونتذكر ، ونتعلم

أ.د. محمود الربيعي *

قال لى صاحبي وقد دلفنا إلى مدرج على مبارك فى دار العلوم القديمة لتلقى أول محاضرة على محمود قاسم - وكان ذلك منتصف الخمسينات - : إذا ابتسم إليك فلا تبادل الابتسام ؛ فابتسامته عصبية ليس غير ، ولن يتركك ، وإنما سيسألك لماذا تبتسم ، وقد تجدد نفسك متهما فى النهاية بأن «الضحك» -أو حتى الابتسام - من غير سبب قلة أدب . ثم استعدنا قول ألفتنى :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظن أن الليث يبتسم

واحتوانا زحام الطلاب .

* أستاذ النقد العربى الحديث بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، ووكيل كلية دار العلوم الأسبق .

ودخل محمود قاسم فى خطورة رشيقة أميل إلى السرعة ، تتخللها قفزة خفيفة كقفزة الغزال . كان حليق الذقن والشارب ، يرتدى حلة نظيفة ، و«ياقة» غاية فى النظافة ، وما أن بدأ الحديث حتى هيمنت شخصيته على الجمع هيمنة كاملة . ليس بطيئا أو متعثر الفكر ، وليس مرحا أو مستجيبا لمرح ، ثم إنه أبعد مايكون عن أن يعنى نفسه بالتوقف ليختبر وقع كلامه على الطلاب ، أما «القفشات» و «النكات» - التى كانت تصل ببعض الأساتذة إلى حد تملق مشاعر الطلبة واسترضائهم - فلا تخطر فى جوه على بال . كانت لغته عربية سليمة ، وكانت سرعته فى الخطاب - كمشيته - عالية الإيقاع ، وبعد نصف ساعة من الاستماع فى جو الصمت الكامل أحسست بالرتابة ، ولكننى لم أحس بالملل ، كما أحسست بأننى مع هذا المحاضر الجديد محتاج إلى أكبر قدر من الانتباه . واستمرت الأيام على تلك الوتيرة : لا تستطيع أن تقترب منه ، ولا تستطيع أن تفلت من أسره ، وعليك أن تتقلب فى إحساسك به بين الرضا عنه والغضب عليه ، والرغبة فيه والرغبة عنه ، والميل أحيانا إلى الوفاق معه كل الوفاق ، وأحيانا إلى الخلاف معه كل الخلاف .

هكذا جرت أحوالى معه فى السنتين الثالثة والرابعة من سنى دراستى ، يعلمنى الفلسفة ومناهج البحث ، ويقف منى ، وأقف منه ، على مسافة بعيدة جدا ، لأذكر أننى تحدثت إليه مرة واحدة ، ولكننى كنت أحاوره فى صمت حين يحاضرنى ، ثم حين أختلى إلى كتبه فى بيتى ، وأبدأ المراجعة . كانت كتابته دقيقة ، مليئة بالمعانى ، وكانت حجته ناصعة ، ولغته متدفقة ، ولكن هذه اللغة - لغناها - كانت صعبة المراس ، وهى قد تصل فى صعوبتها حدا تحس معه بوقع توغل الحدّ الماضى فى اللحم الحى . كان منهجيا : المقدمات والنتائج ولازياة ، الفكر ومشتقاته ولازياة ، الموضوعية ، كل الموضوعية ، ولاشئ غير الموضوعية . وكان هذا النهج غريبا جدا على وعلى أمثالى من «الدراعمة» الذين جاءوا من الأزهر ، وتربوا على تحلية أجزاء القول بالصور والتشبيهات ، والمحسنات البلاغية ،

والأساليب الإنشائية المعتادة . كان علم محمود قاسم فى بداية عهده ، به يمثل لى شرابا حلوا مرا ، ويمثل لى دواء أعلم أننى محتاج إليه ، وأن فيه شفائى ، ولكنه كان فى حلقى صعبا ، يبلغ أحيانا أشد الصعوبة . كنت فى أوقات اليأس أشقى به ، وكنت فى أوقات الرجاء أسعد به . وقد أقبلت عليه فى جميع الأحوال إقبال واثق به ، غير منكر تميزه عن كثير مما كنت أشقى به حقيقة ، وفى جميع الأحوال ، من مواد دار العلوم ، التى كان كثير منها تكراراً لما تعلمته فى الأزهر ، أو شقشقة فارغة حول الأدب ، أو التبشير الحرفى بنظريات الغرب الغالب المصدرة إلى الشرق المغلوب .

حين تخرجت فى دار العلوم ، وسافرت فى بعثتها إلى لندن ، كان هو خارجها ، وحين عدت فى عطلة دراسية قصيرة سنة ١٩٦٣ كان هو قد أصبح عميدا لها ، وقد استقبلنى فى مكتبه ، حين زرته ، استقبالا حسنا ، وبدا لى مختلفا كثيرا عن الصورة التى عرفته عليها حين كان يطالعى من فوق منصة الدرس . كان مرحا (ويا للعجب !) ودودا ، سخيا ، وإن لم يفقد توتره ، أو هيمنته على الموقف . فى ذلك اليوم حيائى ، وخصنى بحديث ودى عن دراستى ، واحتمالات المستقبل ، وزاد فدعائى - آخر يوم العمل - إلى «توصيلة» بسيارته المرسيدس السوداء (وكانت أعجوبة الستينات بين الدراعة قبل أن يملكها كل أحد وتصيح «معروضة فى الطريق») إلى أول مترو مصر الجديدة ، وكان يمتد إلى كورنيش النيل ، ونما بيننا نوع من الود الصامت كان ، من جانبى ، نوعا من جس أرض المودة ، وتساءلت ، فيما بينى وبين نفسى ، عما يمكن أن تتمخض عنه الأيام .

ومع الأيام نما إعجابى به ، لذا فإنه كان محزنا لى أننى حين سألت عنه أحد المصريين المشتغلين بالفلسفة من معارفى ونحن نتمشى فى خضرة حديقة «راسل سكوير» فى لندن - فلم يظهر عليه أنه يعرفه أو سمع باسمه ، وأنا أعزو ذلك الآن

إلى الغيرة الطبيعية التي يحملها البعض إزاء زملائهم من المشتغلين «بالمهنة» ذاتها . ولماذا أذهب في ذلك بعيدا؟ لقد أخبرني صديق منذ أيام قليلة أن مجلة متخصصة في النقد الأدبي تصدر خارج مصر أرادت أن تستكيني ، فسألت عن عنواني اثنين من زملائي أعرفهما «حق المعرفة» وعملت معهما في أماكن مختلفة طيلة ما يزيد عن ربع قرن من الزمان ، فاتفقا على القول بأنهما لم يسمعا باسمي من قبل . ومن الحق أن أقول إنني وقد تقلبت بي الأيام لم أحزن الآن لتجاهلي كما حزنت آنذاك لتجاهل محمود قاسم ، بل أننى لم أصب بأى قدر من الدهشة .

حين عدت من بعثتي إلى إنجلترا كان محمود قاسم قد أمضى في عمادة دار العلوم سنين عددا ، وكان قد أصبح نجما لامعا في الإدارة والأستاذية ، كما أصبح ذا نشاط سياسى في التنظيم الوحيد لذلك العهد ، وهو «الاتحاد الاشتراكي» وكان قد خاض لتوّه معركة حول تطوير مناهج دار العلوم ، كان شررها - حين عدت - مايزال متطائرا وقد فتح لى صدره ومهد لى الاقتراب منه فى محاولة واضحة لكسبى إلى جانبه ، وقد اعتقد معارضوه أن ولائى الطبيعى لا بد أن يكون لهم هم . فمنهم القسم الذى خرجت منه مبعوثا ، والقسم الذى عدت فيه مدرسا . وأنا لأريد الآن الحكم على نوايا محمود قاسم أو نواياهم ، وإنما أصف أفعاله ، لافى القضية التى كانوا يشتجرون حولها ، وإنما فى موقف الطرفين منى ، ومدى قبولهما لأفكارى وتصرفاتى .

كان محمود قاسم يناقش معى كل أمر ، ويستمع إلى آرائى فى صبر ، وكنت حريصا على أن أتحدى بالموضوعية : فأسلم له بما لأستطيع الدفاع عنه ، وأدافع عن المسائل التى أستطيع تقديم حجج عليها . وقد بدا لى أنه يقبل ذلك منى بدليل استمرار علاقتنا - مع ذلك - ونموا مع الأيام وكانوا هم يصمونهم بكل عيب ، ويستخدمون مقولة «دار العلوم» من ناحية عاطفية ، ويطلبون منى - وإن لم يكن

ذلك صراحة - أن أكون حليفهم دون قيد . وكنت أرى نفسى أكبر من أن أنقاد لأحد ، لذا فقد سارت أمورى - مع الأيام فى طريقه أكثر مما سارت فى طريقهم ، وحين عقدت مهزلة مايسمى بانتخابات «المكتب التنفيذى» فى الجامعات ، وتكتل الطرفان كل فى جانب ، أبدت حيدتى ، وعبرت عن وجهة نظرى علانية ، وفى الانتخابات اخترت من اعتقدت أنه يمثل الجماعة «وكان اختياري قائمتى من الطرفين» . وقد لاحظت أن موقفى هذا لم يغضب محمود قاسم ، فهو لم يغير من معاملتى بعد ذلك ، فى حين أنه أغضبهم ، فاعتبرونى منذئذ حليفا له ، وكلمة «حليف» كلمة مهذبة ، وإلا فقد سمعت أنهم كانوا يصفوننى بأئى «تابع» و«ذيل» إلى آخر هذه الأوصاف التى هى لغة المجالس التى تعقد فى الدهايز فى حياتنا .

قضى محمود قاسم فى عمادة دار العلوم عشر سنوات كاملة . وكانت هذه السنوات - وبخاصة نحو نهايتها - مثيرة لكثير من الجدل ، ولست فى موقف يمكننى الآن من تقييم إنجازاته فيها على وجه الدقة ، ولكننى أتذكر الآن أن بعض ما اكتشفها من أحداث كان مثيرا لخيال «المراقب المتفرج» إلى أقصى حد ، يهزمه خصومه فى الانتخابات الحزبية فى أول الصيف ، ويقضون وقتا مليشا بالأمل فى أنه لن تجدد له العمادة ، حتى إذا جاء الخريف فاجأ الجميع بتجديد عمادته ، فيتحول الرجاء إلى خيبة ، وحين يتكرر ذلك يصبح شبيها بالنهايات المفاجئة للميلودراما .

حين كنت أقضى سنوائى الأربع المعجاف فى الجزائر (١٩٦٩ - ١٩٧٣) جاء إليها محمود قاسم فى مهمة علمية ، وجلس بين على النشار وعبد الحليم محمود فحقق لى بذلك كشفا آخر فى شخصيته ، كنت قد ظننت أنه الوتر المشدود إلى أقصاه ، فلما رأيته بين على النشار (النار المشتعلة) وعبد الحليم محمود (الصخرة الصامته الراسخة) بدا لى هو الجدول ، المتفرق ، العذب ، الزلال . وزادنى ذلك قربا منه ، كما ازدادت معرفة به فى جو الغربة ، وإطلاعى على ما يعتمل فى فكره ،

وملاحظتي لحسه الاجتماعى ، ومستواه الرفيع فى جوانب كثيرة من شخصيته ، وبخاصة فى عادات الطعام ، والترويح ، واللبث ، والكلام على السجية ، والتحرر من القيود .

ثم جاء مرة أخرى إلى الجزائر ، وكان قد أحيل إلى التقاعد ، وظهرت عليه أعراض المرض . كان أهدأ نفسا هذه المرة - وذلك على عكس ما قدرت - ذكورا لأيام الماضى الساخنة دون غضاضة أو مرارة ، وكانت هذه الناحية هى الإشارة التى لاتخطئ إلى معدنه الكريم . وأتذكر - بصفة خاصة - الأحاديث الممتدة بينى وبينه ونحن نتجول ذات ليلة فى ساحات مطار الجزائر فى انتظار طائرة متأخرة تحمل السعيد بدوى من أوروبا - سبع ساعات كاملة فى حوار مستمر ، دون راحة ولو بالجلوس ، يقيم لى حياته ويلخص لى أفكاره وما حارب من أجله ، وما ربح فى ذلك ، وما خسر ، ويشرح لى ما بدا وقت حدوثه غامضا على . وتلتقط ذاكرتى الآن واحدة من الحكايات التى كانت قد حدثت لى معه قبل سنين طويلة ، والتى فسرنا لى تلك الليلة .

حدث ذلك يوم أن كنت مدرسا شابا فى دار العلوم ، عائدا لتوى من أوروبا ، وكان هو عميدا . وكان أحد أساتذتى المقربين يعمل وكيلا للكلية ، وقد نشبت بينه وبين العميد خلافات حادة . وذات يوم - وكان الوقت رمضان - رأيت محمود قاسم يدخل من باب الكلية مرهقا متجهما ، فعزوت ذلك إلى وطأة الصيام ، وضغط العمل ، وما أن استقر فى مكتبه حتى دخلت عليه ، وكان أول ما فتح الله به على أن كلمته فى أمر الصلح بينه وبين أستاذى الوكيل ، وألقيت عليه شبه موعظة فى فضيلة التصالح ، ومناسبة الشهر الفضيل ، وما إلى ذلك . وقد فاجأنى بثورة عارمة على ، ووجه لى ما لم أتعوده منه قط طيلة علاقتنا . وقد لذت بالصمت ، ثم لاذ به هو كذلك . وحين أصبح جرو الجلسة ثقila قطعته بطلب

الإذن بالانصراف فاستبقاني ، وخضنا في أحاديث شتى حتى وقت العصر ،
 فعرض على أن يوصلني إلى محطة المترو فوافقت ، وفارقه هناك دون تعليق على
 ما حدث منه أو منى . وفي تلك الليلة الصيفية الجزائرية - وكنا قد قطعنا مسافة
 طويلة حول أحد أضلاع السياج الأخضر الذى يحيط بالمطار - توقف فجأة وقطع
 حديثه فتوقفت بتوقفه وسألنى : أتذكر تلك الحادثة التى جرت بيننا من سنين ،
 وذكرنى بها (وكان يذكر كل تفاصيل ما جرى) ؟ فأجبته : بالطبع أذكر ذلك .
 قال : ألم تر أن رد فعلى يومئذ كان غريبا على محاولة منك تبدو كريمة ؟ قلت :
 لقد كان كذلك بالفعل . قال : لماذا إذن لم تستفسر منى عن السبب طوال هذه
 المدة ؟ قلت : لم أر لذلك محلا ، وبخاصة أن ذلك لم يؤثر على علاقتنا شيئا .
 قال : ومع ذلك لا بد أن أقدم لك السبب ؛ لقد كنت عائدا يومها من «الاتحاد
 الاشتراكي» ، وكنت قد استدعيت صباح ذلك اليوم للتحقيق معى فى شكوى تقدم
 بها ضدى أستاذك وصديقك وكيل الكلية . ولم أعلق أنا بشيء ، ولاطلب هو
 تعليقي ، ثم تحول الحديث بنا إلى ناحية أخرى ، واستمر ، حتى أعلن مذيع المطار
 عن وصول طائرة السعيد .

حين عدت من الجزائر كنت مرهقا وحزيننا (لأسباب شرحتها فى كتاب
 سيرتى الذاتية : فى الخمسين عرفت طريقى) ، وقد ذهبت إلى دار العلوم لبعض
 شأنى ، وجلست فى ردهتها القبلية مع المرحوم حنفى شرف ، وكان رئيسا للقسم
 الذى أعمل فيه ، وقد ضيفنى بكوب من الشاي جاء ونحن نتبادل الحديث . وحين
 كان كوب الشاي فى منتصف المسافة بين فمى والمنضدة ، بدا وكأن حنفى شرف
 يقول : «من يوم أن حدث ما حدث لمحمد قاسم» .. أدهشتنى العبارة فأعدت
 كوب الشاي إلى المنضدة متسائلا : «ماذا حدث لمحمد قاسم ؟» قال حنفى شرف
 والحزن يملأ ملامحه كلها : «ألا تعلم أنه مات ؟ !» من يومها تحول محمود قاسم
 فى وجدانى إلى صورة عزيزة كبيرة تزداد ملامحها وضوحا مع الأيام .

يقول الشاعر العربي :

وقد بنيت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

و كنت أظن حين كنا نقرأ هذا البيت فى شواهد النحو أنه من تقاليد الماضى ،
وأن عاطفة الإسلام ، وآثار الحضارة ، وموضوعية العلم ، قد قضت على كل ذلك .
فلما فارقت دار العلوم سنوات أخرى وعدت إليها ، وجدت أنها قد انتقلت من مبناها
القديم فى المنيرة إلى مبناها الحديث فى آخر حرم جامعة القاهرة (قرب شريط السكة
الحديدية) . ولاحظت صاعدا هابطا طوابقها أن بعض قاعاتها قد تسمى بأسماء
بعض أساتذتها الراحلين ، وكان اسم محمود قاسم غائبا ، وقد تيقنت بذلك أن
التقليد الذى يعبر عنه بيت الشعر ، والذى كان معمولا به «فى الجاهلية» منذ أكثر
من أربعة عشر قرنا من الزمان ، لا يزال معمولا به حتى الآن ، وأن حزازات النفوس
باقية كما هى . غير أننى كنت متيقنا حتى من قبل ذلك أن قدر الرجال ليس فى
قطعة من الصفيح (لافتة) تدق إلى قطعة من الخشب (باب قاعة) ، وإنما هو فى فكرة
ناصعة يشرق بها عقل متطلع ، أو عاطفة حميمة يختلج بها قلب حنون ، وهذا
متحقق لمحمود قاسم . وصدور كتابه التذكارى شاهد صدق على ما أقول .



القسم الرابع

دراسات في فكر محمود قاسم

*حسن حنفى

*حسن الشافعى

*عبد الحميد مدكور

*محمد السيد الجليلند

*مصطفى حلمى

العقل والإصلاح عند محمود قاسم

تحية إلى محمود قاسم في ذكره العشرين

أ. د. حسن حنفى *

١ - الأستاذ العميد

الحوار بين الأجيال يصنع التاريخ . فلا تاريخ لأجيال ، لا تتحاور ، لا يصب
الجيل السابق في الجيل اللاحق ، ولا يطور الجيل اللاحق الجيل السابق . لقد نشأت
الأفلاطونية من حوارها مع سقراط إيجاباً . وبدأ أرسطو من حوارها مع أفلاطون
سلباً . ولما كانت عظمة اسبينوزا في رفضه الأخلاق المؤقتة عند ديكارت ،
وكانت عظمة هيغل في قلب اليسار الهيجلي له رأساً على عقب تكون علاقة
السلب في حوار الأجيال أكثر إيجاباً من علاقة الإيجاب . فالسلب في حقيقته
إيجاب . والإيجاب في حقيقته سلب . لقد نشأت المسيحية من حوارها مع
اليهودية سلماً ، ونشأ الإسلام في حوارها مع اليهودية والمسيحية سلماً ومع إبراهيم

* أستاذ ورئيس قسم الفلسفة . كلية الآداب . جامعة القاهرة .

والخيفية ايجابا . جدل الإيجاب والسلب هو التواصل والانقطاع ، الهوية والاختلاف . وهو الذى يحكم منطق الحوار بين الأجيال .

لقد عرفت الأستاذ العميد ، الذى رحل عنا منذ عقدين من الزمان ، وأنا طالب بقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة (١٩٥٢م - ١٩٥٦م) ونحن نسمع عنه من أساتذتنا ، يوجهوننا نحو كتبه . وتكونت فى أذهاننا صورة منه ، الرشد العقلانى ، المدافع عن الفيلسوف المفترى عليه كما كتب أحد المؤرخين من قبل عن اسماعيل المفترى عليه . كنا نبحث عن كتابه هذا فلا نجده دون أن نعلم أن الحضارة تخلق إبداعا ، وأن الفكرة تصنع رجلا ، وأن التيار ينتحل كتابا ينسب إلى صاحبه فكرا وإن لم يكن هو مؤلفه تاريخيا . تلك هى المتحولات فى الإنجيل والتوراة ، وعند أفلاطون وأرسطو ، وعند كل مبدع إنسانى فى التاريخ تحول الحضارة إلى مثال . كان أساتذتنا معتدلين فى العقلانية ، والأستاذ العميد ، كما بدا لنا من خلال الحديث عنه فى القسم «متطرفا» فيها . كانوا أساتذة مفكرين ، وكان هو صاحب قضية ومعتقد . كانوا مجرد متأملين وكان هو صاحب «أيدولوجية» . كانوا علماء وكان هو داعية . وكان القلب يحدثنا بأن أساتذتنا باردو المزاج ، متنازلون عن حقوقهم وحقوق أوطانهم وكان هو حار المزاج يدافع عن حقه وحتى الأمة . لم يكن العقل وحده هو الذى يجمع بين الفلاسفة بل أيضا الإصلاح ، العلم والوطن ، النظر والعمل ، النقل والإبداع ، الفكر والالتزام . كانت شهرته تصل إلينا، صورة بناها لنا أساتذتنا وزملاؤه . قدرناه وخشيناه ، عظمناه ورهبناه . كان البعيد القريب ، الخفى المرئى ، الغائب الحاضر مع أن «دار العلوم» كانت فى ذلك الوقت على الضفة الأخرى من النهر ، بعد عبور كوبرى عباس الذى ورثه كبرى الجامعة .

ثم تفرقت بنا السبل والأيام . فبعد عقد آخر من الزمان (١٩٥٦ - ١٩٦٦)

عرفته عن قرب^(١) . أصبح البعيد قريبا ، والخفى مرثيا ، والغائب حاضرا . رأيت الأستاذ العميد فى «دار العلوم» . ذهبت إليه لأفاته فى إحياء الجمعية الفلسفية المصرية . وكان أحد أعضائها المؤسسين فى الأربعينات . أخبرنى بالسلسلة التى يصدرها «سلسلة الدراسات الفلسفية والأخلاقية» وأنه على أتم استعداد لاستئنافها معى ومع عديد من المدرسين الشبان^(٢) ، وكنت قد بدأت إعداد نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط . ولما قرأه عرفنى بأحد المعيدى الشبان لإصلاح الأسلوب العربى ، فقد كانت أول محاولة لى فى التأليف والترجمة^(٣) ، فقام بدوره خير قيام ، نموذجاً فى العمل الجماعى الذى يشرف عليه ويوجهه الأستاذ العميد . وفى إحدى زيارات على سامى النشار إلى دار العلوم لمناقشة إحدى الرسائل اقترح أن أنشرها لديه بالإسكندرية فى «دار الكتب الجامعية» واقترح نفس الشئ على محمد كمال جعفر فى باكورة أعماله «فى الفلسفة والأخلاق» وأصر على أن نأخذ جزءاً من حقوقنا ما دمتنا سلمنا المخطوط . وفرحنا بذلك خاصة وأنه كان بمثابة ثلاثة أضعاف مرتبنا الشهرى^(٤) . كانت الزيارة والمناقشة مهرجاناً فلسفياً بجامعة القاهرة . يستقبله المدرسون الشبان والمدرسون المساعدون والمعيدون والطلاب بمحطة مصر فى الديزل القادم العاشرة صباحاً . ويصحبونه فى موكب مهيب إلى دار العلوم . وبعد المناقشة يذهب الركب بعد أن يزداد من جمهور المستمعين إلى الحسين لتناول الغداء على مائدته ، وينفق أضعاف ما تعطيه الجامعة فى ذلك اليوم . كنا سعداء بالجماعة، وبتراث مصطفى عبد الرازق الذى

(١) عرفت فى نفس الوقت على سامى النشار بالإسكندرية أثناء مؤتمر المبعوثين فى الإسكندرية فى أغسطس ١٩٦٦ ، وعبدالرحمن بدوى فى عين شمس وكان فى طريقه إلى الكويت . أما أبو ريدة والأهوانى ومحمد مصطفى حلمى فقد تلمذت عليهم فى سنوات الدراسة بالجامعة ، أبو ريدة فى الثانية ، (علم الكلام) والأهوانى فى الثالثة (الفلسفة) ومحمد مصطفى حلمى فى الرابعة (التصوف) .

(٢) كان قد رجع قبلى من إنجلترا المرحوم محمد كمال جعفر ولم يكن قد نشر شيئاً من قبل .

(٣) وكان هو حامد طاهر ، أستاذ ورئيس قسم الفلسفة بكلية دار العلوم الآن .

(٤) كان مرتبنا اثنين وثلاثين جنيهاً فى ذلك الوقت .

من هذه السنة ، الأستاذ صاحب المدرسة انذى يرعى طلابه كما يرعى الأب أبناءه . وكنا نسمع تحيته للمدرسين الشباب من على المنصة أثناء المناقشة ، وهم جالسون بين الحضور ، فترفع المعنويات بعد الإشادة بنا بالرغم من أننا لن نكون بجانبه قبل عشر سنوات ، أساتذة كاملين.

كنا نتحدث مع الأستاذ العميد فى شعبون الفلسفة الإسلامية ، والجامعة والأساتذة ، وما ألم بالوطن من حدث أليم بعد هزيمة ١٩٦٧ . أسأله عن رأيه فى بعض المؤلفات الصادرة حديثا فيجيب بأنه سيقروها فى حينها عندما يحين وقت ترقية الأستاذ ، عند ما يقرأ أعماله كلها وقيمها . كان يقرأ أعمال بعض الزملاء وسألته عن رأيه وتقييمه فأجاب : «قال فلان ، قال علان ، لا أكثر» . أدركت حينئذ عيوب النقل عن الآخرين دون الدراسة والتحقيق ، دون الأصالة والإبداع .

كان يأخذنى بعرفته أحيانا من دار العلوم إلى الجامعة وهو فى طريقة إلى منزله وكان يسكن فى ميدان نادى أعضاء هيئة التدريس بالدقى . كنا نستدعى ذكريات أيام الدراسة فى فرنسا ، هو فى أواخر الثلاثينات حتى منتصف الأربعينات وأنا بعده بحوالى عشرين عاما من منتصف الخمسينات حتى منتصف الستينات أيام التكوين التى لا تنسى ، حيث الأساتذة والمدارس الفلسفية والاتجاهات الفكرية ، حيث المحاضرات والمنتديات والمكتبات ، وحيث حياة الفن والعشق والإبداع بلا خوف من تقاليد أو رهبة من حرمات . كنا نتحدث فى الحياة ، فكرها بالنهار وعشقها بالليل ، كما كنت أسمع من قبل حديث «الإخوان» «فرسان بالنهار ، رهبان بالليل» . أراد أن يدعونى إلى الغداء ذات مرة فى منزله ، كما يفعل الأب ، وكنت على موعد فى الجامعة وربما مع العلم ولم أدر أيهما أختار ؟ واخترت الجامعة لأننى كنت أعشقها . كنت فى ذلك الوقت روحا وعقلا . ولم أكن أعرف لى طريقا سواه . كنت مغرقا فى المثالية إيما إغراق وكأنتى لا بدن لى . كنت قلقا

على مشروع «التراث والتجديد» فأين لى بالاستقرار ؟ وكيف أوفى بمتطلبات البدن ومرتبى لا يكفى إلا لشراء بعض الكتب ؟ فأين لى فى غير الفكر طريق ؟ كانت صحبة الأستاذ العميد الدائمة تدفعنى إلى القبول ، ورغبتى فى إكمال نفسى تمنعنى من ذلك . كنت أذهب إلى «دار العلوم» بالمنيرة ، أتعرف على أساتذتها الكبار ومدرسيها ومعيديها الشبان ، وعلى طلبتها وطلباتها بين السفور والحجاب . فقد بدأ السفور يقل والحجاب يزداد بعد هزيمة ١٩٦٧ . كنت أشهد بالراحة فى دار على مبارك وتمثاله يتوسط الفناء ، دار رشيد رضا وحسن البنا وإبراهيم بيومى مذكور بطرازها الإنجليزى الخشبي وفنائها الواسع ، ورداتها الطويلة وتوسطها القاهرة . ثم عشتُ الهزيمة فكراً . وبدأت فى إعادة بناء روح الأمة ، وتصحيح علاقة الأنا بالآخر ، إعادة بناء الأنا وتحجيم الآخر . كان الأستاذ العميد يخبرنى أن ما أفعله أنا فى الثقافة العامة ومع رجل الشارع يفعله هو فى مجلس الجامعة ، فأنا شيخ مع الشبان فى الطريق العام ، وهو شاب مع الشيوخ فى مجلس الجامعة^(١) .

وبعد صرخات عدة فى الفكر المعاصر والكاتب والمجلة وثرث الإنسانية بالقاهرة والآداب ببيروت ضجعت الجامعة منى ، ووضعتنى السلطات على القائمة السوداء . أثرت الجامعة أن أرحل مؤقتاً حتى تهدأ العواصف أو أهدأ أنا من إثارة الزوابع . فغادرت فى سبتمبر ١٩٧١ أستاذا زائراً بجامعة تمبل بمدينة فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية للعمل مع اسماعيل الفاروقى هناك . وذهبت إلى وداع الأستاذ العميد . وكان الوداع الأول والأخير^(٢) .

(١) وقد صدرت هذه المحاولات بعد ذلك فى «قضايا معاصرة» (جزءان) ١- فى فكرنا المعاصر ٢- فى الفكر العربى المعاصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٦ .

(٢) لم يقبل الأستاذ العميد الإعارة ، وقد كانت متوافرة بعد مسلسل نشأة الجامعات العربية ولكنه أثر عدم ترك جامعته وطلابه وآثاره .

٢- الرشدى العقلانى

يمكن تصنيف أعمال الأستاذ العميد إلى ثلاث مجموعات : المؤلفات ، والتحقيقات ، والترجمات . وكما ظهرت شخصية الأستاذ العميد من الذكريات تظهر عدة شخصيات أخرى من الأعمال : الرشدى العقلانى ، والصوفى الذوقى ، والمنطقى المنهجى ، والمصلح الدينى من المؤلفات ، والمعتزلى الفيلسوف من التحقيقات ، والاجتماعى الوضعى من الترجمات ، وبلغتنا يمكن القول إن المؤلفات تصب فى جبهتنا الأولى ، موقفنا من التراث القديم ، والترجمات تصب فى جبهتنا الثانية ، المواقف من التراث الغربى ، والإصلاحات من المؤلفات تصب فى جبهتنا الثالثة ، موقفنا من الواقع أو نظرية التغير .

وتظهر شخصية الرشدى العقلانى منذ رسالته الكبرى لدكتوراة الدولة «نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الاكوينى» التى قدمها إلى السربون فى ١٩٤٥ ، والتى قام بترجمتها إلى العربية بعد عودته إلى أرض الوطن^(١) . يدافع عن ابن رشد ضد تحريف الشراح اللاتين له وجعله أفلاطونيا أفلوطينيا يقول بالفيس ، أو ماديا يقول بفناء النفس ، أو بقدم العالم ، أو ملحدًا ينكر الله والوحى أو يقول بحقيقتين : الدين والفلسفة . الرسالة كلها مكتوبة ضد الأخطاء الشائعة لدى المستشرقين والباحثين من أجل إخراج ابن رشد عن التراث الأرسطى والإسلامى وحصاره ، وبالتالي إخراجاه عن كونه مصدرا من مصادر النهضة الأوربية الحديثة

(١) محمود قاسم : نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الاكوينى ، الطبعة الثانية ، سلسلة «الدراسات الفلسفية والأخلاقية» الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٩ .

La Theorie de La connaissance d'Averroes et son interpretation chez Saint Thomas d'Acquin .

ويصعب معرفة سنوات الطباعات الأولى لمؤلفات الأستاذ العميد . فمعظمها تبدأ بالطبعات الثالثة والرابعة فى الستينات . وبالتالي يصعب عرضها وترتيبها زمانيا لمعرفة تطوره الفكرى وتطور اهتماماته وتنوع موضوعاته . وبعض الطباعات الأولى خلو من سنوات النشر .

أرجع الرشدي العقلاني ابن رشد إلى حظيرة الإيمان ، وأعاد الفقيه أبا الوليد إلى قرائه الإسلامى الذى خرج منه ، ابن رشد هو الأرسطى الصحيح الذى فهم أرسطو كما هو عليه دون تحريف الشراح الأفلاطونيين . فكما صحح ابن رشد فهم الشراح لأرسطو كذلك صحح الرشدي العقلاني فهم الشراح اللاتين والمستشرقين المحدثين لابن رشد . المعرفة لديه تجريد صاعد من الحس إلى العقل وليست هابطة من العقل الفعال إلى القلب بالرغم من نظرية الاتصال . والعالم لديه فى خلق مستمر موجود فى لازمان وبالتالي فهو قديم ومخلوق فى الزمان وبالتالي فهو حادث وللعلة الغائية الأولوية على العلة السفاعة . ومن ثم يكون مذهب ابن رشد عقلانيا وليس إشراقيا واقعيا وليس مثاليا . وأحد أسباب الأخطاء فى فهمه إما التحيز ضده أو الخلط بينه وبين أستاذه ابن طفيل . وبالتالي يخطئ مونك ورينان فى جعلهما ابن رشد من أنصار الفيض والمعرفة الإشراقية . ومع ذلك فقد أنصف مستشرقون آخرون ابن رشد وفهموه فهما صحيحا وأصدروا عليه أحكاما صائبة . يعتمد الأستاذ العميد على دراساتهم ، ويستفيد منهم فى حجاجه العام وذلك مثل آسين بلايوس ولا يتعرض لما اعتاد عليه المستشرقون والباحثون من تتبع لأثر الحضارة اليونانية فى الحضارة الإسلامية بل أثر الحضارة الإسلامية فى الحضارة الأوربية الحديثة فى إحدى مراحلها ، مرحلة المصادر ، فابن رشد أثر فى اللاتين ، وكان له أتباعه من الرشديين اللاتين . عرفه توماس الاكوينى وتشيع به ، واستفاد من آرائه . لا يؤثر الآخر فى الأنا فقط من أجل تفريغ الحضارة الإسلامية من مضمونها الإبداعي ومن أصالتها بل يؤثر الأنا فى الآخر من أجل كشف مؤامرة الصمت التى ضربها الوعي الأوربى حول مصادره من أجل خلق أسطورة الإبداع الأوربى الأصل ، الذى على غير منوال ، بل إن أثر ابن رشد على توماس الاكوينى ليس مجرد توارى خواطر بل اقتباس واستعارة ونقل مادامت الغاية لإثبات صحة الإيمان وسلامة العقائد . ويبين الرشدي العقلاني أصالة ابن رشد . فهو ليس مجرد شارح

لأرسطو بالرغم من إعطاء اللاتين له لقب «الشارح الأعظم» . بل أعاد ابن رشد بناء أرسطو من منظوره الخاص ، وأعاد تركيب الحضارة اليونانية كلها من داخل الحضارة الإسلامية وعلى أساسها . وقد استعمل الرشدي العقلاني منهج النص حتى يصدر الحكم الصحيح على الفيلسوف . ويعيب على جلسون أكبر المتخصصين في العصر الوسيط خطأ أحكامه على ابن رشد ويرجعها إلى جهله باللغة وإلى استقاء معلوماته عن ابن رشد من ترجماته وشروحه وتأويلاته . فهو من تلاميذ مصطفى عبدالرازق واضع هذا المنهج ، ويستأنف مدرسته .

وينقد الرشدي العقلاني مدارس علم الكلام كما فعل ابن رشد في «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة»^(١) . وبالرغم مما يعيب المقدمة من أسلوب خطابي، ونزعة سلفية ومنهج تاريخي ، وتكرار الحجج ابن رشد ضد المتكلمين خاصة الأماعرة إلا أنها تمثل نزعة عقلية برهانية ترى أن أقصى ما وصل إليه علم الكلام هي الأقاويل الخطائية أو الجدلية على أكثر تقدير . وتظل المعركة في نطاق القديم ، الانتصار للفلسفة ضد الكلام والتصوف والعقل البرهاني ضد الأماعرة والصوفية . وتضع المقدمة ابن رشد في إطاره التاريخي إما في ظروف عصره وحوادث الأندلس في القرن السادس الهجري وسيطرة الفقهاء والصوفية أو في إطار علم الكلام الأشعري . فيذكر أدلة الماتريدي وأدلة الصوفية قبل عرض أدلة ابن رشد ويظل الهدف كما قال في الرسالة الأولى الدفاع عن ابن رشد ضد اتهامه بالمروق

(١) هذا هو موضوع رسالته الثانية (التكميلية) للحصول على دكتوراة الدولة من فرنسا Les Dogmes re-

ligieux chez Averroès وهي ترجمة لكتاب «مناهج الأدلة» ومقدمة نقدية له . وقد نشر النص العربي والمقدمة بعد ذلك بعنوان «مناهج الأدلة في عقائد الملة» لابن رشد مع مقدمة في نقد مدارس علم الكلام ، سلسلة في الدراسات الفلسفية والأخلاقية ، يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة ، الطبعة الثانية ، الأنجلو المصرية ١٩٦٤ . وكان نفس النص قد نشر من قبل في ١٩٥٥ مع مقدمة جديدة في نقد مدارس علم الكلام وهي نفس المقدمة الفرنسية الأولى .

والزندقة أو الابتعاد عن الدين نظرا لجهل القراء بآرائه .

ثم يكرر الرشدي العقلاني نفسه مرتين : الأولى في «ابن رشد وفلسفته والدينية» إذ لا يضيف على مقدمة «مناهج الأدلة» إلا فصلا عن حياة ابن رشد أوجزه الكتاب الأول ، ويلخص فصل «التوفيق بين الدين والفلسفة عند ابن رشد» ويضيف فصلا عن بواعث البرهنة على العقائد . ثم تتكرر الموضوعات مع تغيير بعض الألفاظ : أدلة على وجود الله في الأول والبرهنة على وجود الله في الثاني ، الوجدانية ومشكلة الصفات والذات في الأول والوجدانية ، الصفات في الثاني ، الجهة والرؤية في الأول ومخالفته تعالى للحوادث في الثاني ، العدل والجور والقضاء والقدر في الأول والعالم والإنسان في الثاني . ويستمر الدفاع عن ابن رشد ضد اتهامه بالتطرف في نقد الفقهاء^(٢) . ويصف محنته وكأنها محنة الفيلسوف في كل عصر .

ويظهر التكرار في الكتاب كله لأنه نفس الكتاب السابق بعنوانين مختلفين . فكتاب «ابن رشد وفلسفته الدينية» (الطبعة الثالثة) هو نفسه كتاب الفيلسوف المفترى عليه ابن رشد مما يدل على تراجع العنوان من الالتزام إلى الحياد ، ومن القضية إلى التقرير^(٣) .

ثم يذوب ابن رشد في المنهج الموضوعي المقارن باختيار أحد الموضوعات مثل «النفس والعقل» ومقارنة فلاسفة الإغريق وفلاسفة الإسلام في هذا الموضوع^(٤)

(١) محمود قاسم : ابن رشد وفلسفته الدينية ، سلسلة الدراسات الفلسفية والأخلاقية (الطبعة الأولى ١٩٦٤) ، الطبعة الثالثة ، الأنجلو المصرية ١٩٦٩ .

(٢) «إن كثيرا من مؤرخي الفلسفة - إن في الغرب وإن في الشرق - قد أساءوا إلى فيلسوفنا بقدر ما استطاعوا ، وأحيانا بقدر ما جهلوا من آرائه الصحيحة وقد حاولنا قد طاقنا وفي حدود الحق وما نعلم من فلسفته أن نلغ عنه شرهم وجهلهم ، نريد بذلك وجه الله وحده» المصدر السابق ص ١٩٧ .

(٣) محمود قاسم : الفيلسوف المفترى عليه ابن رشد ، في نفس السلسلة وعند نفس الناشر وبلا تاريخ .

(٤) محمود قاسم : في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام ، سلسلة الدراسات الفلسفية والأخلاقية الطبعة الرابعة ، الأنجلو المصرية ١٩٦٩ .

يظهر ابن رشد هنا جزءاً من كل ، فيلسوفاً ضمن فلاسفة إسلاميين ويونانيين حتى يظهر إبداعه وتفرده . وقد تم اختيار هذا الموضوع لأن الإنسانية بعد أن اتجهت إلى الكون وعجزت عن إدراك سره اتجهت إلى النفس لسبر أغوارها . وتستأثر النفس بستة فصول ، والعقل بثلاثة مما يدل على أولوية النفس على العقل ، وأن العقل إحدى قوى النفس . ويظهر المنهج التاريخي في عرض الموضوع عند سقراط ثم عند أفلاطون نظراً لبدية الفكر الفلسفي عند اليونان . ثم تتم المقارنات بين اليونان والمسلمين في تعريف النفس والبراهين على وجودها وروحانيتها وفي وحدة النفس الإنسانية عند أرسطو والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد وتوماس الإكويني . كما تتم المقارنة في الصلة بين النفس والبدن وفي خلود النفس بين الفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد وتوماس الإكويني . وفي العقل تتم مقارنة أرسطو والإسكندر الأفروديسي وثيمستيس والأفلاطونية المحدثة من المسلمين ثم الفارابي وابن سينا والغزالي وابن باجة وابن طفيل وابن رشد وتوماس الإكويني . وفي وحدة العقل تتم المقارنة بين ابن رشد والرشدية اللاتينية وتوماس الإكويني . ويعرض الفصل الأخير لنظرية ابن رشد في الاتصال والدفاع عنها ضد تشويه مونك لها . ولا يتعرض الرشدية العقلاني للكندى أو الرازي (محمد بن زكريا) أو العامري أو أى فيلسوف بعد ابن رشد مثل صدر الدين الشيرازي وكأن الفكر الفلسفي توقف عند ابن رشد لا قبله ولا بعده ويذكر الغزالي فيلسوفاً وهو أقرب إلى الصوفي ، ولا يذكر أحداً من اليهود والنصارى . وعلاقة ابن رشد بابن ميمون معروفة . ولا يقارن مع الفلسفة الحديثة والتيار العقلاني فيها ، وهو أثر من آثار ابن رشد . أحيانا يقترب التأليف من الكتاب الجامعي ، ويستسلم الرشدية العقلاني إلى الأستاذ الجامعي .

٣- الصوفي الدوقي

وبعد «الرشدية العقلاني» يظهر جانب «الصوفي الدوقي» أو «الدوقي الخيالي» دون أن يتخلى الأستاذ العميد عن «الرشدية العقلاني» إذ أنه يقوم بعدة دراسات

متفرقة عن التصوف بالمنهج العقلى النقدى خاصة عن نشأة التصوف ، والغزالي ، وابن عربى ، والمحاسبى ، ومعظمها فى كتابه «دراسات فى الفلسفة الإسلامية»^(١).

ويؤرخ الكتاب فى مقدمة لمناهج الدراسة للفلسفة الإسلامية ويصنفها فى منهجين : الأول المنهج التاريخى الذى يغلب على دراسات المستشرقين . والثانى المنهج الموضوعى الأقل استعمالا . المنهج التاريخى أسهل وأيسر . يعتمد على الوثائق وتحليلها ، ويتعامل مع مادة واضحة . ومع ذلك تجعله كثرة الجزئيات أحيانا يفقد الرؤية الكلية للموضوع . أما المنهج الموضوعى فيتناول الموضوعات مباشرة دون تفاصيلها التاريخية ، ويحدد المشكلات والقضايا ، ويدرسها دراسة مقارنة . يحلل ويركب من أجل اكتشاف بنية الموضوع . وقد بدأت الدراسات فى مصر بالمنهج الأول^(٢) . ثم تلاه المنهج الثانى الذى حاول الأستاذ العميد استعماله لدراسة نشأة التصوف بالرغم من أهمية المنهج الأول وما يتطلبه من نقد داخلى وخارجى للنصوص^(٣) . والأفضل الجمع بين المنهجين ، التاريخى والموضوعى أو كما يقول جيلنا فى هذه الأيام التاريخى والبنىوى . توضع الفلسفة الإسلامية أولا فى إطار عام من التراث الإسلامى ، وضعا للجزء فى إطار الكل . فيلخص الأستاذ العميد أولا الفصل الأول «فكرة النفس فى الفلسفة الإسلامية» من كتاب سابق «فى النفس

(١) محمود قاسم : دراسات فى الفلسفة الإسلامية ، الطبعة الثانية سلسلة المكتبة الفلسفية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ «والكتاب مهدى إلى الصديق الأستاذ الدكتور محمد على أبو ريان الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية تعبيرا عن المودة التى جمعت بيننا دائما فى صفاء الأخوة وجميل اللقاء فى دراستنا الفلسفية الإسلامية» .

(٢) وكان على رأس هذه المدرسة مصطفى عبدالرازق وتلاميذه : محمود الحضرى ، محمد عبدالهادى أبو ريدة ، على سامى النشار الامتداد الفعلى فى دراساته عن علم الأصول وعبدالرحمن بدوى ، ومحمد على أبو ريان .

(٣) وذلك عند إبراهيم بيومى مذكور ، محمد مصطفى حلمى ، عبدالحليم محمود ، محمود قاسم . دراسات فى الفلسفة الإسلامية مقدمة ص و - ج .

والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام» كما يلخص الفصل الثاني «ابن رشد ومنهجه في التوفيق بين العقل والدين» من كتاب سابق «ابن رشد وفلسفته الدينية» . ولكن الجديد هي الفصول الأربعة الأخيرة من الثالث حتى السادس عن التصوف. الفصل الثالث «لمحة عن نشأة التصوف» بحث تقليدي حول اشتقاق اللفظ ، والصلة بين التشيع والتصوف ، وموقف العرب (الموالي) من الإمام على و المخطط السرى واستغلال محبة المسلمين لآل البيت ، مما يوقع في نظرية المؤامرة لتفسير حوادث التاريخ . ويرفض رأى طه حسين في مسألة انكار وجود عبدالله بن سبأ وينقد فكرته عن الشعور بالندم لتفسير نشأة التشيع^(١) . والفصل الرابع دراسة عن المحاسبي حياته ، وموقف الفقهاء وأهل الظاهر منه وكتبه ، كتاب الوصايا ، وكتاب الرعاية لحقوق الله ، وكتاب التوهم ثم إيراد بعض مآثورات من أقواله^(٢) . والغاية إثبات أن التصوف إسلامي وأخلاقي ، بعيد عن النظرات المتأخرة في الجنوح نحو الخاصة والتعالى على الخلق ، ومساواة الصوفية بالأنبياء في المعجزات والكرامات ، والتفرقة بين الشريعة والحقيقة .

والفصل الخامس «الغزالي ومذهبه في العقل والتقليد» هو أطول الفصول^(٣) . ويبدأ بتاريخ حياته الاجتماعية والفكرية ثم موقفه من العقل ، تمجيده له وثقة به ، واعتباره ميزان الحق مع الموازين القرآنية ، ميزان التعادل بأشكاله الثلاثة الأكبر والأوسط والأصغر ، وميزان التلازم وهو القياس الشرطي المتصل ، وميزان التعاند وهو القياس الشرطي المنفصل ، ثم حدوده وتجاوزه . ثم يبين موقف الغزالي من التصوف ، طور البصيرة والمشاهدة وحدوده وهدم فكرة الحلول وفكرة الاتحاد . ثم

(١) المصدر السابق ص ٩٧ - ١٢٣ . وقد كان بحثاً ألقى بهدار العلوم بحلقة البحث لأعضاء هيئة التدريس بالكلية بتاريخ ١٩٦٥/٣/٢٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٤ - ١٤٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤١ - ١٩٤ وقد ألقى كبحث في مهرجان الإمام الغزالي بدمشق عام ١٩٦١ .

يعرض موقف الغزالي من إيمان التقليد ، تقليد المذاهب الكلامية ، وتقليد الباطنية ، وتقليد الفلاسفة ، وتقليد العامة ، والمعجيب أن الرشدي العقلاني لم يدخل في معركة «تهافت الفلاسفة» و«تهافت التهافت» ولا ينصر ابن رشد الفيلسوف على الغزالي كما نصره في «مناهج الأدلة» على المتكلمين . بل أشاد بموقف الغزالي ومذهبه في العقل والتقليد ، واعتبره عقلانيا اعتمادا على كتبه المنطقية دون التعرض لنقد الغزالي للعقل ودعوته إلى الذوق في آخر المطاف . لم يتعرض لظاهرة الغزالي وكيف أنه هو الذي قضى على التعددية الفكرية ، وانتصر للعقيدة الأشعرية كأيدولوجية للسلطة وللتصوف كأيدولوجية للطاعة . الأولى للحاكم ، والثانية للمحكوم ونقده لكل صنوف المعارضة ، العلنية السلمية في الداخل مثل المعتزلة في «الاقتصاد» والعلنية المسلحة في الخارج مثل الخوارج ، والسرية في الداخل مثل الشيعة في «المستظهر» أو فضائح الباطنية . صحيح أن الغزالي نقد الاتحاد والحلول ولكنه نقدها كأفكار للمعارضة السياسية وكان يقول بالمعرفة الصوفية للخاصة ، وإلجام العامة . وإذا جاز تقليد العامة للفقهاء فإنه لا يجوز تقليد المتكلمين أو الفلاسفة أو الصوفية . وكيف يقبل الرشدي العقلاني التقليد ، تقليد العامة؟

والفصل السادس والأخير «تربية الطفل بين الإمام الغزالي وجان جاك روسو» يبين أهمية الطفولة في التراث الإسلامي وفائدتها وضرورة تهئية البيئة الملائمة لنمو قوى الطفل عقليا وأخلاقيا^(١) . ليست التربية فقط حياة بل إعداد للحياة . ويقارن بين أفكار الغزالي وأفكار جان جاك روسو في كتابه «إميل أو التربية» ونظريات كلاباريد مما يدل على سبق الغزالي بسبعة قرون . وتتم المقارنة بينهما على نحو متسرع . فكلاهما يلجأ إلى التربية الطبيعية . ولا ينقد الأستاذ العميد مناهج التربية الحالية التي تقوم على الردع والمنع والزجر والإرهاب .

(١) المصدر السابق ١٩٥ - ٢١٩ وقد ألقى كمحاضرة بمعهد المعلمين بالكويت في ١٣/٤/١٩٦٧ .

ويدرس الصوفى المتذوق «الخيال فى مذهب محيي الدين ابن عربى» ليجمع بين العقل والقلب مستعملا المنهج العلمى الذى ينتقل من الجزئيات إلى الكليات ، وليس المنهج البنيوى الذى ينتقل من الكليات إلى الجزئيات^(١) . الأول هو المنهج الاستقرائى الصاعد ، والثانى هو المنهج الاستنباطى النازل . يدرس التصوف حقا باعتباره أدبا . فالخيال صنعة الصوفية والشعراء ، والصوفى المتذوق صوفى وأديب^(٢) .

الخيال يجمع بين التصوف والأدب ، بين الفكر واللغة . ويفند رأى رينان الذى يتهم العقلية السامية بأنها حسية تبحث عن الجزئيات ويغلب عليها الخيال ، على عكس العقلية الآرية التى تمتاز بالعمق والتصدى للمشكلات الفلسفية الكبرى . لقد رد الأفغانى من قبل على رينان بقول جدلى ، ولكن الأستاذ العميد يرد عليه مرة ثانية بقول برهانى . ولقد كان روجر بيكون مؤسس المنهج الاستقرائى الحديث ورائد الفكر العلمى الأوروبى فى أواخر العصر الوسيط تلميذا للمسلمين . درس الخيال عن طريق علاقاته بالحس والصور ، بالحلم والحب ، بالعلم والكشف وليس الخيال على ما هو عليه أولا . واستعمل منهج العرض الذى يعتمد على نصوص «الفتوحات» مثل الدراسات الاستسراقية أو الجامعية دون بنية فلسفية للموضوع . لذلك أتت دراسة خارجية وليست داخلية ، جامعية وليست إبداعية . اعتمد على منهج النص وعلى عديد من الروايات والتجارب الشخصية يذكرها ابن عربى . ولم يستفد بما فيه الكفاية من دراسة هنرى كوربان «الخيال والخلق عند

(١) محمود قاسم: الخيال فى مذهب ابن عربى ، معهد البحوث والدراسات العربية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦٩ . وهناك بحث آخر بعنوان «موقف ابن عربى من العقل والمعرفة الصوفية» ألقى بجامعة أم درمان الإسلامية فى فبراير ١٩٦٩ يحال إليه فى «دراسات فى الفلسفة الإسلامية» ص ١٩٩ وأنه سيصدر قريبا .

(٢) قام أيضا بترجمة «لعبة الحب والمصادفة» لماريفر ، روائع المسرح العالمى رقم ١٣ وزارة الثقافة .

ابن عربي، وهو صاحب الفتح في هذا الموضوع ، ولم يشر إليه إلا عابرا . ويعترف الصوفي المتدوق بنقص دراسته وأنه كان طموحا أكثر مما ينبغي ، وأن الوقت لم يسعفه ، وأن المادة العلمية صعب حصارها ، وأن المعالجة كانت إنسانية وليست ميتافيزيقية كما أراد ، وأنه يعتذر عن التقصير لكثرة المشاغل (١) .

يكفى الأستاذ العميد أنه فتح الطريق بتواضعه العلمي . فلم يقل أنه أتى بما لم يأت به المتقدمون والمتأخرون ولكنه بذل الوسع والجهد . فكل بحث ناقص ، وكل نقص كمال بشري . ولعل جيلا آخر يأتي من بعده يكون أقدر على بنية الموضوع (٢) .

٤- المنطقي المنهجي

وبعد «الصوفي الذوقي» يعود الأستاذ العميد إلى العقلاني الرشدي ويظهر المنطقي المنهجي في «المنطق الحديث ومناهج البحث» (٣) وهو كتاب يغلب عليه التأليف الجامعي في المادة والعنوان خاصة للأعداد الغفيرة التي تبلغ الآلاف وفي مقرر جامعي عام في «دار العلوم» . وهو استعراض تاريخي للموضوع منذ اليونان حتى العصر الحديث أسوة بأي كتاب جامعي مشابه في التراث الغربي قانزا على التراث الإسلامي المنطقي والرياضي والطبيعي الذي تغطيه في جامعاتنا مادة «تاريخ العلوم عند العرب» . وهو من هذه الناحية كتاب واف وشامل ، مفيد للطلاب

(١) «يرجى الاعتراف بأنني كنت طموحا عندما أردت إعطاء صورة كاملة عن أهمية الخيال في تفكير ابن عربي ، لكن الوقت لم يتسع . كما أن المادة لم تتح لي أن أحصرها في نطاق ضيق عشية أن يخلع عليها طابع التركيز سمة الغموض . لقد كنت أود أن أعالج الناحيتين الإنسانية والميتافيزيقية المتصلتين بفكرة الخيال عند ابن عربي فلم أستطع سوى أن أمس الناحية الأولى منها مساهمات . وإنني لاعتذر عن هذا التقصير بكثرة العمل وضيق الوقت . فأرجوا أن يكون في هذا الاعتذار ما يشفع لي عند القارئ» المصدر السابق ص ط .

(٢) انظر مثلا نصر حامد أبو زيد : التأويل عند ابن عربي ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٠ .

(٣) محمود قاسم : المنطق ومناهج البحث ، الأنجلو المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٦٦ .

والقارئ سهل لأداء الامتحان والاستذكار . وهو موضوعي لا رأى فيه فى أغلب الأحيان ، محايد ، لا نقد فيه أو نصرة لتيار على تيار . ولما عرف على سامى النشار بدراساته الأصولية ومناهج البحث عند المسلمين ونقدهم للمنطق الأرسططاليس فقد أهدى إليه هذا الكتاب^(١) . ولا عجب فى صداقة بين المعتزلى والأشعرى ، بين ناقد علم الكلام والمتكلم .

يهدف الكتاب إلى المساهمة فى تأسيس الحركة العلمية فى مصر . وأفضل وسيلة لذلك اتباع أساليب التفكير ومناهج البحث العلمى . فالمناهج تتغير بتغير العصور والأزمان . كان منطق أرسطو نموذج اليقين عند القدماء ثم أصبح عقيبا لا يؤدى إلى الكشف العلمى عند المحدثين . ومع ذلك يظل المنهج الرياضى الاستنباطى عند الأستاذ العميد هو أكمل المناهج وأكثرها علمية ، فهو المنهج الذى يتجاوز حدود الزمان والمكان . وبالتالي ظل عقلانيا رشديا إلى النخاع^(٢) .

والمنطق الحديث ليس هو المنطق الرياضى أو الشكلى الجديد بل هو الأورجانون الجديد كما حدده ليكون بالرغم من اعتبار المنطقى المنهجى المنهج الرياضى الاستنباطى هو المنهج العلمى . لذلك غلب موضوع الاستقراء على معظم فصول الكتاب . فبعد الفصل الأول «المنطق القديم والمنطق الحديث» والذى يتم فيه القفز على كل الحضارات غير الأوربية . والأستاذ العميد يعلم مدى مساهماتنا فى التراث العلمى والرياضى ومناهج البحث فى تراثنا القديم سيتم تخصيص الفصل

(١) إلى أخى وصديقى الأستاذ الدكتور على سامى النشار تقديرا للأخوة الصادقة وللزمالة الحقة وللجهود العظيمة فى الدراسات المنطقية والفلسفية فى الفكر الإسلامى أهدى هذا الكتاب المصدر السابق ص ٣ .

(٢) لو قد انتهت بنا محاولتنا هذه إلى فكرة محددة وهى أن المنهج العلمى الصحيح هو المنهج الفرضى الاستنباطى الذى يتحقق فى أكمل صورة فى العلوم الرياضية والذى بدأ يتطرق إلى حد كبير أو قليل فى بقية العلوم الأخرى مع ظهور بعض الفروق الدقيقة بين مناهج البحث فى هذه العلوم بسبب طبيعة الظواهر التى يدرسها كل علم منها المصدر السابق ص ٦ .

الثاني للاستقراء ، والثالث لأساس الاستقراء ، والرابع للملاحظة والتجربة ، والخامس للفروض ، والسادس لتحقيق الفروض ، والسابع للسبب والقانون ، والثامن للتحليل والتركيب ، والعاشر لمنهج البحث في العلوم الطبيعية . أى ثمانية فصول من مجموع اثني عشر فصلا . ويأتى الفصل التاسع في منهج البحث في الرياضة بين التحليل والتركيب ومنهج البحث في العلوم الطبيعية . تغيب إبداعات المسلمين ، وتغلب وجهة النظر الأوروبية الحديثة . ويغيب نقد المسلمين للمنطق الأرسطى ، ولا يذكر القياس الإسلامى الذى يجمع بين الاستنباط والاستقراء ، بين استنباط العلة من الأصل واستقراء وجودها فى الفرع . ولا يتعرض الكتاب إلا إلى علم الاجتماع والتاريخ من العلوم الإنسانية دون باقى العلوم مثل علوم النفس والأخلاق والسياسة والاقتصاد والقانون والجمال .

وقد شعر المنطقى بغياب التراث الإسلامى العلمى الرياضى فى مجموع الفصول . فآثر اللحاق بما فات فى الفصل الحادى عشر «منهج البحث فى علم الاجتماع» وفى الفصل الثانى عشر منهج البحث فى التاريخ دون أن يسميه علما خاصة عن طريق إعطاء أمثلة تطبيقية فى الهوامش من التراث الإسلامى كما فعل ابن رشد فى «شرح الخطابة» . ويصعب التمييز فى منهج البحث فى علم الاجتماع بين تاريخ الفكر الاجتماعى ومنهج البحث الاجتماعى ، فيورد الفصل آراء الفارابى وابن خلدون كنماذج من البحث الاجتماعى وهما أقرب إلى الفكر الاجتماعى . يقول الفارابى بنظرية الفيض أو الصدور وهو أول من أدخلها فى الفكر الإسلامى وعارضها ابن رشد بنظرية الخلق المستمر ، وبها آثار من الفكر الإسماعيلى ويشرح ويلخص آراء ابن خلدون . ويدافع عنه ضد اتهامات المستشرقين له بأنه لم يأت بجديد . ومن الإنصاف أن يقال ما لابن خلدون وما عليه وألا نحكم على هفواته بمقاييس لم يعرفها أو بوجود ظواهر اجتماعية لم يعرف عنها العالم الأوروبى شيئا إلا بعد الكشف عن أمريكا وأستراليا . يدل اتجاه ابن

خلدون على علميته وأن العلم لا يتألف من الظواهر بل من القوانين^(١) .

وتكثر الأمثلة في الفصل الأخير «منهج البحث في التاريخ» من التراث الإسلامي كتمويض عن غيابه في الفصول العشرة السابقة وكأن المسلمين لم يبرعوا إلا في البحوث التاريخية^(٢) . المادة العلمية كلها من كتاب لانجلوا وسينوبوس «مقدمة في الدراسات التاريخية» والأمثلة من التراث الإسلامي . فضرورة بحث المخطوطات ومقارنتها قبل نشرها كما فعل الأستاذ العميد في «مناهج الأدلة» وكشف عن تزوير أحد المخطوطات لتحامل صاحبها على ابن رشد ووصفه بأنه من الباطنية إرضاء لنزعة دينية أو مذهبية . والمثل على أهمية الوثائق اكتشاف «المغني» والمحيط بالتكليف في الجامع الكبير بصنعاء وتكوين جماعة علمية لنشرها هو ما تم في «دار العلوم»^(٣) . كما يضرب المثل من المؤرخين القدماء على غياب نقد الوثائق وسرعة التصديق (ابن الأثير) . النقد الداخلي للوثائق ضروري ومقارنة بعضها والبداية بالشك فيها كما هو الحال في الروايات المنقولة عن الصوفية . وهنا تظهر أهمية تجريخ الرواة وتعديلهم . وقد أمكن الكشف عن خطأ نسبة «مشكاة الأنوار» للغزالي عن طريق مقارنة الأسلوب وتعارضه مع الآراء النظرية له بالرغم من وجود بعض عبارات الغزالي فيه . وقد يكون «المضنون به على غير أهله» في نفس الحالة . وإن وجود نص واحد عن مؤرخين يدل على أنهما اعتمادا على مصدر واحد كما هو الحال في النصوص المشتركة بين الطبري وابن الأثير . ويمكن اعتماد

(١) المصدر السابق، منهج البحث في علم الاجتماع ص ٣٢٥-٤٠٦ .

(٢) المصدر السابق، منهج البحث في التاريخ ص ٤٠٧-٤٩٦ .

(٣) ولندكر على سبيل المثال أن مخطوطات المكتبة العامة لجامعة القاهرة وإن كانت قد فهرست إلا أنها لم تدرس دراسة كافية لبيان ما نشر منها وما لم ينشر وما يستحق النشر أو لا يستحقه من النوع الأخير . وقد عهد إلى الاشراف على تنظيم هذه الدراسات وقام بالرحلة الأولى في دراسة قيمة المخطوطات بعض تلاميذ الميدين بكلية دار العلوم وهم السادة محمد الأنور السهوتي ، وسعد مصلوح ، وعلى عشرى زايد ، وحسن عبداللطيف ، وعبدالعزیز بقوش ، وعبدالله جمال الدين المصدر السابق ص ٤٢٦ .

النقد الداخلى على معرفة لغة العصر وشفرة الكاتب مثل شفرة الحلاج التى لا يفهمها إلا أصحابه . كما يصعب إدخال كل الوثائق فى البحث ولا تضخم بلا سبب كما هو الحال فى رسائل الماجستير والدكتوراة فى جامعاتنا . وعلم التاريخ علم وليس فنا كما يرى ابن خلدون ، فن عند العامة وعلم عند الخاصة . كما ربط ابن خلدون بين علم التاريخ وعلم الاجتماع ، فالظواهر التاريخية ظواهر اجتماعية . ومن هنا أتت ضرورة معرفة الظروف الاجتماعية والسياسية للمصادر التاريخية والعوامل السياسية والاجتماعية التى تتحكم فى مجرى التاريخ ، ومعرفة العادات والنظم الاجتماعية التى يقع فيها الحدث التاريخى . ليست مهمة المؤرخ تحديد المبادئ النظرية التى تقوم عليها الحوادث التاريخية فذلك مهمة فيلسوف التاريخ بل مهمته فى تحديد الحدث ونقده والتمييز بين التاريخ والأسطورة ، بين الحدث والخيال . لقد اختلطت الوقائع فى بعض كتب الحوليات بالنوادر والشعر والطرائف عند المسعودى مثلاً فى «مروج الذهب» . وهنا أخطأ ماسينيون فى عدم نقده للروايات عن الحلاج التى تخلط بين التاريخ والخيال . وقد جعل ابن خلدون هذا الخلط من أسباب أخطاء المؤرخين بالإضافة إلى الثقة بالناقلين ، والذهول عن المقاصد ، وتوهم الصدق ، والجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع ، وتقرب الناس للسلطة ، والجهل بطبائع أحوال العمران . وقد تؤثر الحوادث الفردية على تطور المجتمعات وتعدد مراحلها خاصة لو كانت كبيرة ذات شأن أولها نتائج حاسمة . وفى نفس الوقت يقوم المؤرخ بتركيب المعنى ، ويستدل من الجزء على الجزء ، ومن الأجزاء على الكل ، ومن الكل على الكل لترايط المعانى . ولا يغفل تطابق الحدث ومساره طبقاً للقوانين الطبيعية .

٥- المصلح الدينى

وهناك صلة بين «الرشدى العقلاني» و«المصلح الدينى» فقد كان أبو الوليد والأستاذ العميد عقليين مصلحين ، يجمعان بين رسالة العقل والإصلاح . وتظهر شخصية المصلح الدينى فى مؤلفات ثلاثة :

الأول «الإسلام بين أمسه وغده»^(١) ويقوم الكتاب على ثلاثة إيقاعات :
الأول تدهور المسلمين ، ويبين حالهم فى العصر الحاضر حيث تم استعمارهم وقد
كانوا فى الماضى فاتحين . يعمهم الجهل والمرض وقد كانوا فى الماضى علماء
أصحاء. ابتعدوا عن الدين ، ووقعوا فى الفتن والصراعات السياسية وفرقوا بين
العقيدة والعمل ، وغلبهم التصوف والطرقية ، وسادت لديهم مظاهر الشرك ،
وابتعدوا عن التوحيد . حياتهم يؤس وجين ، يأس وذل .

ضعفت الأخلاق وعمت الرذيلة ، دعم المسلمين الخلاف والتقاطع والشقاق
واختلت المعايير الأخلاقية . ليس الإسلام سببا فى انحطاط المسلمين فقد ازدهرت
الحركة العقلية فى أول الإسلام ، وانتشر الإسلام رغم تدهور المسلمين ، وكان عاملا
من عوامل التقدم والصلاح . ولكن تخلى المسلمون عن مسئولياتهم فأصبحوا على
ما هم عليه الآن^(٢) . والثانى : أسباب التدهور وهى فساد الملوك واستبدادهم
وتحالف الملوك مع رجال الدين وتخلى رجال الدين عن مسئولياتهم فأصبحوا جنباء
أو مرائين ، يحاربون الإصلاح ويعادون العلم ، ويجهلون روح الدين . لم يجن
المسلمون منهم أى شئ^(٣) . أما الايقاع الثالث فطرق الإصلاح فى نهضة الشرق
لأن شدة القهر تؤدى إلى الانفجار ، والوحدة السياسية والدينية ، وطريق الثورات
السياسية والاجتماعية ، والإصلاح السياسى ، والعلم ، والدين الخالص من الجهل
والتعصب^(٤) . هو نداء للشباب الحائر بين الماضى الذى لم يصنعه والحاضر العاجز
عن إصلاحه والأمل الثقيل المجهض . لا تكون نهضة بالكاء ولكن بالجهد والعمل .

(١) محمود قاسم (دكتورة الدولة فى الفلسفة من السربون بمرتبة الشرف الأولى) : الإسلام بين أمسه
وغده ، سلسلة فى الدراسات الفلسفية والأخلاقية يشرف على إصدارها محمود قاسم أستاذ الفلسفة
الإسلامية بجامعة القاهرة ، الأنجلو المصرية (بلون تاريخ) .

(٢) المصدر السابق ص ٥ - ٧٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٨٠ - ١٥٧ .

(٤) المصدر السابق ص ١٥٨ - ٢٢٤ .

والحقيقة أن هذا الكتاب يمثل الخطاب الإصلاحى التقليدى منذ الأفغانى حتى الجماعات الإسلامية الحالية بخطابيته وحماسه وإنشائه ونقص إحكامه النظرى ، أسلوب الأفغانى والكواكى وشكيب أرسلان وهم أكثر من يحال إليهم^(١) ويعتمد على شعر أبى العلاء المعرى لنقد رجال الدين فى كل عصر^(٢) .

والثانى «جمال الدين الأفغانى فى حياته وفلسفته» يبدأ بنص منه عن تفتت وانقسام الشرق . ثم يذكر حياته وجهاده وإقامته فى الهند وإيران وروسيا والعراق وتركيا والمجتراتا وفرنسا . ويصف شخصيته وأخلاقه وما يتميز به من صراحة وجراءة وذكاء وحدة طبع جعلته عرضة للاتهام بالإلحاد من أنصار السلاطين ولكراهيه الإنجليز له . ثم يبين أسباب تأليف «الرد على الدهريين» ووجود حركة إلحاد فى الهند (أحمد خان ، وسميع الله خان) واستتصال الداء من جذوره بفقد

(١) الاستشهاد بالأفغانى «فى العروة الوثقى» هو الأكثر ثم بالكواكى فى «أم القرى» ثم بشكيب أرسلان فى «حاضر العالم الإسلامى»

- (٢) مثل : وكم من خفية خابط فى ضلالة وحجته فيها الكتاب المنزل ص ٩
 وضد الغرور : يظن نفسه ثرفاً وقادراً كأن الله لم يخلق سواه ص ٥١
 وضد الأدعياء : ويعجبني دأب الذين ترهبوا سوى أكلهم كد النفوس الشعائح وأطيب منهم مطعماً فى حياته سعة حلال بين غداد وراثع
 فما حيس النفس المسيح تعبداً ولكن مشى فى الأرض مشية سائح ص ١٠٣
 وضد الجهال : أجهل بساداتهم وإن زعموا أنهم فى علومهم رسوخوا فليتهم مثل شرعهم نسوخوا ص ١٠٤
 وضد الخطيب : كذب يقال على المغابر دثماً أفلا يمد لما يقال المنبر ص ١٠٥
 وضد رجال الدين : نادى على الدين فى الآفاق طائفة ياقوم من يشتري ديناً بدينار
 جنوا كبار آثام وقد زعموا أن الصغائر تجنى الخلد فى النار ص ١١٣
 وضد علماء الكلام : وقالوا فقية والفقيه محسوه وحلف جدال والكلام كلوم
 أتروك بأصناف المحال وإثما لهم غرض فى أن يقال علوم ص ١٢٤
 وضد الفقهاء : أجاز الشافعى فعال شئ وقال أبو حنيفة لا يجوز
 فضل الشيب والشبان منا وما اعتدت الفتاة ولا العجوز ص ١٥٦

المذهب المادى فى العصر القديم عند الإغريق والاحاد لدى الفرس (المانوية والمزدكية) والعرب (الباطنية). ثم ينقد المذهب المادى الحديث ، ممثلا فى نظرية التطور (لامارك ، دارون ، سبنسر ، هيكل ، رينان ، كوسن) . ويمثل الكتاب نقدا للتغريب ومحاوله للدفاع عن الهوية الثقافية وماهية الحضارة ، ولكن ينقلب من الضد إلى الضد ويغسر التاريخ ومساره والطبيعة وحركتها بالدين والأخلاق ، بالعقائد الثلاثة (الإنسان منفصل عن الطبيعة ، الدين والقومية ، والسعادة الآخروية) وبالحصائل الثلاثة (الحياة والأمانة ، والتعاون) . ولا يتجاوز الكتاب منهج العرض والتعريف بالمصلح دون بيان أيهما أخطر على المسلمين : المادية أم الخرافة ، الطبيعة أم الروح العرجاء^(١) .

والثالث «عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية» مهدي إلى الشعب البطل شعب الجزائر^(٢) . وقد كتب بعد استقلال الجزائر فى ١٩٦٢ وبعد هزيمة ١٩٦٧ التى من أجلها كره الجزائريون مصر والمصريين الذين لم يصمدوا فى ساحة القتال . وهو كتاب تقليدى يبدأ بحياة ابن باديس ، مولده ودراسته فى تونس وعودته إلى الجزائر ، واغتاله بالصحافة ، وتأسيسه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من أجل تأسيس الأمة . ثم يعرض منهجه فى الإصلاح الذى ينبعث من السمات الأساسية فى شخصيته مثل التسامح والرفق ، والتفاؤل ، والرجاء ، والعفو ، والشجاعة العقلية . كما يبحث أسباب التدهور كما فعل جمال الدين ومعوقات الإصلاح وأسس وأسلوب تنفيذه اعتمادا على الدين كرابطة قومية ، والدعوة إلى العمل ، ومقاومة الرجعية التى تدافع الباطل . ثم يعرض الفكر السياسى

(١) محمود قاسم (دكتورة الدولة فى الفلسفة من السربون بمرتبة الشرف الأولى) : جمال الدين الأنفانى، حياته وفلسفته . سلسلة فى الدراسات الفلسفية والأخلاقية يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة المساعد بجامعة القاهرة ، الأنجلو المصرية ، القاهرة (بلون تاريخ) .

(٢) محمود قاسم : (عميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة) عبد الحميد بن باديس ، الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٨ .

للمصالح وتصوره لأصول الحكم وللوطن الجزائري الذى أراد الاستعمار الفرنسى محوه . كما يبين فى محاربة جريئة فلسفته النظرية والعملية وكيف ربط بين العلم والدين ، ونقده للطريقة الصوفية . ومن أجل ربط هذه الفلسفة بأصولها القديمة تمت مقارنتها بالتراث العقلانى عند الماتريدى وابن رشد فى موضوعات السببية وصلتها بالقضاء والقدر ، وحرية الإرادة ، والحسن والقبح ، والخير والشر ، ربطا بين الكلام والإصلاح ، بين الماضى والحاضر ، وأخيرا يقدم الكتاب مجموعة من نصوص ابن باديس وكتابه وخطبه عن تلاوة القرآن ، والدعاء لغير الله ، والخوف والرجاء والاعتدال فى الإنفاق والفرار إلى الله ، والخلافة ، والعرب ، والطرقية أو نص فى منهجه من بشير الإبراهيمى . وهنا يبدوا ابن باديس أحد المصلحين من أجل التنوير الدينى دفاعا عن الشخصية الوطنية عن طريق المحافظة على اللغة الوطنية والثقافة الوطنية والتعليم الوطنى والشعر الوطنى مثل علال الفاسى ، وكما تجسد أخيرا فى «من العقيدة إلى الثورة» .

٦- المعتزلى الفيلسوف

إذا بدت الجوانب الأربعة المختلفة فى شخصية الأستاذ العميد : الرشدى العقلانى ، والصوفى الدوقى ، والمنطقى المنهجى ، والمصلح الدينى من المؤلفات ، فإن «المعتزلى الفيلسوف» يظهر فى التحقيقات كمحقق عالم . فقد قام الأستاذ العميد بثلاثة تحقيقات . الأول الجزء الخامس عشر «النبوات والمعجزات» من كتاب «المغنى فى أبواب التوحيد والعدل» لإملاء القاضى عبد الجبار . ويحتوى على مقدمة «تعريف بالمصطلح» خلو من التوقيع ، ولكنها بقلم الأستاذ العميد يصف فيها صورتى المخطوط ووصف محتوياته وأقسامه الثلاثة : النبوات ، والمعجزات ، والأخبار ، وتنتهى بملاحظة تعترف بالفضل الأول للمحقق الأول وأن الأستاذ

العميد ما هو إلا متمم لما بدأ به الزميل ، اعترافا بالفضل ، وإرجاعا للحق لأهله ،
شيمة العلماء^(١) . فقد اختار الأستاذ العميد نصا في علم الكلام الاعتزالي كما
اختار من قبل نص نقد ابن رشد لعلم الكلام الأشعري .

والثاني ثلاثة أجزاء من طبيعيات الشفاء : السماء والعالم ، والكون والفساد ،
والأفعال والانفعالات^(٢) . وتضم مقدمة بقلم الدكتور ابراهيم مذكور يشيد في
آخرها بعمل الأستاذ العميد وتحقيقه^(٣) . فقد قارن بين مخطوطات خمسة ، وبذل
فيها الجهد والعمر ، وألحق بها فهرسا للمصطلحات . وقد اختار من الفلسفة
الطبيعيات وليس المنطق أو الإلهيات مما يدل على شخصية الفيلسوف العالم .

والثالث تلخيص كتب المنطق الأربعة الأولى لابن رشد^(٤) . وقد حققها ولم
يتمها . ثم راجعه وأكملها وقدم له وعلق عليه الدكتور تشارلس بتروث ،

(١) المصدر السابق ص ٣ - ٦ وكان الأستاذ محمود الحفيري رحمه الله قد بدأ بنسخ جزء من كتاب
الكلام في النبوات ، ولكن عاجلته المنية قبل أن يكمل هذا العمل إلى جانب أعماله العلمية العديدة التي
لها مكانتها عند المتخصصين في الدراسات الإسلامية والفلسفية . وقد قام بنسخ ما يقرب من تسع
عشرة لوحة ، ولم يحقق إلا كلمات قليلة أشرت إلى مواضعها على أنها من تحقيقه ثم قمت فعلا
بتحقيق الجزء الذي نسخته ومراجعتة على الأصلين من جديد المصدر السابق ص ٦ .

(٢) ابن سينا ١- الشفاء ، الطبيعيات ٢- السماء والعالم ٣- الكون والفساد ٤- الأفعال والانفعالات
بتحقيق الدكتور محمود قاسم (بمناسبة الذكرى الألفية للشيخ الرئيس) راجعه وقدم له الدكتور
ابراهيم مذكور ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٩ (الجمهورية العربية المتحدة ،
وزارة الثقافة) .

(٣) المصدر السابق ص ط - ق .

(٤) وقد اطلع بتحقيقها الدكتور محمود قاسم ، ووقف عليها زمنا غير قصير ، وعول على عدة
مخطوطات .. وحرص الدكتور محمود قاسم علي أن يلحق بالنص فهرسا للمصطلحات ويقيى أن
قراءه يقدرون ما أنفق من جهد وزمن ، ويرحبون بهذا التحقيق الذي كانوا يترقبونه المصدر السابق
ص ق .

والدكتور عبدالمجيد هريدى كما يبدو ذلك من صفحة الغلاف^(١). ويبدو أن الأستاذ العميد قد قام بكل شئ قبل أن يرحل عن هذا العالم دون أن يطبعه. ونظرا لثقة الأسرة بالمستشرقين أكثر من ثقتها بالمصريين، فقد أعطت المستشرق التحقيقات فوضع اسمه تاليا لاسم الأستاذ العميد وبجواره من ساعده فى اللغة العربية. وأهدى المجموعة كلها إلى اسم المرحوم الدكتور محمود قاسم (١٩١٣ - ١٩٧٣) وأشاد به فى المقدمة ذاكرًا فضله^(٢). وتم نشر المجموعة بمصر فى سلسلة بعنوان «مجموعة المؤلفات الفلسفية فى القرون الوسطى» تعطى بعض الفضل للولايات المتحدة الأمريكية وتعكس وجهة نظر المستشرق ووضع تراثنا الإسلامى ضمن تحقيقه للتاريخ مع أنه عصرنا الذهبى الأول وليس القرون الوسطى المسيحية الغربية^(٣). ثم تستأثر أمريكا والمستشرق بكل شئ فى الصفحة الثانية من الغلاف الداخلى بعنوانين لسلاسل جديدة «شرح ابن رشد لكتب أرسطو»، «الأصول العربية»، تلخيص كتب أرسطو فى المنطق، الجزء الثانى تلخيص كتاب المقولات، مركز البحوث الأمريكى بمصر ١٩٨٠^(٤). ويقدم المستشرق تصويرا يسجل فيه اعترافه بالفضل للأستاذ العميد ومشروعه الطموح لنشر تراث ابن رشد وإكماله تحقيق تلخيص المنطق فى كتبه الأربعة الأولى، المقولات، والعبارة، والقياس، والبرهان، والانتهاى من ذلك فى يناير ١٩٧٣ ثم رحيله عن هذا العالم فى أغسطس ١٩٧٣ قبل أن يتمكن من نشرها^(٥). ثم يذكر نبذة عن حياته لإجلاله، مولده

(١) ابن رشد: تلخيص كتاب المقولات، حققه المرحوم الدكتور محمود قاسم. راجعه وأكماله وقدم له وعلق عليه الدكتور تشارلس بتروث، دكتور أحمد عبدالمجيد هريدى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠.

(٢) المصدر السابق ص ٥.

(٣) المصدر السابق ص ١.

(٤) المصدر السابق ص ٢.

(٥) «والفرض من هذه النشرة هو إكمال وتوسيع دائرة العمل الطموح الذى بدأه الأستاذ المرحوم الدكتور محمود قاسم قبل وفاته بفرض نشر تراث ابن رشد. فقد كان الدكتور قاسم فى كهولته»

ونشأته ، ودراسته وتخرجه ثم سفره إلى البعثة ورسائله وعودته وتدريسه^(١) .
ويتلو ذلك ثبت بأعماله العلمية ، المؤلفات (تسعة) والتحقيقات (أربعة)
والترجمات (تسعة) وبالاشتراك (اثنتان)^(٢) . وقد تم نشر هذه التحقيقات تخليدا
لذكرى الأستاذ العميد الخامسة عشرة واعترافا بعلمه وفضله ورغبته في المعرفة
ومنهجه في التحقيق واعتزازا بأرائه^(٣) . ويعطى المستشرق الحق لنفسه أيضا في

= كما كان في شيا به متعلقا بابن رشد . ولذلك اعترم في ١٩٦٨ أو ١٩٦٩ تحقيق تلخيص كتب
أرسطو في المنطق لابن رشد . فبدأ بتحقيق الكتب الأربعة الأولى منه وهي : المقولات ، والعبارة ،
والقياس ، والبرهان . وانتهى من عمله فيها في يناير ١٩٧٣ م ثم توفي في أغسطس ١٩٧٣ م قبل أن
يتسكن من نشرها المصدر السابق ص ١٥ .

(١) ولقد كان المرحوم الدكتور قاسم باحثا لا بكل وأستاذا ذا تأثير بارز في مجالات كثيرة من الفلسفة
الإسلامية وعلم الكلام . بالإضافة إلى اهتمامه أيضا بالفلسفة الغربية . ولد المرحوم في كفر دنو هيا
التابع لمركز الزقازيق . ومنه أتى إلى القاهرة ليلتحق دارسا بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة . وتخرج
على رأس دفعته سنة ١٩٣٧ م وفي العام التالي أوفدته الحكومة المصرية إلى فرنسا لإكمال دراسته
العالية . وهناك حصل على الليسانس من كلية الآداب بجامعة السربون ١٩٤١ م قبل انتهاء مدة بعثته .
وتم تجديد مدة بعثته ليحصل على درجة الدكتوراة ١٩٤٥ م من جامعة السربون . وقد كانت
أطروحة الأساسية للدكتوراة عن نظرية المعرفة لدى ابن رشد وتأويلها لدى القديس توماس الإكويني
أما رسالته الثانوية فقد خصصها لترجمة كتاب الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد إلى
اللغة الفرنسية . وقدم لترجمته يبحث عن آراء ابن رشد الدينية . وبعد عودته إلى وطنه ١٩٤٥ م عين
مدرسا بكلية دار العلوم . وقد أعير خلال حياته إلى جامعات بنغازي والخرطوم والكويت والجزائر
للتدريس بها كأستاذ دائم وأستاذ زائر . وقد تدرج في مناصب الجامعة أستاذا فعميدا لكلية دار العلوم
فرئيسا لقسم الفلسفة بالكلية . المصدر السابق ص ١٦ .

(٢) وأعمال الدكتور محمود قاسم عديدة ومتنوعة بين دراسات وتحقيقات وترجمات في مجالات
الفلسفة والعلوم الدينية وغيرها . وقائمة إنتاجه التالية خير دليل على ذلك ... المصدر السابق ص ١٦ .
(٣) «وقد رأينا أن ذكرى الدكتور قاسم - التي من أجل تخليدها نقدم هذا الكتاب - لا يمكن أن يوج
عيرها بسرد مؤلفاته وإنجازاته لا بمناقشة مفصلة لأفكاره التي ناضل من أجلها خلال فترة عمله كأستاذ
وباحث فحسب . وقد يكون من زائد القول أن نتحدث عن ذلك الآن . فقد سبقنا إلى ذلك زملاء له :
قاموا بتبيين تلك النواحي من شخصيته . أما نحن فإننا نقدم هذا العمل تخليداً لذكرى رجل عالم دمث
الأخلاق دائب البحث والمعرفة . ولقد امتاز الدكتور قاسم برغبته في المعرفة ومقدرته على مناقشة
آرائه وشكوكه يتجلى ذلك في الأثر الذي تركه لدى كل من التقى به . ولقد اهتم بإثارة القضايا =

إعداد العمل للنشر ومراجعة النص على مخطوطات جديدة ظهرت بعد رحيل الأستاذ العميد وهو ما كان الأستاذ الراحل سيفعله بنفسه ويشكر الأسرة لإعطائه مسودات تحقيق الكتب الأربعة الأولى^(١) وكل من ساعدوه لإكماله وإخراجه ونشره^(٢). وبعد مقدمة أخرى عن شروح ابن رشد وأهميتها^(٣)، يعيد المستشرق ذكر الأستاذ العميد في منهج التحقيق^(٤) ويقر باستلامه الأصول التي قام الأستاذ العميد بتحقيقها ومراجعتها على مخطوطات جديدة بلغت ثلاثة أضعاف المخطوطات الأولى نتيجة للبحث في الفهارس القديمة والجديدة، وتعاون الجهود لفريق من الباحثين^(٥).

ومناقشتها أكثر من اهتمامه بإثبات آرائه. تلك كانت أبرز سمات شخصيته، وهي أيضا الفضائل التي يذكرها له زملاؤه وطلابه، المصدر السابق ص ١٨.

(١) ولاعتقادنا أن المهتمين بالفلسفة الإسلامية يودون أن يخرج إلى النور نص تحقيق الدكتور قاسم فقد بدأنا في إعداده للنشر. ولقد ظهرت أثناء العمل مخطوطات جديدة لنص ابن رشد استلزم إعادة مراجعة التحقيق لإكماله على ضوئها. وفي كل ما قدمنا فإننا نعتقد أن لو أمتد الأجل بالدكتور قاسم لصنع نفس صنيعنا. وكلنا أمل في أن يكون هذا العمل قد صدر بالصورة التي كان يودها غارسه، المصدر السابق ١٨-١٩.

(٢) ومن المناسب هنا أيضا أن أنهى بكل من ساهم في إظهار هذا الكتاب من مؤسسات علمية وأفراد علميين. وأنخص بالذكر أسرة المرحوم الدكتور محمود قاسم التي قدمت لي مشكورة صورة من مسودات عمله في تحقيق الكتب الأربعة الأولى ويشكر أيضا أ.د. السعيد بدوي، ومؤسسة فولبرايت، ومركز البحوث الأمريكي بمصر، ومعهد سميثسونيان، والجمعية الفلسفية الأمريكية، والدكتور محمد الجليند الذي كان يعاون الدكتور قاسم من بداية عمله، والأستاذ همام فوزي حسن الباحث بمركز تحقيق التراث والدكتور أحمد عبد المجيد هريدي والدكتور محسن مهدي. المصدر السابق ص ١٩-٢٠.

(٣) المصدر السابق ص ٢١-٣٣.

(٤) المصدر السابق ص ٣٥-٤٧.

(٥) ولما تسلمنا أصول أعمال الدكتور قاسم سنة ١٩٧٤م وبدأنا في مراجعتها تعرفنا عدة مخطوطات جديدة بلغت ثلاثة أمثال المخطوطات التي كانت معروفة وكان ذلك نتيجة البحث الدائب في الفهارس القديمة التي نسبت فيها بعض مؤلفات ابن رشد لغيره، وأيضاً فيما ينشر من فهارس جديدة وما يصدر من بحوث ومقالات وأيضاً نتيجة لتعاون بعض الزملاء، المصدر السابق ص ٣٥.

ويستمر الأمر على نفس النمط فى الكتاب الثانى «تلخيص كتاب العبارة»^(١) فالحقق هو الأستاذ العميد ، والذي أكمل وقدم وعلق هو المستشرق ومعاونه والإهداء إلى الأستاذ العميد . وفى التصدير يقدم المستشرق الشكر لأسرة الأستاذ العميد لتقديمها مسودات التحقيق له^(٢) .

وقد صدر الكتاب الثالث «تلخيص كتاب القياس» بنفس الطريقة ، تحقيق الأستاذ العميد ومراجعة وإكمال وتقديم وتعليق المستشرق ومساعدته^(٣) والكتاب مهدي إلى الأستاذ العميد مثل الكتائين السابقين . ويسجل المستشرق فى التصدير مرة ثالثة الاعتراف بفضل الأستاذ العميد وإكمال مشروعه الطموح ، وأن هذا التحقيق وإكماله إنما هو لمحة وفاء^(٤) .

وصدر الكتاب الرابع «تلخيص البرهان» على نفس المنوال ، تحقيق الأستاذ

(١) ابن رشد : تلخيص كتاب العبارة ، حققه المرحوم الدكتور محمود قاسم . راجعه وأكماله وقدم له وعلق عليه دكتور تشارلس بتروث ، دكتور أحمد عبدالمجيد هريدى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨١ .

(٢) «وقبل كل شئ فإننى أتقدم بوافر الشكر للمعاونة الكريمة التى قدمتها أسرة المرحوم الدكتور محمود قاسم التى قدمت لى مشكورة صورة من مسودات عمله فى تحقيق هذا الكتاب وتحقيق المقولات والقياس والبرهان» ويستمر الشكر للدكتور محسن مهدي ومركز البحوث الأمريكى بالقاهرة ومديره بول ووكر ، وفولبرايت ، ومعهد سميثسونيان والجمعية الفلسفية الأمريكية ومعاون المحقق ، المصدر السابق ص ١٤ - ١٥ .

(٣) ابن رشد : تلخيص كتاب القياس . حققه المرحوم الدكتور محمود قاسم . راجعه وأكماله وقدم له وعلق عليه دكتور تشارلس بتروث ، دكتور أحمد عبدالمجيد هريدى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٣ .

(٤) «والغرض من هذه النشرة هو إنجاز العمل الطموح الذى بدأه الأستاذ المرحوم الدكتور محمود محمد قاسم عميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ورئيس قسم الفلسفة بها سابقا . وكان المرحوم الدكتور محمود محمد قاسم قد بدأ فى هذا العمل قبل سنوات قليلة من وفاته واستمر يعمل به إلى أن اختطفته منا يد المنون . وكان إكمالنا للعمل لمحة من الوفاء والتقدير للذكرى الفقيده الذى نكنه له شخصيا وشاركنا فيه زملائه وطلابه العاملون فى حقل الدراسات الفلسفية الإسلامية» المصدر السابق ٤٩ - ٥٠ . ويستمر الشكر أيضا إلى الجهات والشخصيات المذكورة فى الكتائين السابقين .

العميد ومراجعة وإكمال وتعليق المستشرق ومعارنه^(١) . والكتاب أيضا مهدى إلى الأستاذ العميد . وفي التصدير ، نفس الفقرة السابقة التي تسجل الاعتراف والفضل للأستاذ العميد بنصها^(٢) .

وقد صدر «تلخيص كتاب الجدل» الذي قام به المستشرق بنفسه^(٣) ومع ذلك يسجل في التصدير الشكر والعرفان للأستاذ العميد بنفس الفقرة السابقة في الكتابين السابقين^(٤) .

وأخيرا تبين «النصوص المختارة من الفلسفة الإسلامية» روح المعتزلى الفيلسوف^(٥) إذ تبين المقدمة نشأة الفكر النظرى ، وظهور الفرق الإسلامية ، خاصة المعتزلة والأشاعرة ، ثم ظهور التيار الفلسفى عند الكندى والفارابى وابن سينا والغزالى وابن طفيل وابن رشد ، ثم ظهور التصوف الفلسفى ، والاتجاه العلمى ، وأخيرا الحركة الفكرية فى العصر الراهن^(٦) . وعلى هذا الأساس ، ومن هذا المنظور النظرى تم اختيار عدة نصوص تساعد الطالب على قراءة الأصول الأولى طبقا لمدرسة مصطفى عبدالرازق . ويسبق كل نص تعريف بصاحبه ، ومن ثم يتم تأهيل الطلاب لقراءة التراث دون تأليف كتاب جامعى مقرر مصنفه الأستاذ

(١) ابن رشد : تلخيص كتاب البرهان حققه المرحوم الدكتور محمود قاسم . راجعه وأكماله وقدم له وعلق عليه دكتور تشارلس برورث ، دكتور أحمد عبدالمجيد هريدى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١ - ٢٢ .

(٣) ابن رشد : تلخيص كتاب الجدل . حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور تشارلس برورث . شارك فى التحقيق الدكتور أحمد عبدالمجيد هريدى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١٧ - ١٨ .

(٥) دكتور محمود قاسم (عميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة) : نصوص مختارة من الفلسفة الإسلامية ، الطبعة الثالثة ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٩ .

(٦) المصدر السابق ص ٣ - ٣١ .

من قبل ويلغه الطلاب^(١) .

٧- الاجتماعى الوضعى

وأخيرا تظهر شخصيته «الاجتماعى الوضعى» من الترجمات الإثنى عشرة التى قام بها الأستاذ العميد بصرف النظر عن ظروفها فى التدريس الجامعى لمادة علم الاجتماع والحلاف حول القائمين بالتدريس : الفلاسفة أم علماء الاجتماع ، وبصرف النظر عن التكاليفات من وزارة الثقافة أو الهيئات العلمية ، وبصرف النظر ثالثا عن الدوافع الاقتصادية . وتتراوح الترجمات بين علم الاجتماع (أربعة) وعلم النفس الاجتماعى (واحد) والأدب (إثنان) منها تاريخ الأدب الاجتماعى ، والفلسفة (ثلاثة) منها إثنان قريان من الفلسفة الاجتماعية لبرجسون وعنه ، وعلم النفس (واحد) ، والتربية (واحد) وكلاهما وثيقا الصلة بعلم الاجتماع من مدرسة خاصة فى الغالب وهى الوضعية الاجتماعية .

وتخلو معظم الترجمات^(٢) (ثمانية من اثنتى عشرة ترجمة) من مقدمة

(١) النصوص المختارة من الحياط ، والقاضى عبدالجبار ، والأشعرى ، الشهر ستانى ، والكندى ، الفارابى ، وابن سينا ، والغزالى ، وابن طفيل ، وابن رشد ، وابن عربى ، وابن تيمية ، وابن خلدون ، وجمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، والإمام عبدالحميد بن باديس .
(٢) هذه الأعمال المترجمة هى :

- ١- ليفى بريل : فلسفة أوجيست كونت ، الانجلو المصرية ، القاهرة .
- ٢- ليفى بريل : الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية ، عيسى البابى الحلبي ، القاهرة .
- ٣- أميل دور كايم : قواعد المنهج لعلم الاجتماع ، النهضة المصرية ، القاهرة .
- ٤- روجيه باستيد : مبادئ علم الاجتماع الدينى ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥١ .
- ٥- شارل بلوندل : مقدمة فى علم النفس الاجتماعى (بالاشتراك مع د. إبراهيم سلامة) ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٩ .
- ٦- لانسون : تاريخ الأدب الفرنسى (الأجزاء ٥-٧ من تاريخ الأدب الاجتماعى) ، المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ١٩٦٢ .
- ٧- ماريفر : لعبة الحب والمصادفة ، روائع المسرح العالمى (١٣) وزارة الثقافة .

للمترجم يعرض فيها أهمية النص ، وموضعه من أعمال المؤلف وتحليل مضمونه ، ودلالته بالنسبة لاختياره للقارئ العربى^(١) . وتعادل هذه الترجمات الجبهة الثانية من مشروع «التراث والتجديد» موقفنا من التراث الغربى كما قام الفلاسفة القدماء بترجمة التراث اليونانى والفارس والهندي لاحتوائه وتمثله وتجاوز إبداعه إلى إبداع أشمل وأتم . وقد كانت «الوضعية الاجتماعية» هى المدرسة السائدة فى فرنسا فى الوقت الذى كان فيها الأستاذ العميد طالب بعثة . وعاد مثل بعض أقرانه مشبعا بفكر المدرسة (عبدالعزیز عزت) فى حين عاد البعض مثاليا جوانيا من نفس الفترة (عثمان أمين) ، ويصدر الأستاذ العميد بعض ترجماته بموافقة الناشر الأصلي على الترجمة حفظا لحقوق المؤلف والناشر بعد الاتصال به وأخذ الإذن بالترجمة وشكره بل ونشر الخطاب الوارد بالإذن رعاية للقانون^(٢) . والحقيقة أنه هناك صلة بين

٨ = برجسون : التطور الخالق دار الفكر العربى ، القاهرة .

٩- اندريه كريسون : برجسون ، الانجلو المصرية ، القاهرة .

١٠- اميل برييه : الموضوعات الأساسية فى الفلسفة المعاصرة ، الانجلو المصرية ، القاهرة .

١١- جان بياجيه : ميلاد الذكاء عند الطفل ، الانجلو المصرية ، القاهرة .

١٢- ادوارد كلاباريد : التربية الوظيفية ، الانجلو المصرية القاهرة .

(١) هذه الترجمات التى تخلو من مقدمات تحليلية هى :

١- ليفى بريل : فلسفة أوجست كونت .

٢- اميل دور كايم : قواعد المنهج لعلم الاجتماع .

٣- لانسون : تاريخ الأدب الفرنسى .

٤- ماريو : لعبة الحب والمصادقة .

٥- برجسون : التصور الخالق .

٦- اندريه كريسون : برجسون .

٧- جان بياجيه : ميلاد الذكاء عند الطفل .

٨- ادوارد كلاباريد : التربية الوظيفية .

(٢) وذلك فى ترجمة كتاب شارل بلوندى : مقدمة فى علم النفس الاجتماعى وكتاب روجيه باستيد :

مبادئ علم الاجتماع الدينى . والاذن من مكتبة آرمان كولان Armancolin

الوضعية الاجتماعية وعقلانية ابن رشد ، فالعقل أداة الإصلاح ، والمجتمع موضوع الإصلاح . وقد عبر عن ذلك ماركوز في «العقل والثورة» .

أما الترجمات الأربعة التي تبدأ بمقدمات للمترجم فإنها تبدأ بالبسملة لوضعها في إطارها الثقافي الجديد . تعرف بالمؤلف ، وتعطى نبذة عن حياته وأعماله وأفكاره وتحلل مضمون الكتاب ثم مقدمة في إطاره الثقافي وتدعو إلى الحوار حوله دون تقليده . وتبين ظروف ترجمته وتكليف وزارة الثقافة أو غيرها من المؤسسات العلمية به^(١) . وتعطى المقدمة لكتاب ليفى بريل «الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية» نظرة نقدية للنص . تعرضه أولاً بأمانة تاريخية وموضوعية علمية ثم تناوهره وتنقده وتختلف معه^(٢) . الغاية من النص المترجم أن يكون دافعا على التفكير وتحدياً لأخطار المخالفة وإلا وقعنا في التقليد ثم التغريب^(٣) . دور الوضعية

(١) ليفى بريل : الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية ، مقدمة للترجمة ص ١٧ .

(٢) «لكننا سنين إلى أى حد نوافق أو نخالفه في بعض آرائه . إذا ليس معنى الترجمة أن ننقل المعاني أو نضع ألفاظاً مكان ألفاظ بل يجب قبل كل شيء أن نحيا في الجو الذي يحيا فيه المؤلف دون أن نفقر شخصيتنا ودون أن نغفل لظهور آرائنا الخاصة متى وجب أن نظهرها . فإنا نرى أن مجرد النقل إلى العربية قد يكون أكثر ضرراً منه نفعاً لأن القارئ يسارع عادة إلى اعتقاد أن كل جملة مترجمة يجب أن تعد حقيقة لا تقبل المناقشة . وتلك في رأي طريقة خطيرة تقودنا إلى الجحود بدلاً من أن تنتهي بنا إلى التحرر عند الاطلاع على الآثار الفكرية العالمية» المصدر السابق ح أ - ب .

(٣) «تلك هي الأفكار الرئيسية التي يعرضها كتاب «الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية» وهي أفكار جزئية أثارت كثيراً من النقد والاعتراضات . وما زالت موضع بحث في الدراسات الأخلاقية حتى يومنا هذا . ولذا نعتقد أن عرضها على العقول ليس متأخراً عن حينه بل داعياً إلى إدراك الركب والمساهمة في مناقشة المسائل الكبرى التي تشغل التفكير في العصر الحاضر . لكن ينبغي للقارئ أن يفتن إلى هذا الأمر . وهو أننا إذا كنا قد أعجبنا بهذا الكتاب وحرصنا على نقله إلى اللغة العربية فليس معنى ذلك أننا نوافق صاحبه على كل ما جاء به . ذلك أنه على الرغم من قوة مذهبه وعظم النتائج التي أدى إليها فإننا نرى لديه كثيراً من المآخذ التي يحل بنا ألا نسكت عليها حتى نؤدي الأمانة التي في عتقنا نحو أنفسنا ونحو من سيقرأ لنا لذلك حرصنا على ذكر أوجه الخلاف بيننا وبينه . فعلقنا في هامش الكتاب تعليقات عديدة تعرض وجهة نظرنا ونرجع فيها إلى كتب لنا ولغيرنا . ولم نشأ أن نثبت هذه التعليقات في مقدمة الترجمة حتى ندع للقارئ متعة الكشف عنها في أثناء قراءته» المصدر السابق ص ل .

الاجتماعية فى الفكر العربى المعاصر مثل دور الوضعية المنطقية ، والماركسية ، والوجودية ، والشخصانية ، والظاهرانية ، والبنوية ، والمثالية لإيقاظ الفكر والدعوة إلى الحوار .

وتحتوى مقدمة كتاب دور كايم «قواعد المنهج فى علم الاجتماع» على نفس العناصر السابقة :أهمية العلم ، وأهمية الكتاب فى تاريخ العلم ، وتعريف بالمؤلف ومدرسته ، وإعطاء نبذة عن حياته وأعماله ثم عرض لأفكاره من خلال فصول الكتاب . ولكن المهم هو ظروف الترجمة وأهدافها^(١) . فالهدف منها إعداد نص لطلاب أقسام الاجتماع بالجامعات المصرية^(٢) . فالعلم الجديد مهم بالنسبة لمصر لدراسة أحوالها الاجتماعية . والترجمة عريية الأسلوب حتى لا ينفر الطلاب منها وبالتالي من العلم ذاته^(٣) . وقد قدم لهذا الكتاب زميل آخر (الدكتور السيد محمد بدوى) مثنيا عليه فى تقريره إلى وزارة المعارف لقبول الكتاب للنشر مبينا أهمية النص لمصر ، ومدى حاجتها إلى الدراسات الاجتماعية لنهضة القطر المصرى^(٤)

-
- (١) اميل دور كايم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع مقدمة الترجمة ص ج - ي .
 (٢) وهذا الكتاب الأخير هو الذى رأيت أن أترجمه لطلبة كلية دار العلوم وكليات الآداب والمعاهد العلوم والخدمات الاجتماعية فى مصر لما لمسته من أهميته الكبرى ولما عرفته من حاجة هؤلاء الطلاب إلى قراءة مترجما بسبب ما يمتاز به من شدة التركيز وعظيم الفائدة . كذلك رأيت أن أقدمه فى نفس الوقت لجمهور المثقفين فى الشرق لما وجدته من شدة شغف القراء بهذا النوع من الدراسات . واعتقد من جانبى أن نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية لم يأت متأخرا . فإنه مازال على الرغم من بعد العصر يتناوب تاريخ ظهور الكتاب لأول مرة ، دستوروا لعلماء الاجتماع ومرجعاهاما للباحثين فيه وما يدل على أنه مازال جديدا أنه لم يترجم فى أمريكا إلا فى سنة ١٩٣٨ المصدر السابق ص د .
 (٣) ولم تكن ترجمة هذا الكتاب بالأمر اليسير نظرا لشدة تركيزه التى أثرت إليها من قبل ولما يمتاز به من إيجاز وخلو من الاستطراد . أضف إلى هذا أنه يغلب عليه الطابع العلمى إلى أكبر حد . كما أنه يعج بالمصطلحات العلمية التى اضطرت إلى نقلها إلى اللغة العربية لأول مرة دون أن أجد لدى السابقين عونا ... المصدر السابق ص ط .

- (٤) وهنا تظهر أهمية هذا الكتاب . فقد جاءت ترجمته فى أنسب وقت لها . ومن حسن الحظ أن تصدى لهذه الترجمة الأستاذ الدكتور محمود قاسم . فقد جمع بين الثقافتين العربية والفرنسية ، وملك ناصية اللغتين . فخرجت ترجمته فى ثوب قشيب لا يشمر من يقرأها بأنه يقرأ كتابا مترجما . وذلك لسلامة

وتلك هي بداية النهضة فى مصر (١) .

ولا ينتسب الاجتماعى الرضى إلى «الوضعية الاجتماعية» إلا تأليفاً دون فكر .
ففى مقدمته لكتاب روجيه باستيد «مبادئ علم الاجتماع الدينى» أقسى نقد
وأعنف هجوم على الوضعية الاجتماعية وأرائها فى الدين كما مثلها دوركايم (٢)
ويواجه عالم الاجتماع بعالم اجتماع آخر من علم الاجتماع الفرنسى عند دور كايم
الدين ظاهرة اجتماعية ، وعند باستيد عاطفة . عند دروكايم يتطور الدين من التوذية
إلى التوحيد بعد مجئ الإمبراطوريات الكبرى فى حين يفرق المترجم بين دين
الأرض ودين الوحي ، دين الأنبياء والرسالات الذى لم يتطور من شئ . كان
الهدف من الترجمة إذن الوقوف فى مواجهة المدرسة الوضعية الاجتماعية التى
كانت موجودة فى مدرجات الجامعة ، ونقدتها وتفنيدتها بنصوص مماثلة (٣) . نشأ
التوحيد عند قوم لم تكن لهم إمبراطورية وكانوا مستضعفين فى الأرض بل كانوا
يجوبون رمال الصحراء . وينقد المترجم آراء المدرسة الاجتماعية فى اعتبار الإسلام

= الأسلوب ووضوح العبارة وحسن اختيار التعبير المناسب الذى يطابق المعنى الأصلى للنص الفرنسى
ولا ينبوع ذلك عما اصطلاح عليه فى اللسان العربى الفصحى، المصدر السابق ص ط .
(١) «وانى أقدم الآن إلى هؤلاء الذين تهتمهم الدراسات الاجتماعية وإلى الذين يتوقون إلى معرفة
مصادرها الأولى أهم كتاب يعتمد عليه علماء الاجتماع فى الوقت الحاضر . وأرجو أن أوفق فى نقل
عدد من المراجع العامة فى هذا العلم حتى يستطيع طلاب الجامعات والمعاهد الاجتماعية والجمهور
المثقف الاطلاع على ما أنتجته قرائح كبار علماء الاجتماع فى الغرب . وتلك فى رأيى مرحلة
ضرورية تمهد لنشأة دراسات اجتماعية معاصرة جديدة تقوم على أساس علمى صحيح واضح . وفقنا الله
جميعاً لخدمة هذا الوطن والنهوض به» المصدر السابق ص ى .

(٢) روجيه باستيد : مبادئ علم الاجتماع الدينى ، مقدمة المترجم ص ١-٨ .

(٣) «ولما عرضت فى أثناء محاضراتى فى الفلسفة لبيان أوجه الضعف فى هذه النظرية ومقدار ما تتطلب
عليه من جدل ومنسطة وإلى أى مدى تتنافى مع الحقائق التاريخية والتفكير السليم الذى لا تخدعه
القروض الواسعة للموهبة ...» المصدر السابق ص ٣ .

متطوراً عن المسيحية مما يعبر عن تعصب المستشرقين وأهوائهم^(١) . كما ينقد الناقلين للنصوص الأجنبية ويضعون عليها أسماءهم باعتبارها تأليفاً ، يتبعون الفصول والأبواب والأفكار والمضمون سعيًا وراء الترقية والرزق .

وفى مقدمة المترجم لكتاب بريه «الموضوعات الأساسية فى الفلسفة المعاصرة» تعريف بالمؤلف وبيان عظم منزلته فى قلوب تلاميذه . فقد أعد الأستاذ العميد رسالته للدكتوراة تحت إشرافه . وزار مصر وألقى محاضرات فى كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٢٥ وتوفي عن خمسة وسبعين عاماً فى ١٩٥٢ .

الأستاذ العميد إذن يحتوى فى شخصيته على جوانب عدة . فهو الرشدى العقلانى ، الصوفى الذوقى ، المنطقى المنهجى ، المصلح الدينى ، المعتزلى الفيلسوف الوضعى الاجتماعى . وهى جوانب متعددة لشخصية واحدة . لذلك تتم الإحالة باستمرار فى كل مؤلف أو تحقيق أو ترجمة إلى باقى الأعمال مما يدل على وحدة العمل ، وأن الأستاذ العميد صاحب مشروع فكرى عام «العقلانية الإصلاحية» الذى يكمن وراء عديد من المشروعات العربية المعاصرة عند تلاميذه المباشرين والأجيال اللاحقة^(٢) .

(١) والحق أن المستشرقين وأتباعهم معرضون للدراسة الإسلام ، ولكن دراستهم لا تخلو من التعصب إلا فى القليل من النادر ، أما نحن فلن نسلك مسلكهم وحسبنا أن تقدم للجمهور والمثقف عالماً مسيحياً يحلل هو بنفسه العقائد المسيحية وهكذا نفتتح السبيل أمام نوع جديد من الدراسة ونعنى به علم مقارنة الأديان . وفى رأين أننا فى أشد الحاجة إلى هذا النوع من البحوث . إذ ليس من الممكن أن تزدهر الدراسات الإسلامية ودراسات التوحيد بصفة خاصة دون هذا العلم الجديد . والله أسأل التوفيق للجميع المصدر السابق ص ٨ .

(٢) هناك إحالات فى نظرية المعرفة عند ابن رشد إلى مناهج الأدلة (ص ٤ ص ١٩) وإلى جمال الدين الأفغانى (ص ٥٥) . وإحالات فى «مناهج الأدلة» إلى ابن رشد وفلسفته الدينية (ص ٣) . وإحالات فى «الخيال عند ابن عربى» إلى المنطق ومناهج البحث (ص ٢٩ ص ٣٢ ص ٦٠) وإلى دراسات فى الفلسفة الإسلامية (ص ١٠٤) ، وإحالات فى جمال الدين الأفغانى إلى فى النفس والعقل (ص ١١٥ ص ٢٠٣ ص ٢٥٥) وإلى الإسلام بين أمسه وغده (ص ٩٧ ص ١٣٧ ص ١٧٣) وإلى الفيلسوف =

المفتري عليه (ص ١٥٧) وإلى بعض الترجمات مثل مقدمة في علم النفس الاجتماعي (ص ٢١٥) فلسفة أوجست كونت (ص ١٩٨) وإلى الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية (ص ١٣٢) والإحالات في الإسلام بين أسسه وغده، إلى نقد مدارس علم الكلام (ص ٢٢ ص ٤٠ ص ١١٩ ص ١٤٣) وإلى الفيلسوف المفتري عليه (ص ٧١) وإلى جمال الدين الأفغاني (ص ٨٩ ص ١١٢ ص ١١٦ ص ١٨٧ ص ١٩٨ ص ٢١٤) وإلى المنطق الحديث ومناهج البحث (ص ١٤٤ ص ١٩٦) وإلى بعض الترجمات مثل مبادئ علم الاجتماع الديني (ص ٧٣) وإحالات في المنطق الحديث ومناهج البحث، إلى بعض الترجمات مثل قواعد المنهج الاجتماعي (ص ٣٧٦ ص ٣٤٠ ص ٣٨٨ ص ٣٩٠ ص ٣٠٤) وإلى مقدمة في علم النفس الاجتماعي (ص ٣٨١ ص ٣٨٣) وإلى العقل والنفس (ص ٣٨٦) وإلى مبادئ علم الاجتماع الديني (ص ٣٩٠ ص ٣٩٣ ص ٣٩٧) .

محمود قاسم : والدراسات الكلامية فى مصر

أ. د. حسن محمود عبد اللطيف الشافعى *

لم يترك محمود قاسم الدراسات الكلامية عند رحيله كما تلقاها فى مطلع تكوينه أو خلال سنوات هذا التكوين . وقصدنا من هذا المقال - الذى نرجو أن يكون تحية «جوانية» لهذا الراحل المقيم - هو أن نلقى شيئا من الضوء على بعض جوانب هذا التطور الذى حدث فى مجال الدراسات الكلامية بفضل جهود هذا المفكر والعوامل التى أسهمت فى تحقيقه وأعانت على إنجازه .

والحق الذى لا مماناة فيه أن عوامل كثيرة ، منذ ألقى محمد عبده بدلوه فى هذه البحيرة الساكنة ، قد أسهمت فيما تبع ذلك من تطورات وتموجات ، ربما كانت جهود تلميذه مصطفى عبدالرازق من أبرزها ، سواء بتمهيدته وضميمته أو

* أستاذ الفلسفة الإسلامية ، ووكيل كلية دار العلوم السابق ، ونائب مدير الجامعة الإسلامية السابق بإسلام آباد .

بمن خرجهم من الباحثين الأفذاذ كأبى ريدة والنشار وبدوى وزملائهم ، وكذا جهود علماء الأزهر الشريف قبل إنشاء كلية أصول الدين فى مطلع الثلاثينيات من هذا القرن وبعدها ، إلى مؤتمرات كثيرة تأتى من داخل مصر ومن خارجها فى مجالات النشر والدراسة ، فى العالمين العربى والإسلامى ، وفى الدوائر الاستشراقية أيضا . غير أن الدور الذى نهض به محمود قاسم ببحوثه ودراساته ، وبقيادته لقسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم قرابة عشرين عاما ، وبمكاته العلمية والثقافية فى مصر والعالم العربى ، هو دور متميز خلف أصداء وآثاراً عديدة ، ليس أقلها تكوينه لوحدة بحث متميزة أيضا ، فى دار العلوم ، لها رؤيتها الخاصة للفكر الإسلامى ، ومنهجها فى التعامل معه ، فى تجديد وإحيائه ، إثراء للحياة الإسلامية المعاصرة وإسهامها فى النهضة الراهنة .

ولعل هذا الدور لم يقتصر على مصر ؛ فمنذ منتصف الخمسينات خرج أستاذاً - من قسم الدكتوراه - أحد الباحثين الأندونيسيين الذين أسهموا فى الحياة الجامعية هناك ، وفى مطلع الستينات قدم لسوريا باحثاً موهوباً لم يتح له أن يواصل خدماته إذ مضى عاجلاً إلى لقاء ربه هو المرحوم الزركان ، وفى هذا العقد توثقت صلاته بالجزائر والسودان ، وكان له إسهام طيب فى توعية البحث والدراسات العليا فيهما ، وفى تكوين بعض الباحثين أيضاً ومنهم الباحث المرموق عمار الطالبي، وفى أوائل السبعينات قدم لتركيا باحثاً جيداً هو الدكتور مقداد يالجن الذى قدم وما زال يقدم العديد من الأعمال . هذا بجانب تلاميذه المصريين الذى حملوا الأمانة بعده ، وانطلقوا بها فى أرجاء العالمين العربى والإسلامى ، فى الخليج وباكستان ، وليبيا والسودان ، وغيرها من ديار العرب والمسلمين . لكن هذه الأصداء كانت أثراً لدوره هنا فى مصر ؛ التى لم يكدها يغادرها منذ عاد من دراسته فى الخارج ، حوالى منتصف الأربعينيات ، إلا فترة قصيرة فى أوائل الستينات ، وفيها تركز عمله ، وترسخ أثره ، وازدهر فكره ، وتوثقت صلاته بأعلام البحث العلمى

وشبابه فى مصر ، وخاصة فى مجالات الدراسات الفلسفية والاجتماعية والدينية ،ومنها الدراسات الكلامية التى هى موضوع هذا المقال - التحية ، فى ذكره العشرين .

ولعله من المناسب لمقصدنا هنا أن نبدأ أولاً بتناول العوامل والظروف التى أسهمت فى تكوين شخصيته كباحث ومفكر ، وعارفته على أن يترك بصماته الخاصة ورؤيته الفكرية المتميزة فى مجال الدراسات الإسلامية بعامه ، والكلامية بوجه خاص ، لنخلص بعد ذلك إلى رصد بعض المعالم والسمات ، والملامح والقسمات التى أسهم بجهوده الفكرية والعملية فى تحديدها ، وفى إضافتها على واقع الدراسات الكلامية فى مصر .

-٩-

تتمثل الظروف والعوامل المساعدة على تطور الدراسات الفلسفية والكلامية فى مصر فى أمور يرجع الكثير منها إلى الجو الثقافى العام الذى اتسم بالحياة والمرونة الفكرية ، بفضل الحرية التى تمتعت بها مصر فى الربع الثانى من القرن الحالى بالنسبة إلى الفترة التى سبقتة والتى لحقت به ، وإلى الثراء والتنوع فى الإنتاج الفكرى الذى أبدعته وأذاعته ، وإلى القلق الحضارى الذى استبد بها بحثاً عن الذات والهوية والخصوصية الثقافية والحضارية ، وإلى توثيق علاقتها بالغرب وعلومه وحضارته مما زادها إحساساً بقضية الأصالة والمعاصرة ، وإلى استقرار نظمها التعليمية والجامعية - فى جانبها الدينى والمدنى - مما هيا للعوامل السابقة أن تمارس تأثيرها فى فعالية وإطراد . وهى عوامل وظروف لا تقتصر على مصر وحدها بل تكاد تشمل بآثارها العالم العربى على تفاوت فى ذلك بين أجزائه المختلفة . لكننا سنقصر هنا على العوامل والظروف المرتبطة بشخص أستاذنا الذى افتقدناه ، برغم اعترافنا بأن أى من هذه الظروف والعوامل الشخصية ما كان لها أن تعمل

عملها أو تؤتى أكلها لولا تلك الظروف العامة التى ترجع إلى طبيعة المرحلة التاريخية وسماتها الخاصة .

وفى هذا المجال الشخصى فقد كان محمود قاسم ذا حظ غير عادى من الذكاء والفطنة والمواهب العقلية العامة ، الإصرار والمثابرة والإرادة القوية الصلبة ، واستقلال الرأى والاعتداد بالذات «غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلته ، لا باختياره وحيلته» (١) كما لاحظناه من خلال صلتنا به فى كهولته ، وكما أخبرنا بذلك عن شبابه ونشأته بعض زملاء دراسته ، أذكر منهم فى هذا المقام المرحوم الروائى المصرى البارز محمد عبدالحليم عبدالله .

وهذه الصفات الشخصية كانت بلا شك أساس التفوق الذى امتاز به قاسم فى حياته العلمية بوجه عام ، لكنه فيما يتعلق بالمجال الذى يختص به هذا المقال ، نود أن نوجه النظر إلى ما تهيأ له من مقومات شخصية ، فكرية ودراسية ، فى فترة التكوين ، امتدت بعد ذلك فى مرحلة العمل والإبداع من حياته الفكرية ، فكانت أساس الدور المتميز الذى قام به فى تطوير الدراسات الكلامية على النحو الذى سنعرض له فيما بعد . ومن هذه المقومات ستعرض لأمر ثلاثة : لصلته الوثيقة المبكرة والمتواصلة بعلم الكلام . ولعرفته الجيدة بالفكر الغربى بعامة «والثيولوجيا المسيحية» بوجه خاص ، ولدراسته المستوعبة المتعمقة لمجالات الفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامى بوجه عام .

أ- صلته الوثيقة بعلم الكلام :

لم يكن محمود قاسم - فى مراحل التعليم الأولى - أزهرى ؛ لكنه التحق منذ مفتتح الثلاثينات بتجهيزه دار العلوم ثم بدار العلوم نفسها ليتخرج منها بعد

(١) اقتباس لا يخفى على القارئ من مقدمة «المنفذ من الضلال» للإمام الغزالى . بتحقيق عبدالحليم . محمود ، الطبعة السابعة ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١١٠ .

منتصف الثلاثينيات ، فتلقي منذ يفاعته المبكرة دراساته فى فروع الثقافة الإسلامية، ومنها علم الكلام ، بروح «درعية» ؛ قد لا يتوافر فيها التركيز الشديد ، والتحليل النصي المكثف ، والروح المحافظة التى تتسم بها الدراسة الأزهرية عادة ، وبخاصة فى ذلك الحين ، لكنها تتميز - على أية حال - بالتجديد فى تناول والعرض ، والربط بين مضامين التراث ومفاهيم العصر ، والروح المتسامحة البريئة من التعصب أو الانحياز السابق لمذهب عقائدى معين ، كالمذهب الأشعرى مثلا ، أو غيره . وأعتقد أن هذه الناحية كانت بالغة الأثر فى أطوار حياته الفكرية ، ودراساته الكلامية ، فيما استقبله بعد ذلك من مراحل تالية فى الدراسة أو البحث .

لقد امتدت هذه الفترة التكوينية مدة خمسة عشر عاما أو تزيد ، إذ تخرج الأستاذ من جامعة السوربون بمرتبة الشرف الأولى فى «دكتوراه الدولة» ، بعد أن أنجز بحثه عن ابن رشد ، ذلك الذى قاده إلى التوغل فى أحشاء «علم الكلام» درسا وتحقيا ، وكان ذلك من خلال سنوات الحرب العالمية الثانية . فقد سافر قبل قيامها وعاد بعد انتهائها بعام واحد تقريبا حين صارت دار العلوم إحدى كليات جامعة القاهرة ، وإن كانت صلته بهذا العلم قد استمرت وتواصلت خلال عمله بقسم الفلسفة الإسلامية بهذه الكلية فترة تربو على ربع قرن من الزمان .

وكانت رسالته «نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكويني» التى ترجمها بنفسه إلى العربية - فيما بعد - نظرة جديدة إلى ابن رشد ، لا تقف عند صورته التقليدية باعتبارة شارحاً أكبر لأرسطو ، بل تصوره من خلال مؤلفاته الإسلامية ، التى يعمل فيها - على حد تعبير أستاذنا- لحساب نفسه ، ونستطيع أن نقول أيضا لحساب ثقافته الإسلامية، أى من خلال «تهافت التهافت» و«مناهج الأدلة» و«الضميمة فى العلم الإلهي» و«فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» ، وهى مؤلفات فى صميم علم الكلام أو فى العلاقة بينه وبين الفكر الفلسفى . وتلك نظرة جديدة إلى هذا المفكر المسلم الذى عانى قديما وحديثا من

تجاهل دوره الخاص أو من الخلط بين دوره مؤلفا ودوره شارحا (١) ، وظنه الأوروبيون فى العصور الوسطى وحتى العصر الحديث مفكرا ملحدًا يقول بقدوم العالم وعدم خلود النفس ولا يلتزم بوحى ولا دين (٢) ، وعمل أستاذنا على أن يغير هذه الصورة وينسخها تماما ما استطاع ، فأنجز رسالته المذكورة التى كانت نعمة جديدة حقا من هذه الناحية ، ومن ناحية أخرى اقتراحه صورة جديدة أيضا للأكويينى ، مما قد نعرض له فيما بعد . ودراسته فى الحقيقة دراسة كلامية فى جوهرها فهى ، وإن عرضت للمعرفة الإنسانية ، تركز فى الحقيقة على مسائل العلم الإلهى وما يرتبط به من مشكلات فلسفية وعقائدية (٣) لكن عمله هذا اقتضاه أن يترجم «مناهج الأدلة» ويقدمها جزءاً من متطلبات الحصول على «دكتوراه الدولة» . وأعتقد أن هذا العمل ترجمة وتحقيقا ودراسة قد زاد صلته بعلم الكلام وثاقه ، وزاد نظريته بشأن طبيعة الفلسفة الرشدية رسوخا حتى ليقول عنه فيما بعد مشيرا إلى الاتهامات السالفة لابن رشد : «وإن فيلسوف قرطبة ألف كتابا يرد به سلفا على كل هذه التهم التى كأنما كان يحدثس بها ؛ ونعنى بذلك كتاب «الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة» ، وهو الكتاب الذى نشرناه منذ سنوات ، مع مقدمة فى نقد مدارس علم الكلام ، كجواب حاسم لهذه الأباطيل ، وتلك التهم التى نبشت فى خيال قوم لم يشعروا بشئ من الحرج عندما شوهوا آراء ابن رشد الدينية ، وهذا الكتاب تعبير صادق عن آراء فيلسوف قرطبة ؛ وذلك لأنه إذا قورن بكتبه الأخرى ككتاب «تهافت التهافت» ، «فصل المقال» تبين أنه يؤلف معها وحدة متناسقة الأجزاء ، ومذهبا متجانسا لا تفاوت فيه ولا تناقض» (٤) . وإن كانت

(١) انظر مثلا الطيلاوى محمود سعد «موقف ابن تيمية من فلسفة ابن رشد» ، ط أولى ١٩٨٩م ، ص ٧٠ وما بعدها .

(٢) انظر قاسم : ابن رشد وفلسفته الدينية ، ط ٢ القاهرة ، ص ٤١ - ٥٥ .

(٣) قاسم - محمود : نظرية المعرفة ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٩ ، ١٢٢ وما بعدها .

(٤) السابق ٤٧ .

هذه الصورة لابن رشد ما تزال حتى بين أبناء ملتة موضع اختلاف ، ولا زلت أذكر المناقشات التي كنا نثيرها فى كلية أصول الدين بالقاهرة ، أوائل الستينات مع أستاذنا الدكتور محمد عبدالرحمن يبصار - شيخ الأزهر لاحقا - حول هذه الصورة القاسمية والصورة التي قدمها هو فى كتابه «الوجود والخلود عند ابن رشد» ، وهو خلاصة رسالته «للدكتوراه» فى جامعة لندن ، التي استند فيها إلى الشروح الرشدية على أرسطو وأهمل «مناهج الأدلة» ، وليس عمل شيخنا فى هذا الصدد بالعمل الوحيد .

وقد واصل أستاذنا بعد ذلك دراساته وتحقيقاته فى مجال علم الكلام ، فحقق الجزء الخامس عشر من كتاب «المغنى» عن التنبؤات والمعجزات للقاضى عبدالجبار ، بعد أن شرع فى تحقيقه زميل راحل ، وسجل ذلك بقوله «كان الأستاذ محمود الخضيرى - رحمه الله - قد بدأ بنسخ جزء من كتاب «الكلام فى النبوات» لكن عاجلته المنية قبل أن يكمل هذا العمل .. ثم قمت فعلا بتحقيق الجزء الذى نسخته ، ومراجعتة على الأصلين من جديد...»^(١) . وأما دراساته فكان أكثرها عن الفكر الإسلامى الحديث ، وخاصة عند جمال الدين ومحمد عبده وابن باديس ، مع تحليلات بارعة فى «نصوص مختارة من الفلسفة الإسلامية» وأكثرها نصوص كلامية ، ويمتاز كتابه «دراسات فى الفلسفة الإسلامية» بأنه أكثر شمولاً لمجالات الفكر الإسلامى من فلسفية وصوفية وكلامية ، ولهذه الأخيرة حظ واضح فى هذا الكتاب الهام .

ويعتد أستاذنا بدراساته ونظراته الكلامية فيقول ضمن مقدمته لمناهج الأدلة : «إن هذه الفكرة التى نعرضها هنا قد تبدو لبعض الباحثين فى علم الكلام ، أو لغيرهم ، بمظهر القول الذى يلقي على عواهنه ، أو القضية التى تغلب عليها مسحة

(١) عبدالجبار : المغنى ، ط عيسى البائى الحلبي بالقاهرة ١٩٦٥م ، ٦/١٥ .

الغلو . لكننا نطمئن هؤلاء وهؤلاء أننا لا نقدم وجهة نظرنا عزلاء بل سنبرهن على صدقها ...»^(١) وقد علق المرحوم الدكتور النشار على عمل أستاذنا في هذه المقدمة الضافية «للمنهج» بأنها «كادت في قوتها تغطي على الكتاب الأصلي نفسه...»^(٢) .

ب- كان من حظ أستاذنا مع مواهبة الشخصية ، وثقافته العربية الإسلامية ، أن تتاح له معرفة جيدة بالفكر الغربى بعامة وبالتيولوجيا بوجه خاص ، إذ أوفدته دار العلوم للدراسة بالخارج كدأبها مع الأرائل من خريجيه ، وحين وصل إلى باريس انخرط في دراسته للحصول على «الليسانس» فى الدراسات الإنسانية ، وهو عمل ليس بالسهل اليسير لمن يعرفونه ، هيا له زادا ثقافيا ومعرفة طيبة بجوانب من الدراسات الفلسفية ، كعلمى النفس والاجتماع ومناهج العلوم وتاريخ الأفكار الفلسفية ، لا تعنى بها الدراسة فى دار العلوم بقدر كلى . فتعرف على نحو جيد بثقافة الغرب - فى جانبىها العلمى والفلسفى - من ناحية ، وأضاف ذلك إلى رصيد كفاءته كباحث فى الفكر الإسلامى وعلم الكلام من ناحية أخرى . وحين انتقل - رحمه الله - إلى الدراسات العليا ليعد أعماله للحصول على «دكتوراه الدولة» فى الفلسفة عن «نظرية المعرفة عند ابن رشد ، وتأويلها لدى توماس الإكوينى» مع ترجمة كتاب ابن رشد مناهج الأدلة إلى الفرنسية ، كما أشرنا آنفا ، كان عليه أن يدرس التيولوجيا المسيحية فى عناية وعمق ، قبل الإكوينى وبعده ، وأن يعنى بوجه خاص بصلاتها القوية مع الفكر الإسلامى بعامة والرشدى بوجه خاص . وقد استطاع بجهد واستقلال رأيه أن يقدم - إلى جانب نظريته الجديدة فى الفلسفة الرشدية - الأدلة التاريخية الناطقة بأن الإكوينى فى الحقيقة هو «تلميذ

(١) مناهج الأدلة ص ١٠ .

(٢) من مجموعة محاضرات له عن المصادر الكلامية كان يلقاها على طلاب الدراسات العليا بدار العلوم ، عام ١٩٦٤ م .

لابن رشد^(١) ويؤكد بالدراسة الموضوعية التحليلية بعد ذلك^(٢) أن أمير الفكر المسيحي في العصور الوسطى مدين بالكثير بل بجوهر مذهبه الخاص وإضافاته المتميزة إلى الثيولوجيا المسيحية ، للمفكرين المسلمين وابن رشد على وجه الخصوص ، ولم يسع أساتذته في جامعة باريس إلا أن قدروا عمله العلمي الجريء الذى يعارض وجهات النظر الشائعة لدى أنصار ابن رشد المزعومين من اللاتينيين الأحرار ، وخصوصه (المزعومين أيضا) من رجال الكنيسة - ربما باستثناء الباحث الأسباني الكبير آسين بالاثيوس - فمنحوه الدرجة بمرتبة الشرف الأولى .

لقد كانت السنوات الثمان التى قضاها فى باريس خصبة بكل المقاييس ، سواء فيما تيسر له خلالها من اتصال جيد وتفهم نافذ للفكر الغربى فى جوانبه الإنسانية والأدبية والعلمية ولما أنجزه خلالها من بحث أصيل متمكن فى ميدان الفكر الإسلامى ، الذى هو غاية مساعية ومجال إبداعه ، والذى وظف من أجله هذه «الغربة الغربية» أو هذه الرحلة فى عقل الغرب وحضارته . لقد انعكست آثار هذه الرحلة وحصادها الغزير على الترجمات التى نهض بها أستاذنا بعد عودته إلى الوطن ، واحتوت أكثر من خمسة عشر كتابا لأعلام المفكرين والعلماء الغربيين شملت ميادين التربية ، والفلسفة ، وعلم الاجتماع ، بل امتدت أحيانا إلى الأدب فترجم لإحدى المسرحيات بطلب من وزارة الثقافة المصرية ، ومجلدا ضخما فى «تاريخ الأدب الفرنسى» بتكليف من وزارة التعليم العالى . وترجم عدة كتب فى التربية الحديثة لوزارة التربية والتعليم وحظيت الفلسفة وعلم الاجتماع بالنصيب الأوفى فنقل إلى العربية طائفة من الأعمال الهامة فيهما مثل : «قواعد المنهج فى علم الاجتماع» لدوركايم ، و«مبادئ علم الاجتماع الدينى» لباستيد ، و«مقدمة فى علم

(١) انظر قاسم : نظرية المعرفة - القسم الأولى ، وخاصة ٣١ - ٣٨ .

(٢) السابق - القسم الثانى ، وخاصة ٢١٠ - ٢٣٦ .

النفس الاجتماعى» لشارل بلوندل ، و«الأخلاق وعلم العادات الاجتماعية» لليفى بريل ، و«فلسفة أوجست كونت» لبريل أيضا ، و«برجسون» لأندريه كريسون و«التطور الخالق» لبرجسون نفسه واتجاهات الفلسفة المعاصرة لأستاذه الذى أشرف على عمله فى السربون وإميل برية^(١) ، وأعمال هامة أخرى .

ولم يكن همه فى هذه الأعمال التى اقترحت عليه أو انتقاهها هو عن قصد وإشارة^(٢) إلا رد الجميل للغة وأمته ، وإقامة الصلة بينها وبين ثقافة الغرب المعاصرة على أساس قويم ؛ فهو يقول مثلا فى سياق نقده لنظرية العقل الجمعى والأصل الاجتماعى للدين : «إن محاولة الإبقاء على نظرية عفى عليها الزمن لدليل على أن حركة الاتصال الفكرى بين الشرق والغرب مازالت مضطربة أو أنها لا تؤتى ثمارها»^(٣) وسنعرض فيما بعد لأسلوبه فى التعليق أثناء الترجمة على آراء المؤلفين الأصليين ، رغم إيمانه بأن على المترجم أن يعيد الجو الذى عاشه المؤلف الأصلى ، ولكن دون أن يفقد ذاتيته واستقلاله^(٤) ، وهو يقترب من الأسلوب الذى اتبعه أستاذنا المرحوم محمد عبد الهادى أبو ريدة فى ترجماته ذات التعقيبات التى تنافس الأصل أو تتكامل معه - رحمهما الله .

ج- على حين يوجه بعض الباحثين اهتمامه منذ مطلع حياته البحثية إلى مجال معين من مجالات الفكر الإسلامى المتنوعة ، لا يكاد يتجاوزه إلى غيره ، فهو يقصر جل اهتمامه إن لم يكن كله على الفكر الفلسفى أو الكلامى أو الصوفى، وربما بالغ بعضهم فى ذلك فاختص بمذهب معين أو مدرسة فكرية داخل هذا المجال الخاص . وغالبا ما تكون آراؤه النقدية واختياراته الفكرية ، وأحكامه التقويمية

(١) قاسم : اتجاهات الفلسفة المعاصرة ، سلسلة الألف كتاب ، عدد رقم ١٠ ، ص ٥ .

(٢) انظر مقدمة كتاب «فلسفة أوجست كونت» ، الأنجلو بالقاهرة ١٩٦٥ ، ص ع .

(٣) قاسم : مبادئ علم الاجتماع الدينى الروحية باستيد - ط - ص ٢ .

(٤) عبد الحميد مذكور ، كلمة فى تأييد الفقيه بحوليات دار العلوم سنة ١٩٧٣/٧٢ م ، ص ١٤٩ .

متأثره بضيق المساحة الفكرية ، ومحدودية الخبرة بطبيعة الحال . لكن أستاذنا الفقيه كان بمقتضى شخصيته الفكرية المستقلة ، وبما تيسر له من الخبرة النافذة بأنظمة فكرية أخرى خارج الثقافة الإسلامية ، وباتساع دائرة اهتمامه بالمجالات المتعددة للفكر الإسلامى نفسه ، كان - بحمد الله - بريقاً من هذه النظرة الضيقة ، والخبرة الجزئية ، والحكم القاصر أو المنحاز .

لقد بدأ - رحمه الله - أعماله البحثية الجادة بالفلسفة الرشدية ، وتطرق به ذلك بحكم طبيعته الموضوع إلى التراث الكلامى ، مع عناية خاصة أول الأمر بالمدرسة الاعتزالية ، ثم امتدت اهتماماته وبحوثه إلى المدرسة الأشعرية ، وإلى المدرسة الماتريدية أيضاً ، مع قلة العناية بهذه الأخيرة فى مصر ، وامتدت اهتماماته أيضاً بالمدرسة السلفية وفكر ابن تيمية وتلاميذه .. وكان على صلة طيبة بالفكر الصوفى سواء فى نطاقه السنى المعتدل وخاصة عند الغزالى أو فيما وراء ذلك من فكر باطنى غالٍ كفكر الحلاج والسهورردى الحلبى^(١) . ولم تلبث هذه الصلة أن تعمقت إلى حد بعيد بعد أن اتصلت بحاله وتأكد وصاله بفكر ابن عربى حتى ليقول فى أحد بحوثه : « وأكاد أزعم أننى - لكثرة مجالستى لابن عربى وكتبه - كدت أتبع منهجه فى إخفاء بعض الخيوط الدقيقة التى تحتها هنا وهناك من سره ، وذلك حتى أستوثق أننى لم أخطئ الفهم . وعسى أن يتيح لى الله الوقت والجهد حتى أستشف تفاصيل هذا السر الذى حرص ابن عربى على كتمانته وبعثرته..»^(٢) وكم يحز فى نفوس تلاميذه وعارفيه أنه ، برغم ما أصدره من كتب وأبحاث عن هذا المفكر^(٣) ، خلال السنوات الأخيرة من حياته الزاخرة بالعمل والإنتاج ، قد مضى إلى ربه فجأه بهذا السر العظيم الذى تتبع خيوطه ، وجمع عناصره ولم يتهياً

(١) قاسم «دراسات فى الفلسفة الإسلامية» ، ط ٤ - دار المعارف بمصر ، ٥٥ ، ٢٣٣٧ .

(٢) السابق ٢٨٩ .

(٣) السابق ٣٠٥ وما بعدها ، والخيال عند ابن عربى ، وابن عربى وليست لقاسم .

له أن يكشف عنه ويخرجه إلى الناس .

ومع هذه المعاشة الحميمة للشخصيات والأفكار والاتجاهات على امتداد الساحة الفكرية الإسلامية ، التي لم تشغله عنها شواغل جمّة ومسؤوليات عديدة عرف كيف يوائم بينها وبين متطلبات حياته العقلية ، وامتعته الفكرية ، ظل أستاذنا يطالع قراءه بالجديد حتى سنته الأخيرة ، ولئن حظى التصوف - وخاصة ابن عربي - بمعظم وقته حينئذ فقد عمل خلالها على إخراج كتب ابن رشد المنطقية لإخراجا علميا محققا ، وقطع شوطا كبيرا في هذا الصدد ، كما يعلم تلاميذه والمتصلون به ، لكن المنية أعجلته ، فقام على إتمامه وإصداره الباحث الأمريكي الدكتور تشارلز بترورث عن مركز الأبحاث الأمريكي بالقاهرة ، ولكل أجل كتاب .

وهكذا اكتملت في شخصيته العلمية - رحمه الله - مقومات الباحث المتميز في الفكر الإسلامي بعامه ، وفي علم الكلام بوجه خاص ، وكان إنتاجه وعمله في هذا المجال الأخير متسما بالسماوات التي تتناسب مع تلك المؤهلات والمقومات ، فخطا به خطوات ، وأرسى فيه مناهج وتوجهات ، وأعطاه من ذات نفسه وعقله ما سنعرض لبعض جوانبه في الجزء التالي من هذا المقال . وربما ساغ لنا أن نختم هذا الجزء الأول بما عرف عن أستاذنا باحثا ومحاضرا من تمكن لغوى وموهبة بيانية وحس دقيق بخصائص العربية وأسرارها البلاغية ، وهذا الجانب - فيما أعتقد - مقوم أساسي في كل باحث في كل لغة على وجه العموم ، لكنه يتأكد - بوجه خاص - فيمن يتعاملون مع التراث العربي الإسلامي . ولعل شباب الباحثين في الدراسات الإسلامية يتنبهون إلى هذه المقومات الأربع ، والأخيرة منها على نحو خاص ، أما أستاذنا فقد كان له من ذلك خط واف . ولعنائته بالأدب العربي ، استخدم في بحوثه الفكرية والفلسفية مراجع غير تقليدية على نحو بارع ، وقد يلتفت نظر قارئه - في هذا الصدد - ما استخلصه ، رحمه الله ، من «شرح نهج

البلاغة، لابن أبي الحديد ، ومن «الكامل» لابن الأثير (١) .

— ٢ —

أما عن المعالم والسمات التي استطاع الدكتور قاسم أن يجسدها في أبحاثه ويرسخها بقدر ما تيسر له في مجال الدراسات الكلامية في مصر فسنعرض هنا لخمسة منها هي :

١- الروح النقدية الصارمة .

٢- والسماحة الفكرية .

٣- والعناية بالمناهج الكلامية .

٤- والدفاع عن أصول العقيدة الإسلامية .

٥- واستلهام التراث الكلامي في النهضة الحضارية .

وأحسب أن هذه المعالم والسمات التي تميزت بها جهوده الفكرية ، والتي ورثها عنه نخبة فاضلة من تلاميذه الأنحاب ما تزال مرجوة التحقيق على نحو ملح، في الدراسات الفلسفية الإسلامية المعاصرة كي تنهض بدورها العلمي والاجتماعي في وقت معا . وسنتناول كلا منها بإيجاز فيما يلي :

١- كان لطبيعة الرجل الشخصية فيما يبدو أثر فيما غلب عليه من نزعة عقلية، بلغت حد الصرامة في بعض الأحيان ، وقد يتفاوت الناس والباحثون بفطرتهم - كما يقول شيخنا عبدالحليم محمود (٢) - بين نزعة عقلية موضوعية ، ونزعة عقلية نصية ، وأخرى وجدانية روحية ، ويظهر أن أستاذنا كان من الفريق الأول ؛ «كان

(١) انظر مثلاً قاسم : دراسات ٢٠٣ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ .

(٢) انظر له «المنقذ من الضلال» مع أبحاث في التصوف ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ، ط ٧ ، ص

- كما يقول أحد تلاميذه البررة - أكثر تعاطفا مع الجانب العقلى على وجه الخصوص ، وهذا التعاطف سمه من سمات فكره ، وملمح من ملامح شخصيته^(١) . ثم جاءت «النشأة الدرعية» لتزكى هذا الجانب - كما ألقنا - وتحرره من النفوذ الأشعري ، وكان للصحة الطويلة مع ابن رشد - بمنهجه العقلاني النقدي ، وموقفه المعروف من الأشاعرة والمتكلمين بوجه عام^(٢) - أثر فى ذلك أيضا . ويبدو أن دراسات قاسم المنهجية والتطبيقية قد أفنعت به أنه «ليست كل الأفكار السائدة صادقة ، بل إن أضعف الآراء يبدو فى مظهر الحقائق المسلم بها كلما طال الزمن ، وغلبت روح التقليد ، التى تعفى صاحبها من البحث ، والتى تتيح له أن يزهى بأراء لا يفهمها ، وقد ينكرها إذا فهمها ..»^(٣) ثم يضيف كأنه ينتفض صارخا : «ولسنا من هؤلاء الذين يعرفون الحق بالرجال ، وإنما يعرفون الرجال بالحق ، أى أننا لا نسلم بصدق الرأى تقليدا بل عن سبيل الاقتناع ، فإذا بدا لنا فساد رأى نبهنا إليه ، ودعونا الناس إلى وجهة نظرنا ، هذا إلى أنه إذا تبين خطؤنا فإننا أسرع الناس عودة ورجوعا إلى الحق»^(٤) .

والواقع أنه كان يتبنى بعض الآراء ، ويخلص فى نصرتها جهد طاقته ، بناء على منهجه العقلى ، ولاعتقاده أنها أكثر تعبيراً عن روح الإسلام الذى اعتد بالعقل وجعله مناط التكليف ولكنه كان يفسح صدره للآراء الأخرى ، وربما غير موقفه أو عدله قليلا أو كثيرا من بعض الاتجاهات والمذاهب ، كما قال وكما سيتبين لنا بإذن الله .

(١) مذكور : حوليات دار العلوم (مرجع سابق) ١٤٥ .

(٢) انظر «مناهج الأدلة» ١٣٤ وما بعدها .

(٣) السابق ١٢٤ .

(٤) السابق .

وإذا جاز لنا أن نبادر فنلخص تطور فكره ، من هذه الزاوية ، فنحن نعتقد أنه مال إلى نصرة المذهب الاعتزالي للأسباب السالفة ، ولسبب آخر أيضا إذ استفزه ما منيت به هذه الفرقة من اضطهاد وغب ، وخاصة في العصور الأخيرة ، مع دفاعها المشهود عن الإسلام ضد خصومه ومناوئيه من أهل الملل الأخرى من ناحية ، ومن دعاة الباطنية والغنوصية من غلاة الشيعة وفلاسفة الإشراق المتمسحين بالتصوف من ناحية أخرى (١) . وربما غلب هذا على فكره خلال الخمسينات وصاحبه نقد قاس للصوفية وللأشعرية أيضا ، قد تمتد بعض سهامه لتشمل المتكلمين والفقهاء بوجه عام (٢) .

لكن رؤية الحسن في «الماتريدية» منذ أول الأمر وتقدم أبحاثه في الكلام والتصوف بعد ذلك أدخلت على مواقفه بعض التعديل ، فتنزع في الستينات إلى إثارة منزع سلفي معتدل يقوم على العودة إلى الكتاب والسنة ، من خلال منهج رشيد لا يسرف في التأويل إسراف المتكلمين ، ولا يلتزم التفسير الحرفي للحشوية وغلاة الحنابلة في الوقت نفسه ، وهو خط قديم في فكره منذ كتب عن الأفغاني وعبده (٣) ، تأكيد فيما يبدو عند إعداد دراسته عن «ابن باديس» في منتصف الستينات (٤) .

ومنذ ذلك الحين وحتى مضى إلى جوار ربه أخذت صلبته بالتراث الصوفي تتوثق، ورأيه فيه يعتدل من ضيق وتوجس ورفض ، إلى قبول مشروط وتقدير هادئ ، فأصبح يتحدث عن التفرقة بين نوعين من التصوف : أحدهما فلسفي ،

(١) انظر مناهج الأدلة ١٢٢-١٢٣ ، ودراسات في الفلسفة الإسلامية ٢١٦ وما بعدها .

(٢) انظر ابن رشد وفلسفته الدينية ٢٦-٢٩ ، ودراسات في الفلسفة ٢٣٧ ، ٢٨٧ .

(٣) انظر قاسم : الإسلام بين أسسه وغده ط أولى الانجلو بالقاهرة ، ٢٠-٣٦ ، وجمال الدين الأفغاني حياته وفلسفته ٢٧ وما بعدها .

(٤) انظر قاسم : الإمام ابن باديس ، ط ١ ، دار المعارف سنة ١٩٦٧ ، ٢٧-٣٤ .

والآخر تصوف إسلامي حقيقى يقوم على دراسة الأخلاق الإسلامية ، ويعتمد على آيات القرآن وأحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم (١) - واتخذ موقفا مركبا من ابن عربى فهو لا يوافقهما تماما ولا يخالفه على طول الخط (٢) ، وهو إلى الإعجاب أدنى منه إلى الموافقة : «وأعترف من جانبي أننى كثيرا ما تساءلت .. : كيف أتيج لابن عربى أن يجمع هذا الخضم الذى لا ساحل له من النسق الفكرى العجيب ، والترابط المذهل بين تفاصيل ما كتبه فى الفتوحات المكية وفصوص الحكم وغيرهما من روائعه التى تجاوزت المئات .. كيف أتيج له أن يحشد هذا كله فى نسق عجيب يبدو لمن يعرفه شيئا فى غاية الوضوح .. وهل يجوز لى أن أصرح أن كتابات ابن عربى قد استحوزت على وقتى .. رغم أننى لا أرتضى بعض آرائه ونظراته ؟» (٣) .

وأيا ما كان الأمر بشأن هذا التطور فإن النزعة النقدية فى دراسات قاسم للتراث الكلامى هى أظهر سمات فكره . وقد يختلف الرأى حول مواقفه وأحكامه المذكورة آنفا ، لكن هذه الروح النقدية التى تتحرى النزاهة قد أعطت نتائج إيجابية للدراسات الكلامية فيما بعد تمثل فيما يلى :

أ- رد الاعتبار للفكر الاعتزالى كمحاولة إسلامية أصيلة - رغم ما شابها من قصور نظرى أو أخطاء عملية - لبناء تصور فكرى متكامل بديلا عن الأفكار الوافدة والمناهضة . نعم لقد سبقه إلى ذلك رائد آخر هو أبو ريدة - رحمه الله - لكن ظهور الفكرة من «دار العلوم» أعطاه قوة وزخما ، وتبناها تلاميذ مخلصون كالدكتور محمد عمارة وغيره ، فكادت توازن الهيمنة الأشعرية على البيئية المصرية إلى حد ما .

(١) مذكور : مرجع سابق ١٥١ وقارن قاسم : دراسات ٢٣٧ وما بعدها .

(٢) انظر قاسم : دراسات ٣٠٥ وما بعدها ، وابن عربى ولييتز - المقدمة .

(٣) قاسم : دراسات ٣٣٠ .

بـ تزايد العناية بالفكر المنطقي، وكانت في عصر شبه مجهول، فوجه الاستاذ الأتظلم إليه في قوة،، وكانت أول رسالة ذكرها فيها انقسام في منتصف الخمسينات في، والعقيدة المنطقية،، وكثر الدارسون بعد ذلك للمنطق في والمنطقية في عصر (١٩٧) ..

جـ- التميز بين المشاكل الحقيقية في علم الكلام والمشاكل الزائفة. . . وكان يرى أن أكثر الخلافات الكلامية العقلية لا محصل لها، وهي فكرة عقلية بالغة الأهمية يتناولها من بعده في قوة وبراعة تليها الباري الدكتور حامد طاهر رئيس قسم الفلسفة الحالي (١٩٣) ..

د- مقاومة المنهج المنطقي الخرف في فهم التصور من اللبنة ووسائلها العقلية الكلامية من ناحية،، والمنهج البلاغي المنطقي الثلاث على إعلان التصور، وقوانين التحويل المنطوية والشرعية والعقلية من ناحية أخرى (١٩٣)،، وأحسب أن هذا الموقف الراسخ هو الذي يسود أوساط الدارسين الآن ..

٢- كذلك الأستاذ الراحل - برغم مراقبه وتوجيهاته الشخصية - يتخذ موقفا متساهلا من جميع المذاهب والاتجاهات الكلامية، ويفصح لها الجبال للدراسة ويشجع طلابه على ذلك، ولهم يعطون ألبا أن يقتصر جهوده أو جهود العالمين معه على مدرسة بعينها أو تيار بعينه،، لفتد كذلك يرى أن نور العلم والمعرفة هو السبيل إلى الخيار الصحيح وليس الفهر أو التقليد،، ومفاده ناحية قد تبلور قليلة الأهمية لكن اعتبارها بالغة الأهمية؛ فالأوساط البلاغية البحثية تتنازعها أحيانا توجهات متطرفة بهذا الصدد،، ومما لم تستقر موازين الموضوعة،، والظرة التكاملية الشاملة

(١٩١) الشافعي: المنطق (مجمع سابق) ١٨٦٩-٩١١ ..

(١٩٢) انظر حامد طاهر: الفلسفة الإسلامية في العصر المكي - الفصل الخامس.. ط ١١٩٩٣ .. القاهرة ١٩٩٣ ..

(١٩٣) انظر تلمس: دراهم ١٩٧٧ ومجلد طبعه من المنهج الأثني ١١١، ١١٣٥، ١١٣٦ ..

إلى التراث الإسلامى كله بجميع عناصره ومكوناته ؛ فإن البحث العلمى يخسر ولا يكسب ، والجو الثقافى يجمد ويتلبد ، وما دمننا نقصد خدمة الأمة فلندع كل الزهور تفتتح ، ثم يكون الاختيار فى ضوء المعرفة ، وعلى أساس الدليل المقنع والبرهان الصحيح :

أ- كنت أعمل تحت إشرافه أنا والزميل الراحل محمد صالح الزركان ، لدرجة الماجستير ، فى إطار المذهب الأشعرى .

ب- وكان الزميل الدكتور محمد أنور السنهوتى ومن بعده الزميل الدكتور عبداللطيف العبد يعملان معه للدرجة نفسها فى إطار الفكر الشيعى .

ج- وكان الزميلان الفاضلان الدكتور عبدالحميد مدكور والدكتور حامد طاهر يعملان فى حقل التصوف .

د- وكان الزميل الدكتور إبراهيم هلال ومن بعده الدكتور محمد الجليلند يعملان فى ميدان الفكر السلفى .

هـ- وكان الزميل الدكتور محمد عمارة يعمل فى مجال الفكر الاعتزالى .

و- وكان الزميل الدكتور مقداد يالجن يعمل فى مجال الفكر الأخلاقى .

وكان الجميع يحفظون بالرعاية والتشجيع ، كل حسب جهده وموهبته ، وقد واصل الدكتوران السنهوتى وعمارة العمل معه «الدكتوراه» فى المجال الذى اختص به كل منهما ، وكذا الدكتور مدكور والدكتور مقداد من بعد ، وانتقلت إلى الفكر الشيعى كما انتقل الدكتور حامد طاهر إلى دراسة ابن حزم ، وسجل الدكتور الجليلند فى المقارنة بين المدرستين الأشعرية والاعتزالية ، وسجل الدكتور هلال فى نظرية المعرفة الإشراقية ، وهكذا تبادل البعض المواقع ، لكن موقعنا من قلب الأستاذ وعقله ، وحظنا من علمه وخبرته ، لم يتغير بحمد الله . وإنى لأقر هذا ، مع ما

يعرفه البعض من سحابة عابرة مرت في سماء العلاقة الحميمة التي كانت وما زالت تربطني به حيث هو من جوار ربه ، وقد تلقيت بعض رسائله ، وأنا مغترب عن الوطن للدراسة بتشجيع مخلص منه ، وكنت أتلوها في الوقت الذي مضى هو فيه إلى ذلك الجوار الكريم ، ولازلت أدعو له كل يوم بل كل صلاة ما لم يغلبني النسيان، فهل سنستحق من طلابنا مثل هذا الدعاء بظهر الغيب !؟

إن السماح فيه ترجع إلى الروح النقدية نفسها ، فلا معنى للنقد إلا بالحرية والتعددية ، وعدم الخضوع إلا لسلطان الدليل ، كما ترجع أيضا إلى روح مصرية أصيلة ، حافظت عليها «دار العلوم» من محمد عبده إلى محمود قاسم ، وما أحرأها أن تعض عليها بالنواجز بعد أن تأكدت الحاجة إليها ، واستلزماتها أطوار الفكر الإسلامي نفسه في المنطقة العربية .

٣- عنى أستاذنا في دراسته بالخارج بعلم «المناهج» ، وكانت دراسته «للدكتوراه» تلم بهذا الموضوع أيضا ، فمصدرها ، الأساسى «مناهج الأدلة» ، وقد ألف عقب عودته واحدا من أهم أعماله فى «المنطق الحديث ومناهج البحث» يعد علامة بارزه فى تطور المؤلفات العربية فى هذا المجال . وكان - رحمه الله - على قناعة راسخة بأن المنهج الصحيح هو وحده الطريق إلى النتائج الصحيحة (وأن أى تقدم فى الشرق وفى الثقافة العربية لن يكون أمرا حقيقيا إلا إذا عدلنا نظرتنا إلى طرق البحث وأساليبه)^(١) وكان مع ذلك يرى أن الحياة العامة للمسلمين بحاجة إلى إشاعة المنهج العلمى بينهم لمعاودة النهوض الحضارى من جديد ، وأن الدراسات الإسلامية - وسائر الدراسات الاجتماعية - بحاجة إلى تحقيق المنهج وتحريره ، ونشره وإشاعته ، ولذا عنى فى كتابه المذكور وفى دراسات أخرى مستقلة باستلهام التراث الإسلامى فى هذا الصدد ، جمعا بين الأصالة والمعاصرة ، ومتابعة

(١) قاسم «الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية» ط الحلبي ص ٢٢ .

لدور «دار العلوم» فى الحياة الثقافية المصرية (١) .

وإذا كانت هذه قناعاته بالنسبة لجميع العلوم ، فلقد كان من الطبيعى أن يصدر كتابه الذى كاد فيه - كما حكينا من النشار - يطاول بقامته قامه ابن رشد نفسه؛ نعى تحقيقه لكتاب «مناهج الأدلة فى عقائد الملة لابن رشد» الذى مهد له بمقدمة ضافية بالغة القوة والإثارة ، «فى نقد مدارس علم الكلام» ، ولعله من الحق على أن أقرر هنا أيضا أنه هو الذى اقترح عليّ ، فى دراستى لسيف الدين الآمدى وكتابه «غاية المرام فى علم الكلام» ، أن أفرد بابا لدرسه «المناهج الكلامية ودور الآمدى فى تطويرها ونقدوها» ولعله كان من أهم أجزاء هذه الدراسة التى أجزيت فى أواخر الستينات ، وقد تتابعت الدراسات بعد ذلك فى الأزهر وغيره من الجامعات ، فى هذا الميدان الذى كان قليل الحظ من عناية الباحثين .

ويؤكد أستاذنا فى أعمال أخرى له على أهمية المنهج فى الدراسات الفلسفية بوجه عام ؛ فيقول فى مقدمة كتابه «دراسات فى الفلسفة الإسلامية» نريد أن نحدد المنهج الذى التزمناه فى هذه الدراسات .. إن هناك منهجين فى دراسه هذا الفكر (الإسلامي) تغلب على أحدهما المسحة التاريخية ، وتبرز فى الآخر الناحية الموضوعية ؛ إذ من العسير فى هذا المجال أن نفصل بين هاتين الناحيتين ، وإن أمكن أن نجعل الصدارة لإحدهما دون الأخرى .. (٢) وبعد أن يحدد خصائص كل منهما ، ويبين مزاياها وعيوبها ، ومن سلوكها من مشاهير الباحثين المعاصرين ، يذكر أنه يؤثر الطريقة الموضوعية التى تمثلها أعمال الأستاذ الدكتور إبراهيم بيومى مذكور (٣) . وإن كان فى الكتاب نفسه يذكر أن العبرة فى المنهج بطبيعة المادة

(١) انظر مذكور : مرجع سابق ١٤٨ ، ١٥٠ .

(٢) قاسم : الدراسات ٥ .

(٣) السابق ٦ .

التعليمية والموضوع ، ولذا فإنه سيتبنى فى بحثه عن «نشأة التصوف» كلا المنهجين معا (١) .

أ- ولعل أهم الأفكار المنهجية فى إحياء علم الكلام المعاصر هى الفكرة التى استمدتها أستاذنا من ابن رشد فى «مناهج الأدلة» (٢) وهى العودة إلى براهين القرآن الكريم فى إثبات العقائد الإسلامية ، بدلا من الأفكار الجدلية التى تلجأ إليها الفرق الكلامية المتنازعة ، «ولو رجع هؤلاء إلى المصدر الأول لدينهم ؛ أى إلى القرآن ، لوجدوا فى أدلته غناء ، ولرحموا عقول العامة ، ولما كلفهم مالا يطيقونه» (٣) ، وقد حاول كاتب هذه السطور أن يطور هذه الفكرة ويبين أبعادها ودواعيها القديمة والمعاصرة فى بحث له عن «قضايا المنهج فى علم الكلام ، والعلاقة بين العقل والنقل» (٤) .

ب- وفكرة أخرى ترتبط بسابقتها ، وهى الحاجة الماسة إلى «قانون للتأويل» تفسر فى ضوئه النصوص الشرعية فى المسائل الاعتقادية ، فقد سببت فوضى التأويل أخطاراً ومشاكل مزمنة ، وقد عنى بهذه المسألة الغزالي الأشعرى فى «فيصل التفرقة» وابن تيمية السلفى ، فى العديد من كتبه ورسائله ، وابن رشد فى خاتمه «مناهج الأدلة» (٥) . ويقول أستاذنا فى موضوع آخر من كتبه : «لقد أخطأ المتكلمون خطأ كبيرا عندما ركنوا إلى التأويل فى الشرع على نحو لا تضبطه قاعدة ، مما أدى إلى تعدد التأويلات وتضاربها وتعارضها .. وقد بدأ هذا البلاء الأعظم فى الشريعة الإسلامية بظهور الخوارج وما تبع ذلك من انقسام المسلمين ..

(١) السابق ٢٣٩ .

(٢) السابق ١٣٥ - ١٣٦ .

(٣) السابق ١٥ .

(٤) انظره فى العدد الأول من سلسلة «دراسات عربية إسلامية» ص ١ - ٦٠ .

(٥) مناهج الأدلة ٢٤٩ - ٢٥٢ .

إلى طائفتين كبيرتين هما المعتزلة والأشاعرة ..^(١) ويثنى أستاذنا في موطن آخر على ابن باديس ، حيث «بدأ هذا المفكر فلسفته النظرية والعملية بمحاولة إحياء القرآن في قلوب مسلمي الجزائر .. وكان هذا الإحياء عن طريق تفسيره وفقا لمنهج السلف ، ومعنى ذلك أنه أراد تطهير العقائد من الأوهام والأباطيل التي شوهتها ، فجعلت الدين يبدو في نظر كثير من المؤمنين به كما لو كان مضادا للعقل ، كما تبنت مفاهيم خاطئة ، انتهت بتفتيت الأمة ، وكادت تقضى على مقوماتها الأساسية»^(٢) إنه التفسير الذي يتجافى عن حرفة الحشوية ، وتحريف الباطنية ، وقد طور هذه الفكرة الزميل الفاضل الدكتور الجليلند في بحثه عن (قضية التأويل) لدى ابن تيمية . وهذه الأفكار يمكن أن تعطى «علم الكلام» دماء جديدة ، وقد تجمع صفوف المؤمنين من جديد ، إذا ما أفيدها منها على نحو رشيد ، دون سطحية أو جمود .

ولعلها أيضا تؤكد ما سبق أن ألحنا إليه من تطور موقف أستاذنا من الفرق الكلامية ، ونزوعه إلى لون من السلفية المعتدلة ، بعد أن كان يدعو إلى لون من «الاعتزال المعتدل»^(٣) وما تزال العناية بدراسة مناهج البحث العلمي بوجه عام - وفي نطاق الدراسات الكلامية - موضع الاعتبار . ومن أبرز الجهود في هذا الصدد جهود الدكتور حامد طاهر ، والدكتور مصطفى حلمي وكاتب هذه السطور مشاركته في ذلك .

٤- عني أستاذنا - رحمه الله - كما ذكرنا من قبل بنقل بعض عيون التراث الإنساني في الغرب من الفرنسية إلى العربية ، لكنه لم يكن مجرد ناقل ، بل كان

(١) قاسم : ابن رشد وفلسفته الدينية ، القاهرة ١٩٦٤ ، ١٥٥ - ١٥٦ .

(٢) قاسم : الإمام عبدالحميد بن باديس - الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ، القاهرة ، دار المعارف ، ط أولى ص ٨٣ .

(٣) قاسم : الإسلام بين أمسه وغده ، الانجلو المصرية ، ط أولى ، ٦٣ - ٦٦ .

يتصدى لمناقشة المضمون والرد عليه من وجهة النظر الإسلامية ، كلما وجد ذلك ضروريا ، فالكلمة المكتوبة لها سلطانها ، ولا ينبغي أن تدع القراء - وليسوا جميعا متخصصين - فى مهب رياح الحيرة والاضطراب كما أن البحوث الاستشراقية - مع افتراض حسن النية - لا تخلو من أخطاء توجب على المتخصصين المتصلين بهذه البحوث مناقشتها . واعتقد أنه كان بذلك يقوم -على نحو ما - بعمل يتصل بإحدى وظائف علم الكلام ، الذى يستهدف أولا إثبات العقائد الإسلامية بالبراهين العقلية والنقلية من الناحية الإيجابية ، ويستهدف ثانيا رد الشبه الواردة على هذه العقائد من الناحية السلبية^(١) ، وهذه الناحية الأخيرة تعنى التصدى للأفكار المناهضة للدين والعقيدة الصحيحة . ويتصور بعض المشتغلين بعلم الكلام أن هذا يعنى التصدى للفرق المبتدعة مع افتراض أكثرها ، وقد يتصور البعض الآخر أنه يعنى الجدل الدينى مع الملل الأخرى ، بما فى ذلك الأديان السماوية . مع أن الأفكار المناهضة للدين قد تأتى من مجال آخر ، وخاصة مجال العلوم الإنسانية ، وهى تحتاج إلى استيعاب دقيق ، وتمكن فى الجانبين العلمى والدينى ، كى يمكن فرز هذه الأفكار المتعارضة حقا مع الحقائق الدينية ، ثم ردها وكشف شبهاتها ، وقديما قال الغزالى : «إنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم فى أصل ذلك العلم ، ثم يزيده عليه ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة . وإذا ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساد حقا» . وإذا كان الغزالى قد حاول ذلك فى الماضى ، فهل نملك فى الحاضر هذا المستوى العلمى المؤهل لنقد العلوم الاجتماعية المعاصرة ؟

لقد آتس أستاذنا من نفسه كفاءة الرد ، على كل حال ، وتصدى فعلا لأعلام المدرسة الفرنسية فى علمى الاجتماع والأخلاق ، فشق بذلك الطريق لهذه المهمة الدينية الكلامية ، وإن جاز التعبير «الفريضة الغائبة» ، التى لم يعد ينهض بها من

(١) المنقذ من الضلال (مرجع سابق) ١٢٦ .

المسلمين إلا واحد بعد واحد ، وعلى فترة وتباعد ، ورحم الله الأستاذ العقاد .

أ- يتصدى أستاذنا فى أكثر من موضع - من مترجماته ومؤلفاته - للنظرية التى تحاول تفسير نشأة الدين تفسيراً اجتماعياً ، وتزعم أن التوحيد تطور لاحق ظهر مع الإمبراطوريات الكبرى ، ويعارضها بنظرية «فطرية الدين» وأن التوحيد هو العقيدة الأصلية الأولى ، وإنما تأتى الرسائل وتظهر النبوات عند الانحراف عنه لإعادة الناس إليه ، وهو يسخر - كما سلف ذكره - من هذه النظرية قائلاً : «ولا ريب أن الإبقاء على نظرية عفى عليها الزمن للدليل على أن حركة الاتصال الفكرى بين الشرق والغرب ما زالت مضطربة .. وفى هذه النظرية العلمية المزعومة ما فيها من إنكار وجحود للديانات والرسالات والعقريات ..»^(١) ، ويبين كيف نقضها العلماء الفرنسيون أنفسهم ، وما يرتبط بها من فكرة «التوهم» وأسطورة العقل الجمعى . ويتعرض لزعمهم أن نشوء الإمبراطوريات هو الذى أدى إلى فكرة التوحيد بأن أنبياء بنى إسرائيل جاءوا بهذه العقيدة ولم تكن لهم إمبراطورية ، «أما الإسلام فنعلم أنه دين التوحيد والتزيه بمعنى الكلمة ، كما نعلم أنه كان سبباً فى نشأة إمبراطورية ضخمة نبعت من رمال الصحراء»^(٢) مؤكداً أن مهمة العلم والفكر الفلسفى تفسير الدين وظواهره فحسب لا إنشاؤه ولا هدمه ، كما تحاول بعض المدارس الاجتماعية التى تتابع دور كاييم وأستاذه كونت .

ب- ويناقش أيضاً فكرة باستيد «أن العقائد الإسلامية تطورت ، كما هى الحال فى العقائد المسيحية» قائلاً ، «وأغلب الظن أن جهله بعقائد الإسلام ، وبالإسلام نفسه ، كان سبباً فى جنوحه إلى هذا الرأى .. والعقائد الإسلامية لم

(١) قاسم : مبادئ علم الاجتماع الدينى لباستيد ، الأنجلو المصرية بالقاهرة ص ٢ ، وانظر مذكور - مرجع سابق ١٥٠ ، وانظر تعليقه هو والدكتور إبراهيم سلامة على هذه النظرية فى هامش ص ٤٩ من كتاب شارل بلوندل «مقدمة فى النفس الاجتماعى» ط الأنجلو بمصر .

(٢) قاسم : مبادئ علم الاجتماع الدينى ٧ .

تتطور لهذا السبب اليسير ؛ وهو أن القرآن دون مباشرة ، ولأن هذه العقائد تتجه إلى العقل قبل كل شيء ، فلا يشعر بحاجة إلى تعديلها وتحويرها . ويمكن أن نستشهد هنا بجولدتسيهر ، الذى لم يكن منصفاً دائماً فى دراسته للإسلام ، فهو لم يجد مفراً من الاعتراف بأنه لا يمكن المقابلة بين العقائد الإسلامية وبين العناصر الدينية الأساسية فى أى كنيسة مسيحية ، فليس فى الإسلام مجامع دينية يحمى فيها وطيس المناقشات والمجادلات حتى يصل المجتمعون إلى تقرير القواعد الدينية ، والصيغ الدينية التى يتحتم اعتمادها ، ولا توجد فى الإسلام وظائف كهنوتية أو سلطة دينية تمثل المعيار القويم للسنة .. ونقول : إنه إذا لم توجد فى الإسلام هذه الأمور كلها فالسبب فى هذا يرجع إلى أن الإسلام يقرر أن العاطفة الدينية فردية ، وأن الصلة بين الفرد وربّه لا تحتاج إلى وساطة اجتماعية ثم يضيف الأستاذ بعد قليل : «والحق أن المستشرقين وأتباعهم يعرضون لدراسة الإسلام ، ولكن دراستهم لا تخلو من التعصب إلا فى القليل النادر» (١) .

ج- على أن الدراسات الكلامية يمكن أن تفيد إيجابياً من متابعة التقدم فى البحوث الإنسانية - وليس الأمر أمر الدفاع أو التفنيد فقط - فنجد أستاذنا حين يعرض لرأى ابن باديس فى «الحسن والقبح» وأنهما ذاتيان فى الأشياء ، ويمكن للعقل التمييز بين الحسن والقبح منها - يقول بأن رأيه هذا لا يخالف رأى بعض المتكلمين من علماء المسلمين الذين جرّهم الجدل مع خصومهم إلى الغلو ، فقالوا : إن الحسن لو ورد به نهى لانتقلب قبيحاً ، والقبيح لو جاء به أمر لأصبح حسناً .. ومعلوم أن هؤلاء يحتجون .. أن نظرة الناس تختلف باختلاف الظروف . كذلك يحتجون لرأيهم بأنه لا سبيل إلى إنكار نسيبة الأخلاق لدى الأمم ، واختلاف التشريع باختلاف الديانات ، فالقيم الأخلاقية ليست ثابتة أو مطلقة بل هى فى

(١) السابق ٧ ، ٨ .

تطور مستمر» ثم يرد على ذلك مباشرة : «وقد تبدو هذه الحجة قوية ، وربما ظن بعضهم أن الدراسات الأخلاقية الحديثة تؤكد صحتها لكن ليس الأمر بمثل هذا اليسر ؛ لأن القول بنسبية الأخلاق ليس على إطلاقه ؛ فإن هناك أصولا كبرى تتفق عليها الشرائع السماوية والوضعية ، وهذه الأصول ثابتة كوصف الظلم بأنه شر قبيح ، ووصف الأمانة والصدق بأن كلا منهما حسن وخير . أما الفروع ... فإنها تتطور ، وعندئذ توصف بأنها نسبية . فالواجب أن نفرق بين نوعين من الحسن والقبح أحدهما ذاتي بالفعل والآخر يحتاج العقل في إدراكه إلى عون الشرع...» (١).

٥- وآخر ما سنعرض له من تلك السمات التي تميز بها عمله - رحمه الله - في نطاق علم الكلام - أستاذا وباحثا ، أنه كان يعرف جيدا أن موضوع هذا العلم هو العقيدة ، وأنه لا انفصال بين العقيدة والعمل ، وأن العقيدة هي التي ولدت الحضارة الإسلامية وليس العكس ، ومن ثم فإن الفكرة في هذا المجال خاصة ذات تأثير كبير ، إنها خيار حضارى ومسئولية تاريخية ، قبل كونها بحثا نظريا ومسئولية علمية ، وهذا هو سر عنايته الفائقة بالفكر الإسلامى الحديث والمعاصر ، وتقططنه إلى الأصول العقائدية التي ينبع منها بجانب المشكلات الواقعية ، وتوجسه من البحوث الاستشراقية في هذا الصدد ، ومتابعته لآخر المعارك التي خاضتها الأمة الإسلامية في جيله للخلاص الحضارى من ربقة الغرب على أساس عقائدى ، ونعنى بذلك معركة تحرير الجزائر . لقد كتب أستاذا عن «شيخ المصلحين» في العصر الحديث ، كما يسمى هو جمال الدين الأفغانى (٢) ، وأولى من خلال ذلك اهتماما خاصا بمحمد عبده ، وهو بحق «رائد الفكر المصرى الحديث» ، وكتب عن أحوال العالم الإسلامى المعاصر في نهضته التحررية والحضارية كتابه «الإسلام بين

(١) السابق.

(٢) انظر كتابه «جمال الدين الأفغانى - حياته وفلسفته» .

أمسه وغده» ، ثم دفعته علاقته الخاصة بالجزائر المسلمة إلى أن يصدر بعد انتصار ثورتها كتابه «الإمام عبد الحميد بن باديس - الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية» . وهو يؤمن بأن أساس النهضة والتحرير هو الأخلاق . ولا أخلاق بلا عقيدة ، والعقيدة الصحيحة تقوم على النبوة والوحي .. وهذا هو سر العمل الروحي الطويل النفس لابن باديس في إحياء الجزائر بالقرآن الكريم .. وترسيخ عقائده وأخلاقه ، ومن ثم حضارته .. وهو العمل الذي نهض به المصلحون الحقيقيون من قبله ومن بعده . فلنأخذ ابن باديس مثلاً قريباً :

أ- يرى أستاذنا أن ابن باديس كان يعلم أنه يحارب معركة «الهوية الحضارية» قبل أى شئ آخر : «لأن الجزائر بلد عربى ، ومن ذا الذى يفكر فى إنكار هذه الحقيقة ؟ وهى أرض إسلامية ، وذلك حق أيضاً . ومهما يكن من إرادة الامبريالية فى الماضى والحاضر ، ومهما يكن من قوة جرابها فإن هذه الظاهرة التاريخية تظل صادقة كل الصدق» (١) . كان ابن باديس يقول هذا فى الثلاثينيات من القرن الحالى وفى ظروف مختلفة تماماً ، لكن التاريخ صدق قوله فى أقل من نصف قرن .

ب- لكن الأرض الحقيقية لمعركة الهوية هى العقيدة ، من ثم يولى أستاذنا مساحة كبيرة من عمله هذا «للأساس الفلسفى الذى بنى عليه ابن باديس فكرة تحرير الجزائر عن طريق تصحيح المفاهيم الروحية . فكلنا يعلم أن شعار حرب التحرير الجزائرية (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وهذا الشعار يرتبط بفكرة القضاء والقدر من جانب ، وبحرية الإنسان من جانب آخر ، وقد أتى لى أن أعقد مقارنة فى هذا الموضوع بين ابن باديس والإمام الماتريدى وابن رشد ؛ لقد عاش الماتريدى فى القرن الثالث الهجرى ، وابن رشد فى القرن السادس الهجرى ، فى حين عاش ابن باديس فى القرن الرابع عشر الهجرى ، والأول كان

(١) قاسم : الإمام عبد الحميد بن باديس ، دار المعارف بالقاهرة ، ط ٢ سنة ١٩٧٩ ، ص ١٣ .

فى المشرق ، والثانى بالأندلس ، والثالث بالجزائر - لكنهم اجتمعوا على فكرة واحدة ، وهى أن الاعتراف بالقضاء والقدر ليس معناه إنكار حرية الإنسان وقدرته على تغيير الواقع أو التنكر للعلم والبحث ...» (١) . وطبيعة المعركة على هذا النحو كانت واضحة لدى المعتدين «فالبراجوازية الفرنسية التى نفذت أحكام الإعدام فى القسس وأحرقت الكنائس ، وحاولت محو الدين المسيحى فى فرنسا المسيحية .. اتخذت فى الجزائر مسلكا مخالفا فحولت المساجد إلى كنائس ، ومجلدت المسيحية واستخدمت أموال المسلمين لتصبرهم ، وهكذا أحييت الروح الصليبية عندما رفعت علم المسيحية ضد الإسلام ... وصرح الكاردينال (لافيجرى) : علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدا لدولة مسيحية تضاء أرجاؤها بنور مدنية منيع وحيها الإنجيل ..» (٢) ألا يفسر لنا هذا هتاف الجزائريين غداة التحرير : «يا محمد مبروك عليك الجزائر رجعت إليك» .

ج- لكن ابن باديس كان يوصى ويقرر بلا ضجة ، أن الجزائر لن تستضىء إلا بنور مدنية منبعها القرآن ، وذلك عن طريق الأخلاق الإسلامية «فقد أحييا للجزائريين أخلاقهم الإسلامية واستنبطها من القرآن الكريم .. كان يرى أن المكلف المخطأ من الإنسان هو نفسه .. وأن صلاح الإنسان وفساده إنما يقاسان بصلاح النفس وفسادها ، .. ويربط صلاح الفرد بصلاح المجتمع بتحقيق ما جاء به الدين ..» (٣) . فالأخلاق مرتبطة بالدين والدين يقوم على العلم الصحيح «وترك هذا الأصل فى الدين هو الذى أدى إلى التقليد فى العقائد والفروع .. وعلاج ذلك أمر عسير ؛ ذلك أن أدلة العقائد توجد فى القرآن واضحة سهلة ، أما فيما يتعلق بالأحكام فأصولها مذكورة فى هذا الكتاب الكريم ، والسنة حوت تفاصيلها ؛

(١) السابق ١٤ ، وانظر ٩٦ وما بعدها .

(٢) السابق ١٠ - ١١ .

(٣) السابق ٩٠ .

ولذا يوجب ابن باديس أن يرجع الناس عامتهم وخاصتهم في أدلة العقائد إلى القرآن .. لقد حرص ابن باديس أن يثبت في أذهان مواطنيه أن الله وهبهم العقل المميز المفكر والإرادة الحرة ومهد لهم الأسباب التي تؤدي إلى نتائجها .. (١) .

د- لكن هذه المحاولة الواعية لتحقيق البعث الروحي والأخلاقي قاعدة للتحرر السياسى والحضارى اصطدم ببعض أتباع الطرق ممن لا يفهمون الدين الصحيح ، وقد يجرهم ذلك إلى خدمة المستعمر بوعى أو بدون وعى ، فتصدى لهم ابن باديس، لكنه كان يحارب أولئك الصوفية «الذين أخذوا أنفسهم بنسك الأعاجم ، واخترعوا أعمالا وأوضاعا وعقائد من عند أنفسهم ، وظنوا أنهم يتقربون بها إلى الله ..» (٢) لقد كان محمد إقبال ، وفكره مضمخ بالصبغة الصوفية ، يفرق أيضا بين التصوف المحمدى والتصوف الأعجمى . على أن ابن باديس كان رفيقا بإخوانه الدين يشفق عليهم أن يقعوا فريسة الخديعة الماكرة لعدوهم ، فيمد يده للطريقين .. شريطة ألا يكونوا آلة مسخرة في يد نواح اعتادت تسخيرهم ، فكل طرقى مستقل فى نفسه .. فنحن نمدّ يدنا له للعمل فى الصالح العام .. (٣) .

هـ- هكذا يتصور الفقيه الراحل دور ابن باديس رائدا روحيا للثورة الجزائرية، ويصور من خلاله أيضا دور العالم - بل والمثقف - المسلم وخاصة فى مجال الفكر العقائدى ، وهو يتوجس خيفة - وهو العالم الذى عاش فى الغرب واتصل فى عمق بالثقافة الغربية - أن يزيغ وعى هؤلاء بأية محاولات مأكرة ، فالفكر عنده - كما ألحنا - خيار حضارى . يقول فى مقدمة كتابه عن ابن باديس : «إن الاستعمار الفرنسى استطاع بجبروته وعسفه أن يفرض لغته على كثيرين من المثقفين فى

(١) السابق ٩١ - ٩٣ .

(٢) السابق ٩٢ .

(٣) السابق ٩٥ .

الجزائر وشمال إفريقية ، غير أنه لم يستطع أن ينال كثيرا من العقيدة الإسلامية ، رغم ما بذله المختصون في شئون الثقافة من محاولات لفصم العقلية الجزائرية ، عن طريق تمجيد التصوف الكاذب .. على نحو ما نراه في مؤلفات لويس ماسينيون الذى خصص حياته للكتابة عن الحلاج فجعله صورة من المسيح فى الإسلام . وأعتقد أن ماسينيون ما كان يعنى بالحلاج بقدر عنايته بتنفيذ مخطط استعماري أحكم صنعه .. حتى يعمق الهوة بين طائفتين توجدان بالجزائر : طائفة تتمسك بالقديم .. وطائفة مثقفة بالثقافة الحديثة تتجه إلى السخرية والزراية بهذا الإسلام الخرافى بل من الإسلام كله.. (١) . إن أستاذنا لا يقصد إدانة الفكر الغربى ولا المفكرين الغربيين كافة ، فقد استنكر الأحرار منهم تلك المحاولات التى تهدف إلى الإبادة أو التدمير الحضارى لا مجرد الغزو الفكرى ، فيقول : «أصدر وزير داخلية فرنسا قرارا فى ٨ مارس ١٩٣٨ يمنع تعليم اللغة العربية فى الجزائر .. لكن الاستعمار لم يقف عند هذا الحد ، بل قاد حربا أخرى ؛ هى الحرب الدينية التى تجلت فيها روح الحروب الصليبية ، فأخذت تهاجم بعنف القيم الإسلامية ، ولقد أعلن «توكفيلي» استنكاره لأساليب هؤلاء الذين أخذوا على أنفسهم تدمير المجتمع الجزائرى ..» (٢) وهكذا اضطرعت الإدارات ، وتدافعت الجهود ، وانتصرت الحقيقة فى النهاية ، ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾ (٣) .

تلك هى مسيرة أستاذنا الفقيه فى إعداد نفسه باحثا وأستاذا ، وتلك هى لمحات من جهوده الفكرية فى حياته القصيرة الغنية ، فهل صدقت حين قلت فى

(١) السابق ٧ ، ويؤكد قاسم فكرته هذه عن أعمال ماسينيون فى بحوث أخرى له - انظر «دراسات فى الفلسفة الإسلامية» ص ٢٢٦ وما بعدها .

(٢) السابق ٩ - ١٠ .

(٣) جزء من الآية ١٧ من سورة الرعد .

البداية إن محمود قاسم لم يترك الدراسات الكلامية عند رحيله كما تلقاها في مطلع تكوينه ؟ وهل أفلحت في تصوير ذلك ؟ .

إن الوفاء الحقيقي لأستاذنا - فيما أعتقد - هو أن نواصل مسيرته ونتابع جهوده في خدمة مجتمعاتنا وأمتنا ، وقد اجتازت مرحلة التحرير ، إلى مرحلة البناء الحضاري ، فهل يسهم المشتغلون بعلم الكلام ، والدراسات الإسلامية بعامة ، في هذا الجهاد النبيل ، ويوجهوا جهودهم هذا التوجيه الجديد الأصيل ؟ هذا ما نأمله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .



النهضة الإسلامية فى فكر محمود قاسم

أ.د. عبد الحميد عبد المنعم مذكور*

تهيد :

لكل فكر مكتمل قواعده وأسسه التى يقوم عليها ، ويستند إليها ، وله محاوره الجوهرية التى ينشغل بها ، كما أن له غاياته التى يسعى إلى تحقيقها . وقد يصرح المفكر نفسه بهذه العناصر المنهجية ، التى تحكم نشاطه العقلى ، وتوجه اهتماماته الفكرية ، ولعله ، فى بعض الأحيان - يدفع إلى ذلك دفعا ، لاسيما إذا كان يتصدى لدراسة بعض المسائل التى تختلف المواقف حولها ، أو يشور النزاع بصدددها . ولاشك أن قيام المفكر نفسه بتحديد منهجه ، وإبراز خصائصه وملامحه يزيد فكره وضوحا ، ويجعل من السهل متابعته فى جوانبه المختلفة التى تبدو على الرغم من اختلافها - متماسكة ، تمثل فى مجموعها نسقا فكريا متلاحما .

* أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد بكلية دار العلوم ، جامعة القاهرة .

لكن الأمر لا يكون على هذا النحو دائما ، فكثيرا مايترك المفكرون لغيرهم فرصة القيام بهذه المهمة ، وهى مهمة لاتخلو من صعوبة ، ولكنها - مع ذلك - ليست مستحيلة ، وهى تحتاج - فى كل الأحيان - إلى صبر ومثابرة وإمعان نظر ، فإذا تحقق ذلك كان الوصول إلى تحديد خصائص هذا الفكر أمرا ميسورا .

ويمكن القول بأن ماقدمه الدكتور قاسم من أفكار وآراء حول نهضة العالم الإسلامى من وهدهته التى انحدر إليها بعد عصور ازدهاره الأولى كانت أفكارا واضحة المعالم ، متكاملة العناصر والحلقات ، وأنها تمثل جانبا شديدا الأهمية من جوانب فكره ، وربما لم ينل هذا الجانب ما يستحقه من اهتمام ، إذا قورن بالقضايا الكثيرة التى تضمنها تراثه الفكرى والفلسفى ، وما بذله فيها من جهد ، كان يصل إلى حد المعارك الفكرية أحيانا ، ويمكن الإشارة ، إلى موقفه من ابن رشد وعلاقته بتوماس الإكوينى ، وإلى دفاعه عن فكر المعتزلة ، واعتبارها أكثر الفرق الإسلامية تمثيلا للروح الإسلامية ، التى ترجع إلى الكتاب والسنة ، ثم فى دراسته لبعض قضايا التصوف وأعلامه ، لاسيما ابن عربى ، ويمكن أن نضيف إلى ذلك عددا لا بأس به من القضايا الأخرى ، التى تكشف عن أصالة فكره ، ووضوح شخصيته العلمية ، وابتعاده عن ترديد الآراء المشهورة ، ومناقشته لها .

وعلى الرغم من أن أفكاره عن النهضة الإسلامية لم تنل مثل هذا الحظ من الذبوع والشهرة ، فإنها لاتقل عن أفكاره الأخرى أصالة وعمقا ، بل إن من الممكن القول بأن اهتماماته العلمية المتنوعة - تأليفا وتحقيقا وترجمة - كانت - فى كثير من جوانبها - ذات صلة وثيقة بأفكاره عن النهضة ، وأن انشغاله بهذه الموضوعات لم يصرفه عن الاهتمام بالنهضة بوصفها غاية أساسية محورية ملحوظة - فى أكثر أعماله إن لم يكن فيها جميعا ، وهذا مانرجو أن تلقى عليه بعض الإيضاح والضوء فى هذه الصفحات .

وقد كان طبيعياً للحديث عن نهضة الأمة الإسلامية أن يكون البدء بدراسة «الواقع» الذى تعيشه ، وتحليل هذا الواقع تحليلًا دقيقًا ، لمعرفة العوامل المؤثرة فيه ، وتحديد الأسباب التى أدت به إلى ما هو عليه الآن من ضعف وبؤس ، وتفكك وتخلف . وقد كان الغوص على دراسة هذا الواقع أمراً ضرورياً ، ينبغى أن يكون سابقاً على ما يمكن أن يقدم من تصورات أو طرق للإصلاح والنهضة ، التى هي الغاية المنشودة التى يسعى إليها المصلحون .

ولقد أحس الدكتور قاسم بصعوبة القضية وخطورتها ، ودفعه إلى ذلك أمران :

أولهما : أن التدهور الذى عاشته الأمة الإسلامية ، يرجع إلى عهد بعيد من تاريخها ، فهو لا يرجع - كما يظن البعض إلى زمن الحروب الصليبية ، أو هجوم التتار على بغداد ، مع ما لهما من الحدثين الكبيرين من تأثير بالغ فيما حاق بها من ضعف وإنهاك وتبديد للطاقة ، ولكنه أقدم عهداً من ذلك ، لأنه بدأ فى الحقيقة - مع تحول الحكم لدى المسلمين من خلافة راشدة ، قامت على العدل والشورى ، والعلم ونبد العصبية ، إلى نظام ملكى تحول بالتدريج إلى نظام استبدادى^(١) ، أضعف الأمة ، ومزقها إلى فرق ومذاهب دينية وسياسية متناحرة ، بل إن البلاء ازداد شدة بسبب إنهم «أفسحوا صدورهم لنوع غريب من التصوف ، جاءتهم عناصره من الغرب والشرق على حد سواء ، فحجب عنهم عقيدة التوحيد ، واتجه

(١) يتفق كثير من المفكرين الإسلاميين على أن تدهور العالم الإسلامى يبدأ بهذا التحول من نظام الخلافة إلى نظام الوراثة ، انظر مثلاً : مالك بن نبي شروط النهضة ، ترجمة عمر مكاوى ، د. عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ط ١٩٦٩/٣ ص ٧٧ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين دار الكتاب العربى - بيروت ط ١٩٨٤/٨ ص ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٤ وقارن : د. حامد طاهر : مشكلة التخلف الحضارى عند المسلمين ، الفصل السابع من كتاب : الفلسفة الإسلامية فى العصر الحديث ، دار الثقافة العربية ط ١٩٩٣/٢ ص ٢٠٥ وما بعدها .

بهم قدما - نحو لون من الشرك الخفى أو الصريح... (١).

أما الأمر الثانى فهو أن المسلمين لم يتبها فى وقت مناسب إلى ما حل بهم من ضعف ، ومانزل بهم من تخلف وبلاء ، بل إنهم استسلموا لأوهام القوة التى أمدتهم بها العصور الزاهية فى تاريخهم ، وعاشوا على ذكريات الماضى المجيدة ، ولم يبينوا أنهم ابتعدوا عما كانوا عليه من نهضة وقوة وما تبعوه من نهج واضح يودى إلى بناء الحضارة وازدهارها ، ولهذا كانوا ينحدرون ، وهم يظنون أنهم يواصلون تقدمهم «وما جعل هذا الوهم يبدو حقيقة فى أعينهم أنهم كانوا ينتفضون بين آونة وأخرى ، فتدب فيهم الحمية والنخوة ، وتسرى فيهم روح أسلافهم ، فيهمزمون أهل الصليب الذين أغاروا على بعض بلادهم ، أو تجوس جنودهم خلال بلاد أوربا عندما استطاع الأتراك أن يشيدوا إمبراطوريتهم الكبرى» (٢) ولكن هذه الانتصارات الكبرى كانت ائبه بالومضات المتقطعة ، التى لم تقف حائلا دون السير فى طريق الضعف ، وكان من أهم العوامل أن هذا الملك العريض كان يعتمد على القوة والقهر ، ولذا كان يحمل جرثومة فئائه بين ثناياه (٣) ولقد ظل التقهقر ينمو ويزداد حتى وصل إلى ذروته فى القرن الثامن عشر الميلادى ، ولم يكن تجاهله - عندئذ - أمرا ممكنا ، لأن جيوش الغرب قد عادت إلى الشرق مرة أخرى ، تحتل أرضه ، وتحطم قوته ، وتسقط هيئته وكبريائه ، وتظهره على حقيقة ضعفه وتخلفه ، وتكشف له بما لا يدع مجالا للشك أن المسلمين لم يعودوا مثلى الحضارة الإسلامية التى ألقت إليهم مقاليدها طيلة أربعة أو خمسة

(١) الإسلام بين أمسه وغده ، نشر مكتبة الانجلو المصرية دون تاريخ ص ٣ ولعل تاريخ طبعه يرجع إلى ١٩٥٥ أو بعدها بقليل ، حيث توجد فى ثنايا الكتاب إشارات ترجع ذلك . انظر مثلا ص ٦٨ ، ٢٠٦ ، ٢٢٠ ويلاحظ أن موقف الدكتور قاسم من التصوف قد لحقه نوع من التطور والتعديل ، وهذا ما سنشير إليه إشارة أوفى فيما بعد .
(٢ ، ٣) الإسلام بين أمسه وغده : ص ٥ .

قرون^(١) . ولقد كان من حسن الحظ أن هذا الزحف الاستعماري قد نبه المسلمين إلى ضعفهم ، ودفعهم إلى مقاومة ماحل بهم ، ودفع المفكرين والمصلحين منهم إلى رسم الخطط لمواجهة هذا الضعف الشامل الذي حل بهم والخروج من شرك الوهم والغرور الذي هيمن عليهم وحجب عنهم رؤية الواقع المرير الذي كانوا فى غفلة عنه (وأصبح الحديث عن ضعف المسلمين وسوء حالهم حديثا لاتنفر منه النفوس ، ولا تضيق به أو تغضب له ، بل جعلت تقبل عليه وتطمئن لسماعه....)^(٢) وقد كان من أهم ملاحظوه أنهم قد صاروا أبعد الناس عن الحضارة والتقدم ، وأدناهم مرتبة فى شئون العمران ، وأقلهم خبرة بالسياسة ، وتديرير المال واصطناع القوة ، وليس إثبات ذلك بالأمر العسير ، لأن أى مقارنة منصفة بين إقليم أو دولة إسلامية ، وبين إقليم أو دولة مسيحية سوف تؤدي بنا إلى الفرع لمقدار انحطاط وتأخر المسلمين فى سائر شئون الحياة ، من تعليم وصناعة واقتصاد وعمران ، وقوة^(٣) .

ولن يمكن اجتياز هذه الهوة وعبرها إلى القوة والتقدم ، إلا بعد تحديد دقيق لعوامل الضعف التى حاقت بالأمة الإسلامية ، ومن المتوقع أن تكون هذه العوامل كثيرة متداخلة ، لاسيما وأن التدهور قد بدأت بوادره منذ عهد بعيد ، ولكن كثرة هذه العوامل لاينبغى أن يكون مانعاً من محاولة استخلاصها وبيان آثارها ، لأن ذلك ضرورى لأى محاولة إصلاحية . فتحديد الداء وتشخيصه ضرورى لتحديد الدواء ، وهذا ماحاوله الدكتور قاسم بصير وإخلاص واستقصاء ونفاذ بصيرة ، وهذه ما سنحاوله ، فى عدد من الفقرات :

أولاً : عوامل واسباب ضعف الأمة الإسلامية .

ثانياً : الشروط الضرورية للنهضة .

ثالثاً : خاتمة وتعقيب .

(١) السابق : ص ٣ .

(٢) السابق : ٦ .

(٣) الإسلام بين أمسه وغده ٦، ٧ .

أولا :

عوامل وأسباب ضعف الأمة الإسلامية :

وهي عوامل وأسباب كثيرة من أهمها ما يأتي :

١- الاستبداد السياسي

وهو عامل ذو خطر عظيم ، وآثار مدمرة ، حيث يكون الحكم غاية في ذاته ، وفي ظل هذا النوع من الحكم تنعدم الشورى ، وتنتشر المظالم ، وتنقطع الصلة الطيبة بين الحاكم والمحكومين ، حيث يهتم الملوك بمصالحهم ومراكزهم ، دون نظر إلى وحدة الأمة وقوتها ، ومن مخاطر هذا الاستبداد أنه يقضى على عوامل القوة في الأمة «ومتى غلب الاستبداد على أمة قضى على أهم مميزاتها ، وعلى حرية التفكير قبل كل شيء»^(١) وهذا يؤدي إلى موت الأمة .

وفي ذلك يقول «والاستبداد - كما نعلم - يميت الأمم ، ويشوه الدين والخلق ، ودولة الاستبداد دولة من الأرقاء» .

وهو يحس أن هذا الوصف لدولة الاستبداد قد يثير التساؤل أو الاستغراب ، ولذلك يوضح هذا بقوله إنها دولة «يسوسهم فيها رقيق مثلهم ، فإن الحاكم المستبد يدعوه هلع وفزع أن يقبع سجيناً في قصره ، بينما يستعين على قهر رعيته بالجنود الأجانب»^(٢) وهو يبين - في موضع آخر - أن تاريخ المسلمين حافل بأمثال هؤلاء الملوك الذين احتفظوا بلقب الإمارة على أسنة رماح الأجانب ، ثم يضيف إلى ذلك قائلاً «ويستطيع كل مسلم أن يعثر في تاريخ بلده على مثال أو أكثر ، من هذا القبيل ، وهذا الذي قضى على ملك المسلمين في الأندلس ، وقوض سلطانهم في

(١) الإسلام بين أمس وغده : ٦٦ .

(٢) السابق : ٢١ .

الهند ، وألحق بهم الوهن فى جميع بقاع الأرض^(١) .

ويتحول الاستبداد إلى بؤرة فساد تقذف الفساد إلى كل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية ، وذلك أن أصحابه مغرمون بالبذخ ، حريصون على الأبهة لاسيما أمام الأجانب ، راغبون فى أن يلقبهم الناس بأفخم الألقاب ، وقد عرف المنافقون غرام هؤلاء المستبدين بذلك ، وتقديرهم الشديد لمن يرضى هذه النزعة فيهم ، فافتتوا فى اختراع الألقاب لهم ، وهو يسوق هذه الملاحظة فى لهجة مفعمة بالسخرية فيقول : «وإذا أنت قرأت صحيفة من صحف البلاد الإسلامية ، واطلعت على الجمل الطويلة التى تفيض ملقاً ، ولو ترجمت هذه العبارات إلى لغة أجنبية لحر الناس فى فهمها ، إذ ليس من عادتهم أن يروا مثل هذا البذخ فى جمع ألقاب الشرف والجلالة والعصمة والمجد والنبيل لمن يعلم الناس جميعا خيائته وسفه رأيه وحمقه وخسته ، وبعده عن الشرف والنبيل^(٢) ولاغربة فى مثل هذه الظروف التى يخيم عليها الاستبداد أن يكون النفاق هو القانون الأكبر^(٣) ، وأن يستشرى الاستبداد ، فلا يكون مقصورا على أهل الرئاسة ، بل ينتقل منهم إلى من بعدهم ، فإذا كان الحاكم ميالا إلى الاستبداد فإنه سيختار لمعاونته وزراء ضعفاء أذلاء ، فإذا كان هؤلاء ممن يحنون رؤوسهم وهاماتهم ، ويقبلون أيدي سادتهم فإنهم سيبحثون عن من يحنى رأسه لهم ، وهكذا ينتقل الاستبداد المصحوب بالاستبدال من كل طبقة إلى الطبقة التى دونها ، ذلك أن كل واحد من هؤلاء يحرص على التحكم فى حاجات الناس ليخضعوا له .

وهو يصف هذه الدولة بتعبير يقتبسه من الكواكبي الذى يدمغ مثل هذه الدولة بأنها «دولة الأوغاد» وهو يذكر مثالا مستخلصا من مشاهداته وتجاريه ، وهو مثال

(١) السابق: ٨٣ .

(٢) الإسلام بين أمسه وغده : ٨٧ ، ٨٨ بتصرف يسير جدا .

(٣) السابق: ٩٥ .

بسيط ، ولكنه عميق الدلالة حيث يقول «وتكفى المقارنة بين مسلك رجل الشرطة في هذه الدولة ، ومسلك قرينه في دولة حرة ، لمعرفة إلى أى مدى يشوه الاستبداد النفوس» ثم ينتهى إلى القول «فكل في هذه الأمة مستبد ومستبد به ، وكل ذليل وطاغية : ذليل لمن يرأسه ، وطاغية على من هو دونه»^(١) .

وهكذا يجتمع النفاق والمذلة ، والخضوع للأجانب في مثل هذه الدول المستبدة ، ثم تكتمل الحلقة الشريرة ، بمحاربتها للعلم والفكر ، وهذا أمر متوقع ، لأنهم ليسوا على شيء منهما في الغالب ، لذا لا يقربون العلماء ، ولا يحفلون بالنبوغ ، ولا يستمعون إلى نصيحة من مفكر رشيد^(٢) .

ولا يعفى مفكرنا الشعوب من مسئوليتها عن شيوع هذا الاستبداد واستمراره ، بل إنه يواجهها بذلك في قوة وصراحة ، ليزيل الغشاوة من على عينيها ، فليس من حقهم أن يرثوا أنفسهم من الإثم ، فإن انحطاطهم لم يأت عفوا ، وإنما جاء بسبب خضوعهم وقبولهم للذل ، ذلك أن الملوك لا تستبد برعية إلا إذا آنسَتْ فيها غفلة وخورا ، وقد يجزئهم على ذلك ما يجدونه لدى المتناقضين الذين يتقربون إليهم على حساب إخوانهم ، ومن مظاهر نفاقهم أنهم يسمون الظلم حزما ، ويصفون الطغيان بأنه حكمة ومعرفة بما يجب أن تساس به الرعية^(٣) ومثل هذا الخنوع هو الذى يدفع أصحاب السلطان إلى الاستبداد .

ولامخلص من هذا كله إلا بالكفاح والعمل وبذل الجهد للتغيير لأن من سنن الله أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم^(٤) ومما يعين على ذلك أن تستحضر هذه الشعوب والأمم أن الإسلام قد حرر النفوس من الخوف ، وأمر ألا

(١) الإسلام بين أمسه وغده : ٩٥ .

(٢) السابق : ٨٥ .

(٣) السابق : ٥٤ .

(٤) السابق : ٢٠ .

يخشى المؤمن إلا ربه ، ولا يتذلل إلا له وحده ، ولا يطيع إلا من أطاعه كما أوجب عليه أن يعصى من عصاه ، وأن يكون عزيزا ، لا يعرف في الحق لومة لأثم ، وأوجب عليه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر... ولكن المسلمين قصروا في ذلك كله تقصيرا يينا ، وهذا يؤدي إلى احتقار حكامهم لهم ، وسخرتهم منهم ، حتى ولو بحث أصواتهم بالهتاف لهم^(١) .

٢- جمود العلماء :

وإذا كان الاستبداد مذموما في مجال الحكم والسياسة ، فإنه لا يقل مذمة ولا سوءا إذا وقع ممن ينتسبون إلى العلم الذي يقتضى سعة الأفق ورحابة الصدر ، والاعتراف بحق الآخرين في النظر والاجتهاد ، والتسليم بأن الحقيقة ليست حكرا على أحد ، بل إن البحث عنها ، والوصول إليها حق معترف به لكل من يمتلك أدوات البحث ، ولكن الذي يدعو إلى الأسى أن بعض هؤلاء قد وقفوا - أحيانا - في وجه تطور العلم ، وعملوا على كبت حرية الفكر ، وحجروا على العقول أن تواصل البحث ، أو أن تصل إلى معرفة جديدة ، وظن هؤلاء أنهم يملكون الحقيقة دون سواهم ، وأن على الآخرين أن يروا مايرون ، ولا صاروا أهلا للاضطهاد والتنكيل ، بسبب تمردهم ، وقد يحاول هؤلاء تحقيق ذلك عن طريق التحالف مع ذوى السلطان محققين بذلك أسوأ درجات الاستبداد ، وقد يصل الأمر في بعض الأحيان - إلى حد محاربة مخالفينهم في الرأي في أرزاقهم أو حبسهم ، أو نفيهم من الأرض أو سفك دماهم ، ويؤدي ذلك إلى أن يتوارى أهل الفكر والاجتهاد ، خشية على أنفسهم وذويهم ، نجاة من الظلم ، وفرارا من الأذى ، وعندئذ ترجح كفة الأعداء ، من أهل الملك والنفاق^(٢) .

(١) السابق: ٩٩٠ .

(٢) السابق: ١٠٠-١٠٦ ، ويرى د. قاسم أن ذلك فيه بعض الشبه ببعض ما حدث في أوروبا حين تحالفت الكنيسة والملوك في أوروبا لوقف تطور العلم ، ولكنه يستدرك قائلا أن الأمر لم يصل عند المسلمين إلى هذا الحد ، بسبب طبيعة الدين الإسلامي الذي لا يعطى هذا السلطان لأحد .

ويستخرج د. قاسم من ثنايا التاريخ أمثلة على هذا التحالف البغيض الذي كان يدعو إلى مقاومة التطور ، ويرفض الاستماع إلى دعاة الحرية ، واحترام إرادة الأمة ، يدعو أن ذلك لا يصلح للمسلمين الذين لا يستقيم لهم ملك إلا إذا كان على رأسهم مستبد عادل ، مع إن الاستبداد والعدل لا يجتمعان^(١) .

وإذا شاعت مثل هذه الأفكار ، وفرضت على الناس بالقوة فإن الإصلاح لن يجد بيئة ملائمة ، وهكذا يحارب الإصلاح ، وينقطع الأمل في التجديد والتحرر من قيود الجمود والتقليد «وقد شهدنا كيف حارب الناس طائفة المعتزلة ورموها بالكفر ، وقد سمعنا كيف ضاق الأزهر في القرن الماضي بآراء جمال الدين ورماه بالإلحاد ، وكيف هاجت نفوس أهله عندما جاء محمد عبده ينادى بضرورة التجديد في دراسة العلوم الإسلامية ، ووجوب العناية بالعلوم النظرية والعملية التي كانت سببا في تقدم الغرب»^(٢) .

ولقد كان من أسباب ذلك أن هؤلاء العلماء لم يسيروا سيرة أسلافهم من أهل الاجتهاد ، وإنما ركنوا إلى التقليد ، والاكتفاء بما قاله السابقون ، وأدى ذلك إلى عدد من المواقف ذات الآثار الخطيرة على العلم والمجتمع .

وكان من هذه المواقف أن هؤلاء ضيقوا نطاق العلم الذي ينبغي أن يشغل به المسلمون ، فالعلم في الإسلام شامل لعلوم الدين والدنيا ، وليس منحصرًا في نطاق ضيق ينحصر في العلوم الدينية وحدها لكن هؤلاء ظنوا أن العلم يجب ألا يخرج عن دائرة الدراسات الدينية من حديث وتفسير وجدل في العقائد ، وربما أباحوا قليلا من معرفة الحساب للاستعانة بها في علم الميراث ، أما العلوم الأخرى من جبر وهندسة وعلم طبيعة وكيمياء فإنها تبدو لهم غير جديدة بأن تسمى علوما^(٣) .

(١) الإسلام بين أسسه وغلده : ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) السابق : ١١٨ وانظر نماذج أخرى لسلوك هؤلاء المفكرين ١١٩ وما بعدها .

(٣) السابق : ١٢٦ .

وهكذا أصبح المشتغلون بهذه العلوم منبوذين ، جديرين بأن يتجه إليهم اللوم والذم ، الذى قد يصل فى بعض الأحيان إلى الرمى بالكفر والزندقة ، والنظر إليهما وإليهم على أنهم يحاربون الدين عن طريقها ، مع أن الإسلام يفتح أبواب العلم على مصاريعها ولا يقف حجر عثرة فى طريق تقدمها^(١) ولقد كان بإمكان هؤلاء أن يتخذوا من هذه العلوم موقف الحياد المشرب بروح المودة ، وأن يدرسوها بروح علمية نقدية ، وإن يفيدوا من ثمراتها التى تؤديها للبشرية ، وكان من الممكن -عندئذ- أن يعلموا أنها لا تعارض الدين ، بل تؤكد عقائده^(٢) .

ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل انتقلت العدوى إلى العلوم الشرعية أيضا ، فعلى حين كانت تزخر فيما مضى بحركة عقلية متطورة ، تهدف إلى فهم النصوص الشرعية ، ومعرفة الأحكام المتعلقة بالحياة الاجتماعية المتطورة - وجدنا هؤلاء العلماء لا يملكون همّة لإسلافهم ، ولا مواهبهم ، ولا قدرتهم على مسيرة التطور الذى تخضع له حياة المجتمعات ، ثم أضيف إلى هذا كله أن هؤلاء قد انشغلوا بالجدل العقيم الذى يؤدى إلى تعذر الوصول إلى الحقائق ، ويضع العراقيل فى وجهها ، وبذلك انقطعت الصلة بينها وبين الحياة الاجتماعية والعملية ، التى كان يجب أن تظل دائما أداة جيدة للتعبير عن جميع دقائقها ، وهكذا أصبحت الثقافة الإسلامية العربية التى يحرص عليها هؤلاء العلماء ، والتى يرفضون كل إصلاح بحجة المحافظة عليها ثقافة هزيلة ، لاتعتمد على الأصول الإسلامية الأرى ، ولا تتصل بالحركة العلمية^(٣) ويشير الدكتور قاسم إلى الآثار الضارة لسيادة روح الجدل ، التى تؤدى إلى هبوط المستوى ، وتشويه العقول ، والقضاء على ما فيها من استعدادات جيدة^(٤) .

(١) الإسلام بين أسسه وغده : ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢) السابق : ١٣٠ .

(٣) السابق : ١٢٧ .

(٤) السابق : ١٢٧ .

ويجد مفكرنا الفرصة سانحة لتأكيد وجهة نظره بما يسوقه من أمثلة تدل على التشدد فى الفتوى ، والوقوع فى برائن التفرعات الشديدة المربكة ، والعناية البالغة بالمسائل المفترضة وهو يورد هنا نماذج لبعض الأحكام فى الطلاق والأيمان والنذور، والسواك^(١) وهو يلوم هؤلاء الفقهاء الذين فعلوا ذلك بسبب هذا الإغراق فى التفرعات ، ولأنهم كانوا يشغلون أنفسهم بالبحث عن أحكام لأناس من فاقدى الأهلية والمسؤولية الذين يحتاجون إلى اللوم والتوبيخ بدلا من التشريع لهم ، وكان من نتائج هذا الاسترسال فى تشقيق المسائل وتفرعها ، والاعتماد فى ذلك كله على الكتب القديمة التى كانت ملائمة لعصرها أن هؤلاء يحاولون مداراة عجزهم بتلك القضية المشهورة التى يثيرونها فى وجه كل مجتهد ، وهى أن أبواب الإجتهد قد سدت ، وأن العلم كل العلم فى معرفة تراث وعلوم السابقين مع أن السابقين لو وجدوا فى مثل ظروفهم لاجتهدوا ، مثلما اجتهدوا فى عصورهم^(٢) وليس من المتوقع من مثل هؤلاء أن يشغلوا أنفسهم بالبحث عن أسباب تدهور المسلمين وانحطاطهم ، أو أن يجهدوا فكرهم فى تلمس الوسائل للنهوض بالأمّة وإعلاء شأنها ، لأنهم قانعون ، راضون بما انتهت إليه أحوال الأمّة والفكر على حد سواء ، لأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان^(٣) .

ولقد كان بإمكان هؤلاء - إذ عجزوا عن الاجتهاد - أن يشغلوا أنفسهم بالنواحي الأخلاقية ، ودفع الناس إلى القيام بجلائل الأعمال ، وتطهير الدين مما شابه من البدع ، إلى مثل هذه الأعمال التى تليق بمكانتهم وبالعلم الذى يحملونه ، وتشبها بما يفعله نظراؤهم من المتتسبين إلى الملل الأخرى ، بمن يأتون بالعجب العجاب من الوجهة الاجتماعية والإنسانية ، على الرغم مما قد يكون فى آرائهم

(١) الإسلام بين أمسه وغده : ١٤٢ - ١٥٣ .

(٢) السابق : ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٣) السابق : ١٥٦ ، ١٥٧ .

الاعتقادية من أخطاء^(١) ولكن أنى يتأتى لهم ذلك وقد ارتضوا لأنفسهم هذه المسالك التى تعرقل الإصلاح ، وتؤدى إلى التخلف والجمود .

ولقد يمكن القول بأن حديث الدكتور قاسم عن الفقهاء وغيرهم من المشتغلين بالعلوم الدينية كان أثرا من آثار دراسته لبعض أعلام الفكر الإسلامى فى العصر الحديث كالأفغانى ومحمد عبده والكواكبى ، وليس بعيد أن يكون هذا أثرا بعيدا من آثار دراسته لابن رشد الذى أصابه الأذى على أيدي هؤلاء العلماء حتى ألجأوا عليه عامة المسلمين ، وتسببوا فى إقصائه عن مكانته التى بلغها عند الأمير الموحدى المنصور ، ونفيه من قرطبة إلى اليسانة التى كان يسكنها اليهود ، وقد أمر الخليفة بإحراق كتبه ، ونهى المسلمين عن قراءة الفلسفة وكان ذلك راجعا - فى جانب كبير منه - إلى نقمة الفقهاء عليه ، لسوء ظنهم بالفلسفة والمشتغلين بها^(٢) ثم لهجومه - فى بعض كتبه - على الفقهاء حتى أنه ليقول : «فكم من ققيه كان الفقه سببا لقلّة تورعه ، وخوضه فى الدنيا ، بل أكثر الفقهاء هكذا نجدهم»^(٣) وقد كان الدكتور قاسم شديد الإعجاب بابن رشد^(٤) الذى خاص أشهر معاركه الفكرية دفاعا عنه، ضد خصومه، وإثباتا لأصاليته ، وإبرازا لتأثيره فى توماس الأكوينى^(٥) ، لذلك لا نستغرب أن يتعاطف معه إلى درجة «التوحد» الذى ربما دفعه إلى أن يتبنى مواقف ، وأن يخوض معاركه ، وأن يوجه سهام نقده القاسية إلى هؤلاء الذين تتشابه مواقفهم مع خصومه ، على أن هذا الموقف من الفقهاء لا ينحصر فى هذا

(١) الإسلام بين أمسه وغده : ١٤ ، ١٥ .

(٢) انظر : د. قاسم ابن رشد وفلسفته الدينية ، الانجلو المصرية ط ١٩٦٩/٣ ص ٢٧ - ٣١ - ٣٩ - ٤٣ ،

ورينان : ابن رشد والرشدية : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ .

(٣) ابن رشد : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة -

دار المعارف ١٩٦٩ ص ٣٠ .

(٤) انظر نصوص مختارة من الفلسفة الإسلامية ، الانجلو المصرية دون تاريخ ص ٢٨ .

(٥) ويتجلى ذلك فى رسالة الكبرى للدكتوراه ، وفيما كتبه بعد ذلك عنه : لاسيما كتابه : الفيلسوف

المفتري عليه ابن رشد .

التفسير الذى ربما تشوبه مسحة انفعاليه ، بل إن من الممكن أن نضيف إليه سببا «منهجيا» يجعل موقفه منهم طبعيا ، بل متوقعا ، ذلك أنه فى دراساته المتعددة لجوانب الفكر الإسلامى المختلفة كان أكثر تعاطفا مع الجانب العقلى ، على وجه الخصوص ، وهو يرى أنه أكثر الجوانب تمثيلا لروح الإسلام ، الذى يحترم العقل ، ويبحث على الفكر والنظر ، ويتخذ من العلم خيراوعوانه .

ومن أجل ذلك انتشر الإسلام بسرعة ملحوظة^(١) وقد كان ينبغي أن تظل هذه الحقيقة ماثلة أمام العاملين فى حقل العلوم الشرعية ، حتى لايسىء الناس الظن بالإسلام ، بسبب جمودهم وتأخرهم^(٢) ، وقد كان طبعيا أن ينتصر للمعتزلة وابن رشد بسبب وضوح هذا الطابع العقلى لديهم ولديه ، كما كان طبعيا أيضا أن يقف موقف المعارضة والنقد إزاء هذا الجمود الذى ظهر فى مجال الاجتهاد الفقهي، ولقد كان أهل الجمود والتقليد جديرين بكثير من أوجه النقد التى وجهت إليهم ، على يديه ، أو على يد رواد النهضة الفكرية الإسلامية الحديثة من أمثال الأفغانى ومحمد عبده والكواكبي ، بل على يد بعض الفقهاء أنفسهم كالثشوكانى^(٣) وذلك لأنهم حولوا الفقه من علم قائم على البحث والدراية والنظر واستنباط الأحكام الشرعية ، وتنزيلها على الواقع ، إلى علم رواية وحفظ ثم وقعوا فى التقليد الذى نهى عنه أئمة الفقه أنفسهم ومن ذلك قول الإمام أحمد « لا تقلدنى ، ولا مالكا ، ولا الشافعى ، ولا الأوزاعى ، ولا الثورى ، وخذ من حيث أخذوا » ونقل عن غيره من الأئمة ما يوافق هذا ، بل نقل الإجماع عن منعهم

(١) الإسلام بين أمسه وغده : ٦٣ ، ١٢٤ .

(٢) السابق : ١٣١ .

(٣) انظر مثلا : رسالته : القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد ، المنشورة ضمن الرسائل السلفية ، مكتبة ابن تيمية : ١٩٣٠م حيث يقند دعاوى القائلين بالتقليد ، انظر خاصة صفحات ١٧ وما بعدها ، ٢٦ وما بعدها .

التقليد^(١) وقد كان أصحاب الأئمة وتلاميذهم يخالفون اجتهاد الأئمة كما وقع لأبي حنيفة مع أصحابه كأبي يوسف ومحمد بن الحسن وأمثالهم^(٢) ولكن المشتغلين بالفقه من بعدهم لم يسيروا هذه السيرة دائما ، بل وجدنا أكثرهم يكتفون بمعرفة آراء الأئمة وتقليدها ، والتعصب لها^(٣) مما جعلهم هدفا للنقد والهجوم عليهم .

ومع هذا يمكن القول بأن الفقهاء لم يكونوا وحدهم الذين سلكوا هذا المسلك ، بل بدأ الأمر وكأنه مسلك عام وقعت فيه الحياة الاجتماعية والثقافية للعالم الإسلامي بأسره ، نظراً لعوامل سياسية وعسكرية واقتصادية ، داخلية وخارجية ، تضافرت جميعها على إضعاف هذه النهضة العلمية التي كانت للمسلمين في عصورهم الأولى ، وأدى ذلك إلى رتابة الحياة ، وبطء حركة التطور بصفة عامة وأثمر ذلك في مجال العلم والفكر انصرافا عن الإبداع والابتكار وأصبحت الهمم بالضعف ، فلم تعد تقوى على الرجوع إلى المصادر الأصلية للشريعة للاستنباط منها مباشرة ، بل إنها عجزت عن الرجوع إلى الكتب التي وضعها المجتهدون ، بما فيها من وضوح واستدلال ، ولهذا ظهرت المختصرات والتون المركزة ، وتعددت اللغة ، وفقدت طلاقتها وحيويتها ، وامتد ذلك إلى الشعر والأدب اللذين سادت

(١) السابق ٢٦ وانظر للفكرة نفسها ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، إدارة الطباعة المنيرية : ١٩٧٨ ج ١٠٩/٢ وما بعدها .

(٢) انظر : الشيخ محمد أبو زهرة : أبو حنيفة : حياته وعصره ، آراؤه وفقهه ، دار الفكر العربي ط ١٩٤٧/٢ في صفحات كثيرة منها ١٩٩ - ٢٠١ ، ٢٢٣ ، ٤٤٢ ، ٤٤٩ .

(٣) حتى لقد ذهب بعضهم إلى تأويل آيات القرآن التي تخالف مذهب أئمتهم ، ومن ذلك ما قاله أبو الحسن عبيد الله انكرخي من فقهاء الحنفية الكبار ٣٤٠ هـ : الأصل أن كل آية تخالف قول أصحابنا فإنها تحمل على النسخ أو على الترجيح ، والأولى أن تحمل على التأويل من جهة التوفيق أصول انكرخي ، المطبعة الأدبية ص ٨٤ ، ولعله لم يتخذ هذا الموقف بسبب الفقه ، بل بسبب نزعة الاعتزالية فيه فقد وصف بأن كان رأسا في الاعتزال انظر : البداية والنهاية لابن كثير ، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين دار الكتب العلمية - بيروت ٢٣٩ / ١١ .

ففيهما الصنعة ، وغلب عليهما العناية بالزخرف اللفظي ، وهكذا كان الضعف عاما شاملا ، ولم يكن الفقهاء وحدهم هم الذين انفردوا به ، وليس هذا شفيعا لهم ، أو اعتذارا عنهم ، ولكنه - على كل حال - بيان للظروف العامة التي أحاطت بهم ، وكانت تلقى ظلالها عليهم ، مع الاعتراف بأنهم أكثر مسئولية من سواهم ، نظرا للمكانة التي يسبقها عليهم انشغالهم بالعلوم الشرعية ، وما يترتب على ذلك من مكانة لهم في قلوب المسلمين ، ثم يبقى - بعد ذلك - أن نشير إلى أن التحالف بين الفقهاء والحكام لم يكن قاعدة مطردة ، ولا قانونا عاما ، فقد وجد من بين الفقهاء من خالفهم الرأي ، ونصحهم فأغلظ عليهم في النصيحة ، وكان منهم من امتنع عن تولي وظائف القضاء والإفتاء خشية أن يكون عوناً لهم على مظالمهم ، بل وجد منهم من امتنع عن بيعتهم ، ووصل الأمر أحيانا إلى حد المطالبة بعزلهم أو الخروج عليهم ، وأصيب كثير من هؤلاء بالأذى بسبب مواقفهم ، ولم يقع هذا في القديم فحسب ، بل إن بعضه وقع في العصور التي هي موضوع الدراسة هنا ، ويمكن الرجوع إلى نماذج كثيرة لهؤلاء في كتب التاريخ والطبقات^(١) وربما كان هؤلاء قلة إذا قورنوا بالذين سكثوا أو آثروا السلامة ، خوفا من البطش والأذى .

ولكن الذين تحالفوا مع الحكام لم يكونوا بالكثرة التي تسوغ تعميم الحكم عليهم جميعا ، وينبغي كذلك ألا نتجاهل نظرة أغلبية الفقهاء إليهم ، ومشاعرهم نحوه ، وهي مشاعر يمكن وصفها بأنها بعيدة عن التقدير لهم ، والرضا عن مسلكهم .

(١) يمكن أن نذكر هنا على سبيل المثال : سعيد بن جبير ، والحسن البصري ، ومالك بن دينار والأوزاعي وأبا حنيفة ومالكا وأحمد بن حنبل ، كما يمكن أن نذكر عز الدين بن عبد السلام وابن دقيق العيد ، وابن تيمية وابن القيم ، أما المحدثون فيمكن الرجوع إلى تاريخ الجبرتي وسيرة عمر مكرم للأستاذ محمد فريد أبو حديد ، ومواقف تاريخية لعلماء الإسلام للدكتور محمد رجب البيومي ، وتاريخ الإصلاح في الأزهر وصفحات من الجهاد في الإصلاح للأستاذ عبد المتعال الصعيدي .

٣- الفصل بين العقيدة والعمل :

كان من عوامل القوة للأمة الإسلامية فى عصورها الأولى أنه لم يكن هناك انفصال بين العلم والعمل ، ولابين الاعتقاد والسلوك ، بل كان هناك تلازم بينهما عند الجمهور الأعظم منهم ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا ، لأسباب كثيرة منها الصراع الدينى حول العقيدة ، ونشوب معارك الجدل بين المفكرين المسلمين ، ولجوء بعض الفقهاء إلى التزمّت والتشدد والتفريعات التى لانتتهى ، ولم يكن هذا الفصل بين العقيدة والعمل فى صالح العقيدة ، لأنه أثار حولها كثيرا من الغموض والتشويش وذلك يبعدها عما يجب أن يكون لها من اليقين ، الذى هو أساس تأثيرها فى العقل والقلب والسلوك ، كما أن هذا الفصل لم يكن فى صالح العمل ، فقد أنقلبت العبادات إلى صيغ وعبارات جامدة ، وحركات لاروح ولاخشوع فيها ، وبطل تأثيرها فى أعمال الناس ، ولم تعد تردعهم عن الفحشاء والمنكر ، ثم انتقل الفساد إلى الأخلاق والمعاملات ، فقلب على الناس الكذب والخداع والنفاق فى أمور دنياهم ، وشاع بينهم الأنانية ، والأثرة ونقض العهود .

واستمر هذا الفساد ينخر فى كيانهم «فما جاء القرن الثامن عشر الميلادى حتى كان العالم الإسلامى قد أشرف على الفناء ، إذ فسدت أخلاق أهله ، واستسلموا لشهواتهم وأهوائهم ، وزهق الحق ، وجاء الباطل واندثرت الفضيلة وعم الجهل»^(١).

ويرى الدكتور قاسم أن هذه الظروف - التى أدى إليها الاستبداد السياسى ، والجدل العقيم ، والتشدد المقوت قد دفعت الجمهور إلى طلب الخلاص والسكينة المفتقدة ، وانتهى بها الأمر إلى نوع من التصوف السلبي الذى يدعو إلى التواكل والمسكنة والتخاذل ، ويهيم مع الأوهام والأحلام ، ويحتقر العلم بدعوى المعرفة

(١) الإسلام بين أمسه وغده ص ٢٤ ، وانظر ص ٢٣ أيضا .

الإلهامية ، والكشف الذوقي ، ويفتح باب الشعوذة بدعوى الولاية ، ويعقد العبادة بإخضاعها للطقوس والرسوم ، ويخفي غاياته تحت ستار الغموض والرموز ، ويروج للأسرار التي لا مدخل للعقل في إدراكها ، لأنها من مستوى فوق مستواه ، وهذا يفتح أبواب البدع والخرافات على مصاريحها . وكان مما زاد الأمر سوءاً أن بعض المنتسبين إلى التصوف في عصوره الأخيرة - قد تعاونوا مع المستعمرين لبلادهم ، وكانوا سبباً في التمكين لهم ، وصرف الشعوب عن مقاومتهم^(١) ، وبهذا كله تتسع الفجوة بين هذا التصوف الذي نشأ - فيما يقول - في القرن الرابع الهجري أو قبله بقليل ، وبين التصوف ، بالمعنى الذي كان يفهمه السلف ، وهو التصوف القائم على الزهد والتقشف ، والرغبة عن غرور الدنيا ، مع العمل المستمر لنشر الإسلام ، ومقاومة الوثنية والشرك لدى الأمم الأخرى^(٢) .

ويمكن القول بأن هذه الإشارة الأخيرة كانت أشبه بإرهاص لتحول في موقف د. قاسم من التصوف ، وحدث ذلك عندما قرأ لبعض أعلام الصوفية كالحاسبى ، وأبى نصر السراج الطوسى ، وأبى طالب المكي والتشيرى والغزالي ، وقد وجد لدى هؤلاء صورة أخرى للتصوف ، تختلف عن تصوف الحلاج أو السهروردي المقتول ، أو تصوف بعض الفلاسفة الذين اتجهوا وجهة غنوصية ، ودفعه ذلك إلى التفرقة بين نوعين من التصوف أحدهما فلسفى ، والثانى تصوف إسلامى حقيقى يقوم على دراسة الأخلاق الإسلامية ، ويعتمد على آيات القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم كان اتصاله بفكر ابن عربى عاملاً

(١) راجع : الإسلام بين أمسه وغده : ٢٤ - ٣٦ ، دراسات فى الفلسفة الإسلامية : ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، وهو يشكك فى الدوافع التى تدعو المشرقين إلى العناية بالتصوف ، دون سواه من فروع الفلسفة الإسلامية . انظر : الإسلام بين أمسه وغده ٣٥ ، ٣٦ ، ودراسات ١٢ ، والإمام عبد الحميد بن باديس ، دار المعارف ١٩٦٨ ص ٧ .

(٢) الإسلام بين أمسه وغده : ص ٢٦ .

حاسما فى تغير موقفه من التصوف ، حيث بهره ماوجده لديه من تناسق مذهب ، وأصالة جديرة بالتقدير^(١) .

٤- الفهم الخاطئ لعقيدة القضاء والقدر :

يقول الدكتور قاسم : إن منازل بالمسلمين - فيما مضى - يرجع فى الأغلب - إلى تشويه إحدى العقائد الإسلامية وهى عقيدة القضاء والقدر ، وذلك لأنهم انصرفوا عن الفهم الصحيح لها ، فكان ذلك سببا فى فساد الأخلاق ، وقبح الأعمال^(٢) وكان من آثار هذا الفهم الخاطئ ، أنهم قعدوا عن طلب الرزق ومالوا إلى الضعف والسكينة ، ورضوا بالمذلة بدعوى الرضا بالقضاء والقدر ، وخالفوا بذلك منهج المسلمين الأوائل الذين اتخذوا العدة ، وأخذوا بالإسباب ، وتمكنوا من بناء أمة عظيمة فى فترة قصيرة من الزمن ، وكان الإيمان بهذه العقيدة يتعد بهم عن التواكل والتخاذل ويملاهم ثقة و يقينا ، وإقداما على اقتحام المخاطر ، دون نخوف أو عجز ، وكانوا بذلك - مثلما قال الله تعالى ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾^(٣) (آل عمران : ١٧٣) .

لكن عقيدة الجبر خالطت هذا الفهم الصحيح فأفسدته ، وتحولت إلى سبب من أهم أسباب ضعف المسلمين ، كما أوضحت مسألة من أهم المسائل التى تفرقت فيها الآراء ، واختلفت الأنظار ، وتصارعت الأدلة بين السلف والمتكلمين والفلاسفة . وما يدعو إلى الأسف أن الفهم الخاطئ لهذه العقيدة مازال مستمرا ، إذ لا نعدم أن

(١) انظر : دراسات ٢٦٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٢٣ ، ٢٣٩ ، وانظر لابن عربى خاصة : مجى الدين بن عربى وليستز المقدمة ص ١ - ٢٩٦ ومواطن أخرى .

(٢) الإسلام ... ١١ .

(٣) جمال الدين الأفغانى : حياته وفلسفته ، الانجلو المصرية دون تاريخ ص ٣٣ ، ٣٤ .

نجد أفراداً بل شعوباً ، تحيل ضروب الفشل أو الكوارث على القضاء والقدر ، ثم تنتظر المعجزات فى عصر لم يعد يتسع للمعجزات^(١) ولقد بلغ الأمر ببعض المعتنقين لهذه الفكرة أن احتجوا بها لتبرير استعمار بلادهم ، وهذا أحدهم فى الجزائر يقول «إذ كنا أصبحنا فرنسيين فقد أراد الله ذلك ، وهو على كل شئ قدير ، فإذا أراد الله أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد فعل ، وكان ذلك عليه أمراً يسيراً ، ولكنه كما ترون يمدهم بالقوة ، وهى مظهر قدرته الإلهية ، فلنحمد الله ، ولنخضع لإرادته»^(٢) وقد أدى مثل هذا الفهم الخاطيء إلى أن يتهم الإسلام نفسه بأنه سر تخلف المسلمين^(٣) .

وقد ناقش الدكتور قاسم الآراء المختلفة حول عقيدة القضاء والقدر فى مواطن كثيرة من كتبه ، وانحاز من بينها إلى رأى الذى يثبت مسؤولية الإنسان عن أفعاله ، وأن له إرادة أعطاه الله إياها ، كما أن له قدرة على الإتيان بها ، وهذا هو الذى يتفق مع تكريم الله تعالى للإنسان ، كما يتفق مع المسؤولية الأخلاقية التى تستلزم الحرية ، والقدرة على إتيان الفعل وتركه ، وهذا هو الرأى الذى ظهر بدرجات متفاوتة لدى المعتزلة وابن رشد ، والإمام يحيى بن الحسين ، الإمام الزيدى ، والماتريدى وابن رشد ، وابن باديس ، ثم لدى ابن عربى وليبتر وغيرهم^(٤)

(١) محيى الدين بن عربى وليبتر : ١٣٨ .

(٢) الإمام عبد الحميد بن باديس ص ٩٤ ويذكرنا هذا باستغلال نابليون بونابرت لهذه الفكرة نفسها فى اقتناع المصريين بأن احتلاله لمصر ، وبقائه فيها إنما هو امتثال لقضاء الله وقدره الذى سلط نابليون على المماليك ، وأن الذى يقاومه إنما هو مضاد لقضاء الله تعالى الذى لا يردده . انظر ج . كستوفر هيرولد : بونابرت فى مصر ترجمة قواد اندراوس ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ص ٩٧ ، ٢٥٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٣) الإسلام بين أسسه وغده : ١١ ، وجمال الدين بن الأفغانى : الانجلو المصرية - دون تاريخ ص ٩٠ ، ١٠٠ .

(٤) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ، الأنجلو المصرية ط ٣ / ١٩٦٩ ص ١٠٥ - ١٢٠ ، ومحيى الدين بن

عربى وليبتر ١٣٨ - ١٤٠ وما بعدها ، ودراسات فى الفلسفة الإسلامية : ١٤٦ - ١٥١ ، ١٦٥ ،

١٦٦ ، ١٧٤ ومواطن أخرى .

وقد زكى ما اتفق عليه هؤلاء من أن الاعتراف بالقضاء والقدر ليس معناه إنكار حرية الإنسان ، وقدرته على تغيير الواقع ، أو التكرار للعلم والبحث^(١) كما وافقهم على أن الفهم الخاطئ للقدر يؤدي إلى الرضا بالمظالم التي تقع على أيدي الظالمين مع أن ذلك هو خلق أهل التخاذل والخنوع ، ومثل هذا الرأي يؤدي إلى الظلم والاستبداد ، كما يؤدي إلى خلق الطغاة والمستبدين^(٢) .

ولم يكتف بالهجوم على هذا الرأي في كل مناسبة يعرض له فيها ، بل إنه كان حريصا - كذلك - على تفنيد الآراء التي تقترب منه في حقيقتها ، وإن اتخذت لنفسها مصطلحات أخرى توحى ببعدها عنه^(٣) وقد حذر من هذه الآراء ، ومن الانخداع بها ، ومن أجل هذا وقف موقفا نقديا من جمال الدين الأفغاني ، بسبب دفاعه عنها ، وأوضح أنه ليس هناك فروق جوهرية بينها ، وبين الجبر الصريح الذي قال به أنصار مذهب الجبر ومن هنا كان ينبغي على جمال الدين ألا يخذل النفس بالأمانى ، وألا يغفل عن الحقائق ، وأن الأولى بالمفكرين أن يواجهوا كل الآراء التي تؤدي بالأمة الإسلامية إلى الضعف والتخاذل والتواكل ، ولن يكون ذلك إلا بالنصرة الصريحة لتلك الآراء التي تقر بحرية الإنسان وإرادته^(٤) .

ثانيا : شروط النهضة:

هذه هي أهم الأسباب التي أدت بالأمة الإسلامية إلى الضعف والتدهور ، وهي أسباب شديدة الوطأة ، عميقة الآثار ، حتى أنه يمكن القول بأن يقظة الشعوب الإسلامية في مثل هذه الأحوال يمكن أن توصف بأنها إحدى المعجزات^(٥) ولكن ذلك لا يصح أن يدفع إلى اليأس ، بل إنه ينبغي أن يكون دافعا

(١) الإمام عبد الحميد بن باديس : ١٤ ، وانظر ١٧ ، ١٨ .

(٢) انظر : دراسات ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٣) انظر مثلا : مقدمة مناهج الأدلة ١٠٨ - ١١٢ ، ودراسات ... ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٤) انظر : الإسلام بين أمسه وغده : ٣٨ - ٤١ .

(٥) السابق : ١٥ .

إلى معرفة الأخطاء وتباعد الهمم لمواجهةها والتصدي لها ، حرصا على البقاء ، ونجاة من الاستعصال والفناء^(١) ثم إن اليأس لافائدة منه ، بل إنه يقود إلى القنوط من رحمة الله ، ويدفع الأمة إلى الانحلال ، أما التفاؤل فإن يدفع إلى العمل^(٢) .

وعلى ضوء هذه النزعة التفاؤلية ينظر إلى أحوال الشرق فيرى أن الشرق يمر بمرحلة خطيرة ، ولكن جانب الخير أكثر ظهورا^(٣) ومن ثم فإنه يتوقع له أن ينهض من كبوته ، وأن يستأنف مسيرة الحضارة التي ازدهرت في أرجائه ردحا طويلا من الزمن ، وهو يستند في تفاؤله هذا - إلى قانون التطور ، وملاحظة حركة النهضة الحديثة « إن الزمن لا يعود إلى الوراء عادة... وإن سنن العمران التي تتبعها الشرق في يقظته توحى بأن الريح تهب في جانب دعاة الإصلاح ، وإن المسلمين لن يعودوا إلى ركودهم عما قريب ، ولو كره أنصار القديم^(٤) ، على أن الإغراق في التفاؤل ليس مسلكا حكيما ، بل إنه يجب أن يكون مصحوبا بالحدز واليقظة^(٥) . كما أنه يجب أن يكون مصحوبا بالفحص الدقيق لأحوال الأمة ، وبذل الجهد في تصور السبل التي تتحدد لها طريق نهضتها^(٦) ثم يجب أن تتحول برامج الإصلاح إلى واقع عملي ، لأن بناء الأمم لا يكون بالشكوى والنواح ، ولا بالاستسلام للأحلام والأمجاد القديمة ، كما أنه لن يكون «منحة» يقدمها لهم الآخرون ، فالنهضة «لا تأتي» دون جهد ، وإتخذ تنبعث من أعماق الأمة ، وتصنع بأيدي أبنائها،

(١) السابق: ١٥٨، ١٥٩ .

(٢) الإمام ابن باديس ١١٣ .

(٣) جمال الدين الأفغاني ص ٥ .

(٤) الإسلام بين أمسه وغده ١٦٩ .

(٥) أخذ على الكواكبي أنه كان شديد التفاؤل عندما تحدث عن أن المسلمين ليسوا متخلفين في العلم عن أوروبا إلا بعشرين عاما ، وليسوا متخلفين عنهم في الأخلاق إلا بأربعين عاما ، انظر : المرجع السابق

١٨٥ ، ١٨٦ .

(٦) السابق: ١٥٨، ١٥٩ .

وعلى عيونهم ، فإن البكاء لا يحيى الميت^(١) .

وقد حدد الدكتور قاسم بعض الشروط الضرورية للنهضة ، وكان من أهمها :

١- النهضة عن طريق الدين :

أشار الدكتور قاسم إلى أن المصلحين في الشرق قد أجمعوا على ضرورة الإصلاح ، ولكنهم اختلفوا في تحديد طرقه ووسائله ، فمنهم من دعا إلى العودة إلى التعاليم والأخلاق الإسلامية ، ومنهم من اختار طريق المحاكاة لأوروبا في علومها وصناعاتها ، ورأى أن ذلك هو أسلم الطرق لرفع مستوى الحياة في البلاد المتخلفة أو الأمم المستعبدة^(٢) .

وقد اختار الطريق الأول لأسباب متعددة منها :

أ- أن الإسلام هو الأساس في نشأة هذه الأمة ، وظهورها على مسرح التاريخ، كما أنه كان سببا في بسط سلطانها ، وتحقيق هيبتها ، والعودة إلى الدين - إذن - تمثل أقصر طرق الإصلاح وأسلمها^(٣) .

ب- أن الإسلام قادر على أن يشق طريقه في أشد العصور ظلاما وضعفا ، لأنه دين يتجه إلى العقل ، ويوافق الميول الطبيعية في الإنسان ، وقد أتاحت له سلامة بنيته ، وبداية عقائده ، وموافقته للطبيعة الإنسانية أن يصمد أمام كل غزو ديني أيا كان مصدره^(٤) وقد مثل القرآن - في الماضي - نقطة البدء لكل ضروب التقدم التي حققتها هذه الأمة في مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية ، ومنها الحركة

(١) السابق : ١٥ ، وانظر ص ٣ .

(٢) انظر الإسلام بين أمسه وغده : ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧٤ .

(٣) السابق : ٢٠٤ ، ونصوص مختارة في الفلسفة الإسلامية ص ٥ .

(٤) الإسلام بين أمسه وغده : ٦٧ ، ٧٠ ، ١٦٠ .

الفكرية الفلسفية^(١) .

كما أن الإسلام صالح - بمافيه من قوى ذاتية- على الانتشار فى الحاضر ، على الرغم من ضعف المسلمين وتقهرهم ، وما يدل على ذلك أنه يخطر خطرات جبارة فى قلب القارة السوداء - افريقيا ، وهذا أمر لا ينكره المبشرون أنفسهم ، فكثيرا ما وجدوه فى طريقهم ، وكثيرا ما يلحقهم ثم يسبقهم ، وهم - لذلك- أكثر الناس علما بقوته ، وربما كانوا أكثر يقينا بهذه القوة من بعض المسلمين ، وذلك لأنه ينتشر ، دون اعتماد على ما يلجأ إليه الآخرون من منافع أو إغراءات ، ثم أنه يتغلب على ما يوضع أمامه من عقبات ، فما الذى يدفع معتقيه إلى الدخول فيه ، والإعراض عن الدين الذى يدين به الأقوياء فى أوروبا وغيرها ؟ .

وليس لهذا السؤال إلا إجابة واحدة توضح ما يمكن فى طبيعة هذا الدين من عوامل القوة الذاتية^(٢) .

ج- إن الدين - بصفة عامة - هو أقوى العوامل تأثيرا فى النفس الإنسانية ، وأكثرها قدرة على تحريكها ، وهو يتصل بأعمق أغوارها اتصالا طبيعيا ، لا تكلف فيه ، ولا حوائل دونه ، وذلك لأنه عنصر جوهرى فى فطرة كل إنسان . وليست العاطفة الدينية وهما أو خيالا كما يظن الماديون ، بل إنها فطرة فطر الله الناس عليها وهذه الفطرة هى التى ترسم حدا فاصلا بين عالم الحيوان ، وعالم الإنسان ، فهؤلاء الذين يحاولون - عبثا - اجتثاث بذرة الإيمان من قلوبهم ، هم الذين يريدون محو الفوارق بينهم ، وبين بقية الأنواع الحيوانية^(٣) .

ولهذه الأسباب يجب النظر إلى الدين - والحديث عنده عن الإسلام - على

(١) نصوص مختارة... ص ٥ .

(٢) الإسلام بين أمسه وغده ٦٧ - ٧٠ .

(٣) السابق ٢١٦ ، ١٧ .

أنه أساس كل إصلاح^(١) وذلك لأنه مهيا ليقودهم إلى نهضة علمية فكرية أخلاقية كملك التي كانت لهم من قبل^(٢) .

غير أن جهد الإسلام ليس محصورا في الجانب الثقافي وحده - مع أهميته - بل إنه هو - وحده - الذى يستطيع أن يحقق القوة السياسية للمسلمين ، لأنه هو المهيأ لجمع شمل هذه الأمة التى فرقها الاستعمار ، ومزقتها العصبية التى نزع الإسلام فى إضعافها فى أول عهد المسلمين به ، ولن يمكن جمع هؤلاء المسلمين عن طريق الرابطة العرقية ، بل إن ذلك ليس مستطاعا إلا عن طريق الإسلام ، وهذا ما نبّه إليه كثير من قادة النهضة الإسلامية كالأفغانى وغيره ، ومما يدل على أهمية هذه الرابطة وقوتها أن الأوربيين يسعون لتفكيك عراها وصرف المسلمين عنها ، وعلى المسلمين - إذن - أن يستعيدوا هذه الرابطة ، دفاعاً عن أنفسهم ، وتحقيقاً لقوتهم ، لاسيما وأن هذه الرابطة ليست عدوانية أو عنصرية أو رغبة فى ظلم من لا يؤمنون بها من أصحاب العقائد الأخرى ، على الرغم مما ووجه به المسلمون من مظالم فى أماكن كثيرة من العالم ، وفى حق تاريخية متعددة^(٣) وهكذا يكون الإصلاح والنهضة عن طريق الدين أيسر منالا وأقصر طريقا وأن من يطلب الإصلاح من غير هذه الطريق فإثما يركب من أمره شططا ، فيجعل النهاية بداية ، ويعكس أساليب التربية ، ويخالف قوانين التطور الاجتماعى^(٤) .

وهو يرد بذلك على القائلين بالبده بالجانب المادى أو الجانب العلمى من الحضارة قبل ملاحظة الجانب الدينى أو بدونه أصلا .

ولذا نجد يقول «فماذا يجدى علم دون دين أو خلق ، إنه أولى أن يؤدى إلى

(١) جمال الدين الأفغانى ٣٦ ، ٤٣ .

(٢) السابق : ٠٦ ، ٠٧ .

(٣) انظر : الإسلام بين أمس وغده : ٢١٢ ، ٠٥ - ٢١٩ .

(٤) انظر السابق : ٢٠٧ .

عكس مايريد المصلحون ، وربما كان سببا في أن تزداد الأمة فسادا أو انتكاسا^(١).

وقد كان الدكتور قاسم حريصا في هذا الصدد على أن يبين أمرين :

أولهما أن العودة إلى الدين تعنى العودة إلى جوهر الدين وروحه لا إلى شكله وصورته الخارجية ، كما أنه يقتضى جهودا علمية جبارة ، لوضع هذه العودة في إطارها الصحيح ، دون تهن إلى الدين أو تعويق لحركة التطور المعاصرة ، التي وصل الإنسان إليها ، وقد أدلى بهذه الملاحظة الهامة في سياق تعليقه على ماقدمه الأفغانى من تصور للنهضة عن طريق الدين .

وذلك عندما تخيل أن يقوم حاكم صغير من بين أمراء المسلمين بجعل الأوامر الدينية قانونا لولايتة ، ثم أخذ ينفذ حدود الدين دون تفرقة بين الناس ، وأسهم في الالتزام بالأخلاق الإسلامية ، وانصرف عما يقع فيه كثير من حكام المسلمين من رغبة في التظاهر بالعظمة ، والوقوع في الإسراف والبذخ ، ويقول الأفغانى إن ذلك لو حصل من هذا الحاكم لتحققت له عظمة الملك ، ولاكتسب الأنصار والأتباع من مختلف البقاع الإسلامية ، دون أن يتعجشم في ذلك تعباً أو جهداً ، أو يضطر إلى إنفاق المال لإعداد الجيوش أو التحالف مع الدول الكبرى ، إذ يكفي أن يسير على نهج الخلفاء الراشدين وأن يلتزم بالأسس الإسلامية الأولى ليتحقق له كل شيء .

ويعلق الدكتور قاسم على هذا التصور بأنه يضع حلولاً ساذجة لمشاكل ضخمة ، ويتخيل طرقاً مثالية بعيدة عن واقع الحياة ونواحيها ، ولذا فإن مثل هذه الفكرة لا تثبت أمام النقد ، وهو يصف الأفغانى بأنه يسط الأمور أكثر مما يقتضيه

(١) السابق : الموضع نفسه . ويلاحظ أن الدكتور قاسم يتفق في هذا التوجه مع ما نجده لدى كثير من دعاة النهضة عن طريق الإسلام كالأفغانى ومحمد عبده ، وابن باديس ومحمد إقبال ومالك بن نبي وأمثالهم ، ممن اختاروا الدين طريقاً للنهضة .

ما يعرف عنه عادة من حكم شديد ، ثم إنه يتصور حلولاً لا تتفق مع قوانين العمران ، لأنه ليس من المستطاع لحاكم صغير فى ولاية صغيرة أن يسط نفوذه على أقطار أخرى بهذا اليسر البالغ ، «فإننا نرى ملوكاً طبقوا الشريعة ، وأقاموا الحدود ، غير أنهم بعيدون عن أن يسطروا سلطانهم على العالم الإسلامى ، هذا إلى أن الناحية الدينية ترتبط بمختلف مظاهر الحياة الاجتماعية من اقتصاد وسياسة وثقافة ، وجميع هذه العوامل يؤثر بعضها فى بعض ، وهى لا تتطور فرادى .. بل إنها تشابك وتتداخل وتتقاطع ، وتفضى إلى ظواهر جديدة» وهو يختم تعليقه بأن العودة إلى الحياة الاجتماعية التى عرفها السلف مثال أعلى يستحيل تحقيقه ، لكن من الممكن أن يعود المسلمون إلى أخلاقهم الأولى ، ثم عليهم ألا يهملوا النواحي العلمية والاقتصادية والعمرانية أى أن من الضروري أن يمتد الإصلاح إلى جميع الميادين ، لأنه لا يمكن تطبيقه فى مجال دون مجال ومعنى ذلك أنه لابد من أن يتحقق فى المجتمع الإسلامى الناهض ما تحقق للإنسان من رعاية ومزايا فى المجتمع الحديث (١) .

أما الأمر الثانى الذى كان حريصاً على بيانه فهو أن الاعتماد على الدين فى حركة النهضة لا يعنى الانغلاق على الذات ، أو الإهمال للخبرة الإنسانية التى توصل إليها الإنسان فى ظل حضارات أخرى ، غير الحضارة الإسلامية ، فهذا أمر غير ممكن ، لأن الحضارات القوية تفرض وجودها على الآخرين . إما بقوة السلاح ، وإما بقوة التقدم الذى يجعل الآخرين فى حاجة إليها ، ثم إن الانغلاق غير مطلوب ، لأنه لا يمكن أن تتحقق نهضة ما إلا إذا جمعت بين خير عناصر الماضى والحاضر ، حتى تشق طريقها إلى مستقبل أفضل (٢) .

وإذا طبقنا هذا على علاقة العلام الإسلامى بأوروبا - وهى المسألة المثارة منذ

(١) الإسلام بين أمسه وغده ٢٠٦ - ٢٠٨ .

(٢) الإمام عبد الحميد بن باديس : ٧٩ .

أن جاءت أوروبا إلى الشرق غازية فى العصر الحديث - فإننا نجد أنفسنا متخلفين عنها فى الجانب العلمى ، وهذا أمر لامناص من الاعتراف به ، فقد أصبحت الحضارة الغربية هى حاملة راية الحضارة العلمية . وإن من أهم عناصر هذه الحضارة العلم ، والحرية السياسية ، وأن على كل من يريد التقدم أن يستعين بهذه الأسباب المتحققة فيها^(١) ولا فائدة من تجاهل هذه الحقيقة ، أو دفن الرؤوس فى الرمال ، أو مقاومة التطور ، بدعوى الاستمسك بالقديم ، لأن الحضارة القديمة التى رفع المسلمون لواءها قد أصابها الضعف والوهن ، ولم تعد قادرة على مواجهة متطلبات العصر ، وقد أصبحت - فى حالتها الراهنة - لاتدفع عنهم شررا ، ولا تجلب لهم خيرا ، لأن العلم والفن أصبحا غريبين بعد أن ضاق الشرق بهما ، كما انتقلت القوة والغلبة معهما من جانب آخر^(٢) أما الحضارة الغربية فإنها قد أصبحت تمثل الحضارة العالمية ، وتدل الدلائل على أن كل حضارة سواها لن تستطيع الازدهار والتقدم إلا إذا أخذت بالأسباب التى أدت إلى ازدهارها ، ومن أهمها العلم والحرية السياسية^(٣) . ومعنى ذلك أن احتكاك الشرق بالغرب لم يكن شررا كله ، بل كان فيه جانب من الخير ، ويتضح هذا الخير فيما يمكن أن يقتبسه الشرق من الغرب لإصلاح أحواله ومقاومة عوامل التخلف الموجودة به ، فالأمر لاتستطيع أن تعيش على القديم وحده ، بل إنها محتاجة إلى هذا التفاعل الخلاق بين القديم والجديد ، وقد بدأ الشرق ذلك فعلا حيث يشهد هذا التفاعل العجيب بين الحضارتين ، وقد أصبح مستقرا فى الأذهان أن «الغلبة ستكتب - دون ريب - لهؤلاء الذين يأخذون من الحضارة الغربية أحسن ما فيها ، ليوفقوا بينه ، وبين العناصر الإسلامية الأصيلة»^(٤) وهذا التفاعل أو التوفيق يعد ضرورة لامناص من

(١) الإسلام بين أمسه وغده : ١٦٦ ، وسيأتى الحديث عن هذه الفكرة مرى أخرى عند الحديث عن التقدم عن طريق العلم .

(٢) الإسلام بين أمسه وغده : ١٦٦ .

(٤) السابق : ١٦٨ .

الآثار بها ، دون مراوغة أو تباطؤ ، حتى لا يضيع الوقت أو تتعثر طرق الإصلاح . وليست الخسارة القريبة - إذن - شرا يجب تجنبه ، ولا عدوا يجب محاربته ، بل إن الحكمة تقتضى من المسلمين أن يحشوا فيها عن الجوانب التى تكون عوناً لهم على مواجهة المشكلات التى تواجههم ، وسوف تزداد هذه الفكرة وضوحاً واكتمالاً بما سيرد من حديث فى النقطة التالية .

٢- النهضة عن طريق العلم .

ويأتى العلم ليكون ركناً ثانياً فى أركان النهضة المرتقبة للعالم الإسلامى . وليس الحديث عن العلم بالأمر الجديد عليه ، لأن حضارته القديمة قد ازدهرت فيما مضى لأسباب يأتى العلم فى مقدمتها ، وقد تفوق الغرب - فى العصر الحديث - على المسلمين بسبب العلم لأنه مصدر القوة والسطوة ، بينما يعانى الشرق من الضعف والاستسلام بسبب الجهل^(١) لذلك أجمع المصلحون منذ أواخر القرن الماضى على أنه لن تقوم للمسلمين قائمة إلا بالعلم ولن يتمكنوا من التقدم والتحرر من هيمنة الاستعمار إلا به^(٢) .

ويحدد الدكتور قاسم المقصود بالعلم تحديداً واضحاً فيقول إنه ليس هو العلم المدون فى كتب المتأخرين من الفقهاء وأهل الجدل بما يتسم به من جمود ، وما يؤدى إليه من ضيق أفق لعقول ملايين من أبناء المسلمين ، على نحو يباعد بينهم وبين العصر الحديث ، وإنما المراد بالعلم «العلم الحديث» العلم الأوروبى ، الذى يعتمد على كشف القوانين وتسخير الظواهر الطبيعية ، ذلك أن هذا العلم هو الذى يحرر العقول من الأوهام والأباطيل ، وهو الذى يستطيع أن يجدد حيوية الشعوب الإسلامية وأن يعين أبناءها على الاقتراب من مصادرهم الأولى التى استغلقت على أفهامهم ، مع

(١) الإسلام بين أسسه وغده : ١٨٨ ، ١٩٣ .

(٢) السابق : ١٨٦ ، ١٩٢ .

أنها أكثر وضوحاً وهداهة ، مما اخترعه ذور اللجج من علمائهم السابقين^(١) ومعنى ذلك أن الاستعانة بالعلم بالمفهوم التجريبي الحديث تعد ضرورية ، لامن أجل التقدم المادى فحسب ، بل من أجل فهم المصادر الأصلية للإسلام ، وذلك لما يستلزمه العلم الحديث من وضوح ودقة وتنظيم للمعلومات ، وربط للظواهر بأسبابها ، ورفض للتفسيرات الوهمية ، وبحث عن النتائج التى يقوم الدليل على صحتها . وقد بذل الدكتور قاسم جهوداً واضحة لتأكيد ضرورة الأخذ بالعلم والمنهج العلمى ، لا اعتقاده «أن أى تقدم فى الشرق وفى الثقافة العربية لن يكون أمراً حقيقياً إلا بتعديل نظرنا إلى طرق البحث وأساليبه تعديلاً شاملاً ، بل ثورياً فى بعض الحالات»^(٢) وهو يضيف إلى ذلك قوله فى مناسبة أخرى «ولست بعيداً عن الحق عند ما أرى أن أساليب التفكير ومناهج البحث العلمى هى أفضل الوسائل فى بناء الصرح العلمى لدينا»^(٣) وقد كان ذلك من وراء اهتمامه بمناهج البحث التى قدم عنها كتاباً رائداً فى هذا المجال ، كما كانت هذه الغاية نفسها من وراء ترجمته لعدد من الكتب فى مجالات مختلفة لاسيما فى علم الاجتماع بفروعه المختلفة^(٤) .

ولم يغيب عن باله أن الدعوة إلى الاستعانة بالعلم فى مفهومه الحديث ستلقى مقاومة من أصحاب العلوم التقليدية السائدة فى البيئة الإسلامية ، وأن هؤلاء ربما أثاروا مسألة التعارض بين الدين والعلم ليصرفوا الناس عن العلم ، ولكن ذلك لم يثر مخاوفه ، بل قال فى قوة إن كل محاولة يقوم بها أنصار الجمود والتقليد للوقوف فى وجه التطور القائم على العلم ستلقى أسوأ مصير ، وأن جهودهم ستبوء بالفشل ، وإنهم سيضطرون إلى التراجع عن آرائهم تحت وطأة التقدم المتصير وأن

(١) السابق: ١٨٦ .

(٢) من مقدمة ترجمته لكتاب : الأخلاق وعلى العادات الأخلاقية - ليفى بربل - طبع الحلبي

١٩٥٣ ص ٥ .

(٣) من مقدمة كتابه : المنطق الحديث ومناهج البحث ، الانجلو المصرية ط ٤ ص ٥ .

(٤) انظر قائمة مؤلفاته فى الجزء المخصص لذلك فى هذا الكتاب التذكارى .

الخير « كل الخير للشرق أن يعترف أن الحياة لا توهب للضعفاء الجهلاء ، وأن محاربة العلم والحرية السياسية باسم الدين غدت أسطورة لاتخذ أحداء^(١) .

وهو يستدل لذلك بما أحرزته حركة التطور من نمو واتساع إذا قورنت في عهده بالعهود التي بدأ فيها دعاة الإصلاح دعواتهم في القرن الماضي ، ثم يستخلص من هذا أنه لأحياة في عصرنا هذا لأهل الجمود ، ولألمن يتعصب لطريقتهم ، وأنه لو قام غلاة الرجعيين اليوم بتخويف الناس من خطر العلوم الحديثة على الدين لhez الناس أكتافهم سخرية^(٢) وقد كان مما يدفعه إلى هذه الثقة في نظريته إلى العلاقة بين الدين والعلم أن الإسلام يحتفل بالعلم والعقل احتفالا كبيرا ، وهو يجعلهما خير أعوانه ، وأن التضييق على العقل ليس من مبادئه ولا غاياته ، وقد فهم المسلمون العالمون بالإسلام والعاملون به ذلك جيدا ، بل تشربت البيئة الإسلامية ذلك ، وطبقته في عصورازدهارها ، لذا فإن المسلمين لا يحاربون العلم والفلسفة إلا عندما يتعدون عن المصادر الأولى لدينهم ، وعندما تضطرب أحوالهم الاجتماعية والسياسية ، فيتشبهون بأهل الديانات الأخرى التي ترى في الحسج على العقل سبيلا إلى الاحتفاظ بمكانتها في النفوس^(٣) ومادام الأمر كذلك فإن الذين يقفون في وجه العلم باسم الدين لا يعبرون إلا عن موقف شخصي ، وأنه كان أليق بهم أن يتقبلوا النهضة العلمية الكبرى بروح ودية صادقة^(٤) .

وعلى الرغم من هذا الموقف القائل بضرورة العلم للنهضة فإن مفكرنا كان حريصا على أن يبين بوضوح أن هذا العلم لا يغنى عن الدين الذي يعد أمرا فطريا في الإنسان ، وهو يستند في هذا إلى تطور العلم في أوروبا ، التي أثبتت تجربتها أن

(١) الإسلام بين أسسه وغده : ١٦٧ .

(٢) السابق : ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٣) جمال الدين الأفغاني : ١٩٦ .

(٤) بين أسسه وغده : ١٣٠ .

العلم لا يمكن وحده في النهضة بالأخلاق «فإن بعض المدارس الفلسفية في أوروبا حاولت اتخاذ العلم أساسا للأخلاق ، بدلا من الدين ، ونعني بها مدرسة علم الاجتماع الفرنسي ، غير أنها لم تفلح ، وعاد المصلحون يقولون بضرورة الدين لبناء الأخلاق ، كما اكتشفوا أن القوانين - مهما كانت محكمة - لا تستطيع أن تخلق الضمير ، الذي تعد طاعته أقوى من طاعة القانون (١) .

ويعود الدكتور قاسم مرة أخرى إلى مناقشة علاقة الشرق الإسلامي بأوروبا ، التي لاشك في سبقها له في مجال النهضة العلمية ، وقد دعا - كما رأينا - إلى ضرورة اقتباس هذا العلم ، واستنباته في الشرق ، ليكون عاملا حاسما من عوامل تقدمه ، غير أنه لاحظ - هنا - عدة أمور ينبغي الإشارة إليها :

(أ) أنه ليس معنى أن نأخذ عن الغرب علومه النظرية والعلمية أن نعتقد أن الحضارة الأوربية المادية هي المثل الأعلى الذي ينبغي لنا تحقيقه في الشرق ، ذلك أن النزعة المادية قد غلبت على أهل أوروبا ، فسخروا العلم تسخييرا كثيرا في صنع أدوات القتال ، واستعمار الشعوب واحتكار ثرواتها ، وإشعال نيران الحروب العالمية في قارتهم وفي غيرها ، وفشا لديهم هذا الاتجاه المادي إلى حد أن كثيرا من عقلائهم حذر من إفلاس أوروبا وتدهورها إذا استمرت في نزعتها المادية (٢) وليس هذا راجعا - بطبيعة الحال - إلى العلم في ذاته ، لأن العلم محايد ، لا يوصف بالخير أو الشر ، وإنما يرجع ذلك إلى الإنسان الذي يحسن أو يسيء استخدامه ، ومن هنا تأتي أهمية الدين والأخلاق والإحساس بالأخوة الإنسانية لتكون ضوابط توجه العلم الوجهة الصحيحة التي ينبغي أن يتجه إليها .

(١) انظر : جمال الدين الأفغاني : ١٣١ - ١٣٣ ، وتعليقات على ترجمته لكتاب ليفي بريل : الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية ، أنظر صفحات ١٤٦ ، ١٦١ ، ١٨٦ ، ٢٣٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٣٨ ، والإمام عبد الحميد باديس ص ٨٨ .

(٢) الإسلام ... ص ١٩٤ .

(ب) ألا يتم النقل عن أوروبا بطريقة عشوائية ، بل لابد أن يخضع لنظرة نقدية فاحصة وموجهة ، ولا يتعلق الأمر - هنا- بالجانب العلمى ، لأن العلم لاجنسية له ، ولاوطن ، أو هكذا ينبغي أن يكون ، بسبب ما يتميز به من موضوعية ، ولكنه يتعلق بالجانب النظرى ، الذى تقوم عليه العلوم الإنسانية ، وقد أشار فى سياق تعليق له على بعض آراء الأفغانى ومحمد عبده إلى أنه لايكفى أن تنقل النظريات التى نشأت فيها ، وبالظروف الموجودة بها ، ومن ثم لن يتيسر لهذه النظريات أن تحدث آثارها إلا إذا تشابهت الظروف فى كلتا البيئتين ، ودفعه ذلك إلى أن يقول بضرورة التدرج ، والبعد عن «الطفرة» لأن هذه العلوم نشأت فى الأمم الأوربية فى ظروف محددة ، ثم ازدهرت بعد أن قطعت فى نموها مراحل معينة ، فإذا هى نقلت دفعة واحدة ، إلى بيئة لا تناسبها فإنها توشك أن تودى إلى عكس الغاية المرجوة منها..» (١) .

وعلى ضوء ذلك التدرج فإن من الضرورى أن يتم الاهتمام والتركيز على الفنون العملية التى يعد الشرق محتاجا إليها أكثر من حاجته إلى الآراء النظرية (٢) وذلك لصلة الجانب العلمى من العلوم بالتقدم المادى ، الذى هو أساس كل تقدم ثقافى أو فلسفى ، ثم إن النظريات غير مضمونة النجاح ، وإن أفضل النظريات السياسية أو الأخلاقية لتعجز عن تعديل أخلاق الأفراد وإرشادهم إلى طرق الرشاد (٣) وقد كان يمكن الإشارة هنا إلى أن الجانب النظرى يعكس القيم والتقاليد

(١) الإسلام : ١٩٩ .

(٢) لعل الذى دفعه إلى هذا «الانتقاء» هو ما صرح به من أن الذين يقومون بعملية النقل قد يقعون أسرى الإعجاب بالغرب ، بسبب تقدم الغرب واحتلاله السابق للشرق ، وقد يدفعهم الإعجاب إلى الظن بأن كل شئ فى الغرب عظيم ، ويؤدى هذا إلى غياب ملكة النقد والحكم السليم ، ومن ثم يمكن أن ينقلوا إلى الشرق ما ليس ملائما له . انظر السابق : ٢٠٠ .

(٣) الإسلام ... ص ١١٩ ويمكن القول بأن اعتبار التقدم المادى أساسا وأصلا للتقدم الثقافى والفلسفى ، وعجز أفضل النظريات السياسية أو الأخلاقية عن تعديل سلوك الأفراد هما فكرتان قابلتان لكثير من المناقشة التى تودى إلى إمكان اختيار رأى آخر فيهما ، فالتقدم المادى قد يكون أصلا للتقدم الثقافى =

والفلسفة التي يمكن أن تختلف في الشرق عنها في الغرب وفي الشمال عنها في الجنوب ، وقد يؤدي نقلها من حضارة إلى حضارة إلى صراع وتصادم لا يسمح للتبادل الحضارى أن يتم ، بل ربما أدى الأمر إلى الرفض والقطيعة على عكس ما هو مطلوب .

ويصف الدكتور قاسم حركة النقل والانتباس من أوروبا إلى أوائل القرن الحالى بالفشل «لأنها كانت تتجه إلى العلوم النظرية والآداب أكثر منها إلى الفنون العملية وإلى العلوم الطبيعية»^(١) .

ولعل هذه الملاحظة النقدية لا تنطبق - تماما - على الترجمة في أول عهدها ، حيث تدلنا بعض الدراسات المتخصصة أن الطابع العلمى كان غالبا عليها ولا سيما فى عهد محمد على ، وأنه قد أمكن - عن طريقها - نقل كتب كثيرة فى مجالات علمية متعددة ، كالطب بفروعه المختلفة - وما يتصل به من علوم الطبيعة والكيمياء ، ثم علوم النبات والحيوان ، إلى غير ذلك مما كان يدرس فى مدارس الطب ، والطب البيطرى والصيدلة والزراعة ، ومثل علوم الرياضة من حساب وجبر وهندسة مما كان يدرس فى مدارس الهندسة والمدارس الصناعية ، ثم العلوم البحرية والبحرية ، وقد أضيف إلى هذه المواد العلمية بعض العلوم الاجتماعية أو الأدبية كالتاريخ والجغرافيا والفلسفة والمنطق ، ونحوها مما كان يدرس فى مدرسة الألسن^(٢) ولكن

= والفلسفى وقد يكون ثمرة لهما ، وعلاقة الفكر بالمادة علاقة تبادلية وتكاملية تتغير فيه المواقف ، وليست ، دائما علاقة تبعية ، إلا لدى مذهب معين ، كان الدكتور قاسم شديد البعد عنه بحسب طبيعة موقفه الدينى والفكرى ، وقد تتبع كثيرا من جوانبه ، وتاريخه ، ونقده فى كتاب : جمال الدين الأفغانى ، أما عجز النظريات عن تعديل السلوك فإنه لا يرجع إلى النظريات ذاتها ، بل إلى موقف المتلقى لها ، فهى تحتاج إلى اقتناع بها أولا ، فإذا تم ذلك كان ذلك مدخلا لتأثيرها .

(١) الإسلام بين أمسه وغده ٢٠٠ .

(٢) انظر : د. جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، نشر دار الفكر العربى ١٩٥١ م ٤٥ ، وانظر نماذج لأسماء وموضوعات الكتب المترجمة فى الصفحات ٤٩ ، =

الملاحظة تظل صحيحة فيما بعد ذلك ، ولعلها تنطبق على القرن العشرين أكثر مما تنطبق على سابقه ، حيث وجدنا بعض مترجمي العلوم الطبيعية يشكون من غلبة الطابع الأدبي على الترجمة ، وقد كان من دوافع الترجمة «الرغبة في تكثير سواد الكتب العربية في العلم ، وتنبه قوى التعريب والترجمة في الاهتمام به ، والاجتهاد فيه من مجال الأدب الذي غصت الأسواق به ، رغم غنى المكتبة العربية الذاتية في الأدب وكتبه»^(١) .

ويلاحظ أن آراءه عن الاهتمام بالجانب العملي في الترجمة تتفق مع آرائه حول هذه المسألة بصفة عامة ، حيث أنه يتجه هذه الوجهة نفسها فيما نجمده لديه من آراء حول مناهج التدريس وطرق التربية^(٢) وهو يرى - في هذا الصدد - أنه لا بد لأهل الشرق أن يحوروا فكرتهم عن العلم تحويراً شاملاً ، بحيث لا يكون العلم ثقافة سطحية هي أقرب إلى الجهل منها إلى أي شيء آخر ، ويجب أن يكون التعليم لديهم شاملاً للنواحي النظرية والعملية ، ومن ثم يجب أن يتضمن العناية بالعمل

= ٥٠، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٦٦، ٨٤، ٨٨-٩١ ثم انظر ١١٢-١١٧، ١٢٨، ١٢٩ الخ ، ثم انظر الملحق الأول بآخر الكتاب وهو في عشرين صفحة ، ثم انظر بياناً بما ترجم في عهد محمد علي ، وهو في ص ٣٨، ٣٩ من الملحق ، وتدل الدراسة الإحصائية له على الغلبة الساحقة للعلوم الحرة والطبية والرياضية حيث ترجم فيها جميعاً ١٩٨ كتاباً أما الدراسات الأدبية فلم تخل من العناية إلا قليلاً وقد كان التاريخ أكثرها حظاً ، فترجم فيه ١٤ كتاباً وترجم في الأدب كتابان وفي المنطق كتاب وفي الاجتماع كتاب .

(١) مقدمة د. محمد أحمد الغمراوي ، د. أحمد عبد السلام الكرداني لترجمة كتاب من أسرار الفطرة «الطبيعة - Nature» تأليف ا. ن داس اندريد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، عدد ١٣ دون تاريخ ص هـ ، وهما يفسران سر الإقبال على ترجمة كتب الأدب أكثر من العناية بالكتب العلمية في هذه الصفحة وما يليها .

(٢) بل في تقييمه لبعض حركات الإصلاح والتحرر في العالم الإسلامي ، فقد كان من بين أسباب إعجابه بالإمام ابن باديس أنه زاول في دعوته بين النظرية والتطبيق ، فتميز بذلك على كثير من الفلاسفة الذين اكتفوا بالدعوات النظرية ، انظر : الإمام عبد الحميد بن باديس : ٨٣ .

اليدوى ، وأن يهتئ الشباب لمزاولة الأعمال الحرة ، لأنها أقصر الطرق إلى تحصيل الثروة والرفاهية ، وهذا هو شأن أغلبية الشباب الأوربي الذين ينفرون من الوظائف الحكومية «فوجب إذن - أن نقلد الغرب فى اتجاهاته الصحيحة ، وأن ننظر - بعين الحذر - إلى اندفاع شبابنا إلى الدراسات النظرية التى تخلق طبقة من المستهلكين، لالمنتجين وقد آن للشرق أن يعلم أن مستقبله رهن بالعمل والإنتاج ، فإن أصغر دول الغرب رقعة ، ربما كانت تفوق فى إنتاجها ممالك الشرق الأوسط بأسرها»^(١) وقد بين أن احتواء البرامج التعليمية على هذا الجانب العملى هو من أفضل السبل لتجنب مايقع من أزمات فى تشغيل الخريجين ، وهى أزمات شاذة لا يحدث مثلها فى الغرب ، لأن الأمور تجري عندهم على غير ما تجرى عليه عندنا ، حيث يتجه الشباب عندهم إلى الأعمال الحرة فى المعامل والمصانع «أما فى الشرق فمازالت العلوم النظرية ، والآراء الفلسفية ، والدراسات التاريخية تحتل المقام الأول فى المعاهد، وكثيرا مايتهجه المتخرجون فى المدارس العملية إلى الكليات النظرية للحصول على مؤهل علمى يتيح له الظفر بإحدى الوظائف الكتابية ، فرارا من عناء مهنتهم العملية ، أو من سوء تقدير الناس لها وهذا هو أحد أسباب تأخر الشرق حتى الآن»^(٢) ولهذا نراه يقف موقف المعارضة للرأى القائل بأن المعرفة النظرية - وحدها - كافية لإصلاح أحوال المسلمين ، أو أنها يجب أن تأخذ القسط الأكبر من الاهتمام ، وهذا رأى خاطئ - فى نظره - لأن أحوال الشرق قد بلغت من السوء مبلغا لا يجدى معه أن تنشر الأفكار الفلسفية والأخلاقية لتنبه الأفكار وتقويم الأخلاق ، حيث عم الدهول ، وسيطر الجهل ، وربما كان ذلك صحيحا لدى الأمم التى أخذت بنصيبها من العلم والرفاهية ، لأن الفرصة تكون سانحة لديهم للاطلاع على الجديد فى مجال العلوم النظرية ، لأن فى ذلك إشباعا لنوع من الترف العقلى

(١) الإسلام... ١٩٢٠

(٢) السابق: ١٩٣، وانظر ١٧٧.

الذى ينسبهم مشاكل الحياة المادية لوقت قصير يعودون بعده إلى استئناف حياة الجهد والعمل ، وليس هذا شأن البلاد الشرقية التى يسود فيها الجهل والفقر وهم محتاجون أولا وقبل كل شئ إلى تحسين ظروفهم المعيشية «وكيف لنا أن نحدث ذوى البطون الخاوية ، والأقدام العارية عن نظريات فلسفية كتنظيرة النشوء والارتقاء لدى داروين ، بنظرية الواجب الأخلاقى كما كان يفهمها «كانت» . إن ما يحتاج إليه أصحاب هذه البطون والأقدام هو معرفة علمية عملية تقتل جوعهم ، وتحفظ أقدامهم من وهج الحر ، وقذارة الطريق ، وبعد ذلك - فقط - يمكن أن نحدثهم عن نظريات العصر الحديث ، ونظريات العصر القديم - أما قبل ذلك فلا بد أن يحيا الإنسان قبل أن يتفلسف» (١) .

وربما كان من المستغرب أن يصدر مثل هذا رأى عن رجل عاش حياته كلها فى حقل الفلسفة متعلما وباحثا ومفكرا ، وقد كان ذلك دافعا قويا له أن يتعصب لهذا المجال الذى نذر نفسه له ، ولكن ضخامة المشكلات الاجتماعية ، وقسوة الحياة بالنسبة لأعداد كبيرة من شباب الأمة ربما كانت من وراء هذه الآراء التى أبدأها لحل هذه المشكلات ، عن طريق التعليم الذى يساعد على تعديل القيم ، وتصويب المفاهيم ، وتحديد الأولويات ، وتوجيه الطاقات البشرية . ولعل التطور الذى نشاهده الآن ، سواء فى مجال التعليم قبل الجامعى ، أو فى مجال الوظائف والعمل خير شاهد على صواب هذه الآراء التى أبدأها قبل نحو أربعين عاما .

(ج) ولقد كان منطقيا أن تكون دعوته إلى الأخذ عن أوروبا بعيدة عن التأثير بالمظهر الخارجى لحضارتها دون الجوهر الحقيقى لها ولهذا نجده يعيب على بعض محاولات التطوير التى تمت فى بعض البلاد الإسلامية ، أنها انجذبت إلى المظهر ، دون أن تنقل الروح التى يجب أن تصاحبه ، ومن هذه المحاولات ماوقع فى عهد

(١) الإسلام..... ١٩٧٠ وانظر ١٩٩ .

الحديوى سعيد ، والحديوى إسماعيل فى مصر ، حيث رأينا كيف شيدت القصور والحداائق وجملت مصر كما يقولون ، ومع ذلك ، فإن كلا من التجميل والتحسين لم يتجاوز بعض المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية ، بينما بقى الريف المصرى فى مظهره العتيق المهن ، حيث تتجمع الدور البائسة كقطع من الطين التى تشوه العقل، (١) .

ومعنى هذا أن هذا التمدن كان شكليا جزئيا ، وأنه لم يكن نتيجة لنظرة شاملة ، وأنه لمن سوء التقدير أن تقام الأوبرا لتقدم الأعمال الفنية باللغات الأجنبية التى لا يعرفها أحد ، قبل أن تقام المدارس التى تعلم الناس أصول الكتابة ، وأسس العلوم وأوليات الحرف التى تساعد على اكتساب عيشهم ، وتأكيد إنسانيتهم ، وتحقيق كرامتهم . ويوضح الدكتور قاسم أن مكمن الخطأ يرجع إلى عيب عام يتجلى واضحا فى أكثر البلاد الشرقية وهو العناية بالمظهر دون الجوهر ، وهو يقدم مثلا من مجال خبرته العملية ، فالجامعات فى الشرق تقام لها أبنية ضخمة ، ربما لا يوجد لها مثيل فى الجامعات الأوربية ، وعلى سبيل المثال فإن جامعة باريس ، على شهرتها العلمية - لتستحى أن تقارن ببعض أبنية الجامعات عندنا ، حيث تفوقها ضخامة وبذخا ، لكن الفارق الكبير ، بين الحركة العلمية فى كل من فرنسا ، ومصر أكبر من أن يشار إليه ، كذلك فإن جامعات الأقاليم تقام عندهم فى قصور أثرية قديمة ، ومع ذلك فهى لا تفتقر ساعة من نهار ، فالمظهر لا يهتمهم ، بقدر ماتعنيهم جدوى الدراسات ونفعها «أما فى الشرق فقد تنفق مئات الألوف (٢) على بناء معهد من المعاهد العلمية ، فترى بناء شامخا ، لكنه لا يحتوى على المعامل الضرورية للبحوث ، ولو وجدت هذه المعامل فسرعان ما يتطرق إليها العطب بسبب الإهمال وسوء الاستخدام ، فلا يتحقق الهدف من إنشائها ، بل ربما جال

(١) الإسلام ... ٢٠١ .

(٢) بل ربما تنفق الملايين الكثيرة .

فى خاطر المرء أنه كان من الأولى أن تنفق هذه الأموال الطائلة فى أغراض أخرى ، فإن الأمة أحوج إلى المال ملء بطون الجائعين ، منها إلى تبديده فى تجهيز المعامل التى لا يمكن الانتفاع بها^(١) وليس معنى ذلك الانصراف عن بناء المعامل ، وإنما المقصود ضرورة تجهيزها بالآلات اللازمة ، ثم حسن تشغيلها واستخدامها فى التعليم والتدريب والبحوث العلمية التى أنشئت من أجلها ، وإلا فإنها تفقد قيمتها المنوطة بتحقيق الأهداف التى أنشئت من أجلها .

٣- الشورى :

وهكذا تكون النهضة الإسلامية عن طريق الدين والعلم ، اللذين يمثلان أهم عناصر النهضة وشروطها ، ولكن تحقق النهضة عن طريقهما مشروط بالتخلص من عوامل التقهقر والتخلف التى احاطت بالأمة الإسلامية ، ومن أهمها : الاستبداد الذى هو سبب البلاء الأكبر الذى حاق بها ، فى حين أن حكم الشورى كان سببا فى قوتها ومجدها^(٢) .

ثالثا : خاتمة وتعقيب :

وإذا توفرت هذه العناصر الثلاثة الجوهرية : الدين والعلم والشورى أمكن للأمة الإسلامية أن تنهض من كبوتها ، وأن تسهم - مرة أخرى - فى صنع الحضارة ، على نحو ما أسهمت به من قبل ، وبهذه العناصر المتكاملة يتم «التوفيق» بين الجديد والقديم فى غير إفراط ولا تفريط ، بحيث تستخلص الأمة أفضل ما فيها دون تعصب ولا جمود ولا مغالاة^(٣) ، كما يتم «التفاعل» بين حضارة الشرق وحضارة الغرب ، دون تقوقع على الذات أو نفى للآخرين ، أو انسحاق أمامهم ثم يكون

(١) الإسلام... ٢٠١، ٢٠٢ .

(٢) السابق ١٨٥ ولن تفصل القول فى هذا العامل اكتفاء بما ذكرناه عنه عند الحديث على عوامل الضعف التى أدت إلى تأخر الأمة الإسلامية .

(٣) الإسلام... ٢٠٣، وابن باديس ٧٩ .

التقدم شاملا لجوانب النهضة العلمية والعمرانية ، النظرية والعملية ، دون إغفال لبعضها لحساب بعضها الآخر كما اتجه إلى ذلك بعض المصلحين^(١) .

ولقد كان د. قاسم واقفا من أن عوامل التقدم سوف تكون لها الغلبة على عوامل الجمود ، وهو يستند في تفاؤله هذا إلى الشواهد المستلخصة من واقع الأمة منذ بدأت طريقها للنهضة في القرن الماضي ، وقد قال في لهجة مفعمة بالتفاؤل «إن الزمن لا يعود إلى الوراء عادة ، وقد تتخلف بعض الأمم ، وتأسن حضارتها ، فإن بقي فيها صباية من عزم وطموح لم تلبث أن تتحرك عجلة التطور، وتتوالى طلائع الإصلاح حتى تنشط الهمم الخاملة ، وتدب الحياة في أوصال هذه الأمة .. وإن سنن العمران التي تبعها الشرق في يقظته توحى بأن الريح تهب في جانب دعاة الإصلاح ، وإن المسلمين لن يعودوا إلى ركودهم عما قريب ، ولو كدروا انصار القديم»^(٢) .

ويمكن القول بأن آراء الدكتور قاسم - رحمه الله - وأفكاره حول النهضة الإسلامية ، تمثل جانبا من أهم جوانب فكره ، وربما لا يصل إلى شهرته بمناصبته لفكر المعتزلة ، وفلسفة ابن رشد ، ثم دراسته لتصوف ابن عربي ، ولكنه لا يقل عنها شهرة من حيث الدلالة على شخصيته واهتماماته الفكرية . ولعل هذا الجانب يعد من الجوانب التي تبرز لديه أكثر مما تبرز لدى كثير من المشتغلين بالفلسفة من أقرانه ومعاصريه ، ممن لم ينشغلوا بهذا الجانب على النحو الذي ظهر به لديه .

وقد ساق آراءه في وضوح وعبر عن أفكاره في لغة لا تنقصها القوة ، والشجاعة ، لاسيما في حديثه عن الاستبداد وأثره في إضعاف الأمة الإسلامية ، ومن الحق أن بعض ما تجده لديه من أفكار حول هذا الموضوع قد جاء في سياق

(١) الإسلام ... ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٢) الإسلام ... ١٦٩ .

عرضه لآراء بعض أعلام النهضة الإسلامية المعاصرة كالأفغانى ومحمد عبده والكواكبى وابن باديس ، ولكنه لم يكتف بعرض آرائهم ، بل إنه اتخذها وسيلة للإفصاح عن آرائه الشخصية التى لا تقل عن آرائهم أصالة وجراً ، وقد تجلّى ذلك فى التعليق أحيانا على آرائهم بما يكشف عن رؤية ، ومن ذلك قوله «تلك هى حال أمراء المسلمين فى عصر جمال الدين ، وما أشبه أن يصدق قوله على حالهم فى عصرنا»^(١) ومن هذا حديثه عن وصف الكوكبى لما تصاب به الشخصية التى تنشأ فى ظل الاستبداد من طمس للشخصية ، وكبت للقوى والطاقت العقلية والفكرية والبدنية ، إنه ينقل ذلك كله ثم يقول «حقا قد تكون هذه اللوحة التى رسمها الكواكبى قائمة تبعث اليأس ، لكنها كانت صادقة فى عصره ، بل قبله بعدة قرون ، وما زالت تنطبق - للأسف - على ملايين من المسلمين فى الوقت الحاضر»^(٢) ويقول إذا كان الأمير على وفاق مع رعيته ، وقل أن يوجد مثل هذا الأمير»^(٣) بل إنه كان يقف منهم موقفا تقديرا فى مواطن عديدة ، وكان من بينها - مما يتعلق بموضوعنا - نقده لجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى نظرتهم الجزئية للإصلاح والنهضة ، فليس من صواب التقدير أن نتحدث عن الإصلاح الدينى أو السياسى دون أن نقرن كلامهما بالإصلاح فى سائر الجوانب الأخرى «وفى جملة القول لأنرى أن الإصلاح يمكن حصره فى مجال أو ميدان واحد ، بل من الضرورى أن يمتد إلى جميع الميادين الأخرى ، إذ كيف تتطلب جودة العقيدة وحسن الخلق لدى الجاهل المعدم ، الذى تضطره حياته أن يمد يده إلى مال غيره ، لاريب فى أن قطع هذه اليد خير رادع للآخرين ، لكن أليس من المستحسن أيضا أن يقل عدد الأيدي المبتورة ، لاعن طريق الإرهاب (أ) مع البؤس الشامل ، بل

(١) الإسلام.....ص ١٢ .

(٢) السابق: ١٦ .

(٣) السابق ٩١ .

بالنهضة الاقتصادية والاساليب الاجتماعية ، التى تتبعها الدول المتحضرة التى ترى رعاية الفقير من أهم واجباتها؟؟ (١) .

لقد قدم الدكتور قاسم أفكاره حول مسائل شديدة الأهمية للأمة الإسلامية فى حاضرها ومستقبلها ، وهى تقدم دليلا على قوة صلة الفلسفة بالمجتمع ، ووثاقة ارتباطها بمشكلاته وانشغالها بتحديد العقبات التى تقف فى طريقه ، واستشرا فيها لآفاق تطوره وحركة النهضة المرجوة له . ومن الواضح - من عرض آرائه - أنه قد انحاز فى مشروعه للنهضة إلى جانب الدين ، لشقته فيما يتضمنه الإسلام من عناصر القوة التى تجعله صالحا للنهضة بالأمة الإسلامية فى الحاضر والمستقبل ، مثلما كان صالحا بذلك فى الماضى ، وهو يتفق فى ذلك مع كثير من دعاة النهضة السابقين عليه أو المعاصرين له ، ومن هؤلاء الأفغانى ومحمد عبده والكواكبى وابن باديس ومحمد إقبال ومالك بن نبي ، وإن كان هؤلاء يختلفون فيما بينهم فى تحديد مشروعاتهم للنهضة ، فبعضهم قد يوجب عليه الطابع السياسى كالأفغانى والكواكبى وبعضهم قد يوجب عليه الطابع الثقافى كمحمد عبده ومحمد إقبال ومالك بن نبي ، والدكتور قاسم أقرب إلى هذا الفريق ، مع حرص واضح لديه على أن تكون النهضة شاملة لكل العناصر : السياسية والثقافية والعلمية والعملية كما سبق القول . وبعضهم قد يجمع بين الدعوة النظرية والتطبيق العملى كابن باديس الذى أفلح فى أن تكون أفكاره النظرية دافعا ومحركا لحركة جبهة التحرير الجزائرية ، التى أفلحت فى أن تحقق للجزائر استقلالها عن فرنسا ، ولاشك أن هؤلاء - وأمثالهم - ممن اتستعت لهم ساحة الفكر أو العمل أو كليهما على امتداد العالم الإسلامى كانوا ينحون نحواً يختلف فى منطلقاته وغاياته عن تلك

(١) الإسلام ١٩٠٠ . وقد أخذ على الأفغانى أن انشغاله الأكبر كان بالجانب السياسى ، كما أخذ على الشيخ محمد عبده أن انشغاله الأكبر كان بالجانب التربوى والتعليمى ، ومعنى ذلك أنهما لم يلحا على بيان الصلة الضرورية بين جوانب الإصلاح التى يجب فى رأيه أن تكون متكاملة لاجزئية انظر ٢١٠، ٢٠٩ .

المشروعات الحضارية الأخرى التى اتجهت نحو العلمانية بفصائلها المختلفة ، والتى انضوى تحت لوائها مؤمنون وملحدون ، ومسلمون ومسيحيون وقوميون واشتراكيون وليبراليون ، ومن هؤلاء حزبيون ومستقلون ، ومفكرون وثوريون إلى آخر ما يمكن أن تضمه خريطة الذين انشغلوا بالتفكير فى الواقع المتخلف الذى انحدر إليه المجتمع الإسلامى ، وحاولوا أن يحددوا طريقا للخروج منه .

ولقد حاول الدكتور قاسم - فى هذا الصدد - محاولة جادة صادقة ، بلذ فيها من فكره وجهده ، وضمنها كثيرا من همومه وآماله الراضية فى المستقبل ، ونستطيع أن نطبق عليه قوله الذى قاله «وفى الحق لا يستطيع المرء أن يفعل شيئا ذا قيمة إلا إذا وضع فيه جزءا من نفسه وطبعه»^(١) ولعل أفضل ما نختتم به هذه الصفحات هو تلك الفقرة التى ختم بها كتابه الهام : «الإسلام بين أمس وغده» ، والتى تلخص كثيرا من أفكاره تلخيصا جيدا حيث يقول «إذن فالسبيل القويمة إلى النهضة الإسلامية هى أن ينقطع المسلمون عن المفاخرة بماض مجيد ، لم يكونوا أمناء عليه ، وأن يعلموا أن عصر المعجزات قد انقضى ، وأنهم لن يكونوا أهلا للانتماء إلى هؤلاء الذين يفخرون بهم إلا إذا لحقوا بهم عن طريق العلم والعمل والأخلاق ، والوقوف على سر تقدم الغرب وقوته ، ومحاولة الوصول إلى مرتبته فى العلم والقوة»^(٢) .

(١) جمال الدين الأفغانى ٩٠ .

(٢) الإسلام بين أمس وغده ٢٢٣ .

محمود قاسم في صحبة ابن رشد

أ. د. محمد السيد الجليلي *

تمهيد :

لقد امتدت الصحبة بين أستاذنا المرحوم محمود قاسم وابن رشد إلى ما يقرب من ثلاثين عاما ، حيث بدأت رحلته مع ابن رشد أثناء الحرب العالمية الثانية في أوائل الأربعينيات برسالته للدكتوراه عن : «نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الإكويني» ولعل هذه الصحبة الطويلة مع فلسفة ابن رشد ، كانت سببا في اتصال الشرق العربي بفلسفة ابن رشد وتعرفه عليها ، لأن أعمال محمود قاسم الرشدية كانت من أوائل ما كتب عن ابن رشد بشكل علمي ومنهجي في

* أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية السابق بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

القرن العشرين ، إن لم تكن أولها بالفعل ، لأننا لم نجد من قبل محمود قاسم من أبناء العربية من كتب عن ابن رشد في القرن العشرين ، وذلك إذا استثنينا ما قام به الإمام محمد عبده في نشره لكتايب : مناهج الأدلة ، وفصل المقال بعنوان «فلسفة ابن رشد» ، وهو عمل أقرب إلى النشر منه إلى التحقيق العلمي ، ومنذ أن كتب محمود قاسم كتابه : «نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكويني» باللغة العربية ، بدأت أنظار الباحثين واهتماماتهم تتجه نحو ابن رشد ، وتحاول الإسهام بشكل أو بآخر في تجلية آرائه وتوضيح مواقفه الفلسفية والدينية على حد سواء . وربما حدث بعد ذلك نوع من التنافس بين الباحثين في الكتابة عن ابن رشد .

وبعد كتاب نظرية المعرفة ، أخذ المرحوم محمود قاسم يدور مع فلسفة ابن رشد حيث دارت ، ليس بقصد التبعية الفكرية له ، وإنما بقصد الكشف عن أصالة هذا الفيلسوف المسلم الذي أضاء بأرائه الفلسفية والعلمية ظلمات أوروبا في العصور الوسطى ، فأشعل فيها نور العلم والمعرفة ، وأخذت ترسم خطاه ، وتأخذ بمنهجه العلمي ، حتى عبرت بها إلى عصر النهضة والتنوير الحقيقي . فلا عجب من طول هذه الصحبة التي استمرت بين محمود قاسم وفلسفة ابن رشد ، فإن الرجلين كان يجمعهما مشرب واحد وروح واحدة ، كما جمعت بينهما النزعة العقلية المنهجية التي استطاعت أن تميز لكل منهما بين ماهو صحيح دينيا وماهو مزيف وبين ماهو صحيح فلسفيا وعقليا ، وماهو مدموس على العقل متستر باسمه ، وهو في الواقع ليس منه في شيء ، بل هو من قبيل الخرافات والشكوك ، كما أن اهتمام هذين الرجلين ببيان العلاقة الوطيدة بين ماهو صحيح دينيا وفلسفيا ، قد عمل على إطالة هذه الصحبة بينهما ، ذلك أن عصر ابن رشد كان يشبه في كثير من النواحي عصر محمود قاسم ، وكانت هذه العوامل المتشابهة بين عصرى الرجلين تمثل في ميل بعض رجال الدين إلى التشكيك في عقيدة المشتغلين بالعلوم الفلسفية ، أو كما

أسماءها ابن رشد بالعلوم الحكمية ، ومحاولة ذلك النفر أن يلقوا بالاتهامات الباطلة على المشتغلين بالفلسفة ، وتأليب الجمهور وأنصاف المثقفين على هؤلاء ، مما جعل كلا من ابن رشد ومحمود قاسم يشغل جزء كبيرا من حياتهما ببيان وجه الحق في هذه القضية ، وبيان الأهداف المشتركة بين كل من الدين والعلوم الحكمية .

ولقد أثار موقف الفريق الأول الجمهور ضد ابن رشد واستطاع بعض الفقهاء أن يدس عليه عند الخليفة ، مما أثار ضده بلاط الخليفة وحاشيته ، بعد أن كان ابن رشد محل الرضا والتقدير من الخليفة ، ولكن تغيرت المواقف بسبب أشياء كثيرة من أهمها موقف الفقهاء من ابن رشد وتشكيكهم في عقيدته واتهامه بالزندقة والإلحاد زورا وبهتانا ، فحلت به المحنة ونزلت به النكبة هو وبعض أصفياه مما جعل الخليفة يأمر بحبسه وإحراق كتبه ، ولقد شغل المرحوم محمود قاسم نفسه بتجلية الآراء الدينية والفلسفية لابن رشد ليبين وجه الحق فيها ومدى الظلم الذي وقع على ابن رشد ، فوضع كتابه : «ابن رشد المقتري عليه» وكتابه «الآراء الدينية» والفلسفية لابن رشد» ونشر كتاب «مناهج الأدلة» الذي يعد من أعظم مآلف ابن رشد في بيان مافى منهج المتكلمين من قصور في تجلية أمور العقيدة ومسائلها ، ولقد ركز بصفة خاصة على تجلية آراء ابن رشد في مسائل الأصول العقائدية ، التي من أهمها : أدلة وجود الله ، العلم الإلهي ، قدم العالم ، الحشر وبعث الأجسام ، لأن هذه المسائل الاعتقادية كانت سببا في الاتهامات التي وجهها الفقهاء إلى ابن رشد ، فاتهموه بأنه ينكر علم الله بالجزئيات ، وينكر حشر الأجساد ، ويقول بقدوم العالم ، ولعل مما أثار حفيظة الفقهاء ضد ابن رشد ، موقفه الفلسفي من كتاب الغزالي «تهافت الفلاسفة» ومحاولة الانتصار للفلاسفة ورفضه لمنهج الغزالي وآرائه في نقده للفلاسفة ، ولقد وضع ابن رشد في ذلك كتابا «مستقلاً» هو «تهافت التهافت» ، وارتبطت شهرة الكتابين كل منهما بالآخر لما بينهما من تلازم في ذكر المسألة الفلسفية على لسان الغزالي في كتابه ، ثم تناول ابن رشد لنفس المسألة في

«تهافت التهافت» ، وبيان تهافت رد الغزالي على الفلاسفة والانعص : لهم ، ولقد كان لهذا الكتاب وقع كبير في نفوس حساد ابن رشد ، فتقولوا عليه بما لم يتل به ، وأكزموه بالزمامات باطلة ، كان لها أثرها في موقف الخليفة منه وانقلابه عليه وحبسه مع كثير من أتباعه وتلامذته ، وإذا أضفنا إلى ما سبق إعجاب ابن رشد الشديد بفلسفة أرسطو وآرائه ومحاولة التوفيق بينهما وبين الآراء الدينية ، كل ذلك جعل أستاذاً المرحوم قاسم ينفق الكثير من منى عمره في خدمة فلسفة ابن رشد وتجهيزه موافقة ، وسوف أختار هنا بعض القضايا نظراً لما تسمح به ظروف هذه المناسبة .

من المعروف تاريخياً أن انشغال ابن رشد بفلسفة أرسطو وتلخيص كتبه ، أو شرحها ، إنما كان بأمر من الخليفة أو بتوجيه منه على الأقل ، فلقد ذكر عبد الواحد المراكشي في كتابه «المعجب» ، وتناقل ذلك عنه الدارسون فيما بعد ، أن ابن رشد قد ذكر في أسباب اهتمامه بفلسفة أرسطو أنه كان في مجلس الخليفة ومعه أبو بكر بن طفيل ، وقد أخذ الأخير يثنى على ابن رشد بحضرة الخليفة ، ويذكر له ما يتمتع به ابن رشد من رفعة الحسب والنسب له ولأسرته ، فأخذ الخليفة يسأله عن رأى الفلاسفة في السماء أقديمة هي أم حادثة؟ يقول ابن رشد : فكان أول ما فاتحنى فيه أمير المؤمنين أن قال لى : ما رأيهم في السماء (يعنى الفلاسفة) أقديمة هي أم حادثة ؟ فأدركنى الخوف ، فالتفت الأمير إلى ابن طفيل ، وجعل يتكلم عن المسألة التى سألنى عنها ، ويذكر ما قاله أرسطو وأفلاطون وجميع الفلاسفة ، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم ، فرأيت منه غزارة علم وحفظ ، لم أظنها فى أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ، ولم يسطنى حتى تكلمت ، فعرف الخليفة ما عندى من ذلك ، ثم أخذ نجم ابن رشد يعلو بعد ذلك فى سماء بلاط الخلافة ، فولاه الأمير قضاء اشبيلية . ويحكى ابن رشد قصة انشغاله بكتب أرسطو ، فيقول : استدعانى أبو بكر بن طفيل يوماً فقال لى : سمعت أمير المؤمنين يتشكى من غلق عبارة أرسطو وعبارة المترجمين له ، ويذكر غموض أغراضه من

الفاظه ، ويتمنى الخليفة لو وقع لهذه الكتب من يتولى شرحها وتلخيصها بعد فهم عبارتها والغرض منها ، ويقول ابن رشد : ثم توجه إلى ابن طفيل ملحاً على أن يتم للأمير ما أراد من كتب أرسطو ، قائلاً : إن كان فيك قوة فضل لذلك ، فافعل ، وإنى لأرجو أن تبر به ، لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة فكان هذا ما حملني على تلخيص ما خصته من كتب أرسطو . ويتضح لنا من هذا النص الذي ذكره عبد الواحد المراكشي في كتابه «المعجب» علو شأن ابن رشد ومدى قربه من الأمير وحظوته عنده ، ولكن كما نعلم من قراءة التاريخ فإن رضا الأمراء لادوام له ولأثبات ، فسرعان ماتغيرت الأمور ، وانقلبت حسنات ابن رشد إلى مساوئ وحاقت به الرهانات من كل جانب ، وأخذ البعض يفسر آراءه وأقواله حسب أغراضهم من ابن رشد ، حتى انتهى الأمر أن أودع ابن رشد في السجن وهو في انسبعين من عمره .

وإذا كان مطلب الخليفة بتلخيص كتب أرسطو ، قد صادف هوى عند ابن رشد ، فإن هذا الفيلسوف قد اهتم من جانب آخر بأن يبين للذين اتهموه بالإلحاد أن الاشتغال بالعلوم الحكمية ليس من محظورات الشرع ، حتى يجعلوا اهتمامه بالفلسفة الأرسطية سبباً في اتهامه بالزندقة والخروج عن الملة ، ووضع لبيان ذلك كتابه الشهير «فصل المقال» ولقد أراد ابن رشد في هذا الكتاب أن يبين أن الغاية التي يسعى إليها الشرع لاتعارض مع الغاية التي تسعى إليها العلوم الحكمية ليس بما يضعه الشرع ولا يحظره ، بل هو في حقيقة الأمر مطلب شرعى أمر به الكتاب العزيز في غير آية من القرآن ، «فإن مقصود الشرع إنما هو تعليم العلم الحق والعمل الحق ، والعلم الحق هو معرفة الله تعالى حق المعرفة ، وكذلك التعرف على الموجودات على ما هي عليه ، والعمل الحق هو امتثال الأفعال التي تفيد السعادة ، وتجنب الأفعال التي تورث الشقاء ، وإذا قارنا ذلك بمطلب العلوم الحكمية نجد أنها واحدة ولا تختلف هذه عن تلك ، فإن النظر الفلسفى غايته التأمل في الموجودات

على ما هي عليه من جهة دلالتها على الصانع ، وكلما كانت معرفتنا بالصنعة أتم وأكمل ، كانت معرفتنا بالصانع أتم وأكمل ، والكتاب العزيز قد ندبنا في غير آية إلى التأمل في الموجودات بالاعتبار العقلي الذي يسمى في العلوم الحكمية برهاناً ، فصارت معرفتنا بالبرهان مطلباً شرعياً ومعرفتنا بالبرهان تقتضي منا معرفة أنواعه وطرقه ووسائله أو شروط البرهان الصحيح . فصارت معرفتنا بهذه الأمور مطلباً شرعياً كذلك لأنها من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولا يصح لأحد أن يدعى أن الاشتغال بهذه الأمور بدعة مستحدثة كما يقول بذلك البعض ، بدعى أن جيل الصحابة والتابعين لم يشتغلوا بها ، وهذا إن صح من البعض فهو نوع من المغالطة والتنطع ، فإن جيل الصحابة والتابعين لم يشتغلوا بالقياس الفقهي وأنواعه وشروطه ، وليس لأحد أن يدعى أن ذلك بدعة في علم الفقه وأصوله .

وإذا كان النظر العقلي مطلباً شرعياً ، كما تبين لنا أن الكتاب العزيز قد ندب إليه ، ووجدنا غيرنا من الأمم السابقة قد اشتغلوا بأمر البرهان الصحيح ، وتكلموا في شروطه وطرقه ووسائله فيجب علينا أن نضرب بأيدينا في كتبهم لننظر فيها ونتفحص ما قالوه ، فإن كان كله صواباً قبلناه منهم وشكرناهم عليه ، وإن كان خطأ نبهنا إليه وحذرنا منه ، وعذرناهم فيه ثم ينتهي ابن رشد من هذه المقدمات إلى تقرير أن النظر في كتب القدماء مطلب شرعي ، وأن من نهى عنه أو قال بتحريمه فقد صد الناس عن الباب الذي دعا الشرع منه إلى معرفة الله تعالى حق معرفته ، وذلك غاية الجهل ، والبعد عن البرهان ، فإن الحق لا يضاد الحق بل يقويه ويشهد له . ولقد كشف ابن رشد بهذه المقدمة زيف موقف الجمهور والفقهاء ، وكل من قال بتحريم الاشتغال بهذه العلوم الحكمية ، وبين أن موقفهم يدل على جهل بغاية الشرع والعقل معاً ، ولقد أوضح أستاذنا محمود قاسم هذه القضية في العديد من دراساته عن ابن رشد لينتقل منها إلى توضيح منهجه في الإلهيات الذي عارض به منهج المتكلمين ، وسوف نتناول هنا بشئ من الإيجاز هذه المسائل

الدينية ونوضح رأى ابن رشد فيها .

١- قدم العالم :

كان الحديث عن قدم العالم قائماً على قدم وساق بين الفلاسفة والمتكلمين ، وكان الغزالي قد كثر الفلاسفة لقولهم بقدم العالم ، وذلك خلال مناقشتهم فى كتابه «تهافت الفلاسفة» وكان مدخل ابن رشد فى رده على الغزالي فى كتابه «تهافت التهافت» و «مناهج الأدلة» مدخلا منهجياً يعتمد على تحليل الألفاظ وبيان ما فيها من غموض ليصل فى النهاية إلى القول بأن الخلاف فى هذه القضية خلاف لفظى وليس حقيقياً .

ذلك أن ابن رشد يحكى اتفاق الفلاسفة والمتكلمين على أن هناك ثلاثة أصناف من الموجودات طرفان وواسطة ، وأنهم جميعاً اتفقوا على تسمية الطرفين واختلفوا فى تسمية الواسطة .

١- أما الطرف الأول ، فهو الموجود من شئ أو عن شئ ، بمعنى أنه موجود عن فاعل موجود من مادة سابقة ، وهذا النوع من الموجودات مسبوق بالزمان المتقدم عليه ، لأن وجوده عبارة عن الحركة ، والحركة لا تقع إلا فى زمان يحتويها ، وهذا شأن الأجسام كلها أو بعبارة أدق شأن جميع المحسوسات التى ندرك وجودها بالحواس الظاهرة . مثل تكون الماء والهواء والتراب والنبات والحيوان وهذا النوع من الموجودات اتفق الجميع (الفلاسفة والمتكلمون) على أنها محدثة عن ن حادث سابق عليها ، وأن لها فاعلاً متقدماً عليها بالوجود .

٢- أما الطرف الآخر من الموجودات ، فهو الموجود لا عن شئ ولا من شئ سابق عليه ، بمعنى أنه ليس موجوداً عن فاعل سابق ولا من مادة سابقة ، فهو لم يكن من شئ ولا عن شئ ، ولا تقدمه زمان واتفق الجميع (الفلاسفة والمتكلمون)

على تسمية هذا النوع قديماً ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وهذا النوع يدرك بالبرهان العقلى ، بخلاف النوع الأول الذى يدرك بالحواس ، واتفق الجميع على أن هذا الموجود هو فاعل لكل وموجده ، وحافظ له ، وقائم على أمره .

٣- أما الطرف الثالث من الموجودات (الواسطة) الذى هو بين الطرفين الأول والثانى ، فهو موجود لم يكن عن شئ ولا تقدمه زمان ولكنه موجود عن شئ ، أعنى عن فاعل سابق متقدم عليه .

ويحكى ابن رشد اتفاق الفلاسفة والمتكلمين على أن الزمان غير متقدم على العالم ، لأن الزمان عبارة عن آتات متتالية فى الماضى وفى المستقبل والحاضر ومقارنة فى نفس الوقت لحركات الأجسام ، كما يحكى ابن رشد اتفاق القدماء مع المتكلمين على أن الزمان المستقبل غير متناه وكذلك الوجود المستقبل ، ولكنهم يختلفون فى الزمان الماضى والوجود الماضى ، فالتكلمون ويعنى بهم الأشاعرة ، يرون أنه متناه وهذا هو مذهب أفلاطون وشيعته . أما أرسطو ومن تبعه فإنهم يرون أنه غير متناه فى الماضى وفى المستقبل .

وهكذا يحلل ابن رشد موقف الفلاسفة والمتكلمين من هذه القضية التى شغلت كثيراً من تراث الفلاسفة والمتكلمين على السواء ، وهذا النوع الذى اختلف فيه المتكلمون مع الفلاسفة ، الأمر فيه هين ، لأن فيه شبهاً بالوجود الكائن الحقيقى من جانب وفيه شبه بالوجود القديم من جانب آخر ، فالذين غلبوا عليه الشبه بالقديم قالوا إن العالم قديم ، والذين غلبوا عليه الشبه بالوجود الكائن قالوا إن العالم محدث ، ويقرر ابن رشد موقفه من هذه القضية الخلافية فيقول «... وهو فى الحقيقة ليس محدثاً حقيقياً ولا قديماً حقيقياً ، فإن المحدث الحقيقى فاسد بالضرورة ، والقديم الحقيقى ليس له فاعل ولاعلة له ، ومن هنا يصل ابن رشد إلى القول بأن هذه القضية ليست من مسائل التكفير ، لأن الآراء فيها ليست متقابلة تقابل

الاضداد ، كما ظنها المتكلمون .

ويؤيد ابن رشد مذهب إليه من أن هذه القضية ليست من مسائل التكفير بأدلة شرعية ، فإن ظواهر الشرع إذا تصفحت ظهر من الآيات الواردة في الإنشاء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين وغير منقطع ، وذلك في مثل قوله تعالى ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء﴾ وهذا يقتضى بظاهره أن وجوداً كان قبل هذا الوجود وهو العرش والماء ، وزماناً قبل هذا الزمان وهو المقترب بصورة هذا الوجود الذى هو عدد حركة الفلك ، وقوله تعالى ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ يقتضى أيضاً بظاهره وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود الكائن ، وقوله تعالى : ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان﴾ يقتضى بظاهره أن السموات خلقت من شئ ، وهو الدخان .

ومعنى هذا أن المتكلمين فى موقفهم هذا ليسوا على ظاهر الشرع بل هم متأولون ؛ لأنه ليس فى ظاهر الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض . يقول ابن رشد : ولا يوجد هنا فيه نص أبداً ، وينبغى أن نعلم أن مثل هذه المسائل العويصة الخطأ فيها معلور صاحبه ، لأن الاجتهاد فى مثل هذه القضايا مبنى على معرفة البرهان ، ومعرفة شروطه ، وهذا ليس ميسوراً لكل أحد ، فمن اجتهد فيها وأخطأ كان معذوراً وله أجره ، وإن اصاب فهو مشكور وله أجران .

٢- موقفه من منهج المتكلمين :

كذلك كان اهتمام المرحوم محمود قاسم بتجلية موقف ابن رشد من بقية المسائل العقائدية ، فلقد أوضح فى كتابه «دراسات فى الفلسفة الإسلامية» رأى الشارح الأكبر فى منهج الاستدلال على وجود الله ، وأنه ينبغى أن يكون قائماً على البرهان العقلى الذى لا يتعارض مع النص الشرعى ، ومن هنا فقد رفض ابن

رشد الأخذ بأدلة المتكلمين فى إثبات وجود الله ، كدليل الجوهر والعرض الذى قال به معظم الأشاعرة والمعتزلة ، وكدليل الممكن أو الجائز الذى قال به الجوينى فى العقيدة النظامية ، ولم يكن رفضه لمنهج المتكلمين قائماً على التعصب أو الانتصار للمنهج الفلسفى ، وإنما كان رفضه قائماً على أسباب عقلية وشرعية معاً ، فالدليل الأول : القائم على تقسيم العالم إلى جواهر وأعراض دليل يعتاص على الفهم ، كما قال ابن رشد ، ومقدماته طويلة وليست يقينية ، كما أن تقسيم العالم إلى جواهر وأعراض ليس تقسيماً حاصراً لكل أفراد العالم ، لأن هناك أجزاء لم يصل إليها المتكلمون ليعرفوا هل هى من قبيل الأعراض أو من قبيل الجواهر مع أنها جزء من العالم ، وذلك مثل الجرم السماوى ، فلم يعرف المتكلمون هل هو جوهر أو عرض ، وما دام الأمر كذلك فإن الدليل لا يكون يقينياً . أضف إلى ذلك أن ظواهر الشرع لم تقل به ، ولم يدع به الرسل أمهم ، فهو دليل ليس شرعياً ولا عقلياً ، وقد أشار أبو الحسن الأشعرى فى رسالته إلى أهل الشجر إلى تهافت هذا الدليل ، وبين أن مقدماته طويلة وعريضة على الفهم ، وليست بينة بنفسها ، لأنه يحتاج إلى بيان أن الأعراض حادثة ، وأنها ملازمة للجواهر ، وأن الجواهر حادثة بحدوث الأعراض ، لأن ملازم الحادث يكون حادثاً ، وهذه كلها أمور يصعب فهمها ولا تناسب الفطرة مع ما فى مقدماته من التطويل الممل .

وكذلك دليل الجائز أو الممكن الذى قال به إمام الحرمين ، لم يقبله ابن رشد بل رفضه أيضاً وبين ما فيه من تهافت ، وجعل كتابه : «الكشف عن مناهج الأدلة» و «فصل المقال» لإبطال منهج المتكلمين من جانب ، وتقديم المنهج العقلى الشرعى الذى ارتضاه من جانب آخر . وتجلية هذا المنهج الرشدى ، كان موضع اهتمام من أستاذنا المرحوم محمود قاسم ، ليبين للقارئ مدى فداحة الظلم الذى وقع على ابن رشد باتهامه بالإلحاد والزندقة ، وليبين من جانب آخر أن منهجه فى إثبات قضايا العقيدة ، كان أقرب إلى روح الشرع والعقل من مناهج المتكلمين ، وأدلة ابن رشد

التي قدمها بديلاً عن مناهج المتكلمين في هذه القضية تتركز في دليلين :

الأول : مأسماه بدليل الاختراع

والثاني : دليل العناية الإلهية

ويرى ابن رشد أن هذين الدليلين نبه إليهما الكتاب العزيز واعتمدهما جيل الصحابة والتابعين .

أما دليل العناية الإلهية ، فالكلام فيه مبني على أصليين :

الأول : أن جميع الموجودات التي هاهنا موافقة لوجود الإنسان ومسخرة لصالحه .

الثاني : أن هذه الموافقة هي ضرورة مقصودة من قبل فاعل قاصد إلى تلك الموافقة ومريد لها ، مما يدل على أن هذه الموافقة لم تكن مصادفة ولا بالاتفاق . فأما كونها موافقة لوجود الإنسان فيحصل اليقين بذلك ، باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان ، وكذلك موافقة الأزمنة الأربعة ، وكذلك موافقة بقية الكائنات كالحیوان والنبات والأمطار والأنهار والبحار كلها موافقة للوجود الإنساني ، وكذلك أعضاء البدن وأعضاء الحيوان كلها موافقة للوجود الإنساني وليست معارضة ، وكذلك وجب على من أراد أن يعرف الله تعالى المعرفة التامة أن يفحص عن منافع الموجودات وموافقتها للوجود الإنساني ، لتظهر له ما فيها من عناية الخالق سبحانه بالإنسان ، وأن هذه العناية ظاهرة وبادية لكل من تصفح أفراد الموجودات مما يدل على القصد والإرادة من الفاعل الحكيم العالم بما يفعل ولماذا يفعل والحكمة مما يفعل ، وهذا كله يدل على عنايته التامة بما يفعل وقصده التام مما يفعل .

أما دليل الاختراع ، فإن الكلام فيه مبني على أصليين أيضاً : الأصل الأول : أن

هذه الموجودات مخترعة وهذا أمر معروف ويّين بنفسه فى الحيوان والنبات ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ ونحن نرى أجساماً جمادية تحدث فيها الحياة ، فنعلم قطعاً أن ها هنا موجدأ للحياة ومنعمأ بها ، وهو الله تبارك وتعالى ، وأما السموات فنعلم من سبّهة حركاتها التى لا تفتر أنها مأمورة بالعناية بما ها هنا ومسخرة لنا ، والمسخر المأمور مخترع من قبل غيره قطعاً خاضع لإرادة الفاعل منه.

أما الأصل الثانى : فإن كل مخترع فله مخترع ، فيصبح من هذين الأصلين أن للموجود المخترع فاعلاً مخترعاً ، ولذلك وجب على كل من أراد معرفة الله حق معرفته أن يتعرف على جواهر الأشياء ، ليقف من خلال تأمله ، على الاختراع الحقيقى فى جميع الموجودات ، لأن من لم يعرف حقيقة الأشياء لا يستطيع أن يعرف حقيقة الاختراع ، وإلى هذا المعنى أشار القرآن بقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وكل من تتبع الحكمة فى موجود استطاع التعرف على السبب الذى من أجله خلق وما الغاية التى من أجلها وجد ، وبذلك يكون وقوفه على دليل العناية أتم وعلمه بأنها مخترعة أتم ، وبهذين الدليلين أراد ابن رشد أن يواجه منهج المتكلمين فى الاستدلال على وجود الله كما استطاع من خلال شرحهما والاستدلال عليهما من الكتاب العزيز أن يبين تهافت المنهج الجدلى الذى سلكه المتكلمون إذا قيس بأدلة القرآن ، والآيات التى قدمها بين هذين الدليلين كثيرة ومتنوعة حسب تنوع أفراد الموجودات ، ويقسم ابن رشد آيات القرآن الواردة فى هذا المعنى إلى نوعين :

أ- فهناك آيات تتضمن الدلالة على معنى الاختراع وتنبه إليه فقط ، مثل قوله تعالى : ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّا خَلَقَ ، خَلَقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ ، قوله : ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقَتْ﴾ ، ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَباً فَمَنْهُ

يأكلون ﴿ . يقول ابن رشد : فهذه الطريق المستقيم التي دعا الله الناس فيها إلى معرفة وجوده ، ونبههم إليها بما جعل في فطرهم من إدراك هذا المعنى والتنبيه إليه لمناسبته لفطرة الخواص والعوام على سواء .

ب- وهناك آيات تتضمن التنبيه على دليل العناية فقط ، مثل قوله تعالى : ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً﴾ ، ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾ ، ﴿ألم نجعل له عينين ولساناً وشفهتين وهديناہ النجدين﴾ ، ﴿أنحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ إلى آخر الآيات .

وهذان الدليلان المشار إليهما هما طريقة الخواص في الاستدلال ، كما أنهما طريقة الجمهور في نفس الوقت ؛ لأن هذه القضية التي تشير إليها الآيات العزيزة بينة بنفسها وليست معتاصة على النهم ، والفرق بين الخواص والجمهور يكمن في التفصيل لقوم والإجمال لآخرين ، فالجمهور يقتصرون في معرفة هذه الأشياء المختصرة ومعرفة غايتها على ما هو مدرك منها بالخواص الظاهرة وعلى المعرفة الأولية المقتصرة على الخواص ، أما الخواص فيعنون بما يدرك بالبرهان العقلي بالإضافة إلى ما يدرك بالخواص ، والخواص لا يفضلون الجمهور في إدراك هذه الأمور إلا من حيث القلة والكثرة والتفصيل والإجمال ، ومعرفة العلل الغائية للموجود ، على سبيل الإجمال عند الجمهور وبشيء من التفصيل عند الخواص .

٣- أصالة ابن رشد :

من القضايا التي اهتم بها أستاذنا المرحوم محمود قاسم في فلسفة ابن رشد إبراز أصالته الفلسفية واستقلاله بالرأى ، فهو حين يشرح أو يلخص أرسطو ، لم يكن تابعاً له في كل آرائه ، بل كانت له شخصيته المستقلة ، فكثيراً ما خالف أرسطو ، ونبه إلى ما في آرائه من أخطاء لا تتفق مع آراء المسلمين . سواء ما يتعلق بأدلة إثبات الصانع أو المحرك الأول أو ما يتعلق منها بالنفس وآراء أرسطو حولها .

وسوف نوجز هنا رأى ابن رشد واستقلاله عن فلسفة أرسطو فى النفس وطبيعتها وخلودها حسب ما تسمح به الحاجة .

كانت شروح ابن رشد لآراء أرسطو فى النفس يحدوها فى معظم الأحيان محاولة التوفيق بينها وبين الآراء الدينية فى كل القضايا التى عرض لها فى فلسفة أرسطو ، فابن رشد يرى أن النفس جوهر مستقل ، وهى صورة للبدن فى نفس الوقت ، ولكن على نحو خاص يختلف عما قاله أرسطو ، فلا وجود للبدن منفصلاً عنها ، ولا يمكن للعقل أن يتصوره إلا بها ، وهى تجرى من البدن مجرى الصورة للتمثال على سبيل التشبيه فقط - ولقد فرق ابن رشد ، كما فرق أرسطو - بين ثلاثة نفوس هى : النفس النباتية ، والنفس الحيوانية ، والنفس الإنسانية ، فالنباتية والحيوانية ليستا مفارقتين للبدن ولا تنفصلان عنه بحال من الأحوال ، فتوجدان بوجود النبات والحيوان وتقنيان بفنائهما ، أما النفس الإنسانية فتختلف عن ذلك تماماً ؛ لأنها من جنس آخر ، فإنها مفارقة للبدن ولا تفنى بفنائها ، وهذا قريب مما كان يميل إليه أرسطو ، فإنه كان يرى إمكان مفارقتها للبدن على نحو يدل على القول بروحانيتها واستقلالها عن البدن ؛ لأنه عرفها فى موضع آخر بأنها : الجوهر الذى هو الصورة ، وهذا يدل على أن ابن رشد قد فسر آراء أرسطو فى علاقة النفس بالبدن على نحو يدل على أن الإنسان مركب من جوهرين أحدهما النفس والآخر البدن . يقول المرحوم محمود قاسم : ولا شك أن الذى دعا ابن رشد إلى تفسير أرسطو على هذا النحو الخاص ، أنه فطن إلى ما يجره تعريف أرسطو للنفس من صعوبات ليس من اليسير حلها ؛ لأنه لا يتفق مع روح الإسلام وعقائده لأننا حينئذ بين أن نسلم بأن فساد البدن يتبعه فساد النفس وفنائها ، وهذا يتفق تماماً مع روح مذهب أرسطو ، أو نقول : بوجود النفس الكلية أى بضرورة اتحاد النفوس بعد مفارقتها للأبدان ، لأنه ليس هناك ما يدعو إلى التفرقة بينها بعد فناء المواد التى كانت سبباً فى اختلافها أو تفرقها ، ولقد عرضت هذه المشكلة لكل من

الفارابي وابن سينا قبل ابن رشد ، فأخذ الفارابي بالقول بالنفس الكلية ، ورفض ابن سينا تعريف أرسطو للنفس السبب ، أما ابن رشد فقال إن تعريف أرسطو للنفس قاصر ولا يكفى فى بيان طبيعتها ، وكل ما هنالك أنه يعتبر نقطة بدء لدراستها فقط . يقول ابن رشد مبيناً قصور تعريف أرسطو : «مثل ما قيل فى حد النفس : إنها استكمال لجسم طبيعى آلى ، ومثل ما قيل فى حد الجوهر: إنه الموجود لافى موضوع . لكن ليس تكفى هذه الحدود فى معرفة الشئ ، وإنما يؤتى بها ليتطرق من ذلك إلى كل واحد مما يدخل تحت أمثال هذه الحدود وإلى تصويره بما يخصه ... وإنما نقول : النفس هى ذات ليست بجسم ، حية ، عالمة ، قادرة ، مريدة ، سمعية بصيرة ، متكلمة» فنحن نرى من ذلك أن ابن رشد رغم شدة إعجابه بأرسطو وبفلسفته لم يكن مجرد ناقل أو مقلد له ، لأنه أدرك ما فى رأى أرسطو فى النفس من تناقض مع الدين ، لأن تعريف أرسطو للنفس يفضى لا محالة إلى إنكار خلودها ، لأنها عنده تتحد مع البدن ولا تفارقه ، بل تكون معه جوهرأ واحداً ، ومن هنا فسر ابن رشد أرسطو حين قال بأن النفس صورة للبدن ، فقال : إنها صورة من جنس خاص وليست كباقي الصور التى تتحد مع موادها ، وإذا كانت النفس النباتية والحيوانية صوراً غير مفارقة لموادها ، فإن النفس الإنسانية تختلف عن ذلك ، فهى جوهر مستقل ، وهى فى نفس الوقت صورة للبدن حلت فيه لحكمة إلهية ، وهى إلى جانب ذلك ذات روحية أى غير جسمية ، وهو بذلك قد رفع ما فى رأى أرسطو من تناقض ، لأن أرسطو كان يشبه النفس بالحرك الأول الذى لا يتحرك وأنها مصدر حركة الجسم ، فكان يجب حيثئذ على أرسطو أن يقول باستقلال النفس عن البدن ، كما ذهب إلى القول بأن الإله ذات مستقلة غير جسمية ، لكن أرسطو لم يفعل ذلك ، فجاء ابن رشد ففسره تفسيراً عقلياً ، رفع به التناقض الحاصل فى موقفه ، وجعل النفس ذاتاً مستقلة تدبر الجسم وهى فى نفس الوقت صورة له ، وليس اتحادها بالبدن اتحاداً عرضياً ، كما يقول ابن سينا ، أو

اتحاداً جوهرياً ، كما يقول أرسطو ، وإنما هو اتحاد من جنس آخر اقتضته العناية الإلهية حتى تستكمل النفس وجودها بحلولها فى البدن ، وتقوم بوظائفها المتعددة خلال حلولها فيه ، فإذا ما فنى البدن فارقت النفس إلى عالمها الخاص .

ولقد فسر ابن رشد أرسطو فى وحدة النفس وعلاقتها بالبدن تفسيراً فريداً لم نجدّه عند شراح أرسطو سواء فى ذلك القدامى أو المعاصرين لابن رشد ، فلقد أبرز ابن رشد فكرة وحدة النفس عند أرسطو بشكل ربما لم يفعله أرسطو نفسه ، ذلك أنه بين أن للنفس وظائف عديدة تبدأ من التغذى والنمو والحس والحركة ، وتنتهى باستعدادها لتجريد المعانى وقبولها ، وقد أطلق ابن رشد على الوظيفتين الأخيرتين (تجريد المعانى وقبولها) اسم العقل الهيولانى والعقل الفعال ، فالعقل الهيولانى هو الذى يقبل المعانى ، والعقل الفعال هو الذى يجردها من شوائب الحس والمادة ، كذلك نص ابن رشد على أن هناك تدرجاً وترقياً طبيعياً بين كل وظيفة والتي تليها، فإن كل وظيفة من وظائف النفس تعد شرطاً أساسياً للوظيفة التى تليها بل هى مادة لها ، وفى نفس الوقت تعتبر كمالاً وصورة للوظيفة السابقة عليها ، ومثال ذلك أن وظيفة الحس شرط فى الإدراك العقلى ومادة أولى له ، لأنه لا يوجد إدراك عقلى بدون سبق الحس والخيال له ، لكنه فى نفس الوقت ، (الحس) يعد كمالاً وصورة للوظائف السابقة عليه ، كالتغذى والنمو ، فلا خيال بدون حس ، ولا إدراك بدون خيال ، وقد فصل ابن رشد هذا الرأى فى أكثر من كتاب ، كما يقول بذلك أستاذنا المرحوم محمود قاسم ، حيث شرحها فى كتاب «النفس» و «تلخيص كتاب النفس لأرسطو» فالعقل الهيولانى والعقل الفعال ليسا إلا شيئاً واحداً ، وإن كان متعدداً فى مظهره ووظائفه ، ومع هذا التعدد فهما ليسا إلا شيئاً واحداً ، هو النفس الإنسانية ، فإذا كانت النفس مستعدة للمعرفة سميت عقلاً هيولانياً أو مادياً ، وإذا أدركت النفس ذاتها بأنها ذات مدركة سميت عقلاً فعالاً ، وتسمى هذه المرحلة عند ابن رشد مرحلة اتصال العقل الهيولانى بالعقل الفعال ،

وليس هذا اتصالاً صوفياً كما يقول فلاسفة الإسراق ، وإنما هو اتصال من جنس خاص ، كما سبق ، فالنفس جوهر مفارق للبدن ، ولها وظائف عديدة نشأت في معظمها من اتصال البدن ، ومن هذه الوظائف العقل الهولاني والعقل الفعال ، وهما في حقيقة الأمر شيء واحد ، هو النفس الإنسانية . يقول ابن رشد : «إذن تبين أنه يوجد في النفس هنا فعالان ، أحدهما ، فعل المعقولات ، والآخر قبولها ، فهو من جهة فعله للمعقولات يسمى فعالاً ، ومن جهة قبوله لإياها يسمى منفعلاً ، وهو في نفس الوقت شيء واحد فالأصل إذن واحد ، وهو جوهر النفس والوظائف متعددة ويتبين من هذا أن ابن رشد استطاع تقرير وحدة النفس على نحو لم يسبق إليه ، كما يقول بذلك المرحوم محمود قاسم ، حتى إن أرسطو وشراحه لم يهتموا إلى ذلك ، لأن ابن رشد كان في تقريره لوحدة النفس أكثر وضوحاً من أرسطو وشراحه السابقين ، وذلك عندما قرر أن النفس الإنسانية جوهر روحي قائم بذاته ، وأن وظائفها المختلفة لم تنشأ إلا بعد اتصالها بالبدن ، باستثناء العقل الفعال ، لأنه ليس في حاجة إلى البدن ، وهذه الوظائف ليست إلا صوراً وكمالات للجسم في تدرج وتطور واتصال دائم بين أواخر السابق وأوائل اللاحق ، ومعنى ذلك أن جوهرها عقل محض إذا حل في المادة اضططر إلى استخدام عدد كبير من الوظائف حتى يستطيع السمو إلى أرقى مراتب الإدراك ليهتدى في آخر الأمر إلى إدراك ذاته .

أما عن علاقة النفس بالبدن ، فإن ابن رشد يصرح بأنها لا تفيض على الجسم من واهب الصور ، كما يقول بذلك الإشرافيون ، فهي ليست فيضاً من العقل الفعال ، وإنما يخلقها الله خلقاً مباشراً دون حاجة إلى توسط عقول بينه وبين مخلوقاته ، فتتصل النفس بالجسم بالأمر الإلهي ، رغم اختلاف طبيعتها عن طبيعة الجسم اختلافاً تاماً ، وتتحد بالجسم اتحاداً من نوع خاص ، لا نقول جوهرها ، كما قال أرسطو ، ولا نقول عرضياً كما قال ابن سينا ، وتشبه هذه الصلة إلى حد ما نوع الصلة التي بين الله والعالم ، فهي صلة تدبير وتحريك نحو بلوغ الكمال ،

وهذه النفس لا تتجزأ حسب أجزاء الجسم ، ولا نستطيع أن نحدد لها مكاناً معيناً في الجسم ، والجسم من ناحية أخرى أشبه بالآلة ، تستخدمها النفس لبلوغ كمالها ، ولا بلوغ لها إلى الكمال إلا باتصالها بالجسم ، لأن اتصالها بالجسم يهيئ لها السبيل إلى إدراك ما يوجد في عالم المحسوسات ، أما إذا فارتقت النفس البدن ، فإنها حينئذ لا تدرك إلا ذاتها ، وفي هذه الحالة تشبه العقول المفارقة على نحو ما ، لأنها قد أصبحت غير جسمية ، ولا تستخدم الحواس ، وإنما يقتصر عملها على إدراك ذواتها فقط ، وتدرك الأشياء الأخرى عن طريق إدراكها لذواتها ، وتستطيع النفس السمو بالتفكير والنظر العقلي في أثناء هذه الحياة إلى مرتبة تتجرد معها من كل آثار البدن لتدرك ذاتها إدراكاً عقلياً محضاً ، فتعلم أنها جوهر عقلي مجرد من كل مادة ، ويرى أستاذنا المرحوم محمود قاسم أننا لا نجد ما يشبه هذه النظرية عند أرسطو ولا عند فلاسفة الإسلام السابقين على ابن رشد مثل الفارابي وابن سينا ، لأن هؤلاء يرون أن هناك اتصالاً أسمى ، وهو الاندماج والفناء في العقل الفعال ، فتعلم النفس حينئذ أنها جوهر من عالم الأمر ، الذي لالون له ولاشكل ، ولايردد بين عالم الحركة والسكون ، ولا يتعين بإشارة ، أما نظرية ابن رشد في نوع هذا الاتصال ، فهي على خلاف ذلك تماماً هي جديدة كل الجدة ولعلها أقرب ما تكون إلى النظرية المثالية الروحية في الفلسفة الحديثة ، لأن ابن رشد بهذا التفسير قد قضى على فكرة الثنائية التي تفرق تفرقة حاسمة بين عنصرين ، لا يمكن إرجاع أحدهما إلى الآخر بحال ما ، وأعني بهما عالم الفكر وعالم المادة ، لأنها تجعل للفكر المقام الأوحد في هذا التصور الفريد ، لأنه من جهة قرب هذه النظرية من التصور الإسلامي بحيث أصبحت شبه مقبولة على الأقل في دوائر الفكر الإسلامي المختلفة ، ومن جهة أخرى فقد خلص نظرية أرسطو من التناقض الذي شابها والذي لم ينتبه إليه أرسطو نفسه .

ولم يجد ابن رشد صعوبة في تقريره لخلود النفس الجزئية بناء على تعريفها

الذى أخذ به من أنها جوهر مفارق للبدن ، وأيضاً فإن بيانه لطبيعة اتصالها بالبدن لم يقف حائلاً أمامه دون القول بخلودها ، ورغم وضوح النصوص الرشدية التى يقرر فيها خلود النفس ، فإن هذه القضية كانت إحدى القضايا الكبرى فى الاتهامات التى وجهها مسيحيو أوروبا إلى ابن رشد ، حيث اعتبروه إماماً للزائغين ومنكرى خلود النفس ، فقد ذهب المستشرق «مونك» فى كتابه عن الفلسفة العربية إلى القول بأن ابن رشد قد ذهب إلى القول بأن الحديث عن خلود النفس حديث خرافة ، ويقول «مونك» إنه وجد هذا النص فى كتاب «تهافت التهافت» والكتاب فى طبعته العربية يخلو تماماً من هذا النص الذى اقتراه «مونك» على ابن رشد ، ولعل هذا المستشرق قد أساء فهم نصوص ابن رشد - كما يذهب إلى ذلك المرحوم محمود قاسم - فلم يستطع أن يفرق بين رأى ابن رشد ورأى غيره ممن يعرض آراءهم ؛ لأن ابن رشد كان من عادته أن يعرض حجج خصمه ، ويؤيدها بكل الحجج الممكنة ، حتى ليكاد يخيل للمرء أنه صاحب هذا الرأى ، فإذا فرغ من عرضها بأمانة عاد إليها ليفندها وينقدها ، ثم يعرض رأيه فى آخر الأمر ، ومن المعروف أن ابن رشد قد قرر خلود النفس فى كتاب «مناهج الأدلة» بطريقة لا تقبل الشك ، بل عقد لذلك فصلاً خاصاً تحت عنوان «المسألة الخامسة ، وهى القول فى المعاد وأحواله» وقال إن هذه القضية مما اتفقت عليها الشرائع ، وقامت عليها البراهين عند العلماء ، وإن الكل قد اتفق على أن للإنسان سعادتين : أخروية ودنيوية ، وذلك عندهم على أصول يعترف بها الكل ، وقدم على ذلك دليل الغائية ، الذى أوضح فيه أن الإنسان خلق لغاية مقصودة من الفاعل الحكيم ، فقد خلق لفعل مطلوب فيه وهو ثمرة وجوده ، وقد استدل على ذلك بنصوص صريحة من القرآن الكريم ، وهى كثيرة ومتنوعة فى هذا الباب . قال تعالى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا ﴾ ، ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ ، وقال مثبِتاً على العلماء العارفين بذلك : ﴿ الذين

يتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ﴿١﴾ ثم ذكر الدليل الأخلاقي على خلود النفس ، فذكر أن الوحي قد أنذر في الشرائع كلها ، بأن النفس باقية ، وقامت البراهين عند العلماء على ذلك ، وأن النفوس تتعري بعد الموت من الشهوات الجسمية ، فإن كانت زكية تضاعف زكاؤها بتعريها من الشهوات الجسمية ، وإن كانت خبيثة زادت بها المفارقة خيباً ؛ لأنها تتأذى بالردائل التي اكتسبتها ، فتشتد حسرتها على الرذائل التي اكتسبتها وعلى الفضائل التي فاتها ، وإلى هذا المعنى أشار الكتاب العزيز بقوله ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت من الساخرين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين﴾ وقد نبه ابن رشد في هذا الكتاب أكثر من مرة ، على أن الشرائع كلها اتفقت على أن للنفوس بعد الموت أحوالاً من السعادة والشقاوة ، لكنها اختلفت في تمثيل هذه الأحوال للناس ، وتفهمهم لها ، وقال بأن شريعة الإسلام هي أتم الشرائع في إفهامها لأكثر الناس ، والخلاف القائم بين أهل الشرائع حولها إنما يتعلق بكون البعث روحانياً أو جسمانياً ، وليس يتعلق بإنكارها .

ومع ما قاله ابن رشد في كتابه «تهافت التهافت» في تفنيده لرأى الغزالي وموقفه من الفلاسفة ، إلا أنه في هذه المسألة قد عضد رأى الغزالي وحمده عليه ، وقال : «إن ما يقوله هذا الرجل - الغزالي - جيد ... ولا بد من معاندتهم - يعنى الفلاسفة - في أن توضع النفس غير فانية كما دلت على ذلك الشرائع السماوية والبراهين العقلية» وما هو جدير بالذكر أن ابن رشد نبه إلى أمر مهم جداً في فهم آرائه ، فذكر أن ما كتبه في «تهافت التهافت» عن هذه المسألة ليس سوى عرض نظري بحث لآراء الفلاسفة ، أما رأيه الحقيقي ، فلما نجمه مفصلاً كل التفصيل في كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة» الذي أشرنا إليه فيما سبق ، ويشرح ابن رشد في هذا الكتاب فكرته بشكل واضح لا لبس فيه ، فيقول : «فإن قيل : فهل في الشرع دليل على بقاء النفس أو تنبيه على ذلك ؟ قلنا : ذلك موجود في الكتاب العزيز ،

وهو قوله - تعالى - ﴿اللّه يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها﴾ الآية، ووجه الدليل فى هذه الآية أنه سوى فيها بين النفس والموت فى تعطيل فعل النفس ، فلو كان تعطيل فعل النفس لفساد النفس لا بتغير آلة النفس ، لقد كان يجب أن يكون تعطل فعلها فى النوم لفساد ذاتها ، ولو كان ذلك كذلك لما عادت النفس عند الانتباه على هيئتها ، فلما كانت تعود إليها علمنا أن هذا التعطيل لا يعرض لأمر لحقها فى جوهرها ، وإنما هو شئ لحقها من قبل تعطل آلتها ، وأنه ليس يلزم إذا تعطلت الآلة أن تعطل النفس ذاتها والموت هو تعطل ، فوجب أن يكون هذا التعطل للآلة كالحال فى النوم ، وليس لجوهر النفس فى ذاتها .

بهذا التحليل يعرض ابن رشد رأيه فى خلود النفس ، بلا لبس ولا تمويه ، ولكن «مونك» وتبعه «رينان» قد اتهموه بالإلحاد ، وأنه ينكر خلود النفس ، مما يدل على جهلهم بآراء ابن رشد وبمؤلفاته ، وأنهم قصدوا إلى تأويل آرائه بقصد التشنيع عليه ، كما لم يفرقوا بين آرائه الخاصة وآراء خصومه الذين عرض لهم فى هذه المسائل الدقيقة وفى غيرها ، بل ربما لم يكونوا قد قرأوا كتبه الخاصة بآرائه الدينية فى هذه المسألة وفى غيرها من المسائل «كفصل المقال» و «مناهج الأدلة» ، وهما من أهم كتبه ، التى يجب الرجوع إليها عند الحديث عن رأى ابن رشد وموقفه من القضايا الدينية .

ابن رشد لدى مفكرى الغرب :

لقد بدأ الإتصال بين الثقافة الأوربية والإسلامية منذ وقت مبكر ، ومن المعروف أن مفكرى الغرب أخذوا كثيرا من آرائهم عن الفلاسفة المسلمين ، وبلغ هذا الإتصال الثقافى بين الشرق والغرب أشده فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، وكانت آراء فلاسفة المسلمين ، هى القنطرة التى عبرت خلالها فلسفة أرسطو إلى أوروبا ، وأسهم فى ذلك إلى حد كبير يهود الأندلس ، حيث عبرت

خلال مؤلفاتهم آراء المتكلمين والفلاسفة المسلمين إلى مسيحي الغرب ، وعنوا بصفة خاصة بفلسفة ابن رشد ، حيث تبع مفكرو المسيحية فى القرن الثالث عشر آراء ابن رشد ، وترسموا خطاه فى كبريات المشاكل الفلسفية ، وخاصة مايتصل منها بالنفس والتوفيق بين الفلسفة والدين ، ومن المسلم به الآن أن «ألبيرت الأكبر» قد أخذ معظم آرائه عن الفارابى وابن سينا ، وخاصة قوله «بنظرية الفيض» وما يستتبعها من القول بوجود العقل الفعال الذى تفيض منه المعانى على النفس الإنسانية ، ثم جاء بعده «توماس الاكوينى» الذى أخذ معظم آرائه أيضا عن ابن رشد ، ثم نسبها إلى نفسه ، رغم عدائه الظاهر لابن رشد واتهامه بالإلحاد والزيف ، وبسبب اعتناق الإكوينى لآراء ابن رشد خاصة محاولته التوفيق بين العقل والدين ، ظهر بين بنى قومه بالنابغة والعبرى ، حتى خلعت عليه الكنيسة لقب القديس ، ومنقذ المسيحية ، وقاهر الإلحاد فى أوروبا ، ولم يدر أبناء جيله شيئا عن مصدر آرائه الفلسفية التى حارب بها الإلحاد ، حتى جاء المرحوم محمود قاسم ، فبين أصول هذه الآراء ، وأن مصدرها إسلامى المنبع ، وأنها آراء ابن رشد وليست آراء الإكوينى ، رغم ما أضيف عنه من قداسة وعبقرية ، مما أثار دهشة اللجنة التى كانت ناقشته فى رسالته للدكتوراه .

ولقد أخذ توماس الإكوينى بتعريف أرسطو للنفس ، حيث قال : إنها الفعل الأول لجسم طبيعى عضوى ، وقال : إنها ليست مفارقة للبدن ، لأنها ليست جوهرًا مستقلا ، لأن البدن يدخل فى تعريفها وما هيتها ، وإن اتحادها بالبدن اتحاد جوهرى ، وليس عرضيا كما يقول ابن سينا ، وكان يستعين بهذا التعريف على حل بعض المشكلات الدينية ، وأهمها التفرقة بين نفوس الملائكة ونفوس البشر ، لأن الملائكة عنده عقول مفارقة ، بينما نفوس البشر صبور لأجسام ، ولا بد أن يدخل الجسم فى تعريفها ، وظل الإكوينى متمسكا بهذا التعريف ، ثم عدل عنه فجأة إلى الأخذ بتعريف ابن سينا ، فيقول : لما كانت النفس جوهرًا كاملا فإنها تستطيع

البقاء بعد فناء جسدها مع أنه صرح قبل ذلك بأن النفس تتحد بالبدن إتحادا جوهريا مما يدل على عدم مفارقتها للبدن ، ثم ترك تعريف ابن سينا بعد اطلاعه على رأى ابن رشد وأخذ يترسم خطاه فى محاولة التوفيق بين العقل والدين ، كما وفق بين رأى ارسطو وابن سينا بنفس الخطوات ، والمنهج الذى سلكه ابن رشد ، فقال : إن النفس جوهر غير جسمى ، وهى فى نفس الوقت صورة للبدن ، ومن هذا التقلب بين الرأى ونقيضه ، يتبين لنا أن الإكوينى لا يثبت على تعريف واحد ، بل يجمع فى موقفه من النفس بين الرأى ونقيضه ، إلى أن اطلع على فلسفة ابن رشد ، فكانت بمثابة المخلص له من هذا التناقض .

ولم يقنع «توماس الإكوينى» بأنه أخذ عن ابن رشد كل ما استطاع فهمه ، ليدحض بآراء ابن رشد نزع الإلحاد فى أوروبا ، بل كان أكثر مؤرخى الفلسفة تجنبا على ابن رشد ، فوصفه بأنه إمام الزائغين ، وباعث موجة الإلحاد فى غرب أوروبا ، وترجع إليه حملة التشويه لآراء ابن رشد وتأويلها على غير معناها الصحيح ، فنسب إلى ابن رشد أنه كان يقول : بالنفس والعقل الهولانى والعقل الفعال ، وأن العقل الهولانى ذات مفارقة للبدن ، ويعلق أستاذنا المرحوم محمود قاسم على هذه الفرية بقوله : وليس ثمة ما يفوق هذا التشوية قبحا ، ولا هذا التدليس شناعة ، لأن ابن رشد ينص صراحة فى أكثر من موضع على أن العقل الهولانى والعقل الفعال ليسا ذاتين مختلفتين فى واقع الأمر ، بل شىء واحد بعينه ، وهما مظهران لذات واحدة هى النفس الإنسانية ، التى إذا اتصلت بالجسم سميت عقلا هولايا ، لأنها حيثئذ أصبحت مستعدة للمعرفة ، وإذا أدركت ذاتها سميت عقلا فعلا ، فالذات واحد والوظائف مختلفة كما سبق أن وضعنا ذلك .

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى تجنى فيها الإكوينى على ابن رشد ، فلقد نسب إليه أيضا أنه ينكر علم الله بالجزئيات ، وخلود النفس فى نفس الوقت الذى

يأخذ فيه الإكويني بنفس المنهج الذى أخذ به ابن رشد فى تفسير هذه المشكلات وفى حلها أيضا ، وإن موقف هذا الرجل من فلسفة ابن رشد جد غريب وعجيب ، ولا ينبىء عن روح العالم ، فهو إذا كان فى حاجة إلى دحض آراء الملحد من بنى ملته ، استعان عليهم بآراء ابن رشد وبفلسفته ، وإذا كان فى حاجة إلى تقمص شخصية العلماء الأفاضل المحاربين للإلحاد ، عمد إلى تشويه آراء ابن رشد والتدليس عليه ؛ ليظهر وحده بين أبناء عصره بمظهر الفذ العملاق ، وهذا ليس موقفا فريدا لمفكرى أوروبا من فلسفة ابن رشد ، فإن نفس الموقف الإكوينى تكرر على يد رينان ومونك وغيرهما .

ومن الأمور التى تلفت نظرنا أن فلسفة ابن رشد قد وجدت لها أرضا صالحة لغرسها لدى كل من مفكرى اليهودية والمسيحية على السواء ، فى الوقت الذى لم تعرف طريقها إلى عالمنا الإسلامى والعربى إلا فى وقت متأخر جدا ، وبعد عدة قرون من شيوعها فى الأوساط اليهودية والمسيحية ، ونكاد نجزم بأن أعمال المرحوم محمود قاسم وبحوثه حول ابن رشد وفلسفته ، كانت من أوائل الدراسات التى عرفت الشرق العربى بابن رشد وفلسفته ، إن لم تكن أولها فى العصر الحديث ، ولقد عالج - رحمه الله - أسباب هذه الظاهرة فى بحث مستقل نشره فى مجلة تراث الإنسانية (العدد الثانى ١٩٦٥م) ألمح فيه إلى أن أهم أسباب هذه الظاهرة فى غياب تراث ابن رشد هذه الفترة الطويلة ، يرجع فى كثير من جوانبه إلى تلك المحنة التى تعرض لها ابن رشد فى حياته ، وتعرض لها تراثه من بعده ، فلقد صدرت الأوامر بحرق مؤلفاته وتحريم قراءتها ، بسبب فتاوى الفقهاء ضد ابن رشد وضد مؤلفاته ، ويقال : إن عدد الكتب التى أحرقت فى ساحة غرناطة على يد الأسبان كانت تفوق الحصر ، وقد نتج عن ذلك بطبيعة الحال صعوبات كثيرة واجهت الباحثين عن آراء ابن رشد وفلسفته ، لأن ماتبقى من مؤلفاته كان مبعثرا فى مكتبات أسبانيا وباريس ولندن ، وكان فيها مالا أصل له فى لغة العربية ، بل كان

مكتوبها باللغة العبرية أو اللاتينية ، وبعض مؤلفاته كان مكتوبها باللغة العربية ، لكن بحروف عبرية ، وهذا يدل من جانب آخر على منزلة ابن رشد عند مفكرى اليهود فلقد قامت طائفة «الريون» منهم بنقل كتب ابن رشد الفلسفية إلى لغتهم العبرية وبفضل هذه الترجمات العبرية تعرف الأوربيون على فلسفة ابن رشد ، لأن هذه الترجمات كانت متوفرة في المكتبات أكثر من النصوص العربية ، ولقد بدأت ترجمة ابن رشد على يد اليهود في القرن الثالث عشر ، وكان من أشهر المترجمين اليهود يعقوب الأنطولى (ت ١٢٣٢م) وهو من مدينة نابولي بإيطاليا ، وموسى بن تيبون (ت ١٢٦٠م) وشمونيل بن تيبون الذى ترجم كتاب «دلالة الحائرين» لموسى ابن ميمون من النص العربى إلى اللغة العبرية ، وقد أخذ ابن ميمون فى هذا الكتاب بنفس المنهج الرشدى فى التوفيق بين الدين والعقل ، وفى رد آراء المتكلمين اليهود ، وكان لهذا الكتاب أثره العميق فى الفلسفة اليهودية فيما بعد ، وظهر أثره واضحا فى «رسالة فى اللاهوت والسياسة» لاسبينوزا ، كذلك كان من أشهر المترجمين لابن رشد يهوذا بن عود سليمان كوهين (ت ١٢٤٧م) وليفى بن جرشون أشهر فلاسفة اليهود فى القرن الرابع عشر ، وقام بشرح مؤلفات ابن رشد فى العبرية ، بل شرح شروح ابن رشد على أرسطو وسلك مع ابن رشد مسلك ابن رشد مع أرسطو ، حتى قيل إن ابن رشد لدى اليهود قام مقام أرسطو عند العرب بسبب ابن جرشون ، أما ترجمة ابن رشد إلى اللاتينية ، فتعود إلى القرن الثالث عشر أيضا ، وكان من أشهر المترجمين له ميخائيل سكوت ، ونشطت هذه الترجمة فى القرن الخامس عشر ، حين توفرت للمسيحيين النصوص العبرية التى اكتملت على يد ابن جرشون ، وكان من أبرز التراجمة لابن رشد فى هذا القرن مونتينييو الطرطسوشى ، وإبراهيم دوبالز ، ولما انتشرت ترجمته إلى اللاتينية تهافت عليها الدارسون من الفلاسفة ، ونشأت عن ذلك حركة فكرية كبيرة عرفت باسم «الرشدية الجديدة» .

وكان اليهود يعترفون بقيمة ابن رشد الفلسفية ، وهو على قيد الحياة ، فكانوا يحتجون بأقواله وآرائه الدينية ، وهذا موسى بن ميمون يصرح فى دلالة الحائرين أنه تلميذ لابن رشد ، كما تأثر به فى آرائه ومواقفه الدينية ، وروج لآراء ابن رشد بين بنى قومه ، ومن يقارن بين موقف موسى بن ميمون من اللاهوتيين اليهود ، وابن رشد وموقفه من المتكلمين المسلمين يجد الأثر واضحاً وقوياً ، فابن رشد هاجم منهج المتكلمين وطرق استدلالهم على أمور العقائد الإسلامية ، وكذلك فعل موسى بن ميمون مع متكلمى اليهود ، وكما أراد ابن رشد فى فصل المقال أن يوفق بين الحكمة والشرعية ، ويبين أنهما متآخيان بالطبع وأن الحق لا يضاد الحق ، كذلك فعل ابن ميمون فى دلالة الحائرين ، وكما غلب ابن رشد جانب العقل فى التوفيق بين الحكمة والشرعية ، نرى ابن ميمون يقول بما سبقه إليه ابن رشد بضرورة تغليب العقل على النص ، وعن طريق ابن ميمون انتشرت آراء ابن رشد بين فلاسفة اليهود حتى قيل إن اليهود الذين تتلمذوا على ابن ميمون ، لم يبق منهم أحد لم تفسد عقيدته فلسفة العرب ولم تفتنه عن دينه .

ومن أبرز تلامذة ابن ميمون الذين تأثروا بفلسفة ابن رشد ومذهبه ، يوسف ابن يهوذا الذى يتغنى بآراء ابن رشد ، وفلسفته ، فلقد كتب رسالة طريفة بأسلوب رمزى معبر إلى أستاذه يصرح فيها بإعجابه بفلسفة ابن رشد ، ويشيد بفضله عليه فى تقريب آراء أرسطو إلى الفهم ، حيث يقول مخاطباً ابن ميمون «وجدت ابنتك الفاتنة أمامى فخطبتها وفق الشريعة التى أنعم بها فى سينا ، وقد تزوجتها بثلاثة أشياء ، هى أننى أعطيتها صداقتى صداقاً لها ، وكتبت حبيبى لها عقداً ، وعانقتها معانقة شاب لعذراء ، ولم أستعمل العنف فمئنتى حبها ، وربط روحى بروحها ، وشهد على ذلك شاهدان معروفان ، هما أنت وابن رشد ، ولقد تتلمذ توماس الأكوينى على مؤلفات ابن رشد عن طريق هؤلاء الترجمة ، وظهرت حركة عقلية بين هؤلاء اللاهوتيين المسيحيين لم تقتصر على الدين وحده ، وإنما

امتدت إلى الآراء العلمية أيضا ، واشتدت هذه الحركة العقلية ، وأخذت شكل الصراع العنيف، بين علماء اللاهوت المسيحي ، مما اضطر الكنيسة إلى اللجوء إلى السلطة للاستعانة بها ضد هذه الحركة الرشدية ، ثم أصدرت جامعة باريس قرارا يقضى بعدم تدريس كتب ابن رشد لابنائها ، وحذت حذوها بعض المعاهد العلمية في أوروبا التي حرمت تدريس مؤلفات ابن رشد ، وظلت هذه المعركة قائمة بين علماء اللاهوت وجامعة باريس فترة طويلة من الزمن ، وكان الذى تولى إثم هذه الحركة هو توماس الإكوينى أكبر المستفيدين بفلسفة ابن رشد ، والمضطهدين لصاحبها فى نفس الوقت ، ولم يتغير هذا الموقف إلا بعد أن غيرت الكنيسة موقفها ، وامتنعت عن اضطهاد أتباع الفلسفة الرشدية ، فتراجعت تبعا لذلك جامعة باريس عن قرارها السابق ، وسمحت بتدريس كتب ابن رشد مرة ثانية .

ثم نشأت الرشدية الجديدة ، التى كان لها أثرها البالغ فى قيام النهضة الأوربية المعاصرة ، فتتلذ على فكر ابن رشد كثير من رواد النهضة المعاصرة ، التى تعيشها أوروبا الآن ، حيث تأثر بهذا المنهج كل من ديكارت واسبيوزا فى موقفهما الدينى، فديكارت يصرح بأن المعتقدات الدينية لايدخلها الشك المنهجى ، بل يجب التسليم بها دون عرضها على العقل ، واسبيوزا يشير فى كتابه اللاهوت والسياسة بأن الوحي لم يأت لتعليم الناس علما ، وإنما جاء بهدف إصلاحهم ، ولذلك أخذهم بالطاعة ووجههم إلى العمل ، لأن سعادتهم تتحقق بذلك ، وهذا قد أشار ابن رشد فى «تهافت التهافت» ، حيث أشار بأن الدين وحده ، هو الذى يصلح العامة ، لأنهم لايدركون الفضيلة بالفلسفة كما يدركها الخواص ، وإنما يصلحهم الوحي بالأوامر والنواهي ، كذلك أشار ابن رشد فى «الكشف عن مناهج الأدلة» بما أخذ به ديكارت من بعده ، حيث قال بأن الدين قائم على الغيب وينبغى التسليم فى شأن الغيب بما نزل به الوحي .

هذه القضايا - وغيرها كثير - قد شغلت على المرحوم «محمود قاسم» حياته العلمية ، وكانت تمثل بؤرة الاهتمام بالنسبة لدراساته الرشدية ، وليس معنى ذلك أنه لم يكشف عن جوانب العظمة الأخرى فى فلسفة ابن رشد ، فإنه فى أواخر أيامه كان مشغولا بتحقيق ونشر مشروح ابن رشد ، وتلخيصه لمنطق أرسطو ، وكان لنا شرف معاونته فى إنجاز هذا العمل العظيم مع بعض زملائنا بقسم الفلسفة بدار العلوم ، ولكن شاء القدر أن يرحل عن دنيانا ، دون إكمال هذا العمل العلمى العظيم ، فجاء مستشرق أمريكي ، وأنتم تحقيقه ، ونشره فى الهيئة المصرية العامة للكتاب .

تلك هى صحبة محمود قاسم لابن رشد ، قد تختلف معه فى بعض الآراء ، كما قد تختلف مع ابن رشد نفسه فى بعض آرائه ، ولكن هذا الاختلاف قد يتلاشى تماما إذا عرفت الدوافع والغايات من هذا الرأى أو ذاك الذى يمثل موضوعا للخلاف بينك وبينه ليصبح فى النهاية خلافا لفظيا فى معظم أحواله . ليكون ابن رشد ومحمود قاسم كل منهما فى جيله - أحد المشاعل الكبرى التى أسهمت إلى حد كبير فى نمو الدراسات الفلسفية وفى تنوير العقل العربى .



محمود قاسم ونموذج ابن باديس

أ. د. مصطفى حلمي *

يتميز كتاب (الإمام عبد الحميد بن باديس ، الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية) دون سائر كتب الدكتور محمود قاسم - رحمه الله تعالى- باتخاذ التجربة الجزائرية في التحرر البؤرة التي سلط عليها الأضواء لاتخاذها نموذجا يمكن للشعوب العربية والإسلامية الاقتداء بها للتخلص من نير الاستعمار بصنوفه العسكرية والثقافية والاقتصادية والسياسية ، وكانت المناسبة لإصدار الكتاب هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧م حيث صارحنى - رحمه الله- بما عاناه حينذاك من ألم عندما وجد شعب مصر تعتصره آثار الهزيمة ، فأراد التخفيف عن بعض آلامه بإلقاء الضوء

* أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم ، والحائز على جائزة الملك فيصل الإسلامية .

على حيوية الأمة ، وأن يوسعها النهوض من جديد وتحقيق النصر ، ولها في شعب الجزائر أسوة ، فقد دفع أبنائه ثمننا غاليا من دمائهم وشهادتهم مقابل حريتهم ، وتعد هذه التجربة في رأى المؤلف : معجزة القرن العشرين .

وكان من مقاصد الدكتور محمود قاسم ، رحمه الله تعالى ، توعية المسلمين بسنن الله تعالى في التغيير إلى الأفضل ، وتأكيد على فاعلية الأسباب ، وضرورة العمل الدؤوب في مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية والدينية .. وكل هذه الأفكار أبرزها بوضوح أثناء عرضه لسيره الإمام ، ومنهجه في التعليم والتربية ، ودوره السياسى الذى استطاع بأدائه بحنكة وكياسة أن ينقذ الأمة الجزائرية من براثن الاستعمار الفرنسى ، ويفلتها من الحصار الثقافى الذى دبرته فرنسا بليل لتمحو ذاتية الجزائر العربية الإسلامية .

ويتميز الكتاب بالجمع بين المنهجين : التاريخى والتحليلى ، وتتضح فيه أيضا ثقافة الدكتور قاسم الفلسفية ونزعة العقلية مع تبنيّه لقضايا الأمة العربية الإسلامية . ويتضمن الكتاب ستة فصول - ماعدا المقدمة والفهارس - سنعرض باختصار لفحوى كل فصل على حدة :

ففى الفصل الأول عن : الإمام عبد الحميد بن باديس

عرض المؤلف لترجمة الإمام الذى ولد فى الخامس من ديسمبر سنة ١٨٨٩م بمدينة قسنطينة فى أسرة ذات جاه وشهرة وثروة ترجع أصولها إلى المعز بن باديس الصنهاجى مؤسس الدولة الصنهاجية الأول . وأغتته أسرته عن الوظيفة بالإدارة الفرنسية ففرغ لإحياء الروح الجزائرية وإعداد أمتة للمقاومة ، فتحررت من الاستعمار الفرنسى بعد مائة وثلثين وثلاثين سنة ، مستمداً قوته كلها من العودة إلى مذهب السلف .

وقد بدأ دراسته الأولى في قسنطينة وتعهد لشيخه حمدان الويسى ألا يعمل موظفاً في الحكومة حتى يتفرغ لخدمة دينه وأمه ، ثم ارتحل إلى جامعة الزيتونة في عام ١٩٠٨ وهناك تلمذ على الشيخ محمد النخلي والشيخ طاهر بن عاشور ، ولكن الدراسة في هذه الجامعة لقيت منه نقداً فيما بعد لأن منهجها كان يقتصر على القشور والإغراق في الجدل ، بينما الفكر الإسلامى الأصيل يؤثر في النفوس وله القدرة على تغيير مقادير الشعوب .

وعندما سافر للحج عام ١٩١٢م التقى بعلماء من مصر والشام ، وغمر نفسه بتيار الحركة السلفية المزدهرة في الشرق ، ثم فضل العودة إلى بلاده لحراسة الإسلام وخدمة الوطن ، ولم يعمل بنصب شيخه حمدان الويسى بالهجرة إلى المدينة المنورة .

وبعد رده للجزائر عام ١٩٧٣م أقام في مدينة قسنطينة ، وبدأ خطبته بالاتفاق مع الشيخ بشير الإبراهيمي وأخذ يواصل الليل بالنهار في تعليم النشئ وكهول المدينة ويدعوهم إلى تغيير نفوسهم حتى يغير الله ما بهم ، ولهذا كان شعار الثورة الجزائرية قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ ، ثم امتد نشاطه إلى مدن أخرى كالعاصمة وهران وتلمسان مع مساهمته في الصحافة ولقاء الأقران الذين بدعوا يتجمعون حول دعوته مما أدى فيما بعد إلى تأسيس جمعية العلماء الجزائريين في سنة ١٩٣١م .

ويواصله جريدة (الشهاب) وبعد إحساسه بصلاية الأرض تحت قدميه ، شرع في سنة ١٩٢٥م يهاجم أصحاب الطرق الصوفية بسبب بدعهم التي لم يعرفها السلف كالغلو في الشيخ واعتقاد القوث والديوان ، مع تجميد العقول وإماتة الهمم ، كما ارتضوا لأنفسهم تلويب شخصيتهم الجزائرية في الوطن (الأم) فرنسا، ذلك الإدماج الذي كان الهدف الأول للغزو الاستعماري منذ عام ١٨٣٠م ، فكانوا

باعتراف جريدة (البتى باريزيان) من أحسن معاونى فرنسا ١ .

وعندما بدأت فرنسا تحس بخطر الإمام على استعمارها للجزائر حركت أعوانها من الطرق الصوفية - وكانت هذه الطرق قد أسهمت من قبل فى القضاء على ثورة الأمير عبد القادر ، الذى ظل يحارب الفرنسيين مدة ستة عشر عاما . ثم وضعت فرنسا خطة فى سنة ١٩٢٧م لقتل الإمام عبد الحميد بن باديس ولكن الجريمة لم تتم ، وقُبض على الجاني وعفى عنه الإمام ١ ولكنه عقب ذلك أحكم خطته فى التعامل مع الطرق الصوفية التى أظهرها بمظهر الحياة ، ففقدت سلطانها على الشعب ، ولم تعد ذات نفع للحكومة الفرنسية بالجزائر .

واتسعت بعد ذلك حركة نشاط ابن باديس العلمى والتربوى ، فاشتغل بالصحافة ، كما أصدر صحفاً أخرى بعد الشهاب كالشريعة والسنة المحمدية والصراط ولكن الإدارة الفرنسية أوقفتها لأنها جمعت الجزائر كلها حول الإمام إلا فئة من أعوان المستعمر أو المخدوعين فيه من رجال السياسة .

ولما كان همّة الأكبر صنع الرجال ، فقد توجّج جهاده بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى شهر مايو سنة ١٩٣١م وكان تأسيسها رداً عملياً على احتفال الفرنسيين بالعيد المئوى لاحتلال الجزائر قبلها بعام - أى سنة ١٩٣٠م - إذ كشفوا عن وجوههم سافرة إلى حد أن قال الكاردينال (لافيجرى) أثناء الاحتفالات : «إن عهد الهلال فى الجزائر قد غبر، وإن عهد الصليب قد بدأ وإنه سيستمر إلى الأبد» ١ .

وسارت الجمعية على مبادئ دينية وأخلاقية واجتماعية ، غلّفها عبد الحميد ابن باديس - شأن السياسى المخنك - ببعض عبارات المدح لفرنسا ، حتى يسهل عليه حصارها ، وفضح أساليبها أمام الجزائريين والعالم كله ، وفعلاً نجحت الجمعية خلال الأعوام الحاسمة ما بين ١٩٣١ و ١٩٣٩ فى تنفيذ الفكرة العبقريّة للشيخ ،

فأنشأت جيشاً من الشبان يحمل فكرة الجمعية وعقيدة الإسلام ، كذلك أصبح تلاميذه نقط جذب لمئات الآلاف من أنصار الفكرة وحملة العقيدة على الطريقة التي اتفق عليها مع الشيخ الإبراهيمي ، وهي تربية النشئ على فكرة صحيحة ، ولو مع علم قليل ، مع اتخاذ المبدأ الإسلامى دستوراً يتلخص فى (الكلمة الطيبة والدعوة بالموعظة الحسنة ، من قبلها فهو أخ فى الله ، ومن ردها فهو أخ فى الله ، فالأخوة فى الله فوق مايقبل وما يرد) وبذلك استطاعت الجمعية القيام بالتعبئة الدينية والقومية الشاملة ، مما أزعج الإدارة الفرنسية فجعلت تعطل المدارس وتزج بالمدرسين فى السجون ، كما لجأت إلى مشروع ليون بلوم وفيليت المشهور عام ١٩٣٦ فخدعت كثيراً من السياسيين الجزائريين - ومنهم الدكتور بن جللول وأصحابه وفرحات عباس الذين ظنوا أن سياسة المهادنة أو السياسة المرحلية كفيلة بانتقال الجزائر من مرتبة المستعمرة إلى مرتبة المقاطعة ، مما اضطر الإمام عبد الحميد إلى تأسيس المؤتمر الإسلامى الجزائرى فى ١٩٣٦/٦/٧ ، واستطاع وغيره من العلماء توجيه قراراته ونجحوا فى تعطيل الإدماج ، ثم سافر وفد منهم - ومن بينهم ابن باديس - فى ١٩٣٦/٧/١٨ إلى فرنسا فلقبهم (دلادية) الوزير الفرنسى وذكرهم بقوة فرنسا قائلاً (إن لدى فرنسا مدافع طويلة) فرد عليه ابن باديس بقوله (إن لدينا مدافع أطول) فلما تساءل الوزير عنها ، أجابه الإمام جاداً (إنها مدافع الله) ثم أنشد عقب عودته قصيدة مشهورة كان مطلعها :

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال : حاد عن أصله أو قال : مات فقد كذب
أو رام إدماجاً له رام المحال من الطلب

وعندما لاحت نذر الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٧ سعت فرنسا إلى كسب تأييد مختلف الجماعات السياسية فى الجزائر ضمناً لاستنزاف المقاتلين من

الجزائريين في حربها المقبلة - كما سبق لها أن جندت مئات الألوف في الحرب العالمية الأولى - فأرسلت لهذا الغرض أحد أعوانها - وهو الشيخ الطيب العقبي - للاتصال بابن باديس الذي جمع هيئة العلماء المسلمين وعرض عليهم الأمر ، فكانت الأغلبية ، وعددها أحد عشر عضواً ضد فكرة إرسال برقية تأييد - في مقابل أربعة مؤيدين ، وعلى إثرها تخرست الإدارة الفرنسية بالجمعية وحاولت الاستيلاء على مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة وإحلال اللغة الفرنسية فيها محل اللغة العربية فقال ابن باديس : لأسمح بذلك حتى أموت ! .

ثم تلاحت الأحداث وقامت الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٣٩ وتوفي الإمام في ١٦/٤/١٩٤٠م ، وقيل إنه مات مسموماً ! ولكن بعد أن نجح في غرس فكرة القومية الجزائرية التي غرسها في تربة صالحة وتعهدها طيلة حياته فأثمرت ثورة أول نوفمبر سنة ١٩٥٤م ، وكان نجاحها - الذي استمر أكثر من سبع سنوات - معجزة بالنسبة للشعوب العربية الإسلامية كلها ، وكانت بواكير الانتصار قد أرساها عبد الحميد بن باديس .

وفي الفصل الثاني من الكتاب وعنوانه (الإمام عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الإصلاح) أبرز الدكتور محمود قاسم في المبحث الأول من هذا الفصل السمات الأساسية في شخصية الإمام مفصلاً الحديث عن تسامحه ورفقه بالخلق وتفاؤله لأنه كان يفضل التسامح على الزجر واللوم والإغلاظ في القول ، ويتضح تفاؤله بعد أن لبي دعوته الكثير من مواطنيه بالرجوع إلى الكتاب والسنة والتمسك بعقائدهم وأخلاقهم الإسلامية ، فأخذ يحفزهم بالأمل تفسيراً لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ ، بأن هذا وعد صدق من الله تعالى للمؤمنين بأن يرد عنهم كيدهم أعدائهم .

وقبل شرح خطوات منهج ابن باديس في الإصلاح ، حلل المؤلف مظاهر

التدهور فى المجتمع الإسلامى الجزائرى على نحو تفصيلى ، إذ يرى أن ضعف المسلمين يرجع إلى تفرقهم بين العقيدة و العمل ، فكثرت البدع وصنوف الضلال منذ القرن الثالث الهجرى ، مؤكداً مسئولية مخطط الفرق الباطنية ، و ماصحبه من تطور التصوف الفلسفى والابتعاد عن الكتاب والسنة ، حيث صرف أهل الفتنة جهدهم فى تأويل القرآن وصرف الناس عنه، وتحريف السنة وتزييفها .

وكل هذا أدى إلى تدهور المجتمع دينياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً مما جعل الإمام عبد الحميد يصارح مواطنيه بحقيقة الأحوال فشرحها بقوله فى عبارة جامعة : (إننا نأتى بما يبرأ منه الإسلام ونصرّح بأنه ضميمه) مشيراً إلى بدع الصوفية الذين يمثلون عائقاً للمسلمين فى رجوعهم إلى الكتاب والسنة ، فسيبهم ظن الناس - قبل حركة الإصلاح - أن الإسلام ليس إلا مائتصوره الطرق الصوفية الذين أخذوا أنفسهم بنسك الأعاجم فاخترعوا أعمالاً وأوضاعاً وعقائد من عند أنفسهم ، وظنوا أنهم يتقربون إلى الله على غرار ما فعل المشركون من عبادة الأوثان والذبح عليها ، فضلاً عن صرف الناس عن العمل، ودفعهم للتواكل وإنكارهم حرية الإرادة!

وكانت هذه الظواهر سبباً فى تنفير الغرب من الإسلام إلا ذوى العلم والإنصاف الذين عرفوا أن مانحن فيه هو ضد الإسلام ! كما تعجب الإمام من أحوال المسلمين الذين لا يأخذون من الغرب أسباب التقدم العلمى والعمرانى مكتفين بتقليده فى المعابث والمفاسد ! ونلمح تشخيص التدهور السياسى بسبب استبداد الملوك ، ثم ازداد الخطب إذا ما قورن بالفساد الذى ينخر فى كيان الأمة المسلمة التى ولى أمرها من لم يكن من جنسها ولادينها فى شىء ، وهو هاهنا يعرض بالاستعمار الفرنسى وجرائمه .

وفى الفصل الثالث بدأ د. قاسم بالحديث عن رأى الإمام بن باديس فى أصول

الحكم فى الإسلام وتناقضها التام مع أصول الحكم الاستعماري مستحدا رأيه من خطبة أبى بكر الصديق رضى الله عنه التى قرر فيها أصولا هامة للحكم كحق الأمة فى مراقبة أولى الأمر ، لأنها مصدر سلطتهم وصاحبة النظر فى ولايتهم وعزلهم ، وحقه عليها فى نصحه وإرشاده ودلالته على الحق إذا ضل وتقويمه على الطريق إذا زاغ .

وبهذه القاعدة دمج الإمام الحكم الفرنسى بأنه غير شرعى وغير إنسانى ، بل هو حكم استبدادى ، وحاجز سميك أمام حرية الشعب الجزائرى ، كما أن فرنسا خرجت على قوانينها نفسها عندما دأبت على تزيف الانتخابات فيما بعد تزيفا أزعج الفرنسيين أنفسهم .

والإمام ابن باديس أول من حدد فكرة الوطن الجزائرى بعد فشل سياسة المهادنة التى تزعمها (فيوليت) صاحب المشروع المشهور الرامى إلى امتصاص غضب الجزائريين الذين غررت بهم فرنسا وجندت منهم الألوف فى الحرب العالمية ، فذكرهم الإمام بأن مشكلة الجزائر لن تحل إلا على أساس الاعتراف بكيان هذا القطر العربى الإسلامى .

وأتت كلمات ابن باديس أكلها لأنها علت فى الصحافة والمجالس والمؤتمرات حتى جعلت الفرنسيين أنفسهم يعارضون مشروع (فيوليت) الذى لم يطالب بالحقوق السياسية إلا لنحو من خمسة وعشرين ألفا من الجزائريين فى حين يطالب ابن باديس بالوطن الجزائرى العربى المسلم لعشرة ملايين فقال: (إن الأمة الجزائرية تطالب فرنسا بحقوقها لما دفعته من ثمن من دم أبنائها... وهذا حق لا يستطيع أن ينكره أحد يحترم نفسه ، ويقدر عواقب التاريخ قدرها) .

وبناء على وعده بأنه سيتكفل بالاستعمار وحده ، ولا يشرك جمعية العلماء معه ، وجه سنة ١٩٣٧ نداءً إلى الأمة الجزائرية وإلى نوابها تنبيها للأذهان ، ودعوة

إلى الإقناع بأن سياسة المقاومة السلبية ومقاطعة النواب للانتخابات هي وحدها الكفيلة بتحقيق المطلوب بدل سياسة المطالبة والانتظار تجاه دولة تخلف وعودها .
ومما قاله في هذا الصدد (حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامى أن نبقى نترامى على أبواب برلمان أمة ترى، أو ترى أكثريتها ، ذلك كثيرا علينا) ١ .

ودعا جميع الأحزاب إلى تناسى الخلافات ، وإلى التسامى عن النزعات الشخصية ورفض قرارات اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامى حينذاك التى تلخص فى تحديد الأجر الأدنى للعمال ، وحرية تعليم اللغة العربية ، وحرية الوعظ بالمساجد والحج وحرية الصحافة والسفر وإلغاء القوانين الاستثنائية إلخ .. إذ رأى أنها كلها مطالب ثانوية وجانبية وأن المبادئ التى حددها بصفته الشخصية هى التى تفتح الباب أمام استغلال الجزائر فيما بعد ، ولم يأبه بعبارات الحقد والتحريش التى ملأت جريدة (الريو بليكان) فى قسنطينة تعليقا على بيانه ، وجاء ضمن رده عليها (إن تمحرشكم لا يخيف صغارا من تلاميذنا ، فمن باب أخرى وأولى أن لا يكون له أدنى تأثير فى كبارنا فى السير على خطتنا إلى غايتنا) .

ويستقرئ د. قاسم من اللهجة الواثقة فى رده أن وراءه شيئا تم إعداده من وراء الستار ؛ أى وجود تنظيم سرى لحزب الشعب بدأ يعمل منذ سنة ١٩٣٧ م ، ويؤكد هذا ما سمعه من تلاميذ ابن باديس وأصدقائه الذين كان يجيبهم عن تساؤلهم عن كيفية الخلاص فكان يشير إلى الجبال قائلا : هناك سيكون الخلاص .

ويعلل د. قاسم أن الأسباب التى أملت على ابن باديس هذا الاتجاه تلخص فى عناصر المشكلة الجزائرية قبيل الحرب العالمية الثانية ، وهى تعدد الأحزاب السياسية وعجزها عن المبادأة ، وسلطان طبقه الرأسمالية الفرنسية فى الجزائر ، ولها سلطانها الكبير فى توجيه سياسة فرنسا تحقيقا لتفوق المعمرين العنصرى على المواطنين الجزائريين ، وقد أراد هؤلاء المعمرين أن يذلوا المسلمين وأن يذكروهم دائما

بأنهم خسروا وطنهم إلى الأبد.

إن مثل هذه الإهانة للشعور العربى الإسلامى بطريقة منهجية مطردة كانت مهداً لحوادث سنة ١٩٤٥م التى انقطع بسببها الحوار بين الجزائر وبين فرنسا ، ثم الثورة الجزائرية الشاملة .

وربما كان الدكتور قاسم يقصد بحوادث عام ١٩٤٥ ما أثار إليه إجمالاً بمجزرة (سطيف) التى سجل فيها التاريخ مذبحة رهيبة بواسطة جنود فرنسا الذين اقتحموا البيوت ، وأخذوا يبقرون بطون الحبالى ، ويذهبون الأطفال والنساء والشيوخ ، ويغتصبون العذارى ، وكانوا يرهنون بعض الجزائريين فى الساحات العامة ويبدونهم بالرصاص دون تمييز فى السن أو الجنس ، وكان نصيب القرى من التقتيل والإبادة أكبر وأشنع ، بحيث أن الجنود الفرنسيين كانوا يرغمون الأهالى على الدخول إلى أكواخهم الطينية ويوصدون الأبواب عليهم ، ثم تمر الدبابات الثقيلة على الأكواخ فتسحقها بمن فيها ، وتحيل الأرض عجينا من طين ودم . كما دمر الطيران الفرنسى أربعين قرية ومحاهها من الوجود ، ونسف الأسطول البحرى مدينة مثل مدينة خراطة فى أعمال قسنطينة بسكانها العرب وحولها إلى أنقاض!! (١) .

ومجارة لاستخدام المصطلحات الفلسفية واتباع طرق الفلاسفة فى انتهاج النمط المتكامل فى النظر والسلوك ، عرض الدكتور قاسم فى الفصل الرابع من كتابه لفلسفة الإمام ابن باديس وفق هذا التصور لمنهج ابن باديس التركيبى بإيجاد العلاقة بين القرآن وتعاليمه وتفسيره ، مع السنة النبوية ، واتباع قاعدة التنفيذ للتعاليم وفق طريقة السلف للنهوض بشعب الجزائر وفك أسرهم من الاستعمارين العسكرى

(١) من كتاب (الثورة الجزائرية) لأحمد الخطيب نقلًا عن كتاب (الجزائر تعود لمحمد صلى الله عليه وسلم) ص ٩٧ للدكتور محمد مورو - ط المختار الإسلامى بمصر سنة ١٩٩٢ م .

والثقافى ، مع تنقية العقائد والأخلاق الإسلامية مما علق بها من صنوف الأباطيل والأوهام التى روجتها الصوفية ، أو الاستغراق فى التأويلات الجدلية التى استخدمها المكلمون .

إن فلسفة الإمام فى رأى الدكتور قاسم تملخص فى المزاوجة بين النظرية والتطبيق بمحاولة إحياء القرآن فى قلوب مسلمى الجزائر عن طريق تفسيره وفقا لمنهج السلف ، مبرهنا على أن القرآن الذى كوّن رجال السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالا فى الخلف ، لو أحسن فهمه وتدبره وحملنا على منهاجه .

وفى الختام أوجز الدكتور قاسم ما اعتبره فلسفة الإمام القرآنية فى مجالات ثلاثة هى أ- الأخلاق ب- ربط العلم بالدين ج- فكرة السببية والقضاء والقدر، ولكنه عرض هاهنا فقط للمجالين الأول والثانى وأرجأ عرض الثالث للفصل الخامس كما سيأتى .

أ- ففىما يتصل ببعض نظرات الإمام ابن باديس فى الأخلاق فقد تتبع تفسير آيات الأخلاق فى القرآن ، واستخلص مذهباً متكاملًا لا يعالج الأخلاق من الوجهة النظرية والفردية فحسب بل يعالجها - قبل كل شئ - على أساس دينى واجتماعى واحد . كذلك يربط بين صلاح الفرد - نفسه أكثر من أن يعنى بجسمه - بصلاح المجتمع لتحقيق ما جاء به الإسلام ، فأصلاح النفس إنما يكون بالتزام شريعته الحق والخير والعدل ، والكف عن الباطل والشر والظلم والسوء .

ويجتهد ابن باديس فى شرح طريقة إصلاح النفوس - أفرادا وجماعات - بالرجوع إلى الله دائما لطلب التوبة والمغفرة ، والإسلام دين تفاؤل ومستقبل . ولما كان التعرض للخطأ متكررا وجبت المداومة على إصلاح النفوس من فسادها .

وهكذا استطاع عبد الحميد بن باديس أن يشيع روح الأمل فى مواطنيه حتى يعردوا إلى الطريق السوى ، وحتى يحرروا أرواحهم من استبداد مدعى التصوف ،

وأجسامهم من الاستبداد الاستعمار .

ب- تحت عنوان (العلم والدين) عالج د. قاسم قضيتين : إحداهما أن الإسلام يدعو العقل إلى البحث ، وعندما نفذ العرب ذلك ازدهرت حضارتهم ، وأفادوا الغرب عندما ترجم كتب المسلمين ، ولكن مكتشفات الغرب أكثر من مكتشفات من تقدمه ؛ لأن دائرة المكتشفات والمعلومات - حيث يغذى كل منهما الآخر لم تنقطع قرنا بعد قرن ، ولكن المسلمين بعد أن كثرت معلوماتهم أيام حضارتهم أهملوا النظر فتجمدت معلوماتهم .

وانتقل د. قاسم حيث عرض القضية الثانية الوثيقة الصلة بالعلم ؛ وهى ضرورة اتخاذ العلم وحده الإمام المتبع فى الحياة فى الأقوال والأفعال والإعتقادات ، وهذا أصل إسلامى عظيم يجب التمسك به لأن تركه أدى إلى التقليد فى العقائد والفروع فكيف حدث الانحراف ؟ .

يرجعه الإمام ابن باديس إلى الإعراض عن أدلة العقائد بالقرآن والالتجاء إلى أدلة المتكلمين فجر ذلك إلى فتن وشغب وفصم لعقلية المسلمين بسبب أسلوبهم فى الجدل والمناظرة حتى انتهوا إلى تكفير بعضهم بعضا ، ثم زحف النسك الأعجمى فى زى التصوف والتخيل الفلسفى فابتعد الناس غاية البعد عن روح الإسلام وهداية القرآن .

دعا إلى نقد الفرق الصوفية وأتباعهم مبينا أسباب حدته فى مقاومتها ، لأنهم غرقوا فى الضلال فتراهم يدعون من يعتقدون فيه الصلاح من الأحياء والأموات يسألونهم حوائجهم ، ويذهبون إلى الأضرحة ويدقون قبورهم وينذرون لهم ، وهذا هو الشرك الخفى ، وعبادة الأولياء وتفضيلهم على الكتاب والسنة ، إنهم يدعون غير الله ، ومن دعا غير الله فهو إلى الشرك أقرب ١ .

كما صرف الطريقة الناس في الجزائر عن العمل وحبوا إليهم التواكل وأنكروا عليهم حرية الإرادة فلا عجب أن يتخذ الاستعمار أصحاب الطرق الصوفية أعوانا له.

وعندما سقطوا أمام ضربات الإمام ابن باديس وحره المستمرة لهم بدأت بعض صحف الاستعمار تدافع عنهم وتصفهم بأنهم أصدقاء فرنسا المخلصون .

وفي نهاية المطاف أعلن ابن باديس لمواطنيه سنة ١٩٣٨ أن جماعة العلماء قد بلغت الغاية وأنها عازمت على أن تترك أمر فلول الصوفية للأمة حتى تتولى القضاء عليها ، ومع ذلك فإنه يمد يده لمن بقي منها لتعمل مع بقية المسلمين يدا واحدة على شريطه ألا يكونوا آلة مسخرة للمستعمرين ، وإلا (فكل طرقي وغير طرقي يكون أذنا مساعة وآلة مسخرة فلا هودة بيننا وبينه حتى يتوب إلى الله ، قد نبذنا إليكم على سواء .. إن الله لا يحب الخائنين) .

وقام الدكتور قاسم في الفصل الخامس بدراسة القوانين الكونية والحتمية في الطبيعة ، وكيف يمكن للإنسان استخدام العلاقات السببية التي أودعها الله تعالى في الكون وكان ابن باديس من أنصار الفكرة العلمية الحديثة التي تقول بأن نظام الكون مطّرد وعام ، وأخذ يحث المسلمين على تنفيذ ما يأمرهم به الدين بالبحث عن العلاقات السببية والقوانين واستخدامها في كل أمر من أمورهم ، فليس معنى الإيمان بالله أن ننكر فكرة السببية ونرفض استخدامها .

ويعود الدكتور قاسم يبحث فكرة السببية عند ابن رشد ، وهي المرتبطة بالعناية الإلهية ليجد حلا لمسألة القضاء والقدر التي فرقت بين كل من المعتزلة والأشاعرة ، في حين أن العودة للكتاب والسنة كانت كافية في رفع هذا الخلاف .

ولحل التعارض الظاهري بين الأدلة ، يقرر ابن رشد أن الله تعالى يخلق قدرة العبد التي تصلح للقيام بأفعال مختلفة ، ولكنها محدودة بالقوانين الخارجية في

الكون والقوانين الداخلية فى جسم الإنسان ، مما يتضح معه اتفاق تام مع ابن باديس مع فارق هام ، وهو أن ابن باديس متفائل يبرز الناحية الأخلاقية أكثر مما فعل ابن رشد المتسم مذهبه بالطابع العقلى الصارم، وتفسير د. قاسم لهذا الفرق أن ابن رشد عاش فى حضارة إسلامية مدبرة ، وابن باديس عاش فى حضارة مقبلة .

وفى بحثه عن كل من الماتريدى وابن رشد فى حرية الإرادة ، نفى صلة الماتريدى بالأشاعرة مرجحاً اقترابه من السلف مبيناً خطأ رينان أيضاً فى فهم فكرة ابن رشد وترديده الشائعة التى تتهم ابن رشد بالزندقة انفعالاً بالروح الصليبية فى القرن الثالث عشر 11 .

ويقرر د. قاسم أن ابن رشد رفع التناقض بين فكرة القضاء والقدر وحرية الإنسان وهو رأى مشابه لعلماء الأخلاق المعاصرين . لكن فكرة المسلمين أكثر تفاؤلاً .

كذلك فإن جلسون قد أخطأ عندما ظن أن فكرة العناية الإلهية من إبداع الأكويني ، لأنها فى الحقيقة فكرة ابن رشد ، مقرراً سلفية كل من ابن رشد والماتريدى وابن باديس فى إثبات حرية الإرادة الإنسانية .

تلك الحرية التى لانتعارض مع فكرة القضاء والقدر على النحو الذى فهمها السلف .

وانتقل إلى عرض فكرتى الحسن والقيبح عند ابن باديس ، حيث قرر أن حسن الطاعات وقبح المعاصى مركز فى العقول ، وهناك أصول تتفق عليها الشرائع ، والشرع يساند العقل ولكنه - أى الشرع - يبين الفروق الدقيقة التى يعجز العقل عن الاهتداء إليها ، فالإحسان إلى الوالدين مثلاً شىء حسن ، لكن التفاصيل الدقيقة للإحسان لا يهتدى العقل إليها وحده فيرشده الشرع إليها .

« يقرر الدكتور قاسم عندئذ أن كلاً من الماتريدي وابن رشد استند إلى رأى السلف .

أما عن تعريف كل من الشر الذاتى والآخر النسبى ، فالأول لا ينفك عن طبيعة الشيء كالكفر والضلال وجميع الرذائل والكوارث الطبيعية، والنسبى هو الشر العارض الناجم عن سوء الاستخدام (كالمال مثلاً) ، والإنسان قابل للشر والخير أيضاً ، وقد زوده الله تعالى بالعقل للتمييز بينهما ، وبذلك يدحض آراء فولتير الساخرة من روح التفاؤل عند ليبنتز ، وكان بدوره قد نقلها عن فلسفة المسلمين التى سرت فى فلسفة المدرسين من الأوربيين فى العصور الوسطى ، ولكن فولتير لم يستطع فى نهاية قصته عن (كانديد) إخفاء روح التفاؤل ، وهى فى حقيقتها لاتقارن بالسمة الغالبة للتفاؤل الإسلامى الذى بعث روح الأمل فى نفوس جميع الأبطال والمصلحين لتجديد شباب الأمة .



القسم الخامس

الدراسات المهداة إلى محمود قاسم

- * أبو الوفا التفتازاني
- * أحمد صبحي
- * أميره مطر
- * جوزيف سكاتولين
- * سعيد زايد
- * عمار الطالبي
- * فتح الله خليف
- * محمود زقزوق

أثر التصوف الإسلامى على علاج بعض أزمات النفس

أ.د. أبو الوفا التفتازانى*

(١) يمكن أن نعرف التصوف بما عرفه به أبو محمد الجيرى بقوله :
(التصوف هو الدخول فى كل خلق منى ، والخروج عن كل خلق دنى) (١) ،
فالغاية من التصوف أخلاقية ، وهى التكميل الخلقى الذى دعا إليه الإسلام ، وهذا
الذى دعا ابن القيم فى (مدارج السالكين) إلى القول : (واجتمعت كلمة الناطقين
فى هذا العلم على أن التصوف هو الخلق) (٢) .

والأصل فى التصوف هو النظر إلى النفس الإنسانية على أنها تأمر بالسوء ،

* نائب رئيس جامعة القاهرة السابق ، وأستاذ الفلسفة الإسلامية بآداب القاهرة ، وشيخ
مشايخ الطرق الصوفية بمصر .

(١) الرسالة القشيرية ، دار الكتب العربية الكبرى ١٣٣٠ هـ ، ص ١٢٦ .

(٢) مصطفى عبد الرازق : تعليق على مادة «تصوف» ، بدائرة المعارف الإسلامية .

مصدقا لقوله تعالى : ﴿إِنَّ النِّفْسَ لِأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾^(١) ، ولهذا يقول القشيري في رسالته : «وإنما أرادوا «أى الصوفية» بالنفس ما كان معلولا من أوصاف العبد ومذموما من أخلاقه وأفعاله . ثم إن المعلولات من أوصاف العبد على ضربين : أحدهما يكون كسبا له كمعاصيه ومخالفاته ، والثاني أخلاقه الدنيئة «الفطرية» فهي في أنفسها مذمومة ، فإذا عالجها العبد ونازلها تنبت عنه بالمجاهدة تلك الأخلاق»^(٢) .

وعلى ذلك فإن مجاهدة النفس عند الصوفية صراع نفسي أساسه مخالفة هواها على كل حال ، ولذلك يقول ابن عربي : «المجاهدة هي حمل النفس على المشاق ، ومخالفة الهوى على كل حال»^(٣) ، ويقول ابن عطاء الله السكندري في الحكم لمريده : «إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه ، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا»^(٤) ، ويصور القشيري ، في صورة جميلة ، كيف يجاهد الصوفي نفسه ، فيقول : «إعلم أن أصل المجاهدة وملاكمها فطم النفس عن المألوفات ، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات ، وللنفس صفتان مانعتان لها من الخير : انهماك في الشهوات ، وامتناع عن الطاعات ، فإذا جمعت عند ركوب الهوى وجب كبجها بلجام التقوى ، وإذا حررت عن القيام بالمواقفات يجب سوقها على خلاف الهوى ، وإذا ثارت عند غضبها فمن الواجب مراعاة حالها ، فما من منزلة أحسن عاقبة من غضب تكسر سلطانه بخلق حسن ، وتخدم نيرانه برفق»^(٥) .

ومن هنا ارتبط علم النفس عند الصوفية بعلم الأخلاق ، وإلى ذلك الارتباط

(١) سورة يوسف : ٥٣ .

(٢) الرسالة القشيرية ، ص ٤٢ .

(٣) اصطلاحات ابن عربي بآخر الفتوحات المكية .

(٤) شرح الرندي على الحكم ، بولاق ١٢٧٨ هـ - ح ٢ ، ص ٣٥ .

(٥) الرسالة القشيرية ، ص ٤٩ .

الوثيق بينهما يشير السهروردى البغدادى فى (عوارف المعارف) بقوله : «إن الصوفية رزقوا سائر العلوم التى أشار إليها المتقدمون ، ومن أعز علومهم علم النفس ومعرفتها ومعرفة أخلاقها» (١) .

ويقول الطوسى فى (اللمع) : «للصوفية أيضا تخصيص فى معرفة النفس وأماراتها وخواطرها ودقائق الرياء والشهوة الخفية والشرك الخفى» (٢) ، ويقول الكلاباذى فى (التعرف) : « فأول مايلزمه «أى السالك» علم آفات النفس «أى علم أمراض النفس» ، ومعرفتها ، ورياضتها ، وتهذيب أخلاقها» (٣) .

فأنت ترى من كل هذه الشواهد الارتباط الوثيق بين التصوف ، كعلم للأخلاق ، وعلم النفس ، فكان الصوفية يجعلون علم النفس مندرجا تحت الأخلاق أو التصوف ، وإن شئت قلت : كان علم النفس عندهم علما غائيا يهدف إلى غاية أخلاقية هى تهذيب النفس بتعويدها الفضائل الأخلاقية على اختلافها ، فلم يكن علم النفس عندهم إذن مستقلا أو موضوعيا كما هو شأنه فى العصر الحاضر .

ومع ذلك كان للصوفية فى ميدان علم النفس مشاركة ، تتمثل فى العديد من الحقائق التى توصلوا إليها ، والتى نقف أمامها فى العصر موقف الإعجاب ، وحسبنا أن نشير فيما يلى إلى بعض هذه الحقائق ، على سبيل المثال لا الحصر :

(٢) فطن الصوفية فى أثناء مجاهدتهم النفسية إلى ظاهرة القلق النفسى ، وإلى علاجها ، وبصرف النظر عن تعريفات علماء النفس للقلق ، وبالرجوع إلى خبرتنا المباشرة ، فإننا نستطيع أن نقول إن القلق هو الخوف من أمور يعلمها الإنسان سواء من الماضى ، أو من الحاضر ، أو من أمور يجهلها ويتوقع حدوثها فى المستقبل ،

(١) السهروردى البغدادى ، عوارف المعارف بهامش أحياء علوم الدين ، ج ١ ، ص ٤٤ .

(٢) اللمع ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣٢ .

(٣) التعرف ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٨٧ .

وبهنا في هذا المقام أن نستشهد بكلام الصوفية أنفسهم عن معنى القلق - أو الحزن كما يطلقون عليه أحيانا - فيقول الحارث المحاسبي عن أسباب الحزن أو القلق : «الحزن على وجوه : الحزن على فقد أمر يحب الإنسان وجوده ، وحزن مخافة أمر مستقبل ، وحزن لما أحب من الظفر بأمر فيتأخر عن مراده ، وحزن يتذكر من نفسه مخالفات الحق ، فيحزن له» (١) .

وواضح من كلام المحاسبي أنه يمكن تصنيف أسباب الحزن كما يلي :

١- حزن ينشأ عن فقد الإنسان لشيء يحب وجوده ، كفقده ، شخصاً عزيزاً عليه أو مالا ، أو منصباً ، أو جاهاً ، أو فقد له لصحته أو ماشابه ذلك .

٢- حزن ينشأ مخافة أمر مستقبل ، وهذا يعني أن يتفكر الإنسان في أمور قد تحدث في المستقبل يكرهها ، وهذا على سبيل التخيل ، فإن المستقبل لا نعلمه ، وإنما نتوقع فيه أموراً قد تحدث وقد لا تحدث .

٣- حزن ينشأ عن حب الإنسان أن ينال شيئاً فيتأخر حدوث هذا الشيء ، كأن يتوقع الإنسان شغل وظيفة فيتأخر شغله لها فيقلق لذلك .

٤- حزن ينشأ عن تأنيب الضمير ، وذلك عند وقوع معصية أو مخالفة من الإنسان فيؤنبه هذا الضمير على وقوعها .

(٣) وهذا عن القلق النفسى الذى يعرف سببه ، وأما عن القلق الذى لا يعرف له سبب ، أو القلق الذى تكمن أسبابه فى اللاشعور ، فقد فطن إليه الصوفية أيضاً ، يدلنا على ذلك حديثهم عن علاقة الشيخ بالمريد أو الأستاذ بتلميذه .

وذلك أن الصوفية صوروا طريقاً إلى الله أوله مجاهدة النفس ، ومراحلها المقامات والأحوال ، ونهاية المعرفة ، والسالك بمثابة المسافر فى طريق ملىء

(١) طبقات السلى ، نشر وتحقيق نور الدين شريه ، القاهرة ١٩٦٩ ص ٥٩ .

بالأخطار حافل بالمشقات والأهوال ، وكما يلزم على المسافر في هذا الطريق التعرف عليه وكيفية السير فيه بإرشاد خبير عارف ، كذلك يلزم على المتصوف السالك في طريق الله أن يسترشد بهدى خبير عارف بهذا الطريق ، ومن هنا يقبل الصوفية على أئباخهم بغية إرشادهم إلى طريق الله ، وكيفية سلوكه .

وتقوم العلاقة بين المريد^(١) وشيخه على أسس نفسية ، ولا بد للمريد حين يقبل على شيخه من صفات نفسية معينة يتصف بها ، وآداب مخصوصة يتأدب بها .

ومن أهم ذلك أن يفضى المريد إلى شيخه بدقائق أحوال نفسه ، كأن يعرض أمامه مشاكله الخاصة به ، وما يعانيه في حياته الوجدانية من آلام ، وما يحتره من مخاوف وشكوك ، وما يتنابه من اضطرابات نفسية مختلفة .

ومن أدق ماصور به السهروردي البغدادي في «عوارف المعارف» ذلك قوله : «إن المريد متى انطوى ضميره على شيء يكشفه للشيخ ، تصريحا أو تعريضا ، يصير على باطنه منه عقدة في الطريق، وبالقول ما الشيخ تنحل العقدة وتزول»^(٢) .

فطن الصوفية إذن إلى ما يكون في أعماق النفس البشرية من عقد في اللاشعور فهذا النص من كلام السهروردي البغدادي يشير إليه صراحة ، فكلمة (انطوى ضميره) تشير إلى أن العقدة قد تكون كامنة ، ولا يدري عنها المريد شيئا ، وبالقول مع الشيخ ، أي بالحديث مع الشيخ ، تنحل العقدة وتزول .

(١) كلمة مريد مشتقة من الإرادة والمريد على موجب الاشتقاق : من له إرادة، والإرادة عند الصوفية هي ترك ما اعتاد عليه الناس من ركون إلى الشهوة واتباع للهوى ، وإخلاد إلى الغفلة ، فصار ترك الصفات الذميمة دالا على الإرادة ، والترك لها مریدا «الرسالة التشريعية ص ٩٢» .

(٢) عوارف المعارف ، جـ ٤ ، ص ٩٤ .

ومن آداب العلاقة بين المريد وشيخه أيضا إحساس المريد بأن شيخة قادر على إرشاده والأخذ بيده ، وبذلك يسرى حال الشيخ إلى حال المريد على أساس من المحبة له ، وإلى ذلك يشير السهروردي البغدادي أيضا بقوله : «ومن الأدب أن لا يدخل في صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه ، وأنه أقوم بالتأديب من غيره ، ومتى كان عند المريد تطلع إلى شيخ آخر لاتصفو صحبته ولا ينفذ القول فيه ، ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ إليه ، فإن المريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته ، والمحبة والتآلف هي الوساطة بين الشيخ والمريد ، وعلى قدر قوة المحبة تكون سراية الحال»^(١) .

وقد صور الصوفية الشيخ بالطبيب النفسى البار ، فهو يلجأ إلى التحليل النفسى لتعرف أحوال نفس مريده ، وتشخيص أمراضها ، ويعتمد على الإيحاء فى معالجة كثير من الأمراض النفسية .

والشيخ حين يتعرف إلى نفسيات مريديه وأتباعه يستطيع أن يرسم لكل واحد منهم طريقا خاصا به فى رياضاته ومجاهداته ، مراعىا فى ذلك الفروق الفردية ، وإلى ذلك يشير الغزالي فى (الإحياء) بقوله : «والشيخ المتبوع الذى يطب بنفوس المريدين ، ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي ألا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصص ، وفى طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم ، وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكتهم ، وأمات قلوبهم ، بل ينبغي أن ينظر فى مرض المريد ، وفى حالة وسنه ومزاجه ، وما تحتمله بنيته من الرياضة ، وينبى على ذلك رياضته»^(٢) .

(١) عوارف المعارف ، ج ٤ ، ص ٩٤ - ٩٥ .

(٢) إحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

ورياضة النفس التى يشير إليها الغزالي هنا هى تأمل باطنى للنفس الإنسانية ،
لتعرف عيوبها وآفات ، ثم علاج لهذه الآفات والعيوب علاجا يقوم على أسس
نفسية وبيولوجية فى آن واحد ، إذ أن من أصول المجاهدة والرياضة عند الصوفية
الجوع والسهر وكبت الغرائز ، وتواضع الصوفية على أن كل مجاهدة بدنية لا بد
وأن تنشأ عنها أحوال نفسية معينة ، وهذا يوضح لنا تماما أثر الظواهر البيولوجية فى
الظواهر النفسية ، وحياة الصوفى عبارة عن كفاح مستمر ، وهذا الكفاح ينشأ عن
الصراع بين الميول والعواطف والنزعات التى لاتوافق المبادئ الأخلاقية وبين القيم
الروحية السامية التى يصبو المتصوف إلى تحقيقها .

وأساس المجاهدة النفسية هو قمع هذه الميول والنزعات وهذا القمع
(Repression) يكون قمعا شعوريا إراديا .

ومما هو جدير بالذكر أن سلوك المتصوف فى المجاهدة النفسية هو سلوك إرادى
يتميز بالقدرة على الكف inhibition ومن هنا عرف الصوفى السالك باسم المريد
وهذه التسمية ترجع إلى الإرادة وتركيز الانتباه فى اتجاه معين مرسوم يرى المتصوف
أنه أسمى من غيره ، ويبدو لى أن المجاهدة وسيله من وسائل الإعلاء Sublimation
للغرائز الإنسانية .

(٤) وهناك سؤال يلح علينا فى هذا الصدد ، وهو كيف يمكن أن نستفيد من
مجاهدة النفس فى واقع حياتنا المعاصرة باعتبارها علاجا للقلق النفسى ؟

إننا فى واقع حياتنا المعاصرة محتاجون إلى محاسبة نفوسنا على الفعل من
الناحية الدينية ومحتاجون كذلك إلى الإعلاء للغرائز الذى أشرنا إليه آنفا ، وهذا من
أجل أن يكتمل الفرد أخلاقيا، ويكون عضوا صالحا فى مجتمعه .

ولكن هناك فى عصرنا الحاضر مذاهب فلسفية إلحادية ومذاهب أخرى عيشية
من شأنها أن تشيع القلق فى مجتمعاتنا ، وهو قلق مؤلم فى بعض الأحيان ، يعانىة

الشباب خصوصاً كنتيجة لفقدان الإيمان .

إن فقدان الإيمان ظاهرة موجودة ، فى عصرنا ، ولها صور متعددة : فهناك الشك الذى يمر به الشاب أو المراهق فى بداية حياته حين يفكر فى أمر هذا الكون أو يفكر فى نفسه ، وهذا لاخوف منه ولاضرر ، لأن كل واحد منا تقريباً عانى ، من هذا الشك بالنسبة للإيمان ، وسرعان ما تجاوز ذلك .

وهناك فى عصرنا مذاهب فلسفيه بعضها مادية إلحادى يرى أن المادة هى كل شئ وأنه ليس فى العالم إلا المادة وقوانين تطورها ، بل إن هذه الفلسفة تنظر إلى العقل فى الإنسان على أنه أسمى نتاج للمادة ، وهى فلسفة لها أنصارها فى عالمنا العربى والإسلامى ، وهذه الفلسفة شديدة الخطورة على المعتقدات الدينية وحياة التدين .

وهناك فلسفات عبثية تنتهى بالإنسان أيضاً إلى الإلحاد لا ترى لحياة الإنسان معنى ولا ترى له غاية ، وتؤكد على أن الحياة مأساة ومن أسف أن هذه الفلسفات تشيع الآن فى الكتابات الأدبية الموجودة فى أوروبا ، وهى فلسفات عبثية وتشاؤمية وتسمى أيضاً بالفلسفات العدمية لأنها تنتهى بالإنسان إلى خواء فكرى ، كالفلسفة الوجودية عند سارتر ، وهناك فلسفات تعتمد بالعلوم الطبيعية وحدها ومنهجها فى البحث ، وتجعل معيار الحقيقة الإدراك الحسى وحده ، وتنكر الغيبيات . وإذا شاعت تلك الفلسفات فى مجتمعنا فإنها تحدث قلقاً مؤلماً فى نفس الإنسان ، وهذا هو ما أشرت إليه من فقدان الإيمان فى هذه المجتمعات أحيانا ، فالوجودية مثلاً ترى أن الانتحار فعلة وجودية ممتازة ، وفى كتابات الوجوديين ما يشير إلى ذلك صراحة .

والماركسي الذى يعيش تحت ظل الدولة الماركسية يعيش مطحوناً من الناحية النفسية فيستشعر القلق والحزن مهما بدا عليه فى الظاهر من تكلف الرضا بالنظام أو

بالفلسفة التي ينتمى إليها .

وعلاج هذا النوع من القلق الذى ينشأ عن معتقدات فاسدة وأيدلوجيات منحرفة هو بالرجوع إلى الدين ، والالتزام بالإيمان الصحيح الذى دعا إليه الإسلام .

إن مواجهة المذاهب الوافدة إلينا المادية والمبثية يكون بتصحيح الإيمان فلا يعود الإيمان إيماناً شكلياً ، وعلينا بأسهل البراهين على وجود الله لنصح للشباب عقائده ، وعلينا كذلك أن نحجب إليه الإيمان عن طريق برامج مدروسة للتربية الدينية فى المدارس ، وأن توجد القدوة الحسنة الصالحة له على كل المستويات .

وعلينا كذلك أن نعود شبابتنا على ضرورة تصحيح الباطن ، فلا يكفى أن يعلن الشاب إيمانه بلسانه ، وإنما لابد له من عمل بمقتضى الشهادتين .

والذين إيمانهم شكلى أكثر مما نظن ، وقليل الذى تخرج عبادته عن الشكلية والمهم هو أن يمتزج قلب الإنسان بالعقيدة ، فيندفع إلى العمل بأحكام الشريعة .

والمهم أيضاً أن لا يتجه الإنسان إلى عبادة غير الله ، وقد تكون عبادة غير الله عبادة المال أو الجاه أو السلطان أو الملذات أو الشهوات ، والإنسان من حيث هو إنسان مفروض فيه أن يتجه بالعبادة إلى الله وحده ، وتأمل المعنى فى قول الرسول ﷺ : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم » .

والقصد من العبادة هو توثيق الصلة بالله تعالى ، فإن هذا يعصم الإنسان من القلق .

أما فقدان التخلق بأخلاق الدين ، فيعنى عدم الالتزام بقيم الإسلام وأخلاقياته ، فإذا تجنب الإنسان القيم الصحيحة شعر بالقلق ، وما القلق فى رأينا إلا نوع من الصراع بين الدوافع والأهواء والعواطف الموجودة فى نفس الإنسان ، وبين القيم الخلقية التى يراها محققة لإنسانيته ، أى القيم الخلقية التى ينبغى عليه كإنسان أن

يلتزم بها سواء فى معاملته لنفسه أو معاملته لأسرته ، أو معاملته لمجتمعه ، وما تأنيب الضمير إلا نوع من هذا القلق المضمن الذى يمر به الإنسان الذى يؤمن بقيم الدين وأخلاقياته .

هناك إذن ثلاثة عوامل باعثة على القلق هى : فقدان الإيمان ، عبادة غير الله ، وعدم التخلق بأخلاقيات الدين .

وبقينا أن التدين علاج لكل أولئك ، وهو التدين الواعى الذى يرتبط فيه الإنسان بخالفه برباط وثيق ، والذى يراقب الإنسان فيه نفسه باستمرار حتى يلزمها الصواب .

فالإيمان الحقيقى هو ذلك الذى حدده الرسول ﷺ بقوله : «الإيمان ما قر فى القلب وصدقه العمل» وهو الإيمان الذى يستشعر فيه الإنسان من الناحية النفسية أنه مع الله فى كل وقت وحين ، وإن ثبث قلت : هو الإيمان الذى يستشعر الإنسان فيه بأنه مع الله فيتشفى عنه الحزن ، وتأمل المعنى فى قول الله تعالى : ﴿ إذ أخرجهم الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ (١) فالمعية مع الله يتشفى معها كل حزن .

وكل واحد منا يستطيع أن يعرف بهذا المقياس فى أى موضع هو : إذا فتشت قلبك فوجدت هما أو حزنا أو قلقا أو ما إلى ذلك فأنت لست مع الله ، لأنك لو كنت مع الله ، وكانت هذه المعية حقيقية ، وكنت صادقا فى استشعارك أنك معه ، لم يعرف الحزن إلى قلبك سبيلا .

وهذا مقياس صادق ، ولكن لما غلبت علينا المفاهيم المادية أو المفاهيم التى تتعلق بفلسفات أو قيم مستوردة ، ابتعدنا عن هذا المقياس ، انظر إلى قوله تعالى :

(١) التوبة ٤٠ .

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾^(١) فربط الله تعالى بين الإيمان وعدم الاستشعار بالحزن أو القلق ، لأن الحزن هنا علامة على ضعف الإيمان ، وإذا كنا مؤمنين حقاً لم نستشعر الحزن أو القلق.

(٥) وهناك أمر آخر يتعلق بنظرة الإنسان إلى الحياة ، فبعض الناس ينظر إليها على أنها مغنم فقط ، وعليه أن يستكثر أسباب الدنيا ، وعليه أن يحافظ على ذلك ، وهكذا يتعلق قلبه بغير الله ، وهذا يناقض الإيمان ، لأن قلب الإنسان يجب أن يتعلق بالله أساساً ، ونحن لا نريد أن نقول للناس أتركوا الاشتغال بأسباب الدنيا ، ولكن نقول لهم اشتغلوا بها ولكن اجعلوا قلوبكم معلقة بالله ، بعبارة أخرى أخرجوا الدنيا من قلوبكم مع بقائها في أيديكم . جاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم ، وقال له أيهما أنضل : التاجر الصدوق أو المتفرغ للعبادة ؟ فقال إبراهيم بن أدهم : التاجر الصدوق أحب إلى ، يأتيه الشيطان كل لحظة من قبل المسكيات والميزان فيجاهده . أما الذي عزل نفسه في جبل أو في مكان بعيد فقيم يخشى على نفسه ما دام بعيداً عن الناس ؟ فليس المقصود هو ترك الأسباب والأعمال ، وإنما المقصود أن يكون الإنسان مع اشتغاله بأمور الدنيا مع الله ، فالملحة مع الله سواء في حال العبادة أو في حال الاشتغال بأسباب الدنيا مطلوبة ، لأن الاشتغال بأسباب الدنيا نفسه عبادة ، والصناعات كما قال فقهاء الإسلام فروض كفاية ، وكذلك الحرف والمهن المختلفة في المجتمع . وكذلك أي عمل حلال تتكسب منه .

(٦) ومن أهم ما نبه إليه الإسلام رياضة النفس على الإخلاص في جميع الأحوال والأعمال .

قال تعالى : ﴿ألا لله الدين الخالص﴾^(٢) ، والإخلاص يقتضي تجريد النية أو الباعث على العمل من جميع الشوائب ، ولذلك قال ﷺ : ﴿إنما الأعمال بالنيات

(١) يونس ٥٣ .

(٢) الزمر ، ٣ .

ولنما لكل امرئ ما نوى ، ويقول ابن عطاء الله السكندري في «الحكم» : «الأعمال صور قائمة وأروجها وجود سر الإخلاص فيها»^(١) .

وهذا ميزان صادق لأعمال العبادات ، أو أى عمل دنيوى ، فالعقائد لا تصح إلا بالإخلاص فيها ، والتوحيد الحقيقى هو أن لا يكون لغير الله فى قلبك منزلة ، وأن لا تتوجه بالعبادة إلى غيره ، فهذا الإخلاص فى التوحيد ، أما إذا أشركت إلى جانب الله أصحاب الجاه أو أصحاب السلطان ، أو شهواتك أو نزواتك ، فهذا ليس توحيداً خالصاً ، فالتوحيد الخالص يقتضى تجريد قصد التقرب إلى الله عن كل الشوائب .

إن أولئك الذين يتجهون بالعبادة إلى غير الله لابد لهم أن يستشعروا القلق حقاً ، لأن قلوبهم متعلقة بما هو فان .

(٧) ولابد من أن ترتاض النفس الإنسانية على نوع من التوازن النفسى . ذلك أن أهل الدنيا الذين تتعلق قلوبهم بها يفرحون بشدة حين تقبل عليهم الدنيا ، ويحزنون بشدة حين تزول عنهم ، هم بين تعاقب الفرح الشديد والحزن الشديد ، يعانون عذاباً نفسياً لا يطاق . وتأمل المعنى فى قوله تعالى : ﴿ لكىلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾^(٢) لترى أن هذا القول الكريم من شأنه أن يحدث لنا توازناً نفسياً ، وقد عبر ابن عطاء الله السكندري عن هذا المعنى فى «الحكم» بقوله : «ليقل ما تفرح به يقل ما تحزن عليه»^(٣) لأنه إذا كان الفرح شديداً كان الحزن شديداً كذلك ، والإنسان لا ينبغي أن يفرح إلا بما هو حقيقى فلا يتعلق قلبه بما هو فان وزائل ، والفرح الحقيقى هو بما من الله إلينا لقوله تعالى : ﴿ قل بفضل الله

(١) شرح الرندى على الحكم ج ١ ، ص ١٣ .

(٢) الحديد : ٢٣ .

(٣) شرح الرندى على الحكم ، ج ٢ ، ص ٥٦ .

وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴿١١﴾ .

والإنسان قد ينكسر نفسيا إذا صح هذا التعبير لتعاقب الفرح الشديد والحزن الشديد على نفسه ، وهذه الفلسفة الإيجابية التي أشار إليها صوفية الإسلام تعصمه من الانهيار تماما كواقى السيارة (السوستة) الذي يمنع انكسارها إذا وقعت فى إحدى الحفر فى الشارع .

إن الصوفية كانوا ينظرون إلى الإنسان نظرة نفسية عميقة ، ويعلمون بحق ضعف نفسه ، ومن أجمل ما عبر به هذا المعنى أيضا ابن عطاء الله حين يقول لمريده: «متى كنت أذا أعطيت بسطك العطاء ، وإذا منعت قبضك المنع ، فاستدل على ثبوت طفوليتك وعدم صدقك فى عبوديتك» (٢) .

وتشبيه الإنسان بالطفل تشبيه جميل ، لأن الطفل يفرح جدا بلعبته فإذا أخذناها منه حزن لذلك حزنا شديدا ، وعانى نفسيا ، فالإنسان فى العادة لتعلقة بالدنيا يعانى القلق الشديد على فقدانها ، فإذا فقدوها لم يأمن على نفسه من الانهيار نفسيا إذا كان فاقد الإيمان أو كان إيمانه ضعيفا .

(٨) ويتحدث الصوفية بعد ذلك عما يعرف بحال الطمأنينة ، ويقصدون به الحال الذى يتجاوز الإنسان فيه القلق إلى الاستقرار النفسى، كثرة لمجاهدة النفس .

وإذا كان جان بول سارتر فى عصرنا يقول: «نحن قلق» فإنه لم يتجاوز أبدا هذا القلق إلى الإيمان ، وإنما رصد حالة القلق فقط وجعلها ملازمة للإنسان ، فكأنه نظر إلى الإنسان من زاوية القلق ، وهذه نظرة غير طبيعية ، لأن الإنسان ليس قلقا فقط، وإنما عليه أن يتجاوز القلق ، إلى الإيمان بشئ .

(١) يونس : ٥٨ .

(٢) شرح الرندى على الحكم ، ج ١ ص ١٣٣ .

والطمأنينة التي يتحدثون عنها مذكورة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ،
كما في قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن
القلوب ﴾ (١) .

والإشارة في الآية إلى أن ذكر الله باللسان والقلب ، واستشعار وجوده معنا
في كل حال ، كل أولئك أمور باعثة على اطمئنان النفس ، أو بلغة علم النفس
باعثة على الاستقرار النفسى .

ومن الآيات الكريمة ذات الدلالة العميقة على الرياضات العملية التي تمارسها
من أجل استقرار النفس أو طمأنينتها قول الله تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق
صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك
اليقين ﴾ (٢) .

وهذه الآيات الكريمة تشير إلى أهمية العبادة والإقبال على الله بالذكر والتسبيح
والتحميد والسجود وما إليها ، وهى علاج أكيد لضيق الصدر ، أو القلق النفسى .

خلاصة القول أن طمأنينة النفس تعنى سكون النفس وراحتها ، وهى كما قال
الطوسي فى «اللمع» : «و حال رفيع ولا تكون إلا لعبد رجح عقله ، وقوى إيمانه ،
ورسخ علمه ، وصفا ذكره وثبت حقيقته» (٣) وهذا لا يكون إلا فى نهاية الطريق
إلى الله .

وهذا كله مستمد من أدب القرآن فى قوله تعالى : ﴿ ونزل من القرآن ما هو
شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ (٤) ففى القرآن شفاء للنفس حين يمدّها بالعقائد

(١) الرعد : ٢٨ .

(٢) الحجر : ٩٧ - ٩٩ .

(٣) اللمع : ص ٩٨ .

(٤) الإسراء : ٨٢ .

الصحيحة ، ونيدفعها إلى الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ، من أجل بلوغ
الكمال الأخلاقي الذي دعا إليه الإسلام .



دراسة نقدية لبعض المشكلات الكلامية من منظور لغوى منطقي

أ. د. أحمد محمود صبحي*

الموضوعات :

- ١- المشكلة المسماة بالصفات الخبرية : هل الوجه أو العين أو اليد - من منظور لغوى بحث - صفة أم اسم لعضو ؟
- ٢- صلة الصفات بالذات : هل يمكن وجود ذاتية بين الصفة والموصوف ، وهل هناك حد وسط بين الذاتية والغيرية ؟
- ٣- نظرية الكسب : إذا وزنت فى ضوء معايير الشرع واللغة والعرف الاصطلاحي وخالفنها جميعا ، ما عسى أن تكون ؟
- ٤- أفعال الإنسان: هل يمكن أن توصف بأنها مخلوقة من منظور لغوى بحث ؟

* رئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب ، جامعة الإسكندرية سابقا ، وأستاذ الفلسفة الإسلامية حالياً بجامعة الكويت .

تهديد

أمهد لهذا البحث ببعض مسلمات أراها مدخلا لازما لهذه الدراسة النقدية لبعض نظريات علم الكلام التي غدا بعضها أثبه بمعتقد لبعض فرق المسلمين لايجوز المساس به ولاالتعرض له ، ولو سلمنا بذلك لما كان هناك اجتهاد ، ولا أمكن قيام تجديد .

الأولى :

أنه في مجال أصول الدين ينبغي التمييز بين وحى يوحى ، جاء به من لاينطق عن الهوى ، وبين آراء علماء مهما كانت مكانتهم وأيا كانت درجة علمهم ، فإنهم بشر مجتهدون يصيبون ولكنهم يخطئون ، ومن ثم فكل «يؤخذ منه كلامه ويترك إلا - رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغ عن ربه» .

الثانية :

أنه ينبغي أن يكون رائدنا في البحث تلك المقولة التي قالها الإمام على حين سئل : «يمكن أن يكون طلحة والزبير وعائشة على باطل ؟ فقال اعرف الرجال بالحق ولاتعرف الحق بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله ، هذا مبدأ أراه ضروريا في كل بحث علمي .

الثالثة :

إنه لايصح أن يصرفنا عن النقد تلك المقولة التي يدعيها متكلمو بعض الفرق على وجه الخصوص ، ألا وهي أن ما يفتى به هو ما جاء به الرسول ﷺ وأن ما يقول به هو وحده المعبر عن حقيقة الإسلام ، وما عداه زيغ وضلال ، هذه دعوى عريضة تدل على شهوة الانفراد بالرأى فضلا عن ادعاء لحق لأحد أن يدعيه غير رسول الله ﷺ ، أما من عداه فمجتهد يخطئ ويصيب . إن المبدأ الذي ينبغي

أن يسود هو ما نطق به أئمة متسعو الأفق متسامحون ألا وهو : رأبى صواب
يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأً يحتمل الصواب .

الرابعة :

إنه إن رسخت معتقدات لأكثر من عشرة قرون فإن ذلك لا ينهض دليلاً على
صدقها المطلق ، وإنما يدل على طابع التقليد الذى ران على الفكر الإسلامى والذى
هو سمة طور انحدار الحضارة ، فإن أردنا التجديد فينبغى أن نتخلى عن التقليد
لأنه نهج المشركون فى قولهم : ﴿ هذا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ .

الخامسة :

إن أى مذهب إنما يعبر عن روح عصره . عبر المعتزلة - وقد ازدهر فكرهم فى
القرون من الثانى إلى الخامس - عن أوج حضارة الإسلام ، بينما نشأت الأشعرية
فى القرن الرابع وانتشرت فى قرون تالية كانت فيها شمس الحضارة الإسلامية قد
انجهدت نحو المغيب ، فإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على أن أى دعوة للتجديد
لن تكلل بالنجاح إن ظلت قابضة فى نطاق المذهب الأشعرى ، مذهب غالبية أهل
السنة من المسلمين ، وأنه علينا أن نستلهم روح من واكبت دعوتهم عصر فتوة
الإسلام وشبابه وحيويته لاتصرفنا عن ذلك تلك الحملة الجائرة من التشويه
وأحكام الضلال .

المنهج :

منهج هذا البحث بسيط غاية البساطة يشمل فى دراسة نقدية لبعض النظريات
الكلامية ، لاعلى أسس جدلية لايتهى فيها الخلاف عادة إلى رأى حاسم ، وإنما
على أساس التحليل اللغوى للمصطلحات الأساسية فى النظريات حيناً أو تطبيق
أصول المنطق على قضاياها حيناً آخر ، ذلك أن التحليل اللغوى لبعض الألفاظ قد

يكشف عن زيف استخدامها بمعنى أنه استخدام - من الناحية اللغوية - غير مشروع ، ومن ثم لا يعد هناك مبرر لإطالة الجدل حول مدى مشروعيتها في التعبير عن معتقد من معتقداتنا ، أو على أساس أن نزن القضايا الرئيسية في هذه النظريات بمعايير المنطق التي لا تسمح بأدنى خلاف ، فإن خالفها فإنه يجب استبعادها من مجال معتقداتنا، إذ لا يصح أن نعتقد بما يخالف أبسط قواعد المنطق .

مرة أخرىؤكد أن ذلك لا يمس بحال ما أصول الدين المجمع عليها بين المسلمين ، ومن ثم فإننا لن نتعرض لمقدساتنا أو لأصول ديننا من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وإنما هي نظريات كلامية .. لمتكلمين يخطئون ويصيبون وإن ادعى بعضهم أن ما خالف معتقدهم زيف وبدع وكفر وضلال .

وإننا إذا أردنا التجديد حقاً فإن أولى الخطوات هي : ألا نقبل شيئاً ما على أنه حق إلا إن سمحت بذلك أصول اللغة وقواعد المنطق .

أولاً : المشكلة المدعوة بالصفات الخيرية : هل الوجه أو العين أو اليد أو الساق - من منظور لغوي بحث - صفة من الصفات ؟

١- خلاصة معتقد مذهب أهل السلف^(١) فيما يسمونه بالصفات الخيرية هو إثباتها بلا تشبيه ولا تخييل ولا تأويل ولا تمثيل ، يقول ابن خزيمة : والمعطلة من الجهمية تنكر كل صفة لله وصف بها نفسه في محكم تنزيله .. ذلك أنهم وجدوا في القرآن أن الله قد أوقع أسماء من أسماء صفاته على بعض خلقه ، فتوهموا لجهلهم بالعلم أن من وصف الله بتلك الصفات التي وصف الله بها نفسه فقد شبهه بخلقه ، ولو صح قولهم لم تجز قراءة كتاب الله ، ووجب محو كل آية بين

(١) ينبغي التمييز بين مذهب أهل السلف الذي يرد إلى بعض أصحاب الحديث والذي صاغه فيما بعد شيخ الإسلام ابن تيمية ، وبين السلف الصالح من الصحابة والتابعين .

الدفنين فيها ذكر نفس الله أو عينه أو يده ، ولوجب الكفر بكل ما فى كتاب الله من ذكر صفاته ثم يقول : وقد أثبت علماء السلف أن لله عز وجل وجهاً على الحقيقة دون المجاز وأن وجهه باق لا يلى وأنه صفة لا تنفى ، ومن ادعى أن وجهه تعالى هو نفسه فقد ألد وغير معناه ومن فعل ذلك فقد كفر^(١) وإلى معنى قريب من هذا ذهب أبو الحسن الأشعرى مشايخاً فى ذلك الكلاية من أتباع ابن كلاب حين ذهب إلى القول بإثبات الصفات بلا كيف .

مسكلنا فى تناول هذا الرأى بالنقد لن يكون الجدل الكلامى ، فلن أقول إنه الوجه أو اليد أو العين أو الساق أو الجنب أو النفس مما وردت نسبتته إلى الله فى كتابه لو كانت من صفاته لكانت ضمن أسمائه الحسنى ولسمى : ذو الوجه أو ذو الساق أو ذو الجنب الواحد ، ولن أرد ما قاله الفخر الرازى أن اليد قد وردت تارة بصيغة المفرد^(٢) ، وتارة بصيغة المثنى^(٣) ، وتارة ثالثة بصيغة الجمع^(٤) ، فهل ثبت لله يدا واحدة أم يدين أم أيدي كثيرة ، وهل ثبت له عينا واحدة فى قوله تعالى ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ (طه : ٣٩) أم عيوناً كثيرة فى قوله تعالى : ﴿ أن اصنع الفلك بأعيننا ... ﴾ (المؤمنون : ٢٧) ، وهل ثبت له ساقاً واحدة لقوله تعالى : ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ (القلم : ٤٢)^(٥) . وهل ثبت له جنباً واحداً لقوله تعالى : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتاً على ما فرطت فى جنب الله ﴾ (الزمر : ٥٦) .

(١) ابن خزيمة وتحقيق د. محمد خليل هراس : التوحيد وإثبات صفات الرب ص ٢٦ وانظر أيضاً : الأصول الإيمانية لدى الفرق الإسلامية للدكتور عبد الفتاح فؤاد .

(٢) ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ (الفتح : ١٠) .

(٣) ﴿ بل يدها مبسوطتان ﴾ (المائدة : ٦٤) .

(٤) ﴿ ... مما عملت أيدينا أنعاما ... ﴾ (يس : ٧١) .

(٥) يقول الرازى : لو أخذنا بالظاهر لزمننا إثبات شخص له وجه واحد عليه أعين كثيرة وله جنب واحد عليه أيدي كثيرة وله ساق واحدة ، وليس من عاقل يرضى بأن يوصف ربه بهذا الوصف (المسائل الخمسون فى علم الكلام ص ٥٩) .

هل لن نستعين بمنهج تفسير القرآن بالقرآن فتساءل : وهل كان لداود أكثر من
يدين في قوله تعالى : ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾ (ص : ١٧) فإن
اقتضى هذا التأويل فلم نمنع ذلك بالنسبة لله ؟ .

أقول : سأصرف النظر عن هذه الأدلة الكلامية مع وجاهتها ، وسأكتفى بطرح
سؤال لغوي بسيط يمكن أن يرد عليه تلميذ في الابتدائي : هل الوجه أو اليد أو العين
أو الجنب أو الساق صفة أم اسم ؟ ، هذه أسماء وليست صفات ، وإنما الصفة من
وجه وجبه ومن نفس نفيس ، وإذا رجعنا إلى معاجم اللغة بصدد اللفظ «وجه»
وجدنا معناها : اسم لعضو في مقدم الوجه^(١) ، أرجو أن تلاحظوا معنى كلمة
«عضو» أى جارحة من جوارح الكائن الحى أو أعضائه ، وإذا رجعنا إلى المعجم
مرة أخرى تحت اللفظ «يد» وجدنا اليد بمعنى القوة وأيده الله أى قواه ، ومالى
بفلان يدان أى طاقة ﴿ والسما بنيناها بأيد ﴾ أى بقوة وهو مصدر (آد يييد أيدا)
إذا قوى ، وليس جمعا للمفرد «يد» ليذكر فى حرف الياء وإنما موضعه فى
باب السدال^(٢) .

ولكن هل غاب عن علماء مذهب السلف ومن شابههم من مثبتي أسماء
الأعضاء ، ولأقول مثبتي الصفات ، معرفة الفرق بين الاسم والصفة ؟ .

بطبيعة الحال لا ، ولكن خشية أن تلحق بهم تهمة التجسيم لامناص كان هذا
الإيهام بأنها صفات تلحق بسائر صفاته تعالى كالرحمن والرحيم والعزیز والجبار
إلى غير ذلك من أسمائه الحسنی المتفق عليها بين جمهور المسلمين ، ثم هم من جهة
أخرى أرادوا أن يصلقوا بخصومهم فى الرأى من المعتزلة والجهمية تهمة نفى
الصفات ، ولتساءل هل نجد معتزليا واحدا نفى عن الله سبحانه أيا من أسمائه

(١) المعجم الوسيط جـ ٢ ص ١٠١٥ .

(٢) مختار الصحاح ص ٧٤٢ .

الحسنى كما نعرفها ؟ غاية الأمر أن بعضهم من معتزلة بغداد قد أول السمع والبصر على معنى العلم ، أو ذهب إلى أن الله يتكلم على المجاز دون الحقيقة ، فهم إذن مؤولة لبعض الصفات ، أما نفاة الصفات فهم الشيعة الإسماعيلية الذين توهموا أن لإثبات صفات العلم أو القدرة أو غيرها على الله والإنسان يفيد التشبيه فذهبوا إلى أنه سبحانه لا يوصف بأنه عالم أو قادر ولا بأنه لاعالم ولا قادر .

أريد أن أخلص من ذلك إلى تصحيح مفاهيم :

١- من الخطأ تسمية المشكلة بالصفات الخبرية لأن الصحيح أنها : مشكلة أسماء الأعضاء الواردة فى التشابهات من الآيات .

٢- أن مثبتى هذه الأسماء لله إنما هم مثبتون لله أعضاء وليسوا مثبتى صفات.

٣- أن نفاة هذه الأسماء إنما هم نفاة للأعضاء أو الجوارح وليسوا بنفاة للصفات .

(٢) هل لله نفس ؟

مرة أخرى أثبت مذهب أهل السلف لله نفساً مستنديين إلى قوله تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ (آل عمران : ٢٨) ، وقوله ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ (الأنعام : ٥٤) ، وقوله لموسى ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ (طه : ٤١) ثم يورد ابن خزيمة من الأحاديث القدسية قوله تعالى : (أنا مع عبدى حين يذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ...) ثم يعلق بالقول : فالله جل وعلا أثبت من آيات فى كتابه وكذلك قد بين على لسان نبيه أن له نفساً .

والرد على ذلك أن النفس فى اللغة العربية - دون معظم اللغات - مقول بالاشتراك اللفظى على معنيين مختلفين :

الأول : الذات .

الثاني : النفس كجواهر متصل بالجسم على نحو من الأنحاء .

يدل على هذا أنها فى اللغة الإنجليزية تقابل لفظين :

الأول self والثاني : soul .

وفى اللغة الفرنسية لفظى ame, meme .

وإذا لجأنا إلى ترجمة الإنجليزية للمصحف الشريف وجدنا الآيات التى ذكر فيها لفظ النفس منسوبا إلى الله سبحانه قد وردت بالمعنى الأول دون الثانى ، فقوله تعالى:

﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾

Allah biddeth you beware of Himself .

وقوله تعالى :

﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾

Your Lord hath prescribed for Himself mercy.

وقوله تعالى :

﴿ واصطبعتك لنفسى ﴾

And I have attached three Myself .

خلاصة القول أن دعوى مذهب السلف وبعض الأشاعرة أن لله نفسا مشكلة زائفة لازمة عن عدم إدراك بأن لفظ النفس مقول بالاشتراك اللفظى على تصورين مختلفين ، وأن التصور الثانى الذى يشير إلى النفس كجواهر مرتبط باليد لا يفيد السباق إطلاقا فى كل الآيات التى تشير إلى نفس الله ، وأن من تبنا القول بأن

نفس الله هي ذاته كانوا في غنى عن الأدلة الكلامية لإثبات موقفهم لو أنهم قد لجأوا إلى الحل اللغوي الذي يحسم الأمر (١).

(٢) هل نفى المماثلة بعد إثبات الجوارح لله يفيد نفى التشبيه ؟

لم يخلص ميثو الأعضاء من الخطأ اللغوي .. ليقعوا في خطأ منطقي حين توهموا أن إثبات الأعضاء بلا تشبيه ولا تمثيل أو إلحاق الإثبات بعبارة «بلا كيف» يمكن أن يخلصهم من التجسيم ، إنهم مهما ألحقوا بالإثبات من عبارات نفى التشبيه أو التمثيل أو التخيل فذلك لن ينزعه معبودهم عن مماثلة المخلوقين ، ذلك أن الأسماء الكلية إنما تقال في المنطق على وجهين : بالتشبيه analogy وبالتواطؤ univocation المقول بالتشبيه هو ما يطلق على كثيرين أحدهما حد أصيل حاصل على الصفة بالمطابقة والآخر منسوبون إليها لعلاقة ما كل على قدره وتبعاً لذاته (٢) كالوجود يطلق على الله كحد أصيل باعتباره واجب الوجود ثم على سائر الموجودات كل على قدرها باعتبارها ممكنة ، وكل مثل ذلك على صفة الجمال حين تطلق على وجه القمر وعلى الوردية وعلى الحسناء وعلى قوام الغزال وعلى لحن الموسيقى وعلى اللوحة الفنية فإنه لا يفيد أدنى مماثلة أو مشابهة بين هذه الموضوعات .

أما المقول بالتواطؤ فيفيد التوافق والانطباق في المعنى تماماً كما ينطبق اسم الجنس على كل نوع من أنواعه أو اسم النوع على كل فرد من أفرادها ، كأن نقول الإنسان والأنعام والأرانب والأغنام حيوانات ثديية ، فإذا قلت عن الإنسان إنه

(١) استدراك : أدرك كثير من المتكلمين من المعتزلة والزيدية والخوارج هذا الحل اللغوي، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ابن سعيد القلهاشي متكلم الإباضية في القرن الرابع في كتابه الكشف والبيان جـ ١ ص ١٣١ - ١٣٢ وراجع عنه أيضاً د. عبد الفتاح فؤاد : الأصول الإيمانية لدى الفرق الإسلامية ص ٤٢٧ - ٤٢٨ نشر دار المعرفة الجامعية ١٩٨٩ .

(٢) الجرجاني : التعريفات ص ٣٢ ، يوسف كرم : المعجم الفلسفي ص ٤٢ .

حيوان ثدي لا كالثدييات فذلك لن ينفى عنه المماثلة أو المشابهة بين الإنسان وسائر الحيوان من الناحية البيولوجية .

ظاهر من ذلك أن الوجه أو اليد أو الجنب أو الساق إنما هي أسماء كلية مقولة بالتواطؤ لا بالتشبيه على كل من له وجه أو يد أو جنب أو ساق ولكن الأمر جد مختلف إذا وصفت الله عز وجل بأنه عالم لا كالعلماء قادر لا كالقادرين حسي لا كالأحياء ، فهذا مقول بالتشكيك الذى يفيد التنزيه اللائق بذى الجلال والإكرام.

تؤكد القول إذن بأن كل من زعم أن لله وجهاً أو يداً أو غير ذلك من أسماء الجوارح لن يخلصه من التشبيه كل ما يسوقه من أدوات النفي (١) .

وحين ذهب أبو الحسن الأشعري - تفسيرا لقوله تعالى : ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ (الزمر : ٦٧) - إلى أن كلتا يديه يمين فقد أضاف خطأ منطقيا جديدا ، لأن اليمين والشمال من الألفاظ المتضايغة التى تقع بينها نسبة أو التى يكون تعلق كل واحد منهما سببا لتعلق الآخر به ، أو يكون تصور كل واحد من الحدين موقوفا على تصور الآخر - كالأبوة والبنوة ، وقل مثل ذلك فى اليمين والشمال حيث لا يتحدد أى منهما جهة إلا من حيث علاقته بالآخر فلا يمين بدون شمال ولا شمال بدون يمين كما أنه لا أب دون ابن ولا ابن دون أب ، ومع أن إشارة القرآن الكريم إلى أصحاب اليمين كانت بمعنى مجازى ، فإنه ما إن ذكر أصحاب اليمين إلا وأعقبه ذكر أصحاب الشمال (٢) .

(١) أكرر ما سبق أن ذكرته من مسلمات وأن الحق أحق أن يتبع وأن نعرف الرجال بالحق بالحق لا الحق بالرجال ، لأن من القائلين بما سبق أن فتدناه إماما جليلا نكن له كل تقدير واحترام أعنى به الإمام أحمد بن حنبل وهو نفسه الذى طلب من أتباعه عدم التقليد ، ولكنى لأعرف إماما أساء إليه أتباعه كالإمام الجليل ، حيث تسبب تعصبهم فى أن اقترنت الحنبلية فى أذهان الناس بالتشدد والجمود مع أن الإمام وفقهه من هذين يريهان .

(٢) ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ... ﴾ (الواقعة : ٢٧ وما بعدها) .
ثم ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ... ﴾ (نفس السورة : ٤١ وما بعدها) .

هكذا يتردى المشبهة من خطأ لغوى إلى خطأ منطقى ، وكلما أرادوا الإفلات
لم تزدهم محاولتهم إلا إحكام شرك التشبيه عليهم .

ولا يقال إن قواعد المنطق مقصورة على عالم الشهادة دون عالم الغيب ، لأن
هذا مردود عليه بأن أكبر خطأ المشبهة هو عدم تمييزهم بين عالمي الغيب والشهادة
حين أجروا على الله الجوارح أو الأعضاء .

وللعالم اللغوى أبى سليمان السجستاني تفسير آخر لمشكلة الصفات ، فقد
أشار إلى أن اللغات قاصرة عن كل ما يجاوز عالم الشهادة ، وأن حمل الألفاظ
على أشياء فى عالم غير عالمنا إنما يكون على سبيل المجاز لا الحقيقة ، لأن الناس إذا
عدموا شيئا عدموا اسمه ، وإننا نعبر عن طبيعة الفعل الإلهى بصفات وتشبيهات
تقوم لنا مقام الأسماء الفائتة فتكون لها فينا أفعالا رديئة وإيهامات فاسدة إذا فهم
التشبيه على ظاهره ، ثم يذكر السجستاني قوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو ... ﴾
ولو قال لك رجل : لم خبرت عن الله بالتذكير دون التأنيث ؟ لما كان عندك إلا أن
تقول : هذا ما أقدر عليه ، وليس عندي من ضمير آخر غير المذكر أو المؤنث لأخبر
به عن الله (١) .

والخلاصة : أن آيات التشبيه فى القرآن الكريم من المجاز ، والمجاز من البلاغة ،
ووجه إعجاز كتاب الله أنه فى الدرجة العليا من البلاغة ، ففى نفى المجاز إنكار
لوجه من أهم وجوه الإعجاز . ومن جهة أخرى ، وكما أشار السجستاني : فإن
اللغة قاصرة على التعبير عن موضوعات عالم الغيب ، لأن الألفاظ فيها مواضع
اصطلاح عليها الناس وفق ما هو ماثل أمامهم فى عالم الشهادة ، فينبغى حين نحمل
هذه الألفاظ على موضوعات عالم الغيب أن نحترز من سوء الفهم اللازم
عن التشبيه .

(١) أبو حيان التوحيدى : المقابسات المقاسة العاشرة ص ١٤٩ - ١٥١ .

نشر وتحقيق حسن السندوبى المكتبة التجارية .

ثانيا : صفات الله :

هل هي عين ذاته أم هي قائمة بذاته لاهى هيته ولاهى غيره؟
نظرة نقدية من منظور لغوى .

نشأت هذه المشكلة حين سعى المعتزلة إلى دحض المعتقد المسيحي فى التثليث، وخلاصة المعتقد المسيحي يتمثل فى قضيتين :

الأولى : أن الوجود والعلم والحياة أقانيم (أى صفات) ثلاثة لجوهر واحد هو الله.
الثانية : تجسد الأقنوم الثانى - أقنوم العلم أو الكلمة - فأصبح شخصا هو الابن ،
وغدا الابن مغايرا للأب ، فما يقال على الابن - من أنه المسيح المولود من مريم
والذى صلب (فى معتقدهم) بعد أن عاش فترة من الزمان لآيزيد كثيرا على الثلاثين
عاما - لا يقال على الأب .

هذه المغايرة بين الأب والابن وبما يلزم عنها من شبهة التعدد - قد صيغت فى
الفكر الإسلامى بعامة ولدى المعتزلة بخاصة بأن صفات الله غير ذاته ، ومن ثم
جاءت معارضة المعتزلة - دحضها للتثليث ودفاعا عن التوحيد - بتبنى القول بأن
صفات الله عين ذاته .

يلاحظ أن المعتزلة قد أغفلوا تماما أصل الخلاف وكيف نشأ التثليث ، وأعنى
بذلك معتقد التجسد : تجسد أقنوم العلم واستحاله إلى شخص : كيف تستحيل
الصفة إلى شخص أو ذات ؟ ولو أنهم اكتفوا بنقد عقيدة التجسيد لكفاهم هذا
الوقوع فى كل الإشكالات التى واجهتهم ، والتى أثارها عليهم فريق من المسلمين
هم الأشاعرة بعد أن كانت المشكلة فى بادئ الأمر مواجهة عقائدية بين الإسلام
والمسيحية .

اعترض الأشاعرة على قول أبى الهذيل بالذاتية بين صفات الذات الثلاث :

العلم والقدرة والحياة ، ولم يخلصهم من هذا الاعتراض محاولة النظام التمييز بين المفاهيم الثلاثة للصفات الثلاث بالقول باختلاف أضداد هذه الصفات ، إذ كيف تختلف الأضداد ولا تختلف المتضادات من الصفات ، وأراد أبو هاشم الجبائي أن ينقذ الموقف بنظرته فى الأحوال بمعنى أن الصفات اعتبارات ذهنية بينما الذات تعبر عن وجود عيني ، غير أن الصفات لاتدرك إلا مع الذات فقدم للمشكلة بذلك حلا كلاميا أرضى فريقا من الأشاعرة ، وإن كان مرة أخرى لم يلتفت إلى جوهر الخلاف بين المسيحية والإسلام ، إذ ينكر الإسلام عقيدة التجسيد إنكارا تاما ، فمن منظور لغوى كيف تستحيل الصفة إلى موصوف ؟ ومن منظور عقلى أو منطقي كيف يمكن الخلط بين اسم الذات أو الاسم العيني وبين اسم المعنى أو الاسم المجرد Concrete ، Abstract ؟ هذا ما يعده المسيحيون سرا من الأسرار لا مدخل للعقل فيه ، وهذا من ناحية أخرى - ما أخطأ المعتزلة فيه حين لم يتبينوه ، فتصوروا إمكان قيام ذاتية بين الصفة والموصوف أو بين اسم المعنى واسم الذات .

إنما تكون الذاتية بين موصوف وموصوف أو بين اسم عيني واسم عيني مثله كأن نقول الحسام هو السيف ، أو القاهرة عاصمة مصر ، أو موسى كليم الله ، أو بين صفة وصفة أى بين اسم مجرد واسم مجرد آخر مرادف له فى المعنى كأن نقول الجود هو الكرم والإسراف هو التبذير بينما البخل هو التقشیر ، وبصدد الذات والصفات يمكنك أن تقول إن الله هو الرحمن الرحيم ... إلى آخر صفاته وأسمائه الحسنی ولكنك لاتقول إن الله هو الرحمة أو القوة أو الرزق ، ولا مجال هنا للكناية كأن تكنى عن الكرم بحاتم الطائي أو عن الظلم أو الطغيان بفرعون أو بنيرون ، لقد لزم عن خلط المعتزلة بين الصفة والموصوف أو بين اسم الذات واسم المعنى بقولهم صفات الله عين ذاته ، كل ما واجهوه من إشكالات فضلا عن أنهم لم يدحضوا معتقد المسيحيين فى التثليث حين لم يتبينوا إلى أن جوهر الخلاف إنما هو التجسيد .

وركر الأشاعرة اعتراضهم على اختلاف مفاهيم الصفات ، فمفهوم العلم ليس هو مفهوم القدرة ، ولا القدرة هي الحياة ، وقل مثل ذلك فى سائر صفات الذات لدى الأشاعرة ، ومن ثم ذهبوا إلى أن صفات الله لا هي ذاته ولا هي غيره وأضافوا إلى الخطأ اللغوى المنطقى السالف خطأ جديدا متعلقا بعلاقة التقابل بين الذاتية والغيرية ، لقد تصوروا علاقة تضاد يمكن تصور حد ثالث بينهما كما يمكن تصور لون بين الأبيض والأسود أو متوسط القامة بين الطويل والقصير ، بينما العلاقة بين الذاتية والغيرية هي علاقة تناقض مادي^(١) ؛ إذ يستحيل تصور حد ثالث بينهما تماما كالعلاقة بين أنا والغير ، إذ يستحيل أن تقول إن زيدا لاهو بالأنا ولاهو بالغير ، ما عسى أن يكون إذن ؟ كذلك الأمر بين الذاتية والغيرية ، فإن قلت إن العلم الإلهي لاهو ذاته ولاهو غيره ماذا يكون إذن ؟

خلاصة القول إن الصفات موجودة فى الأذهان لافى الأعيان بينما الموجود فى الأعيان ذات فليست الصفات هي الذات وإن كانت بدورها لاتدرك بخيالها كما قال أبو هاشم الجبائي أى لاتدرك مستقلة منفردة منفصلة عن الذات ، وفى شرح هذا المعنى قال أبو جعفر الطحاوى : إنك إذا قلت أعوذ بالله ، فقد عدت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال الثابتة له عز وجل والتي لاتنفك عنه بوجه من الوجوه ، وإذا قلت أعوذ بعزة الله فقد عدت بصفة من صفات الله ، ومع ذلك لم تعد بغير الله ، وهذا المعنى يفهم من لفظ الذات ، فإن «ذات» فى أصل معناها لاتستعمل إلا مضافة : ذات علم ، ذات قدرة ، ذات كذا أى صاحب كذا ، إنها مؤنث «ذو» - كما تقول ذو الجلال والإكرام ، فعلم أنه يستحيل انفصال الصفات عن الذات بوجه من الوجوه^(٢) .

(١) التناقض على نوعين : صورى نستخدم فيه أداة من أدوات النفى مثل أبيض غير أبيض ، مادي لامادي ، غنى ليس غنى ، بينما التناقض المادي يكون بين لفظين موجبين ليس بينهما حد أوسط مثل مواطن وأجنبي أو بين الاسم المثبت والاسم العدمي كبصير وكفيف أو سامع وأصم .

(٢) أبو جعفر الطحاوى وشرح عز الدين الحنفى : العقيدة الطحاوية .

هكذا قدم أبو جعفر الطحاوي حلا لغويا يسيرا لمشكلة ما كان لها أن تثار لو أدرك المعتزلة جوهر الخلاف العقائدي بين المسيحية والإسلام من جهة ، ولو التزمت الفرقان - معتزلة وأشاعرة - بأصول المنطق وقواعد اللغة فلم يخلطوا بين الاسم العيني والاسم المجرد أو بين الصفة والموصوف من جهة أخرى .

ثالثا : في نقد نظرية الكسب (من منظور لغوي) :

لا يسهل المرء إلا الدهشة أن تستقر نظرية الكسب معتقدا للخلف من أهل السنة بصدد مشكلة الجبر والاختيار مع اعترافهم بشدة غموض اللفظ حتى ضرب به المثل فقيل (أغمض من كسب الأشعري) ، ولقد جاءت شروح الأشاعرة لتزيد اللفظ اضطرابا وقلقا في المعنى حيث التفاوت الشديد بين من مال به إلى إثبات دور للإنسان في الفعل كالباقلائي وبين جنوح باللفظ إلى الجبر المحض لدى من مال منهم إلى التصوف ، مع أن نقطة البدء كان ينبغي أن تكون تحديد مفهوم اللفظ قبل الولوج به في المعترك الكلامي .

حقيقة لقد أشار القاضي عبد الجبار إشارة عابرة إلى الجانب اللغوي بقوله : وإن الأسماء لا تغير الحقائق وإن على القائلين بالكسب أن يبينوا حقيقة اللفظ حتى يصح أن تتعلق الأحكام بها ، وليس لهم أن يدعوا أن الكل يطلق هذا اللفظ حتى يصح الإطباق عليها ، لأن إطباقهم على إطلاقها إن ثبت فهو من غير قصد إلى فائدة لأنه يجب أن يثبت إطلاقهم على معناها وفائدتها ، لأن أهل الحق يفيدون بهذه اللفظة غير الذي يفيد القوم^(١) .

غير أن تحليلا لغويا مفصلا للفظ لبيان زيفه أو بالأحرى خلوه من أي معنى إنما جاء من عالم اللغة والبلاغة الإمام الزيدى يحيى بن حمزة (ت ٧٤٩هـ) وذلك

(١) القاضي عبد الجبار : المغنى في أبواب التوحيد والعدل ، الجزء الثامن : المخلوق ، ص ٩٠ .

بقوله: إن القول بالكسب الذى ابتدعه أبو الحسن الأشعرى إنما هو قول غير معقول فى ذاته ، ذلك أنه لا يخلو المراد من أى لفظ أن يتسق مع أحد معايير أربعة :

الأول : مفهومه فى لسان أهل اللغة .

الثانى : مفهومه وفقا للعرف الشائع .

الثالث : مفهوم اللفظ فى الشرع .

الرابع : مفهومه وفقا لاصطلاح أهل العلم .

فإن خرج عن استعمال أى من هذه الأوضاع الأربعة كان خطأ ، لأن كل لفظة وضعت لمعنى فلا بد من إفادتها لأحد هذه المعانى ، فإن لم يتقيد بواحد منها كان النطق بها عبارة فارغة لا حاصل لها ولا فائدة تحتها .

أما أنه يستحيل أن يكون المفهوم من اللفظ لغويا فذلك لأن الكسب فى اللغة هو حدث يحدث لمنفعة أو دفع مضرة^(١) بينما القائلون بالكسب لا يعلقون حدوثه بنا .

وأما معناه العرفى إفادته الربح من عمل أو تجارة .

ويستحيل أن يكون المفهوم منه معنى شرعيا لأنه لا يعقل له معنى فى الشرع كالصلاة والزكاة^(٢) .

(١) فى مختار الصحاح تحت باب كسب : الكسب طلب الرزق والمعيشة وكسب الشيء أى جمعه وكسب المال أى ربحه .

(٢) أى لم يستحدث الشرع للفظ معنى زائدا عن معناه اللغوى كما تم بالنسبة للفظى الصلاة والزكاة اللذين استحدث الإسلام لكل منهما معنى غير الذى كان معروفا فى الجاهلية ، هذا وقد ورد لفظ الكسب ومشتقاته فى القرآن الكريم فى سبعة وستين موضعا كلها تفيد نسبة العمل إلى الإنسان ثم تردف ذلك بذكر الثواب أو العقاب على ما كسب العبد أو اكتسب ، ولا تفيد آية منها أن الفعل من الله خلقا ومن ثم تجنب أبو الحسن الأشعرى أن يستدل بآية واحدة فيها لفظ الكسب فى نظريته المسماة بالكسب .

ويستحيل أن يكون المفهوم منه معنى اصطلاحيا بين النظار من المتكلمين لأنه لا يمكن الاصطلاح في الأمور الاصطلاحية إلا بعد أن يكون اللفظ معقولا في ذاته . إن الجهر والعرض لما كانا مفهومين في أنفسهما معقولين في ذاتهما أمكن وقوع الاصطلاح فيهما سواء على معنى يفهمه المتكلمون أو حسب مفهوم الفلسفة ، كذلك الأمر في سائر المصطلحات العلمية أو الكلامية أو الفلسفية ، أما الكسب الأشعري بمعنى أن الفعل من الله خلقا فإنه لا يعقله النظار من المتكلمين أو الفلاسفة أو العلماء في أى فرع من العلم أو الدين (١) .

ولو كان الكسب معقولا في نفسه لعقله العقلاء ، أما أنه لم يعقله العقلاء فلأن فرق المسلمين يطالبون المجبرة في الأزمنة المتطاوله ببيان حقيقة الكسب وتوضيح معناه ، ومع توافر دواعي الكل إلى فهم ماهيته وبيان معقوله فإنهم لم يفهموه ولم يعقلوه ، بل حتى سائر فرق المجبرة لم يجعلوه لهم مذهباً ، وأما الفرق الأخرى فقد أبطلوه بالأدلة ، وكل هؤلاء ما أدركوا له حقيقة ولا توصلوا له إلى مفهوم ، فلما لم يفهموه أو يعقلوه فقد أضحي الكسب غير معقول في نفسه .

ولا يرجع عدم معقولة اللفظ إلى غموضه على الأنفهام ودقته في الأذهان ، وإلا لأمكن بعد حين أن يتضح لهم ما استغل على عليهم ، أما أنه بعد هذه الأزمنة المتطاوله ولم يتبين لهم معناه فضلا عن معارضته للمعاني الواردة في اللغة والعرف والشرع والاصطلاح فقد ثبت بذلك ما ذكرناه : من أن لفظة «الكسب» عبارة فارغة ليس وراءها معنى يعقل (٢) .

(١) يمكن أن ينشأ في اللغة مصطلح جديد ؛ إذ اللغة ليست جامدة ولا مفرداتها متحجرة - علما أن المعيار هو اتفاق أهل الاختصاص على فهم المراد منه وقبولهم المعنى الذي أورده مبتكر اللفظ .

(٢) يحيى بن حمزة : الشامل لحقائق الأدلة العقلية وأصول المسائل الدينية ؛ أسفار في مجلدين مخطوط رقم ٨٨ بالجامع الكبير ، نسخة مصورة بدار الكتب المصرية المجلد الثاني ص ١٠ - ١٢ وراجع كتاب : الإمام يحيى بن حمزة وآراءه الكلامية ص ١٠٩ .

هكذا يكشف التحليل اللغوي عن زيف الكسب بمفهومه الأشعري : إن الأفعال من الله خلقا ومن الإنسان كسبا ، وخلق اللفظ من أى معنى وذلك لعدم اتساقه مع المعايير الأربعة : اللغة والعرف والشرع والاصطلاح ، إذ ما قيمة لفظ لا سند له من لغة تواضع عليها المتحدثون بها أو عرف اتفق عليه الناس ؟ وكيف تتخذ النظرية مكانتها بين المعتقدات الدينية واللفظ متعارض مع الاستخدام القرآنى له ؟ وإذا لم يكن للفظ مكان فى أى علم دينى فماذا تبقى له من أساس ؟

رابعا : فى خلق أفعال العباد (هل القول بأن أفعال العباد مخلوقة جائز لغويا؟) :

اتخذت المشكلة المتعلقة بالجبر والاختيار اسما غريبا ناشزا فى أوساط بعض المتكلمين حين سميت بخلق الأفعال ، ويشير القاضى عبد الجبار إلى أن أول من استخدمها هو الجهم بن صفوان (ت ١٢٨هـ) حين قال : إن أفعال العباد مخلوقة لله وهى منسوبة إلى العباد مجازا لاحقيقة ، وأشار القاضى إلى أن ضرار بن عمرو وحفص الفرد ذهبا إلى أن الفعل كسب للعبد وإن كان خلقا لله^(١) ثم مكن أبو الحسن الأشعري لهذا التعبير حين ذهب فى نظرية الكسب إلى أن أفعال العباد مخلوقة لله ، كسب لهم .

ومع أن المفروض فى هذا الخلاف أن يكون بين طرفين : القائلين بأنها مخلوقة لله ثم خصومهم القائلين بأنها مخلوقة للإنسان ، فإننا إذا تحرنا حقيقة الأمر وجدناه حوارا من طرف واحد ، ذلك أنه بعد دراسة دقيقة للمعتزلة بعامة ولكتاب المغنى للقاضى عبد الجبار بخاصة لم أجد تعبير «الأفعال مخلوقة للإنسان» واردا على لسان أحد من المعتزلة ، ولكن خصومهم هم الذين ألزموهم أو ألبسوهم هذا التعبير الزائف حتى يتيسر لهم اتهامهم بالشرك حين أشركوا مع الله خالقا آخر هو

(١) القاضى عبد الجبار : المغنى فى أبواب التوحيد والعدل الجزء الثامن «المخلوق» ص ٢ ، ٣ .

الإنسان، ومع أنه لاجرح في إطلاق تعبير الخالق على غير الله^(١) بدليل قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنين : ١٤) وبدليل قوله تعالى عن السيد المسيح ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ...﴾ (المائدة : ١١٠) ولأن المراد بالخلق لغة حين ينسب إلى الإنسان هو ما يحدثه في آدم من التقدير والتصوير^(٢)، ومع ذلك فلن نحمد معتزليا وصف الفعل بأنه مخلوق للإنسان ، يقول القاضى عبد الجبار : إن أفعال العباد من تصرفهم وقيامهم وقعودهم حادثة من جهتهم وأن الله عز وجل أقدرهم على ذلك ولافاعل لها ولامحدث سواهم^(٣) ، حتى فى ردوده على المجبرة كان شديد الحرص والحذر ألا يستخدم تعبير خلق الأفعال ، قلو قالوا الأفعال مخلوقة لله قلنا إنها متعلقة بتصرف الفاعل المختار ، إنها أفعالهم وإنها حادثة من جهتهم ، وإنها تصرفاتهم الواقعة حسب مقاصدهم وإرادتهم ودواعيهم^(٤) ، بل إن الأفعال الاضطرابية لا يصفها القاضى ولاغيره من المعتزلة بأنها مخلوقة .

أريد أن أقول إن تعبير خلق الأفعال أى وصف الأفعال بأنها «مخلوقة» إنما فشا فى أوساط المجبرة والأشاعرة دون القائلين بحرية إرادة الإنسان . والسؤال المطروح بعيدا عن الطرفين ، هو : هل تجيز اللغة وصف الفعل الإنسانى بأنه مخلوق ؟ وهل يمكن لأى فعل إنسانى خيرا أم شرا حلالا كان أو حراما أو مباحا أن يأتى مفعولا للفعل «خلق» ؟

(١) إطلاق لفظ الخالق على الله وعلى الإنسان - تماما كاشتراك بعض أسمائه الحسنى بينه - عز وجل - وبين الإنسان مقول بالتشبيه لالتواطؤ ومن ثم لايفيد المماثلة بحال ، إذ الله خالق من عدم بموجب قوله للشئء كن فيكون بينما الخلق بالنسبة للإنسان إنما هو تصوير أو تشكيل أو نحت الصور من الأدم أو من مادة أولية أو مادة خام .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٤ .

وللرد على هذا التساؤل اتجهت إلى كتاب الله باعتباره فى القمة العليا من
البلاغة أستغثيه ، فنقبت فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم عن المفعول به
للفعل خلق فوجدته قد انحصر فيما يأتى :

١- السموات والأرض كما فى قوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات
والأرض ﴾ (آل عمران : ١٩) .

٢- الملائكة كما فى قوله تعالى : ﴿ أشهدوا خلقهم ... ﴾ (الزخرف : ١٩) .

٣- الإنسان فى قوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ (الرحمن : ٢) .

٤- الجن فى قوله تعالى : ﴿ خلق الجن من نار ﴾ الرحمن .

٥- الأنعام كما فى قوله تعالى : ﴿ والأنعام خلقها لكم ﴾ (النحل : ٥) .

٦- الدواب فى قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ﴾ (النور : ٤٥) .

٧- الليل والنهار والشمس والقمر : ﴿ وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس
والقمر ﴾ (الأنبياء : ٣٣) .

٨- ما فى الأرحام من أجنة : ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى
أرحامهن ﴾ (البقرة : ٢٢٨) .

٩- كل ما هو من زوجين من نبات وحيوان وإنسان كما فى قوله تعالى :
﴿ سبحانه الذى خلق الأزواج كلها ... ﴾ (يس : ٤٦) .

١٠- كل ما له ظل : ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شئ يتفياً ظلاله عن
اليمين والشمائل سجدا لله ... ﴾ (النحل : ٤٨) .

١١- الموت والحياة : ﴿ خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾
(الملك : ٢) .

نخلص من ذلك إلى ما يلي :

١- أن موضوعات الفعل «خلق» إما أجسام لها ظلال أو ما يلحق بها من أعراض من روائح وطعوم وألوان وأشكال فضلا عما يلحق الكائنات الحية منها من حياة أو موت هذا فى عالم الأعيان ، وإما أرواح فى عالم الغيب من ملائكة أو جان.

٢- أنه لم ترد آية واحدة كان المفعول به للفعل «خلق» عملا أو فعلا إنسانيا .

٣- بل إنه باستخدام طريقة السلب إلى جانب الدليل الإيجابى نجده سبحانه قد نفى عن خلقه التفاوت فى قوله تعالى: ﴿ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴾ بينما تتفاوت أعمال البشر بين الخير والشر أو الحسن والقبح .

٤- أنه لاجبة للمجبرة فى استنادهم إلى قوله تعالى : ﴿ الله خالق كل شئ ﴾ (الزمر : ٦٢) لإدراج أفعال الإنسان فيها ، لأن الله قد حصر ما يعنيه بموضوعات خلقه فيما سبق أن ذكرناه ، فضلا عن أن السياق واضح فى أن المقصود بكل شئ « كل شئ يمكن أن يوصف بأنه مخلوق » .

ولم يرد تعبير «خلق الأفعال» فى حديث واحد على لسان البلغاء ، أما ما ورد فى كتاب البخارى : (خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل) فإن إمام الحديث كان فى كتابه هذا - كما هو ظاهر من عنوانه - متكلما ، ولم يرد فيه حديث واحد يذكر تعبير «خلق أفعال العباد» وإنما مجرد أقوال على السنة بعض أصحاب الحديث كنعيم بن حماد وغيره فضلا عن أن الكتاب متعلق أكثره بموضوع خلق القرآن لا خلق الأفعال (١) .

(١) د. على النشار ، د. عمار طالبى : عقائد السلف ص ١٧٧ ، وما بعدها ، منشأة المعارف الإسكندرية .

أريد أن أقول إن وصف الأفعال بأنها مخلوقة يكاد يكون مقصوراً على علم الكلام دون سائر العلوم الدينية أو علوم اللغة العربية ، إذ لأعرف لذلك ذكراً في الفقه أو أصوله ولا في الشعر - ديوان العرب - ولا البلاغة .

وإنما تستخدم أفعال أخرى مناسبة للسياق دون الفعل «خلق» مثل أقام بالنسبة للصلاة ، أتى بالنسبة للزكاة ، أدى بالنسبة لفريضة الحج أو أحدث أو ابتدع إن تعلق الأمر بالبدع أو محدثات الأمور ثم اجترح إن تعلق الأمر بهيئة ، فضلاً عن الفعلين : «فعل» أو «عمل» إن تعلق الأمر بخير أو شر أو مباح ، بل إنه حتى في تعبيراتنا الحديثة نقول : زال ، مارس ارتكب إلى غير ذلك من أفعال دون الفعل «خلق» .

وحتى إن أردنا نسبة الفعل إلى الله فإننا نقول أنعم الله عليك أو أسبغ الله عليك نعمه ولا نقول خلق فيك نعماً أو إسباغاً ونقول سدد الله خطاك ولا نقول خلق فيك تسديداً أو خطي مسددة ، ونقول «هداني ربي» ولا نقول خلق في هداية ، بل كما ورد في التنزيل : ﴿ أضله الله ... ﴾ ولم يرد : خلق فيه ضللاً .

خلاصة القول إن تعبير «خلق الأفعال» بصرف النظر عن كون الفاعل هو الله أو الإنسان - إنما هو تعبير قلق ركيك ، وأنه في كلام العرب غير مألوف ، وأن المجبرة ومن شايهم قد أخفقوا في فرضه على ألسنة الناس من أجل أن يكون عقيدة للمسلمين .

الخيال والإبداع الفكرى الإسلامى

أ.د. أميرة حلمى مطر *

درج المفكرون والفلاسفة الغربيون على إنكار القدرة على التصوير والانطلاق إلى آفاق رحبة من الخيال على العنصر السامى عامة ، وعلى العرب والمسلمين على وجه الخصوص ، وقيل أيضاً : إن الفن السائد لديهم هو فن الكلمة ، ولذلك فقد برزوا فى فنون الشعر والنثر والخطابة ، ولم يتفوقوا فى فنون التصوير والتشكيل .

وقد أيد هذا الكلام -أيضاً- أن اليهود القدماء قد أظهروا عبقرية فى الشعر والغناء ، ولم يكن شأن العرب فى هذا المجال أدنى من شأن اليهود ؛ إذا تميزوا فى هذين الفنين ، وأبدعوا فى الخطابة والشعر منذ عصر الجاهلية .

* رئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة سابقاً .

وما زال النقاد والفلاسفة الغربيون يؤيدون رأيهم فى قصور الشعر العربى فى الخيال وفى حرية الانطلاق ، ويستشهدون على ذلك بقولهم : إن تراث العرب فى الشعر يخلو من الأساطير خاصة إذا قررن بشعر اليونان القدماء .

وكثيراً ما أرجعوا السبب فى قصور الخيال الفنى إلى طبيعة الأرض التى عاشت عليها الأمة العربية منذ بدء تاريخها قبل الإسلام ، وعند ظهوره ، فالحياة فى البيئة الصحراوية الخالية من تنوع مشاهد الطبيعة والمفرطة فى البساطة كانت من أهم عوامل الحرمان من الانطلاق فى التعبير والحرية فى الخيال لدى الشعراء والفنانين.

وتارة أخرى أرجعوا هذه السمة إلى العقيدة الدينية التى فرضت على جمهور المسلمين الاتزان والتمسك بالمنطق العقلى خوفاً جموح الخيال .

ولقد ذهب كثير من مفكرى العرب خاصة الفقهاء وأهل السلف إلى هذا الموقف حين قابلوا بين الخيال وبين العقل ، وأقاموا تعارضاً واضحاً بين الأقاويل البرهانية والأقاويل الشعرية إلى حد ظنوا فيه أن الخيال يذهب العقل ويلغى الحكم وامتد سخطهم إلى خيال الشعر والشعراء متعللين بالآية الكريمة :

﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ .

وهكذا فقد بدا لكثير من المحافظين من السلف أن الخيال قد ينتهى بالجمهور إلى الابتعاد عن التمسك بأحكام الدين .

ولكن الرأى الآخر لم يعدم من يناصره ، ويرى أن للخيال الفنى قيمته ، من هؤلاء الذين استندوا إلى أهمية الأقاويل الشعرية واختطابية وتأثيرها فى الجمهور ذلك حين ذهب الفلاسفة والمفكرون إلى القول بأن الحقيقة الدينية لو أنها وجهت

إلى العامة بالعقل لما عقلوها ولذلك فلا بد أن تقدم لهم فى صور حسية ورموز يمكن لهم استيعابها ، واستشهدوا على ذلك بما لمجده فى كتاب الله العزيز من قصص وتصوير غاية تثبيت الأفكار فى النفوس وتقريبها إلى ذهن العامة .

يقول الجرجاني (إن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى كساها أبهة) كذلك جاء فى القرآن الكريم كثير من القصص التى غايتها الموعظة كقصص قاييل وهابيل لتمثيل استعداد الإنسان للخير والشر ، وما حفل به القرآن الكريم من أخبار عن الأنبياء والحضارات القديمة ، ولم ينكر القرآن ذكر الأساطير من أجل العبرة والموعظة ، ولكنه حرص على بيان أن هذه الأساطير الواردة ليست وحيا من الله سبحانه وتعالى - ولاهى كلام النبى ﷺ (١) . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ (سورة القلم) . ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض ، إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ (سورة الفرقان ، الآية ٥) .

فالقصاص الخيالى إذا جاء على سبيل الوعظ والإرشاد كان مشروعاً ، فالخيال - إذن - فى حد ذاته ليس تضليلاً عن الحق أو عن التصديق والحكم الصحيح طالما كان دائماً هو فى خدمة العقل بأمره ويوجه إلى الحقيقة الدينية .

بل ذهب بعض فلاسفة الإسلام إلى اعتبار الخيال قدرة وموهبة لأنه صنيع الإلهام واسطة الرؤى الصادقة لدى الأنبياء والأولياء .

فعن طريق المخيلة يتم الوحي والإلهام ، يقول الفارابى فى مؤلفه (المدينة الفاضلة) (ولا يمنع أن يكون الإنسان إذا بلغت قوته المتخيلة نهاية الكمال أن يقبل فى يقظته عن العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلية أو محاكياتها من

(١) انظر محمد خلف الله أحمد : الفن القصصى فى القرآن الكريم .

المحسوسات ، ويقبل محاكمات المعقولات المغارقة وسائر الموجودات الشريفة ، ويراها فيكون له بما قبله من المعقولات نبوة بالأشياء الإلهية ، فهذا هو أكمل المراتب التي تنتهى إليها القوة المتخيلة .

وإذا ماتم للأنبياء هذه الدرجة من المعرفة فعليهم أن يصوغوا ماتوصلوا إليه من معقولات فى صور محسوسة لكى يفهمها العامة ، لكن من جهة أخرى يتدخل الخيال فى الإبداع الفنى والشعرى ، وذلك عندما يثير فى الناس الوجدان الذى يوحد بين ملكات النفس ، ويؤثر على قوتهم النزوعية وعلى سلوكهم ، بل إن فعله فى سلوك الإنسان ليقوق فعل العقل .

يقول الفارابى فى مؤلفه (إحصاء العلوم) «إن الأقاويل الشعرية هى التى تتركب من أشياء أفضل أو أخس ، وذلك إما جمالاً أو قبحاً أو جلالة أو هواناً أو غير ذلك» .

ويعرض لنا عند نظرنا إلى الشيء الذى يشبه ما نعاى ، فإننا من ساعتنا يخيى لنا فى ذلك الشيء أنه مما يعاى فتتفر أنفسنا منه فتجنبه ، وإن تيقنا أنه ليس فى الحقيقة كما خيل لنا فننفل فيما تخيله لنا الأقاويل الشعرية ، وإن علمنا أن الأمر ليس كذلك لفعلنا فيها ، لو تيقنا أن الأمر كما خيله لنا ذلك القول فإن الإنسان كثيراً ماتتبع أفعاله تخيلاته أكثر مما تتبع ظنه وعلمه^(١) .

أما ابن سينا فقد تحدث - أيضاً عن أهمية الخيال وعن وظيفته وعلاقته بقوى الإنسان الإدراكية والنزوعية ، وقد عده ضمن الحواس الباطنة فى مقابل الحواس الخمس التى تدرك الظاهر من الأشياء ، ورأى أنه يتمثل فى القدرة على انتزاع الصورة من المادة وأنه يوجه النزوع والعقل والعمل فى الإنسان .

(١) الفارابى : إحصاء العلوم ، طبعة القاهرة ، ص ٦٧ ، ص ٦٨ .

من جهة أخرى ، لو أننا تتبعنا إبداع شعراء الإسلام ونظرنا إلى واقع الحياة الفكرية وتيارات الفن والشعر المختلفة فإننا نلاحظ أن الشعر العربي رغم انفتاح الحضارة الإسلامية ظل يعاني من قيود الصنعة والتقليد ، وأنه ظل يفتقر إلى الثروة على التقاليد الفنية الموروثة وإلى الخيال الذي هو المنبع الرئيس لكل إبداع في الفنون ، غير أن أقرب من دعوا إلى هذه الانطلاقة إنما كانوا ممن تمثلت عبقريتهم في استلهاهم الحداثة بالعالم الروحاني من الصوفية ومفكرى الإشراق في الإسلام .

لقد كان شعراء الصوفية الملهمين بالعالم الروحاني والسالكين طريق الأسرار أقرب من لجأ إلى عالم الخيال ، وحفل شعرهم بالرموز والإشارات .

ويقترّب من هؤلاء أيضاً أتباع المذهب الإشراقي من مفكرى الإسلام الذين لجأوا إلى القصص الرمزي ، وكان منهم العربي والفارسي . ومن أشهر شعراء الفرس فريد الدين العطار ومذهبه الصوفي في كتابه «منطق الطير» حيث صور الطيور في صورة المريدين ، وجعل من رمز الهدى مرشداً يهديهم الطريق ، وكذلك ماصوره جلال الدين الرومي في مثنوى من حكايات وصور رائعة تجاوزت المئات دارت أغلبها حول النفس وأصلها الإلهي ، وحنينها الدائم إلى ذلك الأصل الذي جاءت منه ، ومعاناتها الحياة في هذا العالم ، فيبدأ الحديث عن الناي ، ويصف نغماته بأنها حنين إلى منبته الذي قطع منه قبل أن تتناوله يد البشر ، فما حنين الناي إلا رمز لحنين تلك النفس البشرية إلى أصلها ، يقول جلال الدين الرومي «استمع للناي كيف يقص حكاية ؛ فهو يشكو الآم الفراق قائلاً : إنني منذ قطعت من منبت الغاب و الناس جميعاً يكون لبكائي»^(١) وهي نفس الصورة الخيالية التي ألهمت ابن سينا في قصيدته السينية ، ومطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنع

(١) د. محمد كفافى : مثنوى جلال الدين الرومي ، بيروت سنة ١٩٦٦ ص ٣٦ .

لقد كان هؤلاء الصوفية والإشراقيون في نزوعهم إلى التعبير عن العالم الروحاني أقرب ما يكونون إلى الروح الأفلاطونية الراغبة إلى السمو إلى عالم المثل والامتلاء بحب الحقيقة الإلهية .

فقد ذهب أفلاطون - قديماً - إلى نقد الفن الذي يعتمد على تطبيق القواعد المحفوظة ، ويفرق في أساليب الصنعة ، فهو يرى أن فن هؤلاء ، المقيد بالتلاعب بحواس عالم المثل ، ويتهى إلى أن فن الملهمين الذين مسهم هوس الشعر هو أرقى أنواع الشعر ومثأنهم ثمان الصوفية والحيين الذين يصدرن عن إلهام إلهى بالعالم الروحاني ، عالم الحقيقة العليا (١) .

ولعل أشد من اقرب من هذه الروح الأفلاطونية فى العالم الإسلامى هو فيلسوف الصوفية ابن عربى الذى دعا إلى الاعتماد على الذوق والحدس والخيال الخلاق ، وهو الخيال الذى لا يقتصر على التأليف والتركييب للصور المحسوسة أو باختصار على الصنعة (٢) .

وتتلخص نظرية الخيال عند ابن عربى فى تشبيبه الخيال بالهولى أو بالمادة الأولى فهو يقبل كل الصور ويتشكل بكل الأشكال التى تأتية سواء من الحس أو من العقل .

فالخيال بهذا المعنى قدرة لاتتصف بالخير ولا بالشر لأنه يقبل الارتفاع إلى مستويات عليا ، كما أنه يقبل أن ينحدر إلى مستويات دنيا بحسب وعى المتخيل وبحسب قدراته الإدراكية ومدى اهتماماته .

ويفسر ابن عربى الخيال بقوله : «إن الرؤى تهبط من عالم البرزخ أو من عالم المثل على خيال النائم أو على الملهمين فى حال اليقظة ومن ثم فهى صادقة ؛ لأن

(١) محاوره فايدروس لأفلاطون ترجمة د. أميرة حلمى مطر . دار المعارف .

(٢) د. محمود قاسم : «الخيال فى مذهب محبى الدين ابن عربى» .

الخيال هنا لا يكذب وإنما يعرض له الفساد من جهة من يتلقاه أو يؤوله .

ويقرن ابن عربي الخيال بحدس الصوفية . فالخيال هو أداة هذا الحدس ، وهو يسطع فجأة كلمح البصر ، ولذلك فقد سماه ابن عربي بعلم الضربة ، وهى عبارة أخذها ابن عربي من حديث عن الرسول - عليه السلام - وخلاصته أن الله ضرب بين ثديه أو فى ظهره فعلم علم الأولين والآخرين .

وكذلك يرجع ابن عربي الكشف عند الصوفية إلى ملكة الخيال ، ويستشهد بالقرآن الكريم وخاصة بتلك الآية الكريمة :

﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ .

وهو يشبه الخيال ودوره فى المعرفة بالنور ، فيقول فى كتاب «الفتوحات» :
«الخيال أحق باسم النور من جميع المخلوقات النورية ، فنوره لا يشبه الأنوار وبه تدرك التجليات ، وهو نور عين الخيال لانور عين الحس» .

ويميز ابن عربى بين الخيال والإدراك الحسى ، ويرى أن عامة الناس تخطئ بين الرؤيتين فى حين يختلف الخيال عن الإدراك الحسى فى أنه يقبل التقيضين فترى الإنسان فى المرأة صغيراً وكبيراً بحسب سعة معرفته بالحيز أو نقصها .

يقول موضعاً حقيق الخيال :

«فما أوسع حضرة الخيال ، وفيها يظهر المحال ، بل لا يظهر فيها على التحقية إلا وجود المحال» ويتجلى الله - سبحانه وتعالى - للعارفين من خلال النظر فى مخلوقاته ، ولذلك فقد قرب الله نفسه للإنسان بصفات إنسانية ، ومن هنا فقد تبين الصوفية فى كل ظواهر الجمال الأرضى تجليات للذات الإلهية .

وانصرف كثير من هؤلاء الصوفية المسلمين إلى التعبير عن عشقهم الإلهى بواسطة ما يظهر لهم فى عالم الحس من صبور الجمال رأوا أنها ترمز إلى العالم الإلهى

فتغنوا بليلى وسلمى وبالطبيعة وبألوانها ونقوشها .

يقول ابن الفارض فى مطلع قصيدته العينية^(١) :

أهرق بدا من جانب الغور لامع أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع
وصاحب بموسى العزم خضرو لائها فقيه إلى ماء الحياة منافع
فأنت بها قبل الفراق منبئ بتأويل علم فيك منه بدائع

وراضح فى البيت الأخير إشارة إلى نبين هما موسى والخضر عليها السلام ، وقد كان للخضر دائماً مكانة خاصة لدى الصوفية ، ذلك أنه النبى والقبط والغوث كما يقولون وهو الذى سلك طريق الحقيقة ، وهو الذى ألهم بالنبوءات رغم أنه لم يؤت الشريعة كما أوتى موسى عليه السلام ، ففى حين يمثل موسى الشريعة يمثل الخضر الطريق الصوفى ، وهكذا أخذ الخضر على عاتقه أن يشرح لموسى مالم يؤت به علماً ، وقد أفاض ابن عربى فى هذا الموضوع ، كما نرى فى مؤلفه «الفصوص»^(٢) .

ويرى ابن عربى أن حب الإنسان لنفسه ولغيره من البشر إنما هو رمز للحب الإلهى ، فما أحب أحد فى الحقيقة سوى الله ، أما ليلى وسلمى وسعاد وهند فليست فى الواقع إلا صوراً ورموزاً عند الصوفية لحقيقة كبرى لا يمكن التعبير عن جمالها وجلالها إلا بهذه الرموز المحسوسة .

وقد ذهب كثير من المفسرين إلى القول بأن ديوان ابن عربى «ترجمان الأشواق» يكشف عن تجربة إنسانية ، وأنه إنما كان يستتر وراء التصوف ولكنه

(١) ديوان ابن الفارض . بشرح حسن البورينى وعبد الغنى التابلس ح ١ دار التراث بيروت ص ٢٤٧ وما بعدها .

(٢) Corbin , Creative Imagination in The sufism of Ibn Arabi , London 1969 - p. 53.

وضح رأيه بأنه إنما اتخذ أسلوب الغزل لأن النفوس تعشق هذا الأسلوب وهذا هو مغزى قوله :

فاصرف الخاطر من ظاهرها واطلب الباطن حتى تعلم^(١)

يتضح مما سبق كيف ذهب فيلسوف الصوفية إلى تمجيد قوة الخيال . وقد سار على نهجه كثير من شعراء الصوفية الذين لجأوا إلى استلهاهم الخيال ، وهم الذين كانوا من أهم مصادر إطلاق ملكة التعبير عند شعراء الإسلام ، خاصة بعد أن تجاوزت الحضارة الإسلامية مرحلة الخوف من الانطلاق فى الخيال الذى يبعد جمهور المسلمين عن العقيدة الصحيحة .

وأخيراً قد يتبادر لفكر الباحث هنا سؤال مؤداه : مادام الخيال المبدع قد ألهم شعراء الصوفية فى الإسلام فهل ثمة تمييز يمكن أن نميز به وعى الشاعر والفنان عن وعى الصوفى المثاله ؟ خاصة بعد ماتيينا أن كليهما يستلهم نفس المنبع منبع القدس والخيال الخلاق والرجوع إلى الذات والتعبير بالرمز والمجاز ؟ .

للإجابة على هذا السؤال يمكن لنا أن نقول : إن من الواضح أن القيم الجمالية عندما تختلط بالقيم الروحية فى التعبير الشعرى تتميز بأنها قيم مستقبلية مرتبطة بأهداف تتجاوز الحاضر فى حين يقتصر الإحساس بالقيم الجمالية فى الفن بالحاضر المباشر بحيث لا يشترط أن يكون التذوق الجمالى مرتبطاً بالضرورة بعالم غيبى ، كما لا يشترط أن يكون هذا التذوق أداة أو واسطة لتصورات وأهداف فى العالم الآخر ، أو يكون وسيلة إلى تحقيق قيم أخرى أخروية. إنه فى حد ذاته مطلب يستمد قيمته من ذاته .

ولكن هذا الفصل بين القيم الجمالية والقيم الروحية لم يكن ليتم فى إطار الحضارة الإسلامية حيث تأثر الإبداع الفنى والشعرى بروح التصوف الغالبة على

(١) د. محمود قاسم الخيال فى مذهب ابن عربى .

وعى الشاعر والفنان ، وكان لدين التوحيد الفضل الأكبر فى اتجاهات الرمز
والتجريد الذى يعبر عن اللانهائى وعن المطلق الإلهى .



عمر بن الفارض وحياته الصوفية من خلال قصيدته «التائية الكبرى»

الأب د. جوزيف سكاتولين*

مقدمة :

إن الأشعار الصوفية التي تركها لنا الشاعر الصوفي المصري عمر بن الفارض الذي توفي بالقاهرة سنة ٦٣٢ هجرية الموافقة سنة ١٢٣٥ ميلادية ظلت وماتزال مشكلة مضيئة لمن أراد فك طلاسمها وفهم معانيها .

ولقد اهتم بهذه المشكلة عدد وفير من الشراح المتقدمين والباحثين المتأخرين ولكن أحداً منهم لم يدع أنه كلل بالنجاح . فلا تزال أشعار ابن الفارض موضع النزاع المذهبي والجدال النظري . ولعله مما زاد المشكلة تعقيداً ضم ابن الفارض إلى مدرسة ابن العربي الصوفية وخلط معاني ومقاصد الشيخين حتى إن ابن الفارض لم

* أستاذ التصوف الإسلامي ، بالمعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية في روما ، ومعهد الدراسات اللاهوتية بالقاهرة .

يعد يفهم إلا من خلال الفلسفة الصوفية الأكبرية التي صبغت أشعار ابن الفارض بصيغة وحدة الوجود حتى يومنا هذا .

ولكننا نتساءل : هل ذلك المذهب فى فهم أشعار ابن الفارض منصف لمعاناته الصوفية؟ وهل ذلك المذهب أيضا هو الترجمان الأمين لمعانيه المقصودة؟

لقد أصبح هذا التساؤل نقطة انطلاق لبحثنا الذى أجريناه على قصيدته الشهيرة «التائية الكبرى» ولقد أجريناه على منهج دراسة تحليلية دلالية لألفاظ القصيدة إذ ربما يتاح لنا أن نستلهم من بين سطورها ما تحويه من معنى ونفسر بقدر الاستطاعة النص بالنص دون الالتجاء إلى مفاهيم غريبة وإدخال أفكار أجنبية فيها. وما سوف نقدمه لكم ليس إلا ملخصا لما أتيج لنا أن نتوصل إليه من نتائج خلال بحثنا فتمنى أن تفيد هذه الدراسة الباحثين فى أشعار ابن الفارض وترضى نتائجها محبيه وعشاقه .

١- الشاعر وسر حياته الصوفية :

إن عمر بن الفارض ليس مجهولا فى الأوساط الصوفية وغير الصوفية عربية كانت أم غير عربية ، فهو علم من أعلام التصوف الإسلامى . وقد لقب بـ «سلطان العاشقين» ، ذلك لأنه ارتقى فى الانتشاء والترنم بالعشق الإلهى إلى ذروة لا ينازعه فيها منازع . فهو الذى أثرى الأدب العربى بكرة شعرية نفيسة ألا وهى قصيدته «نظم السلوك» والمسماة أيضا بـ «التائية الكبرى» والتي وصفها المستشرق الإنجليزى العظيم رينولد نيكلسون بقوله : «كما لم يكن لها سابقة فإنه لم يكن لها لاحقة» (١) .

ولكن ، ورغم تلك الشهرة الفريدة وذلك الانتشار الواسع لأشعار ابن الفارض

فإن المصادر التاريخية لم تحمل إلينا الكثير من أخباره وسيرة حياته^(١).

فقد ولد أبو القاسم عمر بن الفارض الحموى الأصل والمصرى المنبت والمقام والوفاة في القاهرة في الرابع من ذى القعدة سنة ٥٦٧هـ / ١١٨١ م. ويتفق جميع من ترجموا له على أن اسمه «عمر»، وكنيته «أبو القاسم» أو «أبو حفص»، ونسبه يرجع إلى أنه ابن أبي الحسن على ابن المرشد بن على، ولقبه «شرف الدين».

ولقد عاصر ابن الفارض الأحداث المجيدة التي حققها آل أيوب أي «الأيوبيون» وقد ترعرع في أيام صعود القائد البطل الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى ذروة مجده. وعاش في ظل الملك الكامل في مصر، وتوفي قبل سقوط الدولة الأيوبية على أيدي المماليك بعدة سنين.

(١) من أهم المصادر التاريخية نذكر:

١- زكى الدين أبو محمد عبد العظيم عبد القوي المنلري (١٢٥٨/٦٥٦)، تكملة لوفيات النقلة، بغداد، ١٤٠٤/١٩٨٨: «ابن الفارض»، ج ٤ ص ٣٣٨-٣٨٩.

٢- شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر بن خلكان البركسي الإربلي الشافعي (١٢٨٢/٦٨١)، وفيات الأعيان، بيروت ١٩٨١: «ابن الفارض»، ج ٣ ص ٤٥٤-٥٥٤.

٣- جمال الدين بن حامد محمد بن على الحمودي المعروف بابن الصابوني (١٢٨٢/٦٨٠)، تكملة الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب، بغداد، ١٣٧٧/١٩٥٧: «ابن الفارض»، ص ٢٧٠-٢٧١.

٤- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الدمشقي الشافعي الذهبي (١٣٤٧/٧٤٨)، تاريخ الإسلام، بيروت، ١٤٠٨/١٩٨٨: «ابن الفارض»، ج ٥ ص ٩٢-٩٥ وجاء ذكر ابن الفارض في كتب أخرى للذهبي.

٥- على سبط ابن الفارض (١٣٣٥/٧٦٥)

دياجة الديوان، تحقيق د. عبد الخالق محمود عبد الخالق. ديوان ابن الفارض، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٩-٤٤.

٦- أبو محميد عبد الله بن سعد بن على بن سليمان اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، بيروت، ١٣٩٠/١٩٧٠: «ابن الفارض»، ج ٤ ص ٧٥-٧٩.

٧- شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلاني (١٤٤٨/٨٥٢)، لسان الميزان، حيدرآباد، ١٣٣١/١٩١٣: «ابن الفارض»، ج ٤ ص ٣١٧-٣١٨.

يذكر أن أباه علياً أبا الحسن قدم من حماه في بلاد الشام «ولذلك قيل الحموي الأصل» إلى مصر «ولا يذكر سبب هجرته هذه» حيث رزق بابنه عمر . وصار أبو الحسن يعمل بالفقه حتى أصبح فقيها شهيراً خاصة في إثبات ما فرضه الله للنساء من حقوق على الرجال وذلك في بلاط الحكام . فتولى نيابة الحكم وغلب عليه لقب «الفارض» فأنحدر هذا اللقب على ابنه عمر فلقب بـ «ابن الفارض» ثم سئل أبو الحسن أن يكون قاضياً للقضاة وهو أسمى منصب في الحكم لكنه فضل الانقطاع لله تعالى في قاعة الخطابة في الجامع الأزهر وظل كذلك حتى وافته منيته.

وإن دلت هذه الأخبار على شيء ، فإنما تدل على أن الحياة العلمية والصوفية لم تكن غريبة على أسرة ابن الفارض - فقد كان أبوه من أهل العلم والورع حتى إنه فضل الزهد والاعتكاف على الانغماس في الشهرة والجري وراء الجاه . وكان جده يحمل لقب «المرشد» مما يدل على أنه كان شيخاً معروفاً صاحب طريقة ومرشداً لمريديها . فليس غريباً إذن أن يكون أبوه أول من اعتنى بتربية ولده علماً وتقوى .

وما يذكره لنا علي سبط ابن الفارض أن الشاعر بدأ سياحته الصوفية مبكراً . فكان عمر يذهب إلى وادي المستضعفين بالمقطم وهو جبل شرقي القاهرة . ثم يعود من سياحته إلى أبيه الذي كان يلزم ابنه بالجلوس معه في مجالس الحكم ومدارس العلم^(١) . كما يذكر لنا معاصره المؤرخ زكي الدين عبد العظيم المنذرى في ترجمته له ، أن ابن الفارض تعلم الحديث على أيدي واحد من كبار المحدثين في عصره ، وهو العلامة الشافعي أبو محمد القاسم بن العساكر صاحب كتاب «تاريخ دمشق» . وهكذا انتمى ابن الفارض للمذهب الشافعي فلقب بالشافعي^(٢) .

ومن المؤكد أيضاً من المصادر التاريخية أن ابن الفارض جاور مكة المكرمة

(١) ديباجة، ص ٢٢-٢٣ .

(٢) المنذرى، تكملة، ص ٣٨٩ .

فترة من حياته وفقاً لما صارت عليه العادة عند الصوفية طالباً في رحابها الفيض الإلهي الذي لم يفيض ولم يفتح به عليه في ديار مصر^(١). فقد عاش هناك بين أودية مكة قرابة خمس عشرة سنة أي أنه ذهب إلى مكة سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م وهو في العقد الثالث من عمره ورجع من هناك سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م وهو في العقد الرابع، في قمة نضجه عمراً وروحاً.

ولقد قضى تلك الحقبة من الزمن سائحاً عابداً منعزلاً عن الناس إلى أن فتح له فتحقت أغلى أمانيه. ولنا في ذلك كله شاهد بين واضح في أشعاره حيث ترم بنشوة ذلك الفتح وبما كان يربطه بأماكن الحجاز من روابط الود والشوق. فأنشد في ذلك قائلاً:

«ياسميري روح بمكة روحى شاديا إن رغبت في إسعادى

كان فيها أنسى ومعراج قدسى ومقامى المقام والفتح بادى»^(٢)

وبعد رجوعه إلى مصر لم يعمر طويلاً حيث توفي بعد ذلك بأربع سنوات في يوم الثلاثاء الثاني من جمادى الأولى سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م. ودفن في اليوم التالي بالمدفن بسفح المقطم عند مجرى السيل تحت المسجد المعروف بالعارض وهو مقام على الجبل المذكور.

وأقام الشاعر في الحقبة الأخيرة من حياته بقاعة الخطابة في المسجد الأزهر - كما فعل والده من قبل - متعبداً معتكفاً ومنعزلاً عن الناس. ويذكر أنه رفض أكثر من مرة الهدايا والتكريم من جانب السلطان الملك الكامل الذي كان من أشد المعجبين به والمقدرين له أعظم تقدير^(٣). وفي تلك الحقبة أكمل الشيخ ديوانه

(١) دياجة ص ٢٢-٢٣.

(٢) دياجة ص ٢٣ وهما البيتان ٣٠، ٣٢ من الدالية، ديوان ص ١٨٤.

(٣) دياجة ص ٣٤-٣٦.

تدويناً وإملاء وهو عبارة عن مجموعة من عشرين قصيدة تقريباً مختلفة الأطوال
تحتوى على ١٦٤٤ بيتاً تقريباً^(١) .

ومن أبرزها قصيدة «نظم السلوك» وهى تحتوى على ٧٦١ بيتاً والتى تعرف
أيضاً بـ «العائية الكبرى» لأن قافيتها «التاء» وتميزاً لها عن تائية أخرى أقل منها
أبياتاً .

والجدير بالذكر أن ابن الفارض لم يترك لنا شيئاً آخر سوى ديوانه فلم نعثر له
على رسالة أو كتاب نستعين بهما لتوضيح مذهبه الصوفى . وهو يخالف فى ذلك
معاصره الشيخ الأكبر محى الدين بن العربى «٦٣٨هـ/١٢٤٠م» ، الذى ترك لنا
بحراً زائراً من المؤلفات فى شتى أنواعها . وهذا الأمر مما يجعل فهم ديوان ابن
الفارص مشكلة مضمّنة . وكأنه لم يجد صيغة أخرى ليعبر بها عما وسع قلبه من
أسرار وفتوحات صوفية . وبعد ما أودعها فى أشعاره انتقل إلى حبيبته الأعلى
حاملها معه سر حياته الصوفية وتاركاً لنا آثار سلوكه الصوفى لكى تقتدى به .
ولاشك أن من أصدق ما قيل عن ابن الفارض الأبيات التى كتبها سبطه على
ضريحه :

(١) ديوان ابن الفارض نقل كثيراً وله عدد ضخم من المخطوطات فى شتى مكتبات العالم لم يحصرها
حصر - نذكر من أهم طبعاته :

١- ديوان ابن الفارض ، تحقيق الشيخ عقيل الزويى ، (طبع حبر ، حلب «سوريا» سنة
١٢٥٧/١٨٤١) .

٢- جلاء الغامض فى شرح ديوان ابن الفارض ، تحقيق مع شرح لأمين الحورى ، بيروت ، ١٩١٠ .

٣- ديوان ابن الفارض ، تحقيق كرم البستانى ، بيروت ، ١٩٥٧ .

٤- Arthur John Arberry, The Mystical poems of Ibn al- farid, London, -1952.

وهو نشر أقدم مخطوطة للديوان توجد فى مجموعة تشيستر بيتى (Chester Beatty Colltion)
وهذه المخطوطة مختلفة شيئاً ما عن باقى المخطوطات المعروفة فى الشرق .

٥- ديوان ابن الفارض ، تحقيق وشرح لـ الدكتور عبد الخالق محمود عبد الخالق ، القاهرة ، ١٩٨٤ ،
وهذه هى آخر نشرة محققة عن الديوان إلا إنها تجهل تحقيق أربرى .

جز بالقرافة تحت ذيل العارض وقل : السلام عليك ، ياابن الفارض
أبرزت في نظم السلوك عجائبا وكشفت عن سر مصون غامض
وشربت من كأس المحبة والولا فرويت من بحر محيط فائض^(١)
ذلك هو سر الشاعر الصوفي المصون الغامض ، ولذلك حاولنا في بحثنا هذا
أن نلقى بعض الضوء عليه لكي نتعرف نحن أيضا من بحر المحبة والولاء الذي منه
ارتوى شاعرنا الصوفي عمر بن الفارض .

٢- دراسات وأبحاث حول شعر ابن الفارض :

ظل شعر ابن الفارض موضع الإعجاب والاهتمام عند الكثير من الباحثين عربا
كانوا أم عجماء في الشرق أو الغرب . فيجد الباحث نفسه أمام «مكتبة فارضية»
واسعة من الشروح والدراسات عبر القرون حتى يومنا هذا . مما لايسعه المقام هنا
لعرض مفصل لكل واحد منها . ولكننا نكتفى بالإشارة إلى أهمها وإلى أهم
القضايا والمسائل التي دارت حول شعر ابن الفارض .

أ- في الشرق :

حظى ديوان ابن الفارض بعناية الشراح كما لم يحظ أي ديوان آخر ، وقد
اعتنى الكثير من الشراح بتوضيح المعاني اللغوية والصوفية للديوان كله أو بعضه ،
وعدد قليل من تلك الشروح طبعت والكثير منها لاتزال مخطوطة .

وعلى سبيل المثال فإن من أهم الشروح نذكر :

- ١- شرح الثائية الكبرى لسعيد الدين الفرغاني (١٢٩٩هـ/١٢٩٩م) وعنوانه :
«منتهى المدارك»^(٢) .

(١) دياجة ، ص ٢٥ .

(٢) منتهى المدارك ، استانبول ، ١٢٣٢/١٨٧٦ ، جزآن .

٢- شرح التائية الكبرى لعبد الرازق بن أحمد الكاشاني (١٣٣٠هـ/١٣٣٠م)
وعنوانه : «كشف الوجوه الغر لمعاني نظم الدر»^(١) .

٣- شرح التائية الكبرى والميمية (الخمرية) لداود بن محمد القيصري
(١٣٥٠هـ/١٣٥٠م) (مخطوط).

٤- شرح الديوان لبدر الدين حسن البوريني (١٠٢٤هـ/١٦١٥م)^(١) .

٥- شرح الديوان لعبد الغني النابلسي (١١٤٣هـ/١٧٣١م) وعنوانه : «كشف
السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض» .

٦- شرح الديوان الذي جمعه رشيد غالب الدحداح اللبناني الذي نقل فيه
شرح البوريني برمته وأضاف إليه مقتطفات من شرح النابلسي فأضاف في أوله
ديباجة الديوان وفي آخره العينية والميمية وهذه كلها من وضع علي سبط ابن
الفارض^(١) .

٧- ومن الشروح الحديثة نذكر شرح أمين الخوري المسمى «جلاء الغامض في
شرح ديوان ابن الفارض» الذي طبع عدة مرات في بيروت آخرها عام ١٩١٠ .
وأخيراً ، تحقيق وشرح ديوان ابن الفارض للدكتور عبد الخالق محمود عبد الخالق
الذي طبع بالقاهرة سنة ١٩٨٤ م . إلا أن هذه الشروح المتأخرة لم تأت بجديد ، بل
هي في الأغلب تلخيص لما سبق من شروح .

وبجانب تلك الشروح نجد في الشرق بعض الدراسات عن ابن الفارض
وأهمها :

١- «ابن الفارض والحب الإلهي» وهي رسالة الدكتوراه للدكتور مصطفى

(١) طبع شرح رشيد الدحداح بمصريليه (فرنسا) سنة ١٢٦٩/١٨٥٣ . وأعيد طبعه عدة مرات ، ومن
أهمها تلك التي طبعت بالقاهرة (بولاق) ١٣١٥/١٨٩٢ وقد طبع على هامشها شرح عبد الرازق
الكاشاني (كشف الوجوه الغر...) .

محمد حلمى ، وهى دراسة كاملة أساسية لحياة ابن الفارض ومعاناته الصوفية .

٢- «شعر عمر بن الفارض ، دراسة فى فن الشعر الصوفي» للدكتور عاطف جودت نصر وهى لاتضيف كثيرا على دراسة الدكتور مصطفى حلمى (١) .

ب- فى الغرب :

وكما ظفر ديوان ابن الفارض بعناية الشراح والباحثين فى الشرق فقد حظى أيضا بانتشار واسع بين المستشرقين الغربيين .

فنجده بعض أشعار ابن الفارض من بين أوائل النصوص العربية التى ترجمت ونشرت فى الغرب على يد العالم الهولندى قابريسيوس (Fabricius) سنة ١٦٣٨م . وبعد ذلك نجد أن عددا من المستشرقين فى القرن الماضى قد حاولوا عمل الترجمات الأولى لأشعار ابن الفارض نذكر منهم المستشرق النمساوى هامر بورجستال (Hammer- Purgstall) الذى كان أول من قام بترجمة التائية الكبرى كلها إلى الألمانية سنة ١٨٥٤^(٢) إلا أن ترجمته كانت غير دقيقة وغير أمينة للنص الأصلى حتى علق عليها مستشرق آخر وهو العلامة الإنجليزى رينولد نيكولسون (Reynold Nicholson) بقوله : ينتظر ممن يقوم بترجمة نص أدبى أن يكون قد حاول فهم ذلك النص^(٣) وبالرغم من تلك المحاولات فإننا يمكن أن نقول : إن ابن الفارض لم يزل شبه مجهول عند الغربيين حتى بداية قرننا هذا .

وكان ممن جدد الاهتمام بالشاعر الصوفى المصرى المستشرق الإيطالى القس اجنازيو دى ماتيو (Ignazio Di Matteo) الذى قام بترجمة جديدة للتائية الكبرى

(١) مصطفى محمد حلمى ، ابن الفارض والحب الإلهى ، القاهرة ١٩٧١/١٩٤٥ . عاطف جودت نصر ،

شعر عمر بن الفارض ، دراسة فى الشعر الصوفى بيروت ١٩٨٢ .

(٢) Joseph Hammer- Purgstall, Die arabische Hohe Lied Libe. Wien, 1854.

(٣) Reynold A. Nicholson, Studies in Islamic Mysticism, London, 1922, pp.188-189.

إلى الإيطالية مع مقدمة هامة لفهم مذهب ابن الفارض الصوفي^(١) وكانت هذه الترجمة هي التي دفعت مستشرقاً إيطالياً آخر وهو كارلو نالينو (Carlo Nallino) إلى مضمار الجدل فانتقد ترجمة دى ماتيو وفهمه لشعر ابن الفارض الصوفي وقدم الكثير من الملاحظات المهمة حول ابن الفارض والتصوف الإسلامى^(٢) وإثر ذلك الجدل قام المستشرق الإنجليزى نيكلسون (Nicholson) بترجمة وشرح جزء كبير من الثائية الكبرى وصل إلى ثلاثة أرباعها وبعض القصائد الصغرى^(٣) وأخيراً قام مستشرق إنجليزى آخر واسمه ارثور جون اربرى (Arthur John Arberry) بتحقيق مخطوطة لديوان ابن الفارض التي ظلت مهملة فى مجموعة تشستير بيتى (Chester Beatty Collection) وأثبت أنها أقدم نسخة للديوان وأنها مختلفة شيئاً ما عن النسخ الأخرى المتداولة فى المشرق . ولاشك أن هذه إضافة ذات أهمية لما عرف عن الشاعر فقد نشرها اربرى مع شرح لغوى وصوفى مما يجعله العمل الأكمل فيما كتب عن الشاعر المصرى^(٤) .

والى جانب تلك الشروح والدراسات فهناك مجموعة من المقالات تناولت وجوهاً مختلفة من شعر ابن الفارض . نذكر منها ما كتبه المستشرق الفرنسى لوى غارده (Louis Gardet) الذى فسر ابن الفارض فى نور فلسفة وحدة الوجود^(٥) وما كتبه المستشرق الأمريكى إيسا بولاتا (Issa Boullata) عن سيرة حياة ابن

(١) Ignazio Di Matteo, Ibn al- Farid. Il gran poema misitico noto col nome di At- TA'yyah al- kubra. Roma, 1917 .

(٢) Carlo Nallino, (Il poema mistico di Ibn al - Farid) ibid., pp. 501- 562 .

(٣) R. A. Nicholson, Studies, pp. 162-266 .

(٤) A.J. Arberry, The Mystical Poems of Ibn al- Farid, London, 1952: id., (٤) id., The Poem of the Way London, 1952,

id ., The Mystical poems of Ibn al- Farid, Dublin, 1956.

(٥) Louis Gardet, Ibn al- Farid et l'unicite de l'etre", in Experiences mystiques en terres non- chrtiennes, Paris, 1953, 141- 148.

وقد كرر نفس الفكرة فى عدة مقالات أخرى .

الفارض انتقد فيها الكثير من الأخبار الموروثة محاولاً إثبات أصدق صورة معبرة له (١) .

ويلاحظ من قراءة تلك الشروح والدراسات أن هناك قضية أو مسألة أساسية تتعرض للنقاش والجدال وتتضارب الآراء حولها . هذه القضية هي قضية عامة في التصوف الإسلامى ، خاصة بعد الشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى وهى :

هل كان ابن الفارض من مدرسة ابن العربى التى تسمى مدرسة «وحدة الوجود»؟ والمفهوم من هذه العبارة أن وجود العبد يقنى فى ربه فى النهاية حتى إنه لا يعترف إلا بوجود واحد هو وجود ربه (٢) . أم هل كان ابن الفارض من مدرسة «وحدة الشهود» ؟ ويقصد بهذه العبارة أن وعى الصوفى يتلاشى فى مشاهدة أو شهود ربه حتى لا يتبقى له وعى شخصى فلا يرى إلا ربه بغير إنكار تميز وجوده عن وجود ربه .

ورداً على هذا التساؤل يمكننا أن نصنف شراح ودارسى «ابن الفارض إلى صنفين:

ففى الصنف الأول نجد الذين قرأوا أشعار ابن الفارض فى نور فلسفة ابن العربى الصوفية أى فلسفة وحدة الوجود . فما رأوا فرقا بين الاثنين إلا فى صبغة الكلام . فقالوا إن ديوان ابن الفارض ليس إلا صورة شعرية لفلسفة وحدة الوجود التى نجدتها على أتم صورتها فكراً وتعبيراً فى مؤلفات ابن العربى ، بل صدق بعضهم رواية قديمة جعلت ابن الفارض تلميذاً لابن العربى وإن كانت الدراسات الحديثة قد أثبتت بطلان هذا الادعاء ، ويمكننا أن نضم إلى هذا الصنف أغلب

Issa J. Boullata, "Toward a Biography of Ibn al- Farid, in Arabica, 28(1) (1981). 1 pp. 38-56.

(٢) والجدير بالذكر أن كثيراً من دارسى ابن العربى ، من مثل الدكتور عثمان يحيى ، لا يوافقون على هذا التفسير لفلسفة ابن العربى ويحاولون تبرئة الشيخ من هذه التهمة .

الشراح القدامى أمثال سعيد الدين الفرغانى وعبد الرازق الكاشانى وعبد الغنى
الناهلسى الذين ينتمون إلى مدرسة ابن العربى . أما من بين الدارسين المتأخرين فـ
اجناتويدى ماتيو ولوى غارده ود. عاطف جودت نصر .

أما بالنسبة للصنف الثانى فنجد فيه الذين رأوا أن الاتحاد أو الوحدة التى
يصفها ابن الفارض فى أشعاره ليست إلا وحدة الشهود لاغير . وهو صوفى شاعر
قد وصل إلى الفناء التام فى الذات العلية حتى صارت الموجودات منعدمة تماما فيما
عدا ربه ، وعباراته عبارات شاعرية ، لا تؤخذ مأخذ العبارات الفلسفية ، ويمكننا
أن نضم إلى هذا الصنف بعضا من المدافعين القدامى عن ابن الفارض مثل جلال
الدين السيوطى (٩١١هـ/١٥٠٥م) وبعضا من الدارسين المتأخرين أمثال نالينو
ونيكلسون واربرى والدكتور مصطفى حلمى والدكتور عبد الخالق محمود عبد
الخالق . لكننا لاحظنا أن هؤلاء المؤيدين لابن الفارض لا يستطيعون أن يشرحوا
معاناته الصوفية إلا بالالتجاء إلى عبارات توحى بوحدة الوجود . فتكثر فى
دراساتهم عبارات مثل : وجود واحد وذات واحدة وروح كلى ونفس كلية
...الخ. مما جعل المستشرق الإنجليزى نيكلسون يقول وهو يستبعد فكرة وحدة
الوجود عن ابن الفارض :

«هل كان ابن الفارض قائلا بوحدة الوجود؟ لأظن ولكنه فى حالة وحدة
دائمة متصلة يقال إنه قد وصل إليها لم يعد بإمكانه أن يتكلم بلغة غير لغة وحدة
الوجود» (١) .

وعلى كل حال لا يخفى مدى الالتباس والغموض فى أمثال هذه التعبيرات فقد
يتصف بها شعر ابن الفارض وهى لا تمت له بصلة .

وأخيرا نصل إلى أساس المشكلة حول شعر ابن الفارض .

أولا - فهناك صعوبة لغوية بالغة ، إذ إن شعر ابن الفارض ليس سهل المنال والفهم لأنه شاعر ماهر مبتكر ضليع فى صناعته ، وهى صناعة الشعر . ولقد قرأنا الكثير من الشكاوى فى هذا الصدد . والواقع أن الكثير من أبياته تبدو وكأنها ألفاظ تستعصى على كل شارح . فالفرغانى مثلا يقول عن البيت الخامس والخمسين من أبيات النائية الكبرى إنه يمكن قراءته على عشرين وجها من الإعراب وكلها صحيحة (١) .

ومما يزيد هذه المشكلة تعقيدا أننا - كما ذكرنا - لم نعثر على كتاب آخر لابن الفارض غير ديوانه . فلا نستطيع أن نستعين بأى شرح منه بصورة غير شعرية . وذلك خلافا لحالة معاصره ابن العربى الذى شرح فكره فى مؤلفات عديدة ، لذلك فنحن نفتقد الأخبار التى تدلنا أو ترشدنا إلى معرفة مصادر رؤية ابن الفارض الصوفية .

ثانيا - بجانب الصعوبة اللغوية فهناك مشكلة مدلولات الألفاظ التى عبر فيها الشاعر عن معاناته الصوفية مثل : اتحاد - وحدة - جمع - الخ . فماذا كان يعنى بها ؟ وقد اختلفت الآراء حولها عند من شرحوها .

وفى نهاية المطاف بين كل ما قيل وكتب ينتهى الباحث إلى عين نص الشعر الفارضى متسائلا : هل هناك من سبيل للوصول أو الاقتراب - إن صح القول - لما دار فى خاطر الشاعر عندما نظم تلك الأشعار؟ يبدو لنا أن هذه السبيل يجب أن تنهج أولا إلى الدراسة المدققة للنص عينه حتى يتوصل بها إلى شرح النص بالنص عينه قبل اللجوء إلى عبارات ومفاهيم غريبة أو أجنبية لأنها لن تزيده إلا تعقيدا .

إذن من الواجب علينا أن نستشعر أن هناك حاجة ماسة إلى توضيح النص ومعانى الفاظه ومفرداته أولا ، قبل أن نتناوله بالشرح أو التفسير .

(١) الفرغانى ، متهى المدارك ، ص ١٦٠ .

٣- منهج البحث : الطريقة الدلالية أو المنهج الدلالي :

إن من أهم مقتضيات كل بحث علمي تحديد هدفه والطريقة المثلى للوصول إليه وحين نرى أن الصعوبة في فهم أشعار ابن الفارض ترجع في الغالب إلى غموض مدلولات ألفاظها وعباراتها فإنه يجب علينا القيام بدراسة توضيح الدلالات لتلك الألفاظ والعبارات .

لذلك بدا لنا أن اتخاذنا الطريقة الدلالية أنسب وسيلة إلى هدف بحثنا . ومن المعروف أن المنهج الدلالي هدفه الأساسي توضيح معاني النص والفاظه وعباراته كما وردت في سياق النص عينه دون إدخال مفاهيم أجنبية فيه .

ويقوم المنهج الدلالي على مبدئين أساسيين لا بد من وضعهما في الاعتبار .

أ- المبدأ الأول هو المبدأ اللغوي الذي يقضى بضرورة التجاوب بين العناصر الثلاثة لكل كلمة لها معنى والتي تسمى «المثلث الدلالي» وهي :

١- الصوت الدلالي : مثل الخبز

٢- المعنى المقصود به : هو مفهوم الخبز

٣- الشيء المدلول عليه : الخبز في الحقيقة (الواقع)

ومن الواضح أنه لولا هذا المبدأ لانهارت إمكانية التكلم والتفاهم بلغة بشرية .

ب- أما المبدأ الثاني فهو مدى مصداقية الشاعر في تعبيره حتى يمكننا أن نتبين من خلال ألفاظه وعباراته المعاني المقصودة فنذكر ماخطر بذهنه إدراكا متصلا . وإذا كان هذا الشاعر دون هذه الدرجة من الصدق لظهر ذلك من خلال عمل تحليلي دقيق .

أما بحثنا فقد أثبت أن لغة ابن الفارض إنما هي لغة صادقة متماسكة مطردة إلى

الدرجة التي تجعلنا نشك في رواية سبطه على الذي كان يروى في ديباحتة أن جده كان يملئ ديوانه على فترات متقطعة بين تواجد وغيبة . إنما لغة القصيدة تبدو لغة مدروسة متماسكة من أولها لآخرها .

إذن فهذه بحثنا يكون واضحاً : أولاً ، إبراز بنية القصيدة وأجزائها الرئيسية التي تحدد مراحل رحلته الصوفية ، ثانياً ، القيام بتضويح معاني الألفاظ والعبارات الأساسية في إطار تلك البنية وأجزائها لأن الشاعر يعبر من خلالها عن معاناته الصوفية وكان الهدف الأقصى لهذا العمل قراءة النص بعين النص وشرح النص أيضاً بعين النص .

أما تطبيق المنهج الدلالي كما تصفه الكتب المتخصصة في هذا الموضوع^(١) فهو يتطلب المرور بالمراحل التالية :

١- تأليف قاموس للقصيدة كلها .

٢- تحديد المعاني الأساسية (Basic Meaning) بألفاظها واختيار الألفاظ الأكثر تكراراً وأهمية .

٣- تحديد المعنى العلاقي (Relational Meaning) لتلك الألفاظ وهو المعنى الذي يكتسبه كل لفظ في علاقته مع غيره من الألفاظ أى من العلاقة النصية .

٤- إبراز المجالات الدلالية الرئيسية (Semantic Fields) حيث تتجمع مجموعة من الألفاظ المرتبطة بعضها مع البعض مع إبراز اللفظ المركزي (Focus Word) في كل مجال دلالي وهو اللفظ الذي تنتظم حوله سائر ألفاظ المجال الدلالي .

٥- وأخيراً ، إبراز الكلمة المركزية (Focus Word) التي تقع في منطقة المركز في

Stephen Ullman, The Principles of Semantics Oxford, 1963, (1st ed. (١) 1951): id., Semantics. An Introduction the Science of Meaning Oxford, 1962.

Toshihiko Isutzu, God and Man in the Koran, Tokyo, 1964.

القصيدة كلها وهى الكلمة التى تستقطب المجالات الدلالية كلها وتوحيدها فى إطار واحد شامل .

وكل أملى من هذا البحث أن أقرب بقدر الإمكان من المعنى الأصلى لأشعار ابن الفارض ، أى المعنى الذى نستشفه فى النص عينه دون إدخال مفاهيم خارجية فيه ، ومن هنا يمكننا أن نفهم شيئا أكثر من معاناة ابن الفارض الصوفية .

٤- أهمّ النتائج لدراستنا الدلالية للتائية الكبرى :

إن النتائج التى توصلنا إليها من تطبيق هذا المنهج الدلالى على نص التائية الكبرى تلقى ضوءاً جديداً لفهم معاناة هذا الشاعر الصوفى ربما تفيد من يقوم بأبحاث جديدة فى هذا المجال . ويمكننا أن نلخص تلك النتائج فى النقاط التالية .

أ- النتيجة الأولى : بنية القصيدة :

ليس سهلاً تحديد بنية قصيدة التائية الكبرى وهى من أطول القصائد فى الأدب العربى ، فهى تتألف من ٧٦١ بيتاً ، ويبدو منذ الوهلة الأولى أن أبيات القصيدة يتبع بعضها بعضاً بغير نظام واضح . وكأن الشاعر يتنقل من صورة إلى أخرى ، فيستعمل ضمير المتكلم فالتخاطب فالغائب بغير رابطة واضحة . وقد حاول أكثر من باحث توضيح بنية القصيدة فأتوا بنتائج مختلفة متضاربة . نذكر على سبيل المثال منهم الشارح الكبير سعيد الدين الفرغانى وكذلك الدارسين المتأخرين مثل نالينو ونيكلسون واربرى . وما أخذ عليهم أنهم لم يحددوا أساساً واضحاً لتقسيمهم القصيدة فذهب كل منهم حسب رؤيته الخاصة .

أما من جانبنا فقد رأينا أن طبيعة هذه القصيدة إنما التعبير عن معاناة صوفية لذلك اتخذنا المبدأ التالى لتقسيمها .

نبحث أولاً عن المقاطع التى نجد فيها وصفاً لحالة الوحدة الصوفية فى أوسع

صورها . ثم ننظم باقى الأبيات التى تأتى قبلها أو بعدها كتمهيد لتلك الوحدة أو كنتيجة أو تفسير لها - وبما سهل لنا هذا العمل أن ابن الفارض يحدد مراحل معاناته الصوفية بتسميات واضحة هى :

١- الفرق : فى هذه المرحلة يصف الشاعر الصوفى حالة التفرقة والتميز بينه وبين حبيته .

٢- الاتحاد : وفى هذه المرحلة يصف الشاعر حالة الوحدة بينه وبين حبيته .

٣- الجمع : وفى هذه المرحلة يصف الشاعر حالة الوحدة والاندماج بين ذاته وكل الموجودات .

وعلى هذا المبدأ وجدنا أن القصيدة يمكن تقسيمها إلى عشر وحدات رئيسية . وكل وحدة منها تنقسم إلى عدة وحدات أخرى صغيرة . وتضحت صحة هذا التقسيم من نتائج باقى الدراسة لألفاظ القصيدة التى جاءت متفقة مع ذلك التقسيم الأول . كما لاحظنا أن تسلسل وحدات القصيدة ليس تسلسلا جامدا وإنما هو تسلسل حركى (ديناميكى) بين المراحل الثلاث من الفرق والاتحاد والجمع ، وهو أيضا حركة صعودية ومتسعة إلى أفاق أعلى وأوسع ، هكذا تتخذ معاناة الشاعر الصوفية سفر وهى صورة معروفة عند الصوفية ويبدأ هذا السفر من الفرق حتى ينتهى فى آخر مشواره إلى «بحار الجمع» كما يقول الشاعر :

وخفضت بحار الجمع ، بل غصبتها على انـ

فرداى فاستخرجت كل يتيمة^(١)

ومن قمة معاناته الصوفية تتضح خطة سفره الروحى على اختلاف مراحله ووحدة هدفه ، مالم يكن واضحا منذ البداية .

(١) ديوان ص ١٦٨ .

وبهذا التقسيم نكون قد حددنا المقاطع الأساسية فى سياق نص القصيدة مما
يساعدنا على دراسة الألفاظ ضمن سياقها الطبيعى .

ب- النتيجة الثانية : لغة الحب فى التائية الكبرى :

عرف ابن الفارض فى الأدب العربى الصوفى وغير الصوفى بـ «سلطان
العاشقين» حتى إن د. مصطفى حلمى قد أعطى عنوانا لكتابه عن ابن الفارض بـ
«ابن الفارض والحب الإلهى» . ويرى الكثير من الباحثين أنه شاعر الحب أو العشق
الإلهى ، إذن كان من الواجب علينا أن نبدأ دراستنا بتوضيح مكانة ومدى لغة
الحب فى قصيدته التائية الكبرى .

ولهذا الغرض اخترنا من قاموس القصيدة ثمانية عشر أصلا لغويا يشترك
جميعها فى معنى الحب . وأجرينا بحثنا كى نحدد مدى تكرار كل أصل بمشتقاته
وعلى قدر أهميته فى القصيدة . وقد انتهى بحثنا إلى إثبات أن هناك ثلاثة أصول
لها مركزية واضحة فى قاموس الحب فى القصيدة وهى :

١- الأصل (ح - ب - ب) ومنه مشتقات مثل حب ، محبة ، حبيب .. الخ.

٢- الأصل (هـ - و - ي) ومنه مشتقات مثل هوى ، أهواء ، هوى ،
يهوى .. الخ.

٣- الأصل (و - ل - ي) ومنه مشتقات مثل ولاء ، ولاية ، ولي .. الخ.

وعندما قارنا هذه الأصول الثلاثة وجدنا أن الأصل (و - ل - ي) هو الأوسع
معنى واستعمالا فى القصيدة وإن لم يكن الأكثر تكرارا ، والواقع أنه يستعمل فى
كل المراحل الثلاث للسفر الصوفى وله استعمال خاص فى المرحلة الأخيرة ، أى
الجمع .

أما الأصل (هـ - و - ي) فهو محصور فى مرحلة الفرق ، والأصل

(ح-ب-ب) يستعمل فى مرحلتى الفرق والاتحاد حيث يكتشف الشاعر أن حبه للحبيبة إنما هو حبه لذاته ، فيقول :

ومازلت إياها وإياى لم تزل ولا فرق بل ذاتى لذاتى أحب^(١)

وعندما سألتنا هل هناك دليل لهذا الاستعمال الخاص للأصل (و - ل - ي) وجدنا أن هذا الأصل يوحى بمعنى علاقة الولاء والولاية التى تنبثق من الميثاق الأزلى المسمى ميثاق الولاء وهو المشار إليه فى النص القرآنى .

﴿وإذ أخذ ربكم من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم: ألسنت بربكم؟ قالوا : بلى ! شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين﴾ (سورة الأعراف الآية ١٧٢) .

ومن المعروف أن لهذا النص القرآنى وقعا عميقا فى النظرة الصوفية منذ عهد شيخ الطائفة المشهور أبى القاسم الجنيد (٢٩٨هـ/٩٠٥م) . فقد رأى هو وغيره أن السفر الصوفى إنما يبدأ من الشهادة لذلك التوحيد فى الأزل حتى ينتهى بالرجوع إلى مشاهدته عبر كل حجاب يوم القيامة .

ويتفق ابن الفارض مع هذه النظرة إذ إنه يصف علاقة الولاء بأنها بدأت عند أخذ ميثاق الولاء فى الأزلية ، كما يقول :

منحت ولاها ، يوم لا يوم قبل أن بدت ، عند أخذ العهد ، فى أوليتى^(٢)

فظلت هذه العلاقة معه حتى رجع إلى كامل الوعى بها فى مرحلة الجمع فيقول:

فغنى بدا فى الذر فى السولا ولى لبان ثدى الجمع منى درت^(٣)

(١) ديوان ص ١١٤ .

(٢) ديوان ص ١٠٢ .

(٣) ديوان ص ١٤٤ .

إذن ففى مرحلة الجمع لا يتكلم ابن الفارض بلغة الحب والهوى ، إنما يتكلم بلغة الولاء . ويبدو أن الأصل (ح - ب - ب) يحتوى فى إدراك الشاعر على لون من الثنائية التى لا تليق بمرحلة الجمع ، فالحب يوحى دائما بحركة بين اثنين حتى فى مرحلة الاتحاد حيث يكتشف الشاعر أن حبه لحبيبته إنما هو حب ذاته لذاته ، حيث يقول «ذاتى لذاتى أحبت» .

ونتيجة لهذا البحث فى لغة الحب رأينا أن مرحلة الحب ليست قمة معاناة ابن الفارض الصوفية . وبدا ذلك واضحا فى أقوال الشاعر نفسه حيث يقول :

فتى الحب ! ها قد بنت عنه بحكم من يراه حجابا فالهوى دون ربتى
وجاوزت حد العشق ، فالحب كالقللى وعن شأو معراج إتحدى رحلتى^(١)
وواضح من هذه الأبيات أن الحب مع مرادفيه العشق والهوى حجاب للشاعر وإن وصل بهما إلى مرحلة الاتحاد ، إنما يقصد هو أفقا أعلى وأوسع من ذلك . وتقوده رحلته الروحية عبر كل حجاب حتى تغوص به فى بحار الجمع .

ج - النتيجة الثالثة : لغة المشاهدة والوحدة

يتضح لنا أن لغة الوحدة فى القصيدة لها أهمية أكبر من لغة الحب ، لذلك أجرينا البحث على الأصول الرئيسية التى تتعلق بمعنى الوحدة وقد اخترنا أربعة أصول تتقابل اثنين اثنين :

١- الأصل (و - ج - د) : ومنه مشتقات مثل وجود - وجد - وجد.. الخ .

٢- الأصل (ش - ه - د) : ومنه مشتقات مثل شهود - مشاهدة... الخ ..

٣- الأصل (و - ح - د) ومنه مشتقات مثل وحدة - اتحاد - توحيد.. الخ .

(١) ديوان ص ١١٨ .

٤- الأصل (ج - م - ع) ومنه مشتقات مثل جمع ، مجموع ، جمع...الخ.
وقد توصلنا خلال دراسة هذه الأصول إلى بعض النتائج توضح لغة ابن
الفارض .

نبدأ بتوضيح معنى اللفظين المتقابلين «وجود» و «شهود» .

إن لفظ وجود لا يرد في القصيدة محتويا على المعنى الفلسفى الميتافيزيقى الذى
هو للفظ الغربى المقابل مثل (Being , etre ...etc) ونلاحظ أنه قد شرح أو ترجم
بهذا المعنى عند الكثير من الشراح والباحثين .

كما لاحظنا أولا أن لفظ «وجود» يحفظ فى القصيدة معناه الأصلى «من
وجد، يجده» بمعنى «عثر على الشيء» وثانيا أن لفظ «الوجود» يدل فى القصيدة
على الأشياء المدركة إدراكا نسبيا ناقصا متعلقا دائما بوعى الثنائية والكثرة والحس.
لذلك يقول الشاعر إنه لا بد من تجاوز هذه المرحلة الناقصة حتى يصل إلى الإدراك
الكامل للحقيقة فى شهود وحدتها ، ومثال ذلك قوله :

أروح بفقد بالشهود مؤلفى وأغدو بوجد بالوجود مشتى^(١)

وعاد وجودى فى فنا ثنوية الـ وجود شهودا فى بقا أحدية^(٢)

ومن الواضح هنا أن إدراكه بالوجود مرتبط بالتشيت والكثرة ، أما فى حالة
الشهود فيرى الحقيقة الموحدة (تأليف - أحدية) وراء كثرة المظاهر وتلونها ، لذلك
نرى أن أصل الشهود هنا (ش - ه - د) يأتى فى ارتباط وثيق بأصلى الإتحاد (و -
ح - د) والجمع (ج - م - ع) ، كما يأتى أصل (و - ج - د) مرتبطا بالتشيت
والكثرة .

(١) ديوان ص ١١٢ .

(٢) ديوان ص ١٤٢ .

هكذا يؤدي بنا هذا البحث إلى أن العبارة الشهيرة وهي «وحدة الوجود» تتناقض مع لغة ابن الفارض. فعلياً أن نقول إن لغته توحى «بوحدة الشهود» أو في الشهود و«بكثرة الوجود أو في الوجود». ونعتقد أن مثل هذا التوضيح اللغوي قد يفسر الكثير من الجدل حول مسألة «وحدة الوجود» في شعر ابن الفارض.

وعلى نفس المنهج تناولنا دراسة مدى فهمنا للغة الوحدة في مشتقات أصل (و - ح - د) فقد لاحظنا بوضوح أن الاتحاد - وهذا لفظ أساسي في قاموس أشعار ابن الفارض - أنه يدل على ثاني المراحل الصوفية عنده وهي مرحلة الاندماج في حبيته في وحدة تامة.

وفي هذا الاتحاد يكتشف الشاعر ذاته الأعظم من خلال عملية قد نسميها «الضرورة الذاتية» (to become oneself) وهي ظاهرة بوضوح في تسلسل بعض عباراته المتكررة في القصيدة وهي :

أنا إياها - هي إياي - أنا إياي

وفي هذه المرحلة يدخل الشاعر في حالة السكر والنشوة إذ لا يرى في الحقيقة إلا حبيته ، وأخيراً لا يرى إلا ذاته ، فيترنم الشاعر في هذه الحالة عن غرائب المحبين في مثال قوله :

وأطلبها مني ، وعندى لم تزل عجبت لها بي كيف عنى استجنت (١)
إلى أن ينتهي بقوله :

أشهدتنى إياي إذ لاسواي في شهودى موجود فيقضى بزحمة (٢)

لكن ابن الفارض ، كما قلنا ، لا يقف عند هذه المرحلة ، فعليه أن يرتفع إلى

(١) ديوان ص ١٤٥ .

(٢) ديوان ص ١٤٧ .

آفاق الجمع ، إذ إن الاتحاد فى لغته يعنى الوحدة المجردة عن الكثرة ، حيث إنه لا يرى سوى ذاته - أما الجمع فيعنى الوحدة مع الكثرة «والأنا» مع الكل . وفى هذه المرحلة يكتشف الشاعر الأبعاد الحقيقية لذاته عبر حدود الزمان والمكان ، كما ستعرض لذلك فيما بعد ، وقد لاحظنا فى نهاية هذا الجزء من بحثنا أن هناك تجاوزا دائما وارتباطا وثيقا بين ثلاثة أصول من القاموس الفارضى هى :

- ١- (و - ل - ي) وهو الأصل الأساسى فى مجال الحب .
- ٢- (ش - ه - د) وهو الأصل الأساسى فى مجال الإدراك .
- ٣- (ج - م - ع) وهو الأصل الأساسى فى مجال الوحدة .

والواقع أن مشتقات تلك الأصول تأتى بصفة دائما فى نفس السياق النصى مما يوحي أن الرابط بينها مناسبة دلالية قوية ، وإذا شئنا عن أساس هذه المناسبة الدلالية وجدناه فى ارتباط تلك الأصول الثلاثة بميثاق الولاء الأزلى المشار إليه من قبل ، فيقول الشاعر فى هذا الصدد :

وليس «ألست» أمس غيرا لمن غدا وجنحى غدا صبحى ويومى ليلتى
وسر بلى ! لله مرآة كشفه وإثبات معنى الجمع نفس المعية^(١)

فنحن نرى إذن أن لغة ابن الفارض تعبر عن حياته الصوفية التى تنبع من ذلك الميثاق الأزلى وإليه يرجع . ويتضح كذلك أن لغته تركز فى قمة معاناته الصوفية على المشتقات من تلك الأصول الثلاثة (و - ل - ي) و (ش - ه - د) و (ج - م - ع) .

ونعتبر أن إثبات هذا التوافق الدلالي بين تلك الأصول ومدلولاتها من نتائج بحثنا الأكثر أهمية وعونا للباحثين .

(١) ديوان ص ١٤٢ .

د- النتيجة الرابعة : الألفاظ المحورية «نفس وذات وروح»

لاحظنا أيضا بعد إبراز المجالات الرئيسية في القصيدة أن تلك المجالات تركز على عدة ألفاظ ذات أهمية كبرى فيها ، وكأنها المحاور التي تدور حولها شتى المجالات الدلالية . ولهذا السبب سميناهم الألفاظ المحورية وهي «نفس وذات وروح» وقد لاحظنا سابقا أن تلك الألفاظ وردت في تفسير الشراح والدارسين محملة بمعان فلسفية مستمدة في الغالب من لغة ابن العربي أو من الفلسفة الأفلاطونية . فكان هؤلاء الدارسون يقولون بالنفس الكلية والذات الإلهية والروح الكلى . الخ فأصبح لزاما علينا أن نخصص لها بحثا دقيقا .

وأول ما لاحظناه أن لفظي «نفس وذات» يأتيان في الغالب في موقع التوكيد للضمير المتكلم «أنا» . وكثيرا ما يأتيان مضافين إليه مثل : نفسى وذاتى . وتقابلهما في نفس المعنى ألفاظ (Self , memeetc) في اللغات الغربية . ويمكن في هذا الموضع استبدالهما بالضمير «أنا» في كل مراحله من الفرق والاتحاد والجمع ، إذ ليس لهما معنى مستقل عن الضمير «أنا» . ومع ذلك لاحظنا أن لفظ «نفس» يأتي في بعض المواضع بمعنى شبه أفلاطوني حيث يشير هذا اللفظ إلى الصفات الحسية في الكون . وحيث يكون مرتبطا بلفظ «صورة» ، مثل قوله :

وذا مظهر للنفس حاد لرققها وجودا عدا في صيغة صورية^(١)

وفي السياق عينه يأتي لفظ روح مرتبطا بلفظ «معنى» مشيرا إلى القوى الروحية في الإنسان ، فيقول :

فذا مظهر للروح هاد لأققها شهودا غدا في صورة معنوية^(٢)

ويقول أيضا في نفس السياق اللغوي :

(١) ديوان ص ١٣٠ .

(٢) ديوان ص ١٢٩ .

فبالنفس أنشباح الوجود تنعمت وبالروح أرواح الشهود تهنت^(١)

ويلاحظ هنا الارتباط الدلالى بين النفس والوجود والصورة (الأنشباح) ، والروح والشهود ، والمعنى .

لكننا رأينا أنه ليس من الضرورة أن نرجع هذا التقابل بين (نفس وروح) إلى الفلسفة الأفلاطونية . إذ إنه أقدم منها وهو مرسوم فى اللغات السامية عامة ، ونجد مثال ذلك التقابل فى الكتاب المقدس فى لفظى «نفس» و «روح» باللغة العبرية ، فالأول يشير إلى الإنسان كجسد فان والثانى إلى الحياة الباقية الآتية من عند الله .

والواقع أن لفظ «روح» فى القصيدة لا يستعمل كاسم تركيد لـ «أنا» فلا يأتى مستبدلاً منه فى مراحل الثلاث . وذلك بعكس استعمال لفظى «نفس وذات» لأن الروح يشير إلى القوى الروحية فحسب من مجموعة قوى الـ «أنا» .

فإذا كان لفظ روح يشير إلى مجموعة الصفات الروحية فى «الأنا» المقابلة للصفات الحسية فيه فإنه يستعمل أيضا بمعنى دينى خاص فى لغة الوحى للأنبياء وكرامات الأولياء .

ونتيجة لهذا البحث فقد وجدنا أن قاموس ابن الفارض لا يتيح مكانا لمفاهيم أخرى مثل : النفس الكلية والذات الإلهية والروح الكلية الخ . إذ إن تلك الألفاظ «نفس وذات وروح» تأتى بارتباط وثيق بالضمير «أنا» إما كأسماء تركيد له أو كصفات محددة فيه .

وقد رأينا أن هذا التوضيح اللغوى ربما يزيل الكثير من الغموض الذى ظل مخيما على أشعار الشاعر الصوفى المصرى رغم كل الشروح والدراسات .

وهكذا فقد انتهى بنا هذا المطاف الدلالى فى قاموس الشاعر إلى إبراز لفظ

(١) ديوان ص ١٣٠ .

مركزى لكل المجالات الدلالية وألفاظها وهو لفظ كان يستقطب أكثر فأكثر تلك المجالات والألفاظ التى هي موضوع دراستنا وتحليلنا .

وقد فرض ذلك اللفظ نفسه بنفسه على بحثنا وهو بدون شك ضمير المتكلم «أنا» الذى برز كالمركز المحورى لنسيج التائية الكبرى كلها . ورأينا للفظ «أنا» فى التائية الكبرى مايناسبه فى قول الباحث اليابانى توشيهيكو ايزوتسو (Toshihiko Isutzu) فى دراسته الدلالية للنص القرآنى حيث يقول : «إن لفظ الجلالة (الله) هو اللفظ المركزى فى النص القرآنى كله» (١) .

كذلك بدا لنا أن لفظ «أنا» هو اللفظ المركزى للتائية الكبرى كلها . وقد اتضح لنا على ضوء هذا الاكتشاف أن مقصد هذه القصيدة والغاية الكبرى لها هو رحلة الشاعر لاكتشاف وتحقيق «ذاته» أو «الأنا» خلال مراحل مختلفة ومنظمة . وعلى أثر ذلك الاكتشاف بادرنّا بدراسة «الأنا» فى التائية الكبرى .

ر - النتيجة الخامسة : الله «أنا» فى التائية الكبرى :

إن اللفظ «أنا» هو اللفظ المركزى للقصيدة كلها ، وهو أيضا اللفظ المركزى لكل مراحل القصيدة من الفرق والاتحاد والجمع .

١- فى مرحلة الفرق :

فى هذه المرحلة الأولى يبدو «الأنا» فى صورة المحب الذى يتفانى فى حب حبيبته حتى لا يبقى له أثر كما تقول له حبيبته :

فلم تهونى مالم تكن فى فانيما ولم تفن مالا تجتلى فيك صورتى (٢)

وفى هذه المرحلة الأولى يبدو «الأنا» أيضا فى صورة الشيخ المحقق المرشد

(١) Toshiko Isutzu, God and Man in the Coran Tokyo, Tokyo, 1964, P.15.

(٢) ديوان ص ٩٥ .

للمريد في السبيل الذي سلكه هو من قبل ، ولكنه على الوعي في أن حبيبته هي المرشدة الحقيقية كما يقول :

وظلت بها لا بى ، إليها أدل من به ضل عن سبل الهدى وهى دلت (١)
٢- في مرحلة الاتحاد :

تتلاشى كل الفروق في هذه المرحلة لأن الشاعر يفنى عن صفاته الفردية فناء تاما يسمى في الاصطلاح الصوفى فناء الفناء - حتى لا يبقى له بقاء إلا في صفات حبيبته .

وهكذا يكتشف الشاعر ذاته وهويته ، فيصف هذه الصيرورة الذاتية على ثلاث مقابلات :

أنا إياها - هى إياى - أنا إياى

ويقول :

ففى الصبحو بعد الخو لم أك غيرها وذاتى بذاتى إذ تجلت تحلت (٢)
وأیضا :

ومن «أنا إياها» إلى حيث لا إلى عرجت وعطرت الوجود برجعتي

وعن «أنا إياى» لباطن حكمة وظاهر أحكام أقمت لدعوتي (٣)

وإزاء هذا الاكتشاف المذهل تستولى على الشاعر حال السكر والنشوة ، كما يقول :

(١) ديوان ص ١٠٤ .

(٢) ديوان ص ١١٠ .

(٣) ديوان ص ١٢١ .

ذهلت بها عنى بحيث ظننتنى سواء ولم أقصد سواء مظنتنى (١)
وأيضاً :

فأصبحت فيها والها لاهيا بها ومن ولعت شغلا بها عنه ألهمت (١)
إلى أن ينتهى بقوله :

وأشهدتنى إياى إذ لاسواى فى شهودى موجود فيقضى برحمة (٢)
٣- فى مرحلة الجمع :

لقد قلنا إن رحلة الشاعر لانتتهى عند مرحلة الاتحاد ، إنما ترتفع به إلى آفاق
الجمع أو تغوص به فى بحار الجمع ، كما يقول :
وخضت بحار الجمع ، بل غصتها على انـ

فرادى فاستخرجت كل يتيمة (٣)

والواقع أن الشاعر وصل إلى الكشف الجلى لحقيقة «ذاته» أو «الأنـ» فى عمق
بحار الجمع ، ومن قمة هذه المرحلة نستطيع أن نلقى نظرة موحدة للرحلة الصوفية
التي يصفها لنا الشاعر فى أشعاره معبرا عن أبعاد «ذاته» أو ما قد نسميه «الأنـ
الجمعي» (the all- comprehensive self) كما يلي :

أ - يثبت الشاعر حضور ذاته فى الأزلية عند أخذ ميثاق الولاء حيث كان
الجمع تاما بين المخاطب (ألسـ) والمخاطب (بلي) بغير فصل أو فرق .

ب - يكشف الشاعر ذاته كمصدر الفيض والإمداد على الكون كله بصفاته

(١) ديوان ص ١٤٤ .

(٢) ديوان ص ١٤٧ .

(٣) ديوان ص ١٦٨ .

وأفعاله ، وظهر ذلك واضحا خاصة فى صور الحب والجمال حيث يكتشف أنه هو الفاعل فى الكل : فهو المحب والمحبوب فى آن واحد . وكذلك هو الفاعل فى تاريخ الأنبياء والأولياء كالقطب الأسمى . وقد شبه هذه الوحدة الفعلية بلعب خيال الظل (الآيات ٦٧٩ - ٧٠٢) حيث يقول :

وكل الذى شاهده فعل واحد بمفرده لكن بحجب الأكنة
إذا ما زال الستر لم تر غيره ولم يبق بالأشكال إشكال ريبة
كذاك كنت ما بينى وبينى مسبلا حجاب التباس النفس فى نور ظلمة
لتظهر بالتدرج للحس مؤنسا لها فى ابتداعى ، مرة بعد مرة^(١)
إذن ، فإن المظاهر الكونية ليست فى وعى الشاعر إلا أشكالا وصورا تلبس فيها «الأنا» أى ذات الشاعر الصوفى لكى يظهر ذاته لذاته تدريجيا عبر الزمان والمكان .

ج - وأخيرا يكتشف الشاعر حقيقته وراء كل تلك الأشكال والصور والمظاهر فى جمع فعلى أو فعل جمعى يمتد من أقصى الكون إلى أقصاه ، فيقول :
وعدت بإمدادى على كل عالم على حسب الأفعال فى كل مدة
ولولا احتجابى بالصفات لأحرقت مظاهر ذاتى من سناء سجيتى^(٢)
وفى بحار ذلك الجمع الفعلى والفاعل فى كل شئ ومن عمق الاندماج الكامل فيه لا يتردد الشاعر الصوفى فى أن يترنم بقوله :
ولولاي لم يوجد وجود ولم يكن شهود ، ولم تعهد عهد بذمة

(١) ديوان ص ١٦٧ .

(٢) ديوان ص ١٦٨ .

فلا حتى إلا عن حياتي حياته وطوع مرادى كل نفس مريدة
ولا قائل إلا بقولي محدث ولاناظر إلا بناظر مقلتي (١)
ويشرح معنى ذلك الجمع الفعلى فى الآيات التالية :

وفى عالم التركيب فى كل صورة ظهرت بمعنى عنه بالحسن زينت
وفى كل معنى لم تبته مظاهرى تصورت لافى هيئة صورية (٢)
ويرى الشاعر أن فى أعماق هذا الأنا الجمعى تتألف وتتعانق كل المظاهر التى
تبدو متافرة متناقضة فى عين وعينا السطحى . فيقول :

شهودى بعين الجمع كل مخالف ولى ائتلاف ، صده كالمودة (٣)
لكننا نلاحظ أن حقيقة هذا «الأنا الجمعى» ليس لها تعريف واضح بين فى نص
القصيدة . إنما يصفها الشاعر بصور مختلفة وتشبيهات متلونة تعبر عما يشعر به
هو من مشاعر وأخطار فيها .

وذلك مما يجعلنا نشك فى محاولات ترجمة لغة ابن الفارض الشعرية إلى لغة
فلسفية كما يؤخذ ذلك على دراستى د. مصطفى حلمى ود. عاطف نصر فى أكثر
من موضع . ونجد فى كل القصيدة تسميتين فقط لحقيقة «الأنا الجمعى» وعليهما
أيضا يخيم الكثير من الغموض . فالشاعر ينسب تسمية «القطب» فى البيتين
التاليين:

فى دارت الأفلاك فاعجب لقطبها الـ محيط بها والقطب مركز نقطة
ولا قطب قبلى عن ثلاث خلفته وقطبية الأوتاد عن بدليتى (٤)

-
- (١) ديوان ص ١٦٢ .
(٢) ديوان ص ١٦٢ .
(٣) ديوان ص ١٢٨ .
(٤) ديوان ص ١٤٣ .

فهو يقول إنه القطب الذى هو محيط بالكل ومركز للكل ، وإن قطبيته قطبية مطلقة لم تأت عبر الدرجات المعروفة من الأوتاد والأبدال . ولجدهنا إشارة واضحة إلى نظرية القطب المعروفة فى الأوساط الصوفية منذ عهد الحكيم الترمذى (٢٩٥هـ/٨٩٨م) ، صاحب كتاب «خاتم الأولياء» إلا أن ابن الفارض يدعى هنا قطبية مطلقة لاصلة لها بتواتر الطرق الصوفية المعروفة . ولايسع المجال هنا لشرح موضوع القطبية لاصلة لها بتواتر الطرق الصوفية المعروفة . ولايسع المجال هنا لشرح موضوع القطبية الواسع المعقد . إلا أن التسمية الأخرى يمكن أن تلقى بعض الضوء على التسمية الأولى . فيقول الشاعر فى آخر القصيدة :

ولى من مفيض الجمع عند سلامه على بـ «أو أدنى» إشارة نسبة
ومن نوره مشكاة ذاتى أشرقت على فنارت بى عشائى كضحتى
فأشهدنى كونى هناك فكنته فشاهدته إياى ، والنور
بهجتى (١)

وفى هذا الأبيات إشارة إلى مقام «أو أدنى» الذى ينسب عند الصوفية إلى الحقيقة المحمدية . ويقول الشاعر الصوفى إن تلك الحقيقة النورية «مفيض الجمع» ومنبعه الأول لذاته . وكذلك يقول إنه اندمج فى هذا النور الأصلى الأول إندماجا تاما «شاهدته إياى» فأصبح هو بذاته هذا النور «النور بهجتى» . ولاشك أن الشاعر كشف فى هذه الأبيات عن بعض السر الغامض الذى كان يخيم على أشعاره ومعاناته الصوفية . إنه يشير إلى أن «الأنما الجمعي» الذى توصل إليه مصدره الأول ومرجعه الأخير هو ذلك النور الأول الأصلى الذى يعرف عند الصوفية «بالنور المحمدى» . ويقال إنه النور الذى به خلق الله كل شئ وفيه أنار تاريخ الأنبياء والأولياء . كذلك نلاحظ أن الشاعر لم يقف على شرح نظرية تلك الحقيقة

(١) ديوان ص ١٧١ ، نفضل القراءة «شاهدته» على «أشهدته» لتوضيح المعنى .

العليا ولاشغل نفسه بالفلسف حولها كما فعل بعده شراحه ودارسوه .

وأخيرا فإنه يمكننا أن نلخص سفرنا الدلالى فى الثانية الكبرى فى إثبات أن هذه القصيدة تبدو ترجمة ذاتية عن اكتشاف وتحقيق ذات الشاعر ، «الأنا» ، إلى أبعد درجاته وهو «الأنا الجمعى» . واتضح كذلك أن هذا «الأنا الجمعى» إنما تحقق للشاعر بالاندماج الكلى فى النور الأول الأسمى المعروف عند الصوفية بالنور المحمدى .

وقد تبين لنا من خلال دراستنا الدلالية التحليلية لنص قصيدة ابن الفارض «الثانية الكبرى» الفرق اللغوى بين ألفاظ ابن الفارض ومدلولاتها الشعرية وألفاظ ابن العربى ومدلولاتها النظرية الفلسفية .

فنحن لانتقد أن ابن الفارض كان تلميذا لابن العربى أو تأثر به تأثرا مباشرا، ولكن أرجح احتمال عندنا أن كليهما استلهما أفكارهما من تراث صوفى سابق مشترك ومنتشر فى الأوساط الصوفية فى القرن السابع الهجرى المقابل للقرن الثالث عشر الميلادى ، إلا أن كليهما صوغا ذلك التراث حسب معاناتهما الشخصية وأسلوبهما الخاص . فبنى ابن العربى صرحا ضخما من الأفكار والتأملات الفلسفية الصوفية فى حين نظم ابن الفارض قصيدة فريدة نسج فيها بين عمق المعاناة الصوفية وروعة الأداء الفنى .

وختاما لبخشنا هذا فإننا نعتقد أن التسمية التقليدية لابن الفارض كسلطان العاشقين لا تعبر عن كل عمق معاناته الصوفية وأبعادها . إنما ابن الفارض فى رأينا شاعر «الأنا الجمعى» الذى يجد حقيقة ذاته فى الاندماج فى الحقيقة العليا وهى فى الاصطلاح الصوفى «النور المحمدى» . فليس وصف الحب والجمال إلا جزءا محدودا ومرحلة عابرة فى سفر ابن الفارض الصوفى الذى يهدف إلى بحار الجمع وآفاق النور الأعلى . فربما تساعد هذه الدراسة الدلالية - كما نعتقد - على مراجعة

بعض الأحكام الموروثة على أشعار ابن الفارض ومعناها الصوفى . وربما تدخر لنا الأيام من يتقدم بدراسات أخرى توضح ماخفى علينا من أسرار هذا الشاعر المصرى العظيم .

خاتمة البحث :

وأملى بعد هذا الجهد أن أكون قد حققت الهدف الأول من بحثى هذا وهو توضيح مدلولات الألفاظ الأساسية ومعانيها كما ترد فى القصيدة «التائية الكبرى» عبر المراحل الثلاث لرحلة ابن الفارض الروحية ، وأن أكون بذلك قد ساهمت مساهمة فعالة فى فهم معاناته الصوفية .

لكنى أود أن أثير هنا فى آخر هذا المطاف الدلالى إلى أن المعانى الصوفية لا تتأتى من خلال بحث علمى بحث حتى وإن كان له دور لاغنى عنه . ذلك لأن المعاناة الصوفية يعيشها الصوفى فى عمق لاتعبر عنه الكلمة الملفوظة .

وقد أشار ابن الفارض إلى ذلك السر ، حيث يقول :

فألسن من يدعى بألسن عارف وإن عبرت كل العبارات كلت^(١)

والواقع أن الدراسات الصوفية تتطلب الكثير من الصفاء الروحى والنقاء النفسى حتى يتجانس الباحث مع الشاعر الصوفى فيدرك مقاصده البعيدة بلذوق مرهف لطيف .

يقول ابن الفارض محذرا من يقرأه :

وعنى بالتلويح يفهم ذائق غنى عن التصريح للمتعمق^(٢)

وهنا أرى لزاما على أن أتوقف لكى لا أكون من المتعنتين .

(١) ديوان ص ١٠٧ .

(٢) ديوان ص ١٢٩ .

إخوان الصفا وخلان الوفا

أ. سعيد زايد*

هدية إلى روح المرحوم الأستاذ الدكتور محمود قاسم،
ذكرى سنين عديدة قضيناها معا في لجنة الفلسفة
بمجمع اللغة العربية لتأليف المعجم الفلسفي .

أولا :

في باب الحمامة المطوقة من كتاب كلىة ودمنة ، ذكر أن دبشليم الملك قال
لبىبا الفيلسوف : (حدثنى - إن رأيت - عن إخوان الصفاء كيف يتدئ تواصلهم
ويستمتع بعضهم ببعض) فقال الفيلسوف : (إن العاقل لا يعدل بالإخوان شيئا) ولما
كان كتاب كلىة ودمنة من الكتب التى شاعت أيام ظهور جماعة إخوان الصفاء ،
فإن المستشرق جولد زيهى قد رجح أن اسم إخوان الصفاء قد نقل من هذا الكتاب ،
نظرا إلى ما جاء فى باب الحمامة المطوقة من الحديث عن الغيرية والتضحية اللازمين
للسداقة الخالصة . ولقد ذهب غير جولدزيهى من الباحثين إلى التماس أصل آخر

* المدير العام الأسبق لمجمع اللغة العربية بالقاهرة .

للتسمية ، فقال قوم إن الصفاء مقتبس من التصوف الذى غايته صفاء النفس ونقاء القلب ، وقال آخرون إنه آت من العشرة الصافية والصدقة النقية . وأيا ما كان الأمر فإن إخوان الصفا وخلان الوفا - كما كان يحلو لهم تسمية أنفسهم بإسقاط الهمزة من الصفاء والوفاء - أصدقاء أوفياء أصفياء ، توادوا وتحابوا ، أقبلوا على العلم وتعاونوا فيه ، ورأوا أن صداقتهم قرابة رحم ، يضحى أحدهم بنفسه فى سبيل إخوانه ، مثله مثل الحمامة المطوقة تطلب إلى الجرذ أن يقطع ثبائك صديقاتها قبل شبكتها وتقدم نجاتهن على نجاتها . قيل فى رسائلهم : (صداقة إخوان الصفاء ، فإن صداقتهم قرابة رحم ، ورحمهم أن يعيش بعضهم لبعض ويرث بعضهم بعضاً ، وذلك أنهم يرون ويعتقدون أنهم نفس واحدة فى أجساد متفرقة ، فكيف ماتنغيرت حال الأجساد بحقيقتها فالنفس لا تتغير ولا تبدل) (١) .

ظهر إخوان الصفاء أول مظهروا فى البصرة ، وكان ظهورهم أيام دولة بنى بويه . وما لاشك فيه أن جماعتهم قد تكونت قبل قيام هذه الدولة ، ولكنهم لزموا التكتّم فلم يُسمع بهم ولا برسائلهم قبل عام ٣٣٤ هـ . وهو عام انتصار الدولة البويهية واستيلائها على ملك بغداد . ومن البصرة تفرق إخوان الصفاء فى مختلف البلدان حيث كان لهم دعاة ومجالس . وقد أنكروا ذاتهم ، فلم يعلنوا عن أسمائهم ، وإن عرف منهم زيد بن رفاعه ، وأبو سليمان بن معشر البستى المقدسى ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجاني ، وأبو أحمد المهرجاني ، والعوفى - كما ذكر أبو حيان التوحيدى فى كتابه «المقابسات» - أو العوقى - كما ذكر ظهير الدين البيهقى فى كتابه «تاريخ حكماء الإسلام» . وكيفما كان الأمر فلن يفيد الباحث فى شىء معرفة أسمائهم إلا إذا أراد فرز آرائهم ونسبة كل رأى إلى صاحبه . ومادام من الصعب تحقيق هذا الأمر فإن محاولة معرفة الأسماء جهد لا طائل تحته .

(١) الرسائل ، ٤ ، ص ١١١ .

ومن الطبيعي أن تكون لإخوان الصفاء غاية ، بل غايات ، من تأليف جماعتهم ، فنحن نعرف - من جهة - أن فلسفتهم تضعهم فى عداد الشيعة الإسماعيلية ، وهذه فرقة سياسية عنيفة قامت بحركات كثيرة وحاولت مراراً قلب نظام الحكم والاستيلاء على الخلافة ، فهل انتعظ الإخوان بالفضل الذى أصاب هذه الحركات فأثروا أن يهيئوا لانقلابهم بدعوة فكرية فربما تسنح فرصة ليشبوا وثبتهم ويقبضون على أزمة الأمور ؟ ونعرف من جهة أخرى أن الإخوان قد ذكروا أنهم يريدون صلاح الدين والدنيا والسير وراء الحكمة والاقتداء بالحكماء والأخذ بجميع العلوم الطبيعية كانت أو رياضية أو إلهية ، ولكنهم - حسب قولهم - يذكرون رموزاً وإشارات يجب التنبيه لما تنطوى عليه . فما السبب لهذا ؟ هل لهم غاية سياسية يخفونها كالوصول إلى الحكم أو القضاء على الدولة القائمة ؟ لست أدري لماذا يقول بعض المؤرخين هذا القول ولم يعرف عن إخوان الصفاء أنهم سلكوا سبيلاً إلى هذه الغاية . إن قلب نظام الحكم لم تكن غاية لإخوان الصفاء ، فقد نشأوا وانقرضوا فى عهد دولة كانت تعطف عليهم ، هى الدولة البويهية ونحن نرى أنه لو كانت هناك غاية سياسية لإخوان الصفاء فإنها تكون غاية الإصلاح على المدى الطويل ، فقد دعوا إلى تفهم جديد للدين ، أى تفسيره بالفلسفة والعلوم الطبيعية ، وهذا فى رأيهم يعد إصلاحاً له ، فمن صلح دينه صلحت دنياه . وكيف تكون غايتهم قلب نظام الحكم وغايتهم القصوى هى الحياة التى وراء هذه الحياة الدنيا ، أى الحياة الحقيقية للنفس العاقلة الخالدة ؟ إن جل اهتمامهم هو إصلاح النفس وتركيز الروح ، ولقد دعاهم نهمهم إلى أن لا يقفوا - فى ذلك - عند عقيدة واحدة ، بل دعوا إلى الأخذ من كل دين وعلم وفلسفة ومذهب ما اعتقدوا أنه جميل مفيد . فخوفهم من الحكام - وإن كانوا يصرحون بعدم الخوف - هو الذى جعلهم يفرقون فى التخفى والأخذ بالرموز فى فلسفتهم ، وهذا مادعا بعض الباحثين إلى التماس غرض آخر من هذه الرموز ، فالمثل الأعلى عندهم للإنسان هو

إنسان عالمى نشأ فى فارس وتدين بالإسلام واعتنق المذهب الحنفى وعشق أدب العراق ، وصار عبرانيا فى مخبره ، مسيحيا فى منهجه ، شاميا فى نسكه ، يونانيا فى علمه ، هنديا فى بصيرته ، صوفيا فى سيرته ، ملكيا فى خلقه ، ربانيا فى رأيه ، إلهيا فى معارفه .

وللانخراط فى سلك الجماعة وضع إخوان الصفاء منهجا . فهم يفضلون الشباب على الشيوخ لأنهم لم يتلوثوا بعد بما فى المجتمع من أدران ، وما زالت نفوسهم مهيأة لتقبل الدعوات الجديدة ، ومن الممكن تنشئتهم على المبادئ التى تلائم الجماعة لأن جوهرهم مازال صافيا . ولقد اختلفت طرق اتصالهم بالناس تبعا لأعمارهم ومراكزهم الاجتماعية ، فإذا كان من يدعونه صغيرا دعوه إلى حفلة عامة هو وأتراب له من سنه كى يجذبوا إلى جماعتهم أكبر عدد ممكن . فإذا تعدى من يدعونه للانضمام سن العشرين أرسلوا له رجلا من طبقة وأهل صناعته يعاشره مدة من الزمن من غير أن يشعره بغرضه ويساعده فى أزماته المادية والنفسية ، وبعد أن يعمق بينهما التآلف يعرض عليه الانضمام مبينا له أهداف الجماعة . وإذا كان لمن يدعونه مركز فى المجتمع آت من غنى أو جاه أو علم أرسلوا له رجلا يتناسب مع مركزه يستميله بحسن المعاملة ورقة الحديث وصفاء الصداقة ، فإذا أنس عنده استعدادا للانضمام إلى الجماعة فاتحه فى ذلك . ولم يقبل إخوان الصفاء دخول الكهول فى جماعتهم ، إذ من العسير أن يستمالوا إلى رأى جديد بعد أن مردت نفوسهم على سلوك معين فى الحياة ، ولا المرأة ، فليس لها عندهم قيمة تذكر ، فما خلقها الله إلا لاستمرار النسل فى الأرض أو لتكون زوجا لمن لا يستطيع التعفف .

وإخوان الصفاء أربع طبقات تبعا لأربع مراتب هى : مرتبة الإخوان الأبرار الرحماء ، وهم من أتموا خمس عشرة سنة من العمر فتنبهت فيهم القوة العاقلة المميزة لمعانى المحسوسات الواردة على «القوة الناطقة» وتقابل مرتبتهم أرباب ذوى الصنایع فى المدينة . ثم مرتبة الإخوان الأخيار الفضلاء وهم الذين بلغوا ثلاثين

سنة، وقد تنبّهت فيهم «القوة الحكيمة الواردة على القوة العاقلة» ويتميزون بمراعاة الإخوان وسخاء النفس وإعطاء الفيض والشفقة والرحمة والتحنن على الإخوان، ومرتبهم هي سرّبة الرؤساء ذوى السياسات. ثم مرتبة الإخوان الفضلاء الكرام، وهم من بلغوا الأربعين سنة، وهم من يعرفون النواميس ويدنون العقائد ويوضحون المناهج ويدافعون عن الحقائق ويعملون على نشرها وعلى بث الدعوة. وهذه المرتبة تقابل «مرتبة الملوك ذوى السلطان والأمر والنهي والنصر والقيام بدفع العناء والخلاف عند ظهور المعاند المخالف لهذا الأمر بالرفق واللطف والمداواة فى إصلاحه» وأخيرا مرتبة يمكن تسميتها بمرتبة الكمال، وهي مرتبة من بلغوا خمسين سنة، وهي المرتبة المقصودة من جميع رياضات النفس وهي «المساهدة للمعاد والمفارقة للهوى وعلوها تنزل قوة المعراج وبها تصعد إلى ملكوت السماء فتشاهد أحوال القيامة من البعث والنشر والحشر والحساب والميزان والجواز على الصراط والنجاة من النيران ومجاورة الرحمن ذى الجلال والإكرام».

وقد اعتمد إخوان الصفاء فى بث دعوتهم على دعاة من نوع خاص، فليس كل عضو منهم مهياً لنشر الدعوة وجذب أعضاء جدد إليها، بل يدرب الداعى تدريجاً خاصاً على الدعاية مبنياً على دراسة نفسية الجماهير، ويختلف الدعاة بعضهم عن بعض، فمن يدعو العامة من أبناء التجار والصناع يختلف عن يدعو أبناء الأدباء والفقهاء وحملّة الدين، ويختلف هؤلاء عن يدعو أبناء الملوك والأمراء والوزراء، وهكذا دواليك، فلكل مقام كلام. ولكل طبقة من طبقات المجتمع داع يناسبها. ولقد بدأت دعايتهم أول ما بدأت بالاتصال الشخصى، فلما زاد عددهم استعملوا الرسائل فى دعايتهم أيضاً.

ثانياً:

أما عن رسائلهم فقد ألف إخوان الصفاء إحدى وخمسين رسالة ضمونها - على حد قولهم - فنون العلم وغرائب الحكم وطرائف الآداب وحقائق المعانى. هذا

عدا رسالة تعد فهرسا لهذه الرسائل ، ورسالة أخرى سميت الرسالة الجامعة وهي تعد تلخيصا لما جاء فى الرسائل الإحدى والخمسين ، فبذلك تصبح الرسائل ثلاثا وخمسين رسالة . قالوا : «هذه اثنتان وخمسون رسالة ، ورسالة فى تهذيب النفوس وإصلاح الأخلاق» (١) .

وما الرسالة المسماة «جامعة الجامعة» التى حققها الأستاذ عارف تامر (رسالة جامعة الجامعة ، بيروت ، دار النشر للجامعيين سنة ١٩٥٩ م) . إلا فصول قصيرة مختصرة من الرسالة الجامعة ، وفى دراستنا لهذه الرسائل نعتمد على طبعة المطبعة التجارية بالقاهرة ، وقد صدرت سنة ١٩٢٨ ، وهى طبعة نجدها أحيانا فى أربعة مجلدات وأحيانا أخرى فى مجلدين كبيرين من القطع الكبير . وهذه الطبعة لم يبين فيها المخطوطات التى اعتمد عليها ، وأغلب الظن أنها اعتمدت على مخطوط واحد ، إذ لا يوجد فى هوامشها ما يفيد غير ذلك ، ولا تحتوى هذه الطبعة إلا على الرسائل الإحدى والخمسين والرسالة التى تعد فهرسا لها ، أما الرسالة الجامعة ، وهى التى قال عنها إخوان الصفاء أنها «منتهى الغرض وأقصى المدى ونهاية القصد وغاية المراد» ، فقد نشرت فى دمشق عام ١٩٤٩ ، نشرها الجمع العلمى بدمشق بتحقيق الدكتور جميل صليبا فى مجلدين كبيرين ، ومن يقرأ عنوانها يظنها للحكيم الجريطى ، واسمه بالكامل مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله الجريطى القرطبي الأندلسى ، ولكن سرعان ما يزول هذا الظن عندما يقرأ مقدمة المحقق ، فقد أثبت فيها بما لا يقبل الشك أنها ليست من تأليف الجريطى ، وماهى إلا الرسالة الجامعة التى أشار إليها إخوان الصفاء مرارا فى رسائلهم . فمن ناحية لاتشير أغلب المخطوطات إلى نسبتها للجريطى ، ومن ناحية ثانية يشبه أسلوبها أسلوب رسائل إخوان الصفاء ، ويختلف عن أسلوب الجريطى فى كتابته «رتبة الحكيم» وغاية

(١) الرسائل ، ج ١ ، ص ١٩ .

الحكيم ، زد على ذلك تطابق أبوابها مع أبواب رسائل إخوان الصفاء واتفاقها فى العدد وفى أغلب خطب الفصول ، وكثيرا ما ترد الرسالة الجامعة القارئ إلى رسائل إخوان الصفاء ، وكثيرا أيضا ماتطلب رسائل إخوان الصفاء من القارئ أن يرجع إلى الرسالة الجامعة .

وجدير بالذكر أن المرحوم العلامة أحمد زكى باشا فى مقدمته لرسائل إخوان الصفاء ، طبعة القاهرة التى أشرنا إليها ، قد لاحظ أن طبعة رسائل إخوان الصفاء التى صدرت فى الهند قد ذكرت أن مؤلف الرسائل هو أحمد بن عبد الله ، وقد أنكر ذلك ، كما أنكره الأستاذ عمر الدسوقي فى كتابه «إخوان الصفاء» (عمر الدسوقي ، إخوان الصفاء ، مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية ، ص ٦٣ ، القاهرة سنة ١٩٤٧) .

ولكن إنكار الأول قائم على إنكار شخص المؤلف بتاتا ، أما إنكار الثانى فقائم على تحقيق علمى انتهى منه إلى أن سبب ذكر اسم مؤلف للرسائل هو أن الإمام أحمد بن عبد الله من أئمة آل البيت ، وأن الشيعة الإسماعيلية مجمعون على أن الرسائل من تأليف أحد الأئمة ، فنسبوها إليه .

ورسائل إخوان الصفاء تنقسم إلى أربعة أقسام من الناحية العلمية هى :

أولا : الرسائل الرياضية التعليمية وتبحث فى العدد ، والهندسة ، والنجوم ، والموسيقى ، والجغرافية ، والنسب العددية أى الصلات الروحية بين الأعداد ، والصنائع العملية والغرض منها ، وبيان اختلاف الأخلاق وأنواع عملها ، وإيساغوجى أو المدخل ، والمقولات العشر ، والعبارة ، والقياس ، والبرهان .

ثانيا : الرسائل الجسمانية الطبيعية وتبحث فى الهيمولى والصورة والحركة والزمان والمكان ، والسماء والعالم ، والكون والفساد ، والآثار العلوية ، وتكوين المعادن ، وماهى الطبيعة ، وأجناس النبات ، وكيفية تكوين الحيوانات وأصنافها ،

وتركيب الجسد ، والحاس والمحسوس ، ومسقط النطفة ، وقولة الحكماء : إن الإنسان عالم صغير ، وكيفية نشوء الأنفس الجزئية فى الأجساد البشرية الطبيعية ، وطاقة الإنسان فى المعارف ومبلغه من العلوم ، وحكمة الموت ، والحياة ، واللذات والآلام ، وعلل اختلاف اللغات .

ثالثا : الرسائل النفسانية العقلية وتبحث فى مبادئ الموجودات العقلية على رأى الفيثاغوريين ، والمبادئ العقلية على رأى إخوان الصفاء ، والعالم إنسان كبير ؛ والعقل والمقول ، والأدوار والأكوار ، وماهية العشق ، والبعث والقيامة ، وأجناس الحركات والعلل والمعلولات ، والحدود والرسوم .

رابعا : الرسائل الناموسية الإلهية والشرعية الدينية ، وتبحث فى الآراء والديانات والطريق إلى الله عز وجل ، وبيان اعتقاد إخوان الصفاء ، وماهية الإيمان وخصال المؤمنين المحققين ، وماهية الناموس الإلهى وشرائط النبوة ، وكيفية الدعوة إلى الله ، وكيفية أحوال الروحانيين ، وأنواع السياسات وكميتها ، وصورة العالم ، والسحر والعزائم .

ورسائل إخوان الصفاء تتفاوت طولا وقصرا ، وتنسم بعدم العمق فى بحثها ، ولا غرو فى ذلك فقد كتب أكثرها للمبتدئين ومن يريدون تفهم مذهبهم بسهولة . ويرجع عدم عمقها أيضا إلى التحفظ الذى راعاه إخوان الصفاء فى كتابتها ، ولقد لاحظ القفطى هذه الحقيقة ، فقال عن الرسائل : «هى مقالات مشوقات غير مستقصاة ولا ظاهرة الأدلة والاحتجاج ، وكأنها للتنبيه والإيحاء إلى المقصود الذى يحصل عليه الطالب لنوع من أنواع الحكمة...» وقال عنها أبو حيان التوحيدي : «هى من كل فن بلا إشباع ولاكفاية...» وما لنا نذهب بعيدا وأصحابها يقرون على أنفسهم بهذه الحقيقة ، فهم يقولون : «واعلم يا أخى أيذك الله ، إنما نذكر فى كل علم شبه المقدمة والمدخل إلى ما فيه ليكون تحريضا لإخواننا على التميز فيه

والشوق إليه ، لأن بالشوق إلى الشيء يكون الحرص على الاطلاع عليه ، ويقولون أيضا «اعلم يا أحمى إنما نورد من العلوم فى كتبنا ورسائلنا ما يكون تركية للقوى وتبنيها للنفس» ، فأخذنا من كل علم بقدر ما اتسع له الإمكان وأوجبه الزمان ، وقد اجتهدنا أن يكون ذلك من أحسن ما قدرنا عليه ووصلنا إليه . ولذلك وضعناه وأثبتناه وأوردناه لإخواننا ، أيدهم الله وإيانا ورضينا لهم ما رضينا لأنفسنا وأيا ما كان الأمر فإن رسائل إخوان الصفاء تعد صورة للحياة العقلية فى القرن الرابع الهجرى ، وهى أول مجلد ضخم بين دفتيه جميع أقسام الفلسفة ، وهى أخيرا محاولة لتثقيف العامة علميا وفلسفيا .

ثالثا - فلسفتهم :

والمهم أن نذكر أن فلسفة إخوان الصفاء تعد اقتباسا من كل المذاهب ، حسبما ردودوا هم أنفسهم مرارا فى رسائلهم . وهى قائمة على التوفيق بل التلفيق ، فقد جمعوا فيها بين ما جاءت به الأديان وما جاء على لسان الحكماء وما أنتجته قرائح الفلاسفة والعلماء ، وأضافوا إلى ذلك أيضا بعض الشعوذات. وإذا كان من العسير أن نضع لفلسفتهم صورة شاملة متسقة - كما قال دى بور (دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، ص ١٠٢ ، القاهرة سنة ١٩٣٨) - فإننا سنحاول أن نوضح باختصار آراءهم فى العلم والرياضة والمنطق ، ثم نتوسع بعض الشيء فى فلسفتهم الميتافيزيقية والأخلاقية .

فالعالم عندهم صورة المعلوم فى نفس العالم ، فالعالم تعلم نفسه بالفعل ، أما المتعلم فنفسه تعلم بالقوة ، والتعلم والتعليم هو إخراج ما هو ممكن إلى الوجود . قالوا : «إن التعلم والتعليم ليسا شيئا سوى إخراج مافى القوة يعنى الإمكان إلى الفعل يعنى الوجود ، فإذا نسب ذلك إلى العالم سمي تعليما وإن نسب إلى المتعلم سمي تعلما»^(١) وكذلك الصناعة تكون بأن يخرج الصانع الصورة التى فى فكره،

(١) الرسائل ، ح ١ ، ص ١٩٨ .

فالعلم موجود فى النفس ويظهر بالفعل بفضل المعلم .

ويرى إخوان الصفاء أن المعلم الأول اكتسب علمه بالروية والفكر بعد مشاهدة مصنوعات الطبيعة كما يقول الفلاسفة ، ومن طريق الروحى كما يقول المتكلمون ، بعد الاتصال بالنفس الكلية ومعرفة النفس لذاتها هى أفضل أنواع المعرفة وبالزهد تستطيع النفس أن ترتقى فى مدارج معرفة الله معرفة بريئة من الشوائب .

والرياضيات عند إخوان الصفاء لاتسير دراستهم لها على أساس علمى بحث ، بل فيها من الخيال الشئ الكثير ، فهم قد تجاوزوا البحث فى العدد من حيث هو إلى البحث فى خصائصه ، فلم يعبروا عن الأشياء تعبيراً رياضياً ، بل يعملون الأشياء بما يتفق مع نظام الأعداد . فالغاية من الحساب والهندسة ليست ، إلا إرشاد النفوس والارتقاء بالمعرفة من المحسوسات إلى المعقولات . فإذا نظرنا بالحساب والهندسة إلى الكواكب والنجوم ، فالغرض من هذا هو معرفة أثرها فى الكون وجلبها السعادة والنحس للكائنات ، فالمشتري والزهرة والشمس تجرى بالسعد وزحل والمريخ والقمر تجرى بالنحس ، وفى عطارد تمتزج السعادة والنحوسة معا . قالوا : «فصل فى ذكر الكواكب السيارة ، فنقول : اثنان منها نيران وهما الشمس والقمر واثنان منها سعدان وهما المشتري والزهرة واثنان منها نحسان وهما زحل والمريخ، وواحد ممتزج وهو عطارد وعقدتان وهما الرأس والذنب»^(١) هكذا إلى آخر هذه الخيالات الجامحة .

ويحتل المنطق عند إخوان الصفا ، مكاناً وسطاً بين الطبيعيات والإلهيات ، وأقسامه عندهم هى المدخل أو إيساغوجى والمقولات والعبارة والقياس والبرهان ، ويتقصر على ذلك ولايسير حتى نهاية الفروع كالجدل والسفسطة والخطابة والشعر ، كما بدت عند أرسطو وبحثها فلاسفة الإسلام كالفارابى وابن سينا ،

(١) الرسائل ، ج ١ ص ٨٢ .

ولقد أضاف إخوان الصفاء لفظاً سادساً إلى الكليات الخمسة التي قال بها فورفوريوس الصوري هو لفظ «الشخص» ، فأصبحت الكليات عندهم ستة هي : الشخص والنوع والجنس والفصل والخاصة والعرض ، وتدل الثلاثة الأولى على الأعيان أو الموصوفات وتدل الثلاثة الثانية على المعاني أو الصفات .

رابعاً : الميافيزيقا والأخلاق :

قلنا إن إخوان الصفاء اهتموا بدراسة العدد ، ولقد بلغ بهم هذا الاهتمام إلى درجة أن صددروا به رسائلهم ، ولئن استطعنا أن نقول إن فلسفتهم قائمة على عناصر أرسططاليسية وأفلاطونية وأفلوطينية ، فإن الأساس الأول لهذه الفلسفة هو الفلسفة الفيثاغورية ، فيثاغورس هو معلمهم الأكبر وهو خزانة الحكمة ، ولئن صرحوا هم مراراً بأن مذهبهم قائم على النظر في جميع علوم الموجودات التي في العالم وكيفية صدورها عن علة واحدة ومبدأ واحد ، فإن شاهدتهم الأول في ذلك هو الحساب والهندسة قالوا : «علم العدد جذر العلوم وعنصر الحكمة ومبدأ المعارف وأسطقس المعاني (والغرض من الهندسة) هو التهدي للنفوس من المحسوسات إلى المعقولات ، ومن الجسمانيات إلى الروحانيات ، ومن ذوات الهياولى إلى المجردات» (١) .

فالكون أشبه بعالم الأعداد تعيش في نسق موسيقى . فنسبة بارئ الكون إلى الموجودات كنسبة الواحد إلى العدد والعقل والنفوس والهياولى كالإثنين والثلاثة والأربعة .

وإذا كان العدد أساساً لفلسفة إخوان الصفاء ، ورقم الواحد لا يستطيع أحد تجاهله في علم العدد ؛ فإن الله أو الواحد الحق لا يستطيع أحد نكرانه ، وإلا فسد

(١) الرسائل ، ج ١ ، ص ١ .

نظام الكون . فالواحد أسبق من الاثنين ، والاثنان تتضمن الوحدة ، إذ الواحد متقدم على الاثنين . وعن الله تفيض كل الموجودات ، فهو المبدع لجميع الكيفيات والمظهر لصور الكائنات والموجود في كل شيء من غير مخالطة ومع كل شيء من غير ممازجة ، مثله مثل الواحد في كل عدد ، وهو القائل : كن ، فيكون . قالوا : «إعلم أيها الأخ أن صفات الله تعالى التي لا يشاركه فيها أحد من خلقه ، ومعرفة التي لا يعرف بها إلا هو ، أنه مبدع مخترع ، خالق ، مكون ، قادر ، عليم ، حى ، موجود ، قديم ، فاعل»^(١) وجود الله معروف بالبديهة ولا يحتاج إلى برهان إذ كل ما في الوجود يخبر بوجوده . وهو منزّه عن الجسمية ليس له شبيه في الخلق ، وكل ما ينسب إليه من صفات إنما هو من قبيل إرضاء العامة من الجهال . وعلم الله تعالى من ذاته ، وهو عالم بالأشياء وماهياتها وهو قادر على الإبداع والخلق عن طريق الفيض .

ونظرية الفيض عند إخوان الصفاء مزيج من نظرتي أفلاطون وأفلوطين ومن الفلسفة الفيثاغورية في العدد . ويدخل فيها أيضا بعض نظرات من الفلسفة الطبيعية التي تقول بالعناصر الأربعة ومن فلسفة أرسطو القائلة بالهيوولى والصورة . ويسير الفيض عندهم في تسع درجات وفقا للأرقام التسعة . فالله أو الموجود الأول قديم قائم بنفسه حكيم ، قادر ، عليم ، ومنه يصدر الفيض . وأول موجود يصدر منه هو العقل الفعال وهو جوهر بسيط أنشأه الله كما أنشأ الاثنين من الواحد بالتكرار ، وأودع فيه جميع صور الموجودات حتى تفيض منه تلك الموجودات . ومن هذا العقل الفعال أو العقل الأول أو العقل الكلى كما يسمى أحيانا ، تفيض النفس الكلية ، وهى العلة المنفصلة للعقل الفعال ، وهى التى تحرك العالم وتشكله وتصوره . ويفيض من النفس الكلية الجسم الكلى أى جملة الوجود المادى ، ويفيض منها

(١) الرسائل ، ح ٤ ، ص ٢٥٢ .

أيضا الهيولى الأولى وهى على حد قول إخوان الصفاء جوهر بسيط روحانى يقبل من النفس الصور والأشكال بالزمان شيئا فشيئا ، إذ أن فيه استعداداً لأن يتخذ كل صورة من صور المصنوعات الإلهية الأولى كالماء والتراب والرخام وأشباهاها . ولما كانت أول صورة قبلتها الهيولى الأولى هى الطول والعرض والعمق فيفيض بذلك الجسم المطلق أو الهيولى الثانية وهنا يقف فيض العقل الفعال وأثره فى الفيوضات التالية لأنها ناقصة فى الرتبة عن الجواهر الروحانية ويفيض بعد ذلك الجسم الكلى المطلق ثم الفلك ، ثم العناصر الأربعة ، ثم الأجسام الجزئية العامة .

والنفس عند إخوان الصفاء جوهر روحانى بسيط عالم بالقوة فعال بالطبع ، وهى تبقى بعد مفارقة البدن فى نعيم أو شقاء حسب عملها فى الحياة ، والنفس الجزئية أى نفس الفرد الواحد هى إحدى القوى المنبعثة من النفس الكلية ، ولكنها ليست منفصلة عنها ولاهى إياها بعينها . لقد كانت النفس فى العالم الروحانى فى المثل الأعلى ناعمة بإقبالها على العقل الفعال تقبل منه الفيض والفضائل والخيرات ، وبعد أن ملأتها الفضائل فاضت هى من فضائلها على الهيولى ، وهذه جنات آدم عليه السلام فأنزل الله عقابه بها فأخرجها من المثل الأعلى وفرض عليها أن تتصل بالأجسام السفلية وتفارق الأجرام العلوية ، فاتصل بعضها بجوهر المعادن واتصل بعضها الآخر بجوهر النبات واتصل البعض الثالث بجوهر الحيوان الذى أفضله الإنسان . فالنفس عند إخوان الصفاء من مثالات النفس الكلية ، سبقت الجسد فى الوجود ونزلت من عالمها العلوى فى الجسد نتيجة نسيان أو خطيئة فخرج آدم عليه السلام من الجنة رمز إلى معصية هذه الأنفس الكلية ، قالوا : «... ثم اعلم أن الأمور الإلهية هى الصور المجردة من الهيولى وهى جواهر باقية خالدة لا يعرض لها الفساد والآفات كما يعرض للأمور الجسمانية ، واعلم أن نفسك هى إحدى تلك الصور ، فاجتهد فى معرفتها لعلك تخلصها من بحر الهيولى وهاوية الأجسام

وأسر الطبيعة التى وقعنا فيها بجناية كانت من أيننا آدم عليه السلام^(١) أما المعصية التى ترتكبها النفس الجزئية فتأتى من عدم إكمال فضائلها وإخراجها كل ما عندها بالقوة إلى الفعل والظهور عندما ترتبط بالجسد ، ومتى تابت عطفت عليها النفس الكلية ، وترجع إلى قبول الفيض العقلى بالتوبة والاستغفار ، وإذا فارقت النفس الجسد ، وكانت حياتها فيه صالحة كريمة صعدت إلى عالم الأفلاك ، أما إذا كانت حياتها فيه فاسدة سيئة فلا تفتح لها أبواب السماء ، بل تبقى تحت فلك القمر تنقلب تارة من الكون إلى الفساد وتارة من الفساد إلى الكون ، وهذا القول قريب من فكرة التناسخ التى يقول بها الفيثاغوريون ، والقيامة أو الحشر الأصغر تتحقق بمفارقة النفس للجسد أى موت الجسد . وعندما تفارق جميع النفوس أجسادها لم يبق ضرورة لبقاء النفس التى تفرعت منها وهى النفس الكلية ولا لبقاء العالم نفسه ، فتعود النفس الكلية إلى الله فيبطل الوجود ما عدا الله ، وبذلك يتحقق الحشر الأكبر أو القيامة الكبرى ويتحقق خراب العالم ، وبعدئذ يعود الفيض من جديد .

ولإخوان الصفاء رأى فى الدين . إنهم - كما ذكرنا - لا يعادون علما ولا مذهبا ولا يتعصبون لمذهب على مذهب ، بل إن فلسفتهم تستغرق المذاهب جميعها ، فلإنسان العاقل حسب رأيهم حرية اختيار المذهب والرأى الذى يراه ولكنهم لا يسيرون فى هذا الرأى بلا حدود ، بل ينكرون رأى الدهرية التى تقول بقدوم العالم وبأنه لاصانع له ، ورأى الثنوية الذين ينسبون خلق العالم إلى صانعين ، ورأى الصابغة الذين يرجعون الخلق إلى أحكام النجوم ، وآراء المشركين ، فالدين عندهم هو الإسلام إذ هو أفضل الأديان ، والمسلمون أفضل الأمم ، قالوا : «ملة الإسلام التى هى أكمل الأسباب لأنه خير دين دان به المتألهون وأفضل طريق يسلكه إلى الله القاصدون ، وهو القدوة بدين نبينا محمد ﷺ وبعلم كتابه الذى جاء به

(١) الرسائل ، ح ٢ ، ص ١٧ .

مهيمننا على كتب الأولين وسنة الشريعة التى هى أعدل سنة سنهها المرسلون^(١) ولهم تفسيرات للأمور الدينية ، فعندهم أن الدين ظاهر وباطن ، ظاهره هو العبادات كالصلاة والصوم ، وباطنه النظر فى مقاصده ، فإذا أدرك إنسان القصد رفعت عنه العبادات ، وهذا لايتأتى إلا للحكماء . وهم يرون أن الملائكة والجن والشياطين وإبليس رموز إلى القوى الطبيعية ، فالنفس الطيبة تصبح ملاكا بعد مفارقة البدن ، أما الشريرة فتصبح عفريتاً من الجن .

أما الشياطين ورئيسهم إبليس فما هم إلا البشر الجاهلون لحقيقة الدين وحقيقة المعاد والمنكرون لها . وهم يرون أن المعجزة وإن ظهرت على أيدي الأنبياء فليس ذلك راجعاً إلى رضائهم على الناس بل مرجعه طاعة هؤلاء الناس أو عصيانهم للقواعد التى وضعها الأنبياء للدين .

وإذا انتقلنا إلى فلسفتهم المدنية ، نجد أن الإنسان ، عندهم ، مدنى بطبعه ، خاصيته التعاون مع أبناء جنسه ، لا يستطيع أن يعيش منعزلاً عن سائر الناس إذ لا يمكنه بمفرده أن يقوم بكل ما تحتاجه الحياة من صنائع شتى . فاقتضت حكمة الله أن يقوم مجتمع من الناس يتخصص كل فريق منهم فى عمل ، فيختص فريق بالزراعة وفريق بالصناعة ، وفريق بالعلوم ، وفريق بالخدمة ، وفريق بتدبير السياسة .. وهكذا ، وبذلك يتحقق التعاون وتسير أمور الناس فى نسق متوازن^(٢) . وكل مجتمع لا ينصلح حاله إلا إذا كانت هناك سلطة عليا تكون بمثابة الرأس للبدن ، تسوس أمور الشعب وتدبر شئونه . وهم يميزون بين خمسة أنواع من السياسات هى : السياسة النبوية ، وهى التى تضع النوااميس المرضية والسنن وتدعو الناس إلى ترك الديانات الفاسدة وهجر العادات السيئة . والسياسة الملوكية ، وهى التى تقوم على حفظ الشريعة وتحبى السنة وتقيم الحدود وتنفذ أحكام الشريعة وترد المظالم ،

(١) الرسائل ، ح ٤ ، ص ٢٤٢ .

(٢) الرسائل . ح ١ ، ص ٦٢ .

والسياسة العامة وتحقق برئاسة الأمراء على البلدان والمدن ، و رئاسة الدهاقين على أهل القرى و رئاسة الجيوش على العساكر ، ومهمتها رعاية هذه الطبقات وتفقد أحوالها ، والسياسة الخاصة وهى رعاية الإنسان لشئون منزله وأمر معيشته وأحوال عائلته وأولاده ، والسياسة الذاتية وهى أن ينظر الإنسان إلى نفسه ويراعى أخلاقه ويتفقد أفعاله وأقواله فى حالتى الرضا والغضب (١) .

ولإخوان الصفاء آراء منتشرة فى ثنايا رسائلهم لم يعتقدوا لها فصلا خاصا . وهم يؤكّدون الحاجة إلى معلم يشترطون فيه صفات خاصة هى الذكاء وحسن الخلق وصفاء الذهن وحب العلم وبغية الحق وعدم التعصب لرأى معين . والذين يشتغلون بالعلم - حسب رأيهم - ثمانية أصناف هم : حفظة القرآن ، ورواة الحديث ، وطلاب الفقه ، وطلاب التفسير لآيات القرآن الكريم ، والغزاة والمدافعون عن الثغور والبلاد ، والزهاد والوعاظ ، والملوك والحكام والرؤساء ، وأخيرا الفلاسفة الذين يعدون أرقى الأصناف ، فهم خلفاء الأنبياء والعالمون بالأسرار . وهم يرون أن الطفل يكتسب معلوماته بالتقليد والتلقين والتفكير . وهناك نوع من الأخلاق يولد مع الطفل ونوع آخر يكتسب ، والأخلاق الأولى تتأثر بثلاثة عوامل هى : أحكام النجوم التى تؤثر فى الجنين قبل الولادة ، واختلاف نسب العناصر الأربعة فى جسم الإنسان ، وفعل البيئة الطبيعية وتأثيرها . أما الثانية ، فستجد بعد الولادة . والأولى وإن كان ثابتة فى الطبائع أكثر من الثانية إلا أنه من المستطاع تغييرها وتوجيهها نحو فعل الخير . ويرى إخوان الصفاء وجوب أن يكون عمل الأخيار مطابقا لعلمهم ، وإلا لما كان لعلمهم نفع ، والفضائل عندهم مصدرها علوى ، هى موهبة من الله عز وجل ، فحسن الخلق فيض . قالوا : «إعلم أن تلك المحاسن والفضائل والخيرات كلها إنما هى من فيض الله وإشراق نوره على العقل

(١) الرسائل . ج ٣ ، ص ٦٤ - ٦٥ .

الكلى ، ومن العقل الكلى على النفس الكلية ، ومن النفس الكلية على الهيولى وهى الصورة التى ترى الأنفس الجزئية فى عالم الأجسام على ظواهر الأشخاص والأجرام التى من محيط الفلك إلى منتهى مركز الأرض^(١) .

وبعد ، فهذه جولة فى رسائل إخوان الصفاء ، الرسائل التى أوردتها موسوعة علمية تنهج فى كتابتها منهج التعليم ، ونأوا بها عن التعمق ومنهج البحث العميق، وخلطوا العلم بالسحر ، والفلك بالتنجيم ، وأخذوا من كل فلسفة بطرف ، ومن كل دين ماحلا لهم أن يأخذوه ، فجاءت خليطاً من أقوال الشيعة الباطنية والإسماعيلية ، ومن فكر أفلاطون وأفلوطين وفيثاغورس وغيرهم من الفلاسفة والمفكرين ، ولكنهم - كما قلنا من قبل - كانوا أول من وضع كتاباً يحوى بين دفتيه آراء فلسفية فى الميتافيزيقا والفيزيقا وبقية فروع الفلسفة ، وهم يعدون من الأوائل الذين فتحوا باب حرية الفكر على مصراعيه فى الإسلام .



(١) الرسائل ، حـ ٣ ، ص ٢٧٥ .

المنهج العلمى التجريبي عند ابن رشد من خلال مؤلفاته فى الطب

أ. د. عمار جمعى الطالبى *

وقع اختيارى على هذا الموضوع لأحس به ذكرى أستاذنا
الجليل محمود قاسم لأنه عنى بالمنهج ومنطقه وألف فيه ،
لإدراكه أن أعظم شىء فى العلم إنما هو استقامة منهجه وثاقته
استدلاله ، رحمه الله بواسع رحمته .

لم يشتهر ابن رشد بالطب كما اشتهر بالحكمة والفقه ، وإن كان المؤرخون
يذكرون أنه يفرع إلى فتواه فى الطب ، كما يفرع إلى فتواه فى الفقه ، ولكن يبدو
أن كتاب القانون لابن سينا قد نافسه فى المشرق والمغرب .

والذى يهمنا من هذا البحث هو منهج ابن رشد العلمى ورؤيته الواسعة الأفق
لأسس العلم ، وطريقة الوصول إلى القوانين ، والأصول التى تقوم عليها المعرفة ،
التي هى أقرب إلى الدقة ، وأقرب إلى اليقين، وإن كان اليقين غاية لا تدرى بسهولة .

* مدير جامعة عبد القادر الإسلامية بالجزائر سابقا ، ورئيس قسم الفلسفة بكلية الإنسانيات
بجامعة قطر حاليا .

سار ابن رشد فى الاتجاه العلمى العام فى الحضارة الإسلامية كما هو عند أسلافه من الأطباء والحكماء ، فقد بين لنا فى كتابه : «الكليات فى الطب» الذى نشر أخيراً^(١) ، أن الغرض منه أن يجرى هذا التأليف مجرى النظر الكلى ، والقوانين العامة لهذا العلم : «وإنما نذكر فيه الأشياء التى تجرى مجرى الأصول ، والأمور الكلية من هذه الصناعة»^(٢) وزاد هذا المعنى بياناً أكثر ، وتعبيراً أقوى وأجمل ، مما يدخل فى أدب الطب ، وأساليب شرح مفاهيمه بالأمثلة المصورة فقال : «فإن هذا الكتاب إنما قصدنا فيه أن نجعله كال دستور لمن أحب أن يستوفى أجزاء الصناعة على هذا التقسيم والترتيب ، وبالجمله فنسبته إلى الصناعة يشبه أن تكون نسبة استقصات «أصول» الصناعة إلى الصناعة ، فكما أن الزواقين إنما يرسمون أولاً الصورة التى يقصدون تصويرها ثم يملأون تلك الرسوم بالأصباغ والألوان حتى تحصل الصورة على الكمال الأخير ، كذلك حالنا نحن فى هذا الكتاب»^(٣) .

أما المنهج الطبى فهو يقسمه إلى قسمين أو إلى طريقتين ، الطريقة الأولى ويسمىها «الطريقة الكلية» والثانية ويسمىها «الطريقة الكناشيه» إلا أن الطريقة الثانية منطقية فى الأولى انطواء الجزئيات فى الكليات . فالنزول من الكليات إلى الجزئيات نزول إلى علاج الأمراض بحسب عضو عضو ، وهذه الطريقة هى التى سلكها أصحاب الكناشيه ، ومن أراد أن يجمع الأشياء الكلية إلى الأشياء الجزئية فإنه يكون قد جمع الطريقتين ، ويرى ابن رشد أن أحق صناعة وأولاهها بهذا هى

(١) تحقيق د. شيبان سعيد ، د. عمار الطالبي ، المجلس الأعلى للثقافة بالتعاون مع الاتحاد الدولى للأكاديميات ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٩ م فى ٤٣٢ ، حقق اعتماداً على أربع نسخ مخطوطة ، مع تصدير الدكتور إبراهيم مذكور رئيس مجمع اللغة العربية ، ومراجعة د. أبو شادى ، ونأسف أنه لم يعن بتصحيح المقدمة التى وضعها المحققان فظهرت فيها أخطاء متعددة .

(٢) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ١٩٧ .

(٣) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ١٥٠ .

صناعة الطب ويقصد الناحية العملية من الطب ، فبعد أن استعرض ابن رشد بعض النماذج التطبيقية فى العلاج فى آخر كتابه «الكليات» قال :«فهذا هو القول فى معالجة جميع أصناف الأمراض بأوجز ما أمكننا وأبينه ، وقد بقى علينا من هذا الجزء فى شفاء مرض مرض من الأمراض الداخلة على عضو عضو من الأعضاء ، وهذا وإن لم يكن ضروريا فإنه منطوق بالقوة فيما سلف من الأقاويل الكلية ففيه تميم ما وارتياض فإننا ننزل فيه إلى علاجات الأمراض بحسب عضو عضو وهى الطريقة التى سلكها أصحاب الكنائيش حتى نجمع فى أقاويلنا هذه إلى الأشياء الكلية الأمور الجزئية فإن هذه الصناعة أحق صناعة ينزل فيها إلى الأمور الجزئية ما أمكن^(١)» وأرجأ التأليف فى الطريقة الثانية إلى وقت يكون فيه أشد فراغاً ، إلا أنه لما لم يستوف الطريقة العملية العلاجية اعتذر بأنه كان مشغولاً بما هو أهم من ذلك ، وأوصى المشتغلين بالطب أن يرجعوا إلى كتاب مؤلف على الطريقة الكنائشية الجزئية ، وهو كتاب «التيسير» الذى ألفه أبو مروان بن زهر (ت ٥٥٧هـ) .

وأما العلامات وإعطاء الأسباب فلا يحتاج من اقتصر على الكليات إلى الرجوع إلى الكنائيش ، وإنما يحتاج من ذلك إلى العلاج الذى فصلته الكنائيش ، وكان ابن رشد طلب^(٢) من ابن زهر كتابه «التيسير» وانتسخه فكان ذلك من أسباب انتشاره وذيوه بين الناس ، ويصف ابن رشد كتاب «التيسير» بأنه «كتاب الأقاويل الجزئية التى قيلت فيه شديدة المطابقة للأقاويل الكلية ، إلا أنه شرح هنالك مع العلاج العلامات ، وإعطاء الأسباب على عادة أصحاب الكنائيش ، ولا حاجة لمن يقرأ كتابنا هذا إلى ذلك «أى العلامات والأسباب» بل يكفيه من ذلك مجرد

(١) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٤٢٢ .

(٢) لا يفهم من هذا أن ابن رشد قد اتفق مع ابن زهر على أن يؤلف أحدهما فى الكليات والآخر فى الجزئيات أو أن ابن رشد طلب من ابن زهر أن يؤلف كتابه والسياق يدل على أن الكتاب كان قد أنجز تأليفه لا كما فهم أغلب من كتب فى هذا اعتماداً على الترجمة اللاتينية التى أدت إلى سوء الفهم .

العلاج، وبالجملة من يحصل له ما كتبناه من الأتاريل الكلية يمكنه أن يقف على الصواب والخطأ من مداواة أصحاب الكنائيش فى نفس العلاج والتركيب»^(١) ثم لم يكتف ابن رشد بذلك بل حدد لنا معالم الطريقة الكلية الصناعية فى الطب تحديدا واضحا «والقول الكلى الصناعى هو أن يقال فى الأمراض ثم فى علاج أسبابها ثم فى الأعراض ، وتحصر فيها أفعال الأعضاء ثم فيما تركبت الأسباب مع الأمراض ، والأمراض مع صنفى الأعراض أعنى التى هى أفعال الأعضاء والتى هى أعراض بالحقيقة ثم فى ثلاثتها إذا اجتمعت»^(٢) .

وبعد الانتهاء من القول الكلى يتجه الطبيب إلى الطريقة الجزئية على هذا النحو ، «ثم ننظر بعد هذا نظرا جزئيا فى الكنائيش لمن وقع له فراغ فإن النظر فى الكنائيش يعطى الأدوية الخاصة فى عضو عضو ، ويعطى مبدأ ضرر الأفعال»^(٣) .

ولكن ماهى العلاقة بين الطريقة الكلية والجزئية عند ابن رشد؟

يرى أن الطريقة الجزئية متممة للكليلة ومكملة : «أن تعدد هذه الأمراض بحسب عضو عضو ووصف الأدوية النافعة لها طريق متمم لهذه الطريقة الكلية ، وهى الطريقة الكنائشية ، لكن منجمع نحن الطريقتين عند معالجتنا الأعراض الداخلة على عضو عضو ، فإن شفاء تلك الأعراض إنما يكون بقلع الأمراض الفاعلة لها»^(٤) .

ولكن ابن رشد باعتباره فيلسوفا يرى أن من اكتفى بالطريقة الجزئية فقد أخطأ فى حق الطب وهو الأمر الذى كان يفعله الأطباء المعاصرون له ، وأما من اكتفى

(١) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٤٢٢ .

(٢) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٤٢٢ هامش ١٦٢٣ .

(٣) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٤٢٢ .

(٤) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٣٩٢ .

بالطريقة الكلية النظرية وكان حاذقا ماهرا قادرا على الاستنباط فإن جهله بالطريقة الجزئية لا يضر: «وأما من يقتصر على الطريقة الكناشية دون معرفة الطريقة الكلية فمخطيء قطعاً كما يفعله أطباء وقتنا ، وأما الاقتصار على الأمور الكلية فقد يمكن ذلك إذا كان الفاعل لذلك في غاية الحلق ، ولذلك كان أحد الشروط المعدودة في الكمال في الصنائع أن يكون لصاحب الصناعة قوة على استنباط منها ما يحتاج إلى استنباطه»^(١) ولا يتفق ابن رشد في هذا مع الرازي^(٢) الذي يجعل المحرب أهم: «فإن الشكوك المغلطة تقع على الأكثر في الفن العلمي النظري أكثر منه في التجربة ، فإن لم يتهيا له إلا أحد الرجلين فليختر المحرب فإنه أكثر نفعاً في صناعة الطب من العارى عن الخدمة والتجربة البتة»^(٣) ، وهذا في الحقيقة هو الفرق بين الفلاسفة الأطباء ، والأطباء الفلاسفة . فالرازي طبيب قبل أن يكون فيلسوفاً ، وابن رشد فيلسوف قبل أن يكون طبيباً ، ولذلك إنحاز أحدهما إلى التجربة والفن العملي من الطب ، وإلى المزاوِل لهذا الفن وإنحاز الآخر إلى النظر وإلى الأصول الكلية ، فليست الطريقة الجزئية العملية متممة للكلية وخامدة لها عند الرازي بل هي الأساس المعتمد ، فالغاية عند ابن رشد هي الوصول إلى القوانين الكلية أو ما يسميه بالأصول والدستورات لأنها أساس العلم ، ولأن العلم إنما هو العلم بالكلية : «القوانين والدستورات الكلية التي تنزل من معالجة سوء المزاج المادى وغير المادى منزلة الاستقصات والمبادئ»^(٤) ويرى الرازي أن الدعاوى ليست هي المعيار ، وأنه يجب التوثق إزاء هذه الدعاوى التي يمكن أن تكون باطلة حتى تشهد لها

(١) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٣٩٢ .

(٢) الرازي و محنة الطبيب مجلة المشرق مجلد ٥٤ ص ٥١١ .

(٣) الرازي ، مجلة المشرق مج ٥٦ ص ٢٣٧-٢٣٨ بهذا المجلد مختارات من نصوص الرازي من كتبه المختلفة ، تحقيق أ ، ز اسكندر .

(٤) ابن رشد ، الكليات ص ٣٥٥ .

التجربة: «وتكون» «الدعوى» عندنا موقوفة إلى أن تشهد عليها التجارب»^(١) وإن كان ابن رشد في جانب القضايا التي جاءت عن طريق الاستقراء والتجارب أيضا ولذلك لم يقتصر نهج ابن رشد على الكليات والنظريات في الدرجة الأولى في كتابه «الكليات» فقط بل إنه فعل ذلك أيضا في شرح أرجوزة ابن سينا حيث بين أن منهجه أصولي يعنى فيه بالكليات أكثر من الجزئيات^(٢) ، وطبق المنهج نفسه في شروحه على بعض كتب جالينوس ، بل إنه صنع هذا الصنيع في كتابه في الفقه المقارن : «مسائل اتفقوا عليها ومسائل اختلفوا فيها ونحن نذكر قواعدها وأصولها»^(٣) .

التجربة والقياس :

ليس معنى اتجاه ابن رشد المنهجي والاستمولوجي الذي أشرنا إليه أنه لا يقيم وزنا كبيرا للتجربة والمشاهدة والحس فإن منهج العلماء المسلمين عنى بالنظرية أو الفرض عنايته بالتجربة .

فالفرض يسبق التجربة للتحقق من صحته أو بطلانه بالتجربة ، وليس معنى اهتمام ابن رشد بالكليات أو الأصول أو القوانين العامة استقصا من التجربة ، لأن الكليات نفسها إنما تستخلص من الجزئيات وتعرف ، فالمقصود عنده من عنايته بالكليات أن لا يبقى المحرب في نطاق الجزئيات المتناثرة دون أن يصل إلى قوانين عامة تحكم هذه الجزئيات وسائر الظواهر الجزئية التي تدخل تحتها ، ولذلك نجد ابن رشد يصرح بأن مصدر الكليات إنما هو الجزئيات : «وهذه الأشياء قد تبينت في الأقاويل الكلية من علم حيلة البرء لكن الأفضل في هذه الصناعة «الطب» أن تعرف

(١) الرازي ، محنة الطبيب مجلة المشرق مجلد ٥٤ ص ٥١١ .

(٢) ابن رشد ، شرح أرجوزة ابن سينا مخطوط في مكتبة الخاصة ص ٣١ .

(٣) ابن رشد ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، دار المعرفة ، بيروت ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م ج ٢ ص ٤ .

الكليات من الجزئيات ما أمكن»^(١) .

بل يذهب إلى أن القياس لا مدخل له فى أساس تصحيح القضايا أو الأحكام العلمية الطبية مثل أحكام الترياق وقضاياه : «وأما هل الأمر فى الترياق هكذا فليس سبيل إلى تصحيحه إلا بالتجربة ، إذ ليس للقياس فى ذلك مدخل (...) وهذه المقادير (مقادير الشربة من الترياق ، ومقدار السم ، ومقدار قوة البدن) لا سبيل إلى إثباتها بالقياس بل بالتجربة وقد أثبتتها الأطباء فى كتبهم»^(٢) ومن هذه الظواهر مثلا ظاهرة تغير الهواء وهل تدل على أمراض متحدث ، فإنها فيما يرى ابن رشد لا يصل فيها الباحث إلى معرفة إلا عن طريق التجربة : «التغايير التى إذا حدثت فى الهواء دلت على أمراض متحدث ، والطريق التى بها يمكن أن يوقف عليها يرهان فذلك مما يعسر أو لا يمكن»^(٣) كما أنه بين أنه لا يوثق بمجرد المقاييس المنطقية فيما سبيله الحس والتجربة : «فلهذا لا يوثق بمثل هذه المقاييس بل التجربة هى القاطعة فى ذلك»^(٤) فالحس هنا إنما هو للتجربة وحدها ، وهذا لا يمنع أن يبدأ الإنسان عن طريق القياس بافتراض فرض معين ثم يحققه بمعيار تجريبي : «وهذه المقادير إنما استنبطت أولا بالقياس ثم صححت أخيرا بالتجربة ، كما عرض ذلك فى تركيب هذا الدواء وغيره من الأدوية الشريفة أعنى أنه ركب أولا بالقياس وصحح أخيرا بالتجربة ، ولذلك كل دواء مركب بالقياس يستعمل قبل التجربة فيه نقص»^(٥) ، ولكن على من تقع التجربة ؟ إذا فهمت من ابن رشد ما يتبادر إلى الذهن من كلامه فإنه وقع - كما نقول فى زماننا هذا - فى تمييز طبقي إذ ذكر أن

(١) ابن رشد ، كتاب الترياق ضمن رسائل ابن رشد الطبية ، تحقيق جورج فحاته قنواى ، وسعد زايد ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ص ٤٢٠ .

(٢) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٣٩ .

(٣) ابن رشد ، الكليات ص ١٦٤ .

(٤) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢٣٦ .

(٥) ابن رشد ، الرسائل الطبية ص ٤١٣ .

الدواء الذى نريد أن نعالج به شخصا نهتم به ولم تصححه التجربة بعد فإننا نجرب فى غيره ، ثم إذا تبين أنه صحيح عالجنا به من اهتمنا بأمره : «ولذلك ما ينبغي إذا ركب دواء بالقياس (بالفرض) إلى من يهتم بأمره أن يصحح أولا بأن يستعمل بالتجربة فى غيره ثم يستعمل فيه إذا حمد بالتجربة ، وصح منه الفرض الذى قصد اتخاذه منه بالقياس أعنى المنفعة المقصودة» (١) .

وهو يرى أيضا أن الفرض هو أساس حركة الأطباء القدماء فى تقدير كميات ما يسقى من الدواء كماً وكيفاً بحسب مرض مرض ، وبحسب بدن بدن ، وبحسب المزاج والسن والبلد إلى آخر ما إليه من الظواهر والظروف المحيطة بها : «فالقياس كما قلنا هو الذى حرك القدماء إلى تقدير كمية ما يسقى من الترياق هو بعينه القياس الذى حركهم إلى تقدير مقادير الأدوية فى الكمية والكيفية فقالوا : دواء كذا فى درجة كذا ، ويسقى منه مقدار كذا ، وهو أنهم علموا أن قوة الدواء يجب أن تكون غالبية لقوة الداء من غير أن تؤثر فى البدن أثراً شبيهاً بها أعنى خارجاً عن الطبع فتكون مع إزالتها المرض تحدث مرضاً آخر ، فوجب تقدير الأدوية فى مرض مرض بحسب قوة المرض ، والمريض ، وبحسب المزاج ، والسن ، والبلد ، والعضو الذى فيه المرض إن كان المرض مخصوصاً بعضو ما ، وكلما كان الدواء أقوى كانت المضادة فيه لبدن الإنسان أكثر ، إذ كل دواء فهو مضاد لبدن الإنسان ، وإنما هو نافع لبدن الإنسان بما هو دواء إذا كان فى بدن الإنسان مرض مضاد له ، ولذلك ينبغي أن تتجاوز قوة الدواء قوة المرض ، ولا أن تفضل عليه ، لأن الفاضل منه يكون ممرضاً للبدن ، ولكون الدواء لا يكون نافعا بالذات إلا فى وقت المرض وجب ألا تحفظ الصحة التامة الأدوية ، وإنما تحفظ بها الصحة المستعدة للأمراض وتختلف الأدوية المستعملة فى ذلك بحسب مقادير الاستعدادات التى فى

(١) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٤١٤ .

الأبدان للأمراض ، وبحسب أنواع الأمراض ، ومن هذا يظهر ما قلنا من الترياق ، إنما ينبغي أن يستعمل فى حفظ صحة من صحته مستعدة لأمراض كبار ، وأمراض تدور عليهم فى وقت وترتفع فى وقت ، وهذا الحال هى حال الشيوخ الزملاء ، ولذلك كان أوفق الأسنان لاستعمال الترياق هو مدة الشيخوخة ، فإن هذا السن قل ما يخلو من زمانه ، ومن بعد هؤلاء سن الكهولة ، وأما الشباب فهم أغنى الناس عنه ، إلا أن تحدث بهم الأمراض التى ذكرناها ، وإذا كان الدواء بما هو دواء مضادا لبدن الإنسان وجب أن يحافظ على الكمية التى تستعمل منه ، وكلما كان أقوى كانت المحافظة على كميته أكثر ، ولما كان الترياق فى الغاية من القوة لبدن الإنسان وجب عندهم أن يكون المستعمل منه^(١) أقل كمية من غيره ، وأن يحافظ على تلك الكمية ، فلما أوجب القياس عندهم هذا المعنى فى الترياق أعنى تحديد الكمية والمحافظة عليها ، كما وجب فى الأدوية المسهلة حدسوا أيضا بالقياس على الكمية التى تستعمل منه فى مرض مرض ، ثم صححوها بالتجربة وأثبتوها فى كتبهم وربما اختلفوا فى بعضها اختلافا يسيرا^(٢) .

وقد اخترنا هذا النص على طوله لما فيه من تحليل منهجى ابستمولوجى لطريقة الأطباء وحدسهم الذى يراد به هنا الافتراض الذى تحققه التجربة أو تبطله .

وضع ابن رشد أسئلة رئيسية وهى أسئلة يمكن أن تسأل فى أيامنا هذه ابستمولوجيا وذلك فيما يتعلق بمنهج الطب فى معرفة آثار الأدوية فى الأبدان الإنسانية وهى :

١- هل يمكن أن تعرف أفعال الأدوية التى لم تجرب بالقياس ؟

٢- أم سبيل العلم بها هو التجربة بالنسبة لكل دواء على انفراد .

(١) النص فيه اضطراب وقرأته قراءة تجعله مفهوما .

(٢) ابن رشد ، الترياق ضمن رسائل ابن رشد الطليعة ص ٤١٥ - ٤١٦ .

٣- أم الجمع بين الأمرين : القياس والتجربة .

٤- وإذا أمكن الجمع بين القياس والتجربة فهل الطرق التي يتبعها الأطباء في هذا المجال كافية ؟

قال ابن رشد : «فهذا القول في جميع ما يحتاج إليه من أفعال الأدوية التي شوهدت ، وكيف فعلها وقد بقي علينا بعد من هذا القول أن ننظر هل يمكن أن ندرك بالقياس هذه الأفعال للأدوية التي لم تجرب أم إنما سبيل العلم بوجودها لشخص شخص من أشخاص الأدوية التجربة ؟ أم فيها ما جمع الأمرين وإن كان فيها ما جمع الأمرين فهل الطرق التي أفاد الأطباء في ذلك كافية أم لا ؟» (١) ثم حلل الأقيسة التي تثبت وجود الشيء ، إلى أقيسة تبرهن على إثبات وجود الظاهرة وبيان سببها في آن واحد ، وإلى أقيسة تثبت وجود الظاهرة فحسب دون أن يعطى السبب ، وأن أفعال الأدوية وآثارها في الأبدان يمكن الوقوف عليها ومعرفتها في حدود الإمكان بتوعين من الأقيسة وهما برهان السبب ، أو برهان الوجود فقط كما يمكن الوقوف عليها بقياس مركب من الذى يثبت الوجود والسبب في آن واحد ، ويقصد بذلك أن الباحث ينتقل من الأمور التي يسميها «متأخرة» وهى المسببات وآثار الأدوية إلى الأمور التي يسميها «متقدمة» وهى أسباب آثار تلك الأدوية ثم بعد ذلك يعكس العملية ، فينتقل من تلك الأمور التي هى أسباب الآثار والتي هى متأخرة عنها باعتبارها نتائج لها . والصنف الأول من القياس يسميه بقياس الدلائل ويدخل الثانى فى البراهين المطلقة (٢) ثم طبق هذا المنهج على إمكان معرفة خواص الموجودات فبين أنه لا يمكن الوقوف على خاصة ما مما هو تابع للموجود أى الشيء الذى توجد فيه تلك الخاصة ، إذ من الممكن أن توجد فى الموجود خواص لا نهاية لها ، وما لا نهاية له لا يمكن أن يعرف بالقول ، وأنه لا سبيل إلى الوقوف على وجود الخاصة فى شيء إلا الحس (٣) كما بين أن الطريقة التي يسلكها

(١) ابن رشد ، الكليات ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٢) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢٣٣ .

(٣) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢٣٤ .

فى فحص آثار الأدوية هى عينها التى طبقها فى معرفة الخاصة^(١) ، وأنها لا تدرك بالقول أى بالنظر والقياس دون تجربة إم الأمر فى هذا المجال : «فلهذا لا يوثق بمثل هذه المقاييس بل التجربة هى القاطعة فى ذلك ، وكيف لا ونحن نرى ...»^(٢) .

واتجه بالنقد لمن ظن من الأطباء أن أثر الدواء فى الأبدان يعرف بالقول ومجرد الحدس ، وقصدوا إلى وضع قوانين تضبط معرفة هذه الآثار فى أبدان البشر ، وأشار إلى أن هذه القوانين لا تعدو أن تكون ظنية أو فى احسن أحوالها أكثرية وليست ضرورية يقينية ، غير أنه يرى أن هذه القوانين مع ذلك مفيدة فى كونها تنبه الباحث إلى التجربة حتى إذا تحققت تلك الفروض والحدوس بالتجربة أصبحت مقطوعا بها ، : «وأما الدواء فمن حيث إنه يفعل بالأبدان كيفيات أول ظن أن ذلك قد يدرك بالقول ، لكن مع هذا كله نجد جالينوس وسائر الأطباء قد راموا أن يضعوا قوانين يستدل منها على أفعال الأدوية فى الأبدان الإنسانية ، وهى وإن كانت كما قلنا أدلة ظنية ، بل إن ذهبنا بها مذهب الترفيع نقول إنها أكثرية لا ضرورية ، فإن لها منافع إحداها أنها تنبه الإنسان إلى التجربة ، فإن ساعدته التجربة على ظنه قطعاً على ذلك^(٣) » فهو يعتبر هذه القوانين مفيدة من حيث إنها فروض قابلة للتجربة.

ومن منافع هذه الفروض والحدوس بالإضافة إلى أنها تنبه الباحث إلى تجربتها أنها تفيد فى المقايسة بين الأشياء التى شهدت التجربة بأنها غذائية أو دوائية^(٤) وضرب لذلك مثالا موضحا فقال : «مثال ذلك أنه متى كان غذاء أحدهما هشا ،

(١) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢٣٤ .

(٢) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢٣٦ .

(٣) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢٣٦ واستدل على ذلك بقول جالينوس : «إن الآتين اللتين استنبطت بهما هذه الصناعة هما التجربة والقياس» .

(٤) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢٣٦ .

والآخر لرج قطعنا بسرعة استحالة^(١) الهش ، إذ كان تقسمه عن الحرارة أسرع وبالجملته انفعاله^(٢) ، وبهذا فإن القياس لا يستغنى عنه سواء أخذناه بمعنى الافتراض أو أخذناه بمعناه الآخر وهو المقايضة بين شيئين ثبتا بالتجربة ، وبهذا يكون الطب قياسيا أيضا إذ أن الذى يقتصر على التجربة وحدها فلا سبيل له أن ينتقل من دواء إلى دواء أو من غذاء إلى غذاء يساويه أو يقاربه : «وأيضا متى ارتضنا فى هذه الأشياء ، ورمنا أن نعطي فيها الوجود والسبب معا وعسر ذلك كان سهلا إذا شهدت التجربة بشيء ما أن نعطي السبب فى ذلك ، وبالجملته فهذا النظر تكون هذه الصناعة قياسية ، ويمكننا أن نتقل من دواء إلى دواء ، ومن غذاء إلى غذاء عندما يقصر عما قصدناه منه فى المعالجة ، وأما من ليس عنده من معرفة الأدوية إلا بالتجربة فقط فليس يمكنه ذلك^(٣) ، ثم بين أن المعرفة تتسع وتقدم وأن جالينوس قد أطال الكلام فى هذا الموضوع ولكن الأدلة التى وصل إليها هو وأتباعه قليلة بالإضافة إلى ما يمكن الوقوف عليه ، لأنهم اقتصروا فى معرفة «طبائع الأدوية على الطعوم والروائح ، وسرعة الاستحالة إلى النار فقط ، وهذه كلها إذا جعلت دلائل فإنها ضرورة أخص من الطبائع التى تلزم عنها هذه الأفعال فى بدن الإنسان ، والدلائل الذاتية فينبغى أن تكون مساوية للطبائع الدالة عليها وحيث يمكن أن يترقى من المتأخر إلى المتقدم ، ثم من المتقدم إلى المتأخر المطلوب وبهذا يكمل النظر^(٤) ، ثم أتى بأمثلة ، وبين طريقة الوقوف على الآثار التى تحدثها الأدوية ، والصعوبات التى يلقاها الطبيب فى ذلك مشيرا إلى أن بعض هذه الطرق غير قطعية ولا وثيقة ، ولكن هذا لا يجوز أن يجعل الباحث يتوقف ويدع البحث فيها : «فهذه هى الدستورات التى يمكن أن يجرى عليها فى هذه الصناعة ، وهى

(١) أى استحالتة فى الهضم فى سهولة هضمه وتمثله .

(٢) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢٣٦ .

(٣) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢٣٧ .

(٤) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢٣٧ .

وإن كانت غير وثيقة فليس يمكن غيرها ، وليس ينبغي لذلك أن يهمل القول فيها ، بل ينبغي أن يتكلم في كل شيء بحسب ما يمكن في ذلك الشيء كما يقول ذلك أرسطو ، فإنه ليس ينبغي أن نطلب من الخطيب برهانا ، ولا من المهندس إقناعاً^(١) .

ومن الأمور النفسية في الإستمولوجيا ونظرية المعرفة ومناهج العلوم أيضا مسألة التنبؤ بما سيحدث من النتائج أو بما لا يحدث ومسألة اليقين في المعرفة ، فمثلا التنبؤ بما عسى أن يحدث من الأمراض أو لا يحدث ، يجعله ابن رشد أمرا ظنيا أو تخمينيا على حد تعبيره إلا إذا قامت التجربة أو الحس دليلا على ذلك ، ثم بعد هذا يمكن معرفة الأسباب^(٢) : «ويبقى أن تعلم أنه لا سبيل إلى الوقوف في هذا العلم على إمكان مرض يحدث أو لا إمكانه مما لم يشاهد إلا بطريق تخميني ، وذلك في الأكثر ، بل سبيل جميع الأمراض ها هنا أن تثبت بالحس والملاحظة : ثم تعطى فيها الأسباب»^(٣) .

ولا يأخذ ابن رشد أقوال من تقدمه مأخذ التسليم ، ولو كان صاحب القول أرسطو نفسه ، فهو يشك ، ويتوق إلى التأكد بنفسه ، فمن ذلك ما قاله أرسطو وجالينوس أيضا من أن منى المرأة لا دخل له في الحمل ، إذ قد تحمل المرأة دون أن تشعر بلذة ولا أن ينزل منها ماؤها ، وقد قرر أرسطو أن هذا الأمر ثبت بالحس ، ولكن ابن رشد أخذ يتابع التجربة ، وسأل النساء عن هذا فأكدن له أنهن حملن دون أن يشعرن بلذة ، أى دون أن يصدر عنهن منى : «فأما من أين يظهر أنه ليس لمنى المرأة مدخل في الولادة (الحمل) فمن الحس والقياس ، أما من الحس فإن

(١) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢٣٧ .

(٢) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢٣٨ .

(٣) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

أرسطوطاليس يرى أن المرأة قد تحمل دون المنى ، وأما أنا فشد سمعت كلام أرسطو لم أزل أتعمد حس ذلك فوجدت التجربة صحيحة ، وألفت أكثر الحمل الذى بهذه الصفة إنما يكون بالذكورة وسألت النساء الثقات عن ذلك فأخبرننى أيضا بذلك أعنى أنهن كثيرا ما يحملن دون أن تكون منهن لذة^(١) ، وما هو الفصيل إذا وقع خلاف بين الأطباء فى مشكلة من المشاكل ؟ جواب ابن رشد أن الحكم فى ذلك إنما هو الحس والمشاهدة : «وسبيل الوقوف على هذا الخلاف يكون بالحس والمشاهدة»^(٢) ، كما أنه إذا تجمعت دلائل متعارضة وتساوت فى دلالتها فالسبيل إلى ذلك هو الترجيح بالعدد ، وإن لم يمكن وتعادلت العلامات والدلالات والأدلة توقف الطبيب ويعمل فى العلاج على رجاء ، وهذا رأى ابن سينا فى أرجوزته :

فإن تضادت العلائم ضعيفة فذاك شك دائم
قف عن الأحكام والقضا وكن من الأمر على رجاء
وقف إذا تعادلت فى مذهب واقض إذا ترجحت بالأغلب

إلا أن ابن رشد بعد أن بين أن هذه الدلالات والعلامات ينبغي أن يجعل لها الطبيب درجات ومراتب حتى يستطيع أن يرجح ، قارن فى هذا بين طريقة الأطباء، طريقة الفقهاء والفلكيين ، إذا تعارضت عند الفقهاء الشهادات والمنجم فى اختلاف قوى الكواكب المختلفة بسبب اختلاف مواضعها فيكون العدد هو سبيل الترجيح إذا تعارضت ولم تتساو فأكثر الدلائل عددا هو الذى يقلب ، ويبنى عليه : «وإذا كانت العلامات متساوية فى الدرج جعل الحكم للعدد كحال ما يصنعه الفقيه (القاضى) فى الشهود المختلفين والمنجم فى قوى الأفلاك المختلفة من قبل اختلاف مواضعها»^(٣) .

(١) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٩٦ .

(٣) ابن رشد ، شرح أرجوزة ابن سينا مخطوط ص ١٩١ .

والسؤال الرئيسي أو الإشكالية الإستمولوجية هنا هي هل اليقين في علم الطب ممكن عند ابن رشد ؟ وهل يتوقف العلم عند ما قاله الأقدمون والمحدثون أم أنه ينمو ويرقى ويقرب من اليقين الذي لم يمكن أن يصل إليه من تقدم ؟

يرى ابن رشد أننا لا نستطيع أن نصل إلى اليقين في كثير من المشكلات ، ولا يجعلنا هذا العسر أن نضيق أو نياس وتوقف ، وإنما نقول في ذلك بحسب الطاقة ، إذ إنه يمكن لمن بعدنا أن يصل إلى ما لم نصل إليه من اليقين ، ويرى أن العلم في تقدم يضيف إليه المتأخر على المتقدم في الزمان .

قال ابن رشد : «ويشبه ألا يكون في أيدينا من المقدمات ما نصل به إلى اليقين في كثير من هذه المطالب ، لكن مع هذا ينبغي أن يقال في ذلك بحسب الطاقة فإنه غير ممتنع أن تلوح ها هنا أشياء فيما بعد يمكن منها الوقوف على اليقين في كثير مما لا يمكننا نحن في زماننا هذا» (١) .

وهذا في الواقع فكر رائع وأسلوب علمي واسع الأفق لا يضيق بما يعسر ، ويشكل على الإنسان ، وإنما عليه أن يذل في طاقته ويجهد إلى أن يأتي من تلوح له لوائح ، وتقوم له شواهد بها يهتدى إلى الحلول القريبة من اليقين إن لم تبلغه ، وأما بالنسبة لدرجات اليقين ، فإن ابن رشد يسمي الطريقة التجريبية بالطريقة اليقينية أيضا ، أما الطرق الأخرى التي ترجع إلى القياس فقد وصفها بأنها طرق ظنية وهي طرق خمس كان الأطباء يستعملونها في معرفة تأثير الأدوية في الأبدان: «ولما كانت كما قلنا الأصناف الثلاثة من الأدوية أعنى المعدنية والنباتية والحيوانية إنما يدرك تأثيرها في الأبدان بعد أن ترد الأبدان كانت الطريقة اليقينية في معرفة تأثيرها هي التجربة ، ولما كان قد يظن أن تأثير الدواء في البدن يجب أن يكون شبيهاً بمزاجه في الأكثر ، فإن كان مزاج الدواء حاراً يابساً وجب أن يكون

(١) ابن رشد ، الكليات ص ٨٥ .

تأثيره في البدن حرارة ويسا ، وكذلك الأمر في البرودة وسائر الكيفيات ، وكنا قد نحدد دلائل ومقاييس على أمزجة الأدوية أمكن الأطباء أن يحددوا طريقا إلى القياس على أفعال الأدوية في الأبدان أعنى إذا وقفوا بالقياس على مزاج الدواء علموا أن تأثيره في البدن هو مثل ذلك المزاج والطرق التي ذكرها الأطباء في الوقوف على أمزجة الأدوية خمسة ، من سرعة استحالة الدواء إلى النار ، ومن سرعة جموده ولا سرعة جموده ، من طبيعته ورائحته ولونه ، وهي أكثر من ذلك بكثير قد عدناها في غير هذا الموضع^(١) وقد بين هذه الطرق القياسية المشهورة في شرحه على الأرجوزة ، وعلق على ذلك مبينا أن التجربة هي المعول عليه : «فهذه الطرق المشهورة التي يمكن أن يوقف منها بطريق القياس على مزاج الدواء ، ولكن المعول في هذا المعنى على التجربة»^(٢) .

ويذكر ابن رشد طريقين آخرين منطقيين قياسيين في فحص العلل والأعراض لانطيل بذكرهما^(٣) وإن كان يعيب على الأطباء المنهج المنطقي الإقناعي : «ولما لم يفصل الأطباء هذا التفصيل كانت أقاويلهم في هذه الأشياء إقناعية منطقية»^(٤) .

فالتطبيب عنده يعتمد في العلاج على الدلائل ، ولكن يستفيد من القوة التجريبية التي تحصل له أيضا حتى تكون هذه القوة التي يسميها «بالقوة الفكرية التجريبية» هاديا له في تأكيد دلالة هذه الدلائل على موضوعها ، وعلى مقادير ما يعالج به من الأدوية ، وهذا لا يكتسب إلا بالمزاولة التي هي سبيل الكمال في علم الطب : «وذلك بحسب ما نراه من الدلائل التي سلف ذكرها ، وبحسب ما نستفيد من القوة التجريبية ، فإن ما وصف في ذلك بالقول ليس يوقف منه على المقدار

(١) ابن رشد ، شرح أرجوزة ابن سينا ص ٢٥ .

(٢) ابن رشد ، شرح الأرجوزة ص ٢٩ .

(٣) ابن رشد ، تلخيص كتاب العلل والأعراض للجالينوس ضمن الرسائل الطبية لابن رشد ص ٣٣٩ .

(٤) ابن رشد ، الكليات ص ٥٣ .

الذى ينبغي أن يستعمل من ذلك فى شخص شخص ، بل إنما ذلك إلى القوة الفكرية التجريبية ، ولذلك ما كانت هذه الصناعة تحتاج بعد حصول الأمور الكلية التى فيها إلى التجربة تحصل منها مقدمات جزئية تستعمل فى شخص شخص ، وليس يمكن أن تكتب هذه المقدمة فى كتاب ، إذ كانت غير متناهية^(١) وبذلك فإن الجمع بين الأصول النظرية والتطبيقات التجريبية أمر ذو جدوى كبيرة فى هذا العلم ، كما يرى ابن رشد أن معرفة السبب فى الأمراض ركن رئيسى فى معرفة العلاج ، ومعرفة أكبر عبء على الطبيب ، لأن الخطأ إنما يعرض له من معرفة السبب «وكان معرفة السبب هو الركن الأول الذى يبنى عليه العلاج»^(٢) .

وهكذا نرى أن ابن رشد عنى بالتجربة عناية كبرى ، وفى الوقت نفسه أكد الناحية النظرية أو الفرض أو القياس فى منهجه العلمى للوصول إلى قوانين الطب على قدر الامكان ، وعلى قدر طاقة الإنسان ، هذا وقد استعمل فى مؤلفاته كثيراً اصطلاح «القانون الطبى» كما استعمل «الكليات» و«الأصول» و«الدستورات» فإذا ما واجه الطبيب بصدد العلاج ضررين أو مرضين فقد جعل ابن رشد لذلك قانونا «والقانون الطبى فى هذا الوقت هو أن ينظر الطبيب إلى أقوى الضررين فينظر فى دفعه ، وأقوى الضررين هو الذى يخاف منه الهلاك على العليل على الفور»^(٣) .

ونجد ابن رشد يرسم لنا أحيانا منهجه فى بحوثه وكتابتها أيضا تبعا للمنهج الذى رسمه ، ففى الجزء الخاص بالأدوية والأغذية من كتابه «الكليات» ذكر خطوات عمله ، فبدأ أولاً بتعريف مصطلح الدواء ومصطلح الغذاء ثم تأثير أفعالهما ثم

(١) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٣٥٨ .

(٢) ابن رشد ، الترياق ، ص ٣٩٠ .

(٣) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٤٠٥ .

خواصهما ، وطبائع الأدوية الفاعلة ، ثم هل يمكن أن تدرك أفعال الأدوية بالقول أو بالتجربة ، ثم أسباب ما أدركته التجربة ، وهل يجمع بين القول والتجربة ، وذلك كله بعد أن يأخذ بالحقائق التي تقررت فى العلم الطبيعى فى البيولوجيا وغيرها ثم يذكر أفراد الأدوية والأغذية ، وخاصة ما كثرت تجربته فى البلدان الطبيعية (التي لم تخرج عن الاعتدال فى الحر والبرد) ، ويضيف إلى ذلك شهادة الأطباء لهذه الأدوية أو على الأقل أكثر الأطباء ، ثم ينتقل إلى القوانين تركيب الأدوية، وذكر أشهر الأدوية المركبة وطبائعها بحسب ما تقتضيه قوانين التركيب ، وبهذه الخطوات يتم معرفة هدفه من كتابة هذا الجزء (١) .

ولا يكف ابن رشد عن ذكر القانون الطبي خلال نصوصه الطبية المختلفة ، ويسمى أحيانا طريقته «طريقة البرهان الطبي» فى مقدمة كتابه «الترياق» أشار إلى أن غرضه هو إثبات على طريق البرهان الطبي للقضايا التي يقصد إليها فى دواء الترياق (٢) .

ويحذر ابن رشد أحيانا من التجربة التي تتعلق بما يسميه «الخواص» مثل خواص السموم «ولما كانت السموم إنما تفعل أكثر ذلك بالخواص كانت التجربة خطرا ، فلذلك يجب أن يقتصر الطبيب فى وقته على الأدوية المشهورة التي شهد لها الجميع غير المشكوك فيها» (٣) ، كما يحذر من المعالجة التي تكون بالعرض فحسب دون معالجة السبب ، : «فهى معالجة بالعرض (...) وكل ما كان من هذا النوع من المعالجة فى هذه الصناعة ففيه نظر ، ولا ينبغي أن يستعمل إلا عند

(١) ابن رشد ، الكليات ص ٢١٥ .

(٢) ابن رشد ، الترياق ص ٣٨٩ ، وذكر أيضا اصطلاح «القانون» فى عدة مواضع من الكليات ص ٣٢٧ «كالقانون الذى يعمل عليه من يريد تدبير الصحة» و «قوانين طبائع الأدوية المركبة» ص ٣١٣ و «قوانين التركيب» ص ٣١٤ .

(٣) ابن رشد ، فسر أرجوزة ابن سينا ص ٣٠ ولفهم «الخواص» يمكن الرجوع إلى هذا الشرح ص ٢٩ - ٣٠ .

الضرورة^(١) إذ ليست كل القضايا الطبية تؤخذ من التجربة المباشرة مع أن ابن رشد يرى أن التجربة لها قوة عظيمة فيما يمكن أن يجرب «وينبغي أن تجرب هذه الأشياء فإن للتجربة في هذه الأشياء قوة عظيمة»^(٢) فآثر الدواء مثلا إنما يكون بالإضافة إلى البدن الذي يصفه بأنه معتدل أو قريب من الاعتدال ، أما الأبدان الأخرى فلا بد أن يرجع الطبيب إلى التجربة «وللتجربة هاهنا فعل كبير»^(٣) ويطلق على هذا أيضا «المقايضة التي بين هذه الأفعال من أفعال الأدوية وبدن الإنسان»^(٤) ، غير أن بعض المسائل الطبية إنما يوقف عليها عنده بالجمع بين التجربة والقياس معا ، مثل «الاستفراغ بالفصد» : «وأما الاستفراغ بالفصد فقد يوقف على أنه فعل طبي بالتجربة والقياس ، أما التجربة فيحصل عنها علم ذلك لمن زاول شيئا من أعمال هذه الصناعة ، وأما القياس فإنه يظهر من جهتين : إحداهما أن نرى الطبيعة تشفى باستفراغ الدم في كثير من الأمراض الدموية ، وكذلك أيضا تشفى باستفراغ الأخلط أنفسها ، وهذا هو أدل دليل على استعمال الاستفراغ بالأدوية المسهلة ، وغير المسهلة في شفاء الأمراض»^(٥) . وساق أدلة أخرى من الإصراف في المطعم والمشرب ، حتى يجتمع في بدن المريض من الدم كمية زائدة على المجرى الطبيعي «والزيادة ينبغي أن تستفرغ ضرورة»^(٦) ولا يكتفى بالرياضة أو التجويع في ذلك^(٧) .

ومن الظواهر التي تكلم عنها ابن رشد ظاهرة قياس درجات استعدادات الأدوية أي درجات الكيفيات التي فيها ومقاديرها ، وذلك بنسبتها إلى الأبدان ،

-
- (١) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢٦٢ .
 - (٢) ابن رشد ، الكليات ص ٣٧١ .
 - (٣) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢١٩ .
 - (٤) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢١٩ .
 - (٥) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٣٤٢ .
 - (٦) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٣٤٢ .
 - (٧) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٣٤٢ .

فإن الأطباء جعلوا لها أربع درجات ، أو مراتب ، فالخار من الأدوية مثلا إما أن حرارته في الدرجة الأولى أو الثانية أو الثالثة أو الرابعة (١) . ولكن كيف تحدد هذه الدرجات لتناسب كفيات البدن عند المعالجة ؟ فصل ابن رشد القول في ذلك في شرحه للأرجوزة تابعا في ذلك ابن سينا :

١٠،٢	وللأطباء خلاف في الدرج	والأمر في خلافهم قد انفرج
١٠،٣	ما كان تغيير له معقولا	فذاك من درجة في الأولى
١٠،٤	وكل ما تغييره يحس	وليس بالشديد إذ يحس
١٠،٥	فذا شهادة عليه وافية	بأنه من درج في الثانية
١٠،٦	وكل ما تغييره شديد	لكنما إفساده بعيد
١٠،٧	وليس بالفسد في ممتزجه	فإنه من ثالث في درجه
١٠،٨	وكل ما يفسد ما يغير	من شدة تحرقه أو تخدر
١٠،٩	فما عليك أن تقول من حرج	بأنه في رابع من الدرج (٢)

وبين ابن رشد تبعا لذلك أن درجة الدواء تتحدد على أساس تأثيره في البدن ، فإذا كان الدواء يغير البدن أو يؤثر فيه تأثيرا خفيفا بحيث لا يدرك بالحس ، وإنما يدرك بالعقل عن طريق دليل ما سبب ضعف تأثيره ، فإن هذا يعتبر في الدرجة الأولى .

(١) ابن رشد ، المصلى نفسه ص ٢١٨ .

(٢) اعتمدنا في هذا النص على تحقيق الأستاذين : عبد القادر نور الدين ، وهنرى جيهيه Henri Jahier جامعة الجزائر ، باريس ، ١٩٥٦ ، ص ٨٠-٨١ وقد رقت الأجوزة وبلغت

ويرى جالينوس أنه أول تغيير يمكن إدراكه بالحس فقط دون احتياج للدليل عقلى وكان هذا التغيير غير قوى فإنه فى الدرجة الثانية وإذا كان هذا التأثير يدرك بالحس وكان قويا إلا أنه لا يبلغ درجة إفساد العضو الذى يغيره فهو فى الدرجة الثالثة .

والدرجة الرابعة للدواء هى إذا كان تأثيره شديدا بحيث يضر البدن الذى يعالج به فيحرقه إذا كان الدواء حارا ، ويخدره إذا كان الدواء باردا فيقال إذن إنه فى الدرجة الرابعة من الحرارة أو البرودة (١) .

وكذلك الأمر فى نبض القلب فإن الطبيب فيما يرى ابن رشد ينبغي أن يفرق فيه بين الذكر والأنثى ، وبين سكان إقليم وآخر يختلف عنه فى الحرارة والبرودة وغيرهما ، وكذلك الاختلاف فى السن والفصول الأربعة والاختلاف فى السحنة ، ويقصد بها القضاة (الهزال) وضدها السمن لأن النبض الطبيعى يختلف باختلاف هذه الأشياء . فمتى لم يحصل ذلك الطبيب لم يعرف مقدار خروج النبض عن الاعتدال فى شخص شخص (٢) .

وأطال فى بيان أجناس النبض وأنواعه فى حركتى الانقباض والانبساط وما بينهما من سكون ، فذكر سبعا من الأجناس وكذلك ما يتفرع عنها من أقسام (٣) .

فهناك نبض كبير وصغير ومعتدل ، ونبض طويل وقصير ومعتدل ، ونبض عريض ورقيق ومعتدل ، ونبض شاخص وغائر ومعتدل ، وسريع وبطيء ومعتدل ، وقوى وضعيف ومعتدل ، ومتواتر ومتفارت ومعتدل ، معتدل الوزن وغير معتدل

(١) ابن رشد ، شرح الأرجوزة ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٢) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ١٢٢ .

(٣) بلغ عدد الاصطلاحات الفنية التى ذكرها ٣٢ مصطلحا بدون حساب «المعتدل» .

الوزن ، ويشبه هذه النسب بنسب الأنغام الموسيقية ، ونبض حار وبارد ومعتدل ،
ولين وصلب ومعتدل ، وممتلىء وفارغ ومعتدل ، ونبض غزالي وذنب الفارة ،
والموجي^(١) ، والدودي ، والنملي ، والمنشاري ، وذو القرعتين ويسمى بالمطرقى ،
والمرتعد ويسمى الارتعاشي ، والملتوى والمنحنى^(٢) .

الحُدس الطبى :

استعمل ابن رشد مصطلح «الحُدس» بصيغته اللغوية المختلفة فى كتبه الطبية ،
ويسميه أحيانا «بالحدس الصناعى» وكأنه بذلك يجعله مكتسبا من مزاوله صناعة
الطب باعتباره ملكة طبية بها يتوقع الطبيب شيئا ما ، أو مأخوذ من الاشتغال
بالبحث فى هذا المجال ، ومهما يكن من أمر فإن التجربة هى المعيار الذى يسير به
ابن رشد الحدس ويصححه ، «ولذلك لابد من التجربة فى هذه الصناعة ، فإن أكثر
المقاييس التى فى هذه «الصناعة» هى براهين أسباب لبراهين وجود ، وإن أعطت
الوجود فظنا وتخميناً وهو الذى يسميه الأطباء الحدس الصناعى . ومثال ذلك أن
الحمى لو لم تكن محسوسة لما قدرنا على استنباط وجودها بالبرهان ، كالحال فى
الأنواع الموجودة ، لكن لما وجدت أمكن أن يوقف بالبرهان على أسبابها»^(٣) .

فالحدس إذن يقصد به الظن والتخمين ، وكذلك القياس الذى هو عبارة عن
إثبات برهان السبب دون إثبات برهان الوجود كما بين ذلك فى مثال الحمى .

ومن الأمثلة التى يتبين لنا فيها معنى الحدس عند ابن رشد تعدد أسباب مرض
الثآنية ، واجتماعها معا ، فتكون مركبة معقدة مما يعسر معه على الطبيب تمييزها
فيضطر إلى الحدس «وينبغى أن تعلم أن هذه الأسباب قد يجتمع منها أكثر من واحد

(١) يشبه حركته بحركة الموج .

(٢) ابن رشد ، الكليات ص ١٦٨ - ١٧٢ .

(٣) ابن رشد ، تلخيص كتاب العلل والأعراض ص ٣٣٠ .

وتتركب ، وحيثئذ يعسر تمييزها ، لكن الطيب يخمن ويحدس ويستعمل العلاج اللطيف بحسب ما يغلب على ظنه ، فإن فجح كان على ثقة بما ظن وإلا انتقل^(١) .

فهذا أوضح مثال على ممارسة الطيب الحدس الذى هو أغلب الظن ، والأكثر احتمالا فى تقدير الطيب .

وكذلك يفعل الطيب فيما يرى ابن رشد إذا جاءه شخص بده غير معتدل بالنسبة للأبدان المعتدلة فإنه يخمن مقدار الدواء الذى يناسب التأثير فى ذلك البدن ، والتجربة هى الحكم فى ذلك الحدس باستمرار : «والطبيب الناظر فى هذه الصناعة إذا ورد عليه بدن غير معتدل يخمن فى ذلك بمقدار ما يحتاج إليه من طبيعة الدواء الفاعل لذلك الفعل ، فى ذلك البدن ، وللتجربة هاهنا فعل كبير ، مثال ذلك أنا متى علمنا أن الدواء المنضج هو الذى حرارته مساوية لحرارة بدن الإنسان فينبغى أن نتأمل فى هذا المعنى فى مزاج إنسان إنسان وتخير له الدواء الذى نحدس أن هذه نسبته إليه ، وليس يجب أن يفعل هذا فى المزاج بل فى العضو فإن المقيح فى الفخذ غير المقيح فى الأذن ، وهذه كلها ينبغى أن تكون من الطبيب بهذاء ذهنه ، وللتجربة كما قلنا فى التخمين على هذه الأشياء والحدس قوة عظيمة»^(٢) .

ففى هذه المقياسة بين تأثير الأدوية وبدن الإنسان صرح ابن رشد بأن للحدس والتجربة كليهما قوة عظيمة تساعد على الوصول للمقصود ، وعلى الطبيب أن لا يغيب عن ذهنه هذا ، كما أن ابن رشد يرى أن معرفة إمكان حدوث المرض أو عدم حدوثه مستقبلا لا تتم فى الأشياء التى لم تجرب ولم تشاهد إلا عن طريق التخمين أو الحدس : «وينبغى أن تعلم أنه لاسييل إلى الوقوف فى هذا العلم على إمكان مرض يحدث أولا إمكانه مما لم يشاهد إلا بطريق تخمينى ، وذلك فى

(١) ابن رشد ، الكليات ص ٢١٢ .

(٢) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢١٩ .

الأكثر بل سبيل جميع الأمراض هاهنا أن تثبت بالحس والمشاهدة ثم تعطى فيها الأسباب»^(١) .

فالأطباء أيضا حينما أرادوا أن يقدروا درجات للأدوية من حيث أثرها في الأبدان خمنوا وحسوا فجعلوا لها في المعالجة درجات ومراتب أربعة بالقياس إلى البدن المعتدل^(٢) ، فهذه خطوة منهجية في صياغة الكيفيات صياغة كمية رياضية كما تفعل العلوم اليوم .

المزاولة :

يرى ابن رشد أن الطبيب يحتاج بعد معرفته بالكليات النظرية إلى طول ممارسة ومزاولة ، شأنه في ذلك شأن أصحاب الصنائع العملية ، وذلك لأنه تحصل له أثناء المزاولة أشياء ماكانت له بها معرفة من قبل ، فتزداد خبرته التي لا تكتب في كتاب : ولذلك يحتاج الطبيب بعد معرفة الكليات التي تحتوى عليها هذه الصناعة إلى طول مزاولة وحينئذ يمكن أن يوجد لها في المواد ، فإن الكليات المكتوبة في هذه الصناعة يلحقها عند إيجادها في المواد أعراض ليس يمكن أن تكتب ، فإذا زاول الإنسان أعمال هذه الصناعة حصلت له مقدمات تجريبية يقدر بها أن يوجد تلك الكليات في المواد ، وذلك كالحال في الصنائع العملية التي تستعمل الروية»^(٣) .

بالإضافة إلى أن القسم العملى من الطب كالجراحة والتشريح والمعالجة يحتاج إلى عمل يدوى فتعلمه والمهارة فيه تحصل بما يسميه ابن رشد «التعلم بالاحتذاء» أى مشاهدة العمل ومحاذاته في التطبيق لأن التعلم عند ابن رشد كما هو عند الفارابى

(٢) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢١٨ ، وفي «حس» تفتح المسام ، انظر الكليات ص ٣٥٦ .

(٢) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢١ .

أيضا يكون بطريقتين : طريق القول أى النظر ، وطريق الاحتذاء أى العمل على مثال مايشاهد ومحاكاته ، ولذلك فمن شرط الطبيب أن يمارس هذه الأعمال «وسمى الجزء الآخر الذى تنفرد بالنظر فيه صناعة الطب عمليا ، إذ كان قريبا من العمل وخاصة به ، وكثيرا مايجود فعله بالاحتذاء أعنى العمل ، ولذلك كان من شرط الطبيب أن يكون مع قيامه على علم الطب مزاولا لأعماله ، وأما العمل باليد فهو كما قلنا عملى محض ، وليس يتعلم بالقول منه إلا جزء يسير ، وكذلك يشبه أن يكون التشريح أعنى أنه لايتصور منه بالقول إلا يسير» (١) .

فجودة صناعة الطب ، والمهارة فيه إذن تتوقف على هذا الشرط بل إن الكمال فى الطب يتوقف على المزاوله فى مذهب ابن رشد ، ولذلك فإنه قص علينا حياته الطبية ، ويرى انه عاقه عن المهارة الكاملة فى الطب قلة المزاوله ، «وهذا الجزء من الطب «المزاوله» هو الذى أرى أنه يعوقنى عن الكمال فى هذه الصناعة ، وذلك أننى لم أزلولها كبير مزاوله ، اللهم إلا فى نفسى أو فى أقرباء لنا أو أصدقاء ، ولم أكن أيضا أتولى علاجهم بل كنت أتصفح ما يعرض لهم من التغاير عند معالجة الأطباء لهم فى وقتنا الذين هم أبعد خلق الله عن هذه الصناعة ما خلا هؤلاء القوم بنى زهر، وبخاصة أبا العلاء وابنه أبا مروان هذا المعاصر لنا فإن هؤلاء القوم كما قلنا هم على «الطريقة الطبية» (٢) .

كما قص علينا مرضه فى صغره ، وهو كما سماه «سوء مزاج الدماغ» (٣) الذى يؤدى إلى عدة أمراض أخرى «فى الخلق والرئة واللهامة وقروح الرئة وقروح الفم ، وانقطاع الصوت والبهر ، وربما مال الفضل إلى معدهم فأفسدهم إن كان باردا «أى مزاج الدماغ» ... وأصحاب هذه العلة يتجشئون جشأ حامضا كما

(١) ابن رشد ، شرح الأرجوزة ص ٦ .

(٢) ابن رشد ، الكليات ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .

(٣) وهو ما سبب له مرضا مزمنيا فى المعدة ، ويعبر عنه الناس اليوم بالحموضة .

عرض لى ذلك وأنافى ، فأكسب معدتى سوء مزاج لست بعد أقدر على دفعه ،
وذلك أيضا مع سوء المعالجة لى فى ذلك الوقت فىانى ماكنت حيثذ حذقت شيئا
من أعمال الطب^(١) .

فهو على حق فى نقد أطباء زمانه ، ماعدا بنى زهر ، إذ أساءوا علاجه فى
صغره ، وأتعبوه فى كبره .

ويذكر لنا ابن رشد أيضا أن صناعة الجراحة كادت تندثر فى عصره «لكن
أعمال اليد جلها فى زماننا هذا قد دثر»^(٢) وقد عجب صديقنا الأستاذ شيبان^(٣)
من عدم ذكر ابن رشد لأبى القاسم الزهراوى «ت ٤٢٧ هـ» صاحب كتاب :
«التصريف» الذى وصفه المؤرخون للطب بأنه أفضل كتاب كتب بالعربية فى
الجراحة ولذلك ترجم إلى العربية واللاتينية^(٤) ، وكان على حق فى هذا التعجب ،
ولكن بعد قراءتى لشرح على أرجوزة ابن سينا^(٥) وجدت أنه ذكره مرة أثناء
الكلام على الغذاء الجيد من الخبز «وأثنى الزهراوى على خبز الطابق ، وجعله مثل
خبز التنور»^(٦) وإن كان لم يشر إليه إطلاقا فى كتابه الكليات ، مع أنه فيما يبدو
يهتم بالتشريح إذ جعله من الأدلة على معرفة الأعضاء الباطنة ، ويظهر بالتشريح أن
بين الكبد والطحال اتصالا^(٧) «كما استدل به على أن القلب ينبوع الحرارة

(١) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٢) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٤٠٧ .

(٣) أستاذ طب العيون ورئيس القسم بمستشفى مصطفى باشا بالجزائر العاصمة .

(٤) Max Meyerhof , (Esquisse d, histoire de la pharmacologie et Botanique chez les Musulmans d, Espagne) , in Studies in Medieval Arabic Medicine, Variorum Reprints, London, 1984 , px12 .

(٥) أثناء وجودى بجامعة قطر سنة ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م .

(٦) ابن رشد ، شرح الأرجوزة ص ٧٢ .

(٧) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٤٥ - ٤٩ .

البدن وأن منه تنبت إلى جميع الأعضاء^(١) وجعل المشاهدة بالحس دليلا في مدة مواطن من «الكليات» وإذا شك كرر^(٢) المشاهدة حتى يصبح عنده ماثك فيه .

ويشير إلى بعض مشاهداته للمرضى على نحو ماكان يفعل الرازى : «وقد شاهدت أن قوما ماكانت بهم حميات مزمنات فأشار عليهم بعض أطباء وقتنا باستعمال السكنجبين^(٣) دائما ، فصاروا إلى الاستسقاء وهلكوا»^(٤) .

وبهذه النظرات المنهجية الواضحة التى فى أعمال ابن رشد الطبية ، فإننا نكشف عن روح وثابة ، تنوق إلى تحقيق مقصد العلم ، من توسيع معرفة الإنسان ، وفهمه للوقائع والأشياء ، وتوسيع آفاق تحكمه فيها ، ومراقبته لها ، واستعمال ذلك كله لتحسين الظروف التى يحياها الإنسان ، واكتشافه كيف تجري الأشياء فى عالمنا هذا ، وهذه النظرة الفاحصة الناقدة التى تنو إلى اتساع أفق المعرفة وضبطه ، تشعر فى الآن نفسه بأن معرفة الإنسان غير كاملة ، وأنها تنطوى على أخطاء ، وأن تصحيح هذه الأخطاء بعد اكتشافها من رسالة العالم ، ويعنى هذا أن تقدم العلم البشرى يستلزم النقد الذاتى ، وغير الذاتى ، لغرض التفتن إلى النقص ، وإلى ما عسى أن يكون هنالك من خلل ، وهذا ما يمكن الإنسان من أن يتعلم ويزداد علما وعلماء ، فالعنصر الحركى الإبداعى فى تاريخ العلم ليس هو مجموعة النظريات والأحكام التى يصل إليها العلماء ، وإنما هو هذا الترقان ، وهذا الشوق الدافع لهذا النشاط العلمى الذى تتولد عنه القوانين والنظريات ، وفهم الوقائع والعلاقات فيما بينها .

وليس المعيار أو السبار الوحيد للحقائق العلمية هو التجربة ، إذ يمكن أن تكون

(١) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٤٩ .

(٢) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ٢٣ ، ٤٣ ، ٤٠٩ .

(٣) دواء مركب من العسل والخل .

(٤) ابن رشد ، الكليات ، ص ٣٧٦ .

هناك سبارات دون اللجوء إلى التجربة ، فالإمكانات أحيانا قد تكشف نظريا قبل أن تعرف أمثلتها فى الواقع ، وهذا يمكن أن تكون له أهمية تقنية مثل اكتشاف أينشتاين إمكانية تحويل الكتلة : «Mass» إلى طاقة حركية Kinedic Enecy أو الاكتشاف النظرى لليزر : Lasers قبل أن يصبح ذلك واقعا مصنوعا ، وكثيرا مايرهن بأن ظواهر معينة ممكنة ، وأن بعض هذه الظواهر يتأتى إحداثها بطريقة جديدة أو بشروط أخرى مستحدثة ، فالعلم النظرى المحض يكشف أولا أمثلة لإمكانات ، ثم تفسر هذه الإمكانات ، فى حين أن العلم التطبيقى يستعمل تفسير هذه الإمكانات لإبداع أمثلة لها ، وبصفة عامة ، فإن أى شكل من أشكال أفعال الذكاء ، يتطلب فهما للإمكانات ، فالإنسان لايمكن من تغيير العالم والأشياء ، حسيا بدون أن يأوله وأن يفهمه قبل ذلك بالرغم من أن تغيير الأشياء هو أمر ضرورى من أجل تصحيح التأويلات المخطئة وتعميق الفهم .

وعيل ابن رشد فى صميمه تحققت فيه هذه الروح العلمية المبدعة ، فكان يشك ، وينقد الأطباء الغابرين والمعاصرين له ، ويتحقق من نظرياتهم ، وتجاربهم ، وفروضهم ، ويتوق إلى توسيع مجال المعرفة ، بل كان ينقد نفسه ، فيرى أنه لم يبلغ الكمال فى الطب لأنه لم يزاوله مزاولة كافية ، وأنه عنى بالكليات والقوانين أكثر من عنايته بالجزئيات ، والحدوس الفردية فى شخص شخص من بنى الإنسان .

ولكن كان فى اكتسابه للمعرفة العلمية يقوم بخطوة أولى تتمثل فى أن معرفة قضية من القضايا أو اكتشافها تتوقف على القدرة على إدراك إمكانية أن تكون تلك القضية حقا أو باطلا ، والخطوة الثانية اكتشاف أن هذه القضية حق بالتجربة أو المشاهدة أو باختبارها وسبرها أو بالاستدلال عليها قياسيا ، عن طريق ماقد ثبتت صحته بالتجربة من قبل ، أو بالجمع بين هذه السبارات جميعا .

فالخطوة الأولى تتضمن سؤالا ، والثانية تحمل جوابا ، وكتبه الطيبة قائمة على

هذه الأسئلة ، وعلى هذه الأجوبة ، وعلى الشكوك فى أشياء تدعوه إلى السؤال فيها، والجواب عنها ، فلم ينبج جالينوس على شهرته من نقد ابن رشد ، كما لم يفلت الرازى وابن سينا ، ومن إليهم من الأطباء القدماء والحدث كما يسميهم ، فليس هناك عنده سلطة علمية سوى سلطة التجربة أو السيارات الأخرى ونتائجها، كما أن ذلك يتطلب قبل ذلك خيالا وحدها وإبداعا ، لأنه لا تختبر أية ظاهرة دون تخيل شروط ملائمة لاختبارها ، وذلك كله يرجع إلى مجرب مبدع، وينبغي أن تكون له فطانة فائقة ، لأن تعيين صحة قضية تجريبية معينة ، عن طريق تجربتها ، له حالات كثيرة ممكنة ، وهذا يؤدي إلى القول بأن اختبارا واحدا لقضية واحدة لا يضمن اليقين المطلق إذ هنالك عدد لانهاية له من التجارب التى يمكن الأخذ بها ، لتصحيح المنهج العلمى ، كما أن هنالك عددا لا نهاية له من الافتراضات ، ولذلك يعتمد الباحث إلى أكثر هذه الافتراضات احتمالا ، ولا يدعو هذا إلى اليأس .

وكما يرى كارل بوبر karl popper فإن المعرفة العلمية تتقدم عن طريق الحدس والدحض المتتابعين ، لأن العلماء لا يبنون ، ولا يستطيعون أن يبنوا النظريات من خلال المشاهدات والتجارب الخالصة ، لأن معطى المشاهدة والتجربة لا يفهم نفسه ولا تأول التجربة نفسها بنفسها : They are not self - interpreting أو لا ترجم عن حقيقتها ، ومن ثم فإن العالم فى نظره يجب أن يحدث حدسا جيدا «يفترض فرضا أو نظرية» عن الصفة أو الطريقة التى يجرى عليها شىء ما من الأشياء ، ثم يختبر ويسبر ، مع قدرة على مراقبة المشاهدة والتجربة ، ولكن مثل هذا السبار أو الاختبار لا يمكن أن يبرهن برهنة نهائية على ذلك الحدس ، بحيث يؤدي هذا البرهان أو السبار إلى الاعتقاد بأنه أثبت نتيجة يقينية ، وهذا شأن مشكلة الاستقراء ، فإذا قبلنا المنهج الاستقرائى فإن الدرس الذى نتعلمه منه ، هو أن نبحث أكثر فأكثر عن أمثلة تؤيد وتنصر حدسنا ، وعن أمثلة أخرى أيضا يمكن لها

أن تدحض هذا الحدس وتبطله ، فإذا برهنا أن كل أهوب فلا ننظر بعد ذلك فيما إذا كانت كل أهوب ، وإنما ننظر في الأمثلة التي يمكن أن تؤدي إلى القول بأن أليس هوب، وهكذا فالصبيغ التي نحصل عليها قد تدحضها أمثلة مضادة أو نافية ، فطريق الدحض لايهتم به العلماء كثيرا ، فهم يرون أن العلم تعميم من أمثلة معطاة ، تنصر الفروض وتصحيحها ، دون أن يعنوا بما قد ينفيها من أمثلة عناية كافية .

فابن رشد في آرائه المنهجية - التي تعمدنا أن تأتى بنصوصها وإن طالت حتى لانتهم بالنزعة التمجيدية أو القومية - يدرك تمام الإدراك البعد التاريخي للعلم، لأن ما يستجد من حدوس وافتراضات إنما يبنى على ما هو قد سبق ، ما كان منها قد دحض ومالم يدحض بعد ، بيد أن عملية الدحض هذه لايميل إليها العلماء بقدر مايميلون كما قلنا إلى مايبث قضاياهم العلمية ، فالعلماء هم آخر الناس الذين يتجهون إلى دحض فروضهم وحدوسهم ، فهم بالعكس يميلون إلى الدفاع عنها بأى بديهة كانت في صالحهم بالإضافة إلى أن العلم ليس دائما عملية تراكم وتواصل بسبب ما يحدث من ثورات في المنهج والأسس العلمية ، مثلما حدث مع نيوتن أو اينشتاين أو كوبرنيك ، في الفيزياء ، وفي الفلك ، كما أثبت ذلك Thomas Ruhn في كتابه The Structure of Scientific Revolutions (١٩٦٢) وكذلك بوبر K. Popper في كتابه (1934) Scientific Discovery .

ولابن رشد رؤية واضحة لهذا البعد في مجال المنهج العلمى ونتائج المؤقتة فالمنهج العلمى عنده وإن كان غير معصوم ، لابتنائه على الاحتمال ، إلا أنه أنسب منهج لمعرفة صحة القضايا العلمية ، لأن اليقين ليس أمرا ميسورا ، ويتطلب تطاول الزمن وأعمارا تواصل البحث ، هذا إذا كان العلم اليقيني في حد إمكان الكائن البشرى .

فابن رشد يمثل الروح العلمية المبدعة للحضارة الإسلامية التي هاجرت إلى

بلدان الغرب ، وغرست فى أرضها ، وآتت ثمراتها فى النهضة الأوربية التى بنيت
فىما بنيت عليه على منهج ابن رشد وفكره ، الذى بلغ أوج نوره الوهاج لتلك
الشمعة التى قص علينا ابن خلدون قصة انطفاء جذوتها ، وهى عينها التى لفظت
أنفاسها الأخيرة متوهجة فى فكر ابن خلدون .



مفهوم العدل والتربية عند أفلاطون

أ. د. فتح الله خليف *

لأفلاطون منزلة خاصة في تاريخ الفكر الإنساني لا يستطيع أن ينكرها معاند . فهو أستاذ أرسطو ، وهو مؤسس أول مدرسة علمية فلسفية دينية في أثينا في القرن الرابع قبل الميلاد سميت بالأكاديمية وهو الاسم الذي نستعمله اليوم تيمنا بأفلاطون واقتداء بأكاديميته ونظيرته للغرض من كل بحث علمي .

وظلت هذه الأكاديمية قائمة يتخرج فيها العلماء والفلاسفة وتصبح الفكر الأوروبي بصبغة أفلاطونية على امتداد عشرة قرون إلى أن أغلقها الإمبراطور

* وكيل كلية الآداب بجامعة الإسكندرية سابقا، ورئيس قسم الفلسفة السابق بكلية الإنسانيات جامعة قطر .

جستنيان Justnian عام ٥٢٩م^(١) . بل إن آباء الكنيسة من علماء اللاهوت المسيحي أفلاطونيو النزعة حتى القرن الثالث عشر .

أما في العالم الإسلامي ، فأفلاطون يحظى باحترام وتقدير عظيمين ، فهو في مؤلفات الإسلاميين دائما «أفلاطون الإلهي»^(٢) . عرفوه ووقفوا على بعض محاوراته : وقفوا على المأدبة وسموها النادي ، وفيدون عندهم هي فاذن . أما الجمهورية فأطلقوا عليها السياسة المدنية ، وهي ترجمة أصح من ترجمة شيشرون لكتاب «بوليتيا» لأفلاطون الذي ترجمه بـ Res Publica أى الجمهورية فشاعت هذه الترجمة الخاطئة . في هذه المحاوره يفصح أفلاطون عن آرائه في العدل والتربية وهما موضوع هذا البحث .

كان أفلاطون بحكم نشأته الأرستقراطية يحتقر الحكم الديمقراطي في أثينا ، فلما هزمت أثينا أمام الفرس وأحرقت معابدها وشرذ أهلها^(٣) ، ثم أعدم سقراط ، أدرك أن الديمقراطية نظام فاسد لا يحقق العدالة للمواطنين ، وأيقن أن الحكومة العادلة لا ترجل ارتجالا ، إنما يجب التمهيد لها بالتربية والتعليم ، فقضى حياته يفكر في السياسة ويمهد لها بالفلسفة .

وكانت اسبرطة هي المدينة اليونانية الوحيدة التي لم تهزم في معركة ولم تقم فيها فتن ولاثورات ولم تشهد مجاعات فأتجه إليها أفلاطون يتأمل نظام الحكم فيها ويقتبس من نظمها المثل الأعلى لمدينته الفاضلة التي تصورها في محاوره الجمهورية أو كما يسميها فلاسفة المسلمين : السياسة المدنية .

1- Burnet, J . Greek Philosophy, pp . 213- 14,
Papermac 9, London, 1962.

(٢) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج٤ ص ٨٢ ، مطبعة صبيح ، القاهرة .

(٣) محمد كامل عياد ، تاريخ اليونان ، ج١ ص ٣١٦ ، ٣١٨ ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر ، القاهرة . ١٩٨٠ .

وكانت هزيمة أثينا في نظر اليونانيين أمام الفرس تعنى هزيمة الحضارة أمام البربرية وهزيمة الغرب أمام الشرق . وبدأت المقارنات بين الترف والحكم المركزي الاستبدادي والانقياد للتقاليد الدينية الرسمية والطاعة العمياء عند شعوب تعيش كالقطعان في الشرق ، وبين التقشف ونظام المدن المستقلة واحترام الشخصية الفردية والعقل الانتقادي والتفكير الفلسفي في الغرب . ومازالت هذه المقارنات عند كثير من المؤرخين الأوروبيين إلى يومنا هذا^(١) .

لم تكن اسبرطة تختلف عن أى مدينة يونانية حتى القرن الثامن قبل الميلاد . فقد أسهمت ككل المدن اليونانية الأخرى في تقدم الفنون والآداب وأنجبت الشعراء والفنانين ، ولكنها ضحت بكل شيء لتصبح دولة عسكرية غايتها الوحيدة النصر في الحرب ، وتبلور دستورها حول هذه الغاية في القرن السابع قبل الميلاد . ولم يعد لإسبرطة أى مشاركة في الحضارة اليونانية منذ ذلك الحين ، وأصبحت تشبه إلى حد بعيد ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية في العصر الحديث .

لكنها لم تكن كذلك في نظر سكان المدن اليونانية الأخرى . فالغريب القادم إليها من أثينا أو ملطية في القرن الخامس قبل الميلاد يشعر أنه انتقل إلى عصر بعيد يمتاز فيه الرجال بالبساطة والشجاعة والإقدام والحسن ، لم تفسدهم الثروة ، ولم تلبيل ألسنتهم أو تضطرب عقولهم بتعارض الآراء^(٢) .

أما بالنسبة لأفلاطون الذي كان يفتش عن طريقة للحكم والحياة فقد كانت إسبرطة هي المدينة الفاضلة أو المدينة المثالية التي تقوم على نظام صارم من البساطة والجمال والاستقرار .

(١) المرجع السابق ص ٣٥٤ .

(2) Russell , B., A History of western philosophy,
pp . 117 - 118, London, 1946.

تقضى هذه النظم الصارمة والقوانين والأعراف فى إسبرطة - كما ينص دستور البلاد الذى وضعه ليقورج - على تقسيم الأرض وتصنيف الناس وتوزيع عادل للثروة لكى ينتفى الثراء الفاحش والفقر المدقع لأنهما أصل البلاء والشور والفتن والثورات التى تقوض أركان الحكم فى البلاد . فالأراضى كلها ملك للدولة، لاتباع ولا تشتري ، تقسمها الدولة إلى مساحات متساوية وتوزعها على الإسبرطيين ، وتحرم عليهم زراعتها بأنفسهم لأن الإسبرطى لا ينبغي أن يشتغل بمثل هذه الأعمال التى لاتليق بالسيادة ولا تتفق مع الكرامة ، إنما يجب أن يكون الإسبرطى متفرغا للخدمة العسكرية ، مستعدا دائما للحرب .

ويقوم الرقيق Helots بزراعة الأرض مقابل نصيب محدد من غلة الأرض . والعبد كالأرض لا يباع ولا يشتري وحده ولكنه لصيق بالأرض توزعه الدولة على المواطنين الإسبرطيين مع الأرض . فكل إسبرطى بالغ يعيش على ريع الأرض الممنوحة له . وبذلك لا يوجد بين الإسبرطيين غنى أو فقر . بل إن الدستور ينص على أن يكون الطعام واحدا للجميع ، ويلزم الناس أن يتناولوا طعامهم معا ، ويحرم عليهم اقتناء الذهب والفضة ، أما العملة فقد نصت القوانين على ضربها من حديد ، ويمنع الدستور الإسبرطيين من السفر خارج البلاد ، كما لا يسمح لأى غريب بالدخول إليها إلا للعمل خوفا من انتشار العادات السيئة الوافدة من المدن الأخرى^(١).

على أن أهم مسألة ينبغي الالتفات إليها هى عناية ليقورج فى دستوره بتربية الأطفال . فعندما يولد الطفل يأتى به والده أمام لجنة من المراقبين لفحصه ، فإن كان صحيح الجسم أعيد لوالده لتربيته ، وإن كان مريضا أو معتلا أو ناقص التكوين أو مشوه الخلقة قذفوا به فى حفرة عميقة ليموت . وفى سن السابعة يؤخذ الأطفال من

(1) Ibid., 114 - 115 .

منازلتهم ليعيشوا معا فى مدرسة واحدة يخضعون فيها لحياة شاقة ليس فيها أى نوع من الرفاهية ، فمثلا لا يستحمون إلا فى أيام معينة من السنة ، ولا يلبسون إلا ثيابا رثة تكشف عن معظم أجزاء الجسم ، ولا ينامون إلا على أسرة من القش ، ولا يسمعون إلا الأناشيد الوطنية والموسيقى الحماسية ، ويعهد إليهم بأعمال مرهقة ، ويتلقون تدريبات رياضية شاقة . والهدف من وراء كل ذلك هو إعدادهم لتحمل الألم وعدم الاكتراث به واعتياد الحياة الخشنة وانقيادهم للأوامر وطاعتهم لها ، تلك الطاعة التى لم تكن عندهم حادثا نفسيا أو فعلا من أفعال الإرادة يعبر عن شخصية الفرد ، بل كانت عندهم مفهوما ميثاقيا يعنى الخضوع الاضطرارى لقانون مقدس تفرضه الإرادة الإلهية . ولذلك كان المواطن الإسبرطى مضرب الأمثال فى العالم اليونانى كله فى انقياده وطاعته^(١) .

ولم يكن فى تلك المدارس أى تربية ثقافية أو علمية ، إنما كان الهدف التربوى من تلك المدارس الكبيرة التى تضم أعدادا كبيرة هو إعداد الجندى الذى يهب نفسه وحياته كلها للدولة .

وفى سن العشرين تبدأ الخدمة العسكرية الفعلية حتى سن الثلاثين ، وعندها يصبح الرجل مواطنا إسبرطيا مؤهلا لخوض أعنف المعارك . هؤلاء الرجال يعيشون معا ويأكلون معا ويفكرون جميعا بعقلية واحدة وتسيطر عليهم فكرة واحدة وقرت فى نفوسهم بالتربية ، وهى أنهم وجدوا فى الحياة من أجل دولتهم ، لا من أجل أنفسهم^(٢) .

وكانت شجاعة هؤلاء الرجال فى الحرب مضرب الأمثال وموضع إعجاب اليونانيين جميعا . ويذكر المؤرخون أمثلة كثيرة منها أنه لم يتخلف عن معركتهم

(١) محمد كامل عياد ، تاريخ اليونان ح ١ ص ١٩٣ .

Russell , p. 115 .

(٢)

مع الفرس سوى شخصين أحدهما مريض والآخر أعمى . وقد أصر الأعمى على الخروج إلى أرض المعركة قتل ، أما المريض الذى أقعده المرض فقد عيروه بالجبن ، والتصقت صفة الجبن باسمه فأطلق عليه اريستوديموس «الجبان» لكنه مالبث أن مسح هذا العار عن اسمه حين قتل فى إحدى المعارك فى العام الذى يليه .

وكان وضع المرأة فى إسبرطة عجيبا ، فلم تعزل المرأة أو يضرب عليها الحجاب مثل بقية نساء المدن اليونانية المحصنات . إنما كانت الفتاة تتلقى نفس التدريبات الشاقة مع الأولاد . ولكن ما هو جدير بالذكر أن الأولاد والبنات كانوا يقومون بالتدريبات سويا ، عرايا بدون ملابس على الإطلاق .

ولم يكن عريهن شيئا مخجلا أو قبيحا أو شائنا عند الإسبرطيين . لقد كانت الغاية من العرى هى حفز الفتاة إلى العناية بجسمها واكتشاف عيوبها . وكانت الألعاب التى يقمن بها عرايا مع الشبان مليئة بالبهجة والمرح لاثير عوجا نحو رغبة أو شهوة . أما فى بقية المدن اليونانية الأخرى فقد كان الشبان يقومون بكل الألعاب عرايا تماما ، فالألعاب الأولمبية مثلا كانوا يزاولونها عرايا تماما . ويذكر بلوتارخ أن الهدف من تدريب الفتيات هو تقوية أجسامهن لكى لايشعرن بآلام الحمل والوضع .

وكان محرما على النساء أن يظهرن أى عواطف لانفع منها للدولة . فلا ينبغي لهن أن يحزن على إعدام طفل مريض أو موت ابن فى معركة . وللدولة أن تأمر المرأة التى لم تنجب من زوجها أن تستبضع من رجل آخر لعلها تنجب منه ، وليس للمرأة أن تبتجج ولاينبغى لزوجها أن يعترض فإن الغاية هى المصلحة العليا للبلاد . كذلك من حق أى رجل أن يطأ امرأة رجل آخر وينجب منها ، ولا وجه للغيرة الحمقاء لأن ليكورغ لا يحب أن يكون الأطفال ملكية خاصة لأى رجل ، لكنهم جميعا أبناء جميع الناس من غير تحديد أب أو أم .

ولم تكن الجنسية المثلية سلوكا شاذا أو شائنا إنما كانت إلغا معتادا في إسبرطة، توجه إليها التربية في سن المراهقة، وتمارسها الفتيات مع بعضهن كما يمارسها الشباب مع بعضهم. ويذكر بلوتارخ أنه كان لكل فتاة فتاة مختارة تمارس معها هذا السلوك، كما يذكر أنه في أحد المعارك الحربية صرخ أحد الشبان من شدة آلام جراحة فقدم الشاب الذي يمارس معه الجنس للمحاكمة وحكم عليه بغرامة لأنه اختار أن يمارس الجنس مع جبان^(١).

كل هذه الوقائع التي تبدو لنا اليوم غريبة، يستحيل تحقيقها، كانت أمرا واقعا في إسبرطة. ولكن الغريب حقا أن تكون موضع إعجاب فيلسوف عظيم كأفلاطون، فيتأثر بها ويتبناها ويقدمها في صورة خدعت أجيالا متعاقبة من المفكرين المعجبين بجمهوريته إلى يومنا هذا، دون أن تعي أو تشعر بما تنطوي عليه جمهورية أفلاطون من قيود فظيعة وقوانين وحشية. وذلك قدر كل العظماء: يتمسح الناس بهم وبأعمالهم دون أن يحاولوا فهم مقاصدهم. لكننا نريد اليوم كشف الغطاء عن مقاصد أفلاطون واستخلاص النتائج المترتبة على آرائه في العدل والتربية جميعا.

تدور محاوراة الجمهورية حول موضوع رئيسي هو الفحص عن العدل وطبيعته. ولذلك يتساءل بعض مؤرخي الفلسفة أحيانا عما إذا كانت محاوراة الجمهورية محاوراة سياسية أم محاوراة أخلاقية. والحقيقة أنه ليس هناك فصل بين السياسة والأخلاق عند أفلاطون وأستاذه سقراط. فالفضائل الخلقية عندهم هي الأساس الذي تقوم عليه قوانين الدول ودساتيرها لأن الهدف هو دائما خير الإنسان وسعادته.

والعدل من بين الفضائل جميعا هو الفضيلة التي تؤثر في علاقات الناس

(1) Ibid., pp. 115 - 116.

بعضهم . فإن انتفى العدل لم تعد الحياة ممكنة بين الناس . ثم إننا من ناحية أخرى لا يتيسر لنا معايشرة الناس ومعايشتهم دون فهم طبيعتهم ، وفهم الخير الملائم لهذه الطبيعة البشرية . ولذلك يجب علينا أولاً: أن نحدد مفهوم العدل ، وثانياً : نعرف على الطبيعة البشرية ، ثالثاً : نكشف عن الخير الملائم لها . وكل ذلك لانستطيع أن نتوصل إليه إلا بواسطة منهج قويم للتربية^(١) .

ولذلك يقترح أفلاطون منهجاً للتربية يستمد مقوماته من عقيدة يونانية راسخة تميز بين نفس وجسم أو بين تربية ثقافية Cultural education وتربية بدنية Physical education . أو ما يسميه أفلاطون موسيقى وجيمناستك.

وكلمة موسيقى music أو Musike مأخوذة من كلمة muse وأل muse هي إلهة الموسيقى ورعاية النغم والإيقاع وربة هذا الفن في الميثولوجيا اليونانية ، وهي إحدى الإلهات التسع الشقيقات ، بنات زيوس الجميلات ، اللواتي يحمين الفنون والعلوم من غناء وشعر ورقص وحب وموسيقى وفلك وتاريخ.

فكل ما يتعلق بالفنون والعلوم يدخل تحت الموسيقى التي يتسع معناها عند أفلاطون لتدل على مانسميه اليوم ثقافة Culture ولذلك فنحن لانخطيء عندما نطلق عبارة تربية ثقافية على ما يسميه أفلاطون موسيقى.

والغاية من التربية الثقافية هي التهذيب أو هي بالضبط تنشئة الإنسان الذي يمكن أن نصفه «بالسيد المهذب» أي أل gentleman بمفهوم الإنجليز اليوم .

أما الجيمناستك gymnastke فيشمل التدريبات الرياضية واللياقة البدنية جميعاً . والغاية من الجيمناستك أو التربية البدنية هي غرس صفات الصرامة والشجاعة واستقامة الجسم ومرونته ، ولذلك يقترح أفلاطون أن يكون الغذاء

(1) Guthrie , W. K. C., A History of Greek philosophy , V.4, pp. 436 -

449, Cnabridge University press , London, 1975.

بسيطا ، خالياً من التوابل والبهارات ، والصلصة ، كما لا يؤكل اللحم إلا مشويا ، ويجب الامتناع عن أكل السمك .

وينبغي أن ننتبه إلى أن التربية البدنية ليست مقصورة لذاتها إنما الغرض منها تهذيب النفس أيضا ، بل إن الغاية من التربية كلها هي تنبيه العنصر الروحي وإيقاظه في الإنسان . فإن كانت التربية البدنية تهدف إلى تنشئة النشئ على الشجاعة ، فيجب أن تكون الشجاعة من غير توحش أو تهور ، كما يجب أن لا تقودنا دراسة الفلسفة إلى التمتع . وهذه الصفات المتضادة تؤلف بينها التربية وتحقق بينها الانسجام لكي نوجد الطبيعة المتحضرة الحقة ، وتلك هي صدى مثالية بيركليز Percles في نظريته للسلوك الأثيني : حب الجمال من غير تبذل والتفلسف من غير تنعم^(١) .

فلسفة التربية عند أفلاطون تقوم على دعامتين :

الأولى : مراعاة الترابط والانسجام بين النفس والجسم .

والثانية : مراعاة الترابط والانسجام بين القيم الجمالية ، حيث يقرر أفلاطون صراحة بأنه إذا كان على أولادنا أن يقوموا بأعمالهم في هذه الحياة بكفاءة فعليهم بمراعاة الترابط والانسجام بين القيم في كل ما يرومون عمله ، ولا سيما الانسجام والترابط بين النسب والإيقاع ، والشكل والمضمون التي ترد الكل المعقد إلى الوحدة التي تسر العين وتطرب الأذن ، وسوف يجدون هذا الانسجام في كل شيء يعملونه : في التصوير والنحت والرسم والنسج والغزل والعمارة وصناعة الأثاث ، وفي الإطار الإنساني أيضا ، وفي كل أعمال الطبيعة الناطقة والصامتة .

ولاشك أن عدم مراعاة هذا الانسجام في أي عمل من الأعمال يعني انحطاط التفكير والسلوك جميعا . بينما يبلغ الإنسان إلى أعلى درجات الامتياز الخلقى

(1) Ibid., V.4, p. 455 .

وضبط النفس عندما يلتفت إلى هذا الانسجام فى حياته وفى أعماله .

فلا بد أن نبحت عن العمال المهرة الذين تقودهم طبائعهم إلى كل ماهو نبيل ورائع حتى يتسنى للصغار أن ينغمسوا فى هذا الجو ويتشربوا خصائصه ويتنفسوا فيه ، متمتعين بصحة نفسية عالية ومتأثرين بالأعمال الجليلة التى تقع عليها أعينهم وآذانهم منذ الطفولة ، ومن هنا كانت الأهمية القصوى للشعر والموسيقى فى تربية الصغار (١) .

لكن ذلك كله لابد أن يخضع لرقابة صارمة من قبل الدولة لما للشعر والموسيقى من أثر كبير على سلوك الأولاد . فتحدد الدولة نوع الموسيقى التى يستمع إليها الأطفال . فتحرم عليهم سماع موسيقى الليدين لأنها تشيع الحزن والأسى فى النفس ، وموسيقى الأيونيين لأنها تدعو إلى الاسترخاء ويصرح لهم بسماع موسيقى الدورين فقط لأنها تبعث على الحماس . بعبارة أخرى لا يسمعون إلا المارشات العسكرية ، كذلك ينبغى أن تكون آلات العزف وترية بسيطة ، ولا يصرح باستعمال آلات وترية معقدة أو آلات هوائية تعمل بالنفخ كالأرغن أو باحتواء الهواء كالطبل (٢) .

أما الشعر فالمراد به شعر هوميرو فى الإلياذة بالذات الذى نظم به قصص آلهة اليونان وأبطالهم ومعاركهم وأخبارهم وأساطيرهم . هذه القصص ينبغى تطهيرها من كل معلق بها من آثام لكى يكون أثرها طيبا على الأطفال . ينبغى أن تحذف كل القصص التى تصور الآلهة والأبطال تصويرا سيئا ، تلك القصص التى تصور الآلهة يكذبون أو يظلمون لأننا إذا لم نطمئن إلى عدالة الآلهة فلا معنى للالتزام بالعدل فى الدنيا إذا لم نجد له نصيرا فى السماء . كذلك لا ينبغى أن نعرض على

(1) Ibid, V.4, P. 451.

(2) Ibid, V. 4, p. 453.

الأولاد قصصا تصور الأبطال يخافون الموت ، أو تصور الأشرار سعداء والانتقاء
تعاء .

أما الدراما فيحرمها أفلاطون ويحمل عليها لأن الممثل يقوم فيها بتقليد
المجرمين والنساء والعبيد ، ولا ينبغي للرجال المتأزين الأحرار الأشراف أن يقوموا
بمثل هذه الأدوار لأن الأعلى لا يجوز أن يقلد الأدنى .

ويرى أفلاطون أن يؤخذ الأطفال عند الولادة من آبائهم إلى دار حضانه كبيرة
ينشأون فيها معا حتى يتسنى للدولة أن تشرف على تربيتهم وتنشئهم وإعدادهم
لحراسة الدولة فى الداخل والخارج أى إعداد الجنود والحكام . وهؤلاء هم التلاميذ
عند أفلاطون الذين يهتم بتربيتهم . أما أبناء الفلاحين والتجار والصناع فيتركهم
وشأنهم بل ويعفيهم من أى التزام خلقى أو مشاركة فى السياسة والحكم وهكذا
يهمل أفلاطون الكثرة الغالبة فى المدينة .

معنى هذا أن التربية عند أفلاطون إنما هى لطيفة مخصصة من الناس فى مدينة
معينة . وتلك مشكلة تواجه أفلاطون لانجد لها جوابا فى جمهوريته ، كذلك
تواجه أفلاطون مشكلة اختيار الأطفال منذ البداية ذوى المواهب التى هلمهم
لحراسة المدينة وتلقى هذه التربية . أليس من الواجب أن ننتظر حتى نكتشف
مواهبهم واستعداداتهم خلال هذا البرنامج التربوى الذى أخضعناهم له ؟^(١) .

وبدلا من أن يواجه أفلاطون هذه المشاكل الناجمة عن مذهبه يمشى فى بيان
أوصاف جمهوريته فيصرح بأن من واجب الدولة أن توظف التربية لتنشئة النشئ
على الإيمان بالكذوبة كبرى أو أسطورة كبرى جاءت على لسان الأقدمين تقول إن
المواطنين جميعا إخوة وأن الأرض هى التى أنجبهم ومنحتهم سواعدهم وكل
مواهبهم ، وعندما اكتملت لكل واحد طبيعته انشقت بطن الأرض وبعثت بهم إلى

(1) Ibid, V. 4, pp. 455 - 461 .

سطحها .ولابد أن أمتنا الأرض ككل أنثى – قد أقدمت على الزواج لكى تنجب ، فتزوجت من الإله بروميثيوس ، الذى وضع الذهب فى الحكام والفضة فى الجند والحديد والبرونز فى الفلاحين والتجار والعمال .

فالاختلاف بين هذه الطبقات فى القدرات فطرى وسوف يبقى . لقد كان أفلاطون مؤمنا بتباين الطبيعة البشرية مثلما تتباين المعادن^(١) . وكان ذلك الاعتقاد راسخا مغروسا فى أعماق التراث اليونانى . ومهمة التربية هى كشف الغطاء عن تلك القدرات الفطرية وجلاء الصدا عن معادن البشر .

ويعترف أفلاطون أنه من الصعب على رجال التربية أن يحملوا الجيل الأول على تصديق هذه الأسطورة أو الأكذوبة ، ولكن الأجيال التالية التى تبنى على الإيمان بهذه الأسطورة إيماناً لا يتزعزع سوف لا تشك فيها ، وأفلاطون على حق فى اعتقاده بأن الأسطورة لا تنتشر بين الناس ويصدقون بها إلا خلال جيلين . وفى العصر الحديث وظفت التربية فى اليابان منذ عام ١٨٦٨ لكى تغرس فى الأطفال أن الميكادو هو ابن إلهة الشمس ، ولذلك خلقت اليابان قبل أن تخلق أى بقعة فى العالم وكان كل أستاذ فى جامعات اليابان يشك فى صحة هذا الاعتقاد يفصل من وظيفته لنشاطه المعادى للمعتقدات اليابانية^(٢) .

ومن الغريب أن أفلاطون لم يلتفت إلى أن الكذب وإذاعة الأساطير بين الناس لا يتفق مع ما تقتضيه الفلسفة من تجرد للحق ، كما أنه لم ينتبه إلى أن توظيف التربية على هذا النحو يطفى نور العقل ويعوق نمو ملكاته .

قلنا إن التربية عند أفلاطون موجهة أصلاً إلى طبقة الحراس وهم الجند والحكام . والجند طبقة رفيعة من المواطنين يختار من بينهم الحكام . ويجب أن يكون الجند

(1) Ibid, V.4, pp. 462 - 463 .

(2) Russel, p. 134 .

أقوياء يتميزون بالشجاعة . لكن خلقا كهذا حري به أن يكون متوحشا عدوانيا . فكيف يمكن أن نقى المواطنين شرهم ، أعنى شر عدوانهم وتوحشهم ؟ دعونا نلقبهم بكلاب الحراسة ، أى حراسة المدينة، حتى يمكن أن نفهم طبيعة تلك الكائنات . نلاحظ أنه توجد مخلوقات مفترسة تارة مع قوم ، ورقيقة تارة مع قوم آخرين ، والمحك فى ذلك هو المعرفة ، فإن الكلاب تفترس الغريب حتى ولو لم يؤذها ، وترحب بمن تألفهم وتعرفهم حتى ولو لم يظهر لها أى عطف . وفى ذلك يظهر الكلب قدرا من التفلسف ، فإن الفلسفة ليست سوى محبة العلم ، وإثارة المعرفة ، تلك المعرفة التى ينبغى أن تتاح للحراس إذا أردنا منهم سلوكا سليما مع جيرانهم . والخلاصة أن الجند ينبغى أن يكونوا ككلاب القطيع : هينين لينين علي الغنم ، مفترسين للذئاب التى تحاول الاعتداء علي القطيع ، ومهمة التربية هى خلق هذين الشعورين المتضادين فى الطبيعة الإنسانية وضبطهما وتحقيق التوازن بينهما^(١) ، وينبغى على الدولة أن تصون الحراس من جند وحكام عن التعرض لأى إغراء ، فتوفر لهم الدولة المسكن والغذاء ، وتحرم عليهم اقتناء الذهب والفضة .

والنساء لهن كل حقوق الرجال من تربية ووظائف حرية وحكم ، فإن نفس التربية التى تجعل من الرجل مواطنا صالحا تجعل من المرأة حارسة ممتازة لأن طبيعتيهما واحدة ، أما الفوارق بين الذكر والأنثى فلا شأن لها بالسياسة والحراسة . فبعض النساء يصلحن للحكم وبعضهن للقتال تماما كالرجال . والحارسات يشاركن الحراس السكن والغذاء ، وكل الحارسات زوجات على المشاع لكل الحراس ، وترتب الدولة أوقات معينة كل سنة يتم فيها الاتصال الجنسي بقصد الإبقاء على عدد السكان ثابتا ، وينبغى تحديد أوقات الاتصال الجنسي للحراس والحارسات بدقة للتأكد من تحسين النسل ، ويضرب أفلاطون أمثلة لتحسين نسل الخيل والكلاب و الطيور بل إنه يسمي الحراس بالقطيع ، لافرق بينهم وبين

(1) Guthrie , pp . 466 - 68 .

الحيوانات فى هذا الشأن . وتأخذ الدولة كل الأطفال وتعزلهم عن آبائهم . أما الأطفال الذين يولدون خارج نطاق أيام الإخصاب التى تحددها الدولة فأطفال غير شرعيين ، كذلك فإن الاتصال الجنسى فى غير الأوقات التى تحددها الدولة يعد جريمة . وتحدد الدولة سن الإنجاب للمرأة بين سن ٢٠ - ٤٠ وللرجل بين ٢٥ - ٥٥ . وخارج حدود هذه السن لابد من إجهاض المرأة لو حملت فوق سن الأربعين أو لو جاء الحمل من رجل فوق سن الخامسة والخمسين .

وليس للأفراد أى اختيار فى مثل هذا الزواج الذى تنظمه الدولة فى فترات معينة لكى تكون الأجسام والتربة فى أتم أحوالها استعداد للإخصاب ، إنما هم فقط منفذون لمشية الدولة واضعون نصب أعينهم خيرها الأسمى . وتلك هى التعاليم التى ينبغى على التربية غرسها فى الناس لكى تختفى الأسرة من المدينة . وباختفاء الأسرة تختفى من المدينة كل إغراءات الطمع والأنانية كما يختفى المنبع الأكبر للقلق والحيرة . بكلمة واحدة يريد أفلاطون أن يقضى على النوازع الفردية وغرائز التملك ، لإزالة العقبات أمام الشعور بالواجب العام^(١) .

أما وقد خططنا المدينة فينبغى أن نفحص أين يكمن العدل فيها ؟ يعتقد أفلاطون أن مثل هذه المدينة لابد وأن تحوى كل الفضائل وهى عنده أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل . لكن أفلاطون لا يقدم دليلا على هذا الحصر ، وذلك يقلل من أهمية هذا رأى ويدعونا إلى التشكك فى صحته أيضا .

وهذه الفضائل الأربع متحققة فى مدينة أفلاطون : فالحكام عند أفلاطون هم الحكماء أو الفلاسفة الذين يعرفون . ومعرفة الحكام أو الفلاسفة ليست معرفة تقنية أو تخصصية مثل معرفة الطب أو الهندسة أو الزراعة أو التجارة . إنها معرفة لاتنصب على موضوع خاص محدد . إن المعرفة التى يرتادها الحاكم الفيلسوف

(1) Ibid., pp . 479 - 482 : Russell, p. 132 - 33; Taylor, plato, pp. 277 - 78, University Paper Backs, London, 1960 .

ويتدرب عليها هي عند أفلاطون معرفة الغايات وليست معرفة الوسائل ، هي معرفة الخير الأعظم الذى يستطيع الفيلسوف وحده أن يقترب منه . هذه المعرفة هي أصعب وأسمى معرفة ، وهي مقصورة على طبقة محدودة جدا فى مدينة أفلاطون هي طبقة الفلاسفة أو الحكام الحكماء . وهذا رأى هو امتداد لرأى سقراط وحكمته التى تقرر بأن «الفضيلة علم» (١) .

وكما أن المعرفة هي وظيفة الفلاسفة أو الحكام وسنتهم الملائمة لطبيعتهم فكذلك الشجاعة هي صفة الجند ، لا لأنها مقصورة عليهم ، بل لأنها صفتهم الغالبة التى تطبع سلوكهم وحياتهم وتميزهم.

ولقد كانت مهمة التربية عند أفلاطون هي اكتشاف وتنمية تلك الاستعدادات الملائمة لطباع الناس . وهذه الاستعدادات النفسية موجودة عند كل البشر بقدر ما ، ولكن الذى ينبغي أن نكشف عنه بالتربية هو الخاصية النفسية الغالبة .

ونلاحظ أن الشجاعة فضيلة تتحلى بها طبقة أكثر عددا فى مدينة أفلاطون . كما أن مفهوم الشجاعة عند أفلاطون يعنى القدرة على إصدار الأحكام الصائبة فى كل الظروف حول ما يخيف وما لا يخيف . ومعنى ذلك أن الشجاعة تستلزم قدرا من المعرفة لكى لاتنزلق إلى التهور .

أما العفة أو ضبط النفس فى المدينة ، أو المدينة العفة المنضبطة فهى المدينة التى يتحقق فيها انسجام رغبات حراسها من جند وحكام ، ولا يتم هذا الانسجام ويتحقق إلا بصيانة الحراس عن التعرض لأى إغراء لاسيما إغراء الجنس والمال ، ولذلك اقترح أفلاطون أن يكون الجنس والمال على الشيوع بين الحراس .

أما الفضيلة الرابعة والأخيرة فهى العدل ، والعدل هو الفضيلة التى تمنح

(1) Guthrie, pp . 471 - 73 .

الفضائل الثلاث - أعنى الحكمة والشجاعة والعفة - القدرة والدينامية لكى تسود المجتمع ، تلك الدينامية التى تكمن فى قيام كل طبقة فى المجتمع بالوظيفة التى اختص بها . وحيث توجد تلك الفضائل وتسود ترفرف على المجتمع أسباب الخير والسعادة . فالعدل هو صمام الأمن فى المدينة .

ولاشك أن هذا مفهوم للعدل ينطوى على معنى رفيع . ونستطيع أن نفهم نظرية أفلاطون فى العدل لو رجعنا إلى العقائد الراسخة فى التراث اليونانى . فقبل أن تنشأ الفلسفة كان عند اليونان تصور للكون يمكن أن نسميه تصورا دينيا أو أخلاقيا . وفقا لهذا التصور فإن كل شىء فى العالم له مكانه المقدر أزلا وأبدا ، وله وظيفته التى وجد من أجل تحقيقها ، وذلك لايوقف على رغبة زيوس كبير آلهتهم ، لأن زيوس نفسه يخضع لنفس القوانين الكونية التى تحكم كل شىء فى الكون وتحدد مكانه ووظيفته ، وهذه النظرة ترتبط بفكرة القدر أو فكرة الختمية ، وكلما وجد ميل للخروج على هذا القدر أو الاحتجاج عليه كان ذلك خروجا على العدالة الكونية واحتجاجا على «المقدر والمكتوب» ومن ثم يضطرب العالم ويضطرب النظام فيه (١) .

هذه النظرة تسربت إلى الفلاسفة من أعماق التراث الذى يشكل وجدانهم ، ولاشك أنها تكمن وراء نظرية أفلاطون فى العدل ، تلك النظرية التى لا تتمشى مع مفهومنا للعدل الآن حيث يأخذ العدل معانى متعددة فى أيامنا هذه : فالعدل عند السياسيين مثلا يرتبط بالمساواة لاسيما فى النظم الديمقراطية ، وفى القانون المدنى يعنى إعطاء كل ذى حق حقه ، وفى القانون الجنائى يعنى ألا يعاقب إنسان على جرم لم يرتكبه (٢) .

أما الظلم فيقع فى مدينة أفلاطون ويختل نظامها لو أن أحدا من العمال مثلا

(1) Russell, p . 134 .

(2) Ibid ., p . 135 .

حاول أن يمتن مهنة الحراسة المنافية لطبيعته . وكذلك يقع الظلم لو وجد أناس بين العمال أو الجند أعقل من الحكام . غير أن نظام التربية الذى يقترحه أفلاطون للحكام حتى سن الخمسين كفى بأن يجعلهم أكفأ الناس .

بعد أن فحصنا عن العدل فى المدينة بقى علينا أن نتعرف على طبيعته فى الفرد. والأفراد كالمدين لهم نفس الخصائص ، فيجب أن نقوم بتعددية مفهوم العدل فى المدينة إلى الأفراد . فبين المدينة وبين النفس شبه قوى : فإن للمدينة ثلاث وظائف هى الإدارة والدفاع والإنتاج تقابل قوى النفس الثلاث : الناطقة والغضبية والشهوانية . الحكمة فضيلة القوة العاقلة تكملها بالحق والمعرفة الحققة وهى فضيلة الحكام فى المدينة . والشجاعة فضيلة القوة الغضبية تساعد العقل على ضبط الشهوانية فتقاوم إغراء اللذة ومخافة الألم . فالشجاعة عليها أن تدعن للعقل بالطاعة والمعونة ، وترويضها يأتى بالتربية ويتأكد بالمران ، وهى فضيلة الجند فى المدينة وسمتهم الغالبة . أما العفة وضبط النفس فهى فضيلة القوة الشهوانية يتحكم فيها العقل ولايسمح للشهوة بأن تدمر حياة الإنسان فإن الشهوة لو طلبت لذاتها أودت بحياتنا ، وهى فضيلة الطبقة العاملة بالإنتاج فى المدينة . والأصل فى الشهوة أنها مصاحبة للفعل تهدف إلى تسكين ألم طبيعى . فنحن أول ما أكلنا أكلنا لسد الرمز وتسكين ألم طبيعى هو الجوع ، فلما أكلنا وجدنا الأكل لذيقا ، ولذلك أحيانا يأكل الإنسان على الشبع لأن الأكل لذيقا . ومعنى ذلك أننا نقاد للذة وللشهوة ، وذلك مدمر لحياتنا . فالذى يقف أمام اللذة هو العقل .

وعلى ذلك فالموقف الخلقى عند أفلاطون وعند معظم فلاسفة الأخلاق من بعده إلى يومنا هذا ينشأ حين يقوم الصراع بين العقل والشهوة . لكن الصراع الحقيقى الذى غاب عن أفلاطون وعن فلاسفة الأخلاق ليس بين العقل والشهوة من حيث هما ، ولكنه بين أنواع الشهوات المختلفة ، إذ نلاحظ الصراع بين شهوة المال

وشهوة الجنس وشهوة السلطة ، وما إليها مما لاحصر له من لذات الدنيا وشهواتها .
ويعتقد أفلاطون أن هذه الفضائل الثلاث - أى الحكمة والشجاعة والعفة - إذا
حصلت فى النفس تحقق الاتزان أو الانسجام النفسى والخلقى جميعا . وتحقق هذا
الاتزان والانسجام فى النفس هو بعينه العدالة فى الفرد عند أفلاطون . فإذا كانت
الصحة ليست شيئا سوى انسجام أعضاء البدن فكذلك العدل ليس شيئا آخر غير
انسجام قوى النفس .

فالعدالة فى الفرد كما هى فى المدينة تكمن فى مزاولة كل قوة نفسية فى
الإنسان وكل طبقة اجتماعية فى المدينة لوظيفتها على خير وجه . فليست العدالة
فضيلة خاصة ، ولكنها حال الصلاح والبر الناشئة عن اجتماع تلك الفضائل فى
النفس ، وحين يتسم سلوك الإنسان بالعدل فإن مثل هذا الإنسان سوف لا يشتبهى
المال ولا يخون الأصدقاء ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل ، فإن الإنسان الصالح فى نفسه
صالح بالضرورة فى معاملاته .

وتستتبع العدالة السعادة مهما يكن من حال الجسم وشئون هذه الحياة . فقد
تنزل بالرجل العادل المصائب ، ويتم زورا ، ويجلد ويعذب ، ويوثق بالأغلال ،
وتكوى عيناه ، ولكنه مع ذلك سعيد بعدالته . أما الطاغية الذى ينكل بالناس ،
والسياسى الذى يفتك بخصومه فكلاهما شقى فى نفسه ، وشرير ، لأن الظلم
أعظم الشرور .

فالعدل فى الفرد عند أفلاطون نوع من الصحة النفسية ، أما الظلم فمرض
وانحطاط وضعف .

تلك هى مدينة أفلاطون الفاضلة ومفهومه بالعدل والتربية فيها . انحصرت
أهدافها مثل إسبرطة فى أمرين : المهارة فى الحرب وتوفير الغذاء . وكان أفلاطون
قد عاش عصر هزيمة أثينا كما قلنا وشهد المجاعة فيها ، وربما وجد أن أفضل مايقوم

به الحاكم هو أن يقى وطنه ويلات هذه الشرور : الهزيمة والمجاعة .

وهكذا لم يعد للإنسان قيمة فى ذاته فى نظر أفلاطون وإنما أصبح مجرد أداة
ومطية لبلوغ الدولة أهدافها . وذلك فى رأينا هو أفدح الشرور جميعا فى جمهورية
أفلاطون وفى كل النظم الدكتاتورية فى العصر الحديث التى تبنت آراء أفلاطون
ووظفت التربية لبلوغ مآربها .



الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية لدى ابن رشد

أ.د. محمود حمدى زقزوق *

تبيهد :

لا تزال بعض المؤلفات الأجنبية المعاصرة تحذو حذو المؤلفات الأوربية القديمة فى الخلط بين موقف «ابن رشد» وبين «الرشدية اللاتينية» حول القضية المعروفة - فى فلسفة العصور الوسطى - بقضية : «الحقيقة المزدوجة» التى يذهب دعائها إلى القول بوجود حقيقتين متعارضتين .

وكثيراً ما نسبت هذه المؤلفات إلى ابن رشد - فى هذه القضية - مذهباً لم يقل به على الإطلاق . فقد ورد - على سبيل المثال لالحصر - فى «معجم المفاهيم الفلسفية» ، الصادر فى هامبورج عام ١٩٥٥ ، أنه :

«فى حين كان توماس الأكوينى يرى إمكان التطابق والتكامل بين العقيدة

• أستاذ الفلسفة الإسلامية ، وعميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر .

والمعرفة فإن «ابن رشد» ودانس سكوت ووليم الأوكامى قد ذهبوا إلى القول بأن ما هو حق من الناحية الفلسفية قد يكون باطلاً من الناحية الدينية ، وأن التناقض بين العقيدة والمعرفة أمر لا يمكن تفاديه ، ولذلك دعا هؤلاء (حرصاً على الحقيقة الدينية) إلى الفصل بين الفلسفة والدين^(١) .

ولم يتوقف أمر هذا الخلط عند اتهام ابن رشد بالقول بتعارض الحقيقتين : الدينية والفلسفية ، وإنما تعداه - فى أوروبا - بالزندقة واعتباره رمزاً للإلحاد . ولا يزال هذا الزعم يتردد صدهاء - فى قوة - فى بعض الكتابات المعاصرة^(٢) .

ومن ناحية أخرى يذهب بعض الباحثين إلى القول بأن نقطة الانطلاق فى موقف ابن رشد من التوفيق بين الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية إنما يتمثل فى «النظرية الأفلاطونية المحدثة المتأخرة القائلة بوحدة الحقيقة على اختلاف مظاهرها» وأن هذه النظرية كانت - فيما يرى هذا البعض - هى : السبيل المنطقى الوحيد الذى كان يوسع الفلاسفة المسلمين أن يبرروا بواسطته مباحثهم الفلسفية ، ويرضوا المتكلمين ، ويرووا غليل العقل التواق إلى الانسجام الذاتى « بل ذهب جوتيه إلى القول بأن نظرية الطبقات الثلاث للأولة (البرهانية والجدلية والخطابية) التى استخدمها ابن رشد فى هذا المجال نظرية إغريقية بحثة^(٣) .

ومحاولتنا فى هذا البحث الموجز تهدف إلى أن هذه الدعاوى التى شاعت وانتشرت حول موقف ابن رشد من قضية التوفيق بين الدين والفلسفة ليس لها أساس تستند إليه فى فلسفة ابن رشد . وحتى لا يتشعب بنا البحث إلى أكثر مما

(١). Hoffmeister O Wörterbuch der philosophischen Begriffe, p.176, Hamburg 1955.

(٢) راجع: رينان: ابن رشد والرشدية - ترجمة عادل زعيتر - الصفحات ١٨٧، ٢٨٨، ٣٠١، ٣٠٦، ٣٠٨ - القاهرة ١٩٥٧ ، راجع أيضاً : جوتيه : المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ، ترجمة د. محمد يوسف موسى ، ص ١٧٨ - القاهرة ١٩٤٥ .

(٣) راجع : ماجد فخري : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٣٧٧ ، بيروت ١٩٧٩ ، وأيضاً : جوتيه ص ١٨٣ .

ينبغي فإننا نرى أن تقتصر المحاولة على معالجة النقطتين التاليتين :

١- المنطلق الحقيقى للفلسفة الإسلامية بصفة عامة ولابن رشد بصفة خاصة فى قضية التوفيق بين الحقيقتين الفلسفة والدينية ، ثم الإشارة بعد ذلك إلى صحة التأثير الأفلاطونى الحديث على فلسفته فى هذا الصدد .

٢- الأساس الحقيقى الذى اعتمد عليه ابن رشد فى قضية التوفيق بين الدين والفلسفة وتطبيق ذلك على قضية «وجود الله» .

وليس من همتنا تفصيل القول فى مسائل جزئية طرحها ابن رشد ليدحض من خلالها زعم التناقض بين الحقيقة الفلسفة والحقيقة الدينية ، وإنما ينحصر غرضنا فى معالجة الموقف المبدئى الذى انطلق ابن رشد فى فلسفته حول هذه القضية .

أولاً :

المنطلق الحقيقى لفلاسفة المسلمين فى قضية التوفيق بين الدين والفلسفة :

(أ) قضية التوفيق بصفة عامة :

ليس هناك شك فى أن مسألة التوفيق بين الدين والعقل ، أو بين الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية ، قد شغلت الفكر الإنسانى منذ أقدم عصوره ، وأن المفكرين من مختلف الديانات قد حاولوا - بصورة أو بأخرى - إقامة نوع من التوفيق أو المصالحة بين الدين والعقل ، فلم يخل فكر دينى من الاشتغال بهذه القضية بشكل أو بآخر . وليست محاولات فيلون (٣٠ ق م - ٥٠ م) فى التوفيق بين الفلسفة اليونانية وحقائق التوراة ، ومحاولة رجال الفلسفة المسيحية فى القرون الوسطى ، وكذلك جهود الفلاسفة المسلمين فى هذا المجال - ليست هذه المحاولات إلا دليلاً على أن الفكر الدينى فى اليهودية والمسيحية والإسلام لم يجد مفرأ من مقابلة الحقائق الدينية بالحقائق الفلسفية ثم محاولة إزالة ما قد ينشأ بينهما من تعارض أو تناقض.

أما محاولة التوفيق في الفلسفة الإسلامية فإن بواكيرها الأولى قد ظهرت لدى أول الفلاسفة المسلمين وهو الكندي ، ذلك الذي وصفه البيهقي بأنه : « قد جمع في بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات »^(١) فالكندي برغم سعة معارفه الفلسفة وإحاطة الدقيقة بمذاهب الفلاسفة اليونانيين ، وتمكنه من فلسفة أرسطو على وجه الخصوص ، فإنه كان ذا قدم راسخة الحقائق الدينية . ودفاع الكندي عن القضايا الدينية يدل على عقلية فلسفية واعية ، وينم عن روح إيماني عميق يسرى في استدلالاته وبراهينه على قضايا الدين ، وهو لا يتردد في أن « يخالف أرسطو في قدم العالم ويؤكد العناية الإلهية وصفات الإله المبدع الفعال المدبر الحكيم ، ويخرج من نظره الفلسفي بوجهة نظر عام تقوم على فهم الدين بالعقل الفلسفي إلى مذهب ديني فلسفي معاً »^(٢) .

ومن ذلك يتضح أنه منذ البواكير الأولى للفكر الفلسفي الإسلامي ، كان الدين والفلسفة يتعاقبان ويتجاوران في عقول فلاسفة الإسلام . وهنا لابد من افتراض وجود منطلق أساسي ثابت وراء التقاء الحقيقة الدينية بالحقيقة الفلسفية ، ووجود خلفية دينية تصحح وحدة الغاية والهدف بين الدين والفلسفة عند مفكرى المسلمين وهذا المنطلق الأساسي أو الخلفية الدينية هو ما يمكن أن نسميه بوحدة الحقيقة في الإسلام .

(ب) الإسلام ووحدة الحقيقة :

إن المتأمل في تعاليم الإسلام يجدها تسير في اتجاه «وحدة الحقيقة»^(٣) ، فقد كرم الله الإنسان بالعقل ، وأعلى شأنه بقيمة التفكير ، وحثه على ضرورة ممارسة

(١) تمة صوان الحكمة ص ٢٥ من طبعة لاهور ١٣٥١ هـ «نقل عن: الكندي وفلسفته للدكتور أبو ريده ص ٥٨» .

(٢) الكندي وفلسفته للدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده ص ٥٨ - دار الفكر العربي ١٩٥٠ .

(٣) لقد أدرك هذا المعنى أعرابي بسيط عندما سئل : لم آمنت بمحمد؟ فقال : ما رأيت محمداً يقول في أمر: «افعل» والعقل يقول : لا تفعل ، وما رأيت محمداً يقول في أمر: «لا تفعل» والعقل يقول : أفعل . ٥١٢

العقل لوظيفته التى خلق من أجلها وهى : التفكير والتأمل فى الكون كله بأرضه
وسمائه وما بينهما . وهذا المعنى قد عبرت عنه - فى وضوح تام - آيات باللغة
الكثرة فى القرآن الكريم ، ومن هذه الآيات - على سبيل المثال لا الحصر -
قوله تعالى : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى
ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (١) .

فالتفكير الذى تنص عليه الآية هنا أمر جوهري فى الوعى بالكون ، ولا ينبغي
أن يغيب عن الأذهان أبداً ، فإنه إذا كان الكون بكل أبعاده مسخراً للإنسان فإنه لا
يصح من هذا الإنسان أن يقف منه موقف اللامبالاة ، بل لابد له أن يتخذ حياله
موقفاً إيجابياً . وإيجابيته تتمثل فى تأمل الكون ودرسه والنظر فيه بما يعود على
البشرية بالخير . فالاستفادة من كل هذه المسخرات فى هذا الكون لا تكون إلا بالعلم
والدراسة والفهم (٢) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نجد أن « الوسطية الإسلامية » التى تضع
المادة والروح على قدم المساواة أمام المسلم ، هذه النظرية قد تركت بصماتها عميقة
وواضحة على العقلية الفلسفية عند المسلمين بحيث دفعتها دفْعاً إلى الاتجاه نحو
التوفيق بين الحقيقتين : الدينية والفلسفية (٣) .

وإذا كان الأمر كذلك فليس بصحيح - من وجهة نظر إسلامية - أن توضع
المسألة على أساس أن هناك خصوصية بين الدين والعقل ، وأن على الإنسان أن
يختار بينهما . فالحقيقة، هى أنهما عنصران متكاملان ولا يتناقضان ، وأن الإنسان
فى حاجة إليهما معاً . والدين الصحيح لا يمنع العقل البشرى من التفلسف، ولا

(١) سورة المجاثية ١٣ .

(٢) انظر بحثنا : دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى - ص ٥ ، مكتبة وهبة ١٩٨٤

(٣) المرجع السابق ص ١٨ وما بعدها ، انظر أيضاً تعليق د. محمد يوسف موسى فى : المدخل إلى الفلسفة
الإسلامية لجروتييه ص ١٩٧ .

يحجر على حقه فى الفهم والتفكير فى ملكوات السموات والأرض ، وإنما يطلق له العنان فى ارتياد آفاق الكون ملاحظة ، واسنباطا ، ويدفعه إلى ذلك دفعاً ، بل إن العقل - فى المفهوم الإسلامى - هو مناط إنسانية الإنسان ومعناه وجوهره . فإذا عطل بالجهل والغفلة فإن ذلك يعنى إلغاء إنسانية الإنسان والهبوط به إلى مرتبة الحيوان . وهذا هو ما يعبر عنه القرآن الكريم وهو يصف الذين لا يستخدمون وسائلهم المعرفية من حس وعقل : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ﴾ (١) .

وقد أكد هذه الحقيقة الشيخ محمد عبده فى كتابه «رسالة التوحيد» حين قال : «وتأخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبي مرسل بتصريح لا يقبل التأويل ، وتقرر بين المسلمين كافة - إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه - أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا عن طريق العقل كالعلم بوجود الله وقدرته على إرسال الرسل» (٢) ، وما يتصل بذلك من إدراك محتوى الرسالة والتصديق بها ، «كما أجمعوا على أن الدين إذا جاء بشئ قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل» (٣) . ومن هنا فإن العقل - كما يقول الشيخ محمد عبده - من أشد أعوان الدين الإسلامى (٤) .

ومن المعروف فى هذا الصدد أن القرآن الكريم قد جمع القضايا الرئيسية للفلسفة فى آية واحدة فى معرض الحث على النظر فيها وصولاً إلى المطلق الذى هو فى النهاية غاية كل فيلسوف . وذلك واضح تمام الوضوح فى قوله تعالى : ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (٥) . ففى هذه الكلمات

(١) الأعراف ١٧٩ ، انظر أيضاً كتابنا : تمهيد للفلسفة ص ٩١ ، ٩٢ - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٦ .

(٢) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ٤٥ «دار إحياء العلوم بيروت ١٩٧٩»

(٣) المرجع السابق ص ٤٥

(٤) المرجع السابق ص ٥٣ .

(٥) سورة فصلت ٥٣ .

القليلة لإشارة إلى القضايا الفلسفية الكبرى : العالم ، الإنسان ، الله . والتأمل في هذا الترتيب الوارد في الآية يجد أن هذا الترتيب هو نفسه الذى صار عليه فلاسفة اليونان بدءاً بالكون الذى هو أول ما يبصره الإنسان حين يفتح عينيه ، ومروراً بالإنسان - الذى أصبح محوراً للتفلسف حين أنزل سقراط الفلسفة من السماء إلى الأرض ، أى من النظر فى الكون إلى النظر فى الإنسان ذاته - ثم انتهاء بقضية الألوهية التى يسمونها : الفلسفة الأولى أو العلم الأعلى . وقد اكتملت حلقات هذه القضايا فى فلسفة أفلاطون وأرسطو على السواء .

حقيقة الأمر إذن أنه ليس ثمة صدام أو تعارض بين الدين كدين وبين الفلسفة كفلسفة . وقد وعى ذلك عديد من الفلاسفة فتوفروا على الكشف عن هذه الحقيقة التى كانت تمحجها - فى فترات متباعدة - تجاوزات خارجية ليست من طبيعة الفلسفة ولا من طبيعة الدين^(١) وقد تمثلت هذه التجاوزات فى الصراعات التى حدثت بين الفلاسفة من جانب ورجال الدين من جانب آخر نتيجة لتعصبات لاشأن لها بجوهر الفلسفة أو جوهر الدين .

واستقراء تاريخ العلاقة بين العقل والإيمان يبين أنه لم يحدث بينهما نزاع أدى إلى استبعاد العقل واضطهاد أهله إلا تحت تأثير اجتماع عاملين : أولهما : حين تكون لدى رجال الدين سلطة تمكنهم من اضطهاد العقل وأهله ، فإن أعوزتهم قنوعوا بالغيبة وانتقموا بالنميمة .

وثانيهما : حين يجرؤ العقل على اقتحام المنطقة الحرام التى حرمها رجال الدين ، ويرتاد آفاقها إلى اكتشاف مجهول أو إنكار مألوف ، وهكذا يجر العقل على نفسه بسبب جرأته ويقطعه غضب خصومه . وبغير اجتماع هذين الأمرين لا يقوم نزاع أو تصادم بين العقل والدين^(٢) .

(١) كما فعل ذلك ابن رشد فى كتابيه : «فصل المقال» و «الكشف عن مناهج الأدلة» .

(٢) د . توفيق الطويل : قصة النزاع بين الدين والفلسفة ص ١١ من الطبعة الثانية .

ومن هنا نستطيع أن نؤكد - فيما يتعلق بموضوعنا هذا - أن تعاليم الإسلام ذاته حول وجوب التفكير العقلي ، وحول التوازن بين المادة والروح - كانت وراء هذه الجهود الفلسفية الدقيقة التي طالعنا بها فلاسفة الإسلام في مسألة التوفيق بين الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية .

وتأسيساً على ذلك نقول : إن الزعم القائل بأن الأفلاطونية الحديثة هي مصدر القول بالحقيقة الواحدة في الفلسفة الإسلامية زعم يفقد مبرراته المنطقية والتاريخية، ويصبح ادعاء بغير دليل ، وكذلك ما يقال من أن إخوان الصفا - انطلاقاً من تأثرهم بالأفلاطونية المحدثة - كانوا أول من روج لهذه النظرية في القرن العاشر الميلادي ، وأنها من المفترضات الأساسية في نظام الكندي والفارابي وابن سينا ... إلخ (١) - هو أيضاً قول يدخل في باب الافتراضات التي لا دليل عليها . فمن المعروف أن إخوان الصفا لم يسمع بهم ولا برسائلهم قبل عام ٣٣٤ هـ (٢) . وقد توفي الكندي قبل هذا التاريخ بأكثر من ثمانين عاماً ، ولم تكن هذه النظرية الأفلاطونية المحدثة حول وحدة الحقيقة - والتي أذاعها إخوان الصفا - قد عرفت في عصر الكندي أو انتشرت في أيامه . وفضلاً عن ذلك فإننا لا نجد في ثنايا كلام الكندي وفلسفته حول هذه القضية ما يدل على هذا التأثير المزعوم .

وإذا كانت الفلسفة الإسلامية لم تتأثر في هذه القضية بالذات بمؤثرات أجنبية، فإن ابن رشد - شأنه في ذلك شأن بقية فلاسفة المسلمين الذين شغلتهم هذه القضية - لم يتأثر أيضاً بمؤثرات خارجية عن طريق الأفلاطونية الحديثة أو عن طريق إخوان الصفا أو غيرهما من مؤثرات ، وإنما كان اعتماده في المقام الأول على الأصول الإسلامية الكامنة في عقل ابن رشد وكيانه الديني والفلسفي ، وهذا أمر يتضح في كتابه : «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» و«الكشف

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية لماجد فخري ص ٣٧٧ .

(٢) معجم أعلام الفكر الإنساني ص ٤٥٧ .

عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة الذى ألفه وهو فى الخامسة والخمسين من عمره كما يؤخذ من كلامه فى نهاية هذا الكتاب .

ولكن رفضنا للقول بتأثير ابن رشد فى هذه القضية بمؤثرات أجنبية لا يعنى رفضنا لتأثير ابن رشد بأية مؤثرات خارجية وبصورة مطلقة . فلسنا ننكر أن ابن رشد قد تأثر بمؤثرات أجنبية فى جوانب أخرى من فلسفته ، والذى نود التأكيد عليه هو أن قضية التأثير ينبغي أن تطبق بحذر وبدقة ، وذلك مع إيماننا فى الوقت نفسه بأن التراث الإنسانى يقوم على الأخذ والعطاء ، وأنه لا توجد أمة عريقة فى التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث .

ولعل الأقرب إلى الصواب فى قضيتنا هذه أن الأمر فيها على العكس مما يقال ، أى أن ابن رشد وهو يعالج هذه القضية كان يتمسك بالأصول الإسلامية ويتثبت بها ، وذلك بعد أن هزت عدوى التناقض بين الفلسفة والدين من المسيحيين إلى المسلمين فى الأندلس فى ذلك الوقت ، وأن موقف ابن رشد هنا كان موقفاً تصحيحياً واجه به هذا الأثر السلبي الطارئ على مجريات الفكر العقلى فى الإسلام فى الأندلس . ولاشك أنه موقف يكشف عن الوجه الحقيقى للفلسفة الإسلامية فى هذا المجال .

ونحن نفهم أن يلجأ باحث ما إلى افتراض مؤثرات أجنبية خارجية يفسر بها موقفاً أو آخر من مواقف الفيلسوف حين تخلو عقيدة هذا الفيلسوف أو أصوله الفكرية من المبررات الكافية لاتجاهه أو مذهبه . ولكن لا نفهم أبداً إصرار بعض الباحثين على تخطى المبررات الحقيقة التى يقف عليها الفيلسوف بقدم ثابتة والقفز عليها والبحث عن مؤثرات غريبة أجنبية تنصدر عملية التفسير فى التزام الفيلسوف بموقف تفرضه عليه عقيدته الدينية التى لا ترى أى تعارض بين الدين والعقل .

إن الفكر الإسلامى الذى يستند إلى دين متوازن النظر إلى العقل والنقل لا

يصحح أن نلتبس له مؤثرات خارجة عن ذات هذا الفكر نفسرها بها اتجاهه نحو التوفيق بين الدين والفلسفة ، اللهم إلا إذا قيل : إن الأصول الإسلامية ذاتها قد تأثرت بهذه المؤثرات الأجنبية ، وهذه أيضاً دعوى لا تستند إلى دليل .

أما نظرية الطبقات الثلاث للأدلة البرهانية والجدلية والخطابية - وهي نظرية مرتبطة أيضاً بقضية التوفيق بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة الدينية - وزعم «جوتييه» بأنها إغريقية بحته كما أشرنا إلى ذلك في بداية هذا البحث - فهو زعم تنقصه الدقة . وقد فات «جوتييه» في هذا المقام أن يفرق بين أمرين : الشكل والمضمون . فمن حيث المضمون نجد أن ابن رشد قد اعتمد في عرضه لهذه القضية في كتابه «فصل المقام» على آية قرآنية صريحة في هذا الصدد تقول : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (١) .

وانطلاقاً من هذه الآية يقرر ابن رشد أنه : «لما كانت شريعتنا هذه الإلهية قد دعت الناس من هذه الطرق الثلاث عم التصديق بها كل إنسان إلا من يجحدّها عناداً بلسانه ، أو لم تتقرر عنده طرق الدعاء فيها إلى الله تعالى لإغفاله ذلك من نفسه» (٢) .

ومن هنا فلا مجال للقول بأن ابن رشد قد أخذ نظرية الطبقات الثلاث للأدلة البرهانية والجدلية والخطابية من الفلسفة الإغريقية ، ولكن الذي يمكن أن يقال هناك : إنه - على أكثر تقدير - قد استعار - في هذه النظرية - شكلاً يونانياً لمضمون إسلامي صريح .

(١) سورة النحل ١٢٥ .

(٢) فصل المقال لابن رشد ص ١٩ ضمن كتاب : فلسفة ابن رشد ، دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٨٢ .

ثانيا : الموقف المبدي لابن رشد فى قضية التوفيق بين الدين والفلسفة :

لقد بين ابن رشد فى بداية كتابة «فصل المقال» أن النظر فى كتب القدماء أمر واجب بالشرع ما دام الهدف الذى يقصدون إليه هو ذات المقصد الذى حثنا عليه الشرع وهو : النظر العقلى فى الموجودات وطلب معرفتها واعتبارها ، غير أن النظر فى كتب القدماء يتطلب عقلية نافذة لاتعتمد إلا ما يوافق الحق الذى جاء به الدين ، وفى ذلك يقول ابن رشد :

«ننظر فى الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه فى كتبهم ، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرناهم منه وعذرناهم»^(١) .

وقد كان ابن رشد على اقتناع تام بعدم وجود أى تناقض بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة الدينية ، وقد دافع عن اقتناعه هذا بكل ما يملك من قوة . ولم يشأ ابن رشد أن ينتقص من إحدى الحقيقتين لحساب الحقيقة الأخرى . ولذلك ظلت علاقة كل من الحقيقتين بالأخرى علاقة متزنة ترتفع فيها كل التناقضات .

فالحكمة كما يقول : «صاحبة الشريعة والأخت الرضية... وهما المصطبعتان بالطبع ، المتحابتان بالجواهر والغريزة»^(٢) .

وبناء على ذلك فإن إثارة أى نوع من أنواع العداوة بينهما إنما ترجع إلى أصحاب الأنفهام الفاسدة والاعتقادات المحرمة ، أو ترجع إلى الأصدقاء الجهال ، كما يؤكد ذلك ابن رشد نفسه فى «فصل المقال» .

ويسين ابن رشد أن الأقاويل الشرعية التى اشتمل عليها القرآن الكريم تمتاز بخصائص ثلاث تدل على إعجازها :

(١) المرجع السابق ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٨ .

«أحدها : أنه لا يوجد أتم إقناعاً وتصديقاً للجميع منها .

والثانية : أنها تقبل النصر بطبعها إلى أن تنتهى إلى حد لا يقف على التأويل فيها ، إن كانت مما فيه تأويل - إلا أهل البرهان .

والثالثة : أنها تتضمن التنبيه لأهل الحق على التأويل الحق» (١) .

ويعبر ابن رشد عما يشعر به من الحزن والألم بسبب : «ماتخلل هذه الشريعة من الأهواء الفاسدة والاعتقادات المخرفة... وبخاصة ما عرض من قبل من ينسب نفسه إلى الحكمة» (٢) .

كما يعبر - فى الوقت نفسه - عن أمله فى أن تتاح له فرصة مواتية يتفرغ فيها لهذا العمل الجليل الهام وهو : القضاء على سوء الفهم ، والكشف عن وجه الحق فى هذه القضية حتى لا يلقى سوء الفهم متوارثاً جيلاً بعد جيل .

وفى ذلك يقول :

«وبودنا لو تفرغنا لهذا المقصد ، وقدرنا عليه ، وإن أنسأ الله فى العمر فسئبث فيه قدر ما يسر لنا منه ، فعسى أن يكون ذلك مبدأ لمن يأتى بعد» (٣) .

قضية وجود الله :

وبناء على هذا الموقف المبدئى الذى عرضناه فى الفقرة السابقة يتأكد لنا أن ابن رشد قد انطلق من نفس هذا المبدأ وهو يطبق نظريته التوفيقية على قضية وجود الله بوصفها قضية إيمانية وفلسفية فى الوقت نفسه . فقد ناقش ابن رشد فى كتابه «مناهج الأدلة» الطرق التى استخدمها علماء الكلام للتدليل على هذه القضية ، وبين

(١) فصل المقال من ٣٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

أنه ليس من بينها طريقة واحدة تمثل فيها الطريقة الشرعية أو الطريقة العقلية السليمة^(١) . وبعد ذلك فصل ابن رشد القول في الطريقة الشرعية التي نبه إليها القرآن الكريم ، تلك الطريقة التي تمثل في الوقت نفسه الطريقة العقلية ، أى : طريقة الخواص من العلماء . وهذه الطريقة الشرعية تنحصر في جنسين :

«أحدهما : طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله . ولنسم هذه دليل العناية .

والطريقة الثانية: ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحسية والعقل ، ولنسم هذه دليل الاختراع»^(٢) .

وحين يبطل ابن رشد المناهج الكلامية والصوفية في الاستدلال على وجود الله ، ويعتبرها مناهج قاصرة عن الوفاء بمتطلبات الدليل العقل والشرعى ، فإن إبطاله هذا يتأسس أيضا على العقل والشرع معا . فهو حين يبطل - مثلا - طريقة الصوفية التي ترى أن المعرفة بالله وبغيره من الموجودات أمر يلقى في النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية ، وإقبالها بالفكرة على المطلوب ، اعتمادا على ظواهر بعض الآيات القرآنية ، يبين أن هذه الطريقة لو سلمنا جدلا بوجودها :

«ليست عامة للناس بما هم ناس ، ولو كانت هذه الطريقة هي المقصودة بالناس لبطلت طريقة النظر ، ولكان وجودها بالناس عبثا.. والقرآن كله إنما هو دعاء إلى النظر والاعتبار وتنبيه على طرق النظر»^(٣) .

ومن المعلوم أن الإنسان إنما يدرك الأشياء ويعرفها بطريقتين يؤديان إلى هذا الإدراك . فهو إما أن يدرك الأشياء بطريق مباشر : حسى أو عقلى ، وإما أن

(١) الكشف عن مناهج الأدلة - تحقيق د. محمود قاسم ، ص ١٤٩ «الأناجيل المصرية ١٩٦٩» .

(٢) المرجع السابق ص ١٥١ .

(٣) الكشف عن مناهج الأدلة ص ١٥٠ .

يدركها بطريق الاستنتاج والاستنباط ، وكلا الطريقتين عمل معرفى وعمل عقلى فى جوهره^(١) أما ماعدا ذلك من طرق المعرفة فإنها - كما يقول ابن رشد - ليست عامة للناس بما هم ناس :

«إن هاتين الطريقتين بأعيانهما طريقة الخواص ، وأعنى بالخواص العلماء ، وطريقة الجمهور ، وإنما الاختلاف فى المعرفتين فى التفصيل ، أعنى أن الجمهور يقتصرون من معرفة العناية والاختراع على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبينة على علم الحس . وأما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس ما يدرك بالبرهان ، أعنى من العناية والاختراع.. فهذه هى الطريقة الشرعية والطبيعية»^(٢) .

قانون التأويل :

وإذا كان العلماء أو الراسخون فى العلم هم الذين يزيدون على ما يدرك بالحس ما يدرك بالبرهان ، فإن الأمر هنا فى حاجة إلى ضوابط حتى لا يترك الأمر فوضى يدخل فيه من ليس من أهله . وهذا الأمر لم يغيب عن ذهن ابن رشد الذى يرجع حدوث الاضطراب الفكرى فى المجتمع الإسلامى وظهور الفرق الكلامية وتباينها وتكفير بعضها بعضا - إلى أنه قد تسلط على تأويل الشريعة :

ومن لم تتميز له هذه المواضع ، ولا تميز له الصنف من الناس الذين يجوز التأويل فى حقهم^(٣) .

وحتى يمكن وضع الأمور فى نصابها الصحيح ، وبالتالى وضع حد للفوضى الفكرية - التى تضاد الدين وتضاد الحكمة على السواء - فقد رأى ابن رشد أن

(١) مدخل إلى الفكر الفلسفى لبوخنيسكى ص ٢٣ وما بعدها ، ومن ترجمتنا لهذا الكتاب - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٠ .

(٢) الكشف عن مناهج الأدلة ص ١٥٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٢ .

يقن مسألة التأويل حتى تكون الحدود - فى هذا المجال - واضحة المعالم .

ومن أجل هذا الهدف ختم ابن رشد كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة» بوضع قانون للتأويل وضح فيه بالتفصيل «مايجوز من التأويل فى الشريعة وما لايجوز ، وماجاز فلمن يجوز»^(١) .

والخطوط العريضة لهذا القانون نجلها فيمايلي^(٢) :

إذا كان المعنى الذى صرح به الشرع هو عين المعنى الموجود بنفسه فإنه لايجوز فيه التأويل . واللجوء إلى تأويله يعد خطأ بلاشك كما يقول ابن رشد .

أما إن كان المعنى المصرح به فى الشرع ليس هو المعنى الموجود ، بل أخذ بدله على جهة التمثيل فهذا يندرج تحت أربعة أصناف على النحو التالي:

١- أن يكون المعنى الذى صرح الشرع بمثاله لايعلم وجوده إلا بمقاييس بعيدة مركبة لا تقبلها إلا القطر الفائقة .

وهذا الصنف تأويله خاص بالراسخين فى العلم ، ولايجوز التصريح به

لغيرهم.

(١) لا يخرج المبدأ الأساسى لقانون التأويل الذى وضعه ابن رشد - فى جملته - عما سبق أن قال به الغزالي - رغم ما يبدو من خلاف بينهما فى وجهات النظر فى أمور تفصيلية أخرى . قالغزالي - مثلاً- يقول : «فإن لنا معيارا فى التأويل وهو : أن مادل نظير العقل ودليله على بطلان ظاهره علمنا ضرورة أن المراد غير ذلك»نظر : فضائح الباطنية ص ٥٣ القاهرة ١٩٦٤ .

كما قسم الغزالي أصناف الناس فى فهمهم للحقائق إلى عوام وخواص ، وصنف للعوام مؤلفات تتناسب مع مداركهم التى لا تنطبق الخواص من تأويلات .

ومن ناحية أخرى اعتمد ابن رشد فى شرحه لقانون التأويل فى «مناهج الأدلة» على الغزالي ، وقد أشار إلى ذلك صراحة عندما تحدث عن الصنف الثالث الذى سنشير إليه فيما بعد حيث يقول : «والقانون فى هذا النظر هو ماسلكه أبو حامد فى كتاب التفرقة ، وذلك بأن يعرف هذا الصنف أن الشيء الواحد يعينه له وجودات خمس : الوجود الذى يسميه أبو حامد الذاتى والحسى والخيالى

والعقلى والتشبهى .. إلخ» مناهج الأدلة ص ١٤٠ «ضمن : فلسفة ابن رشد» بيروت ١٩٨٢ .

(٢) مناهج الأدلة ص ١٣٩ وما بعدها ، راجع أيضا مايقوله عن التأويل فى فصل المقال ص ١٩ وما بعدها .

٢- أن يكون المعنى الذى صرح الشرع بمثاله يعلم منه بعلم قريب الأمران معا: «أعنى كون ماصرح به أنه مثال ولماذا هو مثال»

وهذا الصنف يقتضى التأويل «فتأويله هو المقصود منه والتصريح به واجب» .

٣- أن يكون المعنى الذى صرح الشرع بمثاله يعلم بعلم قريب أنه مثال لشيء، ويعلم بعلم بعيد لماذا هو مثال .

والتمثيل فى هذا الصنف - كما يشير ابن رشد - قد جاء بتحريك النفوس إليه لا من أجل بعده على أفهام الجمهور ، ويضرب مثالا لذلك فيقول :

«وهذا مثل قوله عليه السلام : «الحجر الأسود يمين الله فى الأرض» وغيره مما أشبه هذا مما يعلم بنفسه أو بعلم قريب أنه مثال ويعلم بعلم بعيد لماذا هو مثال» .

وهذا الصنف يجب أن يقتصر تأويله على الخواص والعلماء .

٤- أن يكون المعنى الذى صرح الشرع بمثاله يعلم بعلم قريب لماذا هو مثال ، ويعلم بعلم بعيد أنه مثال .

وهذا الصنف فى تأويله نظر إذ يحتمل التأويل وعدم التأويل بحسب الأحوال.

منزلة الدين من الفلسفة :

إن استقراء نصوص ابن رشد سواء فى «فصل المقال» أو فى «مناهج الأدلة» أو فى «تهافت التهافت» يكشف فى وضوح أن ابن رشد لم يحاول إعلاء الفلسفة على الدين أو العكس ، بل حاول بيان ما بين الشريعة والحكمة من اتفاق واتساق ، وبالتالي بيان أنه لا تناقض بينهما ألته .

وقد دمج ابن رشد محاولة الغزالى للانتقاص من الفلسفة بأنها محاولة خاطئة، ولذلك نراه بعد أن يفرغ من مناقشة آراء الغزالى يقول عنه فى نهاية كتابه «تهافت التهافت» :

«ولاشك أن هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما أخطأ على الحكمة» (١).

ويذهب «جويته» إلى القول بأن ابن رشد يرى أن الفلسفة والديانة ليستا متساويتين ، فموضع الأولى من الثانية هو موضع الصفوة من الشعب ، والفكرة النقية من رمزا المادى ، وهذا هو الذى حمله على أن يؤول النصوص الدينية فى حالة اختلافها مع الفلسفة ليتحقق التوفيق بينهما . ويذهب جويته أيضا إلى القول بأن كتاب «فصل المقال» يجعل الدين تابعا للفلسفة تبعية تامة (٢).

ولكن الأمر فى الواقع ليس كذلك . فالحقيقة - دينية كانت أم فلسفية - يدركها الجمهور بالقدر الذى تطيقه مداركهم ، ومن غير المعقول أن نطلب منهم مستوى فى المعرفة لا يكون فى مقدورهم . أما الخواص فهم يدركون هذه الحقيقة بالبرهان الذى يستطيعونه ويقدررون عليه . فالحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية كلاهما وجهان لعملة واحدة ، وكل يدركها على قدر استطاعته . والحقيقة الدينية تتسع لكلا الفريقين ، إذ أن الدين للجمهور وللخواص على حد سواء .

فالأمر هنا ليس أكثر من مراعاة الحال أو مراعاة اختلاف الطاقات والقدرات . ويؤيد ذلك حديث شريف يقول :
«حدثوا الناس بما يعرفون» (٣).

وينطبق ذلك على كلا الفريقين . ولنفس السبب أيضا لم ينكر النبى ﷺ قول المرأة التى قالت : «إن الله فى السماء» عندما سألها : أين الله؟ (٤) وذلك لأن قوة إدراكها لم تكن تتسع لأكثر من ذلك .

-
- (١) تهاقت التهاقت - ج ٢ ص ٨٧٤ ، تحقيق د . سليمان دنيا - دار المعارف ١٩٦٥ .
(٢) المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ص ١٩٠ ، انظر أيضا : د . محمد غلاب : الفلسفة الإسلامية فى المغرب ص ١٢٦ حيث يوافق جويته فيما ذهب إليه .
(٣) رواه البخارى . وقد استشهد ابن رشد بهذا الحديث فى «فصل المقال» ص ٢١ .
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٥ ص ٢٤ - دار إحياء التراث العربى - بيروت .

وما يقوله ابن رشد فى أمر العلاقة الوثيقة بين الحكمة والشرعية يقوله أغلب الفلاسفة المسلمين .

وقد أكد رينان هذه الحقيقة بقوله : «إن رايه فيما بين الحكمة والشرعية من الاتصال قد جهر بمثله معظم فلاسفه العرب»^(١) .

خاتمة :

ومن الأمانة فى القول أن نقرر هنا فى ختام هذا البحث أن هناك عددا من الباحثين قد أنصف ابن رشد ، وفرق بين رأى الحقيقى لابن رشد والرأى الذى ذهب إليه الرشدية اللاتينية ، ومن هؤلاء المنصفين «هنرى كوربان» الذى يقول :

«لقد كان من الإفراط فى الرأى أن ينسب لابن رشد نفسه القول بوجود حقيقتين متعارضتين ، وأن المذهب الشهير القائل بحقيقة مزدوجة كان بالفعل من نسج الرشدية اللاتينية السياسية»^(٢) .

وهكذا فإن مايدو أحيانا من تعارض بين الحقيقتين الدينية والفلسفية ليس تناقضا فى حقيقة الأمر «فالحق - كما يقول ابن رشد - لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له»^(٣) الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية شىء واحد يختلف فى العبارة ولا يختلف فى الجوهر .

ولذا كانت الفلسفة تبحث ماجاء به الشرع ، فليس معنى ذلك أنها وصية عليه أو أن لها سلطانا أعلى من سلطان الدين ، ولم يعرف لابن رشد قول فى هذا المعنى على الإطلاق . ودليلنا على ذلك مايقوله ابن رشد نفسه فى كتابه «تهافت التهافت» حول هذا الموضوع : «الفلسفة تفحص عن كل ماجاء فى الشرع فإن

(١) رينان : ابن رشد والرشدية ص ١٧٨ .

(٢) هنرى كوربان : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٣٦٢ - ترجمة نصير مروة ، بيروت ١٩٦٦ .

(٣) فصل المقال ص ١٩ .

أدركته استوى الإدراك كان وكان ذلك أتم في المعرفة ، وإن لم تدركه أعلمت بقصور العقل الإنساني عنه ، وأن يدركه الشرع فقط^(١) .

ومن هؤلاء المنصفين لابن رشد أيضا هرشبرجر^(٢) Hirschberger الذي أكد أن ابن رشد في دفاعه عن حق العقل لم يكن يريد زحزحة الدين عن مكانه لصالح الفلسفة . وحول هذا المعنى يقول هرشبرجر : «لقد دافع ابن رشد عن حق العقل في كتابه تهافت التهافت ، وكانت فكرته الأساسية في هذا الصدد تتمثل في أن الفلسفة لا تريد أن تزحزح الدين عن مكانه ، فكلاهما يبحث عن الحقيقة ، وكلاهما يرى الحقيقة ، غير أن كلا منهما يفعل ذلك بطريقة الخاصة ، ولم تكن تلك هي نظرية الرشديين المتأخرين في الحقيقة المزدوجة . وذلك لأن ابن رشد يذهب إلى أن الاختلاف «بين الدين والفلسفة» لا يعدو أن يكون اختلافا لفظيا فحسب وليس اختلافا موضوعيا ، في حين يذهب الرشديون إلى أنه لا مجال للمقارنة بين الأهداف التي يتخذها لنفسه كل من الدين والفلسفة»^(٣) .

وهذا التطابق الذي تمخضت عنه فلسفة ابن رشد في نظراته إلى العلاقة بين الدين والفلسفة قد انهار في الغرب بكل أبعاده . وهذه حقيقة يؤكدتها أحد الباحثين الغربيين . وفي رأى هذا الباحث أن التناقض بين الحقيقتين الدينية والفلسفية لا يرجع إلى ابن رشد بشكل مباشر ، وإنما يرجع أساسا إلى التناقض القائم بين فلسفة أرسطو من جانب وحقائق الديانة المسيحية من جانب آخر . ويقرر هذا الباحث :

«أن الأرسطيين المتطرفين بكلية الآداب في باريس في القرن الثالث عشر قد شعروا بالتناقض بين النسق الأرسطي - الذي تلقوه على وجه لازيف فيه عن طريق ابن رشد - وحقائق العقيدة المسيحية الموصى بها - لقد شعروا بهذا التناقض

(١) تهافت التهافت «نقلا عن : ابن رشد لمباس العقاد ص ٤٦ من سلسلة نوايغ الفكر العربي» .

(٢) من مؤرخي الفلسفة الألمان المعاصرين ، ومؤلفاته الفلسفية موضع احترام وتقدير من الأوساط العلمية .

(٣) Hirschberger, J: Geschichte der Philosophie, Bd. 1.P. 428, Freiburg - Wien 1962 .

بطريقة أكثر حدة مما رآه ابن رشد إزاء الوحي القرآني فاستعانوا بدعوى الحقيقة المزوجة^(١) .

ومما تقدم نستطيع أن نقرر - في ثقة - أن ابن رشد برىء من القول بالحقيقة المزوجة ، وبرىء من دعوى الإلحاد التي ألصقها به العصر الوسيط في أوروبا ، وبرىء من دعوى التناقض بين الحقيقتين الدينية والفلسفية ، وبرىء من دعوى رفع الفلسفة إلى منزلة أعلى من منزلة الدين .



(1) Fischer - Lexikon : P. 137, Frankfurt / M., 1963 .

مجموعۃ الصُورُ التذکاريّة



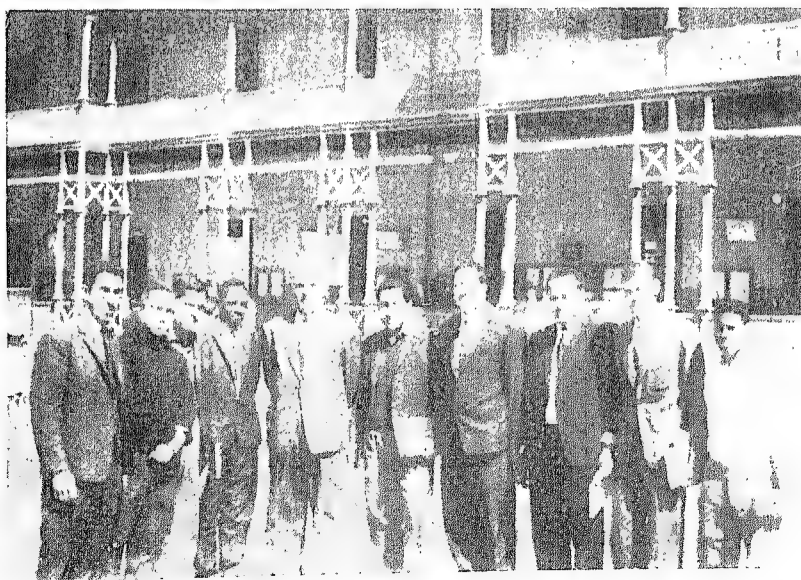
بعد إعلان نتيجة مناقشة علمية بدار العلوم



بعد ندوة لأحد المستشرقين ، وإلى يساره د. عبد الرحمن أيوب



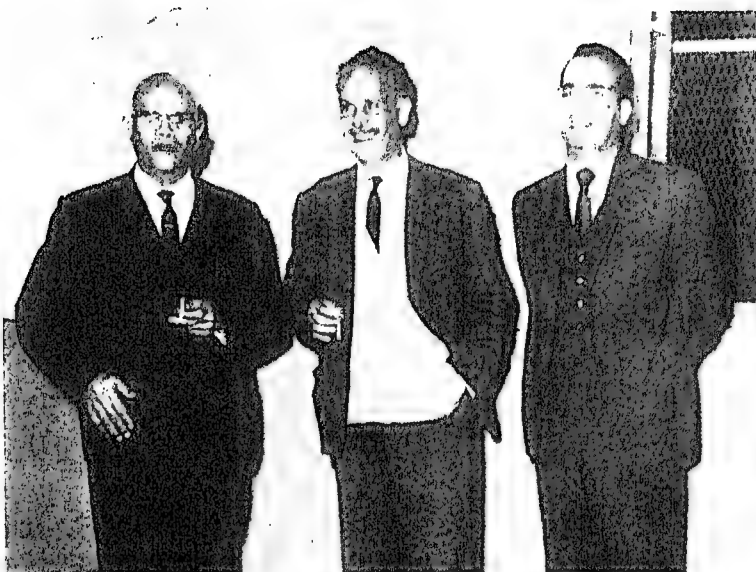
في مناقشة علمية بين د. إبراهيم مذكور و د. يحيى هويدي



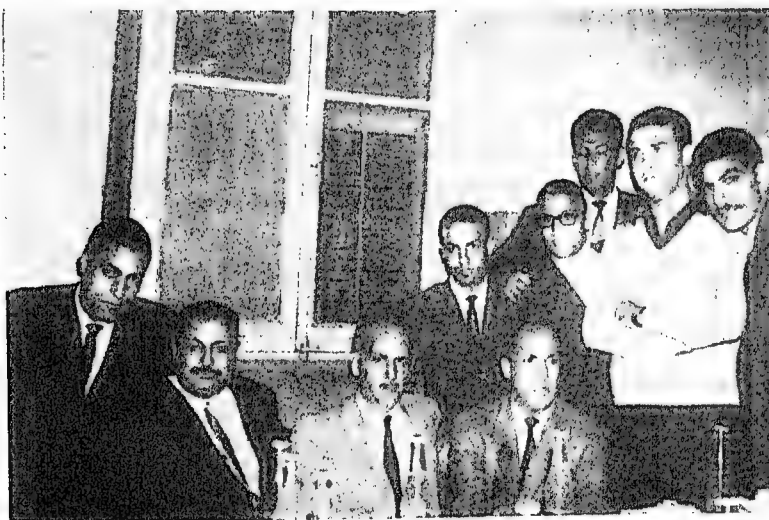
يتوسط بعض الطلاب والمعيدين بدار العلوم ، وظهر بوضوح مبناها القديم بحى المنيرة

A grainy, black and white photograph of three men in suits. One man is standing on the left, speaking into a microphone. Two other men are seated to his right, looking towards the camera. A star is visible on the wall behind them.

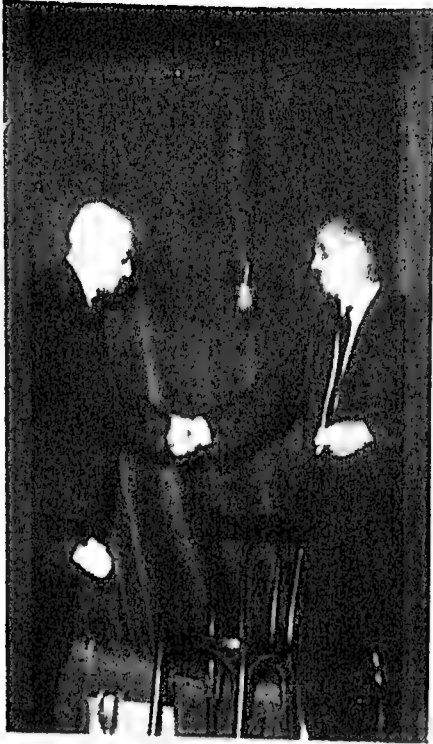
[illegible]



بين المرحوم عمر الدسوقي ، د. الطاهر مكي



بين د. محمود الربيعي ، د. إبراهيم العدوي ، وحولهم بعض طلاب دار العلوم



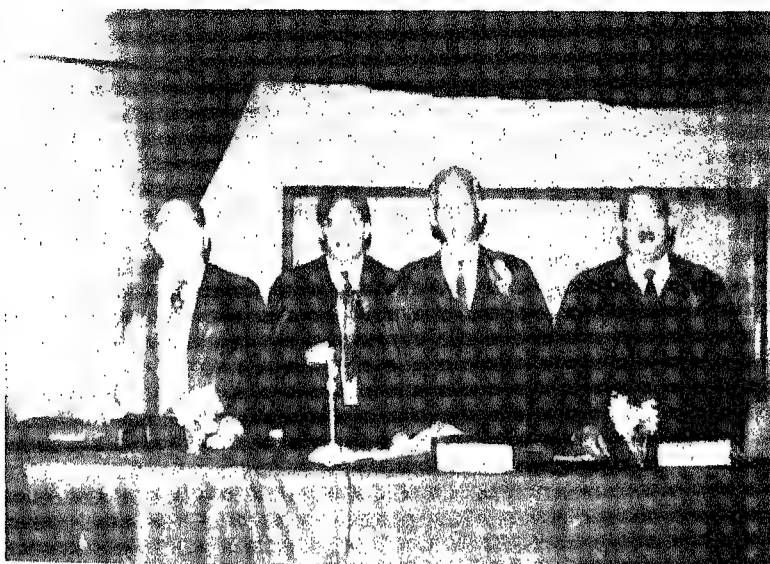
الصورة التذكارية التي توجد حاليا
بمكتب عميد دار العلوم . جامعة القاهرة



في أحد مهرجانات دار العلوم الشعرية ، يصافح الشاعر الكبير المرحوم علي الجندي



في أحد مهرجانات دار العلوم ، وإلى يساره د. السعيد بدوي



بعد مناقشة علمية بين المرحوم عثمان أمين ، د. حامد طاهر ، د. أبو الفتازاني



يعلن نتيجة مناقشة علمية ، بين المرحوم علي النشار ، د. يحيى هويدى



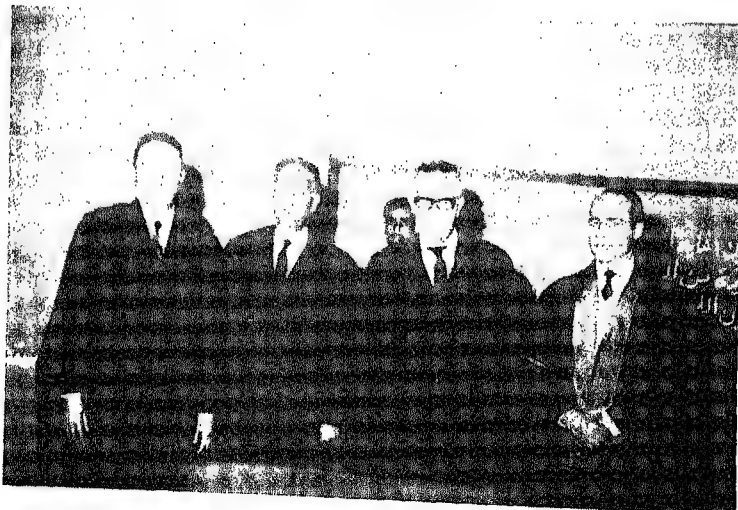
إلى يساره الشاعر الكبير فاروق شوشة ، ثم المرحوم د. أحمد الحوفى ،
د. أحمد هيكل ، وإلى يمينه المرحوم محمد هنداوى



بتاريخ ١٨/١٢/١٩٦٣ بمناسبة إهداء ١٤٠٠ كتاب من مكتبة الطالب بدار العلوم
إلى الجمهورية الجزائرية



في لحظة إنسانية باسمه



بعد مناقشة علمية بين د. يحيى هويدى ، د. إبراهيم مذكور ، د. حسن الشافعى

قائمة التكریم

Tabula Gratulatoria

الأب الدكتور چاك چومييه
الأب الدكتور چورچ قنواتي
الأستاذ الدكتور عاطف العراقي
الأستاذ الدكتور عبد الحميد صبرة
الأستاذ الدكتور عثمان يحيى
الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا
الأستاذ الدكتور محسن مهدي
الأستاذ الدكتور محمود زيدان
الأستاذ الدكتور يحيى هويدي

* رجبت هذه الشخصيات بصدور الكتاب التذكاري عن محمود قاسم ، ونظراً لعدم تمكنهم من المشاركة الفعلية ، فقد أثبتنا أسماءهم في هذه القائمة .

محتويات الكتاب

القسم الأول : الرجل وأعماله

٥	تصدير
١٠	كلمة زوجته
١٣	حياته فى مطور
١٧	إنتاجه العلمى

القسم الثانى : نماذج من كتاباته

٦١	الفلسفة الإسلامية : منهجها واتجاهاتها
٨١	الأفكار المتشابهة لدى ابن عربى وليبنز
١٠١	المنطق الحديث ومناهج البحث

القسم الثالث : محمود قاسم كما عرفته

١٠٧	إبراهيم مذكور	محمود قاسم
١٠٩	حامد طاهر	محمود قاسم : الصورة من قريب
١٢٣	حمدى السكوت	محمود قاسم كما عرفته
١٢٧	السعيد بدوى	صورة البطل : أستاذا فى الجامعة
١٥٣	السيد محمد بدوى	ذكرياتى مع محمود قاسم
١٦١	الطاهر أحمد مكى	ذكريات عنه : إنساناً وأستاذا وعميدا
١٧٩	فاروق شوشة	محمود قاسم : المعنى والرمز والموقف
١٨٩	محمود الربيعى	نعيش ونتذكر ونتعلم

القسم الرابع : دراسات فى فكر محمود قاسم

- العقل والإصلاح عند محمود قاسم حسن حنفى ١٩٩
 محمود قاسم والدراسات الكلامية فى مصر حسن الشافعى ٢٣٥
 النهضة الإسلامية فى فكر محمود قاسم عبد الحميد مذكور ٢٦٧
 محمود قاسم فى صحبة ابن رشد محمد السيد الجليند ٣١١
 محمود قاسم ونموذج ابن باديس مصطفى حلمى ٣٣٩

القسم الخامس : الدراسات المهداة إليه

- أثر التصوف الإسلامى على علاج بعض أزومات النفس أبو الوفا التفتازانى ٣٥٧
 – دراسة نقدية لبعض المشكلات الكلامية (من منظور لغوى) أحمد محمد صبحى ٣٧٣
 – الخيال والإبداع الفكرى الإسلامى أميره حلمى مطر ٣٩٥
 – عمر بن الفارض وحياته الصوفية (من خلال قصيدته الثائية الكبرى) جوزيف سكاتولين ٤٠٥
 – إخوان الصفا وخلان الوفا سعيد زابيد ٤٣٩
 – المنهج العلمى التجريبي (من خلال مؤلفاته فى الطب) عمار الطالبي ٤٥٧
 – مفهوم العدل والتربية عند أفلاطون فتح الله خليف ٤٨٩
 – الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية عند ابن رشد محمود زقزوق ٥٠٩
 مجموعة الصور التذكارية ٥٢٩
 قائمة التكريم ٥٤٥

رقم الإيداع بدار الكتب
١٩٩٢/٢٩٢٤
I.S.B.N. 977-05-1181-1
مطبعة العمرانية للأوفست
الجيزة ت ٥٣٧٥٥

من زوجة محمود قاسم

وافقت بمزيد من الفرحة والعرفان على أن أتعاون ، على نحو متواضع جدا ، فى تكريم محمود قاسم ، زوجى طيلة ٣٣ عاما .

التقينا فى الجامعة حيث كنا ندرس الفلسفة ، تلك الفلسفة التى جمعتنا ، والتى شكلت محور حياة محمود قاسم الخاصة والعامة ، وإن اختلف الأمر بالنسبة لى حيث تفرغت لمهامى كزوجة وأم ، ولم أتمكن من المضى فى الدراسة .

وأشهد أن الطالب الذى تعرفت عليه فى ١٩٤٠ ، قد توفى فى ١٩٧٣ دون أن يكف لحظة واحدة عن البحث فى «حقل الفلسفة الإسلامية ولم ينضب فضوله بشأن تيارات الثقافة العربية المختلفة وتأثيرها على الحضارة الغربية .

وانى أشعر بالندم - وأحيانا بالذنب - لعدم تمكنى من العمل بشكل فعال على إحياء فكر وأعمال محمود قاسم . ولهذا ؛ فأنا مدينة للمجموعة التى تشكلت تلقائيا لإعادة تسليط الأضواء على فكر زوجى ، ولإحياء ذكره أمام الأجيال القادمة .

وأعضاء تلك المجموعة وجوه ليست بغريبة عنى ؛ عرفتهم طلبة ، فزملاء ، ثم بدورهم مرشدين للعقول الشابة . واعتقد أن هذا الاحتفال بمرور ٢٠ عاما على وفاة أحد أساتذتهم يأخذ مغزاه الخاص فى ظروف التخطيط الفكرى التى تسود العالم اليوم . وأتمنى أن يعمل هذا الكتاب على إحياء الأمل فى قلوب قرائه ، وأن يعاونهم فى المضى قدما وسط عصر أصم لا يكثر كثيرا بالقضايا الفكرية .

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

